

الدكتور استيفان بنديك

الإنسان... والمجنون

مذكرات طبيب أمراض عقلية

ترجمة:

الدكتور قذري هفني

دكتوراه في علم النفس

لطيف فطيم

ماجستير في علم النفس

مراجعة وتقديم:

الدكتور أحمد عطاشة

أستاذ الطب النفسي المساعد بكلية الطب بجامعة عين شمس

دار الطليعة للطباعة والنشر

بيروت

هذه هي الترجمة العربية لكتاب

**Benedek, Istvan The Gilded Cage,
Corvina Press, Budapest, 1965**

تصدير

ان اختيار هذا الكتاب لترجمته الى اللغة العربية كان اختيارا موفقا حقا لان المكتبة العربية ينقصها هذا النوع من الدراسات التي تجمع بين العلم والانسانية في موضوع شائق يتعلق بتفكير وعواطف وسلوك الانسان . لقد كان سلوك الانسان - ولا يزال - مجالا للبحث بين رجال الدين ، والفلسفة ، والاجتماع ، واخيرا علماء النفس ، وما زالت الابحاث جارية في كيفية معالجة نفس الانسان ، هل تعالج بطرق موضوعية وبمعادلات حسابية كباقي الامراض العضوية ام هي شيء غيبي يحتاج للفراسة والمتاهات المختلفة لدراساتها ، وما زالت مدارس الطب النفسي مختلفة في سببية الامراض النفسية والعقلية ، هل هي ضعف وراثي في الجهاز العصبي ؟ هل هي تغيرات فسيولوجية وكيميائية في مراكز المخ المختلفة ؟ هل هي آثار صدمات نفسية في الطفولة ؟ هل تنشأ من علاقة الطفل بأبويه ؟ هل هي عدم تكيف بين قدرات الفرد وتطلعاته . ولكن يتفق الجميع في ان اسباب واستمرار مرض النفس والعقل له علاقة واضحة ومباشرة بعلاقة الفرد والمجتمع او كما سماه المؤلف علاقة الفرد بالعالم وإحساسه بذاتته المفقودة ، وصراعاته المختلفة لكي يحصل على ما يصبو اليه .

لقد مر الطب النفسي بعدة مراحل من شعوذة ، ودجل ، ونظريات شبه علمية ، وتفسيرات اجتهدادية حتى دخل حظيرة التجربة العلمية في هذا القرن ، ولقد شرح المؤلف حالة مرضى النفس والعقل وكيفية تعذيبهم ورجمهم في القرون السابقة ، والدور الذي قام به مع الآخرين من رواد الطب النفسي في اقتلاع الظلم ، وتخفيف القيود ، واعتبار هؤلاء المرضى على درجة عالية من الحساسية والفهم والاستعداد للتوافق مع المجتمع في حالة قبولهم كأفراد ومواطنين فسي هذا المجتمع .

ان نجاح المؤلف في سرد تاريخ الطب النفسي والعقلي بهذه الطريقة المبسطة وإعطاء الامثلة من مرضاه تعكس شفافية هذا الطبيب ، وقدراته الانسانية الفائقة ، لان تعمق الانسان في فهم اخيه الانسان لهو اسمى أنواع الدراسات ، ويستحق اعطائه كل طاقات الفرد .

وهكذا نرى اثناء قراءتنا الكتاب تطور العلاج من التعذيب والضرب وحمامات الماء البارد والساخن ، ومطاردة المرضى الى صدمات الانسولين الى صدمات الكهرباء المباشرة ثم الى جلسات الكهرباء تحت التخدير ، واخيرا العقاقير الكيميائية المضادة للفصام والاكتئاب والهوس والقلق والادمان ... الخ وكذلك العلاج النفسي الانساني للمرضى ، القائم على تفهم مشاكل المريض وصراعاته في حياته مع المجتمع الخاص والعام .

يتعجب الكثير من المرضى عندما يسمعون عن علاج الامراض النفسية والعقلية بالعقاقير الكيميائية ظنا منهم ان النفس شيء غير مرئي لا يمكن معالجته بالادوية . ولكن اذا نظرنا للموضوع نظرة مادية فسنجد ان النفس ما هي الا الوظائف العليا للجهاز العصبي وما هي الا مجموعة من الوظائف التي تشمل العاطفة والتفكير والسلوك والشخصية ومركز هذه الوظائف في المخ الذي يعمل من خلال موجات كهربائية دقيقة ، وتفاعلات كيميائية في غاية التعقيد . وأن اي اضطراب في هذه الكيميائية سيؤدي بالتالي الى خلل في الوظائف الخاصة به ، وهنا ينشأ المرض النفسي والعقلي ، وهذا لا يعني اهمال الجانب الانساني لان العوامل البيئية والاجتماعية والصدمات النفسية لها تأثيرها الفسيولوجي الواضح على الجهاز العصبي وهذا بالتالي له تأثيره على تعامل الفرد مع المجتمع ومن هنا تنشأ الدائرة المفرغة ، هل نعالج اولاً الاضطرابات الكيميائية لكي تستقيم وظائف الجهاز العصبي وبعدها نتكيف الشخصية مع الظروف الخارجية ؟ أم نعالج اولاً الشخصية بحيث يترتب على تقويمها احداث التغيرات الكيميائية الصالحة أم نعالج الاثنين في نفس الوقت ؟ وهذا هو الراي الشائع الان . لقد وضع في الاحصائيات العالمية أن اكثر من ثلث المرضى المترددين على الاطباء في كافة تخصصاتهم يشكون من أعراض عضوية سببها الرئيسي عوامل نفسية . وأن عشرين من كل مائة يولدون سيصابون في فترة ما اثناء حياتهم بمرض نفسي او عقلي . ان هذه الاحصائيات تعكس أهمية الطب النفسي في خدمة البشرية وسعادة العالم .

ولعله قد اتضح للقارئ أهمية ان يعيش الطبيب النفسي - على الاقل في بدء تمرينه - مع مرضاه في مستشفى واحد حتى يلم بكل انفعالاتهم وخلجاتهم ويستطيع ان يكون معهم ليل نهار ، وأعتقد انه يجب على الطبيب النفسي أن يعمل كطبيب مقيم في إحدى المصحات النفسية فترة لا تقل عن ثلاث سنوات حتى يستطيع أن يتابع مرضاه ويكون فكره الخاص ونظريته في العلاج على اساس عملي ، وخبرة واضحة بالمرضى ، فالطب النفسي من الفروع التي يحتاج فيها الطبيب الى الخبرة والحياة مع المرضى ، ولا يمكن تعلم ذلك من المراجع والكتب

المختلفة ، ان الطبيب النفسي يكتسب ويصقل انسانيته من مرضاه ، ويتعلم ان مريض النفس والعقل لديه المقدرة على تبادل العاطفة والسلوك السوي ان اعطاه الطبيب القدر الكافي من الفهم والتقدير .

ان ترجمة هذا الكتاب عمل انساني يخدم قضية كانت مهملة حتى وقت قريب وهي العناية بعلاج مرضى النفوس والعقول ، وكيفية تأهيلهم للعودة للحياة العامة وممارسة حقوقهم كمواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات .
واخيرا فاني أهنيء المترجمين على دقتهما في ترجمة هذا الكتاب بهذا الاسلوب العلمي الرصين ، الذي يجذب القارئ للحياة بعض الوقت مع مرضى النفس والعقل .

دكتور

أحمد عكاشة

مقدمة المؤلف

لقد شرعت في كتابة هذا الكتاب كمذكرات يومية ، ولعل ذلك هو السبب في انه لم يتخذ «نمطاً محدداً» . فهو ليس رواية ، رغم أن أجزاء كثيرة منه تبدو كما لو كانت كذلك . وهو ليس مؤلفاً علمياً صرفاً ، رغم أن بعض الاستطرادات المتخصصة التي قد تثير امتعاض القارئ العادي قد وجدت طريقها اليه ، ورغم أن بعض الزملاء من الأطباء قد يدهشهم نشرهم مهترقاتي المهنية في صورة أدبية . وهو ليس من الكتب العلمية البسيطة ايضاً ، فمثل تلك الكتب انما تقوم بتعليم ما هو مقبول رسمياً بلغة ميسورة وهو في النهاية لا يمكن اعتباره مذكرات يومية ، لان تاريخنا الشخصي قد تضاعف الى جانب تاريخ المرضى بحيث شكل تاريخهم الجانب الأكبر منه .

وتعد الكتابة عن مرضى العقول او عن الاختلال العقلي من الامور الحساسة دائماً . فالقراء يتناولونها برهبة ، او يتوقعون منها اكتشافات مفاجئة فالموضوع مثير للتشويق والفزع معا فضلا عن انه محاط بسرية غير طبيعية . ويعتقد من لا يعرفون المختل عقلياً اعتقاداً جازماً بأن «الشخص المجنون» ليس بإنسان . والهدف الرئيسي من هذا الكتاب هو الكشف عن مدى إنسانيته . وبالتالي حاجته الى معالجة انسانية . لقد كان المجتمع بالغ القسوة بالنسبة لهم لعدة آلاف من السنين واني اعتبر مهمتي هي أن أوضح للناس انه ليس من حقهم نبذ الشخص المختل عقلياً ، فاختلال العقل كارثة يمكن أن تحدث لأي منا . وواجبنا المشترك هو أن نحاربها ، وان نخفف بالعلاج الانساني من عبء أولئك الذين حلت بهم الكارثة . ومنطق المجتمع عموماً هو أننا ينبغي أن نلقي بهؤلاء الافراد سيئ الحظ بعيداً في أي مكان حتى لا يمزقوا نياط قلوبنا ... وليست هناك انسانية أكثر زيفاً من هذه . ان الخوف والكرهية لا يمكن ان يؤديا الى تحسين الموقف بأي حال . واتعشم ان أوضح انه ليس هناك ثمة سبب للخوف او الكراهية . ان الشفقة

والشفف بالمعرفة او الرغبة في المساعدة او النظرة الواقعية البسيطة ، كل ذلك يعد اسهاما اكثر انسانية من الخوف . وطالما ان أفراد المجتمع يجاهدون من اجل الحصول على المزيد من المعرفة ، فان عليهم مواجهة حقيقة الاختلال العقلي والإلام بحياة المختل عقليا . كما يجب عليهم اطلاق سراح المختل عقليا وتحريره عما بنفسه من فزع خرافي . وسوف يدهش الجميع عند اكتشاف ان نزلاء المصحات العقلية هم من البشر ايضا وانهم أناس محتقرون ومنبوذون ، ولكنهم يودون ان يحياوا الحياة التي تلائم الكائنات الانسانية .

ويتناول كتاب «قفص من ذهب» تلك السنوات الثلاث التي قضيناها في صراع مع نزلاء احدى المصحات العقلية ومن اجلهم . كان علينا أن نحارب على كافة أنواع الجبهات ، في الداخل وفي الخارج معا ، ضد الرياء الاجتماعي ، وضد الصعوبات البيروقراطية والاقتصادية ، وضد الجهل والقسوة لدى القائمين بالتمريض ، وضد المرضى أنفسهم ، وضد التحيزات العلمية ، والمخاوف الخرافية لدى العامة ، وضد غيرة الزملاء .

ومثل ذلك الصراع ليس بالامر السهل ولست أدعي اننا حققنا نجاحا كاملا ، ولا احاول أن اجعل القارئ يظن انني قاتلت دون ان تخور قواي ابدا ، فلقد كانت هناك سلسلة من التقدم والتقهقر المتبادل ، وكثيرا ما كنت أشعر بالخذلان وبالرغبة في التسليم ، ثم أعاد الهجوم متقدما بعد ان أستجمع قواي من جديد . لقد حققنا الشيء الكثير بلا شك في تلك السنوات الثلاث . ومن المؤكد ايضا أن ما أبدعناه قد اتينا به من الناحية العملية - من لا شيء ، ولم يكن نقص المادة اساسا هو الامر الذي يصعب التغلب عليه بل كانت الروح السلبية .

هل تستحيل الكتابة عن هذا الموضوع الحساس دون إثارة تحيزات اجتماعية؟ ليست لديّ إجابة على هذا السؤال سوى الإقدام على المحاولة فحسب . لقد تحاشيت الأغراق في الاصطلاحات الفنية ولكنني لم أستطع المضي دون بعض الشرح العلمي . ويتطلب ذلك بالطبع استخدام بعض المصطلحات الفنية . ان كل من يحصل على قدر متوسط من التعليم في حضارتنا تكون لديه الى حد ما لمحة عن النسبية ، والنواة الذرية ، وأصول الانواع ، والبنسلين ، وعن الكثير مما يشبه ذلك . افلا يجب ان نتوقع منه ايضا أن يعرف شيئا ما عن الفصام ، وعن الصرع، وعن مرضى العقول كيف يعيشون وكيف يعالجون ، وعن المشكلات المتعلقة برد اعتبارهم ؟ ان ذلك امر مرغوب فيه بالتأكيد .

وهناك من ناحية اخرى خطر يحيط بهذا «الموضوع الحساس» ، وهو ان ما به أحيانا من عدم لياقة قد يغري المؤلف باصطناع النتائج . ولقد حاولت تحاشي هذا المنزلق ، ولم يكن ذلك بمجرد تغيير كافة الاسماء - وهو ما التزمت به - ولكن اساسا بعدم ذكر اي شيء سوى الحقيقة . فلم أزوق او أشوّه اي شيء ولم أخف النجاح ولا الفشل ، ولم أزيّف اية احصاءات ، ولم أشر بأية مناهج «معصومة» ولم أبع سمكا في ماء . هذا هو ما لاحظته ، واكتشفته ، وتعلمته : أقدمه ليستطيع الآخرون ان يتعلموا منه ايضا .

كثيرا ما أسأل عما اذا كانت طريقة «قفص من ذهب» يمكن ان تطبق ايضا على «الشخص المجنون حقا» وما زلت اؤكد اننا قد طبقناها على اناس مختلي العقل بالفعل ، وانه يمكن القيام بذلك ايضا في المستقبل .

ان بيت القصيد هو اننا قد حاولنا في مصحة عقلية «تجريبية» ان نشفي وندرب المختل عقليا بالعمل وبالحرية وبالمعاملة الطيبة وبالبيئة الانسانية . وقد نجحت التجربة . واجد من الضروري الاشارة الى هذا الان لان تلك الطريقة قد تساعد على جعل حياة الكثيرين من المرضى الآخرين في المستشفيات حياة جديرة بالآدميين مما يعيد اليهم اعتبارهم الانساني ، وسلامة فكرهم ، ولذة حياتهم . وقد تساعد ايضا على تحرير المجتمع من ذلك الدين المخجل . فالفائدة المعنوية لعملنا تفوق اي فوائد مادية تتحقق بالتحديد من كون بعض المرضى يصبحون منتجين . وليس العلاج البيئي والعلاج بالعمل دواء لكل داء ، فهما لا يشفيا كل مريض عقلي ، ولكنهما يخلقان بالفعل - حتى لأولئك الذين لا يشفون - حياة جديرة بالآدميين . وهذا هدف يستحق الصراع من اجله .

مقدمة للطبعة الانجليزية

أود أن أقدم للقارئ بالانجليزية تفسيرا موجزا للسبب الذي جعلني كطبيب اكتب وصفا روائيا لمستشفى حقيقي . ان الحقيقة أغرب من الخيال فعلا . فالصورة او الرسم الذي لا يلتزم الواقعية الصارمة قد يجعل الغروب - مثلا - يبدو مبهرجا ومثيرا للعواطف ، ولذلك فعلى الكاتب ان يقيد قلمه بالواقع الواضح خوفا من ان تبدو الحقيقة زائفة . وذلك هو الجهد الوحيد الذي كان على القيام به، حيث ان القصة نفسها كانت مدعمة بالواقع الحي . ولقد كتبت بالفعل - شأني شأن غيري من المؤلفين - الكثير من القصص المخترعة التي أحسست بصدقها بمجرد أن كتبتها . وكنت اشعر حينذاك بإغراء فكرة وصف الحياة الواقعية بطريقة تجعل الحديث الواقعي فريسة لعمليات الخلق الفني .

كانت تلك هي الصورة التي يبدو عليها عملي للمؤلف في داخلي ، اما بالنسبة للطبيب فان الصورة تتخذ شكلا مختلفا تماما . ففي تلك المصححة العقلية الغريبة التي دفعتني الى كتابة هذا الكتاب ، اكتشفت شيئا ينبغي ان يكون صرخة في آذان الرأي العام وليس في آذان ابناء المهن الطبية - فهم بالتأكيد ليس لديهم اذان لمثل تلك الاشياء - اي في اذان العامة ، وآذان المجتمع ، وآذان العالم ، ويمكن للمجتمع بالتالي ان يدفع ابناء المهن الطبية الى فتح آذانهم . ان الخبرة التي جمعتها في تلك المستشفى للأمراض العقلية - والتي أوشك ان أقدمها للآخرين - خبرة بالغة البساطة . وهي تجيب على مشكلة كيف اعامل اخواني من البشر حين يتعرضون لفقدان عقولهم . كيف ؟ برفق . اعرف انه لا توجد خطابة يمكن ان يكون لها جدواها بالنسبة لتلك المبادئ الاولية ، ولذلك فقد اخترت الواقع باعتباره وسيلتي لعرض الحقيقة . وحين استعرضت الكتب التي وصفت ككتابي هذا ، حياة مثل تلك المصححة من الداخل - سواء من زاوية الطبيب ، كما في كتاب ماريو توبينو Mario Tobino الايطالي ، او من زاوية المريض كما ورد في التقرير

المفزع للأمريكية ماري جان وارد Mary Jane Ward فأنسي لم استطع أن أمنع نفسي من استخلاص : ١ - ان الموقف في اجزاء أخرى من العالم ليس بأفضل منه هنا ؛ ٢ - ان تقرير الكاتب اكثر صحة من تقرير المريض المحزون او الطبيب المحايد او المريض المحايد او الطبيب المحزون . ففي القرن الماضي بلغ التأثير حدا دفعهم الى الكتابة عن حياة الملونين ، ونحن نثير الان قضية المرضى العقليين الذين لا يمكن ان يكون مصيرهم اليوم أفضل من مصير ضحايا تجار الرقيق منذ مائة عام .

لقد توصل الطبيب والكاتب في داخلي الى اتفاق فيما بينهما ، ولكن ماذا عن الطرف الثالث ، اي القارئ ؟ ماذا عليه ان يفعل حيال هذا الكتاب الغريب ؟ هل ينظر اليه كأدب خالص وبسيط ؟ هل يقرأ فيه صورة للعصر ؟ ام لعله سوف يتناوله كنداء للضمير الانساني . اما بالنسبة لي فليست لديّ ثمة نصيحة أقدمها ، وليفسره كل قارئ وفقا لرغباته الخاصة ونصيحتي الوحيدة هي الا يخاف منه .

١٩٦٥

الجزء الاول

الفصل الاول

انتصار

كنا نتوقع العربية في السادسة صباحا ، ولكن الساعة قد تجاوزت السابعة ، والثامنة ، والتاسعة الا الربع ولم يظهر لها اثر بعد . حاولنا مرارا ان نطلبها تليفونيا ، ولكن كان اليوم الاحد فذهبت محاولتنا سدى . وانتظرنا متعجبين ، واخيرا ، في العاشرة ، اندفع الصبية صائحين : ها هي العربية . واتجهنا بالعربة الى جبال بورزوني لنأتي بحاجياتنا . ونظر السائق الى الكتب في فزع قائلا كلهم ؟... لا ، لا ، لا ، حوالي الالف مجلد فقط . وهز راسه قائلا ، ما جدوى كل تلك النفاية ؟. انه لا يهتم بمثل ذلك ... واكدنا له انه بالرغم من كثرة الكتب لا يوجد الكثير من الاثاث .

واخيرا أصبح كل شيء تحت غطاء العربية ، وفي استطاعتنا ان نبدأ . وداعا ايها المنزل الصغير القابع في الغابة ! وتبادل كبير الاطباء - باعتبار ما سيكون - نظرة مع السيدة الاولى - باعتبار ما سيكون ايضا - ... استترك كل هذا حقا ؟ موطن الخلوة ، والسلام ، والهدوء ... وموطن استقلالنا

ليس ثمة عودة . من عزلة الغابة الى بوشتا Puszta . آه حسنا ، حظ طيب . ولكن الحظ الطيب تركنا ننتظر حتى الان . المطر ينهمر بشدة ، فنحن في الخريف في سبتمبر . واخذت العربية تنزلق متأرجحة عبر الطريق الموحل . ان الظلام يحل مبكرا الان . والطريق الى «جرائج» Grange المباركة هذه بالغ الطول حقا .

ليس لدينا خريطة لجرائج وليس أمانا سوى ان نحس وجودها ، وأن

نحسب طريقنا في الظلام الحالك . قد انتصف الليل وينبغي ان تكون غابتنا قد اقتربت . وعرجنا على حافة مفتوحة في احدى القرى واستفسرنا من القرويين عن البلدة اثناء تناول الجمعة معهم . أجل ، انهم يعرفون جرانج ، انها ليست بعيدة . وتطوعوا بإعطائنا الاتجاهات الصحيحة ، ورسماً لخريطة ، وبيانا بأسماء قرى لم اسمع بها قط ... اتجهوا يمينا هنا ، وشمالا هناك ، وسوف تصلون خلال ساعة او ساعتين .

ورغم ذلك لم نصل ... لقد دارت العربة الى اليمين ، ثم الى اليسار ، ثم توقفت . وانحنى السائق على عجلة القيادة .
«ماذا حدث» .

«البنزين ... لقد نفذ ما لدينا من البنزين» .
«آه ، عليه اللعنة ، ألم تطلب منك السيدة الاولى عند كل محطة بنزين ان تملأه ؟

«ماذا ، الا توجد قطرة واحدة ؟»
«أجل ، ولا قطرة واحدة .»
اخذنا النظر في الليل ، اننا محصورون بين قرى صغيرة في الريف . ليس ثمة منزل ولا حتى شعاع من الضوء يمكن رؤيته . وزحفنا الى الخارج في المطر ، وفككتنا الاغطية ، وتسلقنا قمة كوم الاثاث . ومن حسن الحظ ان كان السرير على قمة المنقولات ! لقد انسلنا تحت الاغطية وإضجعنا في سريرنا كما لو كنا في منزلنا . كنا على ارتفاع ثلاثة ياردات ، فوق ألف كتاب ، في مكان ما على الطريق بين قريتين مجهولتين . واتخذ السائق من عجلة القيادة سيرا له قائلا انه معتاد على ذلك ، يبدو ان البنزين كثيرا ما نفذ منه . وقال كبير اطباء السيدة الاولى - باعتبار ما سيكون - «يا لها من بداية !» واستمر المطر يهطل بشدة فوق الاغطية .



بزغ الفجر ، وكانت الامطار قد توقفت ، وما زال السائق يغط في النوم . وتسلقنا خارجين من تحت الاغطية .
«هل لي أن أقدم لك لمحة من المنظر الخلوي ... ؟» اشجار حور منهكة على طول جانبي الطريق ، وغربان عجوزة على الارض القاحلة ، وبعض المزارع ، والقرى الصغيرة على مسافة ليست بالبعيدة . وعلى مرمى البصر عدد قليل من التلال المنخفضة . وسحب داكنة تتدلى من السماء المبتلة وعلى سبيل المصاحبة الموسيقية لكل ذلك ، كان يرتفع شخير السائق .
«لم نجرؤ على إقلاق نعاسه اللذيذ . ومن حسن الحظ اقبلت عربة من بعيد وتوقفت» .

«هل لديك مشكلة ايها الاخ؟»

واستيقظ الاخ ، وعرف انه يستطيع ان يحصل على البنزين من مزرعة الدولة القريبة . وبذلك أصبح كل شيء رائعا . وبعد ساعة اخرى اتخذنا طريقنا من جديد . قرى صغيرة ، ثم مزرعة فقيرة ، وبعدها ، قصر مخيف بين الاشجار ، انها جرانج .



وبمجرد ان زحفت العربة الى الداخل فوق الممر الموصل المتفرع من الطريق ، أحاط بها المرضى بين مستشار وفاغر فاه وفضولي ولا مبال . كبير الاطباء هنا ! انه قد وصل ! وانتشرت الاخبار المثيرة . وبرز المزيد من الرؤوس المستطلعة من المطبخ ومن القصر . ووصل الطبيب المقيم على عجل . كان رجلا جليلا كهلا ذو شعرات بيضاء متناثرة وذو مشية رياضية . وبعد ان تم التعارف ، بزغ السؤال الاول :

«أين المسكن؟»

نظرة مضطربة ، وهممة ... المسكن ، اجل ، حسنا ، المسكن . ان المسكن يا عزيزي لم نحصل عليه بعد . ولكننا سوف نستولي على حجرتين من حجرات المرضى ونخليهما لكم في الطابق الاعلى ...
لك الله ايها المنزل الصغير في جبال بورزوني ! لم نكن أوفياء لك . وتركناك الى اعماق الغابة . اننا الان في بوشتا ، في قصر مليء بالمجاذيب ، وبألف كتاب ، وليس به مسكن .

لم اكن أتوقع ان يتم الانتقال دون مفاجآت - حسنا ، لقد كانت هذه هي المفاجأة الاولى .

«كيف يمكن حدوث ذلك؟ لقد اخبروني في الوزارة انه توجد هناك شقة فاخرة مزودة بكل وسائل الراحة الحديثة ...»

«اجل ، انني اعرف ، لقد كانت في الخطة ولكنها لم تبَن . النقود لم تكن كافية ، وكان ينبغي التضحية بشيء ما ، وعلى ذلك فقد ضحوا بشقة الطبيب . هذا شيء طبيعى ، فما الذي يمكن التضحية به في المستشفى سواها ؟
«لقد وعدونا بتحقيق ذلك في ميزانية العام القادم .»

هذا ما وعدوا به . وما جدوى أن يعدوا بشيء ما ؟ ماذا الى ان يتحقق ذلك؟
«الا تود تفقد الغرفتين اللتين أعدناهما ؟» وذهبت لاتفقدهما .

وجلست السيدة الاولى متخشبة الى جوار السائق المذعور ، يراقبون - في فزع - المجاذيب الذين كانوا بدورهم يراقبون الهرج في سرور ظاهر . لقد وصل كبير الاطباء ... ليست لديه شقة ... اليس ذلك شيئا عظيما !
وينبغي ان يكون ملحوظا ان السيدة الاولى لم تكن قد رأت طوال حياتها سوى

عدد قليل من مختلي العقل . وقد كانت تراقبهم كما يفعل العامة . مجانيين ...
مطلقى السراح ... ترى متى سوف يقدم احدهم على مهاجمتي ؟
ولم يهاجمها اي منهم ، ولكن اقترب منها احدهم متجهما وفأسه في
يده قائلا :

«أخبريني ، هل حضر كبير الاطباء الجديد ؟ اننا لم نعد نستطيع انتظاره . انه
هو الذي سوف يدعني اذهب الى منزلي . لقد أخبرني الطبيب العجوز ان كبير
الاطباء الجديد سوف يدعني اذهب الى منزلي . انني لست مخبولا . انني لم آت
الى هنا سوى لاني قد رفعت المطواة على والدتي .»
«فعلت ماذا ؟»

«لقد طلبت مني ان اقطع خشبا، فاجتثت شجرة الكمثرى التي في الحديقة
وكسرتها ، فاخذت ثؤنبي . فماذا افعل ؟ لقد قطعت الخشب للتدفئة ، بالضبط
كما أخبرني . وجن جنوني ورفعت المطواة . ولكن كبير الاطباء سوف يدعني الان
اذهب الى منزلي ، أليس كذلك ؟ انه سوف يدع الجميع يذهبون . ان لديّ معملا
لتكرير السكر ، أنا مديره .»
واجابت السيدة الاولى في فزع «اجل ، اجل ، سوف يدعك كبير الاطباء
تذهب ...»

هل لك في سيجارة ؟» وتحركت مقربة من السائق .
وفي تلك الاثناء كان تفقدي للحجرات قد تم ، وعدت بادي الحزن .
«ليس هناك ثمة شقة . سوف نعود ادراجنا .»
وهزت السيدة الاولى راسها مناجية نفسها بشكر السماء . وأمرت السائق
أن يستدير بالعربة ، ورغم دهشته فقد أدار الموتور ، ودارت العربة حول نفسها
بطء ، واتسعت دائرة المرضى من الفزعين او من ذوي الوجوه الخالية من التعبير .
ولم تكن الممرضة إيما قد تمكنت بعد حتى من التعرف على القادم الجديد الذي
يفادر المكان ولكن الدموع تجمعت في عينيها ، بينما وقف الطبيب المقيم مشدوها
وصامتا .

«العودة ؟ الى اين ؟»
أجل الى اين ؟ الى المنزل الصغير في بورزوني ... ولكن ما الذي سوف نعتمد
عليه في معيشتنا ؟
ان الوظيفة السابقة قد تم شغلها بالفعل . وكيف سنتحمل تكاليف
رحلة العربة ؟

كل هذا لا يهم على اي حال . هل ينبغي ان نحيا في حجرتين ضيقتين ، بدون
حمام ، محشورين في ممر المرضى ، محاطين بالصيحات ، والجري ، وصفق
الابواب ، ولنا دورة مياه مشتركة ... لا ، اذا كان لا بد من يوشتا فلا أقل من
ان يكون ذلك في سلام وهدوء وليس هكذا .
«إنظر ... أعد التفكير في الامر ... ربما في المستشفى ... فلنتحدث

الى المدير .»

انها فكرة ، يجب ان اتحدث الى المدير على اي حال . ان العقد هنا في جيبى ، ولا استطيع ان القى بكل شيء دون اعتبار للرسميات .
المدير يعيش في المدينة ، في مستشفى المنطقة . اذن فقسم الامراض العقلية في بوشنا - كما ترى - ليس مؤسسة مستقلة ولكنه ملحق لمستشفى المنطقة . الى الامام اذن نحو المستشفى .

ودارت العربة حول نفسها . وحينئذ فحسب تحقق المرضى من ان كبير الاطباء الجديد ، الذي انتظروه كما لو كان معجزة او كما لو كان المسيح ، يفادهم . لماذا ؟ لقد كانت الاجابة التي يتلقونها دائما على اي شيء يطلبونه هي : «حين يصل كبير الاطباء الجديد سوف يهتم بذلك ...» وهو لم يكذب يصل حتى رحل .
وبدا المرضى في الصباح فرعين : «لا تركنا يا دكتور ! هل تسمعي ؟ ابق !» وفجأة ظهرت وجوه مألوفة . هذه هي السيدة سلوث التي اعتدت معالجتها وهذا ايضا هنا ، ترى ما اسمه ؟ احاط بنا المعارف وايضا الغرباء الذين اعتقدوا فجأة انهم تذكروني .
«لا تذهب ! لا تركنا !»

كان الشخص المتجهم هناك ايضا ومعه فاسه .
«من الذي سوف يدعني اعود الى منزلي اذا تركتنا .»
واندفعت امرأة عجوز بالغة الدمامة قائلة وهي تنسج بالبكاء :
«لقد انتظرناك طويلا ! وانتظرنا السيدة الاولى ايضا ...»
وكانت هذه هي المرة الاولى التي يطلق عليها فيها السيدة الاولى ، وكان للاسم وقعا لديها .

وغمغمت في ضيق «سوف نعود ، سوف نعود فورا» وانتزعت نفسي بصعوبة من قبضة تلك الانفعالات . ما الذي يتوقعه منا هؤلاء الناس ؟ لماذا أولونا ثقتهم على الفور ؟ لقد لوحوا خلف العربة بحماس والدموع في عيونهم كما لو كنا اصدقاء قدامى .



كانت ثلاثون دقيقة من الكتابة .
قال السائق «ان ذلك ليس من شأني ، ولكن من رأيي ان تبقى هنا . انني لا اعتقد انهم قوم سيئين ، وسوف تبني الشقة في النهاية ، سوف ترى .»
«انتظن ذلك حقا ؟ انت لا تعرف الوزارة وعودها .»
«قد لا اعرف ذلك ، ولكنني اعرف الطريق الجبلي في بورزوني لقد استطعنا نزوله بصعوبة في ذلك الوحل ، فهل تظن اننا نستطيع ان نتسلقه بعد امطار اليوم ؟»

وكان مصيبا في ذلك . فقد تصورنا أنفسنا مغرورين في أحوال بورزوني
بعد منتصف الليل . وكيف سندفع أجر السائق ؟ وماذا بعد ؟...
كان المدير ودودا جدا . آه ، أجل ، شقة الطبيب لم تبعد . ولكنها في
ميزانية العام القادم . ذلك امر مسجل ومحسوم . وحتى يتم ذلك نستطيع الانتقال
الى اية غرفة . الغرفة لا تناسبك ؟ حسنا ، فلنأخذ شقة الطبيب المقيم . حقا ،
انها غرفة واحدة بحمام ولكنها تؤدي الغرض في الظروف الحالية .
«والطبيب المقيم ؟»

«انه يستطيع الانتقال الى غرفة مريض . ليس من حق الطبيب المقيم سوى
غرفة واحدة دون زيادة . انه سوف ينتقل بلا كلام فارغ .»
«الا ينبغي اخطاره مقدما ...»

«انني لا أريد ايداء ذلك المسن وأظن ان الامور سوف تسوى بشكل ما ...
وبطريقة انسانية ، اذا كان ذلك ممكنا ...»

وبذلك اتضح لنا اننا لسنا من نفس الراي فيما يتعلق بالانسانية . ولكن ما
البديل ؟ وفي خجل وضعت اوراق الاخلاء في جيبى ، وسلحت نفسي بمشورة
المدير الطبية :

«كن صلبا ! فلتنظف اسطبلات أوجياس (١) هذه ! فلتأمر ، ولتنظم ، ولتعمل .
وينبغي التحفظ على اي شخص لا يرغب في ذلك . بلا كلام فارغ .»
انحناء ودودة ، ووداع رسمي ، وخطوات متقدمة ومتراجعة في مجاملة عند
الباب ، تفضل انت ، لا انت اولا ... ثم عدنا الى جرانج .
«قد لا يكون ذلك المدير رجلا سيئا على اي حال .»

«كلا ، انه ليس كذلك . انه رجل طيب ، والشيء الاهم هو انه انساني عظيم .»
وهكذا راح كل منا يسرّي عن الآخر في العربة بينما كنا نفكر في ذلك الطبيب
المقيم المسن . ترى ماذا سوف يقول حين يطرد ؟.



قال الطبيب المقيم حين سلمته اوراق اخلائه «الامر هكذا اذن» وكانت تلك
هي آخر كلماته في هذا اليوم . وغادر الحجرة متجهم الوجه ، بعد أن انتزع حتى
المسامير من الحائط .

وخطر لنا ونحن نكدّ في نقل الاثاث والكتب ، كيف اننا قد خلقنا عدوا لنا
في جرانج . وحوم حولنا عدد قليل من المرضى ، ولكنهم لم يقدموا مساعدة ذات

١ - الاسطبلات القذرة التي كانت في حوزة أوجياس والتي نظفها هرقل في ليلة واحدة بأن
حوّل إليها نهر الفيوس - المترجم .

قيمة . وقد قام اكثرهم اجتهدا بجرا اثاث الطبيب المقيم . اما العاملون بالمستشفى فقد ظلوا متحفظين ، وربما كان ذلك راجعا الى تعاطفهم مع الطبيب المطرود . وقمنا بجرا متاعنا الى الداخل ونحن نتصب عرقا وكلنا فهم للموقف . ورغم قلة اثاننا فقد كان من الصعب حشره في هذه الشقة البالغة الفخامة ، والتي يبلغ اتساع حجرتها الوحيدة ٦×٤ . من حسن الحظ انه ليس لدينا سريرين . اريكة وبيانو صغير ، وصوان للملابس ، وامتألت الغرفة . ومائدة صغيرة مستديرة وكريسيان واستحالت الحركة في الغرفة . ونقلنا عددا قليلا من ارفق الكتب الى الردهة ، وفرشنا غرفة المطالعة في الطابق الاعلى ، حيث وضعنا بقية الاثاث والكتب . هنا على الاقل ، منظر جميل للاشجار العجوز والميسدان الاخضر في الحديقة . كما انها حجرة منيرة وليست كالمشقة التي تحتها ، والتي بلغت الحصافة بأحدهم أن دفنها في الجناح الشمالي بنافذتها المتناهية في الصفر، وحوائلها المتعفنة . كان المرضى الفضوليون يتلصصون من خلال النافذة المنخفضة، ويتابعون الحركة باهتمام .

وعند الظهيرة كان لدينا فسحة من الوقت لتفقد ما حولنا . كان القصر مملوكا للكونت بانهيانيس . وخطرت لمدير المستشفى السابق فكرة أن يلحق القصر بالمستشفى وأن يودع فيه المرضى العقلين . ولم يكن ما يريده علاجاً بالعمل ولا مصحة بل زريبة للخنازير ذات أيدي خاملة رخيصة . وهكذا كانت اول مؤسسة في البلاد للعلاج بالعمل تدين بوجودها للخنازير . وتم بناء الحظائر على مسافة عشرين ياردة فحسب من القصر ، مع ما تستلزمه من روائح كريهة ، وذباب ، وبراغيث ، وأصوات مزعجة . وكان سكن العاملين حظيرة الخنازير مباشرة .

وكان قد تم هنا خلال الحرب العالمية الثانية وبعدها معسكر للاسرى . وما زالت الخنادق الضخمة باقية لتذكرنا بالآلاف العديدة من المسجونين الذين شغلوا المكان ، وقد قام البستاني بتفريغ المحتويات الخصبة للمراحيض الضخمة لاعادة الحياة الى التربة المهمله .

وتم قطع الكثير من اشجار الحديقة ، وامتألت الحديقة الخلفية بالاعشاب . اما حديقة المطبخ التي تبلغ مساحتها ستة أفدنة فقد كانت غير مستوية ولا ممهدة، وقام المرضى بتسوية وزراعة جزء منها ، اما بقيتها فما زال فريسة للاهمال . وكانت الممرات مغطاة بالاعشاب والأتربة ، ولكن البستاني أحرق تلك الشجيرات بالفعل ، وأصبح الطريق الممهّد القديم مرئيا من جديد بين ذلك الصف المزدوج من الاشجار التي يبلغ عمرها قرنا ، والتي تحيط بالحديقة . وقد عرض علينا البستاني أنواعا نادرة من الاشجار فهذه كويركس بيراميدالس *Quercus Prramidalis* وهذه اكرنيجوندو *Acernegundo* وهي ليست كأي نوع قديم بل انها فوليس فاريجاتا *Foliis Variegata* ، وهذه ليفيودندرون تيوليبيفيرا *Lifiodendron Tulipifera* بكتوسها الكبيرة التي — رغم كبرها — تشمخ بنفسها في ترفع

ارستقراطي. كان البستاني يعرف الاسم اللاتيني لكل شجرة وشجيرة بلا استثناء، ويحاول ان يجعلنا نتخيل الحديقة قبل ان تدب اليها الشيوخوخة ، ولكنسه لسوء الحظ لم يستطع سد ثغرات معرفتي بعلم النباتات وذهبت ثرثرته بالاسماء اللاتينية سدى فلم استطع تصور النباتات التي تشير اليها تلك الاسماء .

وكانت بوابة السياج المحيط بالحديقة مهدمة ، وحاول اولد سميث - وهو رجل كل المهن - حاول جاهدا ان يشرح كيف انه سوف يقيمها ولكني اعرف انه لن يفعل ذلك مطلقا ، بل على العكس ، فان السياج الخلفي على الاقل سوف يزال تماما فلو كان عليّ ان اصبر حاليا على تلك القضبان التي على النوافذ فسوف اتخلص على الاقل من السياج بأسرع ما يمكن . ولقد نسوا من حسن الحظ وضع اقفال محكمة على الباب حيث ان الممرضة إيما تفقد المفاتيح دائما وبمختلف الوسائل، وبالتالي فلست في حاجة للمجازفة بجهد خاص لجعل الابواب مفتوحة على الدوام. حين وصلت اول دفعة من المرضى في ابريل عام ١٩٥٣ لم يكن هناك اي

مستخدمين وكان ينبغي تجميعهم من كل مكان ، طيب من بودابست على سبيل الاعارة ، وممرضات من كل مكان ومن اي مكان . وصل رجل عجوز استفزازي تخطى الستين يدعى بوب ، ولكن كل ما كان مهتما به هو الجرد : هل ثمة شيء ناقص ؟ وهو يفضل الا يسلم اي شيء مطلقا للمرضى لانك لن تعرف ابدا ايمن سبتكونه . كان ذلك هو كبير الممرضين . وكانت هناك ممرضة مدربة ، تعلمت في عملها السابق كيف تجذب المريضات المشاغبات من شعورهن . وكان هذا هو كل ما تعلمته . اما الآخرين فلم يكونوا قط ممرضين ولم يسبق لهم قط رؤية مريض عقلي . شقيقان من الفجر قاما بالعديد من الاعمال الاخرى في حياتهم ، فلماذا لا يقوما بالتمريض العقلي ايضا ؟. واتى جندي سابق ، كان ذات يوم فلاحا، وكان ماكرا بخيلا ، فقدت الامة فيه تاجرا لا يباري وقد اُسْمِنَاه هامستر (١) . وهناك اخيرا الممرضة ايما التي كانت فيما سبق مدرسة لعشرات السنين واصبحت ممرضة في الصليب الاحمر اثناء الحرب . كانت معلوماتها قليلة جدا ، ولكنها كانت تتميز بصفة واحدة لا تقدر بمال وهي : انها تحب المرضى وذلك يمكن ان يصنع منها ممرضة جيدة .

وكان لدينا بالاضافة الى ذلك طاهية ، واثنان من المساعدات لها ، وخادما، وحوذي ، وبستاني ، ورجل كل المهن الذي يعد رجل اطفاء ، وميكانيكي ، وصانع اقفال وكل ما عدا ذلك ايضا ، وقد تجمع الكل في شخص واحد . تلك هي هيئة العاملين ولكن لا ، ما زال هناك رجل آخر ، لا تبدو له واجبات محددة تماما . فمستر فيدلر يشار اليه باعتباره عاملا ماهرا واحيانا باعتباره رئيسا للعمال او

١ - نوع من الحيوانات القارضة التي تعرف بقابليتها لالتهام اي شيء يصادفها وتخزينه في

جيوب خاصة داخلها . - المترجم-

نائباً للمدير . وعمله غالباً هو الاشراف على التموين وان يكون هو الصلصة بين المستشفى وبين جرانج ، ولكن الحقيقة ان احدا لا يستمع اليه ، هنا او هناك . ولذلك فقد توصل الى انه من الافضل ان يظل بلا عمل .



ومضى كل شيء في هدوء ، اي انه لم يقم اي شخص بأي شيء . وكان هذا هو قمة النظام ، فطالما انه ليس لدى جرانج سوى طبيب زائر فما الذي يمكن ان يقوموا به سوى ذلك .

ولكن وجد في شهر مايو شخص يرغب في الذهاب الى مكان موحش ليعمل كطبيب مقيم . وقد حدث ذلك كما يلي وفقاً لما رواه لنا الطبيب المقيم . «وقفت امام منزلنا ذات يوم بعد الغداء سيارة خرج منها رجلان ، احدهما رفيع وطويل والآخر مكتنز وقصير ، وقدموا انفسهم . كان احدهم هو الدكتور بول ماول من الوزارة ، ولا اذكر اسم الآخر . وتوجست شراً الى حد ما لانني لا احب اطلاقاً زيارات السادة القادمين من الوزارة . ولكنهم كانوا في منتهى اللطف . لقد سمعوا انني بلا عمل ، افلا اذهب الى جرانج كطبيب مقيم ؟ ولم اكن قد سمعت عن جرانج هذه من قبل . انني بلا عمل بالتأكيد ، ولقد كنت طوال حياتي اعمل بمكتب الصحة المحلي ، ولقد تخطيت الان السن التي قد يبحث فيها المرء عن عمل جديد وقد قمت ببعض اعمال الفلاحة وفلاحة البساتين ، وكنت في ذلك الوقت بالتحديد استنبت نوعاً جديداً فاخراً من البطيخ حين اقحم عليّ هؤلاء السادة تلك الجرانج . ترى هل اترك البطيخ ؟ وحين اخبروني انهم يريدون مني العمل في مصحة عقلية ، اصابتنني رعدة . أنا ! طبيب امراض عقلية ؟ انني لم ار اكثر من ثلاثة مرضى عقليين طوال حياتي وحتى هؤلاء لم ارهم الا عن بعد . فحين كنت ادعى لفحص حالة مريض عقلي لم اكن اجروء على الاقتراب منه ، بل كنت اقوم على وجه السرعة بالانتهاء من استخراج شهادة الجنون ، ومن ثم تحمله عربة المستشفى بعيداً .

«ولقد أنهيت الى زواري كل ذلك بأمانة ، ولم يستجيبا سوى بالضحك وماذا يحتاج المرء الى معرفته اكثر من ذلك ؟ على اي حال فان هؤلاء المرضى يعملون ، وكل ما يحتاجونه هو التوجيه . ترى هل لديك معلومات عن الخنازير ؟ عظيم . وفلاحة البساتين ؟ رائع . والزراعة ؟ ممتاز . انت الرجل الذي نطلبه وهكذا اصبحت طبيباً مقيماً في جرانج . لم نتحدث اكثر من ذلك عن المرضى العقليين . ان لديّ معلومات بالفعل عن الخنازير فضلاً عن البطيخ» .

وقبل ان يضطلع بمهام وظيفته في شهر مايو ، امضى يوماً في قسم الامراض العقلية في الولاية من اجل «دراسة» المرضى العقليين وعلاجهم . (ولا اعتقد ان ذلك اضاف الى كلمته جديداً) . ثم امضى طبيب الامراض العقلية المنتدب ثلاثة ايام معه في جرانج . وقد حاول ان يعتصر من ذلك الطبيب بعض الارشادات الخاصة بالمهنة .

«هل تفضل بإطلاعي على ما يجب عمله حيال هؤلاء المرضى؟»
«لا شيء يا زميلي العزيز ، لا شيء بتاتا . انهم يذهبون الى الحديقة ويعملون هناك ، وهذا هو كل شيء .»

«ولكن اذا ما تصرفوا بخبل ... اذا ما أخذوا في الهذيان ...»
«فلتعطهم جرعة قوية من اللومينال Luminol ، فيهدؤن ويستغرقون في النوم . دعك من كل ذلك ، ولتعب دورا من الشطرنج .»
ولكن الامور لم تمض بتلك البساطة .
لقد أخبرني المدير شخصا لماذا يعد تنظيف الاسطبلات الالوجاسية بيد من حديد امرا ملحا .

«ان الموقف مفرع . صدقني ، منذ افتتاح القسم في جرانج ، لم أقض ليلة واحدة ولا نهارا واحدا في هدوء ، بل في قلق متصل خوفا من وقوع فضيحة ضخمة ، او انهم سوف يشعلون النار في شيء ما ، او يقتلون شخصا ما ...
المشاغبات هي طابع الحياة اليومية . وفي احد الايام اقدم مريض على قطع شرايينه ويظل ينزف حتى الموت وهو في طريقه الى عيادة الجراحة محمولا على عربة يجرها ثور . وهناك بعض المشاغبين الذين يتجولون في المنطقة مسلحين بالعصي ومهددين للقرويين المسالمين . ولسوف يقدمون على كارثة عاجلا او آجلا . وليس للطبيب المقيم اي سلطة حيال الموظفين او المرضى . وليست لديه فكرة عن معالجة مريض العقول ، فهو اذن عاجز تماما . اما الممرضات فانهن كسالى لا يفعلن شيئا ، والبستاني شخص مختلط تماما ومهووس ، وكلّ يفعل ما يشاء . وانا المسؤول عن كل هذا ! وينبغي ان يوقف ذلك ! انت المسؤول من اليوم فصاعدا . ينبغي ان تتدخل بيد من حديد ! بلا كلام فارغ !»

ولم أتلق الانباء بسرور . انا ذو يد حديدية - فلترحمني السماء .
ولكن كانت هناك امور اشد غرابة في طريقها الى الظهور .

ان الممرض الفجري الذي كان خيرا بصناعة الاحذية ، وكذلك هامستر الذي كان ملما بأمر السوق السوداء لم يكونا يقضيان وقت عملهما في الورشة في تقديم العلاج بالعمل للمرضى ، بل في بيع الاحذية والقيام بغير ذلك من الاعمال الاضافية لمن هم خارج المستشفى . اما وقت فراغهما فكانا يمضيان في استغزاز المرضى . ان «تمريضهما» عبارة عن اغاظة المرضى المستشارين ثم ضربهم بعد ذلك . فكان هناك طفل يهودي اصيب بالمرض العقلي في احد معسكرات الابادة الالمانية . وكانت تضع تلميحات قليلة معادية للسامية تكفي لاشعال غضبه ، مما يعطي هذين المرضين فرصة لمهاجمته وهناك رسام فصامي يتحدث احيانا الى نفسه بالساعات في غرفته ، ويتسلق الممرضون القضبان ويلقون عليه فجأة دلواً من الماء (علاج مائي على طريقة جرانج) . وياخذ التمس المسكين في السباب . لقد عرفنا الان مدى حساسية نفوس أولئك المرضى ! انهم لا يتحملون اي تلطيخ لذكرى امهاتهم ، فيندفعون داخل الحجرة ويضربون المريض حتى يخر على ركبتيه راجيا عفوهم .

او يقومون بجر «القديسة آجنس العذراء» التي تعاني من تعصب ديني الى عيادة الجراحة ، ويضعونها على الارىكة ، ويفحصونها ، ليروا ما اذا كانت عذراء حقا .
لقد استبانت تلك الامور في وقت متأخر كثيرا بالطبع من كلمات تناثرت هنا او هناك . فماذا عن الامور التي لم تظهر قط ! ان الممرضة ايما تحاول حماية المرضى ، ولكن دون جدوى .

كان المكان اشبه بساحة معركة . نوافذ ومصابيح مهشمة فسي كل مكان ، وكهرباء مقطوعة ، واثاث محطم . ليس للاصلاح اي جدوى . كان احد المرضى في غيبوبة لمدة يومين ، لانه قد فتح قفل عيادة الجراحة وشرب زجاجة من البارالديهايد *paraldéhide* (١) وكان اثنان من المرضى يكتبان بانتظام الى السلطات - وربما كان لديهما عذر في ذلك . اما مدمني الكحول فقد كان ذلك هو عصرهم الذهبي : كانوا يترددون على الحانة التي في القرية القريبة . من هناك ليوقفهم - وكيف؟ انهم يذهبون للشراب مع المرضى .

اما المشاغبون فقد كانوا مصدر اغلب المتاعب . ان هؤلاء المجرمين الماكرين يعرفون كيف يملصون من العقاب محتمين بشهادة اختلالهم العقلي . فاذا ما أمسك بهم البوليس فانهم يغمغمون بالكلمة السحرية «انني من مصحة الامراض العقلية» ويستدعي رجل البوليس المدعور عربة المستشفى على الفور لتحملهم الى اقرب قسم للامراض العقلية . وبذلك يتخلصون من تهمة السطو او اللصوصية ، ويستقرون لشهور قليلة في مصحة للامراض العقلية ، متنكرين قليلا لشهوات قلوبهم ، ثم يخرجون ليعيدوا الكرة من جديد .

انهم في حاجة الى مؤسسة يتعلمون فيها كيف يعملون ، مؤسسة يمكن ان تصنع منهم رجالا وفقا لمنهج مكارينكو *Makarenko* (٢) . ولكن لا توجد مثل تلك المؤسسة ، وهم يعيشون فسادا في مصحة عقلية . ومنذ تأسيس قسم العلاج بالعمل لمختلي العقل في جرانج ، لم يفرح اطباء الامراض العقلية الا لانه سوف يمكنهم تحويل مشاغبيهم الى هناك . ولندع «الطرق الحديثة» تفصح عن سوءاتها

وهكذا حدث ان ذهب ستة من المشاغبين الى جرانج بمجرد تأسيسها . لم يكن هناك بالطبع اصعب من السيطرة عليهم . فالمشاغبون هم الذين يفرضون سيطرتهم لقد عرفوا على الفور من اين تؤكل الكتف - فاستطاعوا اساءة استغلال عجز الطبيب المسن وتعاطف المرضى ، وشكلوا عصابة ارهبت الطبيب ، والمدير

١ - عقار منوم . - المترجم -

٢ - انطون سيميونوفتش مكارينكو ، كاتب وعالم تربوي سوفيتي اوكراني ، وترجع شهرته التي طبقت الافاق الى نجاح دراسته التربوية لنهج اعادة تربية الشبان المهملين والمتروكين للضياع .



ان ذلك الطبيب المقيم المسكين لا يتمنى سوى أن يولي ظهره لجرائح بأسرع ما يمكنه . لقد كان سيدا مسنا ، قوي البنية ، ذو سجل حربي حافل ، خبر كل شيء في الحياة (باستثناء المصحة العقلية) ، ولم يكن يستسلم للخوف بسهولة . ولكنه في جرائح كان خائفا . كان يخاف المرضى العقليين ، والمشاكسين ، والمرضين ، والمدير «بلا كلام فارغ» ، وكبير الخدم الوقح ، والحوذي الصفيق ، والميكانيكي الفظ ، والملاحظ الخسيس ، ومسؤول التموين الدنيء . وكان ما يثير فزعه اكثر من كل ذلك ان الوزارة لن تجد اطلاقا احمقا آخر يرضى بالذهاب الى جرائح كبير للاطباء .

وسرعان ما اكتشف انه ليس هناك مبرر لخوفه من المرضى ، فليس هناك ثمة مشكلة معهم اذا ما تركوا بمفردهم (ولسوء الحظ ، فانهم لا يتركون بمفردهم ابدا) وكان اكثر ما أدركه في حياته غرابة انه ليس هناك مبرر للخوف من «مختلّي العقل» ، ولكن فليحمله الله من «الأسوياء» ولكن الله لم يفعل ذلك . لقد اتى الى جرائح على أمل انه سوف يقضي ايام شيخوخته في هدوء ، يزرع ، ويستنبط البطيخ ، ويسمّن الخنازير ، ويعطي حقنة من وقت لآخر ، ويسجل ملاحظات قليلة في سجلات المرضى . كانت تلك بالتقريب هي الصورة التي رسمها بول مادل ، الذي لم يذكر شيئا عن ان عليه أن يقاتل الجميع يوميا ابتداء من المدير «بلا كلام فارغ» الى الحوذي . وكان يفكر مكتئبا انه اذا ما استمر الامر هكذا فلسوف اتحول انا نفسي الى مجذوب . ولسوف يستمر الامر لانه لن يوجد كبير لاطباء هذا المكان على الاطلاق .

من الذي يأتي الى ذلك المكان الموحش ، ليجادل المرضى العقليين الى جانب - وهذا هو الاكثر صعوبة - جدال مع الأسوياء ، ويمون المستشفى بالبطاطس والكرنب تحت ستار العلاج بالعمل ؟ لقد أدرك الطبيب المسن على الفور الغرض من كل ذلك - ألا وهو تموين المستشفى . اما بالنسبة للمرضى ، فانه لا يمكن تقديم العون لهم بأي حال

ولكن الطبيب المسن كان مخطئا في شيء واحد - هو اعتقاده بأنه لن يمكن العثور على كبير للاطباء . صحيح ان بول مادل قد أجهد فكره طويلا ، ولكنه في النهاية حدد لنفسه أين يمكن أن يجد كبيرا للاطباء ، وانتظر في هدوء أن تفتح مصحة جرائح العقلية أبوابها .

وكان عليه ان ينتظر طويلا لانه اتضح ان إعادة اعداد القصر لن تتم ابدا . وكان يمكن الا يكون جاهزا حتى الان لو لم يستدع مدير الادارة في الوزارة بول مادل ويقول له :

«ياها الرجل العجوز ! متى سيفتتح القسم في جرانج ؟»
واجاب بول بسرعة «خلال اسبوعين» وكانت تلك هي اجابته الجاهزة والتي
تسغه على الدوام .

وتساءل المدير متوعدا . «اسبوعان ؟ هل يعني ذلك اربعة عشر يوما ؟»
وتسبب ذلك في انزعاج بول فقال «أجل ... ربما خلال اسبوعين .»
«حسنا ، في اسبوعين اذن . اني احذرك ، اذا لم يتم الافتتاح خلال اسبوعين
فسوف تدفع ٢٠٠ فورنت على سبيل الغرامة .»
«وانتهى الحديث الى هنا ، وسجل المدير في مفكرته امام يوم ٩ ابريل»
«افتتاح جرانج» تاركا بول مذهولا .

ونظرا لان بول كان حريصا على امواله ، فقد حدث اندفاع ، وسباق في كل
اتجاه ، تلفراف هنا ، وخطاب مسجل هناك ، ومناقشات ذات اليمين وذات
اليسار . والاسكافي يجب ان يكون ممرضا ، كما ينبغي لمستشفى او لآخرى ان
تعيرنا طبيبا «مؤقتا» ، وفي ٩ ابريل وصلت اول دفعة من المرضى ، وتم انقاذ
المائتي فورنت .

وينبغي ان نقرر هنا ان بول مادل عرف طبيبا حزينا للامراض العقلية ، وكان
مصدر حزن ذلك الطبيب انه قد استدعى للجيش ولم يكن به رغبة للحياة
العسكرية . وادرك بول مادل ان هذا هو الرجل الذي يبحث عنه ، وانه سوف
يذهب بالتاكيد الى جرانج ككبير للأطباء لمجرد التخلص من الجيش .
وعلى اي حال فلقد تأخر افتتاح المستشفى حتى تم تسريح ذلك الطبيب
الحزين من الجيش . بل وانتقل الى جبال بورزوني حيث عاش راضيا تماما مع
زوجته في منزل صغير في الغابة ، وشغل وظيفة بالغة الغرابة ، وظيفة ادارية في
مكتب صحة . لقد أصبح طبيب الامراض العقلية الحزين موظفا كتابيا سعيدا .
كان يسافر الى مقر عمله في بودابست يوميا ، ثم يعود الى بورزوني ليقرأ ويكتب
ويرعى حديقته ، ولم يعد حزينا على الاطلاق .

ولم يفقد بول الامل ، بل استدعى الموظف الكتابي السعيد وقال له :

«يا صديقي العزيز ، اني أعرف لك وظيفة رائعة .»

«شكرا جزيلا ... ان لدي وظيفة رائعة فعلا ، وأنا راض تماما .»

«هنا ؟ في هذا المكتب .»

«هنا في هذا المكتب .»

«يا للسخف . ما الذي يعجبك فيه ؟»

«الاستقلال .»

«آه ، هكذا ! الاستقلال ! يا للهراء - اسمح لي . ومن اجل هذا تسافر الى
بورزوني كل يوم ؟»

«ثلاث ساعات بالقطار ، وساعة سيرا على الاقدام . وهو ليس ثمنا باهظا في
مقابل الاستقلال . اليس كذلك ؟»

كان الموظف الكتابي السعيد رجلا غنيدا . ولكن بول مودل كان غنيدا كذلك وقال متهمكا :

«برج عاجي . حساسية بورجوازية . انسحاب .»

«قد يكون ذلك صحيحا ، ولكن لا يوجد من يحاول اختطاف وظيفتي هنا - هل لك ان تتصور ذلك ؟ وظيفة لا يحسدني عليها احد .»

وضحك بول قائلا «انها ليست بالوظيفة التي تبعث على الحسد على اي حال». ثم اضاف بلهجة جادة «انها لا تصلح لعالم . هل تريد ممارسة العلم من فوق مكتبك ؟ انك تنعزل عن الحياة وعن الواقع . ثم انك هنا شخص تابع ، لك رئيس . وما اقترحه لك انما هو الاستقلال الحقيقي . سوف تكون رئيس قسم الامراض العقلية في بوشتا التي تبعد اربعة اميال عن اقرب القرى . وتستطيع ان تحيا هناك حياة هادئة ، بل اكثر هدوءا من حياتك في بورزوني ، اذا كان ذلك ما ترجوه . قصر ارستقراطي ، وحديقة جميلة ، ووجبات مجانية ، وطعام ممتاز ، ووسائل راحة رائعة ، ومياه جارية باردة وساخنة ، وتليفون ، وسوف تحصل على عربة ايضا بعد قليل كما ان الاجر ثلاث اضعاف ما تتقاضاه حاليا .»

«شكرا ان ذلك لا يغريني .»

«سوف تكون من جديد كبيرا للأطباء ، لك مجال نشاط مستقل ، ومهمة علمية ضخمة . العلاج بالعمل ! لقد كان رايك دائما انه يجب تشغيل المرضى . حسنا ، هذه فرصتك . مؤسسة علمية تجريبية ، لها مزرعة وورش . فيها ورشة للنجارة الدقيقة ، وورشة ميكانيكا ، ومسبك ، وورشة احذية ، وورشة تطريز وكل ما تريد . احتمالات هائلة ! ثورة في العلاج العقلي ! يا له من مستقبل !»

واخذ يدق على هذا التوت .

وبدا الموظف الكتابي السعيد يشغل ويتحول مرة اخرى الى طبيب للأمراض العقلية .

وقال في اكنئاب «اجل ، هذا هو ما يجب ان يكون عليه الامر . ان يخلق عمل ومجتمع لطريدي المجتمع ، وان تمنح فرصة الحياة للموتى الاحياء . هذا هو ما يجب ان يكون عليه الامر .»

«ألم أقل لك ! لقد خلقت هذه المؤسسة من اجلك ! سوف تأتي اذن ؟»

«لا ، يا عزيزي بول ، لا أريد ذلك .»

«ولكن لم لا ؟»

«دعني اشرح لك انني لا اصدقك . لا تعتبر تلك اهانة . انني لا أستطيع تصديقك لسوء الحظ . انك الان تقدم كافة انواع الوعود ، ولكن بمجرد ان أصبح هناك ، فسوف تتركني لنفسى ، وتلك مهمة قومية لا يمكن لرجل واحد ان بضطلع بها .»

«ينبغي ان يكون هناك قتال من اجلها !»

«تلك هي المشكلة ... فلست من النمط المقاتل . هل لي ان أبرهن على ذلك؟ لو رغبت في القتال ، لما كنت هنا في المكتب او في هذه الغابة . قد تحتقرني من

اجل ذلك ، ولكن هذا هو ما انا عليه ، اني أرغب في السلام والهدوء .
وفجأة غيّر بول تكتيكاته .

«دع القتال لنا . فلتهتم بالجانب العلمي في الموضوع . موضوع التجربة العظيمة . وسوف نتكفل نحن بالباقي . انها مهمة قومية كما قلت بحق .»
وهز الطبيب الحزين رأسه وقال في ايجاز «دعني وحدي» وبدأ يتغنى ، لانه كان محبا للشعر «فلتدعني اختفي هنا في الاعماق ... اذا ما غصنا ، فقد يكون في ذلك غرقي ، واذا ما نجوت ، فلتدعني اذن وحيدا في غابة لاحيا على الجذور والثمار الى ان ينساني الله نفسه في النهاية ...»

وأصبح بول مادل سعيدا ومستبشرا . لقد اصبحت السمكة في الشباك !...
انك تريد ان تترك وحيدا في غابة ، أليس كذلك ؟ وتريد ان تحيا على البذور والثمار ذلك امر يمكن تدبيره !

وحل اليوم التاسع من ابريل ، وافتتح القسم بدون طبيب الامراض العقلية الحزين . ولم يهتم بول مادل ، وخطر له انه لا ينبغي لاول عقبة ان تبعث في نفسه اليأس . ولكن مرت شهور ، وما زال الموظف الكتابي العنيد يقول لا لكل من يجس نبضه . وبدأت الامور تتخذ صورة خطرة ، وظلت الانباء السيئة تتوالى من جرائع . وذات اسبوع اتصل به تليفونيا المدير «بلا كلام فارغ» : ماذا عن كبير الاطباء الجديد ؟ وفي النهاية ذهب الى الوزارة بنفسه : املئوا تلك الوظيفة . يستحيل الاستمرار هكذا ! بلا كلام فارغ !

حسنا ، قد لا يكون ثمة كلام فارغ ، ولكن ليس ثمة كبير للاطباء ايضا . وفي تلك الاثناء حاول بول مادل محادثة عدة اشخاص آخرين بشأن الوظيفة ، ولكن لم يقبلها احد منهم . الى ذلك المكان الموحش ؟ لست انا . هناك مرشح واحد فقط يبدو انه يرغب في الحياة في مكان موحش ولكنه لا يود التضحية «باستقلاله» . حسنا ! سوف نمنحه الاستقلال .

قال بول في ود «انتبه ايها الصديق العزيز ، هذه الوظيفة لا يمكن ان تنتظر لمدة اطول . يجب عليك ان تتسلم القسم في الاسبوع التالي .»
«يجب عليّ ؟»

«أقصد ... اننا لا نريد اجبارك ، رغم اننا نستطيع ذلك ... ان لدينا السلطة . ولكنني افضل تماما أن تقبلها شخصيا بإرادتك الحرة ...»
كانت تلك لغة واضحة ، ولقد فهمها الطبيب الحزين ، وشد على يد السيد الفاضل .

«حسنا يا بول ، اني اقبل . سوف تذهب في الاسبوع القادم .»
وامتد الاسبوع القادم الى منتصف سبتمبر بتعلة او بأخرى ولكننا ذهبنا في النهاية . ورحلنا في عربة من بورزوني الى جرائع . وها نحن نستقر الان هنا في تلك الشقة ذات الغرفة الواحدة التي طردنا منها الطبيب المقيم ، والتي كنا مشغولين توأ بجر أثنائنا داخلها . وعلقنا على الحائط ساعتنا الدقاقة . وهز الديك رأسه في

رزانة معلنا السادسة . بينما كان اثنان او ثلاثة من الوجوه البلهاء والتي اصبحت مألوفة ترقب الطائر المنهمك في عمله من خلال قضبان النافذة مبتسمة في غباء . وقلت للسيدة الاولى ، والتي انعم عليها بذلك اللقب في التو «حسنا ، ها نحن في منزلنا ، ونستطيع ان نبدا .»

ولكننا لم نبدا فالمنظر الخلوي الذي يطل عليه منزلنا - اي هذا القصر - ما زال غريبا . وخرجنا بين المرضى الذين كانوا قد انتهوا توأ من عشايتهم واندفعوا نحونا في حماس بينما كنا نتجول مبتعدين عنهم ، شاعرين بالغربة ، المكان الى حد ما . واقتרכת على السيدة الاولى «فلتلق نظرة على المكان .»

وتمشيننا امام البوابة ، ها هو ذا فيدler الذي لا يصنع شيئا يقدم نفسه كنائب للمدير . ولقد كان يقف بالصدفة البحتة امام البوابة لا يصنع شيئا . وكان سعيدا وهو يقودنا الى الخلاء .

وقال فيدler «هذا الطريق الذي تكتنفه اشجار الحور يؤدي الى المدينة ، وهذا يؤدي الى القرية . وتقع ساج SAG عند ذلك التل ذو الشكل الغريب ، فعلى قمته يوجد محجر للبالزت وعلى سفحه توجد كروم عنب نبيذها اميل للمزاة . وهناك عند تلك الجبال الضاربة للزرقة والتي تلوح بعييدا تقع كيمينس Kemenes ذات النبيذ الاكثر شهرة .»

وقلت مودعا فيدler الذي يعرف كل شيء ولا يصنع شيئا ، هذه اذن كيمينسالجا Kemenesalja ، قد يؤدي ذلك الى تيسير اعتيادنا على الخلاء ، فان شاعرنا الاعظم بيتوفي Petofi كان هنا عندما كان في السابعة عشر من عمره حيث امضى شهورا قلائل لدى عمه . وحيث أحب فتاة تدعى روزا ، وقد خلد اسمها لذلك السبب فحسب .»

لقد بدا لنا الخلاء اكثر الفة بالفعل . وقد تكون القرية التي قضينا فيها تلك الليلة المضطربة هي محل ميلاد الشاعر برزيني Berzensti . هنا عاش ذلك العملاق الفريد ، ومشى فوق ذلك الطريق ، كما عبر بالذات ذلك المكان الذي نقف فيه الان . وربما عند تلك الاضواء كتب برزيني :

.... ليست الكثرة هي التي تصنع المعجزات

بل العزيمة والانسان الحر

وشردت مفكرا ، اجل ، ربما يستطيع المرء حقا ان يستقر هنا . لم يعد الوسط الغريب المحيط بنا غريبا . ربما في هذا القصر الارستقراطي كتب برزيني :

القصور الرخاية الفاخرة الثمينة تتلاشى في الشفق

انها تمضي الى النسيان ، وتمضي معها

شهرة اصحابها العاطلين .

ولقد تلاشى بالتاكيد هذا القصر في الفسق ، وفي الفسق بدانا عملنا . سوف نزيل القيود التي تكبل ابدان المرضى العقلين وأرواحهم ، كما كان يقول دكتور

بينل في عصر الثورة الفرنسية . سوف يكون ذلك امرا صعبا ، ليس بسبب «مختلي العقل» ، ولكن بسبب تعصبات المجتمع غير العاقلة . يا للجحيم ، لا اريد مزيدا من القتال ، ولكن ذلك الخلاء قد أسرني بشكل ما «ان الساكت عن الجريمة شريك فيها» ، هكذا قال شاعر آخر من شعرائنا ، ولا أستطيع ان اشارك في جريمة هؤلاء الذين قذفوا بهؤلاء المرضى العقليين خارج المجتمع وحكموا عليهم بالحياة كأموات .

الفصل الثاني

إجتماع

في الثامنة صباحا ، عقدت اجتماعا للقسم حيث شرحت اهداف المؤسسة . تحدثت عن مختلّي العقل ، وعن الفصامين ، وعن مرضى الصرع ، وعن العلاج بالعمل ، ثم رايت فجأة على الوجوه الملولة للمستمعين انهم لم يفهموا كلمة واحدة مما اقله . كنت اتحدث عن «العلاج الايجابي» و«الهوسات» و«الهذات» ولم يكونوا قد سمعوا قط بتلك المصطلحات . لقد عاشوا هنا ستة اشهر بين مختلّي العقل ، ولكن كل ما لاحظوه كان يثير عجبهم . ولم يكن هناك من يساعدهم ، حيث ان الطبيب المسن كان في مستوى العامة بشكل لا يقل عن المرضى وفتيات المطبخ .

لقد سبق لي منذ زمن ليس بالبعيد أن القيت في الجامعة محاضرات بالفئة التأثير ، ولكنني كنت هنا أتمشّر وأتلجلج باحثاً عن كلمات مفهومة دون أن أجدها . لم أستطع الوصول الى المستمعين . قلت لهم - وأنا يائس الى حد ما - ان العلاج بالعمل لا يعني جعل المرضى يعملون . فليس في العلاج بالعمل ثمة قهر، ولا تشغيل قسري ، ولا اجبار . بل على العكس فهو فرصة تقدم للمرضى لكي يعملون . ومهمتنا ان نشجعهم . ليست مهمتنا زيادة محصول السبانخ والكرنب بل أن نشفي المرضى او - على الاقل - أن نتيج لهم ظروفًا للحياة تليق بالكائنات الانسانية . انه لمن الامور البالغة الاهمية ضرورة أن تفتني الدولة ، ولا يتحقق ذلك بأي حال من خلال ثمانين مريضاً ينتجون هنا دون أجور ، بل انه يتحقق نتيجة

لتحقق شفاء بعض المرضى وأنهم لم يعودوا في حاجة لان تعولهم الدولة ولا لان يشغلوا أسرة في المستشفيات ، بل يعودون الى بيوتهم ويشرعون في العمل - هل تفهمون ما اعني ؟.

ولا يستطيع احد الجزم بما اذا كانوا فهموا ، او لم يفهموا كان الارتياح يبدو على الوجه القاسي للطبيب المسن ، والتجاعيد القلقة تبدو على جبهة البستاني ، ولم تكن بقية الوجوه تبدي انفعالات على الاطلاق - انها محاضرة ، وعليهم ان يستمعوا لها ، وليس لديهم ما يستطيعون فعله بشأنها . يبدو ان كبير الاطباء الجديد يميل الى الثرثرة . ولكنه سوف يكف عن ذلك في وقت ما . انه لم يتوقف بعد .

وسئلت اتحدث في اصرار . ان مختلي العقل هم طريدو المجتمع ، وهم انفسهم منسحبون من المجتمع . انهم في صراع مع انفسهم ومع العالم . والعالم حريص على تأكيد انفصالهم ، انه يقذف بسيئي الحظ الى الخارج ، ويضعهم خلف القضبان ، ويخاف منهم ، ويرفضهم . ولكن هل ثمة مبرر للخوف من مختلي العقل ؟

ولا أقصد بذلك السؤال مجرد البلاغة ، ولكن ما دام لم يجب عليه احد فلأجب عليه بنفسى اذن .

لا ، ليس ثمة مبرر للخوف من مختلي العقل ، فهم كائنات طيبة المقاصد لا ضرر منها ولا يستطيعون ايداء ذبابة اذا ما تركوا في سلام . لا يجب اذن ايدائهم ، ولا السخرية منهم ، ولا مكابذتهم . كما لا يجب وضعهم خلف القضبان ، ولا حجزهم ، ولا تقييدهم بقمصان الكتاف ، ولا ضربهم . وتدخل احدهم مقاطعا في خبرة «انهم يهاجمون الناس» .

وقلت «انهم يهاجمون الناس ؟» اجل ، انهم احيانا يقدمون على المهاجمة بالفعل . انهم يهاجمون اولئك الذين يسيئون معاملتهم . ارجو ان تتذكروا ان مختل العقل لا يقدم ابدا على المهاجمة دون سبب . (وهو في ذلك يختلف عن الشخص السوي) . انه قد يثار لاهانة عابرة يعتبرها صاحبا غير ذات أهمية . وقد يحدث ايضا الا يضرب حيث يجب عليه ذلك ، بحيث لا يأخذ بثأره من الشخص الذي اثاره . ولقد رأينا ايضا حالات جعل فيها المجتمع - بفضل قمصان الكتاف والضرب والحبس - مريضا يبلغ من التهور الحد الذي يبدأ فيه في الهيجان دون ان يهتم بمن يوجه اليه ضرباته . وصحيح انه يحدث أحيانا في حالات هذيانه ان يخلط الواقع بتصوراته المريضة محاولا الانتقام من زملائه بسبب تصوراته الخاصة شريطة الا يوجد بالقرب منه الخير الذي يستطيع تهدئته بالكلمات الماهرة او المهدئات . ولكن الشخص المختل العقل الذي يهاجم دون مبرر على الاطلاق - غير موجود اصلا .

وهنا قال صانع الاحذية الذي تحول الى ممرض في خيلاء «ان ليزلي سبيتز قد مزق ملابسي تماما دون سبب على الاطلاق .»

وعرفنا خلال دقيقتين ان صانع الاحذية لم يكن أميناً تماماً فيما يتعلق بتجربته من ملابسه . لقد كان ليزلي سبيتز هو ذلك الولد اليهودي الذي اعتادوا اثارته بتهديده بممسك الإبادة ، والذي أوسعه ضرباً عدة مرات . وعلت الحمرة وجه صانع الاحذية ، ونكس رأسه حين كشفه الطبيب المسن ، وفضل ان يلتزم الصمت فيما يتعلق بالمهاجمات .

واستأنفت حديثي وأنا اكثر ارتياحاً قائلاً ان الانسان كائن اجتماعي ، وللمجتمع الذي يعيش فيه قواعد وأنماطه ، وتقاليده وعاداته . ونحن نعتبر ان الأسوياء هم الذين يعيشون ممثلين لقوانين المجتمع المعاصر وعاداته وتقاليده . وكل من يعجز عن التوافق لا يعتبر سوياً بل انه يعتبر اما مضطرباً او أبليها او مجرماً . ان المجتمع يخشى أولئك الذين لا يحترمون قوانينه ، فيحبسهم اما في السجون او في مصحات مختلّي العقل . ونحن ندعي انه ليس بيدنا حيلة ، وأن علينا ان نضع أولئك المجاذيب التعساء خلف القضبان وإلا فانهم سوف ينسبون بالفعل في ابدائنا او ابداء انفسهم . نحن نعرف جميعاً ان المجتمع يحمي بحماس سلامة وحرية كل فرد ، ولا يجب ان يحرم احد من حريته الا اذا قضى القانون بذلك . حسناً ، ان القانون يقضي بأن أولئك الذين يمثلون خطراً على انفسهم او على الجمهور يجب حصرهم ووضعهم في احدى المؤسسات . وهذا امر واضح فضلاً عن انه الامر الصحيح الوحيد اليس كذلك؟ اليس علينا ان ندافع عن انفسنا حيال مختلّي العقل، وان نحميهم من انفسهم ؟ ولكن من الذي يقرر ما اذا كان المتهم يشكل حقاً خطراً على نفسه وعلى الجمهور ؟ وكيف يتحدد ذلك ؟ ان طبيب الامراض العقلية يقرر ذلك بإدانة المرضى الذين يلحظ لديهم أعراضاً للاختلال العقلي .

لنفهم بوضوح ان كل المرضى العقلين يعتبرون في نظر القانون ذوي خطورة على انفسهم وعلى الجمهور . وطبيب الامراض العقلية ملزم بإحالتهم لانه يعد مسؤولاً عن أفعال المريض منذ لحظة فحصه له . وليس طبيب الامراض العقلية عرافاً ، ولا ضارب رمل ، ولا ساحر ، وهو لا يستطيع ان يتنبأ بما اذا كان صاحبه المختل عقلياً سوف يأتي بشيء بعيد عن السواء . ان **الخطر** قائم على اي حال . وكيف لنا ان نتأكد انه لن يقع ! من الذي يستطيع ان يقرر ما اذا كان شخصاً سوياً معيناً سوف لا يقدم غداً على قتل نفسه او قتل سواه ؟

هل لكم ان تروا الى اين يؤدي كل ذلك ؟ ان ادانة المريض لا تعني في الحقيقة انه يشكل خطراً على نفسه او على المجتمع ، ما دام في الامكان عملياً وضع اي شخص في هذه الفئة ، بل انها تعني : **ان هذا الشخص ليس مسؤولاً عن اية أفعال قد تعرضه او تعرض الجماعة للخطر لانه مختل العقل** . وهو ما دام ليس مسؤولاً ، ولا يمكن بالتالي حبسه نتيجة لاقدامه على الفعل ، فان حبسه مقدماً هو الامر الأكثر لياقة .

لماذا يذهب اي مريض الى اية مستشفى ؟ لكي يشفى . ولكن ارسال المريض العقلي الى مستشفى الامراض العقلية يستهدف اولاً تخليص المجتمع منه ، وثانياً

تخليص أسرته وبيئته منه ، ولا يأتي هدف شفائه الا اخيرا فحسب ، تلك هي الحقيقة التي تعرضت للكتمان . اذا ما اراد الطبيب ان يرسل بشخص مختل العقل الى المستشفى لعلاجه ، فان عليه اولا ان يدينه رسميا حتى ولو كان المريض هو اكثر اهل الارض وداعة . وبذلك فانه يصبح موسوما بالفعل . ولتحل اللعنة على كل من سبق له ان كان في احدى تلك المؤسسات ! لقد طردهم المجتمع .
وحين وصلت في عرضي الى تلك النقطة ، حدث شيء مدهش : قاطعني احدهم . هل يعني ذلك ان احدهم كان منتبها ؟ كانت الممرضة ايما هي التي تقاطع متسائلة :

«ما الذي يجب عمله ؟»

اجل ، ما الذي يجب عمله ؟ اولا يجب ان تتلاشى تلك المؤسسات الشبيهة بالنسجون . لا تنزعجوا ! فإني لا اطالب بضرورة ترك هؤلاء الاشخاص غير المسؤولين تجولون كيفما شاءوا . ولكن ما ينبغي ان يختفي هو تلك المصححات التي تجمع بين السجن والقبر . ينبغي ان تتحول كل مؤسسة عقلية الى مستشفى منظم يحيل اليه اطباء المرضى العقلين **للعلاج** ، كما يحيلون مرضى القلب الى المستشفى الخاص بالامراض الباطنية . لا ينبغي لاحد ان يوصم وان ينبذه المجتمع لانسه مريض . فشفاء المريض سوف يذهب هباءا اذا ما كان عليه ان يحمل وصمة بعد مغادرته المؤسسة .

وهنا قال الطبيب المسن «مستشفى للامراض العصبية»
اجل ، مستشفى للامراض العصبية . ان كل مستشفى للامراض العقلية به قسم للامراض العصبية ، حيث يتم الاحتفاظ بالمرضى «المسؤولين عن افعالهم» . وينبغي ان يكون الامر على عكس ذلك ، بمعنى انه ينبغي ان يكون في المستشفى الكبير الخاص بالامراض العصبية قسما صغيرا مغلقا يعزل فيه مؤقتا أولئك الذين تمثل حريتهم تهديدا بالغا للآخرين . اجل ، ان هناك مثل تلك الحالات ، وينبغي تقييد اصحابها ، ولكن طالما كانت حالتهم تجعل ذلك امرا لا مفر منه . ولتصدقوني اذا ما قلت ان هذه الحالة لا تستمر طويلا . بل انها الان - في عصر العلاج الايجابي - تمر بأسرع مما كانت عليه في الماضي .

وانهيت اليهم باهتمام ، انه كان لديّ في مصحة ليبوتميزو Lipotmezo لمختلي العقل مريضا ظل محبوسا لاربعين عاما . وظل راقدا على سريريه بلا حراك خلال الاربعين عاما . وحينما سألته عن حاله ، فانه هز رأسه وقال : «حسنا ، اشكر» وكان هذا هو كل ما فعله . لقد كان جثة حية طوال اربعين عاما .

لم ينته الاجتماع بعد ، ولكن مستخدم المطبخ الذين اصابهم الملل عادوا بائسين الى المطبخ . ان الوجبات ينبغي ان يتم إعدادها اليوم ايضا على اي حال . وقد منحني ذلك وقتا لكي افكر : لماذا كنت اتحدث الى أولئك الاجلاف ؟ فيم كانت بل تلك التهويمات ؟ لقد كنت اتناول قضايا كبرى في الطب العقلي لم تكن تثير حتى اهتمام أولئك الذين تعنيهم . وقلت لنفسي ، فلنكف عن الاحلام ، ولنعد

ادراجنا الى جرانج .

واستطردت ، بعد ان فكرت مليا ، ان المجتمع ينبذ مختل العقل . ولنسلم بأن المجتمع لا يقدم على ذلك دون سبب ، اي ان المريض العقلي هو الذي يدير ظهره للمجتمع حين يرفض ما يسمى بالطريقة السوية للحياة . انه يدير ظهره له ، ولكن لا ينبغي ان نصدق ولو للحظة واحدة انه ليس في حاجة لمجتمع سوي . ان غالبية مختلي العقل يحتاجون الى حياة اجتماعية بنفس القدر الذي يحتاجها به الاسوياء ، حتى ولو بطريقتهم الغريبة . انهم في حاجة الى العمل ، والتسلية ، والحب ، والتقدير ، والحرية . هذه هي الحقوق الانسانية الاساسية ، ليس كذلك ؟ وتلك بالتحديد هي الحقوق الاساسية التي ينكرها المجتمع على مختلي العقل . انه يحرمهم منها على سبيل الخوف ومن اجل الراحة ، بل وربما على سبيل اللامبالاة وإرضاء الذات . ان رأيي في الانسانية ليس بالرأي بالغ السمو ، ولكن اعتقد اننا اذا عرفنا ما نفعله بأولئك التعساء ، فاننا سوف نتراجع عن قسوتنا . اذا ما اتضح لنا الى اي حجم ندفعهم ، فاننا سوف نفزع ونستشعر الإنم ونحاول ان نعوضهم عن ذلك قدر المستطاع ، اذا لم يكن لشيء آخر ، فمن اجل اننا نحن او امهاتنا او ابناءنا ، او اخواتنا ، او اصدقاءنا ، او احباءنا قد يدخلون يوما ارض أولئك الموتى الاحياء .

اسمحوا لي ان اقول لكم ماذا ينتظر أولئك الذين يرسلون الى مصحة لمختلي العقل . انني لا اروي لكم قصصا ملفقة بل انها أمور تحدث كل يوم في كل انحاء العالم . ولنتناول حالة ولد يبلغ التاسعة عشر من العمر . كان يمضي في دراسته دون متاعب ولم يكن هناك ما يؤخذ عليه . كان طالبا ممتازا ، وموهوبا ، وولدا مثابرا هادئا . ولكنه بدا يتصرف بشكل غريب أصبح يكثر من الخروج ولا يستطيع ان يقول اين كان . أصبح متعبا ومستفزا ومهملا لدروسه ، كما قلّ نومه في الليل وازداد انطواء على نفسه اكثر فأكثر في النهار . وبدا في السرحان والتمتمة بينه وبين نفسه ، وأصبح يصد ببرود والديه القلقين . وأصبح غريبا عن اصدقائه ، وأخذ يتصرف بشكل غريب الاطوار . وذات يوم ، تجمع حوله زحام في حديقة الحيوان فلقد كان رجلنا الشاب يقف على صخرة واعطا الدببة .

لقد وقع فريسة الاختلال العقلي بلا شك .
وتم استدعاء البوليس وعربة المستشفى ، ونقلوه بالفعل الى اقرب مصحة لمختلي العقل .

ان اضطراب البشر للوقوف امام طبيب والإجابة على مثل تلك الاستفسارات لما يسبب له قدرا من الضيق . ولكنه اجاب في هدوء : ان اسمه كذا ، وأنه يقيم في المكان الفلاني ، وأنه ملتحق بالمدرسة الفلانية . لقد كان حقا يبشر في حديقة الحيوانات منذ لحظات ، غير ان القديس بطرس هو الذي امره بذلك . وكان هذا كافيا للطبيب المناوب ، فلم يضع وقتا اكثر من ذلك . وتم ارسال المريض الى الملاحظة . وصلصت المفاتيح في يد شخص متجههم يرتدي بزة زرقاء يقول له :

- تفضل من هنا . ويظهر أمامه باب كبير داكن اللون ، يفتح له ويصطفق من ورائه ، ويجد المبشر نفسه وحيدا في دهليز غريب . حتى الرجل ذو البزة الزرقاء لم يستمر في صحبته . ويقف هنالك وحيدا تماما في دهليز ينتمي الى عالم غريب . ويشعر ببطء في التجول في الدهليز الغريب ، دون ان يفهم شيئا . ولا يلبث ان يمتلئ قلبه بشك مرعب ، انها المصححة . لقد اودع في مصحة لمختلي العقل ... لقد أخبروه عند وضعه في العربة انهم يأخذونه الى منزله ، ولكنهم بدلا من ذلك اتوا به الى مصحة لمختلي العقل ، رغم انه عاقل تماما ، ولم يفعل سوى محاولة تنفيذ تعليمات القديس بطرس بوعظ الحيوانات ... النجدة !! ... ويستدير مهاجما الباب بقبضتيه ، طارقا اياه ، رافسا له ، منقضا عليه . النجدة !! اني اريد الذهاب الى منزلي ! دعوني اخرج !.

ويأتي جريا ثلاثة او اربعة من الرجال ذوي البزات الزرقاء . دعوني اخرج ! حالا ! اني آمركم ! ويتنبه فجأة فاذا به منطرح ارضا ، وإذا بشخص ما يحتم على صدره ، وهو يدمدم والزبد يغطي شفتيه : ايها القاتل ! سوف يتولاك القديس بطرس وأخيرا ، ينهض ، وينسحب الرجال ذوي البزات الزرقاء ، ويحاول ان يحرك ذراعيه فلا يستطيع . لقد وضعوه في جاكته من نوع غريب ، تقيّد ذراعيه على صدره . ويلقي بنفسه ارضا ، ويتدحرج ، والصرخ ، والزبد يملأ فمه كالكلب ، ولكنه لا يستطيع فككا . ويتبين بشكل ضبابي اقتراب شخص ما ذو بزة بيضاء ، يفرس ابرة في ذراعه وبعدها يستغرق في النوم .

ويصحو مترنحا ، لا يعرف اين هو . انه على فراش غريب تحيط به وجوه غريبة . كيف جاء الى هنا ؟ ويحاول ان يتقلب في السرير - انه موثوق فيه . لا احد يوليه اي اهتمام . لقد نبذه الجميع ، حتى امه ، وحتى القديس بطرس . ويتأوه ، ولا ينتبه احد . وتنهمر دموعه ، فلا يلحظها احد ، ولا يكفكفها احد . وتدور به الدنيا ببطء ، كما لو كانت في ضباب . فزع مرعب يأخذ بخناقه فلا يجرؤ على الصراخ . ويظل هكذا ولمدة طويلة راقدا دون حراك .

وأخيرا يخطو نحوه رجل في بزة زرقاء . « حسنا ، كيف حالك يا ولدي ؟ لعلك لن تسبب لنا مزيدا من المتاعب اليس كذلك ؟ عليك بالهدوء » - ويبدأ في حل الوثاق . ويوجه حديثه الى رجل آخر ذو بزة زرقاء . « فلنحل وثاق صاحبنا بسرعة ، فقد يأتي الرئيس الى هنا في اي دقيقة ! »

ويحاول تحريك أطرافه المخدلة ، ويحملك فيما أمامه في ذهول . ويفتح الباب ، ويحضر كبير الاطباء ، (يبدو انه لا يحب أقمصه الكثاف) ويتحدث الى المرضى الذين كانوا يستلقون او يقفون في انتباه . ويسأل بطريقة ودودة : حسنا ، كيف حالك ، كيف حالك ؟ ما الجديد يا سيد كيس ؟ كيف كان نومك يا كوفاتشي ؟ ماذا عن الاصوات المزعجة يا صديقي وازركوف ؟ ويصل الطبيب الى المبشر . ويهمس طبيب الامتياز بأن المريض الجديد كان متوترا ، وقد أعطيت له

جرعة من عقار السكوبولامين . ويهز كبير الاطباء راسه ويراقبه باهتمام . حسنا ايها الشاب كيف حالك ؟ ما اسمك ، يا صديقي ؟ لماذا لا تجيب ؟ هيا ، هيا ، لا داعي لان تخاف من اي شيء هنا ، ليس هناك من سوف يؤذيك . في الحقيقة ، ليس لطيفا منك ان تحجم حتى عن اعطائنا اسمك وتوجه بحديثه الى طبيب الامتياز ، حالة حادة ، مرحلة سلبية . خذ تاريخ الحالة ، وابدأ العلاج بالصدمات الكهربائية بأسرع ما يمكن . ان كل ذلك انما يعني انه قد تعرض مؤخرا لذهان المراهقة ، وانه الان في حالة انسحاب ورفض . واصبح على طبيب الامتياز ان يسجل التاريخ الاكلينيكي وان يبدأ في العلاج بالصدمات الكهربائية .

واخيرا ، يأتي المريض ، ويأخذه من ذراعه ، ويهبط به الدهليز ، وتصلصل المفاتيح ، ويسمع صوت ابواب تفتح ، انه مأخوذ الى عيادة طبيب الامتياز . ويجلس مواجهها الطبيب . وكان الطبيب رجلا طويلا نحيفا ، يوجه استفساراته بسرعة ، ويدون ملاحظاته بسرعة كذلك . اسمك ، سنك ، المدرسة التي التحقت بها ، هل توجد حالات خلل عقلي في اسرتك ؟ . وكان يجيب ببطء ، ويشعر بأنه مترنح الى حد ما ، ربما بسبب الحقن . وتستمر الاسئلة السخيفة : هل يسمع اصواتا غريبة ؟ هل لديه تهيؤات بصرية ؟ هل يتلقى تعليمات او اوامر ؟ الا يشعر بالخوف ؟ الا يشعر بالقلق ؟ هل ينام نوما جيدا ؟ ماذا عن حالة الهضم لديه ؟ ما حاصل 7×4 ؟ 11×11 ؟ ما هي عاصمة ايطاليا ؟ ما اسم رئيس الجمهورية ؟ ما الفرق بين السلم النقالى والسلم المنزل ؟ وما الى ذلك . ومضى يجيب في حذر ، ويشرح كيف ان القديس بطرس قد أصدر اليه تعليمات تقضي بأن عليه أن يعظ الحيوانات ، ولكنه يود الان ان يمضي الى منزله . آها ، القديس بطرس ، هه ؟ حسنا ، إخلع ملايسك . وينظر الطبيب الى عينيه ، ويتسمع قلبه ويختبر منعكساته العصبية . حسنا ، أشكرك ، يمكن اعادته الان .

ومرة أخرى ، المريض ، والدهليز ، والباب ذو اللون الداكن ، وصليصل المفاتيح ، وصوت فتح واغلاق الابواب . أصبح الان وحيدا . وحيدا بين كل هؤلاء الناس . احدهم يغني بصوت عال ، والآخر يصلي ، وأغلبهم كانوا واقفين او مستلقين دون ان ينسوا ببنت شفة . كان هناك صمت ، بالتأكيد كان هناك صمت . وبدأت الحياة تدب في العنبر ، وأدخلت القزانات ، وصلصلت الاطباق . فلتصطف من اجل العشاء ! ويظهر القديس بطرس في ركن الحجرة ، ويلوح له ، ثم يختفي . وفهم هو الرسالة : لا تتناول اي عشاء ، انه مسموم . ويلقي بالطبق بعيدا ، فيتدحرج تحت الفراش . ماذا حدث ايها الصديق ، ان تآكل ؟ ويتكور هو في فراشه ويجذب الملاءة على رأسه . واخيرا يحضر الطبيب ، ويجلسونه على الكرسي قسرا ، ويمسك به رجلان ، وينصب الحساء في فمه من خلال أنبوبة من المطاط . بالهناء والشفاء .

ويحل الظلام . ويتغير المرضى وتبدأ دورية الليل . ان المرضى الجدد شبان مرحين شغوفين بلعب الورق . جلسوا الى المائدة واخذوا في اللعب وراح

المرضى يتحدثون الى انفسهم او يستغرقون في النوم . ونشبت مشاحنة بين اثنين من المرضى وشرعا في المراك . واستمر لاعبو الورق في لعبتهم . وحين ازدادت الجلبة عنفا ، وثب المرضى الى ما بين المتقاتلين ، وأوسعوا الاول ضربا ، ثم الثاني . واخيرا عاد الصمت كما كان .

لقد أصبح في الامكان سماع طرقة غامضة تصدر من ركن الحجرة - اشارة من القديس بطرس الذي تمكن بفضل الاشعاع من اعلام نبيه بأن أعداءه هم الذين حبسوه هنا ، وأنه يجب ان يتحمل وأن يعاني الى ان تحل ساعة الخلاص . وفي الصباح ، كتب الممرض في سجل التقارير ان المريض الجديد ركع وصلى طوال الليل . كيف عرف ذلك ؟ ترى هل استيقظ من وقت الى آخر لاي سبب طارئ ؟

وقبل الظهر ، ارتفع من الممر صوت حاد : العلاج بالصدمات الكهربائية ! هرج ، وجري صعودا وهبوطا ، وصياح . المرضى يستدعون بالدور ، بعضهم يذهب في هدوء ، والبعض في تمنع . احد المرضى يلقي بنفسه ارضا ويصرخ ، لا ، لا ! فيتم سحبه من شعره . ويسمع الرسول اسمه ينادي ايضا ، ويمسك به ويؤخذ الى الحجرة الاخرى . وبينما يقومون بخلع حذائه ، يرى مريضا يشخر على احد الاسرة ، بينما يضغط شخص ما على سرير آخر ، ويمسك به خمسة رجال مقيدين اياه ، وقد وضع جهاز كهربائي على راسه . ويضغط الطبيب على الزر ، ويلقي المريض بنفسه في الهواء مطلقا صرخة حادة ثم يتشنج ، ويمتلئ فمه بالزبد . ولا يستغرق ذلك سوى دقيقة ، ثم يسترخي الجسد المشدود ويرقد بلا حراك ، ويضغط احد الممرضين على صدره ، ويقوم الطبيب بقياس نبضه . ويقول الطبيب «اللي بعده» ويندفع بالرسول الى الامام . ويحاول الاعتراض ، ولكن خمسة من الرجال يشلونهم عن الحركة . ويود لو يصرخ . ولكن انبوبة من المطاط توضع قسرا في فمه . ويتوارد على ذهنه : رباه ! امي ! الفو ! الموت ! ، ثم يحس كما لو كان القلي به من الطابق الرابع .

ويعود الى الوعي وهو على سرير غير مألوف . اناس يأتون ويمضون ولا يعيره ايهم أدنى انتباه . ويحضر اليه احد الممرضين حذاءه ، ثم يدفع الى حجرته حيث يمضي الى فراشه ويستغرق في النوم .

ولم يستطع مؤخرا سوى تذكر ان القديس بطرس قد فسر له حلمه ، قائلا له ومشيرا الى الممرض الذي كان مستغرقا في مباراة شطرنج . يجب عليك ان تنتقم . ويختفي القديس بطرس ، ويقف الرسول مترنحا ، ويمضي مباشرة الى الممرض ، وبعض اذنه . وبعد ان ينفذ ما كلف به يوضع قسرا في قميص الكتاف، ويؤخذ الى عنبر «الخطرين» .

انه الان يقف هنا في الركن المظلم من الممر ، متصليا ، دون حراك ، منكس الرأس ، قلبه ممتلئ مرارة وضيقا ، ولكنه غير مبال ومنعزل تماما عن العالم . انه لا يتقبل ما يجري حوله ولا ما يجري له ، ولكنه وطد العزم على تقبله . هل

ترى الفرق ؟ مضت سنوات منذ الموعظة . ولقد زاره القديس بطرس مرات قليلة ، ولكنه لم يعد يصدق القديس بطرس . ولم يعد يرغب في وعظ الحيوانات ، ولم يعد يمضي الليالي مصليا ، ولم يعد يعرض الممرض ، ولم يعد يرفض الطعام (انه يعرف انه مسمم ، ولكنه لا يهتم) ، ولم يعد يعترض حين يوضع تحت الجهاز الكهربائي ويلقى به من الطابق الرابع . لقد أصبح لا مباليا . لم يعد راغبا في العودة الى المنزل . أمه تزوره من وقت لآخر ، فيلقاها ببرود . وحين يتلقى ربطة الاغذية ، لا يلاحظ ان نصفها قد فقد حين تسلمه اياها ، وأن النصف الآخر يختفي بعد ذلك . انه لا يوضع في قميص الكتاف حاليا ، لانه لم يعد عدوانيا . وأحيانا ما ينشب عراك في العنبر ، ولكنه لا يوليه اهتماما . وإذا ما اخذ مريض جديد في الصراخ او السباب او تكرار افكاره الهذائية ، فانه لا يولي ذلك اهتماما . اذا ما كان ثمة شيء يثير اهتمامه ، ترى ما هو ؟ ما الذي يفكر فيه ؟ ليس من طريقة لمعرفة ذلك . حدث ذات مرة ان صحبتته والدته في جولة في الحديقة ، كمجرد تجربة ، فاذا به ينظر حوله في ذعر ويعود مسرعا الى ما خلف الباب المغلق . يقول الاطباء انه قد أصبح فارغا وأنه يستنفذ ويتبلد . هل هذا صحيح ؟ يبدو بالتأكد كما لو ان شيئا ما قد مات في داخله . انه ما زال يعيش ولكن دون حياة .

ليس في استطاعة احد ان ينبيء عما اذا كانت الخبرات المدمرة للايام القلائل الاولى قد أضرت به أم انه كان سوف يصبح كذلك على اي حال . ربما ، وربما لا . ربما ، اذا لم يلق به الى تلك الهوة المفرعة بمجرد انفجار اختلاله العقلي ، واذا كان قد تلقى لمسة من شفقة او فهم ، واذا لم يخدع ، ويعامل بعنف ، ويقيد ، ويلقى به من الطابق الرابع ، واذا لم يدس بالاقدام ويعامل معاملة الحيوانات ، واذا لم ينادِ أمه بلا مجيب ، واذا لم يترك لنفسه تماما حسنا ، من يعرف ؟ ربما كان سيظل واقفا هنا متصلبا ، صموتا ، غير مبال ، شاعرا بالضيق . ولكن ربما لا ! ان هذه الـ «ربما» هي شغلنا الشاغل . كيف لي ان أوضحها ؟ اذا ما قفز احد الناس من نافذة في الطابق الثالث ، وأوشك ان يتحطم ، ما الذي تستطيع ان تقدمه له ؟ لقد قفز بالفعل وهو آخذ الان في السقوط ، فما الذي تستطيع ان تفعله ؟ فلتدفع تحته بسرعة بحشية لينة حتى لا يسقط على الارض الصلبة . قد يؤدي ذلك الى عدم تحطيمه تحطيمًا بالغا . ان ما أعنيه هو ان الحشية اللينة هي نحن - قسم الامراض العقلية في جرانج .

وعلى العموم ، فان أولئك الذين يأتون إلينا ، يكونون قد سقطوا والحقوا بانفسهم اذى بالغا بالفعل . انها «الحالات المستعصية» كحالة رسول القديس بطرس كما أصبحت عليه الان . وهم ليسوا متشابهين على الإطلاق ، فهم يختلفون عن بعضهم البعض كثيرا : فقد يقف احدهم متصلبا ، ساكتا ، مقطبا ، بينما الثاني كثير الكلام ، متفتحا ، مرحا ، ويتحدث الثالث عن وساوسه ، ويتسمم الرابع في بلاهة وهو غارق في سباته ، ويتحدث الخامس الى اشخاص غير مرئيين ،

بينما لم يعد السادس يرى اية هلوسات . وبعبارة أخرى ، فانهم يختلفون كثيرا ، وكل فرد منهم حالة مستقلة . ولكنهم يتشابهون في ناحية واحدة : انهم قد فقدوا صلتهم بالمجتمع ، ولم يعد لهم انتماء على الاطلاق . انهم عاجزون عن الانصياع والمواءمة ، كذلك فان المجتمع لا يتقبلهم .

وهنا يأتي دور مصحة جرانج ، فبدلا من المجتمع الحقيقي ، ينبغي خلق مجتمع مصنوع من اجلهم . عالم يوائم نفسه لهم ، منزلا لمن لا منزل له يستطيعون فيه ان يحسوا انهم في منازلهم حقا .

ولكن مهلا ! ان المجتمع المصنوع لا يقام من عناصر مصطنعة ! انه ينبغي ان يقام من شيء حقيقي ، ومنزل حقيقي ، وحب حقيقي ، وثرثرات وشجارات حقيقية ، وعمل حقيقي ، واهداف حقيقية ، وتسلية وصداقة حقيقتين وحرية ونظام حقيقيين . ينبغي ان يعيش مرضانا حياة حقيقية ، وينبغي ان يكفوا عن كونهم موميات حية ، فلنتجه الى ذلك مباشرة . ينبغي ان تكون البيئة التي نخلقها مليئة بالحياة . ترى لماذا ادعوه رغم ذلك مجتمعا مصطنعا ؟ ذلك لاننا نختلف عن المجتمع الحقيقي في نقطة وحيدة : نحن لا نتوقع من المرضى ان يتأموا معنا او على الاقل ان تتم تلك المواءمة في كل شيء . على العكس ، فان علينا نحن ان نوائم انفسنا معهم ، بقدر ما تتطلب امراضهم ذلك .

ليس صحيحا ان المرضى لا يستطيعون التكيف على الاطلاق ، ولا يمكن تدريبهم وتشكيلهم . ان من يقول ذلك - ايا من كان - لا يعرف المرضى العقلين . ليس امامنا سوى شيء واحد علينا ان نفعله : ان نصمم الاحتياجات وفقا لفرديتهم ووفقا لمرضهم . مخطيء من يظن انه يستطيع مجادلة المريض العقلي بحيث يتخلّى عن هلوساته . مخطيء من يتخيل انه يستطيع خلال الحجج المنطقية اقناع المريض بسخف هذائه . والخطأ كل الخطأ أن يعتقد المرء ان مختل العقل بهلوساته وبهذائه، والمريض الأبله او المعتوه ، او باختصار ، غالبية المرضى العقلين جميعا ، لا يمكن جعلهم يعيشون حياة حقيقية ، ولا جعلهم يحبون الحياة ، ويجسّون منازلهم ، ولا جعلهم يتقبلون موضوعا جديدا ادخل ببراعة في حياتهم ، ولا جعلهم يندمجون في هذه البيئة التي تشكلت من اجلهم .



«العلاج بالعمل» تعبير خداع ، ينبغي ان تكون فيه على حذر . فمن الخطأ البين الاعتقاد بأن جعل المرضى يعملون هو ما نعينه بالعلاج بالعمل . ان العمل يقدم مساعدة بالغة ، بل انه قد يصنع الاعاجيب . حتى انه قد يؤدي احيانا الى الشفاء ، رغم ان ذلك ليس بالامر المؤكد . ولكنه يستطيع ان يبعث الحياة في الموات . ولكي يتحقق ذلك فانه ينبغي ان يكون عملا حقيقيا وليس سخرة . ينبغي ان يكون ممتعا وليس اجباريا . هل في هذا شيء غير عادي ؟ كلا

على الإطلاق . فنفس الشيء صحيح بالنسبة للأصحاء الأسوياء . ان كلا من البطالة والسخرة على حد سواء امر مدمر للاعصاب . والامر لا يتطلب من المرء أن يكون مختل العقل ليكشف ذلك . ما الذي يدعونا الى الدهشة اذا ما أصبح نزلاء المؤسسات العقلية غير مباينين وهم في تلك الحالة من البطالة التي تستمر لسنوات طويلة ؟ ولماذا نظن ان السخرة يجب ان تساعدكم ؟ فلنعامل مختل العقل ، كما نحجب ان يعاملنا الناس .

لم يحدث أن شفي احد بمجرد العزق بالفأس وقطع الاخشاب . ينبغي دفع المريض الى الاستمتاع بعزق الارض ، والى ان يصبح تقطيع الاخشاب امرا ذو معنى لديه . انه اذا ما أحب عمله ، امكننا القول بأن نصف الشفاء قد تحقق بالفعل . ولكن فلأكرر مرة أخرى : ليس العمل هو الذي يسبب الشفاء ، بل البيئة التي خلقناها للمريض . أن اتاحة فرصة العمل تعد احدى العوامل البالغة الاهمية، ولكن هناك الكثير من العوامل الاخرى . فاولا ، يجب ان يشعر المريض بالحرية . وليست الحرية مجرد عدم اغلاق الابواب ، بل انها تعني ان المريض انما هو هنا برغبته ، وأنه يجب ان يوجد هنا ، وان يعمل ويشارك في حياة الجماعة . وبعبارة أخرى ، فانه يجب ان يشعر انه في منزله ، وأنه ينتمي الى شيء ما . يجب ان يكون جزءا من جماعة ، يستمتع بميزاتها ، ويعترف بنظمها . وبعبارة أخرى ، فان طريد المجتمع يجد مجتمعا من جديد . وينبغي ان نكون على ثقة من انه سوف يلحظ القوانين الاساسية للحياة في هذا المجتمع ، وأنه سوف يطالب بتقبل شذوذه ، وفي نفس الوقت فانه سوف يتقبل شذوذات الآخرين .

استطيع ان ارى على وجوهكم انكم تعتبرون هذا من قبيل التمنيات . وأعترف بأن هذا ليس بالعمل السهل ، كما انه لا يمكن انجازه بالنسبة لكل مريض . وهو بالتأكيد امر لا يمكن ان يتحقق الا اذا شاركنا جميعا في خلق البيئة التي يصبح «عمل» المريض بدونها مجرد سخرة وليس علاجا . انها ليست ببساطة مهمة قاصرة على الطبيب او الممرض ، بل هي مهمتنا جميعا على السواء : السائق والبستاني والممرض والطبيب ايضا .

ما الذي يجب علينا أن نفعله ؟ - هذا هو ما تودون معرفته ، أليس كذلك ؟ ان عليكم أن تفتنوا بالمرضى . تحدثوا اليهم ، واسمعوا لهم ، واهتموا برغباتهم ومسراتهم وغضباتهم ، استدرجوههم الى العمل والترويح . وباختصار فان عليكم أن تحبوا المرضى ، ولسوف يعرفون لكم صنيعكم . ان كلمة ودودة يمكن ان تجعلهم يفعلون اي شيء ، وحتى وهم في قمة استشارتهم فانه يمكن تهدئتهم عادة . ولسنا في حاجة الى القول بأنه يجب ألا تساء معاملتهم ، حتى ولو هاجمونا . هناك من المرضى من لا يستطيع ببساطة أن يتخيل التعامل مع المرضى العقلين دون ضربهم . ولكن هؤلاء سوف يمرون بأوقات عصيبة لان مرضاهم سوف يلجأون الى العنف - وسوف يكون لديهم مبرر جيد لذلك . ولكنكم اذا ما لم تؤذوا المرضى ، فإنكم سوف تقضون اوقات طيبة وكذلك المرضى . وسوف لا يكون بالشيء الهين، فان علينا أن نمارس منهجا جديدا لم نصل حتى الى توقع مفاجآته ، ولكنه لن يكون

بالغ الصعوبة على اي حال . لماذا يكون حبنا للمريض اصعب من كراهيتنا له ؟ لماذا يكون اشفاقنا على المريض اصعب من قسوتنا عليه ؟ هذا هو لب الموضوع . وسوف تتوالى البقية من تلقاء نفسها . اننا لو استطعنا تحمل صحبته بعضنا بعضا لمدة ستة شهور - أعني ان تكون انت لي ، وأنا لك ، والمرضى لنا ونحن لهم - لشهدنا شيئا بالغ الاهمية : هو بالتحديد ان سيئي الحظ سوف يصبحون محلا للحسد . ان اول انطباع لاي شخص يزور المصحة هو آه ، لهؤلاء التعساء المساكين وسوف يكون الامر مختلفا آنذاك . سوف يقول زوارنا يا إلهي ، ما أسعد كل من في هذا المكان ... اليس هؤلاء الناس محظوظون حقا انهم يستمتعون بحياتهم ، يا للفرابة انهم سوف يقولون ذلك اذا كان هذا ما تريدون . بل ان بعض زوارنا قد يقولون ان الحياة هنا اكثر سلاما عنها في العالم بالخارج ... والله انه لن يسيئني ان اكون مريضا في جرانج . وبالطبع فان ذلك لن يكون من جانبهم الا من قبيل الدعاية ، ولكن الناس لا يقدمون عموما - حتى ولو على سبيل الدعاية - على التعبير عن رغبتهم في العيش في مصحة عقلية . وحين يقدم اول زائر على التصريح بتلك الدعاية ، فاننا نكون قد كسبنا معركة جرانج .



وفي المساء قالت السيدة الاولى لكبير الاطباء «تلك هي الطريقة التي تتصرف بها حين لا تكون راغبا في القتال . واني لأتساءل عما تكون عليه طريقته في القتال . »

الفصل الثالث

المتعات الأولى

يقولون ان البداية دائما هي اصعب المراحل . ولكن خبرتي في جرانج كانت على عكس ذلك : لقد كانت البداية سهلة نسبيا ، ولم تأت المصاعب الا مؤخرا . وحينما أعود الان بذاكرتي الى ما حدث من تغيرات مفاجئة في جرانج ، فاني ادهش كثيرا للسهولة التي تمت بها .

في الحقيقة ، لقد ساعدنا الحظ .

لقد دبرنا منذ زمن ليس بالبعيد التخلص من اكثر المشاغبين خطورة . حقيقة انني كنت معتدا بقدرتي على التعامل مع الاحداث الجانحين ، حتى انني قد ألّفت كتابا عنهم ، ولكنني كنت مسرورا بالا نتعرض لمضايقاتهم . ان الكتابة عن المشاغبين شيء والحياة معهم شيء آخر .

وعلى اي حال فقد تظاهرت بالاسف لحرمانني من تلك المهمة النبيلة . واكد لي الطبيب المسن انهم سوف يعودون . وعلى اي حال فقد كان لدينا ما يكفي من المتاعب بدونهم . والحقيقة انهم قد عادوا بعد ذلك مؤخرا ، عادوا جميعا عدا واحدا منهم شئق لقتله طفلا .

وكانت ضربة الحظ الاخرى هي ان الطاهية ، التي كان صراخها يرعب الجيرة كلها ، اخطرتنا برغبتها في ترك العمل . لم يكن الطبيب المسن يقترب مطلقا من المطبخ دون ان تعتمل في قلبه ثورة ، وكان يبتلع الغضب بدلا من الطعام الجيد كلما رأى الطاهية تموّن ضيوفها وخلصائها بأطايب الطعام ، وتلقسي للمرضى بالفضلات .

صحيح اننا لم نحرز كسبا كاملا بالطاهية الجديدة ، فمع ان امانتها كانت موضع شك الا انها على الاقل لم تكن تصرخ . وكانت تقول في صوت رقيق عن طهيها الذي لا طعم له «وهل يطعم المجانين في افضل من ذلك !» وكانت بالطبع تطهي لنفسها طعاما مستقلا .

وسرعان ما حدث الصدام الاول مع الطاهية النهمة . لقد اقدمت ببساطة على فتح الدواليب ، واخرجت خزينها الخاص المخبأ ، وامرت بأن يتلقى المرضى وهيئة الادارة جميعا منذ الان نفس الطعام ، على أن يحصل المرضى على افضل اصنافه . وبدأت على وجه الطاهية ابتسامة ازدياء . حركة تطهير جديدة ! ولكن حين اعيد الطعام غير المستساغ للمرة الثانية ، واضطرت الى اعادة طهيها من جديد ، وحين وجدت ان الطبيب العنيد لم يمل ابدا من فتح الدواليب ، حيث كان يجد دائما الكعك الفاخر او القشدة . حين وجدت ذلك اقدمت على مشاجرة هستيرية ، وهددت على اثرها بتقديم اخطار بترك العمل ، وسبت رئيسها سبا عنيفا بقدر ما سمحت به حبالها الصوتية الرقيقة ، وأخيرا ، استسلمت وحسنت الطعام . ولكنها حين تبينت انه حتى بعد مضي شهور لم يعد هناك سبيل للعودة الى طريقة «وهل يطعم المجانين في افضل من ذلك !» فانها يئست وتركت عملها . ولم تستغرق المعركة الحاسمة مع المرضين فترة اطول . لقد صعقوا في البداية لدى سماعهم انهم يجب ان يعملوا . ان يعتنوا بالمرضى ! لا بد وان الرئيس معتوه . لم يسعد بالامر الجديد سوى البستاني ، فهو يستطيع الان أن يتحكم في المرضى . (لقد تخيل أن «العناية» تعني ان يدفع المرضون بالمرضى اليه ، حيث يقوم بالاشراف على تسخيرهم) . ولقد مضى بعض الوقت قبل أن تصبح «العناية» امرا واقعا ، وادرك المرضون تدريجيا انه كلما ازداد ما يبذلونه من جهد ، قلّ ما يصادفهم من متاعب .

وكانت نوبة الليل هي التي أدت الى الصدام المباشر . فقد نام نوبتشية الليل . من الذي يظن ان كبير الاطباء قد يتم على ممرض الليل ؟ وحين فعل ذلك ، كان الممرض يغط في نومه . ولكي يتحاشى المفاجأة ، فقد أغلق عليه الباب من الداخل . وذلك يجعل العمل الليلي سهلا ، ويصبح ممكنا للمرء تبعا لذلك أن يمضي مرحا للعمل في المتجر في اليوم التالي لزيادة دخله . ان من يكون لديه نوبتشية ليلية ثم لا تبدو عليه الرغبة في النوم اليوم التالي يكون موضع شك . ومن تكون لديه نوبتشية ليلية ثم يذهب لقضاء شئونه الخاصة في اليوم التالي لا بد وأنه كان نائما في نوبته .

وأخذت افسر الامور في صبر واناسة ، تحدثت عن الخطر والمسؤولية واللياقة وانصتوا ، وفي الليلة التالية استغرق الممرض النوباتشي في النوم مرة اخرى . بالتأكيد لن يعاود الرئيس مروره ؟ ولكن الرئيس كان جسورا ولم يستسلم الى أن يتخلى نوبتشية الليل عن عادة النوم . واستطاع أن أقرر في رضى انهم قد تخلوا عنها بالفعل . اذا لم يجد الوعظ ، فقد اجدت المراقبة

المستمرة ، التي اقتصرت مؤخرا عليّ مرة كل شهرين او ثلاثة .

وأخرجت الممرض تاتي ، الذي لم يكن مهتما حتى الان سوى بقوائم الجرد، من حجره . واستغرقت وقتا طويلا لأقنعه بتسليم الاشياء الى المرضى . ولقد ظل معتقدا أن بي مسا من الجنون لاصراري على ان التموين انما هو من اجل المرضى وليس العكس . ولقد حاول في البداية أن يمارس الحيلة الشائعة في المصحات العقلية : لقد فقدت بعض الملابس الداخلية من القائمة ، وصاح قائلا :

«كيف لي ان اعرف اين هي ؟ لا بد وان المجانين قد النوا بها بعيدا ، او تخلصوا منها بالقائها في دورة المياه»

«القوا بها بعيدا ، يا عزيزي تاتي ؟ حسنا ، لا بد وان نكون على ثقة من اننا سوف نجدها سريعا ، طالما انهم لا يستطيعون اخفاءها تحت الارض . واذا ما كانت في دورة المياه فان ذلك أفضل ايضا ، انها سوف تسبب آنذاك عطلا وبالتالي فسوف نجدها بكل تأكيد . استمر في البحث عنها ...»

ومضى تاتي غاضبا ، وبعد اسابيع قليلة جاء لهثا وقد عثر على ضالته : «فلتحضر وترى بنفسك لو سمحت ! هنالك قميص مشهور في دورة المياه !» وقد كان القميص هنالك بالفعل .

«لقد رأيت يا عزيزي تاتي كيف كان سهلا ان نجده ؟ اذا ما كان احد المرضى قد وضعه حقا في دورة المياه ، فها نحن قد وجدناه .»

ولقد تعجبت كيف لم تجد اية قطعة من الملابس طريقها بعد ذلك الى دورة المياه تحت اية ظروف . لم اكن اصدق ان المرضى يمكن ان يضعوا ملابسا في دورة المياه على اي حال - لماذا يفعلون ذلك ؟ لقد كنت اكثر ميلا الى اعتبار ان الممرض قد اخذ القطع الاخرى الى منزله وباعها .

انني لا اعرف ما اذا كان تاتي قد فعل ذلك من قبل ام لا ، ولكنه بالتأكيد لم يفعل ذلك فيما بعد . لم يفقد شيء آخر من قوائمه بعد ذلك ، الا ما قد يهرب به المريض ، وهو لم يكن مسئولا عن ذلك بأي حال .

ولقد كان الاكثر صعوبة الى حد ما ، هو اقتفاء آثار الصابون ، وفرش الاسنان وأوراق التواليت وما الى ذلك ، أما عن السجائر فحدث عنها ولا حرج . من السهل القول هنا انها قد ضاعت من المريض ، او انه قد ألقي بها بعيدا ، او انها قد سرقت من المسئول عن التموين ، وكثيرا ما يكون ذلك صحيحا . انني لأفكر في مقدار ما يمكن أن يخزنه الممرض اذا ما تعمد ان يأخذ ممتلكات المرضى . ان الميزانية هي التي تلام عادة اذا ما تناثر المرضى الواقفين في العنابر قذرين او رثو الثياب او أنصاف عرابا . كان يقال لنا انه لم تكن هناك نقود . ولكن ذلك لم يكن صحيحا . فقد كانت هناك نقود كافية في الميزانية لشراء الصابون وفرش الاسنان ومعجون الاسنان ، وأوراق التواليت ، والملابس ، وأغطية الاسرّة . واذا ما ترك المريض مهملا ، ومرتديا الخرق ، فان النقود او التموين يكون اذن قد استخدم في غرض آخر .

ولقد استغرقت بعض الوقت قبل أن أتأكد من كل ذلك . كان من السهل وضع نهاية للتجارب الصغيرة التي يقوم بها تاتي ، ولكن المرضى ظلوا يرتدون الخرق . ولم البث أن اكتشفت السبب ، فبينما كنت أحاول اصطيد بسارية صغيرة ، كانت السمكة الكبيرة تسبح حرة مفتبطة . ان أغلب الأشياء لم تكن تفقد من خلال تاتي ، بل انها ببساطة لم تكن تصل الى القسم على الإطلاق . بصرف النظر عما تقوله الميزانية ، فان قسم الامراض العقلية لم يكن يتلقى سوى القليل من المهمات . اما الجانب الأكبر فتلتهم أقسام الامراض الباطنية او الجراحة او أمراض النساء - اي باختصار بقية أقسام المستشفى . ان الخرق «تعد كافية بالنسبة لمختلي العقل» كما انه من الملائم ان ننشيء المستشفى قسما للأمراض العقلية بحيث تستخدم ميزانيته لزيادة رفاهية الاقسام الأخرى .

وينبغي عليّ أن اعترف خجلا انني حينما اكتشفت ذلك كنت أظنه امرا خاصا بجراح . ولم البث ان وجدت ان الامر كان كذلك في كافة مستشفياتنا التي تضم أقساما للأمراض العقلية تكون لها بمثابة البقرة الحلوب . لقد كان الامر كذلك لمئة عام على الأقل . ولقد صدمني ذلك الاكتشاف ولكنه لم يقدم حتى الان مساعدة كبيرة لأقسام الامراض العقلية الأخرى في وطننا بل انه لم يقدم عوناً الى جراح الأبعد قتال استمر سنتين .

وبعد الانتهاء من مستخدمى المطبخ ومن تاتي ومن نوبتشية الليل ، جاء دور هيئة التمريض . وكان ذلك امرا سهلا . أخرجت هامستر من دكان النجارة ، وأخرجت الفجر من دكان صنع الأحذية وأرسلت بهم بين المرضى . ولم يكن هناك داع لإخراج الممرضة ايما . وتركت الفتاة الفجرية العمل على الفور وتلاها بأشهر قليلة صانع الأحذية بعد ان تأكد من انه لن يستطيع الاستمرار فيما كان فيه سابقا . وقال هامستر في اليوم الأول : «لن ابقى هنا دقيقة واحدة» وقال بعد مرور شهر «الف مقابل واحد» ! وكان يعني بتلك العبارة ان الحياة في القسم أفضل ألف مرة مما كانت عليه فيما سبق . لقد ندم هامستر وأصبح ممرضا جيدا . وحضر ممرضون جدد لكي يحلوا محل الفجرية وشقيقته . الممرضة جولي من بودابست ، وهي «سيدة مثقفة» ، وكانت تبدو للوهلة الأولى منحة عظيمة . اما آني تمت ترفيتها من فتاة مطبخ الى ممرضة فقد كانت بالفعل تستحق أكثر من ذلك بكثير . لقد تزوجت هامستر فيما بعد . ثم وصل بيك الملاك رقيق القلب . كان كتلة مكتنزة من العضلات ، وكان يحوز احتراماً هائلا لدى المرضى ، رغم انه لم يكن ليؤذي بعوضة . ولقد كان يخجل من اعتباره «ببيع» المؤسسة . وبذلك اكتملت تقريبا قائمة الاسماء .

لقد كان كل شيء يمضي في الحقيقة منتظما كالساعة . تم التخلص من الكسالى ، والاحتفاظ بأصحاب النشاط الجاد . انهم لم يكونوا يعرفون كثيرا عن العلاج ، ولكنهم اخذوا يتحققون ببطء من ان جراح ليست معسكرا للعمل الاجباري . لقد أدهشهم تبين مدى التأثير الذي أحرزته السيدة الأولى على المرضى

خلال خمس دقائق . انها لم تعمل على الاطلاق في قسم للأمراض العقلية ، ولكنها عرفت من اللحظة الاولى كيف تعامل المرضى . ترى كيف فعلت ذلك ؟ انها ببساطة قد عاملتهم كما ينبغي ان يعامل اي شخص : بحنان . بحنان - وب عاطفة طبعاً - ولكن بحسم . لم يكن لديها اية دراية بالالاعب المهنية ، فهي مثلاً لم تكن تعرف شيئاً عن الجلد بالقماش المبلل ، ولا عن طرح المريض ارضاً بجذبه من شعره ، ولكنها - وهذا هو الاغرب - لم تكن في حاجة الى مثل تلك الالاعب . لقد نسيت منذ زمن طويل انها قد خافت ذات مرة من جوليوس جريم . خافت منه ؟ لماذا حدث ذلك ؟ ان ذلك لم يخطر لها اطلاقاً ببال . وأحاطها المرضى بودهم وحبهم ، فتعجب المرضى وبدأوا في التعلم منها . ولا انكر انني تعلمت منها بدوري .

وبدا المرضى في العمل على الفور . لقد كانوا على استعداد للعمل بسرعة اذا ما توافر اي تنظيم . وحاول البستاني ان يرسي نظاماً ، ولكنه استبقى افضل العاملين وتخلص من الآخرين حتى يمنعهم من تخريب عمله . ولقد أحس بعد ذلك انه وجد معاوناً نافعا في شخص كبير الاطباء الجديد الذي اراد ان يقدم له الايدي التي لم تعمل حتى الان . وقد تحقق ذلك بالفعل ، غير انه لم « يحضرهم » بالسوط . وبدلاً من ذلك فقد خرجنا كلنا سوياً وعملنا مع المرضى ، مشجعين لهم ، مادحين اياهم ، او موبخين وفقاً لما يستحقونه ، الى ان نمي لدى المرضى احساسهم بالمسئولية تجاه مشروعهم الخاص ، وحافظوا على نظام المنزل والحديقة من اجل انفسهم ، وفتحوا ارضهم من اجل انفسهم ، اي من اجل الجماعة التي شرعوا في الانتماء اليها .

لقد ولد «مجتمع مصنوع» من عناصر حقيقية .



في ذلك العام ، وبعد صيف حار قاطظ ، اسهمت نسيمات الخريف الرطبة في خلق مزاج ملائم للعمل لدى المرضى . في المزرعة ، يقوم السيد بوزوكي بالاشراف على حصاد الفلفل الاخضر ، وكان القديس جون هو اخلص معاونيه . (ولقد كانت لي خبرة غريبة مع السيد بوزوكي ، ففي اليوم الاول ظننت انه بستاني . لقد كان يبدو ذكياً كما انه ادار العمل بقدر من الثقة الذاتية جعلني اخاطبه بادب باعتباره السيد البستاني ، وفوجئت حين اخبرني انه مريض) . وكانت روزي ماشيت ، الفصامية بالغة الاضطراب ، هي الاكثر جداً ونشاطاً . ولم تكن تستطيع منافستها سوى الزري فلا تفوت المصابة بالصرع . انني لم ار مطلقاً اقدماً مسطحة بمثل ضخامة قدميها ، لقد كانت تمضي على قوائمها المستديرة التي لم تمنعها من العمل بحماس . ولكنها كما هو المعتاد بالنسبة لمرضى الصرع - كانت لا تكف عن السباب اذا ما اثار غضبها شيء ما . وبعد مضي نصف ساعة كانت تبتسم في ود ، متعقدة بالولاء الدائم . وكان محبوبها هو جوليوس جريم الذي كان الاسم

الاكثر ملائمة له حين يكون معها هو جوليوس ميلكسوب (١) فقد كان يكف عن العمل، ولا يفعل شيئا سوى التأوه .

وكان جوزيف ذي اونور (٢) يتولى الاشراف على العمل ذو الطبيعة الفنية . ورغم ان جوزيف كان قد تجاوز السبعين فان الزمن لم يقلل من اقباله المتزايد على العمل . ولم يكن ممكنا النيل من اعتقاده بأنه يمتلك كل شيء ملكية خالصة بما في ذلك الادوات الطبية . لقد كان يقوم بالرسم وبأعمال النجارة طيلة النهار . وكان يدخل الفليون . كذلك فان العم مايك المصاب بالشلل لم يكن يترك غليونه من فمه الا في اوقات الطعام ، ثم حين يقف في البوابة ويصبّ اللعنة على العشاء لمدة عشر دقائق . ولقد كان يقوم بذلك بلهجة قسيس ، كما لو كان يرتل صلاة وان كانت تتخللها لفة منحطة . ثم يعيد وضع غليونه في فمه ، ويظل يعمل طوال اليوم دون ان يتفوه بكلمة واحدة .

وكانت الزريبة مليئة - لسوء الحظ - بشمانين خنزيرا لم تكن تملكها . وذلك يعني رائحة كريهة ، وطينا وبراغيشا بشكل مرعب لا يطاق . ولقد كان بيلا سترر (٣) وبيلا فيلوب هم حراسها الرئيسيين ، وكلاهما من ضعاف العقل . وكانا يمضيان طيلة اليوم في تركيب توليفة من الطعام يمكن بها ان تصل الخنازير الى زنة ثلاثة قناطير . ولم يكن نجاحهما يبدو ميسورا . وكان على سائق مركبتنا القروي الشاب ان يعتني بالحصانين الصغيرين الهزيلين اللذين لدينا . وهو لم يكن مريضا ، وان كان بعض من لدينا من ضعاف العقول اكثر منه ذكاء . لقد كان رعاة الخنازير المضطرين مقبولين لدينا ، رغم ما يفوح منهم من رائحة الخنازير، بينما كان سائق المركبة «السوي» ماكرا مغرورا . ومن حسن الحظ فاننا سرعان ما تخلصنا منه .

لم يبق من كبار المشاغبين سوى تيببي سلاي ، وهو من انماط لامبروزو (٤) الحقيقية . ولأنه كان قويا كالثور ، فقد كان في استطاعته بسهولة أن يحمل الأجلة الملائنة ، اذا ما اراد ذلك وهو امر كان نادر الحدوث . فبعد أن مضت عصابته ، اخذ في تخفيض صوته قليلا ، ولكن لم يكن يكاد يخلو يوم دون ان يسبب فيه اضطرابا . لقد حاول أن يجتذب الي حلقته السحرية مشاغبين صفار ويعيد خلقهم على شاكلته .

١ - مخنت . - المترجم -

٢ - المالك . - المترجم -

٣ - المصاب بلعنة في الكلام . - المترجم -

٤ - Lombroso عالم ايطالي وضع نظرية يمكن بها التعرف على اجرام الفرد من سحنه ومقاييس وجهه ورأسه وقد اثبت خطأها بعد ذلك . - المترجم -

لقد كانت سليبنج بيوتي (١) هي روح ورشة الخياطة . كانت تمضي طيلة اليوم ، وعلى وجهها ترتسم دهشة وديعة . ترى هل تتعجب مما تفعله في هذا المكان ؟ وكيف جاءت الى هنا ؟ لقد كانت تعمل خادمة في بودابست واثارت المدينة اضطرابها ، وبدأت فجأة تشعر بالقلق ، وبالانشغال دون ما سبب ، الى أن ذابت أسى وحزنا - وهذا هو كل ما تتذكره . وبين تاريخها الاكلينيكي أنها قد تلقت علاجاً بالصدمات الكهربائية في ليبوتيميزو ثم ارسلت بعد ذلك الى جرانج . ولقد استيقظت هنا من نعاسها وبدأت تشعر انها تحسنت ، واستمتعت بالعمل فسي ورشة الخياطة - ولكن الا يجب ان تكون في المنزل ؟ ان لديها اربعة اخوة وأخوات عليها العناية بهم .

لقد كانت هي اول من يغادر جرانج وقد شفي .

وكان العم تيبس يصلح الاحذية وكان مدمنا مزمناً للكحول ، وتدهور تدهوراً متزايداً تماماً نتيجة للكدمات التي اعتاد تعاطيها . أما العم وندي فلم يكن يصبر على أي مريض آخر معه في المسبك ، أما لانهم يعملون أفضل منه مما يشتره، أو لانهم لا يعملون كما يجب . ولا يسببون سوى اضطراب العمل . وكان تلميذه المهني الثابت هو كاب البولندي الدائم الهلوسة والذي كان - اثناء هلوسته - يولي اهتماماً متخصصاً لكافة الإصلاحات الكهربائية في المنزل . وظلت ورشة النجارة الدقيقة خالية ، أو على الاصح كان يقيم فيها اثنان من البنائين كان عليهما اصلاح الآثار البسيطة التي تخلفت عن الترميم السابق للقصر . وكان ذلك يستغرق ثلاثة اسابيع من العمل ، ولكنهما أقاما هناك لمدة ستة اشهر وكانا يقضيان الجانب الأكبر من الوقت في لعب كرة الطاولة ومطارحة الغرام . لقد غازلوا الطاهية ولعبوا كرة الطاولة على المنضدة التي كانت مقامة في غرفتهم (أي في ورشة النجارة الدقيقة) . وبعد ان غادرتنا الطاهية ، وبعد ان نقلت منضدة كرة الطاولة الى استراحة المرضى ، لم يعد هناك ما يبقوهم لفترة أطول . فرحلوا خلال اسبوع . لقد استقبلت هيئة الموظفين فكرة جعل لعبة كرة الطاولة من اجل المرضى بالتعجب وهز الرؤوس . ما هذه الافكار التي لدى الرئيس !! وتزايد التعجب عندما اخبرت المرضين بأنهم يجب ألا يلعبوا مع بعضهم البعض بل مع المرضى . وقد أبدى الكثيرون من المرضى سعادة غامرة بتلك الفكرة . واكتشفنا بعض ذوي المواهب البارزة في كرة الطاولة كما اكتشفنا شيئاً آخر أكثر أهمية وهو ان أولئك الذين لم يكونوا لاعبين مبرزين في كرة الطاولة بل كانوا من الفصامين المنسحقين قد استفادوا ايضاً من تلك الرياضة .

لم يكن هناك من يعرف حقاً قيمة ذلك الغذاء الذي كانت تلهبه ألوان الخريف،

١ - Sleeping Beauty اسم لفاتة جميلة في قصة أسطورية ويعني «الجمال النائم» .

اللهم الا اولجا جوسب التي كانت تجمع القسطل بينما تبحث ماري سمبل عن الاعشاب «السامة» ، وهما شخصيتان مسليتان . ان العمة اولجا التي ربما كانت يوما ما زوجة بائع سمك قد تقول دون ان يسألها احد «اجل يا عزيزي ، انك تستطيع الانتقال الى منزلي وانت آمن . انه منزل نظيف خال من البق ، وبه غرفة لك ولاطفالك التسعة ، ينبغي عليك ان تترك ذلك المنزل ذو السمعة السيئة » . وقد اختارت رجلا هستيريا صريحا كزوج لها . «آه ، ذلك الرجل السمين ! لقد انجب مني بالفعل ستة وأربعين طفلا . ترى ما الذي ينبغي ان افعله بكل اولئك الاشقياء ؟ لقد كنت أستطيع في الايام الخوالي ان ادفع بهم الى الملاجسيء الخيرية»

كانت الكلمات تنطلق من اولجا طوال اليوم . ويدور الحديث عادة عن منزلها الذي ترغب في بيعه لنا مقابل سبعة آلاف فورنت ، رغم ان السيدة جروربر كانت تعيش فيه مع أطفالها المصابين بالتيفود . . . كانت كافة انواع الاسماء والاحداث تفزع الى ذاكرتها ، نظرا لانها كانت تخطئ بين الامس واليوم ، وبين الحقيقة والخيال ، وهو ما يسميه اطباء «الترباط الخلطي بين الافكار» . والحقيقة ان ما يبدو حديثا مفككا كان ينطوي على قدر من المغزى المبهم .

كانت ماري سمبل امرأة جميلة مولعة بالسوموم ، وكانها احدى شخصيات بعض القصص الشعرية للشاعر المجري العظيم يانوش آراني Janos Arany كانت تجلب شجيرات الحديقة تقدمه لقبور من سلف من الحكام حتى غطت بالزهور حافة البئر العارية . وكانت تمضي طيلة يومها تلتقط الازهار من المروج ومن الفناء ، جامعة للاعشاب الطبية والاعشاب المسممة . لقد كان لديها الكثير لتفعله، لانها كانت ايضا تجمع الادلة ، فتلتقط كل العظام التي تجدها في الحديقة باعتبار انها ادلة على التسمم ، فكل انسان من وجهة نظرها - قد حدث له تسمم او هو في طريقه الى ذلك . ولقد اتخذتني قاضيا لها كما اطلقت على السيدة الاولى لقب السيدة حرم القاضي .

«فلتعطهم قليلا من هذا المشروب يا سيدتي . اصنعي لهم ذلك فانهم يسرقون كل ما لديك . انه يحتوي على سبعة وعشرون نوعا من السوموم . انه مميت بكل تأكيد» . كانت تهمس بذلك بسرعة ، لانه كان لديها الكثير لتنجزه ، فان عليها ان تجمع كافة انواع الاعشاب . ونظرا لانها كانت ترتب وتصنف تلك الاعشاب باستمرار ، فان فراشها وكذلك المنضدة المجاورة له كانت تغطيهما الاعشاب . وكانت ترفض الاكل احيانا لان طعامها قد تسمم ، واذا ما لمس شخص ما ملاءتها كانت تصرخ «لا تلمسها ، لقد حصلت عليها من البابا !» ولكنها كانت رقيقة حيال زميلاتها في الغرفة ، فكانت تعتني بالعجزة منهم ، تطعمهم ، وتخرج بهم لقضاء الحاجة ، وتفصل سرا قمصانهم المتسخة . انني لم أر ابدا أحلى من تلك «السماوية» الصغيرة . لقد كانت تلتقط كل عظمة متأكلة وتهمس لي «هذا هو جسد الطفل المختفي ابن شقيق زوجي يا صاحب السعادة !» وكانت تقيم

الدنيا وتقعدها حين تلقي الممرضات بتلك النفايات المكسدة في فراشها . لقد كان شيئاً يدعو للراء الا ينتبه الى جمال الفناء سوى قلة من المرضى . ان صفرة شجرة الخزافي كانت تتوهج بجوار اشجار البلوط البنية ، واشجار الصنوبر الخضراء ، ولا أستطيع تذكر الاسماء اللاتينية لتلك الشجيرات البديعة ذات اللون الخمري رغم ان البستاني قد كرر ذكرها امامي مرات عديدة ، ولكنني احذت حقا بجمالها الخريفي .

كانت أسناني تصطك قليلا بينما كنت أقف في نافذة غرفتي أستمتع بالمنظر من خلف القضبان . انك تستطيع ان تألف حتى القضبان اذا ما كانت مثل تلك المروج تنبسط من خلفها ، واذا ما كانت تعرف انها لا تحول بينك وبين تلك المروج، وانها ليست بالقضبان التي تفصل أناسا عن العالم .

ولكن حين تأتي أمطار الخريف ، يتضح ان احدا لم يفكر في الشتاء . او على الاصح اننا قد فكرنا فيه ولكن في وقت متأخر تماما . ينبغي تدفئة الورش - ولقد تدبرنا ذلك الى حد ما وتحملنا في سبيله قدرا عظيما من الدخان . ولكن ما الذي ينبغي صنعه في تلك الورش ؟ ينبغي أن نحصل على الليف، لنسج ممسحات الأقدام ، وعلى اغصان الصفصاف لنسج السلال ، والدخن لصناعة القشات . وهرش المسئول المالي راسه ، فقد كان صعبا الحصول على مثل تلك الاشياء في ذلك الوقت المتأخر من السنة المالية . ولم نحصل على اي منها . ولم أتبين السبب الا بعد مضي عام ، فلقد كانت المستشفى تعتبر ورشنا بمثابة المنافسين للمزرعة وبالتالي فقد كانت تضع العوائق في طريقها مترعة بحجج من مثل «نقص المواد» . لقد كان كل ما يعرفه المرضى هو انه حين يبدأ فصل البرد لا يصبح لديهم ما يقومون به . صحيح انه كان هناك دائما قدرا ضئيلا من العمل المطلوب في الحديقة، ولكن ذلك كان يحتاج الى ملابس للتدفئة ، ولم يكن لدينا تقريبا ما يكاد يكفي أولئك العاملين الذين يشعرون ببدء الواجب . لم يكن ثمة وسيلة لابقاف كل من القديس جون المرتعش ، او روزي ما شيت ، او الزبي فلات فوت او اوجسيت يانتر او العم مايك المدخن الأبدي للغليون . او جوزيف اونر من العمل . ولكن ما الذي يستطيع ان يفعله الآخرون .

ان عليهم ان يغرزوا البازلاء او ان يظلوا بلا عمل . اني لا اشعر بالخجل عند وصف ذلك الفرز للبازلاء . اننا نقرغ جوالا من البازلاء على المنضدة ، والعملية هي ازالة الاقدار وفصل البازلاء الخضراء عن الصفراء . وحين يتم ذلك يقوم الممرضون سرا بخلط الخضراء بالصفراء وإضافة حفنة من القاذورات بحيث يظل المرضى منشغلين .

ولست أرى ثمة حرج في حقيقة انني لم اكن احب هذا العمل . لقد وعد بول مادل اقامة ورشة لصناعة الأقفال ، وأخرى للحياكة ، الى جانب ورشة للنجارة الدقيقة ولصنع الاحذية ، فضلا عن العديد من الورش الاخرى . ولقد كانت الورش لدينا هنا بالتأكيد ، ولكن كانت تنقصنا المواد والمعدات . ولقد فشل

وندي العجوز الذي كان مسئولاً عن الورش في فهم السبب الذي من أجله ندخل في الورش أولئك المرضى الذين يبددون المواد القليلة التي نحصل عليها بالكاد . ولم يكن المرضى متحمسين على أي حال لفرز البازلاء . وكانت تلك هي اللحظة التي بدأت فيها أدرك الشيء الذي أصبح واضحاً تماماً لي بعد ذلك : ان جوهر العلاج بالعمل ليس إبقاء المريض منشغلاً بأي نوع من العمل كيفما اتفق ، بل انه يجب ان يعمل عملاً منتجاً .

انني حين اعود بذاكرتي الى الورا عبر عدة سنوات الى ذلك الفرز التمس للبازلاء ، وارى ستة او اكثر من المرضى يصنعون اثاثاً حقيقياً في ورشة النجارة وورشة الأفعال ، وينتهون توتاً من تشطيب مخرطة صنعوها كلها بأنفسهم (انهم لم يسمحوا مطلقاً لوندي العجوز بالاقتراب منها) ، وحين ننسج السلال وممسحات الأقدام من الليف وأغصان الصفصاف التي زرعناها بأنفسنا ، وحين تكون عجلات عربات النقل المصنوعة لدينا أفضل من تلك المصنوعة لدى تعاونية الحرفيين بالمدينة ، وحين تخرج من ورشة الحياكة اشغال جميلة بالإبرة ، وباختصار فانه مع البداية الخافتة لاتخاذ ورشنا الشكل الذي ينبغي ان تكون عليه ، تأكدت من ان عملية فرز البازلاء «السهلة» كانت سخرة في حين ان عملاً شاقاً كصناعة الاثاث ، والحدادة ، والفلاحة هو العلاج الشافي لانه ببساطة يكون مصحوباً بزهو الانتاج والعمل الخلاق . وفي احد ايام ديسمبر المطيرة في تلك السنة الاولى ، رشحنا عشرين مريضاً ممن أحسنوا العمل ويبدو انهم أكفاً نسبياً للعمل في مزرعة الدولة .

أقيمت في تلك الايام مستعمرات للمرضى في مزارع الدولة لتخفيف الازدحام غير المحتمل في مصحات الامراض العقلية . وكان مما يسعد مزارع الدولة الحصول على المرضى الأكثر كفاءة ، ولكن في الصيف فحسب ، حين يشتد الطلب بشكل كبير على الايدي العاملة في الفلاحة . ونجحت وزارة الصحة (ومن الجائز أن يكون بول مودل) في جعلها تحتفظ بهم خلال الشتاء ايضا ، وذلك في مقابل ان تتكفل وزارة الصحة بأن توفر للمرضى والممرضين الملابس والادوات وأن تهتم باستبدال غير المناسبين للعمل . وكما اتضح فيما بعد ، فقد كان هناك ما يكفي من العمل في الشتاء ايضا ، فهناك على الأقل ما لم يتم انجازه في الخريف اذا لم يجد شيء آخر .

بذلك يتضح كيف تصادف في ذلك الخريف الاول ان اخترنا عشرة رجال وعشر نساء من أحسن العاملين لدينا وأرسلناهم الى مزرعة فروستي . ويصعب عليّ ان أتذكر دون ان أشعر بوخر الضمير ذلك الهراء الذي تفوهت به لاشجعهم على الذهاب . لقد وعدتهم بسكن جيد ، ومعاملة طيبة ، وطعام ممتاز ، وفضلاً عن كل ذلك بأجور مرتفعة . لقد وعدتهم كما لو كنت بول مودل نفسه ، وأقدمت على ذلك بحسن نية ، دون ان يساورني الشك البتة في أنني لم اكن أخبرهم بالحقيقة . وغادرنا المرضى وكلهم ثقة .

لقد انهمرت دموع بالغة الغزارة عند مفادرتهم لنا . «ولم يكن بالمنزل عين لا تدمع» كما يقال ، ولعله من الامور بالغة الغرابة أن بعض أولئك الذين امتلأت عيونهم

بالدموع ، كانوا من الفصامين المكتئبين المشهود لهم باللامالة الجسدة . لقد كان من الطبيعي حقا ان يبكي بيلا فيولوب - مربى الخزائير - كالأطفال ، وأن ينشج على كنفى عاجزا عن التفوه بكلمة واحدة . مع انه لم يكن ليتخلى عن الذهب الى هناك في مقابل اي شيء ، فثمة حب صرعي للمغامرة كان يعتمل في داخله . وكانت السيدة الاولى تولول طيلة الليلة وقد احمرت عيناها «آه ، يا إلهي ، كيف ستمضي بدونهم ؟» لقد أحسنا بالأسف حتى من اجل رادار جندي الرديف الاشعث الذي وجه بالفعل الى المرضى خطاب وداع مرتجف بدلا من خطبة يحثهم فيها على التمرد ، ولقد تأثر الجميع تأثرا عميقا بمرآه اكثر من تأثرهم بعباراته غير المعقولة .

وقاد هامستر المسيرة . وعاد بعد يومين مذهولا وبائسا . لقد مضى كل شيء على ما يرام في القطار ، ولكن لم يكن ثمة من ينتظرهم عند المحطة . واخذوا في سحب مقطورة متوجهين بها الى الزرعة . كان المطر ينهر مدرارا ، وسرعان ما احاط بهم ليل ديسمبر . وانفرزت المقطورة في الطين ووجدوا صعوبة بالغة في اخراجها منه ثانية . وفي حجرتين باردتين من حجرات منزل مهجور ، وجدوا قملا واثنتين من المرضى ، رجلا وزوجته ، لم يقدموا لهم اي شيء . لم يكن هناك عشاء ، ولم يكن أمامهم سوى ماء المطر لكي يفتسلوا فلا وجود لحوض للفسيل او صابون او منشفة ، كما لم يكن هناك ما يغطي كيس القش الملقى على الارض القذرة سوى بطاتين ، ولا شيء بعد ذلك . وكان مصباحي الكيروسين يلقيا بالضوء الشاحب المدخن على المستقبل الذي لا يقل عنه شحوبا لهؤلاء المرضى الذين كانوا قد اعتادوا الحياة في قصر .

وعاد هامستر ليخبرنا ان احدا من المرضى لا يود البقاء هناك . وهم لم يبقوا هناك بالفعل .

ولو كانت تلك هي المتاعب الوحيدة فحسب ، فقد كان ممكنا ان يتغلبوا عليها . فالمطر لا ينهمر دائما على اي حال ، والوقود يمكن «تدبيره» ، كما يمكن ترتيب أمر التموين . أما فيما يتعلق بالفرق بين القصر والكوخ فان مرغانا لم يعيشوا دائما في قصور . ولكن سرعان ما اتضح ان هناك متاعبا أخرى . فلكي يذهب المرء الى العمل ، كان عليه ان يسير ثلاثة أميال مخوضا في الطين . فيصلون الى هناك منهكين . واذا ما جاءهم طعام الغداء في الظهيرة فانه يكون باردا كالثلج ، ولكنه نادرا ما كان يأتي ، فكانوا يعملون طيلة اليوم دون ان يتناولوا طعاما البتة . ولم يكن هناك من يعرف مقدار أجورهم كما انهم لم يتوصلوا الى ذلك قط ، لان المرضى كان يجلس تلك الاجور . (ولقد ابغيت عنه السلطات فيما بعد ، ولكن دون جدوى ، واخلي سبيله دون عقاب) .

وسرعان ما كتب السيد بوزوكي اكثر المرضى ذكاء والذي كنت قد ظننته بستانيا فيما سبق ، سرعان ما كتب خطابا لصديقه في جرانج .

عزيزتي ماريزكا

اغفري لي خطي المشوش ، فانا الان أنحني على فراشي منكس الرأس تكاد

اطرافى تتجمد بردا ، لانه لا توجد هنا منضدة ولا كرسي او دكة للجلوس .
انه لكان قدر منفر حتى ان الزرية تعد افضل منه . ساحة كئيبه بها اجولة
من القش عليها ملاءة (قدرة ايضا لانه لا احد يقوم بفسلها) وبطانتين خشنتين .
البئر على مبعدة ٣٠٠ ياردة ، ودورة المياه على مبعدة ١٣٠ ياردة . ويوجد حوض
غسيل ودلو به ماء للشرب ، ولكن الجميع كانوا يغمسون فيه اوانيهم القدرة . اننى
لن اتعجب اذا ما التهمنا القمل تماما حتى الاسبوع القادم .

ولكن ما اتعجب له هو ان كبير اطباءنا يمكن خداعه الى تلك الدرجة ! لم يكن
ينبغي ان يرسل ايا منا الى هنا ! وطالما استطيع الحصول على سترة وقييص
فسوف امضى . ان الطعام الفاخر الذي تحدث عنه كبير الاطباء فى جرانج لا يوجد
الا على القمر فحسب .

ما زال بنجر السكر باقيا فى الارض على مساحة حوالي ١٨٠ فدان ، كما
ان الذرة على مساحة ٢٤٠ فدان ما زالت دون حصاد نهبا للغربان . (فسي
ديسمبر !)

المصابون بالصرع مرضى دائما ، وخاصة رادار وبىلا فيولوب . لقد زرع بىلا
الكان صعودا وهبوطا ، واندفع فى سعار كالمجنون الى النافذة مما ادى الى انزعاج
المرض وإبراقه الى لىبو تميزو ، ولسوف يتم ترحيله غدا .
اننا نحن القادمون من جرانج متماسكون ببعض تماما . اننا نجيا كالإخوة .
ان كلا منا يحب الآخر كاخوة ونفكر فيكم كثيرا .

وخلال اربعة اشهر تفتت تلك المجموعة المتأخية تماما ، ولم يكن ذلك لنقص
فى تماسكها ولكن بسبب ما تلقته من ضربات سريعة على أيدي المرض والممرضة،
ولما سببته لهم الفاقة والقمل . ولم تبق سوى قلة من اكثر المرضى الفصامين
جمودا وخواء ظلت غير مبالية اطلاقا او لعلها كانت تتظاهر بذلك ، أما الآخرين
فقد تمردوا فصرعان ما اندفع السيد بوزوكى فى طريقه . أما ستيف بالكوفيتش،
الأبله الذى نشأ فى القدرة ، فقد مكث كسائق للعربة حيث ان القمل لم يكن
يضايقه . وتم ابعاد ثلاثة من الصرعيين الى لىبو تميزو نظرا لتكرار نوباتهم - وهم
الذين كانوا قد شفوا من النوبات فى جرانج . أما آن بايدر الفتاة العجوز ذات
النظارات والتي تبدو كما كانت حذاء رغم انها ليست كذلك ، فقد هربت الى
بودابست حيث تم وضعها فى قسم للأمراض العقلية فى احد المستشفيات هناك
وظلت به . وهربت السيدة بولجار ايضا الى بودابست حيث يوجد اقارب لها .
وعاد بىلا ستتر ، راعي الخنازير الماهر الى ليتو ميزو ، حيث يتوفر لديه الان
قدرا كافيا من العلف ، فشكرا .

وشرع الآخرون فى أعمال تخريبية مقصودة . فقاوموا صفعات المرضين الى
أن وضعوا جميعا فى قطار وعادوا الى جرانج باعتبار الا جدوى منهم . ومنذ ذلك
الوقت عملوا جميعا بجد ونشاط .

كانت تلك هي الطريقة التي انهارت بها مستعمرة مزرعة فروستي ، او مزرعة
القمل كما أطلق عليها المرضى .

الفصل الرابع

الربيع الأول

أقبل الربيع

بلغ الامر ذروته ، فالمرضى قد بلغ بهم الضيق من ذلك الغرز الدائم للبالزاء
حد ذرف الدموع . كان بعضهم يفضل الخروج في الحديقة دون ملابس شتوية
في اشد الايام بردا ، وكنت أتجمد من البرودة عند مجرد النظر اليهم ولكنهم هم
لم يتجمدوا ولم يصابوا بالبرد . ان احدى الخرافات الواسعة الانتشار في مجال
الطب العقلي تلك المتعلقة بانخفاض مقاومة مختل العقل للمرض ، وذلك امر لا
اساس له ، فليس مختل العقل هو الذي تضعف مقاومته ، بل اي شخص يمضي
أعواما طوالا حبيسا في مؤسسة ، وليس اختلال العقل اذن هو الذي يضعف
الجسم بل أسلوب الحياة غير الصحي . ان أولئك الذين يقضون أعواما فسي
المؤسسات المغلقة ذات التهوية السيئة ، محرومين من العمل ، ومن الترفيه ، اي
بعبارة أخرى محرومين من الحياة ، يزداد دون شك تعرضهم للأمراض . ولقد
يجد المرء ايضا ان نزلاء المؤسسات المغلقة تظهر لديهم الخرايج والدمامل
والجروح المزمنة . ومرة أخرى ، فان ذلك ليس نتيجة لاختلالهم العقلي ، بل
لبئسهم غير الصحية ولافتقارهم النظافة والرعاية . وحين يأتي الينا من يعانون
من مثل تلك المتاعب ، فان جلودهم تشفى خلال اسابيع قليلة . وسرعان ما
يتحول المصاب بالأنيميا الملئيء بالبثور الى متورد الوجنت .

ولكنني لم اكن أقصد الحديث عن ذلك ، بل عن الربيع

حالما تتفتح اكمام الزهر ، فان المرضى ينطلقون ايضا الى الفضاء . بعضهم يعمل في منزل تربية النباتات او على الطرقات . ويندفع الآخرون في أعمال الفلاحة . لقد تم بناء الدفيئة بالفعل خلال الشتاء ، وأصبحت الآن مكتملة الرونق . صحيح انها لم تكن بعد بالبالغة الجمال ، ولكنه ليس من خصائص الدفيئة ان تكون بالغة الجمال . لقد كان فيها كل ما يلزمها كدفيئة من موقد وأنابيب تسخين وأرفف على منضدة حديدية ، ونوافذ متحركة . كانت هناك نباتات غامضة تختبئ داخل الصناديق الخشبية تحت الرمل او تحت التربة الناعمة المفتة . ولقد كانت تلك النباتات تبدو لي متشابهة جميعا . ولم يكن البستاني هو الوحيد الذي يستطيع ان يفرق بينها بل كان ذلك ايضا في استطاعة العديد من الخبراء من بين المرضى الذين يضعون تلك النباتات الصغيرة التي تصعب رؤيتها على الطرف الدقيق لعصاة ويستزرعونها في الصناديق الصغيرة . وكنت دائما ارقب باعجاب ذلك العمل الذي اثبت انه علاج ممتاز حقا لمرضى بعينهم . وهو امر يتطلب صبرا بالغا ودقة شديدة ، حتى انه كان يبدو مؤكدا ان يطير صوابي اذا ما كنت مجبرا على القيام به رغما عني .

كان حارس الدفيئة ، كوجا العجوز رجلا ذا ذقن كبيرة ووجه غاضب يعبر تعبيرا دقيقا عن مزاجه غير العادي . كان يهلوس طيلة الوقت ويتعرف كما لو كان بمسك ذبابا بيديه ثم يفتح قبضته بفخر مستعرضا قائلا :

«ها أنذا أمسك بالدكتور إكس في هذه اليد وزوجته في اليد الأخرى» .

ولقد كنت أشعر بالرائء من أجل الدكتور إكس المسكين وأرجو كوجا العجوز ان يدعه يذهب هو وزوجته . وكان يهز رأسه في سخط ولكنه يستسلم بعد برهة فاتحا قبضته اليسرى ومحملا في اثر الاشياء وهو يمضي بعيدا .

«لقد تركت زوجته تذهب . ولكن الدكتور في مكانه المحدد ولسوف ابقيه هنالك . »

لقد كان كوجا العجوز رجلا يعمل بجد لولا انه كان يصعب التعامل معه لانه لم يكن يحتمل وجود احدا من المحيطين به خاصة النساء . كانت النساء تظل «تطن وتآز من حوله» ولهذا السبب فقد كان يطارد النساء بعصاة الى خارج الدفيئة عدة مرات . ولحسن الحظ فان أقصى ما نتج عن ذلك كان صرخات قليلة .

وفي مواجهة الدفيئة كانت أحواض الاستنبات تنتظر النباتات الاولى وكان العمل على قدم وساق : النجارون يعملون في انجاز البراويز لآحواض الاستنباتات بينما يقوم الآخرون بنقل التراب او السماد . كان المرضى مستغرقون في عملهم وكان يبدو واضحا انهم مستمتعون بذلك .

جاءنا الكثير من المرضى الجدد ، فالمرضى العشرون الذين ارسلوا الى المزرعة الحكومية قد حل محلهم عشرون من المرضى الذين «لا جدوى منهم» والديسن أرسلتهم لنا مزرعة حكومية أخرى . وبدأ نصف هؤلاء المرضى الذين لا جدوى منهم العمل فور وصولهم واستمروا يعملون بحماس منذ ذلك الوقت . وتحاشى

الآخرون العمل لبعض الوقت ، ولكنهم سرعان ما تعبوا من البقاء بلا عمل ، وهم حاليا يعملون جميعا فيما عدا واحدا منهم .

والحقيقة الهامة هي انه لم يكن ثمة ما يزجج ذلك المتهرب من العمل على الإطلاق ، الا انه كره العمل وفضل ان يفش ويسرق زملاءه . وأرسلته الى منزله على الفور . ولقد استفسرت عنه فيما بعد من المجلس المحلي ، وكان سليما معافا كشأنه دائما ولكنه كان مجرد متعطل وظل كما هو طيلة حياته .

وكان الآخرون من المرضى الحقيقيين يعملون جميعا ، وكان بينهم هم ايضا بعض الحالات الخطيرة . وكان هناك مثلا فرانسيس جامون (١) العجوز والذي كان يعتقد دماؤه ترسبت في فخذه وبدأت في التعفن ، ولحسن الحظ فلقد عالجه الله شخصيا بأن ارسل له ملاكين هبطا على يديه جالبين معه زيت سمك وعسل نحل وقد شفاه ذلك .

ثم كان هناك أندرو سافوكتور (٢) الذي ترك ستة آلاف إناء في منزله كانت تمثل صفقة خاسرة لأن زوج شقيقته قد بنى منها منزلا . فقد كان لديه عددا من «الخناقين» يجلسون في حدائه ، ومن «الارواح الشريرة» يدورون من حوله . كان ثلاثة آلاف من تلك الارواح الشريرة تتخذ مكانها على قمة رأسه مما يجعل العمل بالنسبة له من الصعوبة بمكان .

أما ستيفين ماجور فقد كانت لديه ثلاثة اختراعات : مركب السلام العالمي الطائر التي تجري على سطح الماء ، والطائرة الحلزونية والدراجة التسي بدون فرامل . وقد كان يعمل صانعا للاحذية ، ولكن الامان رقبته بعد ذلك الى رتبة ميجور ، ولا غرابة اذن في عدم رضائه عن اي شيء في جرانج .

اما فالتين انديان بعينيه المتقدتين ، وملامحه البارزة ، وانفه الضخم ومتانة بنيانه الخالي من الشحم فقد كان يبدو شبيها تماما بما كنا نتخيله في طفولتنا عن الهندي الاحمر . كان نادرا ما يتكلم وكان من الصعب فهم حديثه . لقد جعل اهل قريته يعيشون في دعر ، فقد اراد ان يقطع رقبة ابن اخاه وآخرين ، وكان ذلك هو السبب في اخذه الى المصحة - رغم انه قال ان كل ذلك كان «ادعاء» وربما كان على حق . ولكننا نحن ايضا شعرنا ببعض الخوف حين أقدم على صنع مصرف للمياه بجاروفه الحاد ومعو له . ولما كان يكره ان يحملق فيه احد فقد وجدنا انه من الانسب ان نقصي فالتين بعيدا عند حضور زائر . ولقد دفع بالفعل بقله من المتعطلين الى الفرار منه هربا بحياتهم وليست مصادفة ان يكون فيدلر الذي لا يصنع شيئا هو الرجل الوحيد الذي تلقى منه مرة ضربة على رأسه بجاروفه . وعلى اي حال فانه كان يحقق انسجاما مع الذين يعملون بجلد .

١ - Gammon فخذ الخنزير . - المترجم -

٢ - Suffocator الخناق . - المترجم -

أما إليكس بتروت فقد كانت تنتابه نوبات صرعية متكررة على فترات وبتعاقب سريع بحيث لا يكون لديه ثمة وقت بينها . وقد انتابته سبعة عشر نوبة متعاقبة في حضورنا ذات مرة . ولقد كان فتى بالغ القوة أيضا وكان الإمساك به خلال تلك النوبات يحتاج الى ثلاثة رجال .

وكانت القديسة اليزابيث تهلوس وتحدث الى نفسها طوال اليوم فضلا عن انها رغم كونها قديسة - او ربما بسبب ذلك فقد كانت بالغة التواضع الى حد انها كانت ترغب دائما في تقبيل ايدي كل الناس . ولقد تظل لساعات تفني لنفسها وترقص لغنائها او تندفع في انفعال لتوبيخ العالم .

وكانت جولي بوسا تهلوس باللغة السلوفاكية وقد بلغ بها العته انها كانت لا تستطيع ان تفهم أبسط الاوامر . لقد أصبح البستاني الذي لدينا على الفسة بجماعة البلهاء ولقد شرع في التغلب على عجز جولي بوسا ثم اعلن في غيظ «انها معادية للاصلاح يا سيدي» وطالب بابعادها على الفور . ولم تهتم جولي ، وهرشت رأسها كما لو كانت تحس بقملة رغم انها كانت تتلألا نظافة ، وبعد مضي ستة اشهر كانت تلك «المعادية للاصلاح» تعمل بجد في الحديقة ، ولم يعد البستاني مفتاظا منها .

أما آن دامب فانها لم تكن تكف عن الكلام طيلة اليوم رغم كونها صماء بكماء لقد كانت اكثر البكم ثرثرة في العالم . وكان ما يثير الشفقة هو ان تلك المخلوقة التعسة كانت تصدق حقا انها تتكلم . وكانت تحب الرجال ، واذا ما كانوا من السداجة بحيث انهم لم يستطيعوا فهم ما تعنيه ، فانها كانت تقوم بتوصيل رغبتها اليهم بإشارات اكثر تعبيرا .

صحيح انه لا يمكن القول بأن هؤلاء جميعا قد شرعوا في العمل مباشرة ، فلقد رفض اكثر من واحد من بينهم مجرد سماع شيء عن العمل لمدة شهور ، وكانوا يقولون بصراحة تامة ان خبرتهم في مستعمرات المرضى بمزارع الدولة جعلتهم ينفرون من العمل . ولا يستطيع ادعاء انني قد توصلت من خلال تلك القصص المرعبة الى ما حدث لهم بالفعل في المزارع ، ولكننا نستطيع دون مجازفة ان نقرر انهم لا يمكن ان يكونوا قد لقوا معاملة طيبة . وكان من الواضح ان مجرد الفرق بين نوعي العلاج هو الذي مكنهم من ان يلينوا - واحدا بعد آخر - ويشرعوا في العمل في جرائح .

ولناخذ مثلا باتون ، وهو فتى خجول متلعثم يبلغ العشرين ويعاني من ضعف عقلي . كان في وجهه الوسيم ثمة شيء وحشي ينتمي الى عصور ما قبل التاريخ وان كان محبوبا لطيفا في نفس الوقت . وحين سأله عن اسمه في اليوم الاول، لفت رأسه بعيدا في اعتداد جلف وقال : «انا لن اذكر اس س سمي» ولكنه في اليوم التالي لم يذكر اسمه فحسب بل القى بذراعيه حول رقبة السيدة الاولى قائلا «وانا احبك ايضا !» ولم يجد قط عن ولائه وجهه ، حتى انه بعد ان غادرنا بوقت طويل ظلت كتابته غير المقروءة تنبأنا بمصيره .

ان مجرد المعاملة الطيبة كانت تكفي لحث الاشخاص الاكثر بساطة على العمل ولكن الامر كان يتطلب اكثر من ذلك بالنسبة للفصامين المكتئبين او المتدهورين تماما . ان جامون الذي يبلغ السبعين عاما والذي ذهب الى امريكا في شبابه ظل لا يفعل شيئا طيلة اشهر ثلاثة . وعلى اي حال فقد كانت تصدر عنه خلال تجواله في الحقول تعليقات تدل على خبرته بحيث تكونت لدى البستاني فكرة ممتازة مؤداها ان يجعله مشرفا . ولقد كانت سعادة الرجل العجوز بذلك بالغة ، فمعرفته المتخصصة قد لقيت تقديرا في النهاية ومن ثم فقد خاط على صدر سترته ثلاث اشربة زرقاء ومضى يعمل منذ ذلك الوقت . (او بالاحرى ، فانه قد ارسل الى منزله منذ زمن بعيد ، واستمر يشرح معجزة شفائه من الدم الذي ترسب في فخذه) .

اما الميجور ستيفن فقد دفع الى العمل بالحب . فقد وقع الملك المتشككي دائما من آلام البطن في حب الزبي فلا تفوت التي كان حبيبها جولوس جريم قد نبذا آنذاك بالفعل . وكانت الزبي من افضل المشتغلين في الحديقة ، وبالتالي فقد كان على الماجور المتذمر ان يعمل وإلا اقدمت حبيبته الحسنة على فقء عينيه . واستمر الماجور في بذل الوعود للساذجة المسكينة بأنه سوف يتزوجها ويشترى لها فيلا على بحيرة بالاتون ومعطف من الفراء ، الا ان عجزت إلزي عن مقاومة الاغراء (واي امرأة يمكن لها مقاومة كل تلك الثروة !) . وانتهزا وقتا لا يراقبهما فيه احد ، وفر العاشقان الى مسجل العقود في القرية المجاورة وأعلنا انهما يريدان الزواج . والمج بعض اصحاب الدعابات السمجة الى انه قد يكون من المسلي تماما ان يتم تزويجهما وان يمنحا ورقة تحمل نصا سخيفا وخاتما مزيفا مفادها انهما قد تزوجا .

ونجحت روائح الحقول الربيعية المنعشة في اغراء فالتين انديان ، واندوسا فوكيتور بالعمل بعد كسل استمر لما يقرب من بضعة شهور ، وامسكا بالفأس ولم يتركاها منذ ذلك الوقت . ودخل العم هوث ، بعد فترة البداية التي قضاها دون نشاط ، الى ورشة النجارة وتحول الى شخص مدهش له سبع صنایع . لم يكن من يوجد من يستطيع ان ينحت صندوقا او منضدة لالة بالدقة التي يستطيعها ذلك القروي القادم من لولانج . ولسوء الحظ فانه لم يكن اجتماعيا - شأنه شأن كوجا العجوز - ولم يكن يستطيع العمل في الورشة الا اذا سمح له بالعمل على هواه .

لقد حضر الكثير من المرضى الجدد من ليبتوميزر . منهم مثلا ستيفن تلجرام (١) المشاكس الناشيء ، والذي استنفذ جهده في العمل كحوزي وكساعي وسرعان ما أصبح هو الشخص المفضل في المنزل ، ولانت عريكته وتخلي عن

مشاكسته . ولقد تضاعف تمسكه باسم تلجرام : فقد كان يكسب رزقه بالعمل كصبي يسلم البرقيات ولقد مضى عليه عام الان وهو حريص على ان يرسل اليها خطاباته وبرقيات التي تحمل تحياته .

وصل العم زيتر (١) في نفس وقت وصول تلجرام . وكان يعمل في تعبيد الطرق ، ولم يكن ذلك - على اي حال - هو الذي جعل منه ذاك الشخص الهام ، بل قانونه الذي كان يعزف عليه الالحان مرحة . وشيئا فشيئا رقص المرضى على قانونه ، وكانت تلك بداية الحياة الاجتماعية المبهجة ، التي اصبحت فيما بعد خاصة رئيسية في طريقة جرانج في العلاج بالعمل . وكان العم زيتر لا يعزف الا الالحان الخمسة التي يعرفها والتي كانت تجعل المرضى «الجامدين» يرقصون في مرح .

وكان العم زيتر يعمل طبعا كخبير في تعبيد الطرق كذلك . ان الممرات الملتوية حول مثل قصرنا المهجور لتبلغ من الكثرة حدا لا يصدق . لقد اضطرنا ذات مرة الى الخوض في الطين او التعثر في سيرنا على اكوام الاتربة المتكتلة . اما الان فان هناك طرقا مريحة تصل بنا من المدخل الى أقسام الادارة القائمة خلف المبنى ، كما يوجد حول القصر طريق ممهد للسيارات يمتد مسافة نصف ميل ، وهناك بالإضافة الى ذلك ممرات جيدة التخطيط في الحديقة . ولقد أتاح كل ذلك فرصة رائعة للعلاج بالعمل . ومن حسن الحظ ما زال هناك الكثير من الطرق في انتظار الاصلاح ، فضلا عن ان الحديقة وأحواض الخضر ما زالت في حاجة كذلك الى شبكة من الممرات .



وفي تلك الاثناء أعدنا الشقة الى الطبيب المقيم . ولم يكن ذلك يعني انه تم بناء الشقة التي وعد بها كبير الاطباء . بل على العكس ، فان بول مودل اعترف أسفا بأن الوزارة سحبت وعدها وشطبّت موافقتها على انشاء الشقة . ولسم بدھشنا ذلك اطلاقا ، وعلى اي حال فاننا لم نتخلّ عن الشقة بدافع من المشاعر الانسانية بل لانها لم تعد تناسبنا . ان شعبتنا هي التي اجبرتنا على الانتقال . اننا ببساطة لم نكن نخلو لانفسنا لحظة واحدة ، فالمرضى يأتون لعرض ما لديهم طيلة اليوم في تيار لا ينقطع ودون ان يكونوا راغبين في امر بعينه ، بل انهم يودون فحسب تمضية الوقت ، والثروة من النافذة ، ومراقبتنا عن كذب ونحن نتناول غذاءنا ، والسؤال عن أحوالي وعما اذا كنت أعمل ، وطلبهم لشيء من الصابون او لثال او لبعض الخيوط ، او طلبهم لمحادثة سريعة معي حول انفعالاتهم . وكل

ذلك كان شيئاً رائعاً في لطفه وإثارته للمشاعر ، ولكنه حين استمر لشهرين يوماً بعد يوم فأننا وصلنا الى حافة الانهيار .

ولكي نحول دون المزيد من ذلك ، انتقلنا الى اقسام الادارة خلف حظائر الخنازير والاسطبلات . وقد كان ذلك البناء ذات مرة مأوى للكتاكت كما كان ورشة للحدادة . كما كان ايضا بمثابة مخزن لمؤن حاجب القصر وهو مبني من خليط غريب من الملاط واللبش وأجزاء من قوالب الطوب . وكانت الجوانب تبدأ من الارض مباشرة دون اي اساس من المواد العازلة . من الواضح ان ذلك المالك المتخلف لم يكن متنبها الى ان الكتاكت سوف يصيبها الروماتيزم اذا ما استمرت قطرات المياه تتساقط على حوائطها التي يغطيها الان الملح والعفن . ولقد اعتقدنا للوهلة الاولى ان خرافة ان المساكن الرطبة انما تتسبب في المرض لن تنطبق علينا . وتبين لنا خطأنا في النهاية ، ولكن حينئذ كان الوقت قد فات . وعلى اية حال فقد كان علينا ان نختار بين الفوضى والرطوبة ، فاخترنا الرطوبة .

وبالاضافة اليها ، كانت هناك اربع أسر تعيش في اقسام الادارة (عائلات البستاني ، والمرضى وزوجته الممرضة ، والطباخت ، وعائلة وندي) وتشارك معنا في استخدام دورة المياه والحمام . وهم لم يستخدموا الحمام قط الا في غسل الملابس . وكانت دورة المياه رهن الاستعمال الذي كان يفوق الحسد بالتأكيد : كان يمكن سماع المياه تنساب مرات عديدة في اليوم ، وحيانا لعدة اسابيع دون انقطاع وبلا توقف ، حيث ان تدفقها كان في حاجة الى اصلاح منذ زمن بعيد . لقد تحقق اخيراً واحد من أحلامي القديمة ، قد كنت اود دائماً ان اعيش في مكان بحيث استطيع ان اسمع فيه صوت خرير المياه .

وأشأننا حماماً ودورة مياه منفصلتين وأزلنا حائطاً كان يفصل بين حجرتين مما خلق شقة مزودة بكل وسائل الراحة . ولقد كانت الوزارة كريمة هذه المرة فقد اجازت - بعودة البريد - إعادة بناء الشقة على نفقتنا الخاصة . وذلك مما يوضح مدى فائدة أن تكون على صلات طيبة

ولكن لم يكن لدينا مبرر للأسف ، فان إعادة البناء لم تكلفنا شيئاً . فقد قام عامل بناء يعاني من مركب الاضطهاد بهدم الحائط ، وبناء الحائط الجديد وتركيب الباب . كما ان سباكا تأثرت قواه العقلية تأثراً خفيفاً من أصابته بتصلب الشرايين قام بتركيب سخان الحمام والحوض ، وقام بول الفصامي بتركيب الكهرباء . وقامت مجموعة متنوعة من مرضى الصرع وضعاف العقل بالتنافس في البياض ، والكحت ، والتنظيف . وحين أصبحت الحجرتان أخيراً لامتعتان من النظافة ، وبعد ان نقل اليهما الاثاث المنقوش ذو اللون البني (وكان من انتاج نجار مصاب بجنون الشراب * ومنجد سيكوباتي) وبعد ان وضعت الكتب على الرفوف ، كما وضعت على الحائط أشغال الابرة الملونة والصور المفضلة للسيدة الاولى وهي لوحة

«الفتاة الصغيرة لروبنز» ، و«الشاب الذي يدخل الغليون» لكورت ، كما وضعت لوحة موزار البرونزية أعلا البيانو ، وفي موازاتها صورة دغرية ~~دغرية~~ ليانوس آرائي وهو جالس بشعره الرمادي وبهدوء الريفي الحكيم على مقعد قديم غير مريح ، وحين وضعت الوسادات المطرزة على الأريكة ، والأزهار في الفازات والنوافذ ، ولفنا الصمت ، الصمت ، الصمت ، حينئذ أحسنا تقريبا أننا قد وجدنا منزلا في جرانج .

daguerneotype ~~دغرية~~ التصوير الدغري ، طريقة قديمة في التصوير الفوتوغرافي على ألواح فضية . المترجم-

الفصل الخامس

مزید من المتاعب مع مزارع الدولة

وصل في منتصف مايو ملء عربية من المرضى . الجماعة المهزومة العائدة من مرزعة القمل . يا لروح الانتصار التي شوهوا عليها وهم يغادروننا في ديسمبر ! لقد عاد زهرة مرضانا العاملين بعد ان وصموا بأن لا جدوى منهم .

كانت تيني ليلي اول من قفز من العربية ملقية بنفسها على أعناقنا ، مولولة وضاحكة . « البيت اخيرا لن اكررها ثانية ! » وعلمنا منها انهم قد تعمدوا التهرب في الاشهر الاخيرة لكي يعادوا . ولم يكن الممرضون في المستعمرة يألون جهدا خلال نوبتشتيتهم في توجيه الضربات السخية ، ولكن المجدوبين كان لديهم من العقل ما مكنهم من خديعتهم في النهاية .

وقام ثلاثة اشخاص بانزال ماري ويلدر ، كان عليهم ان يحملوها الى الداخل على نقالة . كانت ماري جلد على عظم وعاجزة عن الوقوف عى قدميها فقد كانت مشلولة . ولم تستمر كذلك سوى ثلاثة ايام فحسب ، ثم بدأت تسير مترنحة ، ونسيت الترنج بعد ذلك وبدأت في المشي ، وبعد اسبوع كانت تغني بمرح وعهد اليها بتنظيف بلاط الارض .

كانت يولاندا بليند تعاني من قصر شديد في النظر وضعف في السمع . وقد ارسل بشأنها تقرير خاص الى الوزارة مؤداه انه من بين مرضى جرانج الذين لا جدوى منهم توجد واحدة كفيفة وصماء ... حسنا ان يولاند هذه الكفيفة الصماء قد اصبحت من احسن العاملين في جرانج . لقد كانت تستطيع ان ترى بالقدر

اللازم لعملها في الحقيقة . كانت على استعداد للقيام بأي شيء فيما عدا مغادرة جرانج مرة أخرى . ورغم ان أسرتها تعيش في القرية المجاورة على مسيرة عشرين دقيقة فانه لم يكن بالمستطاع ارسالها الى منزلها ولو قسرا . (ولقد حاولنا ذلك مرة ، فعادت تترنح مضروبة) .

وعادت إلزي فلاتوت مع «زوجها» الاول ، جوليوس جريم ، الذي ذهب مؤخرا الى أمه (التي كان قد هددها بالسكين) ، ووجدت إلزي زوجا جديدا في شخص ستيفن ماجور . وقد أصبح الاخير «عديم الجدوى» مرة أخرى عندما نقلوه الى مصحة لاجوزفا حيث يقفل على المرضى بالضربة والمفتاح وأعلن ستيفن انه «إذا ما كنت في سجن فإني لا أعمل» وحافظ على كلمته ، وفقدت لاجوزفا عاملا ممتازا .

لا داعي للاستمرار في استعراض اسماء القائمة . ان أولئك الذين عادوا من مزرعة القمل باعتبار الا جدوى منهم بدأوا في العمل من اليوم التالي بل وبدلوا جهدا مضاعفا لانهم عرفوا الان انهم في جرانج انما يكونون في منزلهم حقا . ان ما خلقته مزرعة القمل من آثار كئيبة جعلني احجم لفترة عن ارسال مرضى الى اية مزرعة حكومية . لم يكن من بين مرضانا من يود الذهاب الى اي مكان . وبصرف النظر عن إطراء بول مودل لجودة التنظيم وامتياز المرضين في عدد من المستعمرات الحديثة ، فاني لم أعد اصدقه . وكان صحيحا ايضا انني لم أفعل لانه قد تبين ان واحدا من المرضى الممتازين يعاني من هذات العظيمة كما ان الآخر كان مدمنا للكحول . وحتى حيث يكون للمستعمرة مدير جيد ، فان المزرعة كانت تستغل المرضى ، ويتضح في النهاية ان السكن كان أسوأ مما كان عليه في مزرعة القمل . وكنت غالبا ما أشعر بالأسى من اجل بول مودل ، وأنا ارى مشروعـه الجميل وهو على حافة الانهيار . ولكني كنت أكثر اشفاقا على مرضانا ، بحيث لم اكن لاسمح بتعريض تقدمهم لخطر اي من مزارع القمل .

كانت تلك الحقبة مفيدة حقا في تطوير شخصية جرانج المتميزة ، والتي لم تكن سوى برعما حين غادرنا القافلة الاولى . وسرعان ما ألف المرضى حقيقة انه لا يوجد ثمة ضرب ولا مضايقات ، ولكن ذلك لم يحل مشاكل النظام تماما ان النتيجة التي كنا نستهدفها هي ان نجعل المرضى يشعرون بوازع معنوي يدفعهم الى العمل ولكن دون اي اجبار فعلي . وذلك شيء لا يمكن ان يحسه الا أولئك الذين ينتمون لجماعة .

لم يكن كافيا أن نصل بالمرضى الى حد جعلهم يرغبون في البقاء ، بل كان يجب جعلهم يشعرون كذلك بالانتماء ، وبأنهم في منزلهم .

وكان واضحا لي ان التدليل - شأنه تماما شأن الضرب - لا يمكن ان يحقق ذلك الامر . ثمة شيء آخر نحتاجه - ربما ان نخلق لديهم شعورا بأن هناك حاجة اليهم ، وان لهم دورا ينبغي ان يقوموا به . لقد عاش اغلب مرضانا عمليا ولفترة طويلة خارج المجتمع . مخطيء كل من يظن ان مختل العقل يفشل في ادراك انه

يعيش على هامش المجتمع .

يبدو اننا الحنا كثيرا في الحديث عن معاملة المرضى بشفقة . حتى بلغ المرضى حدا بالغا من الرقة والعطف والتفهم والتسامح . وكان ذلك شيئا جميلا - بل واكثر من الجميل ، ولكنه لم يكن كافيا . ولم يكن في مقدوري ان اخبرهم بالألا يبالغوا في تلك الطيبة اللعينة لقد أقدمت سرا على تغيير شعاري الى «عليك ان تعرف كيف تعامل المريض» اي ان تعرف متى يجب ان تحتضنه ومتى يجب ان تؤنبه ، متى يجب الاطراء ومتى يجب ان يوقف المريض عند حده . وكل تلك الامور ليست سوى السطح ، فينبغي ان يكون التركيز على اختيار المنهج ونبرة الصوت التي يجب اتباعها عند العمل . قد يكون من الواجب ان يترك مريض معين لنفسه ، اي انه يجب تزويده بالاشارات اللازمة ثم الابتعاد عنه . بينما يحسن بالنسبة لمريض آخر ان يوضع في جماعة حيث قد تؤدي روح المنافسة او ببساطة اندفاع العمل الى التحسين من حاله . ان المرضى من الفصامين الهيايين يفضلون تمضية اليوم بطوله في الفرس وري الازهار ، اما السذج فانه يسعدهم العمل في ازالة الاعشاب الضارة وهو ما يكرهه المرضى المشوشون غير المستقرين الذين ناسبهم الاعمال الاكثر خشونة ، ففي استطاعتهم اصلاح الطرق ، ودفع عربات اليد والحفر . وبينما يجب اطراء ومدح المصابين بالصرع ، فان ضعاف العقول ينبغي تشجيعهم بحماس ، كما ان البلهاء ينبغي تكرار تدريبيهم باستمرار طيلة اسابيع ثلاثة ، حتى يمكنهم انجاز أبسط الاعمال ، بينما ينبغي ان يوكل الى المشاكسين مهمة ما ليحلوها بطريقتهم الخاصة ، وبنفس تلك الطريقة ينبغي معاملة المرضى الهستيريين ، ولكن بالنسبة لمرضى البارانونيا فان الامر يختلف ، فانهم لا يعملون الا اذا أحسوا بميل الى ذلك مهما حاولت معهم .

وبالطبع فان ذلك لا يكون صحيحا تماما في كل الاحوال . والحقيقة ان كل مريض ينبغي ان يعامل بطريقة فردية . ولا ينبغي للصراع ان يتوقف ، بل يجب على المرء ان يحاول كل شيء . لقد صادفنا من المرضى من يرفضون التحرك فيد انملة طيلة ثلاثة او اربعة اشهر ، وأخيرا أقدموا على العمل في الحديقة كما لسو كانت ملكا خالصا لهم .

كما لو كانت ملكا خالصا لهم كان هذا هو ما حاولنا التوصل اليه خلال عام ، وشعر المرضى الذين ضربت جذورهم في جرائع ان جرائع ملكا خالصا لهم . وكان هذا هو السبب في ان جرائع لم تبد لهم معسكر عمل اجباري ، فهم انما يعملون من اجل انفسهم .

وما ان نمت «روح جرائع» هذه حتى أصبح التعامل مع القادمين الجدد أسير ايضا . لم تكن نحن الذين نجعلهم يعملون بل المرضى الآخريين ، اي الجماعة . وبعد تردد لا يستمر سوى أيام قليلة يجدون مكانا ويندمجون فيه .

وساعدت مصادفة سعيدة على تطوير «روح جرائع» فلقد وجدت نفسي - دون ان أسعى الى ذلك سعيا مقصودا - اب الأسرة الراسخ القدم لكافسة

المرضى وكذلك ان السيدة الاولى هي امهم جميعا . كانت المستعمرة بأسرها متعلقة بها . وكانت تمضي كل وقتها بينهم ، وتعرف مشاغل كل منهم ، دون ان تعرف الكلل . ونظرا لانها لم تكن مجرد ممرضة مسئولة عن عنبر بل زوجة لكبير الاطباء فقد كانت تتمتع بشيء من الجاذبية الخاصة مما مكنهم من مناداتها ماما . لم يجبرهم احد على ذلك ، بل ان الاسم قد استخدم تلقائيا وأصبح عادة يتعذر استئصالها .

عندما تكونين اما لثمانين طفلا مرة واحدة ، فلسوف يكون عليك الاهتمام بقدر هائل من المشاغل . خاصة اذا ما كان أولئك الاطفال من مختلي العقل . ماما ، صابون من فضلك لقد ضاع مني مشطي اعطيني شيئا لأخيطه لو سمحتي من فضلك اعطيني شيئا لآكله من الطرد الخاص بي متى سوف تلاعبيني بنج بونج يا ماما ؟ جولي سرت وشاحي ... هل ستبحثين لي عن قميصي المزخرف وعلى تلك الوتيرة كانت تمضي الامور طيلة النهار . قامت السيدة الاولى بتسليم الصابون ، والبحث عن المشط ، وإعداد وجبة خفيفة من الطرد الذي وصل من المنزل ، ولعبت البنج بونج واكتشفت الوشاح الضائع ، ووجدت القميص المزخرف ، ومارست العدالة ، واعطت ورتبت ، واستبعدت ، ووبخت ، وهذات ، وفعلت ملايين الاشياء . انها أحبت أطفالها كما تفعل الأم الصارمة رغم طيبتها . ولقد كانت تتمتع بخاصية لا تقدر بثمن : انها تلاحظ كل شيء وتذكر كل شيء . لا شك في انها كانت افضل الاخصائيين النفسيين في المنزل . ولم تكن ساذجة بالقدر الذي كنته ، بحيث لم يكن ممكنا خداعها . كان حبها للمرضى قويا دون تملق ، وكان هذا الحب القوي بالغ التأثير . كان الجميع يعرفون انه لا يمكن الكذب على ماما كما ان ذلك امر لا جدوى منه . وكان موقعي انا مختلفا . كان بابي مفتوحا دائما لاي مريض، ولكنهم لم يكونوا يأتون اليّ فيما يتعلق بالصابون او بمشاحناتهم الصغيرة ، بل فيما يتعلق بالمشاكل الاكثر خطورة والتي لم يكن في استطاعتي دائما حلها . ان مجرد الانصات اليهم يمكن ان يكون مفيدا ايضا ، ولم يكن المرء ليستطيع الا الانصات ، والتعليق ، وتقديم المشورة ، وأحيانا تقديم مساعدة بسيطة .

انني لم اكن أكذب على المرضى مطلقا ، وكانوا يعرفون ذلك . لقد كان كل ذلك امرا بالغ البساطة في الحقيقة . وكنت حين يسألني احد الزملاء عن منهجنا لا اجد لديّ اجابة جاهزة . منهجنا ؟ ربما لم يكن لدينا منهج . لقد عشنا مع المرضى ولم نخدعهم .

وتمت اعادة تربية المرضين ايضا بشكل يكاد يكون آليا . وفي الحقيقة فقد اعطيتهم دروسا في مبادئ الطب العقلي ، وتحدثت اليهم حول أسس التمرريض وأسس العلاج الصحيح . ولكن لم يكن ذلك هو ما أحدث تأثيرا ، فقد كسان مرضونا بالفعل بالغو البدائية والجهل وعدم التقبل للارشادات النظرية . ورغم ذلك فقد اصبحوا فريقا ممتازا خلال ستة شهور . ولم يكن ما اكتسبوه هو

النظرية بل «الروح» .
كيف فعلنا ذلك ؟ لم يكن لدينا نظام خاص . كنا ودودين ، وأحسن المرضون
بالخجل وأصبحوا ودودين كذلك . ثم تبين لهم انه كان من الافضل كثيرا اتباع
تلك الطريقة .



بعد الدرس الذي تعلمته من مزرعة القمل ، أخبرت بول مودل انه يستطيع
ان يوفر على نفسه مشقة الحديث ، فهو لن يقنعني بمزارعه الحكومية مهما تحدث.
اننا لا يمكن ان نتوقع من مديري المزارع المنهكين تحمل ما يثيره مرضانا من متاعب
ذات طابع خاص . انهم قد يوافقون على تحملهم لمدة قصيرة وطالما كان هناك نقص
شديد في الايدي العاملة ، ولكن ما ان تقف المزرعة على قدميها ، فانهم يحاولون
التخلص منهم بأسرع ما يمكن .

وقال بول مودل «المدة قصيرة هذا هو ما اعنيه بالضبط» . اننا نكون
المستفيدين اذا ما حلت مشكلة الازدحام الفظيع في عنابر الامراض العقلية ولو لمدة
قصيرة ، وفي نفس الوقت فاننا قد نحصل على نقود ، وعلى اعتماد في الميزانية،
وعلى معدات للقصر ، اي اننا بعبارة اخرى - قد نتوسع ان هذه المدة القصيرة
ستكون كافية لاجراجنا من الازمة .

ولم اسلم رجلا واحدا ولا امرأة واحدة الى اي مزرعة تمل . ولكني اخبرت
بول مودل انه اذا كان يريد ايجاد عمل للمرضى ، فان مكان ذلك العمل لا يجب ان
يكون نائيا بل لا بد وان يكون قريبا من احدى المستشفيات العقلية لكي تتوافر
فرصة المساعدة والرقابة . اي ان عليه مثلا ان ينشيء مستعمرة للمرضى في
احدى المزارع الحكومية القريبة منا في جرانج بحيث يمكننا مراقبة سير الامور.
وعندئذ قال بول مودل «انها لفكرة رائعة فلننفذها» .

ان مثل تلك الامور يسهل قولها ، ولكن التنفيذ حسنا ، ولكن يجب
اولا ايجاد المدير الجيد ليتولى المنصب ، فضلا عن المرضى او من يقوم مقامه في
تجميع المرضى والعناية بهم ، وعرض مطالبهم .

قال بول مودل «فلتبحث عن رجل مناسب . وسوف اترك لك تحديد مرتبه
ان ذلك لمن أيسر الامور : لدينا خمسة وعشرون وظيفة في الميزانية لمثل تلك
المستعمرات ، ويمكنك الاستفادة من احداها» .

والقيت بنفسي في العربة القديمة ذات الخيول وذهبت ومعى السيدة الاولى
لزيرة المزارع الحكومية المجاورة . كان ذلك في بداية الصيف ، واستقبلت
استقبالا حسنا ، فقد كانت اليد العاملة قليلة . وقد ذكرت المرضى بالخير ، ورحب
الجميع بالمشروع . وفي اليوم التالي جاء مديرو المزارع (في عربات افضل من
عربتي الى حد ما ، ولها خيول أجمل) واخذوا بما راوه في جرانج . هل ذلك في

استطاعة المرضى حقيقة ؟ كان مستحيلا ألا يصدقوا ، لان المرضى كانوا يعملون
بجد وتحت إبصارهم .

وسرعان ما وصلنا الى اتفاق ، تأخذ بمقتضاه كل مزرعة عشرين مريضا على
مسئوليتها . وسوف تتحدد أجورهم تبعا للمعدل وللعمل المنجز شأنهم شأن
غيرهم من غير المرضى . واذا ما فشل أيهم في الوصول الى ما هو متوقع منه ،
فانه ينبغي استبداله . ولنا أن نراجع ما يتلقونه من حيث الطعام والعمل والأجر .
حققتنا نجاحا سهلا حتى انني لم أصدق . وفي النهاية مني كل ذلك بالاخفاق
لأن بول مودل لم يفربند الميزانية الخاص بالمسؤولين عن التمريض . وقدم كافة
انواع التفسيرات ، ولكن الواقع هو انه عندما أخبرته بأن كل شيء أصبح جاهزا
وطلبت منه ان يؤكد اننا نستطيع توظيف المرضى ، لم احظ سوى بالاعتذارات .
واصببت بخيبة أمل هائلة وأخذت اردد فلتذهب الادارة الى الجحيم ، وسببت
بول مودل . وهدأتني السيدة الاولى : لا تهتم ، فعلى الاقل سيكون فسي
استطاعتنا الاحتفاظ بمرضانا القدامى الاعزاء ، وعلى الاقل فقد قمنا بعدة جولات
جميلة بالعربة . لقد كانت جولاتنا بالعربة ممتعة حقا ، فلقد مشينا الهوينا في
الجو الصيفي اللطيف وفي نفس الطريق الذي أوقفنا فيه ذات مرة انهيار المطر .
كان الخلاء قد أصبح اكثر الفة آنذاك ، وكانت اشجار الحور الهيفاء تنتصب
كالحراس على اطراف المنازل ، والشجيرات الخضراء تغطي المدافن المهجورة ، كما
كان أطفال القرى بوجوههم الملطخة بالطين يجرون خلف العربة ، وكان الطريق
محاطا بالبرسيم . كل ذلك جميل ولكن لن تقوم هناك اية مستعمرات للمرضى
ولم يكن مقدرا لها في الواقع ان تظهر الى النور لو لم يصل المعالج المهني .
كان قد كتب لي رسالة ذكر فيها انه سبق له حضور محاضراتي عن الطب
العقلي في الجامعة ثم تم تخرجه بعد ذلك كمعالج مهني ، وأنه يرغب في الحضور
الى (الجرانج) لايامانه بأن العمل يشفي مرضى العقول . فاذا كانت هناك اية
صعوبات في (الجرانج) فبوسعي ان اكتب له عنها بصراحة ، وسوف يتولى امرها
بالتأكيد .

تمتت وغفغت ثم كتبت له «بصراحة» انني لا اعلق آمالا كبيرا على النتائج
العلاجية للعمل ، ولكنني كنت قانعا بحقيقة مؤداها ان المرضى يتحسنون ، بشكل
عام ، ويشفي البعض منهم . وان هناك صعوبات مثل تدخل مستشفى المقاطعة
في العمل ، ولكن هذا يمكن ان يتولى هو امره ، ولقد كنت سعيدا على اية حال
برغبته في الحضور ولكنني كنت مضطرا الى توجيه عناية سيادته الى اننا نقيم في
مزرعة تضم ثمانين مريضا عقليا ، ليس بها فتيات جميلات ، او اي فرصة
للتسلية . وأن ناسكا مثلي يمكن ان يشعر بالراحة (خاصة ان زوجتي تبعثني الى
هذا المكان الموحش) . ولكنني اشعر بالقلق بالنسبة لشباب في الثانية والعشرين
يدفن نفسه هنا .

وكتب لي المعالج المهني بروجوع البريد «لا يساورك القلق عليّ يا دكتور لانني

لا احضر الى (الجرائح) للمتعة وانما للعمل». اما فيما يتعلق بالفتيات فقد ذكر انه من الرجولة بمكان بحيث تتبعه الفتيات ولو الى اقاصي الارض . وليس لي ان اقلق بشأن مستشفى المقاطعة لانه سوف يكون هنا وسوف يتولى كل شيء . وانتظرنا هذا الشاب المندفع بشيء من القلق . كانت معنوياتي منخفضة وقتها بصورة ما ، وقد انهكني الصراع العقيم بيني وبين السيد «بلا كلام فارغ» بالاضافة الى الاعيب البستاني ودسائس وندي العجوز وقشل مستعمرات المرضى، ووعود (بول مودل) الجوفاء ومع ذلك ظلت المشكلة الرئيسية هي الشعور بالعبث. وكنا نعرف كيف يمكن ان تحل المشكلات ، لكن احدا من المسؤولين لم يعرنا التفاتا. كان في مقدورنا ان نتحدث كما نشاء ، وكان كل ما حصلنا عليه مجرد وعد أجوف من بول مودل) .

ولم يفت شيء من هذا في عضد المعالج المهني . فلقد دنع بنفسه في الصراع متحمسا لظهار ما يمكنه عمله . ولم يكن خاملا ، فخلال اسابيع قليلة استطاع اقامة مستعمرة للمرضى المتوجهين في مزرعة الجنود المجاورة ، ولم تكن المصاعب لتثنيه ، فقد عاش مع المرضى لمدة اسبوعين ، وعمل معهم ، وجادل المدير وكبير الزراعيين ، وتفحص عمل وأجور المرضى . وبعد ذلك اعتاد التوجه بالدراجة الى هناك عدة مرات في الاسبوع ليرعى شؤونهم .

وكانت مستعمرة مزرعة الجنود تعمل دون رئيس للمرضى ، كان (بول مودل) قد وعد بتدبير واحد ، ولم يصدق هذا الوعد سوى المعالج المهني .

ولقد راقبت صراع المستعمرة البطولي ، او بعبارات أدق صراع المعالج المهني عن كذب ، وكنت أقف الى جانبه ، لكنني لم اقتنع بأنه سوف يوفق .

ومع هذا ، فقد ظلت ربيتي تبدو لا محل لها لمدة طويلة ، وبدا كأننا سوف نكسب معركة مزرعة الجنود . فأرسلنا عشرون آخرين من العمال الكفاء ، وكنا نستبدل كل من لا يتفق وتوقعاتنا عنه فورا ، لكن اغلبهم عمل بكفاءة ، حتى تكون لدينا في النهاية فريق ناجح مكون من عشرين رجلا ، حازوا رضا مدير المزرعة . كان (دروبانوفتس) هو قائد الجماعة ، الرجل المقتول العضلات . لم يصدق

اي شخص في المزرعة لبعض الوقت انه مجنون ، فلقد كان يتكلم بطريقة ذكية ويعمل جيدا ، ولكنه كان يقول في بعض المناسبات «شوف ، يا سيدي انا مثل رجل البوليس السري تكفيني نظرة واحدة الى الشخص حتى أعرف ما بداخله...» . وبمنظرة مليئة بالمعاني يسترسل في محاضرة حول شرور الآخرين وفضائله الشخصية ، وعن مختلف اعضاء أسرته الذين سعوا سرا لايداعه المستشفى العقلي ليرثوا ثروته . وربما كان كل ذلك صحيحا فيما عدا انه لم يكن يملك اية ثروة .

كان هذا الرجل هو روح الفريق ، يرعى الآخرين ، ويوجه عملهم ، ويهتم بنظافتهم ، ويقوم بالحلاقة لهؤلاء الذين كانوا اكسل من ان يؤدوها بأنفسهم . وفي ايام الاحاد لم يكن يجد الوقت للاستحمام لانه كان يقوم بالفسيل ، فكان يفسسل ويجفف كل ملابس زملائه الداخلية بعناية .

وكان (اليكس بارنوت) ايضا من صفوة الجماعة ، على الرغم من ان احدا لم يكن يستطيع ان يصدق من غمغمة ومظهره المتناوم انه قادر على العمل اطلاقا . كان قد نشأ في مصحة ، وشهد العديد من التقلبات . كان ضعيف العقل ولم يذهب الى المدرسة قط ، وكان الان يتعلم القراءة والكتابة ، ويستطيع ان يروي قصصا مرعبة عن الخبرات التي مر بها . وذات يوم وضعه والداه السكيران مع كل اخوته واخوانه على قضيب السكة الحديد ، أملا في التخلص منهم . وفعلا تم لهم التخلص منهم ، فلقد تم سجن الاب لا بسبب محاولته التخلص من أسرته وانما بسبب الزنا مع المحارم ، وتم ايداع الابناء في المصحة .

اين يكمن الخيط الرفيع بين الضعف العقلي ونقص التعليم ؟ ان (اليكس بارنوت) لم يكن عبقريا ، ولكن لو قدر له ان ينشأ في اسرة سوية ، وأن يدرّب على حرفة ، لكان يعمل الان في احد المصانع او المزارع ، شأن اي شخص آخر، ولكان أسوأ ما يمكن ان يقال عنه هو «الحقيقة انه ليس عبقريا تماما» .

وكان هذا ما انتهى اليه . فبعد انفضاض مستعمرة المرضى ظل باقيا يعمل في المزرعة ، ونمي اليها انه أصبح موفقا مع الفتيات وأنه يفكر في الزواج ، ورغم هذا فلم يتعلم الحساب وكان على احدى فتيات المكتب ان ترعى شؤونه المالية وتشتري له ثيابه .

وكان (فوشكي) العجوز نموذجا آخر للضعف العقلي في مزرعة الجنود ففي سن الثانية والخمسين كان يبدو عجوزا كمومياء . ولم تكن ثمة مومياء أشد منه قذارة . كان قد سبق له الاشتغال على عربة لنقل الموتى ، ولم يحدث ان كف عن قص القصص الخيالية حول هذه الفترة . في بعض الاحيان كان يحتفل بمراسيم جنازة كاملة بمفرده ، لكنه كان نادرا ما يصنع ذلك لانه كان عاملا مثابرا . كان ينحني ، وبخطوات متعثرة يتجه يسارا ثم ينحرف يمينا ، وبعد عشر خطوات يغير رأيه من جديد . ولم يكن يهرول هنا وهناك بدون سبب ، كان مشغولا جدا . ولم تكن مفرداته اللغوية غنية ، فلم تزد عن مجرد «صباح الخير يا دكتور ... معك سيجارة ؟»

كان ذلك هو كل اهتمامه : السجائر والجثث . وكان يلتقط الاعقاب من أشد الاماكن قذارة ويضعها في فمه الشبيه بغم المومياء ويدخلها . اما (بوبرديكس) المشلول فكان لصيقا (بفوشكي) . كان يحيي كل انسان مائة مرة يوميا ، ولحسن الحظ كان يقصر كل همهم على التحية نظرا لانه مصاب باضطراب النطق Disartvy الذي يعني تعثر اللسان خلال النطق بالكلمات . كان يخلط المقاطع فيقول مطعف الشتاء بدلا من معطف الشتاء . طيخ بدلا من بطيخ . ويختبر الاطباء عادة المرضى بعيوب النطق بأن يدعونهم ينطقون كلمات ومقاطع صعبة لا يحتاج المرء الى ان يكون مصابا بالشلل حتى يتعثر في نطقها . اما (بوبرديكس) فقد كانت لديه قدرة على خلط أبسط المقاطع لدرجة تنفع المرء بأنه يتدرب على ذلك في وقت فراغه .

وكان (فرانك جستر) ، المصاب بالهيبيفرنيا ، واحد من هذه المجموعة الصغيرة من ضعاف العقول . والهيبيفرنيا هي ذلك الضرب من الفصام الذي يحدث في المراهقة والذي يؤدي الى العته الهادئ في سن مبكرة . ولقد كان فرانك جستر في الخامسة والعشرين من عمره ولكنه ييز فوشكي وبوبرونكس مجتمعين في اللغو . وكان يتمتع بنوع من الفكاهة الحاملة التي يفتقدها الآخرون . «هل تعرف من الذي صنع الساعة ؟ الساعاتي . هل تعرف لماذا يقع المطر ؟ لانه لا يستطيع النزول على السلم . هل تريد ان تعرف ما هو الوقت الان ؟ مثل الامس في نفس الوقت» . كان الجانب المحزن في الموضوع انه كان أنجب تلاميذ فصله، أمل الاسرة ، وفخر القرية . كان لا يزال قادرا على تسمع قصائد الشعر دون خطأ وعلى القيام بعمليات الضرب الحسابية بسرعة البرق . لكنه لم يكن يستطيع الاستفادة من اي شيء تعلمه في المدرسة . كان لا يعمل الا اذا وقف الى جواره شخص ما يوجهه طيلة الوقت . فكان عندما يشرع في ربط الحزم مثلا يتوقف بعد كل مرة ، كما لو كان لا يدري ما الذي ينبغي عليه ان يفعله ، وعندئذ يصيح فوشكي المعجوز فيه : «الحزمة التالية يا فرانكي» - كان يشرع في العمل .

أما حالة (جوستب) فلم تكن تراجيدية على هذا النحو . كان من أولئك الفتوات ذوي السمعة السيئة . وحين كان الطبيب المقيم السابق يناضلهم دون هدف في هذا المكان كان جوهر العذو رقم (١) في (الجرائع) والاماكن المحيطة . كان تحت العشرين ورغم هذا فبطاقة تاريخ حياته تبدأ على هذا النحو المتواضع «حكم عليه للمرة التاسعة» كان قد حول الى (الجرائع) . بناء على توصية من (ليبوتميزو) ولكنه سبق ايداعه في عدة مستشفيات عقلية ، ناهيك عن الاصلاحيات ، ومحاكم الاحداث ، والمدارس الخاصة بالاطفال المعوقين ، هذا غير مرات ومرات في قسم الشرطة بالطبع . كان طفلا يتيما من اطفال المؤسسات لابوين سكيرين متدهورين . يمكن تلخيص تاريخ حياته في جملة واحدة : يحيا حياة اللصوصية والتشرد حين لا يكون مودعا باحدى الاماكن السابقة الذكر .

اذن لماذا أودع مستشفى الامراض العقلية ؟

طبقا لسجله الطبي ، فهو بالإضافة الى كونه متخلفا عقليا يعاني من عدم الاتزان المرضي وحدة الطبع الى جانب نوبات دورية من القلق و'العدوان . ويصف السجل الطبي هذا العدوان بالتفصيل باعتباره «نشاط حركي مفلوت» يتمثل في: تحطيم النوافذ ، ركل الابواب ، تكسير المصابيح ، مهاجمة رجال الشرطة والمرضين الرجال (من الطريف ملاحظة ان هذا لا يحدث الا لرجال الشرطة والمرضين الذكور) . أما من ناحية العلاج فقد عولج بالصدمات الكهربائية وصدمات الانسولين . ولكن لم يفن ذلك عن نجاح ملحوظ لانه ظل بعد ذلك يتصرف داخل (الجرائع) كأنه رئيس عصابة . كان يختفي لعدة ايام ، فيشير الذعر في المدينة ، ثم يعود مخمورا ويسفر عن «نشاط حركي مفلوت» فيحطم الاشياء ويلقي بروت الخيل في الاماكن المعدة لنوم النساء ، يقذف المصابيح

بالاحجار . . . وباختصار كان شيطاننا شابا يثير أعصاب اي انسان . وليأس الطبيب السابق منه تماما امر باحتجازه داخل احد حجرات المخازن المظلمة . فكان بدافع الانتقام ، يتبرز فوق الخضر المخزونة ويركل الباب بقدمه . لقد كان جوستب كفيلا بأن يعجل بمشييب الطبيب السابق اذا لم يكن قد شاب فعلا . واخيرا وبعد ان بث جوستب الرعب القاتل في نفس البستاني ، وبعد ان هرع البستاني الى مستشفى المقاطعة وأخبر المدير «لا - هذا كلام فارغ» بأن عليه ان يختار بينه وبين جوستب ، تم ارسال ستب اخيرا الى مؤسسة اخرى .

وانقضى عام ، وبغثة اقبلت المرضات يجرين في هلع : «لقد عاد ستب . لا تقبله . دعه يعود لا يمكن ايداعه هنا» .

لقد وصلت دفعة جديدة من المرضى تضم بين ظهرانيها ستب الشرير . حسنا ، قلت لنفسي ، فلنلق عليه نظرة ، وأسرت صوب العنبر . ما الذي يتوقعه المرء بعد سماع العديد من هذه القصص المربعة ؟ كنت قد أعددت نفسي لمواجهة شاب صعب المراس ، مفتول العضلات ، ذو نظرات شريرة وعيون مأكرة وفم يطفح بالكلمات والصخب ، يسفر عن «نشاط حركي مفلوت» . سرعان ما يقلب المائدة كما سبق له ان فعل منذ مدة وجيزة في محكمة الاحداث . لكنني وجدت بدلا من ذلك شابا نجila صغيرا اشقر له وجه فتاة وعيون زرقاء حاملة . كان بالغ التأدب لدرجة أدهشتني تماما . هل هذا هو الوجه الذي استدعى تسويد آلاف التقارير الطبية ؟ كنت أتوقع حيوانا مفترسا ، لكنني فوجئت بهذا الطفل الوديع . وهمست المرضات بأنه بدا هكذا في المرة السابقة ، ثم أسفر بعد ذلك عن معدنه الحقيقي . حسنا ، كنت مهتما بتقصي معدنه الحقيقي ولذلك فلم أرفضه .

هل استمر في التفاصيل ؟ لم أر الا نادرا شابا في لطف وجاذبية جوستب . لم يسفر عن «نشاط حركي مفلوت» ولا «سيكوباتية فصامية» . . لم يكن به شيء على الاطلاق . كان هستيريا الى حد ما ، تقوم الجروح العديدة في ذراعه شاهدا على محاولات انتحار هستيرية . كان «نشاطه الحركي المفلوت» مجرد استجابات هستيرية . لم يكن هناك اي اثر للضعف العقلي ، لكن الافتقار الى التهذيب كان واضحا نتيجة لحياته في المصحات . كان العرض الوحيد الخطير لديه هو سهولة استهوائه . ولكن كان من الممكن ان يسهل استهوائه للخير كما للشر . ولقد استهويناه للخير ، ولدة ثلاثة شهور كان مثلا حيا للطف . كان يفضل الاعمال التي تتيح له كمية من الحركة ، لكنه كان يمارس الاعمال الرتيبة ايضا دون ان ينبس ببنت شفة . وكان يشعر بسعادة حقيقية اذا ما أتيحت له دراجة ، بعد الانتهاء من العمل ، ليحمل طردا الى المدينة او يشتري السجائر من القرية المجاورة ، او يحضر لاحدهم رسالة . كان الذهاب والاياب احب الاشياء اليه . كسان ينتابه الغضب احيانا ، او يلقي بما في يده احيانا اخرى او يصيح ، لكن كان من الممكن تهدئته بكلمتين . كان الحزم الابوي او العطف الأموي كفيلا بتهدئة خاطره . لقد

حاول البستاني ذات مرة أن يترك (الجرائح) بسبب ستب : أما الآن فقد أصبح ستب هو ساعده الايمن وأحسن عمال المزرعة .

بعد انقضاء ثلاثة شهور أرسلناه الى مزرعة الجنود . في ستة اسابيع كسب الف فورنتس ، واعتبروه هناك من العمال الذين يعتمد عليهم والقادرين على الكسب نظرا لتفوقه في أعمال تربية الحيوان وأي عمل آخر ، الا ان الحياة في مزرعة كانت شديدة الإملال بالنسبة لطبيعته القلقة . فذكر بصراحة انه سيزل باقيا حتى يدبر من المال ما يكفيه لشراء ملابس جديدة ، وهذا ما فعل . ثم قدم طلبا عن طريق اعلانات الجرائد وحصل على وظيفة عامل تعدين . وزودناه بالنصح الابوي، وأعرناه ما يحتاج اليه من ملابس (ولقد ردها بأمانة) وانتزعنا منه وعدا بالكتابة لنا . وظل زمنا محافظا على ان يذكر لنا بأمانة ما يحدث له ، وكان كل شيء يسير على ما يرام . ثم كف عن الكتابة . وخمنت أنا مكنم الخطأ . ثم تنهى الى سمعنا من شخص آخر انه حصل على جائزتين لسرعته في العمل . ولسوء الحظ، وضع ذلك في يده كمية كبيرة من النقود ، والناس ذوي الثراء يجذبون العديد من الاصدقاء . ما الذي يمكن للمرء ان يصنعه في مدينة تعدين صغيرة كئيبه ومعه كمية من النقود والعديد من الاصدقاء ؟ يشرب بالطبع ، ويتردد على الحانات . ان العمل الرتيب تحت الارض والشراب وأصدقاء السوء ليس المناخ الطيب لاصحاب «النشاط الحركي المفلوت». وهكذا اعيد الى مستشفى ليبتوميزو للعلاج. لكن آثار عملنا لم تكن بلا جدوى ، فلقد استعاد رباطة جأشه ، وهو يعمل الآن في احدى مزارع الدولة من جديد ، وتسير اموره على ما يرام . ولكن الى متى ؟

الجانب المحزن في الموضوع ان لديه القدرة على ان يصبح شخصا متفوقا . انه في حاجة الى المساعدة لعام آخر او عامين فحسب حتى يستطيع ان يقف على قدميه ويتزوج ويستقر . كان من الممكن ان يكون ساعي بريد ممتازا (للجرائح) مثلا ، فيما لو كان لدينا مثل هذه الوظيفة . ولكن ذلك لم يكن في وسعنا ، ولا نستطيع أن ننفق السنوات في اصلاح كل فتوة يلقيه سوء حظه في طريقنا . كان الاربعة عشر مريضا الآخرين الذين تم ارسالهم الى مزرعة الجنود من المصابين بالفصام . كان بعضهم لامعين والبعض الآخر اغبياء . كان احدهم يعتقد منذ خمسة عشر عاما انه كونت وكان الآخرون بالتالي يعاملونه على اساس هذا الزعم . كان في الواقع فلاح بسيط يعمل بجد . كان يخاطبني بلقب «السيد المدير المالي العام» لبعض الاسباب . فلقد دأب على المطالبة بأجوره عن السنوات الخمس والعشرين الماضية والمقدرة بعدة الوف . لم يكن لديه موضوع آخر سوى ان يكرر ذلك عدة مرات يوميا . ويدق كعبيه محاولا اسباغ النبالة الارستقراطية على جسده الريفي المتهدل . كان يكسب من مزرعة الجنود المال الذي يكفيه لشراء بضعة ملابس قليلة ، ولكن من الصعوبة بمكان إنشاءه عن شراء المحل بأكمله . فهو بعد يمتلك الملايين ، ولكنه في النهاية يستقر على قميص وسراويل .

وكان آخر عامل طباعة يعاني من المرض العقلي منذ كان في السادسة عشرة . وهو الان في الاربعين ذكي ومستنير . كان يعمل كمن به مس ولكنسه يتحاشى الآخرين . كان شديد التهذيب والادب . وكان يذرع الممر جيئة وذهابا كل مساء بمفرده ويتنحج بصوت عال ويصيح قائلا «بوب» . ويخترق الفراغ في الهواء بإصبعه ، ولم يعرف احد ما المقصود بذلك . ولقد نشأت بينه وبين فتاة ضعيفة العقل في العشرين من عمرها علاقة رومانسية غريبة . كانت كريكت فتاة صغيرة خجولة تعلق قلبها به ومضت تطارده لاسابيع بحبها الدؤوب . وقاوم السيد بنكنوت ، عامل الطباعة على قدر طاقته ثم استسلم في النهاية . ولكنه لم يكن مهيمًا سوى للحب الافلاطوني . وحتى ذلك رفضه فيما بعد ، فضاق بالفتاة وحاول التخلص منها . لكن من الصعوبة التخلص من فتاة تحب . فكانت كريكت تتسلل يوميا الى بنكنوت ، وكان يقبلها يوميا على الطريقة الواقعية تماما وليس بطريقة افلاطونية . لم ار في حياتي مثيلا لهذه القبلات . وكانت كريكت تتلقى قبلاته دون ان تنبس او تعترض . وتعود في اليوم التالي ثانية في طلب القبلات وتحصل عليها .

ودام ذلك حتى أرسلنا السيد بنكنوت الى مزرعة الجنود . فانتاب كريكت القنوط لدرجة اعلان العصيان . وكفت عن العمل عدة اسابيع مكتفية بالوقوف عابسة الوجه ثم طالبت بإعادتها الى المستشفى التي سبق ان حولت منها السى (الجرائج) . لكن الحب كان اقوى . فبعد ستة شهور هربت وارتحلت مائتي ميلا في طلب بنكنوت . وتجولت على الاثر من مزرعة الى أخرى أملا في العثور عليه في مكان ما . وماذا لو وجدته على سبيل الافتراض ؟ سوف تستمر بالطبع في طلب القبلات وتغدو سعيدة .

اما ستيف تراي فقد كان جزارا . خاض أهوال الحرب وأسر ، لكن من لم يخضها ؟ لقد عاد الى بيته ووجد زوجته قد تزوجت لرجل آخر نظرا للاعتقاد بوفاته . فلم يلم زوجته . كانت المشكلة الوحيدة انه لم يكن متأكدا تماما مما اذا كانت هذه المرأة زوجته او واحدة من اخواتها التوائم . لقد اعتقد ان لزوجته ثلاثة أخوات توائم . وكان هذا هو السبب في ايداعه المستشفى .

وتلقى كل انواع العلاج بل وأجريت له عملية استئصال الفص الجبهي . هل شفته العملية او انه شفي بطريقة أخرى ، هذا ما لم نعرفه ابدا . انما الامر المؤكد ان ستيف زالاي بدأ يتحسن تدريجيا . ولكنه تلكا في الخروج فلقد كان يشعر بأنه أسعد حالا في ظل المؤسسة عنه في العالم الخارجي . انه يمارس حياته الان عاملا يكسب أجره بنفسه في المزرعة ، لكنه يحافظ بإخلاص على زيارتنا في (الجرائج) .

حتى هؤلاء الذين لم يتم شفائهم كانوا يعملون جيدا . لقد ظل أندرو الخناق (سافوكاتور) محتفظا بأشباحه فوق رأسه والخناقين فسي اثره وظل القسس مستمرين في مشاغلتهم من السقف . . لكنه في الوقت نفسه كان يعمل بدأب .

واستمر بوب العجوز يشير للملائكة تحت المائدة معلنا ان ملكا يجب ان ينتخب قريبا . ولكنه على الرغم من ذلك كان مقامرا ممتازا ، ومهرجا قادرا على اضحاك المزرعة بأكملها . الا انه كان على جانب من الشذوذ . اما الآخرين فكانوا اما شرسون او ميالون للانطواء على انفسهم ، شأن جوزيف تادروس البالغ من العمر ستة واربعون عاما الذي كان فلاحا من السهول . لم يكن ينطق بكلمة ، ولكنه كان يشعر بالآلفة وهو يقوم بعمل المزرعة . كان يدخر نقوده ويرسلها لأخيه ، هذا الوغد الذي لم يكتف بأن خدعه في الميراث ، بل يحصل الان ايضا على أجره . باختصار كان المرضى ، على ما يرام . وكان مدير المزرعة لا يجد من الكلمات ما يوفيههم حقهم ، ولكن بالنسبة لدفع أجورهم ...!

لم يكن الامر يتعلق بعدم دفع مستحقاتهم . كان الملاحظ يسجل عملهم والصراف يدفع ، والمرضى يقبضون (هنا على الأقل كنت متأكدا انهم يقبضون) كان متوسط الاجر يتراوح بين ١٠٠ - ٢٠٠ فورت كل عشرة ايام . كان البعض يحصل على ما هو اكثر قليلا او اقل قليلا . لكن كان يتم خصم ٧٠ فورت من حسابهم مقابل الايواء وكانوا يتفقون الباقي ٣٠ - ٤٠ فورت على السجائر فلا يتبقى الا القليل لشراء اطعمة اضافية .

وظل هذا كله بمثابة لفظ بالنسبة لي . فاذا كان المرضى يعملون بجد كما بدعي المدير والزراعيين ، فلماذا يكسبون أقل القليل ؟ كان المعالج المهني يتوجه بدراجه الى هناك في ايام الصرف ثم يعود ثانية وهو حانق «مرة أخرى يدفعون لهم فقط ٣٠ - ٤٠ فورت . لقد استطعت بالكاد ان اهدئهم » .

ولكن كيف كان ذلك ممكنا ؟

الامر بسيط جدا . كانت هناك أعمال يصعب بمكان تحقيق معدلات الانتاج المقدرة لها وكان العمال الأصحاء الأسوياء يجدون صعوبة في انجازها بنسبة ١٠٠ بالمئة ، فكانوا يرفضونها . اما المرضى فلا يسألون عما اذا كانوا يرغبون في تأدية هذه الاعمال ام لا . فكانت ادارة المزرعة تسعد لوجود اغبياء - تعبير الاغبياء هنا في محله الصحيح تماما - يتولون العمل الذي لا يرغب فيه احد .

وبالطبع كان الامر يستوي بالنسبة للمريض . كان يعمل حيثما وضع دون سؤال عن معدل الانتاج . ولم يكن ليعمل كشخص يريد ان يبلغ معدل الانتاج فحسب ، وانما كإنسان يريد أن يؤدي عمله جيدا باضطراد ودقة وعناية . كان المدير يفرح بالطبع عندما يرى الحقل قد تم بالشكل المطلوب ، ورغم هذا كان الملاحظ يقدر العمل اليومي ويسجل ٢٠ بالمئة . كان يقدر الكم لا الكيف .

ولقد أزعجني هذا ، تشاجرت مع ادارة المزرعة ، وطالبت أن يكون الدفع بالساعة - لكنهم لم يوافقوا . وقدم لنا المدير الوانا شتى من الوعود ، لكن الصراف لم يكن له شأن بها . كان يجلس الى مكتبه ويحسب ويحسب بلا نهاية ليصل اخيرا لمبالغ ضئيلة جدا . لدرجة تجعل المرء يشعر ان المبلغ لا يساوي

جده في الحساب .

لكن هذا لم يكن أسوأ ما في الامر . فلو ان مرضانا يكسبون نفقات الإيواء ويتبقى لهم ما بين ١٠٠ - ١٥٠ فورنت في الشهر لكان ذلك باعثا على الرضى . لكن الصيف لم يكن يستمر الى الملائية وكذلك الخريف . فجأة يجدون انفسهم في الشتاء بدون عمل او دخل . كان العمال النابهين منهم يكلفون برعاية الحيوانات ، اما الباقين فكانوا يتسكعون . ولم يكن هناك ثمة أجر للتسكع . كان العقد ينص على ان تقدم المزرعة فرص العمل للمرضى صيفا وشتاء ، ولكن ما هي قيمة العقد ؟ كانت فرص العمل تقل في الشتاء ، ويكلف به الاسوياء . ففي صراع البقاء كان المرضى هم الخاسرون . لم يكن لهم ممرض او رئيس عمال يطالبهم بأعمال في الشتاء . كان المعالج المهني يهرع الى هناك مرة في الاسبوع بالدراجة او القطار او العربة او على الأقدام تبعا لحالة الطقس . وكان يناقش ويصارع ويحصل على الوعود .. ولكن كان كل ذلك عبثا .

لم يكن ثمة جدول - وكان علينا ان نعود بمرضانا . واحتفظت المزرعة بقلة من الذين يمكن الاعتماد عليهم في كسب أجورهم الذين اعتبرتهم الادارة أسوياء - اثنين من الفصامين ، وواحد من ضعاف العقول وآخر من مدمني الكحول . وعاد الباقون الى (الجرائح) .

في هذه المرة تطرق اليأس الى المعالج المهني بسبب الفشل ، بينما لم أعد أنا ابالي بالامر . كان المرضى في الواقع يعملون جيدا ، ولم يكن الباقي نتيجة خطأهم . ولقد تعلم بول مادل ومعاونيه ايضا من أخطائهم . فلقد وضعوا حدا للمزارع السيئة وفصلوا مديري المستعمرات من السكرين او الذين ليسوا في مستوى المسؤولية ، حتى بدأ الموقف يسفر عن تحسن . وحين طلبت مني دفعة جديدة من المرضى ، ارسلت اربعة وعشرون رجلا وإحدى عشر امرأة من العمال المجيدين المنتقين بعناية . وفي حدود علمي عملوا بجد . اما ما سوف يحدث في الشتاء ، فهذا ما لا يمكن التنبؤ به بالطبع .

ولقد اصطحبت الاحدى عشرة امرأة بنفسى الى المزرعة . وكانت رحلة من النوع الطريف . كن جميعا من القدامى الفضلات ومن العضوات المؤسسات في (الجرائح) . وكن يرتدين ملابسهن المتواضعة التي اشترينها من أجورهن . بدت كلارا تيزي بثوبها المنقوش ووجهها الاحمق كدمية ، ماردا نائما لكنها مستيقظة . بعيونها المفتوحة الواسعة . وبدت جولي بوزا بملفحتها الانيقة كامرأة سلوفاكية جميلة . وانسجمت عيني ماري سكوانت مع لون شريط شعرها الازرق ، لقد تحولت المدمنة العتيقة الى حسناء لدينا . أما كانت آن دمب ، اعظم خرساء متكلمة في العالم فكانت فخورة بصدارها الاصفر . اما الخرساء الاخرى فكانت كذلك فخورة بصدارها الاحمر ذي النقط البيضاء . وبدت ماري جيارماني كإبنة المدينة بين حسناوات القرية في جونتلتها الزرقاء المبهجة وكانت كريكت جذابة حتى في خلقها المتواضعة لانها كانت صغيرة السن ، لم يكن لديها سوى زوج من الجوارب الحمراء وصندل جديد لانها أنفقت كل ما كسبته في شراء السجائر .

كانت ذاهبة الى المستعمرة بأمل العثور على السيد بنكنوت هناك لتحصل على قبلاته . . وكانت القديسة اليزابث تبتسم فخورة بثوبها البني كما لو انها رسمت كاهنة حقا . كانت زوجة الطبيب وماتيو فقط هن اللاتي يرتدين ملابس المؤسسة . كانت زوجة الطبيب تتخيل نفسها قرينة طبيب في الجيش ، ومن لحظة السى اخرى كانت تصيح بدون سبب على الاطلاق «صفا . . انتباه» . وكان اسم ماثيو الحقيقي هو ماتيليدا ، لكن صوتها كان قويا كالرجال ، ومن هنا كان سبب اكتسابها اسم ماثيو .

كانت الجماعة كلها تبدو كأنها في رحلة خلوية جميلة لا مرضى عقليين «خطرين» ينتقلون من منزلهم «المقفل» . كان الجو العام ممتازا بفضل ماثيو البلهاء التي ظلت تروي الطرائف طيلة الوقت بصوتها الأجش المثلث . وكلما تصادف دخول احد الغرباء غير المتوقعين للعربة كانت تصيح مرعدة «إئمع هذه عربتنا المخانة . . أخرج فوراً وإلا امثلك ريث الاطباء» . ونصح المفتش كل من كان على وشك دخول عربتنا قائلا «خذ حذرك . . فربما تنتهي في الداخل» .

وأحاطت بنا دائرة سحرية . كان الركاب يراقبوننا في حب استطلاع ودهشة وابتهاج «المجانين في رحلة» في نفس الوقت الذي استمتع المرضى بهذه الخبرة غير العادية . وبلغ سرورهم منتهاه حين طلبت لهن زجاجات المرطبات لدرجة دفعت كلار تيزي التي تدعي الخرس الى أن تبدأ الكلام بأثير الفرح . كانت تستطيع التحدث بطلاقة اذا ارادت ذلك ، لكنها لم تكن تريد . كانت تتكلم فقط حين يحدث شيء يهز انفعالها . في العام الماضي على سبيل المثال استؤصلت زائدها الدودة، وحين عادت الينا أطلق الفرح بغتة لسانها فقالت «أنتم هنا . . اذن فأنتم هنا» . همست بذلك بعيون لامعة ثم همست كأنها راهبة نذرت نفسها للصمت . ولقد سمعت مؤخرا انها بدأت تتكلم في المستعمرة من جديد ، في هذه المرة كان الحب هو الذي أمدها بالكلمات .

كان الليل يرخي سدوله حين وصلنا الى المستعمرة . وتم اعداد احد البيوت المهجورة في المزرعة للمريضات . وتبدو «إعداد» هنا مبالغ فيها ، لم يكن ثمة إعداد معين ولكن على الأقل كان هناك مفتش للمزرعة ، وهو رجل ماهر ونشط . قد يكون في مقدوره ان يقف الى جانب المرضى في حربهم مع ادارة المزرعة التي وعدت بكل شيء وفضلت الا تصنع شيئا فيما يتعلق بمعدلات الانتاج والاجور والمعاملة العادلة . لن يكون الامر سهلا عليه .

وكان الوداع مؤثرا . الاحدى عشر امرأة كن يبكين . وحتى المرأة الثانية عشر ، المريضة روزي كانت تنتحب . وصرخت ماثيو بصوتها العميق «دادا . . دادا وانتحت كلارا تيزي جانبا تنعي قلبها الوحيد ، وقبلت القديسة اليزابث يدي ، وارتمت ماري سكوانت الخرساء ذات اللثة والأخريات على عنقي وأغرقتني بقبلاتهم المتطايرة . اما روزي المريضة ذات التسعة عشر ربيعا فقد بكت اكثر منهم جميعا وظلت تلوح بمنديلها الملبل لمدة طويلة .

كنا قد دبرنا ان نضع حدا لسوء استخدام مزرعة فروستي ، لكن مستعمرات المزرعة كانت لا تزال ضعيفة ، ولم يكن من المنتظر أن تتحسن ، لاننا بعد كل شيء لم نكن نتوقع أن تدلل مزارع الدولة مرضى العقول .

وعلى كل حال ، كانت التجربة ذات قيمة . ففي عامين أرسلنا سبعون مريضا الى المستعمرات ، وقام خمسون منهم بأداء عملهم بطريقة تبعث على الرضى (وعمل الباقيون رغم كل شيء بشكل جيد في الجرانج) وكان اكثر من نصف المرضى الذين ارسلوا الى المزارع من الفصامين ، وفشل من التسعة وثلاثون فصاميا تسعة فحسب ، بينما فشل كل الثمانين المصابين بالصرع . وهذا يؤكد ان الفصامين الذين يعتبرون «منسحبين من العالم» يتصرفون بطريقة لا بأس بها في العالم ، بينما المصابين بالصرع الأدعياء الفشارون بإدعاءاتهم الفارغة ، في حاجة الى المزيد من الرعاية الدقيقة الاعمق مما يمكن ان تقدمه مزارع الدولة . وفيما يتعلق بالفصامين التسعة لم يكن عملهم هو سبب المتاعب وإنما تدهورهم . فلقد فر بعض المرضى هاربين الى منازلهم وأعلنوا ان في وسعهم العمل هناك . وتمرد البعض الآخر على الاجور الضعيفة (الواقع ان اغلب المتمردين كانوا من المرضى بالصرع) . ولقد أعيد بعضهم الى (الجرانج) حيث لا يهتم احد بهلاوسهم ويستطيعون العمل في سعادة . وكانت جولي ، المرأة السلوفاكية الجميلة ، هي الوحيدة التي أسفرت عن عدم صلاحية كاملة ، كانت شديدة الاختلال لدرجة تتطلب صبرا فوق طاقة البشر لحملها على العمل المفيد . ولم يكن الصبر الذي فوق طاقة البشر يمكن توقيعه في مزارع الدولة ، فهذه ليست مهمتها .

لقد كانت مستعمرات المرضى داخل مزارع الدولة خطأ في المقام الاول . كانت الاحصائيات تبدو طيبة بالطبع ، فهنا سبعون مريضا ، وهناك خمسون مريضا ، وثمة ثلثمائة وستون مريضا ، ولكنها كانت فشلا ذريعا في الاساس . فما الذي حدث للمرضى الذين تم توزيعهم في طول البلاد وعرضها ؟ هل شعروا بالطمأنينة في هذه المزارع المهجورة حيث لا يعتني بهم احد وانما يهتمون بناتج عملهم فحسب ؟ ربما يبرزون في أعمال العزق والقلع — ولكن ما جدوى ذلك ؟ بدلا من النقود التي أنفقت على هذه المزارع كان يكفي تخصيص مزرعة دولة واحدة للمرضى . ما اروع العمل الذي كان يمكن للخمسة وعشرين ممرضة أن يؤديه في ظل هذه الظروف ، بدلا من رعايتهن للمرضى في عرض البلاد ، وقد تشتتت قواهن وافتقدن القيادة والرجوع الى المتخصصين ، ودون فرصة للتطور ! ان مستعمرة كهذه كانت كفيلة بأن تضم خمسمائة مريض عامل لا يستغلهم «الناس الأسوياء» وانما يشعرون بالطمأنينة يعملون ويعيشون لانفسهم ولبعضهم بعضا .

الفصل السادس

طلاء القفص بالذهب

وأقبل الخريف وقد مضى عام على وصولنا المحفوف بالمغامرة .
تطلعت من النافذة الى زهور الجرانيوم والفوكاسيا من خلال الستائر التي
تغطي النافذة ، والتي حصلنا عليها بعد صراع طويل كوفاء واهٍ من أسراب الدباب
التي اتخذت من حظيرة الخنازير مستقرا لتوالدها ، فرأيت (الجرانج) ممتدة أمامي،
مزرعة تضم حوالي خمسة او ستة أفدنة . لم تعد ثمة صعوبات ، فلقد انتهى
المرضى من التغلب عليها . ولقد تطلب هذا عملا شاقا . فتم حفر الأرض لعمق
يتراوح بين قدمين او ثلاثة ، حتى يمكن دفن الحصى والاحجار في القاع وإخراج
التربة الغنية المنتجة الى السطح . ولقد كنت اتصور دائما ان الأرض لا ينقصها
سوى الحرث ، وأن هذا يمكن ان يقوم به حصان او جرّار . لكنني علمت من
البستاني انه ينبغي اولا تسويتها ، وأن الرجال فقط - وليس الحيوان او الآلة -
هم الذين يستطيعون القيام بذلك العمل .

ولحسن الحظ تم استكمال هذا العمل . وكنت اكرهه ، فلقد كان يذكرني
بالسخرة . ومع هذا فقد بدا ان بعض المرضى يفضلونه . كان فالتين أنديان مثلا
يحفر بحماس ، ولم يكن الوحيد في ذلك . في ذلك الوقت لم أكن قد فهمت الا
القليل من مبادئ العلاج بالعمل ، حصلت عليه من القراءة المكتبية ، ولكنني
شعرت بشكل ما أن هذا العمل الممل لن يؤدي الغرض منه . كنت مقتنعا بأن

الارض يجب أن تقلب ، لكنني تناقشت كثيرا مع البستاني مؤكدا له انه يخلط بين العمل الاجباري وبين العلاج . اما اليوم فقد اكتسبت معرفة افضل ، يمكن للمرضى ان يقوموا بالحفر ايضا ما داموا يشعرون انهم يؤدون العمل لانفسهم . والآن لم يعد ثمة المزيد من المصاعب . تمتد امامي الان عبر النافذة قطعة من الارض تمت تسويتها بطريقة تبعث على الرضى . وتم احاطة المسكن بغابة صغيرة من اشجار الاكاسيا وخندق ضيق من على الجانبين . وتحت النافذة مباشرة ثمة شريط من الارض البنية يمتد حتى اشجار الجوز . وكان هذا الشريط يحمل في حد ذاته دلالة خاصة . كان بستانيا معادٍ للزهور ، فهو يحب زراعة البطاطس والخضروات في اي مساحة متاحة ، حتى ولو تطلب الامر حرق الحديقة بأكملها . اما الان فتناثر الزهور في الحديقة هنا وهناك ، وحتى في داخل العنبر قام قسم النجارة بعمل بعض الاصص ثم تثبيتها على جدران المسكن لتضم قلة من زهور الجيرانيوم المختلصة - ونقول قلة لان بستانيا كان يتمتع بملكة مدهشة تدفعه للتأكد من عدم تراكم اية زهور في الاحواض . فاذا حدث من قبيل الصدفة ان ظهر برعم كان يبادر بأخذه الى المدينة ليجمّله به المستشفى او لبيعه . ولكن على الرغم من هذا كان مسكننا جميلا ، فهو ابيض ناصع يضم نباتات خضراء ، موضوعة في الاصص وزينت هيلين انز جدرانه بالالوان المائية المليئة بالحيوية - وكف المرضى عن ضرب بعضهم بعضا فوق الرؤوس بأصص الزرع . كان الشريط البني من الارض تحت نافذتنا يعني اننا ننوي السماح للعشب والزهر ان ينمو فيه ، لكن البستاني زرعه خسا . وبعد نقاش طويل قرر اخيرا الاستغناء عن الخس ووعدنا بالعشب الاخضر ، لكنه لم يجد الوقت لذلك ابدا . كان يجد الوقت الكافي لكل متر مربع من الافدنة الخمسة الا هذه القطعة . حتى مرض لحسن الحظ عدة ايام قليلة وذهب الى المستشفى ، فانتهر اولد ويندي الفرصة وكلف المرضى بعزق هذا الشريط وبذر بذور النجيل فيه املا في مكسب اضافي وكان اولد ويندي في الحقيقة عدواً للعلاج بالعمل ، لكنه كان اشدّ عداوة للبستاني ، لذلك أسعده ان يسبب له مضايقة صغيرة خاصة اذا حصل ممن جرائها على شيء اضافي .

كان شريط الارض بنيا الان لانه لم يعد مزروعا بالخس ، ولأن النجيل لم ينبت بعد كان يستغرق وقتا ، وربما لن ينبت على الاطلاق ، وعندئذ سوف يشعر البستاني بالرضا ايضا .

كانت أحواض الخضروات تبدأ من خلف الشريط البني . وانا لسوء الحظ لا أستطيع تسمية الخضروات . أستطيع بالكاد أن أحدد أيهما الكرنب وأيهما الخس، لكن لم تكن لدي أدنى فكرة عن الأشياء الصغيرة الخضراء الأخرى . ومن خلفها كانت تقف صفوف الفلفل الأخضر وقفة عسكرية ، ثم يأتي السبانخ ، ومن المحتمل أن تكون هذه المعلومات قديمة الان ويكون اللفت قد حل محل السبانخ . لا زال على البعد الخشخاش بأوراقه الملونة الظليلة وخلفه الفول ومساحة طويلة من

البطاطس، ثم القرع والشمام والخيار والبصل والطماطم وما لا تدرية ولا يعلمه الا الله من اصناف المزروعات التي ليس لديّ اي فكرة عن اسمائها . لكنني كنت أعرف جيدا كل اصبع انحنت لتزرع أحواض الخضروات وتصل بها الى أغراضها .



دق الجرس معلنا الخامسة . لقد انتهى العمل . كان يبدأ في الثامنة صباحا وتقطعه فترة راحة من الثانية عشر ظهرا حتى الثانية مساء . كان المرضى يتناولون غذاءهم في الخامسة مساء ، وكانوا يتركون على سجيّتهم بعد ذلك يصنعون ما يشاءون حتى موعد النوم .

كانوا لا يتعجلون . أريد ان أوكد انهم لم يتعجلوا ابدا انتهاء العمل . كان الجرس يقرع منذ زمن طويل ولكنهم يظنون يعملون . كان المرضى يضطرون لاستخدام القوة مع الاكثر مثابرة منهم : هيا هيا . تناول طعامك . . كف عن العزق . كان من المستحيل بدء توزيع الطعام قبل الخامسة والنصف . بعد ان يذهب المتأخرون لفصل ايديهم .

كان عدم التعجل هذا دليلا له مغزاه . كان يعني انهم لا يعملون تحت القهر وانما بدافع اللذة . لو اضطرت الى العزق او الزراعة فمن النادر ان أنتظر حتى تنتهي الساعات السبع . ولم يكن المرضى على هذا النحو : كانوا يظنون راغبين في انهاء هذا الكوم او زرع هذا الحوض .

وعندما نظرت من نافذتي بعد الساعة السادسة وجدت قلة من المرضى عادت للعمل في الحديقة . كان سانت جون يزرع شريطا عريضا رغم ان ما يعانيه من مرض باركنسون كان يعوق حركاته كفلاح خبير . وكان السيد اسيستانت يقف بالقرب منه . كان فيما مضى نقاشا موهوبا ، والآن هو مريض بالفصام مختل تماما ، ولكنه فلاح مثابر . استمر في لغوه وثرثرته عن الهند والبرتقال الدموي، ولكنه لم يكن شاذاً بحال اثناء عمله في الحديقة . كان يعرف تماما ما هو ممكن وما هو مستحيل وكيف يجب ان تصنع الاشياء . كان العم مايـسك ، المشلول العجوز يحصد هناك ايضا . وكانت روزي ماشت تروي الزهور (فالزهور تحتاج رغم كل شيء أن تروى حتى بعد انقضاء ساعات العمل) . كان جون يزرع الشتلات في صمت ، ويحفر العم فادينا ، موظف الجمرك الحزين ، في شرود شاعري ، وتقتلع يولاندا بليند العشب البري ، ويستخدم العم تابيه لغة الإشارة ليؤكد انه يرغب ان يستمر الحصاد (كان قادرا على الكلام لكنه لا يرغب فيه) ، وكان جوتاف يزرع الزهور تحت نافذتنا متوقعا «البقشيش» . وكانت هيلين انز قد شرعت لتوها في العزق بعد ان قضت اليوم كله تكتب على الآلة الكاتبة .

كان المرضى الان في فترة الراحة ما عدا المكلف بالوردية الاخيرة ، وكان مرضى القصر يسألونه . كان البستاني في المدينة بينما يقوم أولد ويندي باصلاح

الرشاشة - لا أحد يحرس المرضى ، لا أحد يحثهم على العمل ، لا أحد يراجعهم . كانوا يعملون فيما هو لهم ، ولانفسهم .

من الواجب أن اعترف اني لم اكن قد تحققت من هذا حين بدأت تجربتي في (الجرانج) . لم اكن اعلم ان المرضى يحتاجون الى ما هو اكثر من مجرد «الانشغال» . اي جعلهم يشغلون وقتهم بطريقة ما ، حتى يقل الوقت المتاح لجنونهم . كلا . **يجب ان نضع العمل بكل جوانبه بين أيديهم** . والمقصود بكل جوانبه هنا : أن نذكر لهم الغاية المقصودة منه . ان غاية العمل هي ان يعود على المجتمع الذي ينتمي اليه الفرد . كان المريض يعمل كأنه في منزله الخاص لنفسه وللأعضاء الآخرين في الجماعة . كان يرى ويفهم الغاية والنتائج (هذا هو السبب في أن محاولات البستاني لبيع المنتجات كانت خاطئة . كان المرضى لا يرون الا سيارة النقل وهي تحمل الفلفل الجميل بعيدا . ذلك الذي انتجوه بعرق الجبين، وترك لهم النفاية . لم تكن الحقيقة التي مؤداها انه في مكان ما وفي بنك ما يضاف الى حسابنا كمية معينة من النقود تعني شيئا بالنسبة لي ، ناهيك عن (المرضى) . ان «فرصة العمل» جملة بالية تماما ، واعتقد انها واحدة من اعظم الاكاذيب المقدسة . لا توجد فرصة بالعمل على هذا النحو . ان العلاج بالعمل يبدأ بغاية العمل ، وتنمية لمشاعر الانتماء ، ويكتمل مع وجود البيت .

كان من السهل نسبيا ان يعمل المرضى ذوي الاصول الفلاحية او البروليتارية. ذلك انهم تعودوا العمل منذ نعومة اظفارهم . ولكن ان يصمم فلاح فصامي شاب على التوجه الى الحديقة ، فيأخذ مجرفة ويعمل حتى حلول المساء فهذا ليس بعد علاج بالعمل . انه لا يزيد عن كونه مجرد استخدام لجهد . ان هذه مجرد البداية ، فاذا لم نصل الى ما بعدها ، نكون قد قمنا بالقليل . ففي العلاج الناجح بالعمل يجب ان يستمتع المريض بعمله وحياته يتهج بالعمل والحياة معنا ، ويتطلع ايضا للمتعة والراحة ، ويضع الخطط ، ويستقبل الزوار . فاذا كان يعاني في الوقت نفسه من الهلاوس والهذات ، فان هذا يغير من حقيقة نجاح العلاج بالعمل .

كان هذا هو الدرس الاساسي المستمد من العام الاول في (الجرانج) .



الاستمتاع بالحياة - كان هذا هو الهدف المتواضع الذي بدأت اسعى من اجله . وكان في الواقع سهلا ممتعا . كانت المشكلة ان المرضى يغلقون ابوابهم على انفسهم ويجدون انه من الصعوبة بمكان الاستمتاع بالحياة . **مات الجمال في داخلهم** ، هذا ما تعلمته من فتاة فصامية شابة .

كان درسا احب ان اعرضه بكل ابعاده على كل من يهمهم الامر .

كانت هلعنا في الخامسة والعشرين من عمرها تقريبا عندما التقيت بها ، كانت

نحيفة ، ذات جمال هش ، ووجه في بياض المرمر ، تتبدى عروقتها الزرقاء من خلال بشرتها . وكثيرا ما ترفع أصابعها النحيفة الى حاجبيها القوطيين لتغطي في خجل النظرة الرقيقة في عينيها البنيتين . كانت طالبة في الفنون تعشق الادب . وكانت تحفظ أغلب الاشعار الجميلة عن ظهر قلب . وأحيانا تكتب هي نفسها الشعر عرضا . هكذا ، على سبيل المثال :

لم الواحد ؟ اليس الواحد هو الجوهر ...

لا شيء باق مما تراه عيون البشر .

الماضي قد توقف . والمستقبل قد مضى

والسر الآن - تكون او لا تكون .

لِمَ نعيش ؟ ولماذا نعيش ؟ الحياة لا تهتم

هل يهم اذا وقفت او جلست

فتحت او قفلت ؟ من الافضل الا تحلل

وجودك الخاص ، تقول الملحة الشائعة .

لقد قيل الكثير عن التشابه بين الشعراء والفلاسفة والسيكوباتيين خاصة منذ لامبروزو . ولا شك ان هذه الفتاة الشاحبة الجميلة تضم الثلاثة بين جوانحها . ومن خلال قصيدة صغيرة من مقطعين كهذه يمكن أن تستبصر شيئا عن الفصام وكذلك عن الميتافيزيقا . كل شيء كان واحدا - ولكن لماذا كان ؟ كل شيء يمضي ، اذن فالاشياء متشابهة - ولكن لماذا توجد اذن ؟ وهكذا نصل الى ان الفصامي يستغرقه الاحساس باللاشيئية ، لا يفتح ولا يقفل ، لا يجلس ولا يقف ، لا يحاول حتى ان يحلل حالته او حالته العقلية - ولماذا يفعل ؟ كانت اشعار هلجا كلها شديدة البساطة ، جيدة الكتابة . يحمل بعضها من الادلة ما يؤكد ان «فلسفة اللاشيئية» لم تستحوذ عليها كلية ، وانها تحتفظ بعد برغبات واحزان .

يا زهرتي المحطمة

يا ظلال ربيعي

يا حبي العذري

هذا ما يتفنى به المجانين المحتجزون خلف هذه الجدران .

استمع اليهم ، فأصرخ ويجلجل صوتي

استرخي ! استرخي ! وحلي عقد عذابك العقلي

وانتظري .

فلنتنظر ، وننتظر وننتظر ! الا ترين فراش العرس الجميل

مرتفعا نحو السماء ؟

المصحة المغلقة هي موت الجمال

لأن الجمال يموت ويظل ميتا

حتى تكف عن أن نرويه

بالدموع وبفيض الحب .

دعنا نفك القيود

ونتخفف من الأربطة

ولنصهر بالنار

كل شيء ...

فلا يعود هناك هو

ويظل الغريب فقط .. انا .

ليس هناك ما يدعوني «لتحليل» هذه القصيدة الفصامية ، ما دامت المؤلفة تقرر في تعقل انه «من الأفضل الا تحلل» . ان تفسير الشعر والتعليق عليه هو بالتأكيد واحد من انعكس الاشياء في العالم . من له عينان للبصر واذنان للسمع سوف يفهم . ان جيوردانو برونو (١) الصغير الذي خبر بوضوح فلسفة «الواحد في الكل» يكشف لنا الكثير من سيكولوجية الفصامين . ان رجل الشارع يعتقد ان المجنون لا يكون واعيا بجنونه . لكن هذا ليس صحيحا - كانت هلجا مدركة تماما انها فصامية . وكانت تتبين ان الفصام يعني التعارض القاتل بين أن تصبح متوحدة مع الكل وبين استحالة ذلك التوحد . عبثا يرتفع فراش الحب الجميل نحو السماء على حين يموت الجمال ، ويكف الحب عن ان يروي بالدموع وفيض الحب . ان ما يربطنا يجب ان يحل ، ويجب ان نصهر كل شيء حتى لا يحدث المزيد من التفرق ، المزيد من انا ، انت ، هو ، حتى لا يوجد واحد خارج نفسي ، لا احد غريب ! ولكن يجب ان نصبح جميعا واحدا . كل كلمة كتبتها لأفسر قصيدة هلجا فارغة ومضيعة .

وإليكم القصيدة التي استعرت منها كلمة «القفص الذهبي» :

مني أنا الأم اليك يا بني

انا أحمل قلبك في راحتي .

انه احمر ودافئ حين ينقبض ويتمدد ..

يا طفلي انا العزيز ، العزيز

لماذا علينا أن نفترق

١ - يشبه المؤلف افكار الفتاة الفصامية هلجا بأفكار الفيلسوف الايطالي جيور دانو برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠) الذي كان يعتقد ان لكل انسان وجهة نظر الى العالم خاصة به وأن الحق المطلق فوق ادراك الانسان وأن العالم مؤلف من عناصر أولية لا رابط بينها بل تعمل وفق قوانين يحكمها مبدأ كوني شامل أنهم بالزندقة وأحرق في البندقية . - المترجم-

طفلي ، طفلي - يا صاحب القلب الأرجواني الجميل !

ذراعي القويتان ترعيانك :

يا حب أمك ..

أمي ، أمي ... ماما

يا صغيري

هل يمكن أن تسمع صرختي ؟

أمك ترقص وتغني وتصرخ

بينما القفص الذهبي والبحر صامتان

أمك والمعاناة - كلانا الاثنين -

وضعونا في القفص الذهبي

والقوا بنا في الدوامة ..

وقلبك الأرجواني يا طفلي

يمكن أن يرقب ذلك من الخارج ، وتصرخ أنت

أنت أيضا تصرخ ، لكن عبثا تذهب صرختك

فأنت لا يمكن أن تدخل

فالقفس الذهبي بلا أبواب أو نوافذ

وأیضا يا بني يا بني

بلا عيون أو آذان

جامد .

استحال جامدا .

ويستطيع المرء أن يتفلسف حول الرمزية والتكثيف والتعالي والتشخيصية والتقلص والخلط . كل هذا قد يكون صحيحا ، لكننا نواجه في الأساس بالقفص الذهبي الذي يحتوينا داخله ، بلا أبواب أو نوافذ ، لا دخول ولا خروج ، كما كتبت في قصيدة أخرى .. فقط الخدر التدريجي . لقد أصبح القلب الأرجواني الجميل مخدرا ، مات الجمال . هل تفهمون ؟ أظن انني أفهم . انها المؤسسة المغلقة . ليس عنبر مرضى العقول فحسب ولكن شيئا ما في خارجها وشيئا ما في داخلها - في داخل نفوسنا . ما الذي يمكن ان يتأتى من ذلك سوى فلسفة «لم نعش ؟ لماذا لا نعيش ؟ ان الحياة لا تهتم» .

الواقع ان المجائنين يعيشون في قفص مزدوج : يقيمون بأنفسهم جزءا منه حول ارواحهم ، ويتكفل المجتمع بالآخر يحاصر به اجسادهم . وتعتبر ازالة قضبان القفص الذي اقاموه بأنفسهم اشد الامور صعوبة ، ان لم تكن مستحيلة . كما انه ليس من السهل ايضا ازالة الجدران التي يقيمها المجتمع ، وان كان الامل ليس مفقودا . فاذا صعب ازلتها فلا اقل من **طلائها بالذهب** فهذا افضل من لا شيء على كل حال . هل في وسع المرء ان يقدم ما هو افضل من هذا ؟ اننا جميعا بشكل او آخر نعيش في أقفاص . وربما لا يعدو وهم السعادة عن ان يكون الطلاء

وهكذا أصبح طلاء القفس بالذهب هو غاية (الجراج) .

لم يعد ثمة مجال للشك في أن قضبان القفس المزدوجة تعتمد بعضها على بعض ، فلقد حدث أكثر من مرة أنه حين رغب الفصامي في الحياة في القفس الذهبي ووجد في ذلك متعة ، بدأت قضبان القفس الذي بناه بنفسه في الاهتزاز والضعف بل والانهيار أحيانا . كانت القضبان المزدوجة تختفي ، وتحلق الروح المتحررة منتصرة خارج القفس . كان ذلك يحدث نادرا ، ولكنه كان يحدث فعلا . لم أكن أجروء على أن أحلم بمثل هذا النجاح مع معظم المرضى . لكنني كنت أشعر بالرضى فيما لو عاشت كل طيور الصغيرة راضية بقفصها الذهبي .



لا يخطر على بال أحد أن طلاء القفس بالذهب كان أمرا بالغ الصعوبة . ولا يستطيع أن أزعّم أن هذا يعني مجرد أن تكون شفوفا بالمرض ، لكن هذا التأكيد هو بداية الامر ونهايته أيضا . وهكذا تبين حتى لهيئة التمريض انه من السهل أن يكونوا شفوقين بالمرض عن أن يقسوا عليهم . وسرعان ما كان الواحد منهم يتبين أنه يبتعد عن أصله إذا ما أخطأ هذه القاعدة الأساسية . وكان هذا من حسن حظنا ذلك أننا ما كنا لنصل الى مثل تلك النتائج السريعة مع هيئة التمريض بالنصح ، كما فعلنا عندما حللنا لهم الاسباب التي دعت أحد المرضى الى «مهاجمتهم» . وكنا نصل في الأغلب الأعم الى أن المريض كان وقحا او عدوانيا او مغرورا ، أزعج المريض او أهانه ، هدهد او تجاهله . كان كل ذلك ضروريا حتى يفهم المريض انه لا يجب أن يشعروا بأن مكانتهم او كبرياءهم قد مست إذا ما خاطبهم مريض بوقاحة . وسرعان ما تبينوا أن الاهانة التي تصدر عن المريض ليست بإهانة ، وأنه ليس هناك ما يدعو للثورة إذا ما سبهم مريض منحرف المزاج . لقد كانوا يسبونني أنا أيضا بين الحين والآخر ، وقد حاول المريضون في البداية الانتقام لمثل تلك «الوقاحة» و«الإساءة الى السلطة» ، ولكنهم فهموا فيما بعد أنه من الأفضل للسلطة . . اي أنا وهم ، أن نغير من مزاج المريض النائر بالحيلة وتكسب قلبه بالسلوك العادل والصداقة .

ولم تكن معاملة المرضى كأصدقاء هي الفرشاة الوحيدة التي استخدمت في الطلاء . كان العمل جزءا أيضا وكذلك التسليّة المنظمة التي استطعنا بفضلها أن نصل الى نتيجة مؤداها أن مكان العمل أصبح بمثابة المنزل . وكانت أكثر الامثلة دلالة على نجاح عملية «الطلاء» هي «العلاج السري بالصدمات الكهربائية» . . إحدى مبتكرات مؤسستنا .

كنا ، نحن أيضا ، نمارس «العلاج الإيجابي» شأن أي مستشفى آخر للأمراض العقلية . ومع هذا كان ثمة فارق . أن أهم انواع العلاج الإيجابي ، أي

الصدمة الكهربائية ، التي تعتبر بمثابة الرعب للمرضى في اي مستشفى آخر ، كانت تتم عندنا سرا . كنا نقوم بها بطريقة خفية لا تجعل المريض يفلح ابدا في مجرد ملاحظتها .

ويستخدم العلاج بالصدمات الكهربائية (E.C.T) بنجاح في العالم اجمع منذ عام ١٩٣٨ ، وبشكل أساسي في علاج الفصام . لقد شفت الصدمة الكهربائية العديد من حالات الفصام المستفحلة ، وبعثت الهدوء في المرضى المحتاجين ، وأضفت الصفاء على العقول المختلطة . ولا يستطيع احد أن يماري في تأثيرها المفيد ، فهي تعتبر واحدا من اكثر اسلحة الطبيب العقلي قيمة . الا انها لا تثبت فاعليتها مع كل مريض ، فهناك بعض من لا تؤثر فيهم . وكانت مجموعة مرضانا تتكون من مثل هذه الحالات نظرا لان الحالات التي شفيت نتيجة العلاج بالصدمات الكهربائية كانت تستبعد . كان من يأتون البنا قد مروا بكافة وسائل العلاج الايجابي وأخذوا كفايتهم من الصدمات الكهربائية . لقد سبق أن عذبتهم هذه الاداة المروعة لسنوات في المستشفيات العقلية المختلفة ، فتعلموا معنى الخوف من الموت اذا لم يكونوا قد خبروه من قبل . لذلك لم نكن نتوقع الكثير من استخدامها هنا ما دامت لم تؤت تأثيرها في الاماكن الاخرى . ليكن ، لقد آمنت ان هذه البيئة ، اي ظروف (الجرايح) ، قد تغير حتى نتائج العلاج الكهربائي ، تماما كما حدث بالنسبة لمرضى الصرع الذين قلت نوباتهم هنا ، رغم أنهم يتعاطون العلاج الذي يقدم في اي مكان آخر ، بل وأصبحت تكفيهم جرعات أقل . كنت أنتظر معجزة ، ربما تشفي الصدمة الكهربائية نزلاء (الجرايح) بعد ان كانت عديمة التأثير فيهم من قبل .

لكنني أشققت أن يعيش مرضاي في الرعب الذي يسببه الوعي بالصدمة الكهربائية . انه ليس العلاج في حد ذاته ، فهو لا يؤلم وليس حتى متعبا . ذلك ان المريض يفقد وعيه في نفس اللحظة التي يسري فيها التيار . ولكن حتى يتم ذلك ! كان الخوف والذعر يتبديان في عيني الضحية حالما تعان الممرضة في الصباح أسماء الذين يتعين عليهم الامتناع عن الافطار لانهم سيتلقون علاجا كهربائيا . وربما تنقضي الساعات ، وقد لا يتم العلاج الا عند الظهيرة حتى يتضور المرضى بيطون خاوية مشحونين بالقلق . اخيرا يتردد النداء المرعب : الى العلاج الكهربائي . سريعا . سريعا . ويدفع المرضى من هنا وهناك ، ويسحبون من أسرهم ويقتادون كالأسرى الى المراحض ، وتخلع أحذيتهم ، ويمددون على المحفة ويمضي البعض بلا مبالاة ، ويقاوم البعض الآخر . وتحدث مناظر عنيفة ويأسفة ، لكن ذلك كله عبثا فعدد المرضى يفوق عدد المرضى وهم أقوى . ويصرخ بعض المرضى ، ويصلي بعضهم بصوت مرتفع ، والبعض يودعون العالم الوداع الاخير . أتذكر امرأة كانوا يسحبونها من شعرها على طول المر في كل مرة ، وأخرى لا يمكن حملها الى الجهاز الا بواسطة اربعة من المرضى . كان الذين يظنون صامتين وتبدو عليهم اللامبالاة ، يخافون شأنهم شأن الذين يحتجون بصوت مرتفع . وفي حجرة العلاج بالصدمة يشاهدون مريضا آخر يدفع به الى الجهاز ، ثم يوثق عن يمين وعن

شمال ثم يتشنج في صمت او يصرخ بصوت عال في تشنج صرعي . وعلى الاسرّة الاخرى يشاهدون المرضى الذين يشخرون وهم في غيبوبة . ثم يأتي دورهم : يتم وضع أنبوبة من المطاط بين أسنانهم . وبعد ثواني الانتظار المربعة ، يصل التيار ، وفيما بعد يستيقظون مترنحين من أثر التيار .

لقد قررت أن أخلّص (الجرائع) من هذا الرعب . كانت الطريقة في منتهى البساطة كما أنها لم تكن من ابتكاري . ان **تمارس الصدمة الكهربائية تحت تأثير التخدير** . ننوم المريض ولا نخبره بأنه سيتلقى الصدمة بعد ذلك .

كانت المشكلة الوحيدة أن مرضانا سبق لهم أن خبروا العديد من التجارب ولم يعد من السهل أن يمروا بخبرة أخرى . كان تنويم المريض من السهولة بمكان ولكنك سوف تثير شكوكه . يكفي أن تطالبه بالامتناع عن تناول الافطار كي تثير ريبته فيما ينتظره ، خاصة اذا ارسلته اولا الى دورة المياه ، وفككت له حزامه وبللت له صدغيه . ان مرأى العديد من المرضى يجعله يشك ، وكذلك خلع حذائه ، او ما شابه .

ولكن كان من الممكن الاستغناء عن كل هذا . يتناول المريض افطاره ويتوجه للعمل دون أن يشك في شيء . في حوالي الساعة العاشرة يستدعيه الممرض الى العيادة ليأخذ حقنة . ويحضر المريض في حالة من الشك لكنه لا يجد شيئا مريباً ، لا يوجد ثمة جهاز كهربى ولا ممرضين مفتولي العضلات يحيطونه ، وليس عليه أن يخلع ملابسه او يتجرد من أية أشياء معدنية قد تكون في جيوبه ، او يضع الأنبوبة المطاطية في فمه . كل ما كان يراه هو انني أمسك بالمحقن في يدي . بينما تطلب منه السيدة الاولى أن يستلقي ويمسك بذراعه . ويحقن بجرعة من الأفيبان **Evipan** . ان الأفيبان شيء مدهش . فبعد ثلاثة او اربعة سنتيمترات مكعبة يخلد الى النوم ، وفي الخامس يغط في نوم عميق . كان من النادر أن تزداد الجرعة . الان في وسعك أن تصنع ما تشاء ، يحضر الممرضون ، ويزاح الفطاء عن الجهاز الكهربى المخفي ، وتكون هناك فسحة من الوقت لفك سترته وانتزاع الصناديق المعدنية من الجيوب او الدبابيس من الشعر ، بينما أضع قطبي الجهاز فوق صدغيه ، ويحيط الممرضون بالمريض ثم اضعف الزرار ويفتح المريض فمه على الفور ، فأدس أنبوبة المطاط بين أسنانه في سرعة البرق ، ثم تبدأ التشنجات الصرعية .

كان ذلك بالطبع يتطلب وقتاً وصبراً وما هو أكثر من ذلك . فعندما يبدأ المريض في الاستيقاظ بعد برهة من نومته المريحة ، في سرير بالحجرة المجاورة ، كان يجب أن يكون بجواره احد (المرضة ايما اذ كانت اصلح من تقوم بالمهمة) ليباشره في لحظة الميلاد الجديد هذه . شخص تتوفر فيه الطيبة والرفق بالمريض ليسترده ثانية للحياة .

كانت تلك هي طريقتنا التي لم نحد عنها . ولم يتبين اي مريض بالجرائع ان

لدينا جهازا كهربائيا .

وحين كان زملائي يرون او يسمعون عن الطريقة التي تتبع في الجرائح ، كانوا يغمغمون ويقولون ان حدوث ذلك في الجرائح امر سهل لان لدينا فسحة من الوقت له

نعم ، كانت لدينا فسحة من الوقت لمثل هذه الاشياء ، كانت لدينا فسحة من الوقت ، فهذه مهمتنا . ما الذي يمكن ان يقوله الناس اذا استأصل الجراح في حجرة العمليات الزائدة الدودية بدون تخدير ، تحت دعوى انه لم يجد فسحة من الوقت ؟

ان هؤلاء الذين لا يجدون الوقت للتخدير لا يجب ان يصبحوا اطباء .



أجربنا تجربتنا الاولى على لويس جمبر . كان الفصام قد تمكن منه اثناء الحرب ، او اثناء أسرهِ . ويشيع الاعتقاد بأن هؤلاء الناس «يجنون بتأثير المعاناة ومن الاسئلة التي لا تزال بلا اجابة هل يمكن ان يجن المرء من اي شيء ، وحتى الان فان النظرة الطبية تميل الى عدم الموافقة على ذلك . لقد قاسى ملايين البشر الآخرين من نفس هذه الولايات في الحرب ، فلماذا كان يجب ان يجن هؤلاء الاشخاص فحسب ؟ من الواضح ان هناك بعض الميل او الاستعداد متوفر فيهم . من الذي يستطيع ان يضمن انهم كانوا سيظلون اسوياء اذا لم يمروا بخبرة الحرب؟ يكفي ان نقول ان لويس جمبر عاد من الاسر في حالة اضطراب كامل . كان مشاغبا مشهورا في القسم الطبي الذي حوّل منه الينا . كان يتمتع بقوة مخيفة، يستطيع ثمانية اشخاص ان يتقبلوا عليه بصعوبة . (ان القول بأن قوة المجانين تزيد بمقدار عشر مرات خرافة عارية تماما من الصحة ، فقوتهم لا تعتمد على حالتهم العقلية) . لم تكن هناك ثمة ضرورة لامتحان قوة جمبر عندنا . كان يمضي يتسكع قلعا ، وقد ارتسم على وجهه تعبير غريب ، كما لو كان دائب التفكير : انني لا أفهم . يوجد ثمة مرضى من نوع «انني لا أفهم» لا يفهمون العالم ، لا يفهمون ماذا يفعلون فيه ، لا يفهمون انفسهم ، ولا لماذا وجدت الحياة اصلا . ولم يكونوا يتكلمون عن ذلك كثيرا ، لكن نظراتهم الحيرى او هزهم لرؤوسهم ، او مجرد نصف جملة كانت تفضحهم .

كان لويس جمبر من هذه الشاكلة . كان غالبا يجلس القرفصاء ، ثم يقفز بفتة جانبا او يستدير في خطوة جانبية مضحكة . وكان يخيف الناس بهذه القفزات ، وكان هذا بدوره يجعله يزداد خوفا فكان ينتحي جانبا في ارتباك . كان يحب الممرضة إما كثيرا ويتبعها في اخلاص كلب صغير . وكان مستعدا من اجل خاطرها أن يذهب للعمل ، لكنه كان في الغالب يكتفي بالوقوف خلال ساعات العمل - يقف ويقف منحنيا في حزن على يد الجاروف ، محمدا امامه

ولقد عالجناه بالصدمات الكهربائية ستة مرات . كان قد سبق له تلقي العديد من صدمات العلاج بالكهرباء ، وبالتالي لم اكن أتوقع نتائج من الصدمة ولكنني كنت ارجو ان اقرب منه خلال حالة الغيبوبة التي تلي الصدمة العلاجية . وكان هذا ما حدث بالضبط . لقد كف عن وقفته المترددة ، وربما القلقة ايضا ، وكف ايضا عن قفزاته الغريبة واصبح من الممكن الدخول معه في محادثة معقولة . ولقد اعدناه لمنزله تحت المراقبة وهو وضع يثر الكثير من التوتر في نفسه ، فقليلون هم الذين يمكنهم تحمل ضغوط البيئة المنزلية ، او يستطيع المنزل ان يتحملهم . وحدث هذا لصديقنا جمبر ايضا ، لم تستطع قريته ان تتحمل غرائب اطواره ، فذهب ليعمل في احدى مزارع الدولة . وهناك أصبح اقل قلقا ، وكف عن القفز ، وبدا كأنه وجد في الحياة الى حد ما - مؤقتا على الاقل .

كان جون تايه يعمل بجدة عدة اشهر ، ويتكلم في مرح ، ويشارك في الترفيه ، ثم يصمت فجأة ويتخلى عن فأسه ، ولا يذوق الطعام عدة اشهر الا بصعوبة . كان يجلس القرفصاء بعناد في احد الاركان ويفرض الكلام ، وكان احيانا يسعى الى الطبيب ويخبره بلغة الاشارة انه يريد تبغا . وكان يحمل كنزه الخفي في جراب سدادة زجاجة ، وبوصلة معطوبة ، وتتدلى من حزامه بعض الطواطم الاخرى .

وبعد اول صدمة علاجية ذهب الى الحديقة وطلب بلغة الاشارة ان يعطى فأسا وبدا يعمل . وبعد الصدمة الثانية تناول وجبة طيبة دون أن يحثه احد وبعد الصدمة الثالثة بدأ الكلام .

لا يمكن الزعم بأنه شفي على اي حال . لكنه انتشل من أعماق الجنون الى مستوى تصبح الحياة فيه محتملة .

لقد ظل جون تايه مجنونا ، لكنه خلال النهار كان يعيش شأن بقية اهل قريته . وفي المساء كان يلعب الدومينو بل ويرقص . واستطاع هذا الاخرس السابق ان يرتجل محاضرة في فن ذبح الخنازير . ويمكن الظن بأنه لم يعد يعاني بنفس القدر الذي عاناه حين حكم على نفسه بالكم والاضراب عن الطعام .

ولقد نجحنا ايضا في تحسين حالة هيلين اينز الرسامة وعاملة الآلة الكاتبة . كانت قد وصلت الى مستشفى الامراض العقلية من أكاديمية الفنون الجميلة ، وقدمت نفسها بفخر باعتبارها طالبة فنون . كان عملها على الآلة الكاتبة لا يقاس بشمن ولا زالت لوحاتها تزين مقرنا . تمثل مرضها في فكرة متسلطة عليها : ان الرجال «يطاردونها» ويغمزون لها بوقاحة او يدفعونها عن عمد . فسي مثل هذه المناسبات كانت تهاجم الرجل البريء فتصفعه او تركله . وحين تنشب المعركة الضارية ، تصر بعنف على موقفها ولا تعترف بأنها هي التي بدأتها . كانت قد حوّلت الى مستشفى الامراض العقلية اول مرة عقب أن صفعت احد محصلي الترام ، والركاب الذين تدخلوا ، ورجل الشرطة .

وربما لم يكن نزوعها للشجار واضحا في المستشفيات الاخرى ، لكنها كانت النزلة العنيفة الوحيدة عندنا . كان يحدث أن يتشاجر الآخرون أحيانا ايضا ، لكنهم على الأقل كانوا يتشاجرون قبل أن ينشبوا اظافرهم في اعناق بعضهم البعض . أما هيلين فقد كانت تهاجم بفتة وعلى غير توقع . ونال المرضى ايضا من صفعاتها . كان هذاؤها هو سبب هذه الهجمات - أفكارها المرجعية اي أن تعتقد أن النظرات البريئة ، والكلمات والافعال التي لا علاقة لها بها تتضمن تعريضا بها .

كان في مقدورها ايضا ان تبدو جذابة جدا ، ومع هذا تظل متحفظة وغريبة الاطوار ، وصعبة الارضاء ومتكبرة . وبعد ستة أشهر من التعارف على زميلتها في الغرفة كانت تشير اليها بقولها «تلك المرأة» - كانت تعتبر أن تذكر اسم اي شخص لا يليق بعظمتها .

وحين بدأ العلاج بالصدمات الكهربائية ، كانت في حالة سيئة للغاية . فالى جانب الشجار كانت عدائية بشكل عام ، تهز رأسها كل خمسة عشر ثانية ، لا تلحظ ما حولها الا لماما ، وتنسى كل شيء وتردد كلمات غامضة عن الاشعاع . كانت خمسة جلسات علاج بالصدمة كافية لتحسين حالة هيلين . فعادت عطوفة ومجدة ، فأخذت ترسم ، وتكتب على الآلة الكاتبة ، تفلح الحديقة ، وكفت عن الشجار والإيماء برأسها والحديث عن الاشعاع . ولقد علمنا من والدها كيف كانت تخشى في الماضي العلاج بالصدمات الكهربائية . ولقد تحقق لأسلوبنا النصر حين سألتنا ذات صباح وهي مبتهجة عما اذا كانت ستلتقى علاجا اليوم . ان هيلين عادت الان الى منزلها منذ عامين . وهي ترعى شئون منزل والدها، ولم تتشاجر بعد مع احد .

أما نجاحنا الباهر فقد تم مع ايرنست دويل . كان هذا الشاب النحيف يعاني الفصام منذ سنوات . وحين وصل الى الجراح اجاب على أسئلتنا بجمل شاردة خلو من المعنى ، ثم امتنع فيما بعد عن الكلام كلية . كان يتمشى جيئة وذهابا ولا ينقطع عن التدخين . وكان من المستحيل جذبه الى اي نشاط اجتماعي . كان يستمع الى الاسئلة متأدبا ، ثم يكتفي فحسب بقوله «حسنا ..» ويمضي مبتعدا . وكان هو صاحب القول الذي لا ينسى «العلاج بالصدمات الكهربائية ؟ انها شبيهة بأن يلقي بك من الدور الرابع» . وقد وفّرت عليه حقنة الأفيان هذا .

وبعد الصدمة العلاجية الاولى بدأ ينظر الينا نظرات تنم عن الصداقة ، وبعد الثانية بدأ يحيي كل مخلوق ويتخاطب مع المرضى . وبعد الثالثة أصبح من السهل ادارة حديث طويل معه . وتبين انه خلال فترة الصمت الاجباري كان يرقب بدقة كل ما كان يدور حوله .

وبعد الرابعة هرب .

غادرنا في الثامنة من مساء ليلة مطيرة . وبخطواته الطويلة حث السير طيلة الليل وطيلة اليوم التالي . ولقد طالبه رجال الشرطة بإبراز أوراقه ، فتصرف

بطريقة طبيعية لدرجة أنهم سمحوا له بالاستمرار في طريقة دون اي ارتياب . كانت تمطر باستمرار . وفي الليلة الثانية وصل في وقت متأخر الى مدينة على مبعده مائة ميل عنا . وهناك تمكن من اقناع احد السائقين ان يحمله الى بودابست . وبعد منتصف الليل كان يقرع نافذة امه . وظل في منزله منذ ذلك الحين . لم يكن قد شفي ، ولكنه يأتي من التصرفات الطبيعية ما يتلاءم وبقائه بالمنزل .

ولقد عاد القيصر بطرس العاشر ايضا الى منزله عقب العلاج الكهربائي واستأنف دراسته بالمدرسة . كان قد اعتاد الزعم بأنه ستالين او القيصر بطرس على التوالي . وهاجم والده امام أعيننا وفي هذيانه اعتلى نافذة وألقى خطبة مشوشة . ولم يقتصر علاجه على الصدمات الكهربائية فحسب ولكنها كانت تشكل جانبا هاما من «العلاج البيئي» الشامل . ويصدق هذا على الآخرين الذين تلقوا جميعا عددا كبيرا من العلاجات الكهربائية قبل أن يأتوا إلينا . ويبدو انه حتى التيار الكهربائي يصبح اكثر فاعلية اذا استخدم برفق .

ولكن كان على التجربة ان تجد ما يعوقها . فبعد اشهر قليلة فسد الجهاز الكهربائي بفتة ولم يعد قابلا للعمل . وتطلب الامر ستة اشهر من البرقيات والمكالمات التليفونية والخطابات ، وتدخل الآباء الحزاني والمكاتبات الرسمية والمطالبات على يد محامي بتوفير أحد المهندسين لاصلاحه . كان يجب ان نقدم صدمة كهربائية علاجية من اجل هذا التأخير - وبدون مخدر .

الفصل السابع

طلاء بلاد جدوى

في الشتاء التالي لم يعد المرضى يعذبون بفورز البازلاء ، وحصلنا رغم مؤامرات امين المخزن على قدر كاف من فروع الصفصاف والياف الرانيا لنبدأ في صناعة السلال .

ولم يكن في مثل هذا النوع من العلاج بالعمل ايضا ما يدعو الى الفخر ؛ لقد ادرك الجميع اننا نزاوله لقطع الوقت فحسب . كان الحماس مفقدا . ولكنني اصبحت لديّ ما يكفيني من الخبرة كي اتحاشى الزعم بأن صناعة السلال لا تناسب العلاج بالعمل . الأهم من ذلك أن نكتشف أسلوبا مناسباً . فلو اننا اديناه باعتباره مجرد عمل جانبي ، فسوف يكتشف كل واحد منا اننا سنظل نرفق النوافذ في تأهب طيلة فترة صناعة السلال ، في انتظار متى نستطيع الاندفاع صوب المزرعة، وعندئذ لن يشعر المرضى بالطبع بأية لذة في عملهم الخلاق .

وفي وحشة الشتاء كانت مشكلة المثقفين تبدو اشد ازعاجا عنها في بقية الفصول حين يكون في وسعهم أن يجدوا عملا ويفحبوا عن الانظار . أما الآن فهم يتسكعون في الممرات ، وفجأة تبين انه ليس في وسعنا أن نساعدهم .

صحيح ، كان بعض من هم أكثر تعقلا يرغبون في تأدية الاعمال الجسمانية . كانت هيلين اينز الرسامة تجد نفس السعادة في الكتابة على الآلة الكاتبة او العمل في الحقول . ولقد حدث في بعض الاحيان أن اقتصر عمل جون على المزرعة شأنه في ذلك شأن اوجست بينتر ، بينما كان لويس صاحب المهن المتعددة سعيدا في

حانوت الحدادة على الرغم من درجته الجامعية . لكن بعضهم ظل ينظر إلينا في لوم وكأنهم يقولون : سوف نعمل اذا قدمتم لنا عملا مناسباً . واكتفى البعض الآخر بمجرد التسكع فحسب .

كانت اكثر حالات هؤلاء المتسكعين لفتا للنظر هي حالة الشاعر الذي كان يعتبر نفسه اكثر الرجال انشغالا في المؤسسة رغم انه في الحقيقة لم يكن يعمل . نعم . لقد كان للجرائح شاعرها الخاص . كنا نفخر به ، ونشجعه ، ونخصه بكل انواع الامتيازات . كان شاعرا حقيقيا وليس مجرد ناظم من هؤلاء الذين يوجدون بكثرة في كل مؤسسة ، والذين يصعب التخلص منهم حين يحاصرونك بأشعارهم الهزيلة الطويلة التي تدعو للثناء . كان لدينا ايضا ثلاثة او اربعة من هؤلاء الناظمين ، لكننا لم نعتبر ذلك شرفا كبيرا . ولكن ان نضم بين ظهرائنا شاعرا حقيقيا فهذا امر مختلف .

كان من عائلة ايجليت . وكان يعزو شهرته وكذلك عقدة النقص لديه الى موهبة والده . ان شهرة الاب لا تؤدي بالضرورة الى الانهيار العقلي ، فبينما نشأ شاعرنا هزيلا وسيكوباتياً في ظل موهبة والده ، أصبح اخاه الاصغر كاتباً ذائع الصيت يحمل نفس الاسم .

وحين زارني الشاعر للمرة الاولى في شقتي بالجرائح . اخذ يحرق في مكتبتنا بذهن شارد . « هذه هي كتب والدك » اشرت الى الرف حيث تستقر مجلدات والده العشرة ، فلم يقل شيئا وانما اكتفى بالتحديق في الفضاء بارتباك . فلم اترك الامر عند هذا الحد لكنني استخرجت كتابا وعرضت عليه صورة والده . نظر اليها في نصف ابتسامة مفتضبة وظل صامتا . كنا نلتقي كل صباح فتتكلم في الادب وشتى المواضيع الاخرى - ولكن ابدا ليس عن والده . مرة وحيدة ، كان ذلك وهو في حالة عقلية شديدة الضعف وكان يعالج بحقنة لتهدئته ، عندما صرخ قائلاً رغماً عنه « كان والدي رجلاً بسيطاً يستطيع ان يكتب ولا شيء اكثر من ذلك ، وماذا في ذلك ، الآخرون قادرون على الكتابة ايضا ، اي انسان تقريبا يستطيع ان يكتب ، لقد ظلمت أعذب طيلة حياتي لان والدي عبقرى . حسناً ، دعوني اقرر لكم الان - انه لم يكن عبقرى » .

حين وصل الشاعر الى الجرائح لأول مرة تجددت بيننا صداقة نشأت منذ حقبتين من الزمن . فقد اشتركنا معا في اصدار مجلة ادبية حين كنا في المدرسة الثانوية . وفتحت الذكرى المشتركة قلب الشاعر بصورة ما فأشركني في أسراره . وفي اليوم التالي روى لي ما يلي « انني مريض .. مريض جدا .. انني عاجز تماما ، فلدي مرض القلب . وأشكو من مرض آخر ايضا . ولكن هذا قد انتهى . انني أسميه تقلص الشيطان ، وهو مرض خبيث جدا . هناك امراض طيبة وأخرى خبيثة كما تعرف . مرض القلب مرض طيب ، أما تقلص الشيطان فهو مرض خبيث . واعتقد ان في وسع المرء ان يطلق عليه هذا الاسم ، ما دام هناك إله وشيطان ، حين يصيب الشيطان شخصا بالقلق الداخلي فهذا هو

التقلص الشيطان ، ويمكن أن تسمى عقدة بلغة الطب . البعض يشفى من هذه العقد في شبابه ، لكن عقدتي باقية . وطالما يحتل الشيطان روحي فليس نسي وسعي أن ابدع أو أحب أو أعيش بحرية . من الضروري إذن أن اتحرر من سلطان الشيطان فما دام يستبقي المرء في نطاق سيطرته ، لا يعد في وسع المرء أن يمارس الخير ولا أن يبدع شيئاً ذا قيمة . هذا هو السبب في أن كل ما اكتبه يبدو مشوشاً وخانعاً وسيئاً . لقد استمرت هذه العقدة معي ثمانية وثلاثون عاماً . انه زمن طويل ، وهي تعذبني . لكنني حر الآن ، لقد اختفت العقدة ، وسوف أحب الحياة ، وسوف اكتب اشعاراً جميلة . أنا شاعر عظيم ، استطيع أن اقول دون مبالغة ، أنا شاعر عظيم . سوف اكتب الشعر والرواية . ليست اي رواية ، وانما مؤلف حقيقي عظيم عن الحب والحزن والحياة . سوف تكون رواية قوية . قل للناس أنا شاعر عظيم يكتب الشعر والرواية . قل لهم انني شاعر عظيم واستمر يتكلم ويتكلم ، وذرف الدموع على الاعوام الثمانية والثلاثون التي ضيعها في قبضة الشيطان . ولم يكن باعثاً على السخرية اطلاقاً ، اذا نحنا جانباً انه يعتبر نفسه شاعراً عظيماً . . كانت صراحته امراً طيباً ، وفي النهاية من من الشعراء لا يعتبر نفسه شاعراً عظيماً ؟

ولم أستطع أن ألبى رغبته لانني كنت قد تأكدت من انه ليس في وسعه أن يذهب الى اي مكان . كان الشاعر لا يصلح للعيش في الحياة الطبيعية . كان ينفق يومه في مجرد الوقوف لا يلوي على شيء . وقد يسمي المرء ذلك تأملاً من قبيل التأدب ، ولكنه لم يكن كذلك . كان يقف عدداً لا نهاية له من الساعات الى جانب فراشه أو في ركن مظلم من الممر ولا يصنع شيئاً . ثم يأخذ لفة من ورق التواليت فيستخدمها في مسح فراشه وملابسه وقلمه ، بل حتى الاوراق التي يكتب فيها . كان يظل يفتسل لساعات وهو في كامل ثيابه ، بل وفوقها المعطف اثناء الشتاء . وكان يرش الماء على ملابسه في عناية من يؤدي طقساً كان يستغرق تسعين دقيقة ليرتب سريره قبل أن ينام فيه وكان يتأخر عن موعد الوجبات وكلمة «يتأخر» ليست في الحقيقة التعبير الصحيح . ونظراً لانه كان لا يذهب لتناول الافطار . فقد كان يصله في سريره ، لكنه كان لا يلمسه لساعات . ينزل لتناول الغداء لانه لم يستعد ذهنياً بعد . ولقد كان الممرضون يحبونه لحسن الحظ ولذلك كانوا يبعثون الغداء الى حجراته أو يستبقونه له في صالة الطعام ، فكان يأكله بارداً في وقت متأخر بعد الظهر ، في الوقت الذي ينفق وقته واقفاً الى جوار سريره فحسب ، فاذا سألتها عما يفعل كان يجيب اجابة دقيقة قائلاً «انني مشغول» .

إذن لم يكن قد تخلص من عقده بعد .

أو من تقلص الشيطان أيضاً .

ولقد شاهدت تقلص الشيطان عدة مرات . كان ينطلق مهتاجاً رافعاً يديه في الهواء وقد ثار شعره وكست وجهه تعابير مخيفة ، يقفز هنا وهناك كالعنزة .

وكان ذلك هو النوع غير المؤذي من تقلص الشيطان . لكنه في بعض الاحيان كان يؤذي نفسه ويضرب رأسه في الجدران . وذات مرة أصاب صدغيه اصابة بالغة لدرجة انها ظلت زرقاء عدة اسابيع ..
ورغم انه كان مشغولا جدا ، فقد كان يجد في البداية وقتا لكتابة الشعر . كان ينتج بصعوبة شديدة ، ويظل يدير القصيدة في عقله لاسابيع حتى يستكملها في حرص ويعتبرها صالحة بما فيه الكفاية للكتابة . وعندئذ يتعين على كل ايقاع وكل كلمة وكل فصلة ان تكون في مكانها الصحيح . وكانت هذه قصيدته الاولى :

في الربيع

في اشعة شمس الربيع الساطعة
تسير الهوينا وحيدة خجولة ..
انها الفتاة التي ساحبها بإعزاز
كما تحب الظلمة النور . في السماء
الأكامات والاشجار تصدر حفيفها في الريح الثائرة
والفروع تنحني وتنقضم . ليلة عاصفة في الربيع
الابواب تصطقق والنوافذ تكاد تطير مجنونة
لقد ثارت الرياح بعنف .
انها تمطر الآن وقد تتحول الى سيل
وسيشتد السيل حينما يأتي المساء
ايها اللانهاية القاسية الشاملة الدائمة
ايها الموسيقى المتكررة للأرواح الهائمة .
هذه قصيدة مليئة بالامل ، على الرغم من ان النهاية ذات نغمة كئيبة الى حد ما بما فيها من قطرات المطر المستمرة التي تذوب التمتع الامل في الحزن اللانهائي . هل ثمة فتاة سوف يحبها شاعرنا في يوم ما كما يحب الظلام الضياء، ان شيئا ما يحدث في هذه القصيدة . صحيح انه بأسلوب مشئت ومجازي - ولكنها تظل تعبر عن ليلة ربيعية عاصفة .
ولقد تلقينا باكورة الانتاج بفرح غامر كما لو ان ربح الربيع قد ازاحت الكآبة عن الجرائح وأدخلت الحياة . كان الممرضون ينصتون في اعجاب خالص . كانوا قد أحبوا الشاعر من سمعة والده - الذي القيت عنه محاضرة ذات مساء حتى يصبح في وسع الدين لا يقبلون على الادب ان يقدروه - ووافقوا بسرور على الا يشترك الشاعر في جمع البطاطس حين يكون مشغولا في قرض الشعر . وأصبح لهذا السرور الان اساس واقعي - لقد كتب الشاعر قصيدة فعلا «لقد صاغها

بمهاره» ، كان هذا هو تعليق الراي العام .

ويجب أن نعرف انها جيدة الصياغة . كانت القصيدة جميلة ، وخالية من الفصام ، فهي خالية من «التكثيف» و«القصور الذاتي» و«الرمزية» او اي شيء من هذا القبيل . كانت سوداوية بلا شك ، لكن هذا رغم كل شيء امر يمكن تبريره بالنسبة لشاعر شرع الان فحسب في التعرف على فتاة شابة بعد أن أعاقه تقلص الشيطان عن الحب حتى الان .

وكانت هذه الفتاة الخجولة شخصية متكررة ومحبة في كل قصائده . كانت شخصية خيالية من القرن التاسع عشر . ذلك النوع من العوانس الصغيرات اللاتي يخفين خلف مظهرهن الرزين مشاعرا عميقة ولقد اتضح ذلك من خلال الرواية . لقد شرع شاعرنا فعلا في كتابة قصة تصور هذا الضرب من الشابات وفرسان القرن التاسع عشر المدهشين . ما هو موضوع الرواية ؟ لم يكن من السهل التيقن من ذلك تماما . لقد قال الشاعر انها عن الحياة ، التي تعني الحب ، الذي يعني الحزن ففي قائمة مفرداته كانت هذه الكلمات الثلاث ذات مدلول واحد .

كانت القصة جميلة . وكانت فصولها القصيرة غير المرتبطة ببعضها او التي يربطها رباط واحد مكتوبة بعناية كأنها قصائد . كان يتم وزن كل كلمة كالذهب ، وتختار بدقة وتعبر عن عاطفة عميقة . كان جو الاحداث أغنى من البناء . واللون أغنى من الوقائع . كانت أفكارها من النوع الشائع ولكنه عميق . اما اكثر السمات الملحوظة في هذه الرواية فهي انها مسطحة تماما ، وكان من المدهش أن القصة على الرغم من انها لا تقول شيئا على الاطلاق فانها تمس وترا عند القارئ .

وذاث يوم اختفى مخطوط الرواية . وأعلن الشاعر عن فقدته في يأس . وبحثنا عنه في أشياءه ، وحجرتة ، وفي داخل المستشفى . وحتى في الحديقة والحفر المحيطة - لقد اختفى دون ان يترك اثرا . وسرعان ما تقبل الشاعر ضياعه بطريقة تدعو للغربة ، ولم يفكر قط في إعادة كتابتها . لم يكن ثمة أدنى شك في انه أتلف المخطوط . لقد تدهورت حالته ، ولم يعرف كيف يستمر وبهذه الطريقة تخلص من أعبائه . كنت أشد منه أسفا . كان جو القصة قد استهواني ، وكذلك العبير الطريف الناطق بروح نهاية القرن الذي كان يتخللها .

ولقد حدث ذلك كله في فترة متأخرة . اما في البداية فقد اتبع قصيدة «في الربيع» بقصائد أخرى - واحدة كل شهرين : الحزن ، الفقدان ، خيالات الايام الخوالي ، الوهم ، الإهانات المؤلمة ، أغنية حزينة . وربما كان هذا العنوان اكثر العناوين تعبيرا : الارواح القديمة تعبر المنزل المعتم . وحتى قصائده التي كانت تحمل عناوين اقل أسى كانت مليئة بالعواطف الداكنة :

الظباء

إنفراجة في السماء ، حيث السحب الداكنة الغريبة .

تتدلى من السماوات المحمومة
زهور الحزن الدموية الحمراء العملاقة
ترقبها العيون الطافحة بالأسرار
الطبء الصغيرة تعدو في صمت
وقلوبها تغني أغاني مشرقة للنهار
عن أحلامها الصغيرة ، بينما الأرض الزرقاء
لا تتوعدها الا بالموت والفناء .

وعلى الرغم من أن بعض العبارات يشوبها قدر من التصنع ، الا انها بالتأكيد ليست قصيدة فصامية مثل تلك التي كتبتها هلجا عن القفص المطلي بالذهب . ففي القصيدة الفصامية يرى الشاعر نفسه من الخارج ومن الداخل في آن واحد ، وربما من ارتفاع لا نهائي ايضا . «لقد اندحرت ولكنني لا أجد احدا استسلم له». هذه هي فلسفة الشاعر الفصامي «يختلف الانسان عن الحيوان في انه يحمل العدم في داخله» . وكان شاعرنا يحمل الاحزان في داخله ، او ربما كان غارقا فيها حتى اذنيه ، ولذلك كتب :

الحزن

قطرات المطر المتساقطة تقرع الليلة كطبول زنجية
وفتاة حزينة تختلس النظر عبر المدخل الزجاجي ثم تختفي
في الظلام ... سوف يحل الحزن غدا هنا .
الكلمات البالية لا تستطيع أن تعبر عن هذا الحزن الغريب الجارف .
فالحديقة تبكي . الاكمام والاشجار تبكي
السلم وعتبات الابواب مغطاة بالدموع وتتنهد
محاطة ببحر عميق من الأوحال .. اصيخوا السمع
ما أمر ما ييكيان ... الفتاة والحديقة ...
هنا يستطيع المرء أن يتبين على الاقل فتاة مكتئبة وحديقة مكتئبة مليئة
بالدموع والوحل . ولكنه فيما بعد كتب عن نفسه فقط باعتباره أمير الحزن
والياس .

في الحداد

هل أنا الصياد المعجوز - أم ربما البحر ؟
او لعلني سوار قديمة وجدوه في خزانة

مفتاحها قد ضاع ؟ يا للظلام والحلم الغريب !

هل انا حزن كئيب ، كامن ومرعب

يظن انه يرقد في أعماق حمأة الوحل البارد ؟

بئر مهجور في الحديقة .

يوما إثر يوم أنا ، أمير الحزن المسكين اكتفي بالتمرغ

في النواح القاسي الناعم ، بينما الدقائق الفارغة

تشكل جسرا يعبرني

يا أيها الشفق الاحمر الدموي والفجر العاصف الموحش

لقد جعلتني أعول وائن .. فانا رهينة

في قبضات اليأس .

كان يبدو كما لو كان الشاعر يستمتع بالتمرغ في «النواح القاسي» لقد عاش في «أعماق حمأة الوحل البارد» كأنه «الحزن الكئيب» مشخصا . ولكن لماذا ؟ هل كان حزينا حقا كان يعيش لا في حمأة الوحل البارد ، بل في قلعة باثياني ، في حجرة خاصة ، محاطا بالخدم الذين أفسدوه ، كانوا يعدّون حمّامه ، ويسعون خلفه بطعامه ، ويشذبون أظافره ، ويغسلون ملابسه . لماذا العويل اذن بغض النظر عما يفكر فيه ؟ كان يتلقى معاشا صغيرا من الدولة ، يبدو ضخما بالنسبة لمصروفاته الضئيلة ، وكان في مقدوره ايضا ان يبتاع ملابس جديدة لولا شحه البالغ . ولقد طبعت مؤلفات والده الواحد تلو الآخر ، وكان يتم اضافة عائدها الى حسابه في البنك ، ولكن هذا لم يكن يمّس وإلا فما مصير أحزان الشاعر ؟ ما الذي كان ينتظره ؟ ما هو ذلك الشيء الذي لم يستطع أن يوفره له القصر او المال ؟

إنشاد أغاني بعض كبار المنشدين العظماء

وسط السيدات الشابات والسادة الشبان

وكتابة الشعر وقت الغروب في الحديقة .

وربما كتب الشعر بطريقة أفضل وسط الاشجار وقت الغروب ، ولكنه بدلا من ذلك كان لا يبارح جانب فراشه ، مزبلا الميكروبات من على بطانيته بأوراق التواليت ، ويحن لبودابست حيث يستطيع أن يعيش منفردا وسعيدا «في حجرة صغيرة هادئة» في عزلة عن العلم ، تلاثم شاعرا يحن الى الماضي . وأصبحت الحجرة الصغيرة الهادئة في بودابست بمثابة فكرة متسلطة ، كان من المؤكد انه سوف يتضور جوعا هناك حتى الموت في ظرف اسبوع او ربما تفرقه ضوؤاء المدينة في الذهول ولكنه كان يجب أن يلقي اصدقائه الشعراء في المقهى احيانا ، ويتبادل معهم كلمات قلائل ، ثم يخرج للتجول بين مباني المدينة القديمة .

وأرسلناه الى بودابست في اجازة بضعة ايام على أمل ان يؤدي ذلك الى ان يستعيد اتزانه لكنه لم يستعد اتزانه . لقد أقام مع اخيه منقفا ايامه كما كان يفعل في الجرائح بالضبط . لم يكن يستيقظ في الصباح ولا يظهر على الغذاء لانه

«مشغول» ولم يفادر الشقة لمدة أسبوع . وفي صباح أحد الايام خرج ، وحتى الساعة الخامسة كان لا يزال واقفا عند محطة الترام ، وعندئذ رافقه اخوه الى المنزل . لم يذهب الى المقهى ، لم يلتق بأي صديق - كان في الحقيقة بسلا اصدقاء . ثم عاد الينا واستأنف احلامه حول الحجرة الصغيرة الهادئة فسي بودابست .

كان غير واقعي بالمرة ، بل فضلا عن ذلك كان غير اهل للحياة . ورغم هذا كان في مقدوره ان يكون عدوانيا . قد يظن المرء أن مثل هذا المريض يتوهم المرض المثير للرتاء . مثل هذا المنشد امير الحزن مجرد حالم شاعري مليء بالوداعة والرقة . ولكن لم تكن تلك هي حالته . كان رقيقا هادئا ناعسم الحديث ، مؤثرا ، لكنه اذا اراد شيئا حقا ، فلم يكن في وسع اي قوة على الارض أن توقفه . كان لا يصل الى مستوى الرغبة في شيء الا نادرا لانه كان من الصعب عليه ان يتخذ قرارا ، ولكنه اذا حدث واتخذ قرارا فلا يمكن ان ينثني عنه .

«نعم ، يا سيدتي ، انا ذاهب الى القرية . انا ذاهب لشراء قليل من الطعام . ليس كثيرا ، مجرد مئونة قليلة . ربما بعض الجبن وبسكويت ، اربع اوقيات من البسكويت . ما رأيك يا سيدتي ، هل اشترى قطعة من الجبن أم قطعتين ؟ هل تعتقدين انهما يجب أن يكونا اثنين على الاقل ؟ ربما تكفي واحدة . . أم هل يجب أن ابتاع اثنين ؟ فعلا ، يجب ان يكون عندي احتياطي بسيط ، انا لا أعرف في الواقع ، ومع ذلك ، قطعة صغيرة من الجبن تكفي يا سيدتي العزيزة ، لا أريد ان انفق الكثير من النقود»

«ولكنها تمطر .. هل تريد الذهاب الى القرية الان ؟ والوقت متأخر ايضا ، لقد حل الظلام» .

«أهي تمطر ؟ فعلا ، ارى انها تمطر قليلا . لا يهم اذا ابتلت قليلا . هل تعتقدين يا سيدتي اني لن أرجع الى المنزل قبل الغروب ؟ غدا ؟ كلا ، يجب ان اذهب اليوم . غدا ليس لدي وقت . انت تعرفين يا سيدتي العزيزة ، انسي مشغول جدا ...»

«ما الذي يشغلك ، اذا جاز لي ان اسأل .»

«ريشما أناهب ، وسريري .. ثم يجب ان افكر قليلا .. ربما في القصيدة التي اكتبها ، او في شيء آخر ، باختصار سوف أكون مشغولا غدا . وهذه القطرات الضئيلة لا تثير قلقي . سوف اسرع حتى اعود قبل الغروب . لا زلت اعتقد انني سأبتاع قطعة صغيرة من الجبن فحسب ، اظن انها تكفي ..»

وفي خطوات طويلة وقامة منحنية مضى الى القرية وسط المطر المنهمر . لقد قرر اخيرا ان يذهب الى القرية من اجل قطعة جبن واربعة اوقيات من البسكويت، ولقد ذهب ، رغم ان المطر كان ينهمر مدرارا .

حين كان يقرر ان «يستريح» برهة ، فلا اقل من ونش ليستطيع ان يزحزحه عن سريره . كان يرقد بلا حراك بينما يتراكم الغذاء ثم العشاء الى جانب الافطار

على المائدة المجاورة لسريره . ولم يكن يستطيع تناولها كلها الا بعد الفراغ من طقوس النظافة بغض النظر عن مبلغ جوعه ، وحين ينهض من سريره اخيرا يظل يتصور جوعا عدة ساعات آخر .

وعندما كان يقرر ان يخصني بزيارة ودية ولا يجديني في المنزل ، يظل يقرع الباب بقبضته زهاء ربع ساعة . لم يكن يتقبل الفشل . ومع هذا فحين يجديني في منزلي ، لم يكن يمكث اكثر من عشر دقائق ، لقد جاء ليرتب موعدا للزيارة فحسب . ولم يكن ليفي بهذا الموعد ابدا . ولكنه في بعض الاحيان كان يسدو مهيا ليقتضي معنا وقتا اطول ، في مثل هذه المناسبات كان يجلس صامتا زهاء ساعة او يتكلم في الادب بطلاقة ، حينئذ ينطلق من مخزون ذاكرته كنز لا يمكن توقعه . في احدى المناسبات تحدثنا عن قصيدة بودلير المشهورة «البانزوس» . وبدأ يقتبس منها ، فاذا وضعنا في الاعتبار ان شاعرنا لم يقرأ الا كتباً خلال ثمانية عشر شهرا ، فقد كان يبدو داعيا للدهشة ان يحفظ قصيدة كهذه عن ظهر قلب . اما الاشد اثاره للدهشة فهو وجود شخص تجشم اشد العناء ليلم بعيون الادب العالمي يرفض القراءة الان . ولو استمر يقرأ بدلا من وقوفه لا يلوي على شيء ، لاصبح الان اكثر الرجال ثقافة في العالم .

لا يوجد ثمة ما هو اكثر بعدا عن المنطق من السلوك القهري . . اي ذلك الوازع الداخلي الذي يجعل ضحيته يكرر عددا لا نهائيا من الطقوس عديمة المعنى وتناى به عن السعي فيما هو اجدى . ان المريض بالبارانويا يؤمن على الاقل بهذائه ، اما العصابي القهري فيعلم جيدا انه يمارس أشياء عديمة المعنى - وهذا هو المربع في الموضوع .

ولقد كان شاعرنا يعلم . كان هو نفسه يدرك مبلغ ما يتضمنه طقس ورق التواليت من غياب عديم الجدوى ، وكذا الوقوف بلا طائل ، والاغتسال الوهمي لساعات ، ولكنه لم يكن يملك شيئا ازائه . فالوازع الداخلي كان اقوى . ما جدوى القصر والحديقة ، الكسل المريح والدخل المضمون في الحياة حين تصبح الحياة مجرد عبودية محزنة للقهر الداخلي ؟ ان كل ما يعطي للحياة معناها - ايا كان - يصبح لا معنى له . ولا يتبقى الا النواح والقهر المحتوم .

ثم وصلت حالته الى نقطة حرجة . حدث ذلك حين كلفت العم ريبورتر ، وهو صحفي ثرثار ، بمصادقته . كنت آمل أن يحرك هذا الرجل الواسع الخيال وبقيقه من سباته العميق . ولكن العكس هو الذي حدث ففي البداية ظل الصحفي يتكلم عن والد الشاعر ، ناكثا بإصبعه أشد جروحه ايلاما ، ثم أعقب ذلك أن اخذ «لأسباب علاجية» يوقعه في مقابل مضحكة طيلة الوقت . ولكن امير الحزن لم يكن في مقدوره تقبل النكتة فداوم على وقوفه القهري ، وانشفالسه بحفيف اوراق التواليت لساعات ، بجوار فراشه حتى منتصف الليل - «انني اتأهب لدخول الفراش ، نعم ، سوف ادخل الفراش ، انا فقط ارتب افكارى قليلا» - وحاول الصحفي أن يعلمه مبلغ عدم جدوى ذلك . فكانت نتيجة هذا التعليم أن عاد اليه

بمجرد أن اتضح لي ما يدور ، فصلت بينهما . تبينت انه لا يمكن الا لشخص مجنون تماما بحيث لا يكثرث بتبادل الهذات ان يتحمل هذا القدر من السلوك القهري ، ولذلك نقلت لويس لافتر معه ، وهو شخص يعاني من هلاوس مستمرة تدور حول وجوده في نوبتجية الخدمة التليفونية وكذلك جون الذي لا ينطق بحرف اذا احترق سريره .

وكان النقل عملا ناجحا ، ولكنه لم يعد ذا جدوى . فلقد استطاع لويس لافتر حتى وهو وسط هلاوسه وضحكته الشيطانية ان يلحظ ثمة شيء خاطيء فأخبر السيدة الاولى ان الشاعر «يخط رأسه في الجدار ، ويخنق نفسه برباط عنقه ، ويهز سريره ، وينهال بقبضتيه على صدغيه» .

وحين دخلنا الحجرة ، وجدنا الشاعر في حالة يرثى لها فعلا . كان شعره الهائش يتدلى على عينيه ، وكان وجهه متكدرا ، وثة ورم كبير في صدغه يؤكد انه ضرب رأسه في الحائط بعنف شديد . وحين انفتح الباب حاول ان يتمالك نفسه ، ويفتصب ابتسامة وبذل جهدا لانكار الموقف الواضح .

«لا شيء ، لا شيء حقا . انني مكتئب قليلا . هذا كل ما في الامر» . ولكن تزايد اكتئابه ، وانقلب جدول مواعيده تماما ، كان يمكث في فراشه صباحا ، ويبدأ في الاستيقاظ في الرابعة بعد الظهر ، وحين ينتهي من الاستعداد تكون الساعة قد بلغت الثامنة مساء ، عندئذ كان عليه ان «ينظم أفكاره» وفي العاشرة يتناول افطاره المثلج وغذائه وعشائه ، ثم يبدأ في تأدية طقوس الاستعداد لدخول السرير ، ومع حلول الفجر يكون في سريره فعلا .

وحين بلغ قمة اكتئابه اعترف الشاعر انه يرغب الموت لانه يفضل الموت على هذا النوع من الحياة . وطلق وهمه الخالد عن «الحجرة الصغيرة الهادئة في بودابست» يحوم أمامه ، وكذا الاصدقاء الذين يتطارح معهم الشعر في احد «المقاهي الهادئة» ...

«أشعر انني سأموت هنا ، سوف أرقد على الحشائش وببساطة أموت» . ليس في هذا ما يبعث على السخرية . انسان يحتج على هذا الضرب من الحياة ، وهكذا يرقد وببساطة يموت ، وينتهي كل شيء . فهي خالية من اية متعة ولو حتى متعة الخوف .

وهذه واحدة من كتابات هذه الفترة :

اغنية حزينة

انا لا أريد الحياة ، فنورها الساطع يعميني
اكره مرور الايام

أكره شروق الشمس وغروبها
والفرح ، والحزن الذي يقض الراحة .
أيتها الحياة ، يا شعلة الدماء والأشواق
والمثل والأحزان وأطياف الأحلام
أنا أدير لك ظهري ، وأغادرك !
فالعذاب ، على ما يبدو ، يقودني للموت .

فعندي مواكب الربيع تعني الحداد
والطيور تجثم حزينة فوق الأشجار
وتمر الساعات البليدة

خلال ثقب ساعة الحياة الرملية
أواه ما أشد شوقي الى أن أكون بعيدا
يعذبني النحس ، لكنني أكره الاستسلام
أنني أعاني سواء جلست أو وقفت
أنا أتلاشى بعيدا - هذه هي النهاية
لقد مضى الأصيل المجهد
وقال الغروب لي وداعا
أواه . نفسي مظلمة موحشة
أرغب في الموت من البؤس .

وقبل أن يتمكن من الرقاد على الحشائش ويتلاشى بعيدا ، قررت أن أتدخل .
كنت أعلم أنه ليس سهلا اقناع الشاعر بأن يخضع للعلاج . فأرسلت إليه السيدة
الأولى تحمل رسالة باستدعائه الى العيادة ليأخذ حقنة . لم يصغ إليها ، فلم يكن
ثمة بد - دخلت حجرته مع الطبيب المساعد وممرضان ، والحقنة في يدي .
وأعقب ذلك مشهد درامي . رقمنا من سريره مجفلا : «ماذا تريدون ؟ أنا
لا أوافق على العلاج ! أنا أحتج ! أنا أرفض الحقنة ! ليس من حقكم إعطائي
حقنة ! » .

وكان من الأفضل الانتهاء من ذلك سريعا ، فقام الآخرون بإمساكه ، ودفعت
بالإبرة في عرقه . فظل يصرخ «ليس من حقكم أن تصنعوا ذلك ! أنا أحتج» .
وحين وصل السنتيمتر المكعب الخامس من الأفيان الى عروقه حلت الأحلام
الهادئة محل الاحتجاج . وحمل الممرضون الشاعر الى السلم ، وتلقى علاجه
بالصدمة الكهربائية . ثم أرجعوه ، وهو لا يزال يفظ في أحلامه الى حجرته .
واستيقظ في سريره دون أن يعلم أبدا أنه عولج بالصدمة الكهربائية .
وانفق النهار في عزلة موحشة غير مقدر لصنيعنا . أما في اليوم الثاني فقد
غدا أكثر تقديرا بصورة ما وحضر لرؤيتي .

«لقد أعطيتني حقنة احتججت عليها ، ولا زلت أحتج . لقد استخدمت
العنف وكنت في وضع يمكنك من ذلك . يستطيع المرء أن يقول أنك أجبرتني كما

يفعل الارهابيون . ولكنني لا أريد اي حقن ، فبنيتي ترفضها ، وبالتالي فهي ضارة وباعتبارك طبيبا كان من الواجب أن تعلم أن الحقنة التي ترفضها بنية المريض قد تكون قاتلة : أنا أحتج على هذا الارهاب والآثار القاتلة للغاية لهذا العلاج » .

«لقد كنت تشعر مؤخرا أنك في حالة سيئة ، اليس كذلك ؟ كنت تمكث في السرير طول اليوم ، ولا تنتهي من ارتداء ملابسك الا في المساء ، وتناول غذائك اثناء الليل .. وتضرب نفسك .. وتخبط رأسك في الجدار .. فهل يستقيم هذا ؟»

«هذا صحيح ، لقد كنت عصيبا قليلا .. ولكن هذا انتهى ، أعتقد أن قوة شيطانية قد تلبستني .»

«حسنا . هذا ما حدث بالضبط ، كما ترى . القوة الشيطانية . لذلك أرجوك أن تفهم أن الحقنة موجهة لهذه القوة الشيطانية . وبنيانك الجسمي لا يرفض التخلص من الشيطان .»

ولم يكن الامر سريعا وسهلا . ولكننا في النهاية حسمنا الصراع باتفاق «جنتمان» ، فاذا استيقظ غدا في موعده ، وحضر لتناول الطعام في الموعد وعاد بصورة عامة الى أسلوب اهدأ في معيشته ، فلن نعاود العلاج الارهابي وسأوم الشاعر على سلوكه القهري : هل في مقدوره أن يسمح متعلقاته بأوراق التواليت ليس لمدة طويلة ، وانما لمدة نصف ساعة فقط ..

وحافظ على كلمته ، فاستيقظ في الموعد ، وأكل ولم يضرب نفسه . وكان يحضر أحيانا لزيارتي في المساء ، فنناقش فيرلين ورامبو . ويقص أشياء ممتعة عن هوفمان كاتبه المفضل . والحقنة .. حسنا . لقد اعترف انها طردت روح الشيطان ، ولكنه لا يرغب في المزيد ، شكرا لك .

لعل جهودنا في اشاعة الاستمتاع بالحياة لم تلق فشلا قط مثلما لقيت في حالة أمير الحزن ، لا لانه استمر يكتب أشعارا حزينة ، فمن حق الشاعر الفني أن تكون لديه مسحة من الحزن ، ولكن مثل هذا البحر من الاحزان ؟ لم يشاهد احد شاعرا يضحك من الاعماق قط ، ربما يكون قد ابتسم لنكتة ، ولكنه فعلا لم يضحك ابدا ، حسنا ، فلندعه اذن يحيا بلا ضحك : ولكن فلنجعله يشعر بالسعادة على الاقل من آونة الى أخرى . الا أن أمير الحزن لم يشعر بالسعادة ابدا . كان تواقا لمبارحة الجرانج حيث كنا لا ندخر وسعا في رعايته وتلبية كل رغباته . كان كل ذلك اسرا وقفصا : وعشا كان كل باب يفتح من أجله فلقد ظل المكان بمثابة مؤسسة مغلقة مات فيها الجمال .

ألمني هذا الفشل ، خاصة وأن الشاعر كان المريض الوحيد الذي استطيع أن اعتبره صديقا . كانت لنا خلفية ثقافية وذكريات مشتركة . ومع هذا ظل الجرانج في نظره هو بالذات مجرد قفص . لقد طليناه ذهباً بأقصى ما نستطيع ولكنه ظل قفصا .

كتب شاعر آخر دخل القفص الخارجي والداخلي مؤخرا يقول «ويظل ينتظر
وينتظر أن يطلق سراحه ، لأن السجين هو السجين ، حتى ولو كان سجانه عطوفا»
ولم نكن نحن الذين جعلنا الشاعر سجيناً في الواقع ، وانما هو بذاته . ولو اننا
نزعنا الأغلال ، والاقفال ، والقضبان ، فسيعيد دوماً بنائها من مادة سلوكه
القهري غير المرئية ، ونقف نحن عاجزين ازاء القفص .
قفص مطلي بالذهب ... كان ادراكنا يدهمنا كالكابوس . فلا جدوى مما
نصفه لمساعدة مرضانا . انهم يحملون داخل ذواتهم مؤسسة مغلقة ، وليست لدينا
القوة للتغلب على هذا .



ووصل الى الجرائح صديق آخر من معارف الطفولة . لم أتعرف عليه حين
وصل مع مجموعة من ليوتيمزو . رغم اننا قضينا معا في المدرسة الثانوية
ثمانية أعوام . (في ذلك الوقت كان قد بدأ يتعلم التركية واليابانية لترجمة
الفراغ - ولم يتسن لي وقتها أن ألحظ أن مثل هذا الاهتمام غير المألوف قد يكون
علامة مرضية) .

«انك تمضغ حرف الراء وحرف السين ، اذن فهو أنت» هكذا قال لي مبتهجا
الامر الذي جعلني أستنجن انه لم يميزني الا من صوتي ، لا ريب انني كبرت مثله
منذ تركنا المدرسة .

دعوته الى حجرتي ، ودار بيننا حديث طويل . لم تكن تسنح سوى فرص
ضئيلة في (الجرائح) لمثل هذا الحديث . وتحدثنا في البداية عن ذكريات
المدرسة . كانت علاقاته بزملاء الدراسة السابقين عابرة مثل علاقاتي . ولم يعد
كلانا يعرف عن المدرسين الكثير ايضا ، لقد توفي مدرس الفيزياء ، وغير مدرس
الفصل اسمه ، وفقد مدرس الحساب الذي كنا نكرهه من قلوبنا أهميته ...

ولكنه حين شرع في الحديث عن نفسه ، ظهرت الاشياء غير المألوفة .
وظيفته ؟ لم تكن له وظيفة في الواقع . كان مهتما بالتاريخ والفلسفة ، ولكن من
المستحيل أن يتكسب عيشه منهما . كان ابن احد رجال المصارف الاثرياء ،
وبالتالي لم تقابله متاعب مالية في البداية ، فكان يكتفي بالقراءة والسفر . ولم
يلتحق بالجامعة لانه كان يهوديا ، ولذلك تلقى تعليمه في المنزل . كان فيلسوفه
المفضل هو اسبينوزا ، وكان من المؤمنين بمبدأ وحدة الوجود ، الله ضد للطبيعة
كما يقول سبينوزا ، الله يحل في الموجودات ، في كل انسان ، وفينا ايضا . لا
يوجد عدم نهائي . الروح من تصورات الجسد ، والفكر من تصورات الروح . اذن
فالفكر من تصورات التطور . وفي اعتقاده ان الفرق الوحيد بين الايديولوجيتين
المادية والمثالية كامن في الصياغة ، وتؤدي الايديولوجيتين اساسا الى نفس
النتيجة . وكان يشبه الانساق الفلسفية بالدوائر ، احدهما اكبر والآخر اصغر ،

ولكنها كلها دوائر ، وبالتالي متشابهة في الجوهر . ان الطبيعة البشرية لم تتغير خلال خمسة آلاف سنة . السكون المستمر هو احد جوانب الابدية شأنه شأن التغير المستمر - السكون الابدي لا يوجد الا في المطلق فحسب .

كنا ننفق الساعات في الحديث «يقتبس من جيوردانو برونو ، ثم يتكلم في حماس عن توماس مان ، ثم فيما بعد ، عن ماضيه كرجل اقتصادي : كان يشرف على تحرير مجلة تنشر مقالات عن كل انواع الايديولوجيات بدون تعصب - كانت دورية عظيمة الفائدة والطرافة ولكنها صودرت لسوء الحظ .

في حى المناقشة كنت انسى علاقتنا غالبا ، وانني طبيب عقلي يتحدث الى احد مرضاه . ولقد شعرت ببعض الحرج حين سألته :

«اذن . ل . . . لماذا انت هنا .»

فرمقني بنظرة ملتزمة وأجاب في موضوعية :

«بسبب التسميم . أنهم يدسون السم في قهوتي كل صباح .»

منذ سنوات قلائل لاحظ في مبدا الامر انه يتم تسميمه بانتظام . كان السم يدس في قهوته الصباحية فهذه اضمن الطرق ، ربما لا يتناول اية خضروات او لحوم ، وقد يأكل كثيرا او قليلا ، ولكن كمية القهوة الصباحية لا تتغير ابدا الا يبدو هذا منطقيا ثم غدت الامور اشد سوءا فيما بعد ، فقد تسمم طعامه كله بلا استثناء ، سواء ابتاعه من محل او تناوله في مطعم . كان السم حتى في الطعام الذي تطهيه امه . ولقد شعر خلال جهازه العصبي السمبثاوي والباراسمبثاوي أنهم راغبون في شل تفكيره .

يبدو كل ذلك كما لو كان معقولا ، ولكنه لم يكن كذلك . لقد فهمت الان كيف جاء الى هنا .

لو افترضنا ثمة انسان يتم تسميمه على هذا النحو من الاصرار ، فلا بد من شبكة عملاقة تقوم بمراقبته طيلة الوقت ، ويتحتم على هذا الجهاز الهائل ان يستخدم وسائل خاصة لا يستطيع بدونها القيام بهذه المهمة التي تفوق قدرة البشر (كان يتم تسريب السم حتى في المعلبات سواء اشتراها من محل مزدحم في شارع رئيسي او من مكان غير مطروق في ضاحية منعزلة) . واكتشف ان هناك شبكة تدار مركزيا اصدرت امرا بتسميمه عن طريق موجات قصيرة من الاشعة . ولكن لماذا يتعقب جهاز كهذا شخصا في مثل عزلته ؟

لقد وجد لذلك تفسيرا غير مألوف . ان القتل ليسوا اعداء له ، ولا يرغبون في الاضرار به ، ففي مقدورهم التخلص منه بجرعة واحدة من السم . ولكنهم يريدون العكس تماما ، أنهم يريدون أن يكسبوه . كان مقر مركز التسميم في موسكو وهو يستهدف ضمه الى صفوف الشيوعيين . وهو في الواقع لا يعترض على هذا لانه يتفق جوهريا مع الفكر الشيوعي . ولكنه راغب عن استنكار فلسفته القائلة باتفاق المادية والمثالية في الجوهر . والفرض من تسميمه هو اجباره على التخلي عن وجهة نظره . ولكنه لن يستسلم ابدا فيما يتعلق بهذه المسألة .

وقال مبتسما :

«أنا أعلم انهم يسممونني هنا ايضا . لا تفضب ... فأنا أعلم بالطبع انها ليست غلطتك وانما تعليمات رؤسائك . ولكنهم هنا كما في اي مكان آخر يدسون السم في قهوتي . لا يهم ، فلقد تعودت على ذلك» .

وانقضت اسابيع لطيفة . واعتبر مكتبتي ملكا له ، فاستعمار اسبينوزا وتوماس مان ، وفلاسفة الصين وغير ذلك . كان يقرأ بحماس . وفي الوقت نفسه يذهب الى الحديقة ويعمل بجد ، بينما نثر في الأمسيات مناقشات فلسفية مثمرة ، لم يقنع فيها كل منا الآخر بأي شيء بالطبع . كان يشعر بسعادة غامرة في الجرائح . فثمة اضاءة كهربائية وحمام ، وابتعاد عن صخب المدينة ، ولديه عمل مناسب في الهواء الطلق ، وكتب ممتازة ، وصحبة طيبة — ما الذي ينقصه اذن من مقومات السعادة ؟

ولم اعرف قط ما الذي تسبب في تغييره . غدا عبوسا متشككا ، وحين انقطع التيار ذات مرة نتيجة ماس كهربائي في القصر اعتقد أن المقصود بذلك مضايقته ، فثار لذلك بالامتناع عن العمل لمدة يومين . انكسر خزان المياه ، فكان ذلك ايضا موجها اليه بالطبع . فلم يغادر المؤسسة لمدة اسبوع ، واخذ يتجول وقد بدا عليه الشعور بالإهانة . وكان يرفض الطعام من وقت الى آخر ، لانه يحتوي على السم بوفرة . وتذكر «شاهدا» على التسميم — لقد عثر على مسحوق ابيض في بطانة كتف زوجة اخيه ، وكان ذلك بلا ريب السم الذي يوضع في طعامه . ولاحظ مرة أن الناس المحيطين به جميعا يدسون أيديهم في جيوبهم . انهم يراقبون ، وفي جيوبهم اجهزة الارسال .

ودهمه حواز جديد عن الاشعاع من خلال جهاز . ثمة اشعاع موجه اليه بجهاز او بدون جهاز . وكان هو فريسة اشعاع صادر من خلال جهاز . كان لدينا جميعا اجهزة الاشعاع ، حتى أنا ، وهو ليس غاضبا مني ، ولكنه يقرر الامور بموضوعية فحسب . وأخبرني أن هذا لم يعد محتملا ، وطلب اتخاذ الاحتياطات الفعالة ، ورجا مشددا بوقف الاشعاع لانه «لا يرغب في الاستمرار على هذا النوال» . لم يكن يعلم بعد ما الذي سوف يفعله ، ولكنه لن يتراجع . وبدأ يرفض القيام بأي نشاط ، ورد الكتب التي استعارها نصف مقروءة . وقال في أدب اننا لا يجب أن نسخره ، وأنه حر تماما في الحضور والعودة حسبما يرغب . ورغم هذا كان لا يزال في الأسر . اضحى فريسة للاشعاع الصادر عن جهاز .

وأصبح شديد القلق مثيرا للمضايقة . وأيقن انه كان موضوعا للاشعاع ، بالإضافة الى التسمم منذ يوم مولده — لم يكن يعرف السبب ، كما لا يعرف سبب ابداعه مستشفى للمجانين . لقد اعتبروه مجنونا رغم انه على حق ، ولما كان يتم تسميمه فعلا ، فمن المنطقي الا يكون مجنونا . يجب اذن أن يوضع حد لكل هذا ، سريعا ، ويجب اتخاذ الاحتياطات المناسبة .

كان ذلك هو الموقف . وجدتني عاجزا ازاء الاشعاع الصادر عن جهاز . وعبثا تركت له مطلق الحرية ، فلقد اوقع صديقي نفسه في أسر الاشعاع الصادر عن جهاز . وأغلق على نفسه القفص الذي نجحت في طلائه بشكل مؤقت فحسب . وخشيت ان ينتحر ، فأعدت ارساله وأنا متردد الى (ليبوتميزو) . بعد أشهر قليلة قابلته فوجدته يتمشى في ممر المؤسسة المغلقة لا يلوي على شيء .

«كيف حالك ؟ هل من جديد ؟»

«لا جديد . لقد أسروني بالاشعاع الصادر عن جهاز .»



على ذكر الفشل الذي نمى به ، دعوني أروي لكم قصة الشاعر الذي تفوح منه رائحة الثوم . انها تدل دلالة بالغة على مبلغ العجز الذي نمى به ازاء المرضى الذين لا يعرفون ماذا يصنعون بحريتهم .

في وقت من الاوقات كان لدينا شاعر حقيقي آخر بالاضافة الى امير الحزن . كانت له عدة مجلدات مطبوعة ، وكانت الجرائد والاذاعة تنشران أشعاره ولقد اهداني مجلدين «مع صادق التقدير» واعترف أنني بدأت اتعرف على اسمه وشعره ساعتها فقط .

حين وصل الينا ، كان قد سبق ايداعه عددا من المؤسسات المغلقة عدة سنوات ، لا بسبب الجنون ، وانما لادمانه الزمن على الكحول .

واذا ذكر الشعراء فان إدمان الكحول لا يعتبر أمرا سيئا ، اذا وضعنا في الاعتبار بخاصة أن أندريه اداي **Endré Ady** مثلا يشرب ، ناهيك عن فيرلين ويو ، او هوفمان **E.T.A. Hoffman** وجيولا كرودي **Jyula Krudy** من كتاب النشر - ويستطيع المرء أن يكمل القائمة . كان بودلير مثلا مدمنا على الأفيون والحشيش .

ووضعت الشعارين - صاحب الدموع الماسية . والذي تفوح منه رائحة الثوم (لم تكن رائحة الثوم قد فاحت منه بعد) - في حجرة واحدة معا . وتوقعت لسذاجتي أن تستغرقهما المناقشات الادبية ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث وانما جعل شاعر الثوم يسخر من وقفة امير الحزن القهرية ويدعوه «الشاعر» فسي استخفاف ، بينما اخذ الآخر يتصرف في تحفظ . كان يجد في عادة زميله الشاعر ملء حجرتهما برائحة الثوم أمرا يدعو للغرابة ، وكان يعاني من ذلك مع محاولة لضبط النفس . ولم يبد احدهما شغفا بشعر الآخر . ولم يناقشا ابدا الموضوعات الشعرية .

ومن الطريف أن نذكر انه بينما كان شاعر الثوم يعتقد ان الموت والانتقال الى حياة أخرى من الامور التي تختص بها التأملات الفلسفية ، كان امير الحزن يعيش انفعاليا حالة الحداد الأبدي . لذلك كان شعره يشبه جزءا من الثانية في حركته،

يتشكل تأثيره في هدوء ، وسرعان ما يفرق في الصمت ، ولكن من خلال الصمت يمكن سماع رجع رنين الوتر الذي مسه . ومن ناحية أخرى كان شاعر الثوم يقيم عبث الحياة تقييما عقليا ، ويخبرنا في أسلوب ساخر أننا سنموت بطريقة أو بأخرى ، وفي النهاية لا شيء يهم .

حين وصل الشاعر الشاب عندنا كان قد قطع طريقا طويلا . طريقا طويلا متعرجا . كان قد شب على تعود الشرب والحياة الطفيلية ، ولمدة طويلة غفرت له موهبته ذلك . وتنقل لسنوات من تعاطي علاج للادمان الى آخر . وأمضى معنا تسعة ايام فحسب ، كان اول رجل على وجه الارض يحن الى تركنا والعودة الى ليبوتيمزو . لماذا ؟ لم نجد الاجابة ابدا .

كان يمضي مع زميله الشاعر ، فيصف في لفة دفاقة مبلغ ما يجده هنا من جمال ومسرة . ولقد عاملناه في تقدير . وكنا نعالجه بأقراص الانتابيوس Antabuse وكانت وقتها علاجا مستحدثا ، من الصعب الحصول عليه . وتركنا له حرية العمل من عدمه . فكان يستعير من مكتبتي كتب الرحلات المصورة، ثلاثة كتب في كل مرة (لم يستهوه شيء غيرها) ويستلقي في سريره طيلة اليوم مستغرقا في القراءة . وظل بضعة ايام بمحض اختياره ، بعد ان طلب العمل مع قاطعي الاخشاب ، ولكنه بعد ذلك مل العمل البدني .

كان يمتدح كل شيء أمامنا ، ولكننا كنا نعلم مسبقا أن الشاعر يضيق سرا . بماذا ؟ بكل شيء .

وكتب خطابين لأمه ، سلم أحدهما بإختياره مفتوحا ، وارسل الآخر سرا . كنا لا نطلع بشكل عام على خطابات مرضانا ، الا ان هذا الخطاب السري بدا مثيرا للريب - وكان يستحق فعلا أن نفتحه . وعلمنا منه انه مسخر في العمل الشاق يعاني البرد والتضور جوعا ، لا توجد كتب ، ولا علاج ، فقط سجناء يائسين يعملون حتى يسقطوا صرعى كان خطابا غريبا ، ويبدو اشد غرابة لصدوره من شاعر لا يفعل شيئا طيلة الوقت الا قراءة كتب الرحلات في حجرة جيدة التدفئة ، وفي نهاية الخطاب طالب بارسال مئة فورنت بدون ابطاء ...

وعجبت لماذا يطلب النقود . ومع الثوم جاءني الاجابة في اليوم التالي . حين دخلت حجرة الشاعر كادت الرائحة الخبيثة تصرعني . وأكد لي الشاعر أن ذلك لا يبدو غريبا ، نظرا لان الثوم هو طعامه المفضل ، وتمنى الا اعترض على ذلك ! لقد سبق لي الاشراف على عنبر مدمني الكحول في ليبوتيمزو ستة اشهر ، ومع هذا لم اكتشف السر ، قلت له على رسلك ، وأسرت بالخروج وأنا أكتفم انفاسي . كانت الرائحة كفيفة بأن تجعلني أغادر العالم .

ولكن السيدة الاولى لم تكن على هذا القدر من السداجة . «ان الشاعر يتعاطى الخمر» . قالت على الفور حين اشتمت رائحة الثوم . عندئذ ادركت انا ايضا ، ما يدور . كان يشرب بالطبع . وكان يفوح نفسه بالثوم، كي يخفي رائحة الشراب .

كان يقترض المال من امير الحزن الذي ارهقت الرائحة اعصابه بالتأكيد ، ظنا منه ان مثل هذا الشاعر الذي تفوح منه اشد الروائح خبثا في العالم لا يملك فعلا شروى نقير .

وكان على شاعر الثوم ان يتغلب على اقراص الانتابوس بطريقة ما . كان من المستحيل تعاطي الشراب بعد هذه الاقراص ، لانها تجعل المريض في حالة من الاعياء الذي لا يحتمل ، اذا ما ابتلعها فعلا . فكان الشاعر يتناول القرص ، ويحتفظ به في فمه ، ثم يبصقه في غفلة عن الجميع .
وانجلى السر ، انه يطلب المال لبيتاع النبذ .

وعندما واجهنا الشاعر بشكوكنا ، اغتاض غيظا شديدا ، ان نظن فيه مثل هذه الامور ! لكنه كف عن التظاهر بالاستمتاع بالحياة في وسطنا . فطفق يتجول بين المرضى الذين يعملون في جد ، وقد ارتسمت على وجهه علائم الاشمتزاز ، ويستصغر الطعام الوفير ويتظاهر انه يرتجف من البرد . طالبناه بأن يحاول كتابة قصيدة ما دامت هذه مهنته ، ولكنه تخلص منا . افى مثل هذه الظروف ؟
كان لا يكتب الا شيئا مكررا - خطابات سرية . من بينها خطاب كان موجه الى رئيس اتحاد الكتاب واعيد الينا . وكان كما يلي :

... يتم هنا ممارسة العلاج المزعوم بالعمل ، الذي يتضمن حاليا قطع الاخشاب وحمل السباخ . اما اسوأ ما في الامر فهي تلك الكميات المتخيلة من الطعام التي لا تكاد تشعر بها في معدتك الا اثواني ، ثم نقاد ثانية للعمل ... لا اثر للعلاج بالعقاقير . اقراص الصداع وقميص المجانين هما وسيلتي العلاج الوحيدتين المعروفتين هنا . وفي المساء تنبعث الصرخات من عنابر الرجال والنساء . وعبثا تطالب بدواء مسكن ... لا توجد ثمة مكتبة ، قد تأخذ الشفقة احدى الخادومات ، فتعطيني احيانا كتابا قديما . نعم ، هذا شبيه بمعسكرات المهجرين او اللاجئين . الهرب مضطرد ، وحدث ايداء النفس والانتحار اكثر من مرة ...

ارجو أن يغفر لي رئيس اتحاد الكتاب عدم ارسال الخطاب (الذي ينتهي بالطبع ، برجاء عاجل بإرسال مائة فورنت) . استدعيت المؤلف ، وواجهته بالخطاب وسألته اين شاهد قميص المجانين وايداء النفس والانتحار هنا . فhez كتفيه وقال دون ان يختلج صوته أن الامر كله مجرد اكدوبة وأنه محتاج للنقود . وغادرننا . بعد ستة اشهر قابلته في لبيوتميزو ، فطالب بالسماح له بالعودة لكنه لم يحضر في نهاية الامر ، ربما لانه يشعر بالخجل .



ومن الغريب أن المرضى القلائل «غير المحبوبين» من نزلاء الجرانج كانوا جميعا في الغالب من المثقفين . لم يكونوا من المجانين الخطيرين ، بل كانوا جميعا من

السيكوباتيين لم يكن مكمّن الخطأ في رؤوسهم ، وإنما في خلقهم .

مارتين كيمست مثلا يكرهه عدد غفير من الناس ، ولهم العذر . كنت شخصا اميل اليه . كان سيكوباتيا بارانويا (خيلاثيا) **Paranoid Psychopath** يتمثل حفازه في أن عليه دائما أن ينتقم . كان يستشيط غضبا عند أي اهانة بسيطة .

«النيابة .. النيابة !!» هكذا كان يصرخ منفعلًا في صوت أقرب للبكاء مطالبًا بالعقاب الفوري . يبكي في غضب لأن العقاب ليس عادلا . كان دائما على صواب، ولكن من أين المحكمة التي في وسعها فحص مثل تلك الاهانات العديدة ؟ ذات مرة، منذ سنوات خلت ، قال أحد المعارف لوالده «حسنًا ، يا سيدي العزيز ، لا يحق لك أن تكون فخورا بإبنك» . ولم يصغعه الاب ، ولم يخنقه ، ولم يحطم رأسه ولهذا لم يستطع مارتين أن يغفر لوالده . كان والده وليس العدو هو الذي قال بمنتهى التعقل أن عليهم التفاوضي عن اهانات اكبر كثيرا من هذه اذا ما صدرت عن مثل ذلك الصديق واسع النفوذ ، وذلك بغض النظر عن ان ما ذكره الصديق هذه المرة كان صادقا فعلا : لا يحق له ان يكون فخورا بإبنه . لم يكن في وسع مارتين أن يتفاوضي عن ذلك . كان يتذكر كل اهانة، فتجمعت في نفسه كتلة من الحقد الريع .

كان حاصلا على دبلوم في الصيدلة ، ولكن لم يكن في وسعه ان يمكث في أي وظيفة بسبب سيكوباتيته غير المحتملة .

وأنني لفخور بأنني استطعت في ظرف سنة أن اخلق من مارتين كيمست شخصا يمكن التعامل معه . الا انني لم استطع أن أجعل منه صيدليا نافعا . كانت قدرته المتأصلة وإهماله يجعلانه لا يصلح للعمل كصيدلي . كان يعرف جميع القوانين والقواعد ، وكان من الصعوبة بمكان أن تبزه في الحيلة . ربما كان يغدو ممتازا في ترتيب الاشياء اذا عمل أمين مخزن او ضابط امدادات او مراجع في مخزن او ما أشبه ذلك .. ولكنه لم يكن ليستمر في ذلك ايضا . فسوف يفسد سم تفوره كل شيء خلال اسابيع قليلة . سوف يقع مع رؤسائه ، وعندئذ يبدأ في ارسال التقارير للسلطات .

وحاولت أن أجعل منه أمين مخزن شرفيا ، نظرا لانه لم يكن لدينا أمين مخزن على الاطلاق . كان مارتين على الاقل يعتني بالفعل بكل ما نوكله اليه لكن المدير «بلا كلام فارغ» اعترض عليه في الاسبوع الثاني . وكان لا بد له بالطبع ان يفعل ! لقد استطاع مارتين أن يحيط بكل ثغرات التموين في ثواني ، ورغبة في اشعال النار طالبني بالذهاب فورا الى المجلس ، والنائب العام ، والحزب ، ومجلس المقاطعة. ولم اتحرك نظرا لانني أعلم جيدا انني عاجز ازاء المستشفى . ولكن كان عليّ أن اضع حدا لنشاطات مارتين باعتباره أمينا للمخزن ، ومنذ ذلك الوقت لم اخصص احدا لرعاية شئوننا .



اما بالنسبة لبيتر مارتير ، المؤلف الموسيقي ، فقد كان الموقف اكثر تعقيدا ، على الرغم من اننا لم ندخر وسعا مع هذا المصروع الخلو من المواهب ذو الشخصية التمسعة .

سبقتة سمعته : كتب الينا الطبيب المسئول عن احد اقسام مرضى العقول في مقاطعة اخرى انه يود ارسال احد مرضاه الينا ، وان كان لا يستطيع ترحيله حاليا بالقطار نظرا لانه شديد «الهياج» بحيث لا يستحب مرافقته في السفر . حسنا ، حسنا ، فكرنا وانتظرنا مكتومي الأئفاس حتى هدأت حدة «الهياج» وقد استغرق ذلك أسبوعين ، ثم وصل لدينا - في صحبة ممرض - غلام ودع نحيل ازرق العينين وأشقر . هل هو مخيف الى هذا الحد ؟ حاولنا أن ندفعه ليقص علينا بنفسه سبب سمعته السيئة . فاعترف ، وهو خجل ، انه ضرب والده . وكان والده مثلولا من جراء مرض عصبي مستعصي ، وبالتالي لم يكن من الشجاعة في شيء أن يضربه .

ملاحه اقرب للدودة النائمة . ومع هذا لم يكن قبيحا . وكانت الممرضات بالضعف العقلي يعجبن جدا بعينه الزرقاوين المضيئتين البرئتين ، وشعره الاشقر ذي اللمس الحريري المصفف في شاعرية . كان بيتر ايضا ضعيف العقل بصورة ما ، على الرغم من اعتزازه الشديد بنفسه واحتقاره الجم للمرضى الآخرين ، كان يرسم على وجهه نظرة احتقار مستخفة متكبرة ، لا تخلي طريقها للابتساممة المتواضعة الا حين يتطلع الى احدهم بنظرة جانبية طويلة . ويفغم في صوت لا يكاد يبين «هل لي أن أسألك .. بصورة انسانية ، ولكن بضدق ...» بالاشارة الى .. كما سبق ان فعلت .. لكن الامر بصورة انسانية بحتة ..» سوف تحتاج الى صبر بلا حدود في انتظار ان تسمع ما يريد فعله . وهي النقود في العادة . كان يعاني من الصرع منذ بلغ السابعة . وكانت نوباته نادرة نسبيا وغير شديدة القسوة ، كانت مشكلته الحقيقية ان المرض تسلل الى الفصوص الامامية من رأسه ودمرت الخلايا التي تتحكم في الخلق . فمني هذه الشخصية اللزجة الشاكية ، المنافقة ، التي لا يندر وجودها بين المرضى بالصرع ، بالإضافة الى كونه وقحا وقذرا ، ميال الى الانحرافات الدنيئة . كان ضميره قد تضائل ، وبيس شرفه ، وقل ذكاؤه . كان يرطب رأسه بالخمير أحيانا . فكان ذلك يزيد من غبائه وخموله .

كان والده يعمل مدرسا في قرية ، رجلا ممتازا . لكنه لسوء الحظ سمح لابنه ان يعزف على الأرغن ذي الانابيب ، الامر الذي جعل بيتر يكتشف عبقريته الموسيقية فقرر أن يصبح مؤلفا موسيقيا . صحيح انه لم يستطع اكمال عامه الاول في المدرسة الثانوية ، بيد ان هذا لم يمنعه من اعتبار نفسه عبقريا عالميا ، فكتب شعرا مقززا مليئا بأخطاء الهجاء ، ورسم لوحات غاية في الرداءة ، وألّف مقطوعة موسيقية ، كان يعزفها على البيانو . عنوانها أنتم باراخريز Anthem - Paraphrase كما لو كان يعزف ما هو (البارافريز) . ولسوء الحظ

لم يكن هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يعرفه ، فلم يكن في وسعه المحافظة على التوقيت . كان يعزف مؤلفات باخ او بتهوفن البسيطة بصعوبة مستعينا بنوتى الموسيقى ، ولكن بإيقاع غريب يجعل النغمات تبدو وقد أصابها التشتت . وظل يتمشى عدة اسابيع على غير هدى وقد ارتسمت على وجهه تعبيرات الاستشهاد . لقد ضلّوه منوه بأن في وسعه أن ينمي مواهبه الموسيقية هنا . لكنه بدلا من ذلك تم التحفظ عليه وسط دهماء من المجانين العاديين كان يرمقني في أسى بعيونه الزرقاء النائمة ، ويبعث لأبيه بتقارير شبيهة بتلك التي كان يكتبها شاعر الثوم لرئيس اتحاد الادباء .

وحاولنا ان نفهم اسباب سخطه ونوجه علاجه المهني اتجاها ثقافيا . وتصادف ان كان في مكتبتي عدد من الكتب الموسيقية ، فاستعارها وقراها فعلا في اعتباط شديد . ولكن نظرا لاضطراب شأنه فقد كان من الصعب تحديد مبلغ هضمه لها . فكنت اعتقد فيما بيني وبين نفسي انه لم يقرأ هذه الكتب ابدا وانما اكتفى بتصفحها . كان جهاز الراديو لدينا سليما تماما ولكنني لم ألح ببيتر مارتير ابدا بنصت للموسيقى . وحاول المعالج المهني أن يعلمه دروس الصف الاول في المدرسة الثانوية على أمل ان يجتاز الامتحان في النهاية . بيد ان هذا لم يكن كل شيء . لقد ارسلناه ايضا الى كونسيرفاتوار المدينة ليتلقى دروسا متقدمة في البيانو . بالاضافة الى اننا أسندنا اليه تنظيم كورال من المرضى ، وسمحنا له بالانضمام لمنظمة الشباب في المدينة ومحاولة تكوين كورال هناك ايضا - اذا كان ذلك في وسعه .

وترتبت علي الفكرة الجريئة في ارسال مريض عقلي للكونسيرفاتوار على حساب المستشفى ، عدة نتائج واضحة . اولها انه كان عليّ أن اضع معزفي تحت تصرف المريض ، فما دام يذهب الى الكونسيرفاتوار ، فلا بد ايضا من التدريب ، وهذا يبدو صعبا بدون بيانو . ولكن لا يكفي ان تتركه وشأنه مع البيانو ، فهو يحتاج الى رقابة ، لانه اذا ترك وشأنه ، فلن ينجح في الامتحان ابدا . وكان قد سبق لي تلقي دروس في البيانو في المدرسة الثانوية ، ولكنني حين تحققت من انني لن انمي اية موهبة ، توقفت ، وان لم أمتنع عن العزف على البيانو . وكنت اخب ان أعزف لمزاجي الخاص بعض سوناتات موزار وبيتهوفن البسيطة - وليس اكثر من ذلك .

ولا ريب ان مدرسة البيانو ، التي اعتادت ان تعنفني عبثا ، سوف تفرق في الضحك اذا قدر لها ان ترى أقل تلاميذها موهبة ، والذي يعمل الان طبيا في مستشفى الامراض العقلية ، يعطي لبيتر مارتير في الجرانج دروسا في البيانو . فلتساعدنا السماوات ، ما الذي فعله بيتر مارتير بمقطوعات باخ وبارطوك ، ومؤلفات بيرتني وشوبان ، وسوناتات كليمنتي - كل الذكريات القديمة التي جشمتني المتاعب الشديدة في شبابي . كان بيتر مارتير يعزفها جميعا في ايقاع غجري ، ولما كان عبقريا (او ربما جاهلا) فقد هُمنها ما في شخصيته من زيف .

وكان على مدرسه ان يعاني مرتين في الاسبوع فحسب ، لكن صوت البيانو كان يتردد في شقتنا كل صباح ، وأحيانا كنت اندفع آتيا من الحديقة «بيتر ، نظم الإيقاع بحق السماء» !

ولكنه حقق بعض التقدم على مدار العام . تخلى عن الإيقاع الفجري ، وبدأ يعزف أحيانا أنغاماً مقبولة تماماً على البيانو . وبينما كنت أسير بصحبة أحد الزوار في شمس الربيع الساطعة ، تسلفت إلينا إحدى مقطوعات باخ . «أحد نزلائنا يتدرب» قلت في تردد . «أجل . نحن نرسل أحد مرضانا السي الكونسيرفاتوار . انه ذلك الذي يتدرب . هذا هو عمله ، مثل الزراعة بالنسبة لشخص آخر — هذا هو علاجه بالعمل» .

ولقد أحببت ان يتم ذلك على هذا النحو ، يجب ان يكون العلاج الفردي بالعمل مناسباً لكل فرد . وهكذا انتدبنا مدرسا للرسم من مجلس المقاطعة ليحاضر هيلين اينز الفتاة الفصامية لتستعد لامتحانها في الكلية . وأنشأ لويس المتعدد الحرف ستوديو للتصوير الفوتوغرافي وحول أحد المراحض الزائدة الى حجرة التحميض ، وكان الناس الذين يعيشون في الجوار يستدعون المصور أحيانا ليلتقط لهم صورة تذكارية عائلية . كان هذا هو علاجه بالعمل . وكتب الصحفي كتابا عن مرضى العقول ، كان ذلك هو علاجه المهني . وكتب الشاعر أشعارا ، وصنع النجار دولابا للادوية ، وعزف بيتر مارتير على البيانو ، وباع صانع الأحذية أحذيته — خلاصة الامر كان كل انسان يعمل في حرفته الخاصة ، وكان هذا هو أنسب أنواع العلاج بالعمل .

كنت سعيدا بهذا ، ولكن بيتر مارتير لم يكن كذلك . رغم توفر جميع أسباب الرضى لديه . لقد حقق أهم رغباته ، والتحق بالكونسيرفاتوار . وحصل على المعزف الذي كان يفتقده في منزله ، ناهيك عن الإقامة ، والإضاءة الكهربائية والمياه الجارية الساخنة والباردة ، والتدفئة والطعام المجاني ، مما كان يفتقده في المنزل . وكان يبدو جليا من خطابات والده المتواضعة مبلغ افتقاده لهذه الأشياء ، ومبلغ البرودة في المنزل ، وتفاهة الطعام الذي يتحصلون عليه ليسد رمقهم . لكن شيئا من هذا لم يؤثر في بيتر . كل ما كان يراه ان المؤلف الموسيقي العظيم الواعد ، مسجون وسط المجانين ، وواقع في الأسر . فكان ينتهز الفرصة للتردد على القس البروتستانتي ، فيشكو له بالتفصيل سوء أحواله ، ويظهر علائم التدين ويطلب السماح له بالعزف على الأرغن . لكن القس كان من التعقل بحيث لم يسمح له بذلك وان أعطى لبيتر عشرة فورينات . وذهب بيتر عقب ذلك للقس الكاثوليكي حيث أدى نفس المشهد مقابل عشرين فورنتا . وحصل على نقود من منظمة الشباب نظير القائه إحدى الخطب المشوشة ثم زار مجلس المقاطعة . وكان يخدع أيضا عشاق الموسيقى السذج ويفرر بزوار المستشفى الطيبين وكذلك آباء زملائه في الدراسة . وكان ينفق المال في ابتياع الخمر او الحلوى او الذهب للسينما . واستطاع ان يخدعني انا أيضا ، فحصل مني على عشرين فورنتا ثمن

اسطوانات ، ثم ظل يروي قصصا مختلفة عن عدم تمكنه من شرائها ، ودون أن يشير الى النقود بطرف . كان جيبه مكتظا بالحلوى وقلبه مكتظا بالشكاوي الدائمة ، وفمه مكتظا بالاكاذيب .

ولم يكن من السهل محبة بيتر . واعترف ان احدا منا في الجرانج لم يفلح في ذلك . وكنت أخفي مشاعري بصورة ما . ولكن كان عليّ ان أناشد المرضى والطبيب العجوز التذرع بالصبر المسيحي طيلة الوقت . كانوا يرغبون في دق عنقه لا لانه كان عديم الامتنان للعالم الذي قدم له مزايا كثيرة لا يستحقها فحسب ، وانما لانه كان يحترق مرضانا ولا يتورع عن اظهار ذلك . ولو انه كان مريضا كالآخرين ، لما تفوهنا بكلمة . لكن نوبات الصرع الخفيف الضئيلة التي كان يعاني منها أحيانا كانت من التفاهة بحيث كنا نعتبره أقرب الى السلامة . فاذا كان مريضا ، فهو مرض في الخلق . انه لا يستحق الجرانج ، والمأوى والكونسيرفاتوار ، وانما يستحق بضعة صفعات ومكان يضطر فيه للعمل . قفص غير مطلي بالذهب ما دام لا يعرف كيف يقدر الحرية . وكان عليّ ان أطرده ، لو لم اضع والده في اعتباري .



كان علاج المثقفين بالعمل مشكلة حقيقية . في احدى المراحل كان من الصعب ان تجد بين مرضانا شخصا متعلما . كانوا جميعا في الغالب من الفلاحين . في ذلك الوقت كانت المستشفيات تحيل المرضى العمال الى الجرانج . ولكنهم انتهوا من المرضى العمال (او كانوا في حاجة الى القلة الباقية) ، وفي النهاية لم تكن مهمة الجرانج ان تجعل الذين كانوا يعملون من قبل يعملون ، بل ان تشفي بالعمل وان تعالج أولئك الذين لا يعملون . حسنا ، لقد اقتنع الكل تدريجيا حتى البستاني بأن هذه هي مهمتنا . لكن عدد المثقفين حاملي خطابات التوصية بدأ يتزايد تدريجيا . ولم يكن هذا أمرا مبهجا . ان قلة من الشعراء ، والرسميين ، «ومؤلفي الموسيقى» تبدو لا بأس بها ، ولكن بازدهار سمعنا ، بدأت تنهال علينا خطابات التوصية من كل أرجاء البلاد ، من الاقارب والاطباء على السواء الراغبين في ارسال عملائهم الينا ، وهم غالبا يمثلون عبئا على الاسرة ، وليسوا مرضى بالقدر الذي يودعون به في مستشفى عادية للأمراض العقلية وان كان الاحتفاظ بهم في المنازل ماثارا للاضطراب الشديد «حالات خاصة» لمؤسستنا «القديرة» .

لا تمثل هذه «الحالات الخاصة» اية مزية من وجهة نظر العلاج بالعمل ان الشاعر ، والرسم ، والراسل الصحفي لا يحتاجون الى معدات . ولكن لم يكن في وسعنا ان ننشئ صيدلية للكيمياوي ، ومكتب ناظر محطة للمستغل في السكة الحديدية ، ومتحفا للأثري ، وجمركا لضابط الجمارك . كنا في الحقيقة لا نعوزنا المعدات فحسب وانما يعوزنا النهج ايضا . ورغم هذا بلغت نسبة المثقفين

٢٠ بالمئة لكن أغلبيتهم لحسن الحظ كانت ترغب في العمل البدني . وكانوا ينقسمون الى مجموعتين على طرفي نقيض شديدي الغباء ، وموفوري الذكاء . كان بوبرونيتش المشلول مثلا يجد لذة في حمل السباخ مع فوكسكي العجوز ، رغم انه كان يجيد ثلاثة لغات . اما الاذكيا من أمثال لويس ذي الحرف المتعددة، هيلين اينز ، وفرانك سيرجري (الجراح) فلم يعرضوا عن اي نوع من العمل ولم يكن ذلك يعني اننا قد وجدنا المنهج وانما يعني انهم قد وجدوا عملا يلائمهم فحسب، كانوا يجدون دائما ما يقومون به . كان لويس المتعدد الحرف مثلا يعمل بالحدادة، ملقيا وراء ظهره بدرجاته العلمية ، بالاضافة الى ذلك انشأ ستوديو للتصوير الفوتوغرافي . وكانت هيلين اينز تمارس الرسم والكتابة على الآلة والفلاحة ، وكان من السهل ارضاؤها . وكان فرانك الجراح يشتغل بجذ في الحديقة ، وان كان يرغب في الحقيقة أن يصبح مرة أخرى جراحا مساعدا ، فكنا نرشحه للعمل كلما احتاجت المستشفى لجراح مساعد .

وجاءت فترة كان جون وستيفن ويندبلور يعملان في الحديقة طيلة اليوم ، وان كنا ندرك أن هذا ليس الحل الامثل لهما . وبدا ذلك واضحا من استغراقهما في التفكير العميق والعزلة المؤلة . كان البعض يتمرد ويكف عن العمل . كانوا يسأمونه ، ولهم الحق . فقد كان من نزلنا ثلاثة اطباء شبان ، واثنين من طلبة الجامعة ، وثلاثة مدرسين ، لا يجدون العمل المناسب . ما الذي في مقدورنا أن نفعل لنزودهم بالعمل بدلا من العناء ؟

وكنا نحن ايضا نستغرق في التفكير حتى تتحطم رؤوسنا . وحتى ذلك كان بلا جدوى ، لانه حين كنا نعر على الفكرة ، سرعان ما ننبذها فورا - انها تتطلب نقودا وأدوات ومواد . لا داعي للتفكير طالما نحن نعتمد على المستشفى فقد كنا نجد صعوبة في الحصول حتى على الاقلام والاوراق والمذكرات من المخازن - اذن ما جدوى أن نحلم بالمكتبات ، واستديوهات التصوير ، وخلايا النحل والآلات الكتابية ؟

ورغم هذا فقد حققنا بعض النجاح : فمن بين خمسين مريضا مثقفا ، عاد اثني عشر مريضا الى منازلهم معافين ، والتحق ستة بالعمل في مزرعة الدولة ، واتخذ اثني عشر منهم الجرائح بمثابة منزل لهم . وهذا ايضا يعتبر نجاحا .

الفصل الثامن

الاستمتاع بالحياة

السادسة صباحا ، احد ايام السبت الصيفية عام ١٩٥٤ .

كتب المرض الليلي في دفتر الملاحظات أن جولي بانسالك ظلت تتشاجر مع جيزيل مول طيلة الليلة الماضية ، وأن الشاعر ظل واقفا الى جوار فراشه حتى منتصف الليل . كان من النادر أن تدعو الضرورة لكتابة اي شيء آخر . كان المرض الليلي يحضر في العاشرة ، فيرسل الذين لم يناموا بعد الى اسرتهم ، ويظل فريسة للملل حتى السادسة صباحا . كان يطوف الدار مرة كل ساعة ليستمع على الابواب ، فاذا تناهى الى سمعه صوت مريب ، كان عليه ان يدخل الحجرة . وكان من واجبه ايضا تفقد دورات المياه ، اذ ربما ينتوي شنق نفسه سرا - وان لم يروعه بعد مثل هذا المنظر . وكان عليّ أن اثير يقظة المرضين بالقصص المربعة . في احدى مستشفيات الامراض العقلية فقات احدى المريضات عين المرض بالمقص لانه غفل عنها ، وفي احد العنابر ظل احد المرضى يضرب رأس زميله في الارض الحجرية حتى مات ، وحين تنبه المرض الى الصوت المريب ، كان السيف قد سبق العذل . وفي احدى المؤسسات دخلت احدى الجنونات حمام البخار الساخن من تلقاء نفسها وظلت به حتى ماتت . وفي نفس المؤسسة وضع المرضون امرأة شابة تحت الماء البارد «كنوع من العلاج» ، ونسوها لمدة يومين ، وسرعان ما ماتت بالالتهاب الرئوي . كانت كل هذه القصص المربعة حقيقية ، فكنتم أرويهما على المرضين لأوقف فيهم الحذر الذي يهدد نومهم . لم يعتقدوا قط أن كل هذه الاشياء يمكن ان تحدث في دار للأمراض العقلية ، كانوا يعزفون عن التفكير نظرا

لان شيئاً من هذه الاحداث - لحسن الحظ - لم يقع عندنا . ولكنني كنت مدركا ان مرضانا لا يختلفون عن المودعين في المؤسسات المذكورة اعلاه ، وان علينا بالحذر الدائم (كانت المرأة التي فقأت عين الممرض مثلاً ، موجودة بيننا ، تعمل في ورشة الحياكة وتستخدم المقص استخدام الممرض الصحيح ، وكانت حالتها تتقدم ، وسيتم خروجها قريباً) . لقد كنا محظوظين حتى الان ، ولكن هذا لا يعني اننا سنظل محظوظين على الدوام . (على الرغم من ان المسألة ليست مسألة حظ تماماً) . واثناء تصفحي للسجلات الطبية لاحظت ان احد المرضى المصابين بالهذيان منذ شهر او اثنين ، قد غدا عدوانياً ، ويجب ان يتم تقييده بقميص الكتاف او احكام وثاقه ووضعه في السرير محاطاً بشبكة ، وان يحقن بمخدر قوي بالاضافة الى صدمات الكهرباء . لا يوجد ضمان بأن يتحول جميع مرضانا دفعة واحدة الى حملان وديعة .

وهم لم يكونوا حملانا وديعة قط . اطلاقاً . ولكن عدوانهم هنا يتخذ شكلاً مغايراً عنه في اي مكان آخر .

حسناً . لقد كتب الممرض الليلي تقريره . وحضر الممرضان الصباحيان ، فزارا كل الحجرات وأيقظا المرضى . معظم المرضى في غير حاجة لمن يوقظهم . لقد خرج العم مايك ليكوم الدريس منذ الخامسة صباحاً بصحبة فاندسي العجوز ، وشاكي ، وسانت جون ، وقلة أخرى من المسنين . كانوا يشعرون بالسعادة حين يتاح لهم الشروع في العمل بالحديقة مع انبثاق النهار . وبكرت عنهم جيزيل مول ، ففتحت المطبخ ، بحيث تنتهي من تنظيفه وإشعال النار مع وصول مساعد المطبخ . كان يجب دفع بعض المرضى للاغتسال . فلقد اعتاد أغلبهم على الاغتسال بالماء البارد صيفاً من الرأس الى القدم . كانت هناك بالطبع قلة تحاول تحاشي الماء ، وكانت من المثقفين اساساً . كانت هيلين انكر ، التي تفخر أشد الفخر بكونها طالبة جامعية ، لا تفتسل لاسابيع ، شأنها شأن مارتين كيمست ، ولم يكن في وسع اي قوة أن تجعل شاعر الثوم يفتسل ، وكان ذلك يبدو عليه ، على العكس من امير الحزن الذي كان يبدو دائماً نظيفاً كالنسيم ، على الرغم من ان كل ما يفعله أن يرش الماء على ثيابه وهو مرتدي كامل ملابسه .

ولكن الامر كان اكثر صعوبة بالنسبة لتنظيف الاسنان ، لم يقتنع الفلاحون المسنون بالتشبه بتقاليع المدينة . وعلى الرغم من هذا كان يتم استخدام كميات من معجون الاسنان ، وكان الممرضون المسؤولون عن الجماعات يتنافسون على زيادة عدد من ينظفون أسنانهم .

بل ان بعض المرضى كانوا يزاولون الرياضة الصباحية من وقت الى آخر . ولم تكن غلظتهم أن تفشل التمرينات ، وانما كان ذلك يعود الى أن المعالج المهني والممرضون يتحمسون لها عدة اسابيع بل ويشاركون في اداء التمرينات ، ولكنهم سرعان ما يضيقون ويبدأون في تخريبها . وكان ثمة مرضى قادرين على توجيه التمرينات ، ولكنهم لم يكن في وسعهم ان يجمعوا الآخرين وينظمونهم معاً .

وفي النصف بعد الساعة يعلن الجرس أن الإفطار قد أعد ، عندئذ تحل قلة من المرضى ترأسها المسز ليزني القهوة في غلايات ضخمة ، ويحضرون الخبز والزبد والعسل فوق الصواني . ويتناول المرضى طعامهم على موائد مغطاة بالمفارش ، وحين كنت أصل الى صالة الطعام في الثامنة الا ربعا ، يكون المرضى قد انتهوا من طبقهم الثاني .

كنا نعقد اجتماعا لمناقشة العمل في الساعة ٧:٤٥ يوميا . ولكن الدكتور العجوز يشارك فيه ، وكذا المعالج المهني الذي كان يحضر نصف نائم أشعث الشعر ، يربط حذاءه وهو جالس على كرسيه (لقد استيقظ لتوه منذ دقيقتين) . بالإضافة الى البستاني ، اولد ديندي ، والمستر فيدلر والمرضون المسؤولون عن الجماعات (كانت السيدة الاولى تصل متأخرة يوميا لان المرضى كانوا يحاصرونها في الطريق . مامي ، هذا .. ايها السيدة الاولى ، ذلك .. ولم تكن تستطيع التخلص منهم لحظة) . وكنا نناقش ما الذي سيكون عليه العمل اليوم ، اي المجموعات سوف تتوجه الى الحديقة ، وأيها الى اشجار الصفاف ، من الذي سيعرق ، ومن سيقتلع العشب البري ، ومن من المرضى يجب ان يعالج ، وأين يجب ان تذهب الخيول ، هل سيتم الحرث او اي عمل خاص - بعبارة أخرى كنا نعد البرنامج اليومي . في احدى المراحل كان عليّ أن أخوض معركة طويلة بسبب هذه الاجتماعات اليومية ، نظرا لان البستاني واولد ويندي كانا يظنان انه من المهيمن لكرامتهما أن يقدموا تقريرا يوميا لرئيس الاطباء . ولمدة أسبوعين ظلا يحضران الاجتماعات يوميا وقد بدا عليهما الضيق ، ولكنهما أدركا فيما بعد مدى غبائهما . بل وبدأ كل منهما يشعر بالإهانة حين لا يدعيان الى «مناقشات القادة» . وفي الساعة الثامنة يتوجه المرضى للعمل .

كانوا يعملون في ثماني مجموعات . ثمة اربعة ممرضين يتولى كل منهم الاشراف على جماعة من عشرة أفراد . أما الخامس فهو لنوبتجية بعد الظهر ، والسادس للنوبتجية الليلية ، ويحل السابع محل الممرض القائم بالإجازة الاسبوعية . ولكن بهذه الطريقة تتم رعاية اربعون مريضا فحسب . وتظل اربعة مجموعات أخرى يجب الاهتمام بها . كان هؤلاء هم الذين يعملون «فرديا» في الحديقة بتوجيه البستاني نفسه . وعادة كان اولد ويندي يشرف على ورشة النجارة الدقيقة وورشة اصلاح الأقفال وورشة اصلاح الاحذية ، ولكنه عمليا لم يكن يوجه احد لانه على الرغم من كونه شخصا مجدا في عمله ، لم يكن يعرف كيف يشغل المرضى . اما مسز ليزني فقد كانت على العكس تماما، كانت مجموعتها تقوم بالنظافة وأعمال المطبخ تحت ارشادها المقتدر . اما الباقيين ، ويشملون الخياطين ، والذين لا يصنعون شيئا (كالشعراء مثلا ، ومارتين كيمست فيما بعد) فقد كانوا ينتمون لفريق السيدة الاولى .

وكما سبق لي القول ، كان المرضى يتفرون في الساعة الثامنة . كان سانت جون المرتعش ، ومساعدته ، الرسام السابق يتوليان امر المطبخ ، ثم يجمعان من

الحديقة طلبات المؤسسة والمستشفى لهذا اليوم . بينما يمضي كل من اولد تاتو وأولد انكر وأولد فاداناي بفئوسهم . كانوا لا يتبادلون حديثا فيما بينهم ، وانما يكتفون بمخاطبة انفسهم . كان اولد تاتو يقترب بصورة خطيرة من المحول الذي يتلقى منه الاشعاع ، وهاجمه ذات مرة بهراوة محاولا تحطيمه . فرتبت امر ابعاده عنه دون اي اجراء عنيف ، اكتفيت بنزع الهراوة من يده . ولكنه اقسم ان يحطمه يوما ما . وأخذ يصرخ فيه بالفرنسية زاعما انه واقع في أسر العلاج . كان يتحدث الفرنسية جيدا (عمل صانع اقفال في فرنسا عدة أعوام) واعتاد العم مايك ان يتلو صلاة صباحية قبل ان يبدأ في الحس . كانت الصلاة منعمة كصلاة قسيس ، ولكنها كانت أبعد ما تكون عن ذلك ، نظرا لانها تتألف في معظمها من عدة لعنات شديدة القبح موجهة الى الوجبة التي انتهى من تناولها فورا ، والتي يعترض على كميتها او نوعها . اما اولد فيرنو فكان يقوم بالحس بلا صلوات ، ولكنه حين يقع ناظره على "كان يقول" «تفضل يا سيدي اللورد واصنع شيئا من اجل البرسيم» وكنت أعد بأن اصنع شيئا يتلاءم مع كوني لوردا . كان اولد فيرنو نزولا على المصحات العقلية لمدة اثنين وعشرين عاما . وكان فلاحا مجدا ، لا يؤدي احدا . وكانت روزي ماشت ايضا تعمل مع البستاني ، ولكنها شرعت في اثاره العديد من المتاعب ، صارخة بإتهاماتها طيلة اليوم . لم تكن تمتنع عن العمل فحسب ، ولكنها لم تكن تسمح لاحد ايضا بالاقتراب من أحواض الاستنبات الدافئة . وكان رجل الجبل ليزلي شديد الاجتهاد ايضا . كان هذا الجبل من الشحم يعاني اضطرابا في الغدد يعيقه عن الانحناء بالقدر الكافي ليعقد رباط حذائه . وكان محبوبا جدا في ليبوتيميزو وكثيرا ما كانوا يمزحون معه مستغلين سداخته ولكن سرعان ما كان صوته العالي واقاصيصه الساذجة تثير أعصاب الناس . وكان يعمل عندنا بمثابة سائس وسائق بالتبادل . وجاء وقت أصبح فيه هنا ايضا شديد الثروة بشكل لا يحتمل . لم يكن يرضيه شيء . فكان يصب لعناته بصوت جهوري مطالبا بإعادته الى بودابست او الى أخته . وكتبت أخته موضحة بجلاء انها راغبة عن رؤيته . واستطعت أن أتغلب على ليزلي بحيلة طيبة او ربما شريرة . لقد استكتب ليزلي احدهم بطاقة لرئاسة أطباء ليبوتيميزو (كان شخصا لا يعرف القراءة او الكتابة) يطلب منها اعادته الى هناك . ولم أرسل البطاقة وانما كتبت الرد بنفسي على لسان المديرية . «عزيزي ليزلي .. لقد أثرت العديد من المتاعب هنا ايضا .. فانت دائما غير مهذب ولا تقوم بالعمل .. إبقى حيث انت ، وحاول ان تهذب نفسك» . حين قرئت الاجابة على ليزلي ، احمر وجهه ثم ابيض ، ولكن أثر الرسالة كان مذهلا . ليس في وسعي ان اكرر اللعنة التي أطلقها في حق رئيسة الاطباء البريئة - فلتفقر لي . لكنه غدا هادئا ، مجتهدا وطموحا ، وحاول ان يبرهن دائما انه ولد طيب .. وكان في الحقيقة ولدا طيبا . كانت ورشنا تضج بالحياة . كنا في حاجة الى ورش ازيد واكبر مزودة برؤساء عمال مدربين وفوق كل شيء الى مواد خام ، مواد خام ، مواد خام وفيما

عدا هذا فقد تكفلنا بكل ما يمكن القيام به بدون رؤساء الورش والمواد الخام .
كان كوشورني المعجوز يقوم بكافة الاعمال الميكانيكية التي تتطلبها عادة دار في مثل
حجم دارنا . كان يؤدي عمله بأيدي مرتعشة نتيجة ادمان الكحول وتصلب
الشرايين ، وكان جوكب البولندي يساعد أساسا في أعمال الكهرباء كما كان
شغوبا بترميم الجدران المشروخة وتبييضها ، بينما يهلوس في خليط من الجربة
والبولندية .

وكانت الحدادة هي مملكة أولد ويندي ، هنا يمارس أشق الاعمال ، وكان
العاملون في ورشة صناعة الأقفال يتسللون الى ورشة النجارة تحت دعوى انها
اكثر اضاءة واقل جلبة . . ولكنهم في الحقيقة كانوا يحاولون الابتعاد بأكثر ما
يستطيعون عن ديكتاتورية أولد ويندي . وكان لويس المتعدد الحرف يتولى ورشة
الأقفال . كان يفهم كل شيء في العالم . كان قد تم تشخيص مرضه باعتباره
« اكتئاب استجابي (تفاعلي) Reactive depression » بمعنى ان اكتابه يرجع
الى اسباب خارجية واضحة . ولم يكن يبدو سوداويا في ورشة الأقفال . ولكنه
كان يخرج في اجازة من وقت لآخر فيعود محملا بالقلق وعصاب الهضم ، ويظل
لعدة ايام لا يستطيع النوم الا بأقراص اللومنيال ، ولكنه يعود للهدوء . ولقد
ابتكر بعض الاختراعات ، من ذلك مثلا منفاخ جيد لموقد الطهي الذي كانت أنابيب
التهوية فيه ضعيفة . وأصلح ذلك فعلا من طريقة عمله ، وفيما بعد عمل مع
النجار في اعداد مخرطة خشبية من العوادم . كانت تبدو معقدة ، ولكنها قدمت
امكانيات ممتازة للعلاج بالعمل ، بالإضافة الى اننا استطعنا ان نصنع بها قطع
الشطرنج واللعب . اما سبب شهرة لويس المتعدد الحرف الحقيقية فكانت نتيجة
انشائه استديو التصوير الفوتغرافي في المرحاض المهجور . وأعد فيه ايضا قسما
للتكبير ، وكان كل المواطنين في الجوار يترددون عليه ، ليلتقط صورهم ، بالإضافة
الى « الصور التسجيلية » التي تصور العمل في الجرائح .

كان المشرف على ورشة النجارة يعاني ايضا من الإكتئاب الاستجابي . وصلنا
وهو في حالة من الإكتئاب العقلي الشديد ، قريبا من الانتحار . كان رجلا متزنا
وجادا ، وبفض النظر عن اكتابه ، كان يعمل خلال النهار ، ويلعب الورق في
المساء . وكان نجارا ماهرا صنع أرفف ودواليب المؤسسة . وكانت مساعدته هي
أولد مارجيتا ، وهي روسية أقامت بالمجر بعد الحرب العالمية الأولى ، تؤدي
رقصة القوازي في المساء حين تكون معتدلة المزاج . كان أحيانا يستغرقه الهذيان ،
عندئذ لا يسهل التعامل معه . ولم أر أبدا رجلا في مثل وداعته ، ولكنه حين
يفضب ، يستحيل ثائرا الى درجة فقدان الوعي ، ولا ينصح بالاقتراب منه في
مثل هذه المناسبات . ولكنه فيما بعد ينشد الغفران باكيا .

وكان ثمة غلامين مصروعين يعملان في ورشة الاحذية في وفاق تام . كان
في وسعهما القيام بعمل رائع ، فيما لو توفرت لنا المواد الخام ، ولكنهما كان
عليهما أن يقنعا باصلاح الاحذية الممزقة ، وحين كانا يتحصلان على ما يكفي لعمل

زوج من الاحدية يبدوان كما لو انهما في يوم عيد .

وكان هامستر يتولى زمام جماعة الذكور الاقوياء . وكانوا اليوم يعملون في هدم الانقاض . كانت احدى الحظائر القديمة يتهددها الانهيار ، فقررنا هدمها . وطالبنا المسئول عبثا أن يحصل لنا على تصريح بالهدم فكتب مذكرة بذلك ثم لم يصنع شيئا ، كالمعتاد . واخيرا وبعد الانتظار بما فيه الكفاية أمرت بالهدم قبل ان تنقص العروق الخشبية ويدفن البناء النهار احدا تحته . وكنت سعيدا في سري اننا نقوم بذلك دون موافقة رسمية ، فقد توقعنا أن يفد علينا مختلف الناس الرسميين ليفحصوا المبنى ثم يقررون الا يتولى ذلك سوى عمال البناء المؤهلين - لذلك كان من الافضل ان ننتهي من ذلك دون بيروقراطية قبل ان ينهار على رؤوسنا. وسوف نتحصل الورش بذلك على الاقل على بعض العروق الخشبية .

هكذا بدا الان نزع الجدران . لم تكن مهمة سهلة ، وخاصة هدم السقف . قام احد مدمني الكحول وفصاميان ، ومريض بالهستيريا واحد ضعاف العقول بانزاع القرميد ودحرجته الى الارض . حيث قام بحملسه اثنان من المصابين بالصرع ، واحد الفصامين واحد ضعاف العقول . واخذ هامستر يلقي بأوامره من أعلى احد العروق الخشبية ، بينما تسلق الغلامان الجدران الجانبية كالقردة وجذبا العرق الخشبي ليسقطاه في مهارة الخبراء . وكنت أخشى بصراحة أن يحدث شيء يشوه سمعة المؤسسة . لشد ما سوف يثير بعض الناس سمعهم خبر سقوط مريض من على سطح مؤسسة العلاج المهني الشهيرة . بيد ان الحذر الذي ابداه هامستر وكذا مهارة الغلامين جنباني هذه التجربة . وابتسمت في سري . كان دينيس القافز في البئر الذي قطع جلد ذراعه في سبع مواضع بالأمس محاولا الانتحار ، يتسلق الان حول العمود ، ولم يحدث ابدا ان فكر في الالتقاء بنفسه في محاولة انتحارية .

في البداية عملوا معاولهم في الجدار ، فبدأ الطوب في التساقط . ثم خلخلوا أسفل الجدار بمساعدة كسارة واسقطوه محدثا ضجة كبيرة وسحابة عظيمة من التراب . لقد أحبوا هذا اللون من العمل . ان الاطفال (ومن المحتمل الكبار ايضا) يستهويهم التدمير ، اما المرضى على التحديد فيغرمون به . لم يكن في هذا العمل شيئا يبعث على الملل ، فهو يتضمن قدرا من الذهاب والمجيء ، وكمية من الصياح، ومن المتع أن تراقبه . بل ان حتى العمال الاقل خبرة وجدوا ثمة ما يقومون به، لذلك ارسلنا جماعة روزي لتحمل الطوب وتقوم بالنظافة .

لم تكن جماعة روزي جماعة لها وزنها في خطة العلاج المهني ، كان لدى روزي المسكينة أقل المرضى نفعا ، ثلاثة ممن يعانون ضعفا عقليا شديدا وستة ممن المرضى بالهيفيرنيا الاغبياء . وكان ايجوين السريع سرعة الضوء واحد من ضعاف العقول ، يبلغ طوله ستة أقدام ونصف ، ثم توقف نموه العقلي نتيجة للالتهاب السحائي وهو في سن المراهقة . قضى ثمانية أعوام في المدرسة وقادر على الكتابة بخط جميل وبدون أخطاء ، ولكنه يتصرف تصرفات طفل في الخامسة مليء

بالحركة . كان يذهب ويجيء في خطوات هائلة ، ولا يهدأ للحظة واحدة ، مطوحا بذراعيه ، ويأكل كل الوقت ، وغالبا وهو مستمر في الكلام . وكان شديداً التدين ينتمي الى مذهب يبدو الان متخلفاً . كان من عبدة الشمس . حين تشرق الشمس كان يهرع الى المروج ، ويرفع ذراعيه ويصرخ بصوت عالٍ : ايتها الشمس ! أسجد تواضعاً امام أشعتك المباركة ! ايتها الشمس ! الشمس ذات الجلال ، نشكرك لانك تدفئنا بأشعتك ! ايتها الشمس ! فلتكن قوتك مباركة ! ثم يركع على ركبتيه ويهتز جيئةً وذهاباً امام المصدر القوي للطاقة . وقرر ، دون ان ندرك لماذا ، ان يصيح الجرانج بالصبغة الرومانية . صحيح انه لم يشرع بعد في ذلك ، ولكنه كان يصيح عدة مرات يومياً بأنه بصدد رومنة الجميع . ولكن كل ما فعله في هذا الصدد ان اطلق على زملائه من ضعاف العقول أسماء رومانية . فاطلق على ميكي الاعور اسم توليوس ، واصبح زولي كارناش يدعى الان تيبليوس . لم يكن له جلد على العمل ، وكذلك كان توليوس وتيبليوس يفضلان اللعب . ورغم هذا ففي الوسع احتمالهم اذا قورنوا بمرضى الهيفرانيا . فهؤلاء كانوا من الحالات المحزنة التي عانت من الاصابة والتشنج في مطلع المراهقة . كان بول مودل براون يهز رأسه ويسعل كل ثانية . أما جوني جوبكس فكان مغلقاً على نفسه ولا يمر يوم دون أن يتبول او يتبرز في ملابسه . وكان جويزي رونوي يرغب في العودة الى آلاج **Alag** فوراً لأن البريطانيين والامريكيين يقصفون ميدانها الرئيسي بالقنابل . بينما يكتفي شارلي سابستيتوت بالوقوف جامداً ، ويجب على اي سؤال بـ «لا» مصحوبة بابتسامة غبية . أما سلف كوندمنج فرانك فلم يكن يتكلم الا نادراً ، وكف لحسن الحظ عن تأديب نفسه كما كان يفعل كثيراً من قبل ، فهو يلتقط التفاح من على الارض بعناية ، ولكن لا يمكن حثه على القيام بأي عمل آخر .

ورغم ما يبدو من عدم جدوى هذه المجموعة فان الامل فيها لم يكن معدوماً كلية . لقد سبق وتحسنت على أيدينا حالات مشابهة الى الحد الذي امكن تحويلها الى المجموعة المتوسطة . كما تم تحويل احدى حالات مجموعة روزي الى ورشة النجارة مباشرة ، حيث تقدمت تقدماً طيباً . فهذه الارواح ليست على هذه الدرجة من القناتمة كما يبدو للوهلة الاولى . فعلى الرغم من أن جوني جوبكس كان يوسخ بنظونه فقد كان يتمتع بصوت جميل ويحب غناء الاغاني الشعبية وحدث أن هرب ذات مرة ، وعثرنا عليه على مبعدة ثلاثة قرى ، وتخاطب في طريقه مع العديد من الناس ، فأخبرهم في أسلوب متماسك انه قدم حديثاً من بودابست للعمل في البناء ، ولكنه شعر أنه من الافضل أن يعود الى مدينته ليعمل في مناجم تانا ، وسألهم اين يجد محطة السكة الحديد التالية . . ودهشنا أشد الدهشة ، كيف يستطيع هذا الغلام العاجز الذي يبدو وكأنه لا يعرف اين يقيم أن يتحدث في ذكاء ويسلك مثل هذا السلوك السوي . وكذلك هرب ايضاً شارلي سابستيتوت الذي كان يكتفي بالوقوف متخشباً قائلاً «لا» مصحوبة بابتسامة

غبية ، صحيح انه لم يهرب منا ولكنه هرب من امه التي قد حضرت لزيارته .
ولقد هرب مع بول كنسكي ، الذي لم نسمع منه قط جملة مفيدة واحدة ، فغابا
اسبوعا بأكمله لان الشرطة التي قبضت عليهم في اليوم الثاني لم تلاحظ انهم
مجنونين فأرسلتهم الى الجنوب بتهمة التشرذ . كيف لم تكتشف الشرطة حالتهم
فورا ؟ اليكم نموذجا لما كان يقوله بول كنسكي قبل هروبه : «لقد جرحت هنا
ايضا ، رايت نسوة يقدن سيارات ، لا عذر ، لان كل شيء يمكن مشاهدته هنا ،
حين يفتح المعرض ، فسيتم ذلك عن طريق ماكينة ، يا للسماء ، الزى الموحد
لا يمكن اختراعه ، التيار المباشر احرقني ، ما الذي ينبغي أن أطالب به اذن ؟
بالاشارة الى هذا ، ليست لدي اي حقوق ، ولذلك فسوف يصاب الكثيرون
بجراح ، حسنا ، بالطبع سوف يموتون - ثم يُبعثون من الاموات ولكن متى ؟
الشرطة ، البرلمان ، الاجتماع العام ، هذا الرئيس وذلك ، ولكنني ألقيت بخوذتي
المطافي على الارض ، ينظرون الى النسوة ، اين الصواب ، اين الواجب ، اين
ارض الآباء ، هاو هاو !...» لعل ذلك هو خير نموذج لكلام تسوش . كان الى
جانب ذلك يشور ويقفز ويتنقل بطريقة غير معقولة ، ويدخن سيجارته ويلعب بفمه
على آلة موسيقية في نفس الوقت . اما شارلي سابستيتوت فكان على النقيض
تماما ، كان يقف جامدا في ضحكته المرتبكة ، وبين الفينة والفينة يهز راسه ويئن
باذلا جهدا عظيما قائلا «لا» . ما الذي فعلاه في قسم الشرطة . لدهشتنا الكبيرة
اكتشفنا ان شارلي الاخرس تقريبا بعد أن تلقى صفتين تدفّق في الحديث
كالشلال . ونسي بول كنساس لغوه الفارغ . فاعتبرا متشردين عاديين . كان
الدرس المستفاد من هذا هو : ١ - ان الصدمة قد تأتي مع المرضى بنتائج لا يمكن
تصديقها في الاحوال العادية .

٢ - انه لا يمكن ان نستخرج من المرضى الا ما في داخلهم . ولما كان الامل
غير مفقود تماما بالنسبة لمجموعة روزي فان هؤلاء المرضى الذين يدون على هذا
النحو من القتامة والارواح المحترقة ، لم يحترقوا في الحقيقة وانما لا يجدون
المتنفس فحسب . هناك مفتاح لشخصياتهم ، ويجب العثور عليه .
لقد كنا نسير في البداية في طريق خاطيء ، لقد حاولنا اكتسابهم عن طريق
العمل الميكانيكي البسيط اعتقادا منا انهم سوف يعتادون على العمل الممل اذا أدوه
يوما بعد يوم . كانوا ينقون التربة من الحصى حيث سيتم انشاء طريق جديد ،
وكانوا يحفرون في رتابة في مساحة لا يهم ان تحدث فيها أخطاء . لم يكن في
وسعنا أن نقدم لهم اي عمل أبسط من هذا ، لكن النتائج جاءت سيئة بشكل لا
يمكن انكاره . لقد مل المرضى المتبلدين العمل البليد . كنا نصدر عن مقدمة
خاطئة ترى تعديل العمل بحيث يتلاءم مع النمط الجامد للفصامين ، لرتابتهم
وخوائهم الانفعالي ، ولكننا كنا مخطئين . في وسع الذين يتمتعون بحياة داخلية
. نضرة ان يصفوا على العمل الرتيب مضمونا نضرا ، ولكن ما الذي في وسع الروح
القائمة ان تفعله ازاء هذا الملل ؟ لقد اصبح مرضانا اكثر تبلدا ، واكثر خمولا

وضيقا بالحياة لقد تحققنا من هذا وغيرنا الاسلوب . والآن اصبح برنامج مجموعة روزي اكثر البرامج تنوعا . انهم يحملون الطوب اثناء عمليات الهدم ، الامر الذي يتضمن الذهاب والعودة بالاضافة الى مهام جانبية مدهشة ، فالطوب يجب ان يصف ، وينظف ويوضع في العربة ، وتسحب بعيدا ، وتفرغ وتعبأ من جديد . وبعد ساعتين او نحو ذلك ثمة استراحة تحت شجرة الكستناء ، حيث تقرا لهم روزي بصوت مرتفع . ثم يمارسون العرق وتمهيد الممر الذي تنهدده دائما الاعشاب البرية ، وبعد الطعام يخرجون الى بستان الخوخ حيث تحتاج جور البطاطس الى عناية . ثم تدير روزي الجراففون ، وتطلب من المرضى الجامدين الاغبياء مراقبتها ، او يذهبون للسباحة في حوض السباحة . كان هذا هو العلاج الجديد بالعمل لهذه الجماعة صعبة المراس ، برنامج جديد يوميا ، مليء بالمتغيرات وبالاافكار . فبدا الاسلوب اكثر نجاحا . ان جوني كوبكس الذي كان يوسخ بنظولونه ، يفني الان احيانا الاغنيات الشعبية بمشاعر عميقة وسرور ، ويتطوع شارلي سابستيتوت للقيام بدور الملك في مسرحية تدعى «الاميرة ويندي» ، ويقرا دوره في صوت خفيض ولكنه دافئ ، وتحسنت حالة بول كنسكس بالقدر الذي سمح بتحويله من الجماعة ليلتحق صبيا في ورشة النجارة .

هكذا ظهرت احدى قواعد منهج الجرائج الى الوجود . لا تتوقع من المرضى ان يتلاءموا مع العمل ، ولكن يجب ان يتلاءم العمل مع المرضى . اما اعضاء المجموعة المتوسطة فهم اولئك الذين سبق ان خرجوا عن خمولهم الاكتسابي ، وان كان عملهم بعد ليس مقبولا تماما . فلا زالوا يؤدون المهام الموكولة اليهم دون حماس متميز . لم يكونوا يقولون في فصاميتهم او ضعفهم العقلي عن مجموعة روزي ، كانوا يهلوسون اثناء العمل ، ويأتون بإشارات ، ويحدثون انفسهم احاديث طويلة . ولم يتخلوا عن الهذات . ولكن نمي في داخلهم شعور اجتماعي وحيد وهو الشعور بالواجب . لقد اصبح العمل بمثابة ضرورة حياة بالنسبة لهم ، انه يعطي لحياتهم مضمونا ، ويعطي معنى للمتعة والراحة التي تعقب العمل .

من بين الثلاث جماعات النسائية كانت جماعة واحدة فقط تعمل في الحديقة . كان معظمهم يقتلعن العشب البري ويلتقطن الحبوب وما شابه ذلك . في ركن آخر من الحديقة كانت المسز تاكاشي الثرثرة تثبت شجيرات الطماطم ، وتقوم يولاندا بالزراعة ، بينما تعرق الزبي لوتر وتهلوس على التوالي . ولحسن الحظ كانت الزبي بانوسك تقوم بالعمل وسط هذه المجموعة فتظل تضحك وتثرثر طيلة الوقت ، الامر الذي كان يضيي قليلا من الحيوية على العمل ، ذلك ان الاخريات لم يكن ينبنس بكلمة . كانت السمة المميزة للمريضات انهن كن اما يثرثرن باستمرار او لا يتكلمن على الاطلاق .

في الساعة الثامنة اذن كانت المجموعات المختلفة تتوجه للعمل . وكان فسي استطاعتي سماع اوامر البستاني عبر نافذتي وأنا منكب على مراسلاتي . كانت

تردنا العديد من الرسائل : آباء يسألون عن حالة أبنائهم ، زوجات يسألن عن أزواجهن ، المرضى السابقين الذين تحسنت حالتهم وتم تخرجهم يكتبون تباعا طالبين سرعة الرد ، وحين كانوا يمتنعون عن الكتابة ، كنا نكتب لهم نستفسر عن حالهم ونتائج العلاج . كنت اعتبر هذا التتبع في منتهى الاهمية ، لان بدونه لا يستطيع احد ان يحكم على انجازات مؤسسة للأمراض العقلية . ما الذي يمكن ان نتعلمه . اذا اعتبرنا احدهم قد تحسن ، وربما شفي ، بينما هو ربما تحت العلاج ثانية في مستشفى آخر للأمراض العقلية ؟

لم اكن قد فرغت بعد من مراسلاتي ، حينما وصل العم ريبورتر اول الزوار . لقد جاء ثانية واحدة فقط ليعرف اين كانت تعيش جان دارك ، ومن الذي اكتشف التنويم ، متى ، واين ، ولماذا ، وكيف انتقلت خيول سان ماركو البرونزية الى بيزنطة ثم عادت ، هل كان بطل مسرحية «الاشباح» لابن يعاني من الشلل ، اين ظهر تعبير «الفصام» . وما الذي كانت عليه مستشفى بيستير قبل ان تتحول الى مصحة للأمراض العقلية ؟ وبعد ان اجبت على اسئلته على قدر استطاعتي ، ظل جالسا بعض الوقت يشرح لي في تطويل أن الدم الذي فقده عقب خلع سننثه بالأمس قد يضر به ، نظرا لانه فقد كمية هائلة من الدم ، على الرغم من اننا لم نعترف بذلك . وطلب ان اقيس له الضغط وافحص ساقيه ، لاتأكد من انها ليست متورمة . كان العم ريبورتر، مريضا بالسكر ويتوهم المرض ، وعنده ارتفاع في ضغط الدم ، بالإضافة الى انه يكتب كتابا في الامراض العقلية . كان يسبب لنا من المتاعب اكثر من السيكوباتيين ، ولكن على الرغم من مضايقاته فقد كنا نحب ان نضم بين ظهرائنا واحدا من هذا النوع .

وعقب ذلك وصل ساعي البريد . كان من بين واجباتي استلام البريد . كان يجب تسجيل كل ما يرد في دفتر رسمي ، ولم يكن في ذلك اي ضمان على أن طرودهم ونقودهم لم يتم سرقتها ، ولكن ليخلي مكتب البريد نفسه من المسؤولية على الاقل . وكان عليّ الان أن أتأكد من سلامة كل شيء . وبصراحة ، لم يكن ذلك بالمهمة السهلة . لم يكن من الصواب أن نسلم الطرود للمرضى دفعة واحدة ، لانهم اما سيأكلون كل شيء لاول وهلة ، او ينسونه حتى يتعفن ، او يقوم المرضى الاكثر عملية بسرقة . باختصار ، يجب تقسيمه الى وجبات . كانت السيدة الاولى توكل امر الطرود الى قادة المجموعات ، او تشرف على توزيعها على فترات . وهذا هو السبب في أن من يدخل مخزن الاطعمة عندنا يتهمنا فوراً بتخزين ما يفيض عن حاجتنا . ثمة سلامي ، وسجق وقطع ضخمة من لحم الخنزير معلقة على الجدران ، وثمة اطعمة في صناديق من كافة الانواع والاشكال . كنت قد تأهبت لجولة عملي الصباحية عندما اندفع مارتين كيمست داخلا وروى بالتفصيل كيف تسير الامور في القضية التي رفعها في المحكمة . لقد حدث فعلا الشيء الذي يتفق تماما وحبه البارائوي لاقامة الدعاوي ، فلقد عمل فسي صيدلية ولكنه طرد منها تعسفيا بعد اسبوع ، وان لم يكن بدون سبب ، ومنذ

ذلك الوقت غرق في قانون عقد العمل ، وكما كان سروره حين اكتشاف الزيد والمزيد من الثغرات . واتخذ اجراءاته بالطبع ضد رئيس الكيماويين بالمقاطعة . وكانت لجنة المصالحة قد قررت له خمسمائة فورنت كتعويض عن الفصل دون اذار ، وتم له صرفها ، ولكنه ظل غير راض . فخاطب وزار وكلاء نيابة وقضاة الحي والمقاطعة ، واحدا تلو الآخر . واعلن انه سيسير في الامر حتى يصل الى البابا نفسه ، لا طمعا فيما سوف يكسبه ، وانما طمعا فيما قد يخسره خصمه . ولقد استهواني سؤالين مبدئين اكثر من نتائج القضية المرفوعة في المحكمة . اولهما لماذا لا يستطيع مارتين ان يبذل مثل هذه الطاقة والذكاء في عمل منتج كما يبدها في التقاضي ؟ وثانيهما لماذا يفضل المجتمع الظلم ، والخروج على القانون والمماطلة التي يتسبب فيها ضياع الحقوق ، قبول عودة مريض سابق بمستشفى للأمراض العقلية الى عمله ؟ ان المجتمع يلفظ ضحايا المصححات العقلية ويجبرهم على ان يصبحوا طفيليين . ان في وسع مارتين كيمست ان يتوافق مع احتياجات الحياة العادية ، ولكنه لم يكن قادرا على تخطي هذه العقبة الوحيدة ففضل ان يعيش عيشة الطفيليات . فالحياة ليست سيئة في القفص الذهبي - الذي يكلف الدولة بالمناسبة اثني عشر الفا من الفورنات شهريا ، - وهو بذلك يحرم مريضا آخر قد يكون أحوج منه الى الرعاية الطبية .

استطعت اخيرا في العاشرة ان ابدأ جولتي . اصطحبني المعالج المهني ، وكنا في هذا الوقت عادة نبدأ في خوض معاركنا العلمية . ولم يكن وقتا ملائما بالمرّة ، نظرا لان المرضى كانوا يعترضون طريقنا باستمرار ، الا ان غاية جولتنا كانت هي تلك الاعتراضات بالتحديد . لكن هذا لم يجعل الشاب المتحمس يكف عن مهاجمة افكاري عن الفصام ، كان اكثر ما يضايقني انني لا اُدافع عن وجهة نظري بمزيد من القوة ، وكل ما فعلته لاقناعه ان قلت انني على صواب وأنه على خطأ . «ان ما ذكرته عن العلاقة بين الفصام والحنين للحرية ليس نظرية بقدر ما هو خبرة بسيطة . فكرة ، خاطر ، شك ، يفسر لي الكثير . ولكن صدقني لا اتوقع من كل انسان ان يفكر بنفس طريقتي» . «هذا تواضع كبير» .

«نعم يا صديقي ، ان افتقادي الى المعرفة يجعلني متواضعا بعد فترة . انك تطلب حلا ، ولقد سعدت بمحاولتي لاكتشاف احد الحلول . انت دائما تهتم بالشفاء - بينما يسعدني انا عادة أن يشعر مرضانا بأنهم على ما يرام . وفي النهاية ربما لا يكون هذا هدفا متواضعا ...» .

حين تلفت حولي في الحديقة المخضرة ، محتفيا من حرارة الصيف في ظل اشجار التفاح ، مراقبا هذا المجتمع الصغير النشط ، خامرني احساس خادع باننا قد حللنا المشكلة ، هؤلاء الناس قد أفاقوا ، وبعثوا من جديد ، وشقوا . كنت اعلم ان هذا ليس صحيحا ، يكفي أن يقترب المرء منهم ويستمع الى هذائهم وهلاوسهم ويكفي أن يفكر المرء في الاحصائيات التي تشير بجلاء الى ان ١٨ بالمائة

منهم لا يشعرون حتى بمجرد السعادة هنا ، وأن ٣٨ بالمائة لن يتحسنوا ، ناهيك عن الشفاء وبينما كنت أرقب العاملين ، الذين لوحتهم الشمس ، في ضوء الشمس المتألثة ، بدا لي ان ما أراه حقيقيا . لقد تملكنتني أفكار المعالج المهني المتفائلة ، فاعتقدت للحظة اننا وضعنا أيدينا على «العلاج العظيم» للجنون. أحسست كأنني أصرخ في زملائي الذين انطلقوا على أنفسهم ، تماما كمرضاهم ، داخل أربعة جدران قائلا : «تعالوا هنا ! تأملوا المرضى أنفسهم هنا ! انظروا حولكم ، ثم عودوا أدراجكم ، وافتحوا أخيرا باب القفص الذهبي ... افتحوا أبواب كلا القفصين ...!» .

كان من الممكن هنا فقط في القفص الذهبي أن تراودنا مثل هذه الأفكار فمن المسموح للطبيب هنا أيضا أن يخلو إلى أفكاره الصغيرة الخاصة «على أي نحو نختلف ، يا اخوتي» كنت أسأل المرضى ، مخاطبا نفسي . أين يكمن الفرق ؟ انظروا ، لديّ أنا أيضا وساوسي - فأنا اعتقد أن في مقدورنا حل مشكلة الجنون ، ليس كل المجانين ولكن ربما نصفهم . ربما يصبح في وسعنا أن نضمن حياة لآلاف وآلاف من الأحياء الأموات تليق بالكائنات الإنسانية . انظروا ، لديّ تصورات ، مثلكم بالضبط . انني أرى (الجراح) يتسع إلى حجم هائل ، مرضى مشغولون في ضيقة ضخمة ، يسعدون بعملهم المنتج ويشعرون أنهم على ما يرام: أرى المرضين الذين يمكنهم فهم هذا ، وأرى الأطباء الذين يتفهمون هذا ، وأرى الموظفين الرسميين الذين يفهمون هذا ...

مسحت العرق والرؤية من فوق حاجبي . كان اليوم شديد الحرارة وربما كان ذلك هو السبب في تلك الاوهام . لقد شعرت بحرارة معطفي الأبيض ، ولعلي لم أكن لأفكر في مثل هذه الترهات فيما لو ارتديت «شورتا» كما يفعل المرضى وأعواد الفطس في بحيرة السباحة بين الحين والآخر . قلت لنفسي أن تستيقظ وتكف عن الأحلام . انني في (الجراح) مع تسعين مريضا ممزقا ، ولكنهم يرتدون «الشورتات» ، بحيث لا يرى أحد تمزقاتهم . أنت في الجراح ، هكذا قلت لنفسي ، على رأس مستشفى اقليمية صغيرة ، مع المدير (بلا كلام فارغ) وأمين مخازن أشبه بالثعبان ، في الجراح ، بعيدا عن مجلس المقاطعة العظيم وعن الوزارة ، ولن يصل صوتك إلى بعيد ، أنك في القفص الذهبي ، وهذه الأكمة من شجيرات الأكاسيا هي حدودك ... فأصح لنفسك .



هذا هو الكرب ، وهذه هي البطاطس ، وثمة فلفل أيضا . لم أكن أعرف الباقي . هذا الجهل يعلم البساتين يسبب لي الخجل . كان المرضى يتجولون خلال الخضروات كالخبراء ويحدقون فيّ حين أسألهم عن شيء يفصح جهلي . وربما كانوا يضحكون في خفية حينما يتذكرون انه سبق لي سؤالهم أسئلة من نوع : ما

هي انهار المجر الرئيسية ؟ من هو شكسبير ؟ ما هو حاصل 7×4 ؟ اليك اذن اختبارا للذكاء ، ربما كانوا يقولون ذلك سرا ، على كل حال بدوا مستكينين ، ولسبب لا أعلمه ازالوا السنادات التي ترتفع عليها شجيرات الطماطم .

ان رؤية هؤلاء العمال عن كئيب تؤكد انهم ليسوا على هذا القدر من السواء كما يبدو . كان ايوجين ميكانيك قد اعلن وهو يضحك على استحياد انه لا يحق لنا ان نستبقه هنا ، ما دام قد وهب جسده للسفارة السويسرية بفرض البحث العلمي ، ومع هذا ، فحتى هذه اللحظة ، كان راغبا في المشاركة في العمل . ورفعت آن ايدوت وجهها النحيل الجميل وسألتي ، وهي تغمز ، في صوت يسمع بالكاد عن حالة صحتي ، وكانت الزبي لوتر تقاوم «تقبلها المزاجي» بمجرفة مشرعة . وظل فرانك نيميدي يقف متخشبا تماما حتى ساله رئيس الجماعة عما يفعله . وكان جورج تيتشر غير مقبل على العمل اليوم ، فطفق يحوم حول كاميللا بارتوس المختلة تماما ، متشوقا بشكل جلي الى ان يختلي بها بين الشجيرات . وكان ستيفن بسنكس يغمغم بكلمات غير مفهومة ، هازأ كتفيه . لم يكن الامر سيئا تماما ، فالعمل يسير بصورة ما ، كانت هذه هي المجموعة المتوسطة ، ومن العسير ان يتوقع منها المرء المزيد . كانوا يعيشون حياتهم القريبة الخاصة ، يزاولون القليل من العمل في حالة من الهلوسة ، وربما لا يعانون من ذلك . واتجهنا صوب أعمال الهدم ، ولم أعد أغير المعالج المهني الزيد من الانتباه ، بالرغم من انه كان لا يزال يشرح الدوافع وعمليات الكف في العقل الفصامي . وربما كان على صواب . وبينما جعلت ارقب ستيف درايفز وهو ينتزع الطوب بمهارة من أعلى الجدار ، فكرت الاندع هذا الصبي يرحل ، اذ سوف يفقد قائدا ممتازا للجماعة . ترى ما الذي سيقوله (بلا كلام فارغ) لو حاولت ان أعيد احد المرضى الى الجراج كموظف ؟

ثمة نشاط هائل في موقع الهدم . حيث يتم تحميل الطوب ، ورصه ، وتنظيفه ، وخلع المسامير من العروق الخشبية ، وتكوين الألواح . وعلى مقربة ، كان أولد ويندي قد انتهى من اعداد موقع للمظلة الخشبية ، كنا بصدد بناء مظلة من المواد التي استخلصناها قبل ان تضع احدي اللجان يدها عليها وكنا نأمل الا يجسر احد على الامر بهدمها ، متى انتهينا منها ، بسقفها القرميدي وأرضيتها المبلطة . وحتى يحين ذلك الوقت فانها تزودنا بفرصة ممتازة للعمل . كانت مجموعة روزي تعمل هنا بطريقة اكثر حيوية عنها في احواض الخضر . واخذنا طريقنا الى الورشة حيث كان مريضان بالاكثئاب يعملان في سعادة . كانوا على وشك تجميع المخرطة الخشبية . وقد جعل بول كنسكس من نفسه تلميذا لهما ، منذ عاد من اسبوع التشرد الذي قضاه في الخارج ، وكان يبدو ان عقله أخذ في الصفاء تدريجيا .

الفينا نظرة على المطبخ ايضا ، حيث كان اربعة او خمسة من المرضى يساعدون الطاهي وخادمتي المطبخ . كانت جيزيل مول أشدهن نشاطا . وكان في وسعها

منافسة جولي بانسك في القبح . كانت ضعيفة العقل ومصابة بالهوس تحت الحاد Hypomania . فكانت تغني في صوت عميق ، وترقص او تصيح بكلمات مضفومة في غضب (اذا استثرت ، تخرج عن طورها فورا ، فتصرخ وتسب ، ثم تثوب للهدوء سريعا ، لتعود وتخرج عن طورها من جديد) . كانت مهمتها تنظيف القدارة المتراكمة . وحين يأتي احد الضيوف الى الجرائح تنشق الارض فورا عن جيزيل مول لتستعرض نفسها . في شريطها الازرق الفاتح المثبت في شعرها ، وتقدم احتراماتها في لطافة دب ، وتبتسم ، كاشفة عن سنتها الوحيدة ، وتغني في نغمة (باص) أغنية كوشوت ونشيد الأمية . وتصفق بعد ذلك لنفسها ، وتشرع في الرقص ، وقد بدت راضية تماما . وحين كانت تخاف (وما اسهل إخافتها نظرا لجبنها وسهولة اقناعها) كانت تصرخ كالناعورة .

وكانت تعمل في المطبخ امرأة شابة ذات وجه حزين ، لا يسمع صوتها الا بالكاد . كانت هذه هي المريضة التي اشعر ازائها بأشد الرثاء في الجرائح . كان لديها اطفال ثلاثة ، أصيبت بالجنون عقب ميلاد الثالث . وكان ذلك منذ ثلاث سنوات . وقد أودعت في ليوبتيميزو أولا . حيث أثارت الوجبات غير المنتظمة في نفسها الاعتقاد بأن الطاقة الذرية تدمر جسدها ، فكانت تثور وتهذي من وقت الى آخر . كان من الصعوبة بمكان الاقتناع بأن هذه التي تقوم الان بالغسيل وطهي الغذاء بهذه الابتسامة الودية . قد سبق لها مهاجمة المرضى بحيث اضطرتهم الى تقييدها . لقد عولجت لمدة طويلة وتحسنت في ببطء . كانت امنيتها الوحيدة أن تعود الى منزلها واطفالها . وكان قد سبق وضعها تحت المراقبة ثلاثة مرات ، لا مع اطفالها وانما تحت اشراف والديها المسنين نظرا لان زوجها عندئذ قد اتخذ لنفسه امرأة أخرى يعيش معها . وقام والدها بردها ثانية عقب ايام قلائل في حالة مشوشة فقد عادت اليها ثورتها فحطمت ما حولها ، بحيث لم يكن في الامكان الاحتفاظ بها في المنزل . ما هي المشكلة ؟ لقد ظلت راغبة في الذهاب الى المنزل لزوجها ، واولادها ...

وقضت بيننا شهورا قلائل وهي حزينة ، صامته .
«كيف حالك يا آن» .

«على ما يرام .. ولكنني افضل العودة للمنزل ..»
وكنتيجة للعلاج الطويل بالصدمات الكهربائية ، سقطت غشاوة على ذاكرتها . فلم تعد تتذكر الا بالكاد أن لها ثلاثة أبناء في مكان ما من العالم . ولم تدرك ابدا لماذا لا تستطيع ان تكون معهم . كانت تؤدي باجتهاد اي نوع من الاعمال دون أن تنبس بكلمة . وكان الخوف يملأ نفسها . يا إلهي . ما الذي تخافه الان ؟ لقد حاولنا الاقتراب منها - ولم يكن ذلك مجديا ، لم يكن في قلبها متسع لاي شيء ، سوى اطفالها الثلاثة . كانت تبدي امتنانها لاي كلمة طيبة . وحلت وداعة جادة محل عبوسها المنبعث عن الخوف في الاسابيع الاولى . ربما لم تعد تخافنا ، ولكن ليس في وسعها أن تفتح لنا مغاليق صدرها .

وكتبت لزوجها . فأعيد الخطاب برجوع البريد . كتبت لأختها . فردت تبدي اغتباطها لتحسن آن ، وان كان من غير المستحب أن تعود الآن نظرا لان المرأة الاخرى قد رزقت لفورها بمولود ... وأعطتني عنوان الزوج الجديد . كتبت اليه فلم يرد علينا .

ما الذي أصنعه بأن ؟ كيف يمكنني مواساتها وتشجيعها ؟ لقد شفيت تماما من فصامها ، وان بقيت هيابة وجللة ذات ذاكرة ضبابية . هل يتعين أن تظل نزيلة المستشفى الى الابد ، مبعدة عن أطفالها لمجرد أن زوجها يعيش الآن مع امرأة أخرى ؟

كانت مسر ليزيتي تتولى الاشراف على النظافة المنزلية في المبنى الرئيسي . فكانت ايرين بوتل تمسح الارض في صمت ، بينما تدندن ماري دايلدر بصوت جميل حقا وهي تقوم بالتنظيف ، وكانت العمة ايرما العجوز تغسل النوافذ ، وهي تتعلق بالقضبان ، محدثة الى نفسها بلا انقطاع . ان الجرانج مدين لإيرما المحبة للسلام التي تبلغ الثالثة والسبعين من عمرها . اذ كانت تعكف دائما على النوافذ تلمعها في شغف . اقول في شغف متعمدا ، لانها تعبر بالضبط عن حمى تنظيف النوافذ التي تجتاح شخصية العمة ايرما بكاملها . لم يكن حديثها مع نفسها هلاوسا ، فلم تكن تناقش شخصا متخيلا ، ولكنها كانت ببساطة تحب أن تفكر بصوت عال - من يجب أن يمنعها ؟ كانت تستثير ذكريات قديمة ، وتدير محاورات طويلة ، وتشاجر او تتملق ، وتحاضر ، وتحزن ، وتحكي ، وتداهن ، وتعتذر او تدعي ، ودائما بصوت عال . لم يكن ذلك يحمل اية سمات مرضية ، ولكنه كان خارجا عن المألوف . ولقد فسرت العمة ايرما ذلك بنفسها .

«حدث في مستشفى المقاطعة أن رأيت الطبيب المساعد نازلا للسلام بمفرده، على الاقل كان يظن انه بمفرده ... كان يتكلم بصوت عال ومستخدم يديه . حسنا . اذا كان الطبيب المساعد يصنع ذلك ، فلماذا لا يصنعه المريض ايضا ؟» من لم يتكلم مع نفسه قط بصوت مرتفع فليلقها بحجر .

الفارق الوحيد ان العمة ايرما كانت قد تخلصت تماما من كل ضوابطها الاجتماعية ، فكان في وسعها الحديث الى نفسها حتى حين لا تكون بمفردها . كانت قد عاشت في المستشفيات العقلية منذ شبابها ، وشخصت حالتها باعتبارها ضعيفة العقل ، ولكن ، اذا شئنا الصراحة ، كان الكثير من النسوة اللواتي في الثالثة والسبعين من عمرهن يحسدنها على ذكائها . كانت تتحدث المجرية والالمانية ، والسلوفاكية ولا تقرأ الجرائد اليومية بانتظام فحسب وانما الكتب الجيدة ايضا . لم يحدث ابدا أن سمعت منها كلمة فارغة المعنى . وكانت من أسرة طيبة ، واعتقد ان سبب ايداعها يعود الى انها تنكبت سواء السبيل في شبابها (كانت أحيانا تتكلم عن السجن الذي قضت فيه زمنا كبيرا) فتخلصت أسرتها منها بإيداعها في مستشفى عقلي . لقد كانت العمة ايرما في غاية السعادة هنا ، تنظف النوافذ في شغف .

يمكن ان تلقى قلة من المرضى السائرين على غير هدي في الطابق الاول . توجد ثمة ايرما اخرى ، ايرما المتعددة الخطاب ، كانت عاكفة على ماكينة الخياطة وهي متمكرة المزاج مؤقتا ربما لنقص **الخطاب** . وكانت الزي ماجيار تقوم برفق الملابس في حجرتها ، وتقوم الزي ويني ببعض الاعمال المختلفة للسيدة الاولى ، بينما انتابت كاميلا بارتوس ، احدى الخياطات ، حالة من الاضطراب الشديد لدرجة تعوق اسناد اي عمل اليها ، فنزلت لتتسكع في الحديقة . اما استر لا بانز التي كانت مضطربة بدورها ، فقد انسحبت الى غرفتها واختفت تحت بطانيتها . وجلست هيلين انكز في الاستراحة الى الآلة الكاتبة في مواجهة رسومها الخاصة تكتب في سرعة البرق ولكنها ترمق شخصا ما عرضا بنظرة مخيفة شاحبة . وانشغلت ميزي التي تعمل بالتطريز في اشغال إيرتها ، وتتطلع اليّ احيانا في أمل ، تظن انني قد أدعوها للعب الضامة . وكان مارتين كيمست يسعى متكاسلا، لا يصنع شيئا ، لانه يدبر خطة للانتقام من رئيس الكيمايين . وكان امير الحزن يتناول افطاره . لقد عاد للاستيقاظ المتأخر والتلبث في مكانه الى ما لا نهاية في المساء - وكانت هذه علامة سيئة ، وكان يتنوي الذهاب الى القرية للحلاقة ، فكنا نعرف بالتالي انه سيتأخر عن الغداء ايضا .

كانت الساعة الحادية عشر حين عدت الى مكتبي . كنت اريد قضاء الوقت المتبقي قبل الغداء في كتابة ملاحظات جديدة في سجلات المرضى الطبية . كانت هذه مهمة الطبيب العجوز ، بيد انني اكتشفت انني سوف أفقد اثر تطور المرضى وسير علاجهم اذا لم ادون انا السجلات بنفسي . بهذه الطريقة فحسب كان في استطاعتي أن ابقى على الموضوع بأكمله في متناول يدي متحاشيا تفاؤل المرضى الاكثر هدوءا الذين لا يسترعون الملاحظة غالبا .

ولكنني لم أمض في عملي طويلا هذا اليوم . كنت قد انتهيت من وضع البطاقة الاولى على آلة الكتابة حين ظهر العم ريبورتر طالبا ان يعرف على وجه السرعة ما الذي تعنيه كلمة سفر الرؤية بالمجرية ، ومتى عاش لينتزر ، ما هو مرض ارتعاش الاطراف ، ما الذي اشتهر به ايرازموس روترداموس ، وهل أتكرم بفحص الابيضاض الذي يكسو شفثيه واقيس له ضغط الدم ؟ كان من المتوقع أن يظل مقبلا مدة طويلة لو لم تقطع حديثنا صرخة تتجمد لها الدماء .

حتى لا اغمط المرضى حثهم ، اعترف انني حين وصلت الى عنبر السيدات متقفيا الصوت الى حجرة استر لا بانز ، وجدت السيدة الاولى ، والأخت إمسا وروزي وهامستر قد سبقوني الى هناك . كانوا يعلمون جيدا كيف يهرعون الى هنا في ثانية واحدة من شتى أرجاء المكان . وكانوا يستحقون كل المديح لانهم منعوا انفسهم من القيام بأي عمل واكتفوا بالمراقبة بينما اخذت استر لا بانز تهذي . كنت فخورا بالمنهج الذي علمتهم اياه . ففي اي مكان آخر كانوا بالتأكيد يهاجمون «المجنون الهائج» بأن يطرحوها أرضا ويقيدونها او ما هو أسوأ من ذلك . كانت لا بانز تمر بنوبة هستيرية . وكان ذلك يبدو مستغربا . نظرا لانها لم تكن حالة

هستيرية وانما حالة فصامية . ورغم هذا فليس ثمة مجال للشك في انها تمر بنوبة هستيرية من النوع الشديد الخطورة . كانت استر تتمرغ على فراشها ، وتلقي بنفسها في الهواء ، ثم تسقط ثانية ، وترفع ساقيها عاليا ثم ترنس وهي مستمرة في الصراخ بأقصى طاقتها . ثم تطرح نفسها على الارض مستمرة في حركاتها ، متدحرجة تحت السرير لتعود ثانية ، لتندحرج عبر الحجرة كلها (دون أن تصطدم فيما يشبه المعجزة بأي شيء) وقد توترت كل عضلاتها . كانت عارية تقريبا ، فلقد انزلق قميصها حتى بلغ عنقها . وكانت تصرخ وقد فتحت فمها على اتساعه ، نصف باكية ، نصف ضاحكة ، لكن دون أن تذرف الدموع . بدأت تتعب اخيرا . وفي حركات سريعة تشبه زحف الثعبان ، عادت الى سريرها ، وانتفضت عدة انتفاضات اخرى ، ثم ارتمت منهكة . بدت عيناها مغلقتان ، لكنها كانت ترى وتسمع كل شيء . وحين علقت الأخت إما تعليقها الاقرب الى الغباء قائلا «حسنا ، اعتقد اننا رأينا كل شيء» . أجابت استر في هدوء وبصوت منخفض «لقد رأيتم كل شيء . يمكنكم اذن أن تذهبوا الان» .

وعملا بنصيحتنا نهضت ، وترنحت صوب الحمام ووقفت تحت الدوش البارد . كانت مثل هذه الاحداث تبدد سكون المؤسسة ، وان لم تبدد سلامها . كانت استر لا بانز من الحالات الصعبة . ما الذي يجعلها تمر بنوبة هستيرية بينما هي حالة فصامية ؟ صحيح انها كانت منذ اشهر معدودات نزيلة عنبر الحالات المضطربة في ليبوتميزو ، وكانت مقيدة معظم الوقت ، ولكنها لم تقم بإيذاء احد هنا قط . وبينما كنت اراقب هذيانها الهستيري بدأت اعتقد انها كانت «تهذي» على هذا النحو في ليبوتميزو ايضا ، وانها اصبحت عنيفة لانهم كانوا يحاولون منعها خلال النوبات التي تعترها .

وعلى الرغم من الهستيريا ، فقد كانت هذه حالة فصام تقليدية ، مصحوبة بالهلوس ، والخلط الكامل ، وهذات الاضطهاد ، ورفض العالم . كان العامل الرئيسي في حالتها أن كل تفكيرها المختلط يدور حول حياتها الجنسية . ولقد علمت من سجلها انها تزوجت مرتين - او هذا ما ذكرته على الأقل . وقد أعلن عن فقد الاول خلال الحرب ، ولكنه ظهر حين انجلي الموقف وأقض مضجعا بينما كانت تعيش مع زوجها الثاني . وكان هذاها ، الذي تدور حوله هلاوسها ، ان الزوجين يتداخلان بعضهما في بعض خلال الواقعة الجنسية . وحين جاءتنا استر ، كانت قد كفت عن الحديث في هذه الموضوعات كما عملت في مثابة . لقد كانت لطيفة جدا . واستمر ذلك الى حين . فبدأت بفتة تشكو من اضطرابات هضمية ، وهذه دائما العلامات السيئة ثم كفت عن العمل ، ورفضت ان تأكل ، طالبة اطعمة غير معتادة ، وتكورت في سريرها طيلة النهار . (لم يكن ثمة مرض في معدتها) . ثم هربت فجأة . وأحضرتها عربة الاسعاف ثانية من المدينسة المجاورة في اليوم التالي . كانت معنوياتها مرتفعة واعترفت للسيدة الاولى بسر هربها . كانت تحن للرجال ، ولم يكن هنا من يطارحها الغرام ، وقالت انها دبرت

ان تعثر على شخص في القرية المجاورة ، قضت معه يوما وليلة وارخت نفسها . كان ذلك صحيحا ، لا اعرف بالضبط . على كل حال ، لقد ظلت على ما يرام لمدة ايام قلائل ، ثم بدأ يداخلها الحزن ثانية . ولكنها سرعان ما اشرقت ، فلقد اغوت مريضا شديدا الوسامة - وهو فصامي مضطرب تماما - وظللنا عدة ايام نلمح سعادتهم سويا . وان توقعت ان المتاعب سوف تثور ، لأن الشاب كان غنيا . ويبدو أن استر قد اكتشفت ذلك ، فحدثت لها النوبة الهستيرية . وشرعت الان في المطالبة بصوت ضعيف ولكنه مليء بالعزم بأن نعيدها الى منزلها فورا لانها حامل . وكان ذلك حوازا جديدا ذا مضمون مزدوج : الرغبة الجنسية المرتبطة بالحنين الى الحرية .

ومن الطريف انه كان لدينا مريضتين اخريتين بالاضافة الى استر تسم تشخيصهما كحالتى فصام ، وكن يبدن اعراضا هستيرية . كانت الاولى هي الثرثرة المتوهمة المرض لوس تاكاش ، وكانت الاخرى هي ماري وايلدر التي أعيدت من مزرعة الدولة مصابة بالشلل الهستيري . وكانت شخصيتا هاتين المرأتين تدور كلية حول الجنس . ولم تكونا تشكوان الان من اي اعراض فصامية ، ولكن كان عليهما أن يظلا في المؤسسة بسبب الفباء العقلي والحاجة الى الوازع الاخلاقي فحسب . ومن ناحية أخرى فان الطاقة الجنسية للفصامين الخالص لم تكن زائدة عن الحد (بعض الشبان كانوا يمرون بهذه المرحلة الانتقالية ، وسرعان ما تنتهي) وانما يعانون بدلا من ذلك من الاكتئاب العميق والانغلاق على الذات . ان نوبة استر لا بانز الهستيرية والحالتين الاخريتين يؤكدان انه حين تتزايد الشحنات الجنسية لدى المريض الفصامي ، فتمة اثر للهستيريا .



اعلنت الساعة انتصاف النهار . انتهى العمل الصباحي ، وتجمع المرضى . كان الامر يستغرق نصف ساعة قبل أن يتجمع الحشد كله . لم يكن من السهل التدخل لايقاف العمل . كان هناك ثمة عمال حوازيون يصرون على الانتهاء من الكومة او ملء السلة غير عابئين بالجرس ، على حين ينشغل المرءون بمن تجمعوهم فيرسلون المرضى لفصل ايديهم اذا لم يكونوا قد فكروا في ذلك من قبل . كانت موائد صالة الطعام في الطابق الارضي مغطاة بالمفارش البيضاء والأطباق والملاعق والشوك والسكاكين . ما زال البعض يصرون على الامساك باللحم بأيديهم وابتلاعه بأكمله . وكان من دواعي سروري الا يحدث هذا فلقد كان يحق لي الفخر بأننا لم نكتف بالتخلي عن ذلك النظام اللعين حيث يوضع طعام المريض كله في طبق دفعة واحدة بل قدمنا للمرضى بقولهم الشوك والسكاكين ايضا . كانت قلة منهم لا تستخدم السكاكين المتاحة لانهم يفضلون استخدام مطاويهم الخاصة . لم تحدث اية اضطرابات نتيجة استخدام مرضانا العقلين للشوك والسكاكين

في تناول الطعام واحتفاظهم المطاوي ، ولا في حالة أولئك الذين يفضلون الحلاقة بأنفسهم ، ويحملون أيضا الامواس الشديدة الخطورة .

كان الطعام يصل الى صالة الطعام في اواني ضخمة . ويقوم المرضى بوضعه في الاطباق ، حيث يحمله اثنان من المرضى على الصواني . وغالبا ما يحدث بعض الشجار عادة ، أحدهم يشكو قلة نصيبه ، وآخر يرى ان الطعام رديء ، وقد يشرع واحد في الشجار مع جاره - لكن هذا لم يكن في الحقيقة مثار للدهشة اذا ما وضعنا في اعتبارنا تجمع تسعين شخصا . كنا نمر خلالها ، فيوزع الطبيب العجوز السجائر على الرجال ، بينما تقوم السيدة الاولى بنفس المهمة مع النساء ، كما يوزع على المرضى بالصرع علاج منتصف النهار من الاقراص . كان المرور وسط الموائد بمثابة نوع من الترويح بالنسبة لي . كنت اظاهر بأنني اؤكد ان كل شيء على ما يرام ، ولكنني في الحقيقة كنت أستمع ببساطة بهذا الاجتماع الاسري . كان محبي الثروة ينتهزون الفرصة ليعرضوا مشاكلهم ، او يطلعوني على انهم خزنوا البطاطس او انتهوا من حفر احدي الحفر ، او يقصون عن بعضهم الحكايات ، وكنت أرغب في سماعهم .

كنا نتوجه في الساعة الواحدة الى تناول غذائنا في قاعة الطعام المخصصة لهيئة المستشفى المجاورة للمطبخ ، والتي تشتهر بخلوها من التدفئة ، بحيث كنا نكاد نتجمد من الصقيع في الشتاء . لحسن الحظ كنا الان في الصيف ، وقد وعدونا بموقد في الشتاء الثالث .

كنت لا أعرف ما يدور فيما بين الواحدة والثالثة الا من الآخرين لانني كنت استغرق في غفوة خلال تلك الساعات . ففي الحرية التي اتيحت لي في القفص الذهبي ، تمكنت في النهاية من التغلب على ما يعترني كياني من خمول يومي اثر تناول الغذاء . لله در هذا القفص الذهبي الذي سمح لي بهذه الاغفاءة البناءة . هل كنت سأجد هذا الوقت في اي مكان آخر لانفاق هاتين الساعتين الفارغتين على هذا النحو الرائع الم اكن مضطرا حتى في ليبتوميزو الى التظاهر بالعمل واثئاب في غياب خلال الساعات الضائعة التي أنفقتها منحنيا على اوراقني .

ومع هذا فقد كنت أعرف ما يدور في (الجراج) . ففي ايام الاسبوع العادية كان بعض المرضى يستلقون في المرات او على أسرتهم وبعضهم يستحم في بحيرة السباحة ، وكان الآخرون يذهبون للنزهة او يثرثرون او يقفون متخشبين وقفة انتباه كل وفق ميوله . كان البعض يعود من فوره للعمل عقب الغذاء . ويقرع الجرس في الساعة الثانية ، فيشرع الآخرون في التجمع في جماعاتهم ويتوجهون للعمل .

وكان مساء السبت عطلة . فكان المرضى يفلقون الباب اثناء الغذاء . هل كان هذا يعني انه في بيت الحرية ينقضي مساء السبت خلف الابواب المغلقة ؟ ابدا . انهم فقط يعدون لحمًا السبت ، فهم يفلقون على المرضى حتى لا يختفون في الوقت المناسب . في الساعة الثانية كان يحدث هرج ومرج ، فترسل

التعليمات الى اولد ويندي لكي يفتح تيار الماء الساخن ! الصنبور قد تلف ! المياه لا تنساب ! ولكن كل شيء يسير على ما يرام في النهاية ، فينساب الماء ، ويتزاحم المرضى في الحمام . ولا أجد داعيا لكي أذكر أن من قاموا بإعداد القصر لم يضعوا في اعتبارهم ما الذي يعنيه استحمام تسعين شخصا في تسعين دقيقة . كانت الصنابير الاربعة والأدشاش الاربعة قليلة جدا . فكان ثمة تزاحم ، وصياح ، وتدافع . كان البعض يحبّون الاستزادة من التمتع بالماء الساخن ، بينما كان البعض الآخر يدفعون تحت الصنبور قسرا .

كانت الساعة تتجاوز الثالثة حين تنتهي السيدة الاولى من الحمام وإلباس كل شخص ملابس نظيفة (كان هذا بمثابة قلق اضافي أسبوعيا . هل ستكون ثمة ملابس نظيفة كافية ؟ فان مخزوننا من الملابس يقل ، وبدلا من امدادات جديدة لم نكن نحصل الا على الوعود) . جعلت انتظر السيدة الاولى بذهن صاف وبن مطحون لتوه . ان اروع لحظات اليوم كانت تقترب - اول فنجان من القهوة . ان جميع مقاهي بودابست لا تساوي شيئا امام القهوة التي تعدها السيدة الاولى في القفص الذهبي .



لم تكن رعاية المرضى تنتهي مع جرس المساء . بل على العكس ، ان الجزء الرئيسي على وشك الابتداء . ففي الصيف لم يكونوا يأوون الى أسرهم قبل التاسعة او العاشرة مساء ، وفي امسيات السبت الطويلة . وكذلك ايام الاحاد الاكثر طولا كان على المرء ان يبتكر البرامج لتسلية المرضى . لم يكن ذلك يلقي الا القليل من الاهتمام ، ولكنني أدركت الان ان مهنة تزجية الفراغ لا تقل أهمية عن العمل في العلاج البيئي .

بعد ان ارتشفت القطرة الاخيرة من قهوتي وذهبت الى العنبر ، وجدت ريبورتر في انتظاري مترقبا ، كان أقرب الى الاستياء لانه منذ نصف دقيقة خلت تصيدني باتيولا هذا الابله حارس المرمى السابق وجعلني انصت لتقريره الروتيني عن أن كل شخص موجود ، ولم يهرب أحد ، والامور تسير على وتيرتها حول بركة السباحة .

قال ريبورتر متذمرا «طبعاً ، حين أرغب في رؤيتك ، تخبرني انه لا وقت لديك . وانك مشغول . عندك اجتماع . وهكذا ، ولكن حين يفتح باتيولا او مفغل آخر بابك ، تدعوه للدخول ، وتلقي بكل شيء جانبا وتستمع لفخامته ..» «هذا ما انا هنا من أجله ، الا تعتقد ذلك ؟»

كان يريد أن يعرف على الفور أي الأعراض تنشأ عن التسمم بالهندباء *henban* ما هو عدد أنواع السوطيات *Alagellants* الموجودة في المجر ، من هو القديس كيريانوس ، في أي الدول تقع شيلزويج هولشتين ، وما اسم عشيقة السير

تأكيد . كانت لديه عدة اسئلة أخرى لم استطع الاجابة عليها ، فعاد الى آلتها
الكاتبة ، محملا بثمانية مجلدات .

ونظرا للحرارة الشديدة كان المرضى يقضون معظم وقت فراغهم حول بركة
السباحة . كان طولها سبعة وعشرون قدما وعرضها عشرة أقدام . وكان السكان
السابقون للمكان قد تركوها لنا في حالة خربة ، وظللنا مدة عام نستجدي
الأسمنت والملاط وسائر المواد الاخرى ، نظرا لان الخبراء قرروا انه لا يمكن
اصلاحها بدون ذلك . وحصلنا على الوعود بدلا من الاسمنت . وأخيرا خطرت لي
فكرة خلقت عهدا جديدا . لقد أمرت بملء البركة بالماء للتجربة . وبعد بعض
المقاومة من جانب الخبراء ، تم ذلك ، فتبين ان مستوى الماء ينخفض بمقدار
بوصة واحدة يوميا ، ولكن عن طريق اعادة ملئها بانتظام ، امكنا استخدامها دون
حاجة للملاط او الاسمنت . وشجع ذلك اولد ويندي . ففتش على بعض المواد
المهملة في مخازنه ورمم بها الشقوق الواضحة للعيان . فقلت الان كمية الماء
المتسرب . واكتشفنا في مخزن السيدة الاولى كنزا عظيما : ثلاثون ياردة من
القماش لم تدوّن في اذون الاضافة المخزنية ، فصنع منها الخياطات اردية
للسباحة ، وهكذا بدأت السباحة . او «العلاج بالماء» اذا شئت المصطلح العلمي .
تستطيع ان ترى أجسادا سمراء ترش وتشترك في مباريات السباحة ، وتغطس
في الماء - وبعبارة أخرى يمضون الوقت كما لو انهم ليسوا فصامين ، ومصابين
بالصرع ، وضعاف العقول .

لم يكن في وسع بعضهم بالطبع الاقتراب من الماء اطلاقا . وبخاصة الفلاحون
القدماء . . ولكن الفلاحين القدماء لا يقربون بحيرة بالاطون حتى ولو عاشوا
بالقرب من شاطئها طيلة حياتهم ، هذا لا علاقة له بالجنون . ومن ناحية أخرى،
كان هناك فصاميون شبان لا يمكن انتزاعهم من جمودهم الكتاتوني (التخشبي)
Catatonic ، ومع هذا كانوا يبدون سعداء في الماء كما لو كانت الحياة قد
بعثت فيهم .

وبينما كنت اتصفح سجلاتي عن المتحمسين وأضحك على منظر ليزلي رجل
الجبال الذي يزن ستة عشر ستونا وهم يدفعونه الى الماء ، دخل عليّ زائر
خارجي هو والد بول كنسكي . كان الزوار يترددون بكثرة وخاصة في نهاية
الاسبوع في فصل الصيف . كانوا يصلون عادة بعد ظهر السبت ويمضون المساء
ويوم الاحد وتعودنا على ذلك فوضعنا عنبر العزل تحت تصرف الزوار ، ولحسن
الحظ اننا لم نكن نستعمل عنبر العزل للعزل .

وكنت اغتبط بالزوار عادة اذ كان في وسعي ان اعرف من استجاباتهم مبلغ
تحسن المرضى ، واستمتع بالانطباع الذي تتركه مؤسستنا في نفوس هؤلاء الناس
الأسوياء «ذوي الخبرة» . كان أقارب المرضى قد خبروا عددا من المستشفيات
العقلية وصعقوا للفارق . كانوا يتطلعون حولهم في ذهول : هل هذه الحرية
حقيقية ؟ وهذا المناخ ؟ كانوا ببساطة لا يصدقون أعينهم . ولقد احتفظت ببعض

خطابات «التقدير» من آباء او زوجات وانتوي أن أحملها معي الى أبواب السماء لادلل أمام القديس بطرس انني ساعدت بعض الناس .

كنت مسرورا بخاصة لرؤية والد كنسكي ، لان ذلك قد هيا لي الفرصة لتعديل موقف ائقل علينا جميعا . كان والد كنسكي قد جاء منذ أسبوعين مضيا بصحبة زوجته وأخت زوجته ، فأخبرتهما بالآخبار المحزنة عن هرب ابنهم في اليوم السابق ، واننا ليست لدينا اية فكرة عن مكانه . لم أمان موقفا أكثر إحراجا من قبل . ثلاثة أقارب قلقين قطعوا ١٥٠ ميلا ، وتكلفوا نقودا وتجشموا كل المشاق ، لرؤية ابنهم ، فلا يجدون له اثرا . والادهى من ذلك ان بول كنسكي لم يهرب بمفرده وانما بصحبة شارلي سبليمنت الذي حضرت أمه أيضا لزيارته ، فهرب الصبي الفصامي المنطوي من بين أيديهما . اربعة آباء بدون اولادهم أكثر مما أحتمل . وانشفل كل مستخدمينا بهذا ، كان المرضون يفتشون في المدينة سواء كان ذلك في وقت العمل الرسمي ام لا ، وكان تليفوننا يقرع باستمرار - ولكن عبثا . لقد وصفت من قبل كيف أعادت الشرطة الغلامين بعد أسبوع . ولكنني أتكلم الآن عن الآباء الحزائي . وربما يعتقد المرء انهم سوف يغادروننا بعد هذا العناء بأسوأ انطباع ممكن ، وقد صدفوا عن هذا النوع من المؤسسات ، ذات النظام الليبرالي الكامل الى الابد ولكن لا ، لقد لاحظ الآباء ، حتى من خلال دموعهم ، ما لم يلحظه مجلس المقاطعة والوزارة ، فطلبوا منا أن نعيد قبول الغلامين اذا تم العثور عليهما لان هذه البيئة هي أملهم الوحيد في تعديل أبنائهم .

ولقد تم تحقيق أمل والد كنسكي مسبقا . ان بول كنسكي الذي كان مضطربا تماما لا يسهل قياده ، غدا غلاما طيبا يعمل بجهد ولا يمكن ان تنقصى فيه اي اثر للمرض العقلي الا بالكاد . ولقد أبقيناه عدة اسابيع قليلة أخرى للتأكد ، ولكن الوالد رجع الى بيته في حالة من الارتياح والفهم الكاملين .



في الساعة الخامسة دق الناقوس ، هذه المرة للعشاء . وليس في مقدوري ان أكتب عن هذا بحماس ، فالعشاء غير مناسب بشكل عام . كنا نحاول أحيانا ان نضيف اليه من منتجات حديقة الخضروات التي يزرعها المرضى بأنفسهم ، متفاضين عن الميزانية التي توصي ببيع الفواكه والطماطم والفلفل .

وتوقف لويس لافتر عن سيره الرتيب وكلامه مع نفسه بصوت مرتفع في الممر وغمز لي سرا .

«حسنا» اتخذ السميت الذي اكتسبه من عمله الماضي بائعا في محل مقدما نفسه «حسنا ، ها أنذا» .

كان هذا يعني أن في وسعنا ان نبدا مباراتنا التي لا يمكن تحاشيها في الشطرنج . كان قد أعد القطع مسبقا . لم يكن لعبه جيدا ، وكان يستفرقه

الخيال أحيانا فيقول من بين أسنانه : « لا أستطيع الإمساك بهذه الفتاة العجربة القذرة .. لا أستطيع الإمساك بها ، حتى ولو كانت حياتي متوقفة على ذلك ... » . لكنه كان يكسب أحيانا ، رغم أنني لم أكن أستغرق في الخيال .

اثناء ذلك انتهى العشاء السريع . وانشغلت السيدة الاولى بالآلاف الاسئلة والمطالب . كان عليها أن توزع الصابون ومعجون الاسنان والادوية وهدايا يوم الاحد والسجائر ، وما لا تدريه الا السماء ، كما وزعت الوجبات السريعة من الطرود الخاصة وأصفت لكل الشكاوي ، والتهديدات ، والادعاءات ، وحتى الحماقات البيئة ، ولاطفت هذا ، ووبخت ذاك ، وطببت خاطر آخر ، وضحكت مع شخص ما ، وراقبت كل شيء ، وتواجدت في كل مكان في وقت واحد . وكتب ممرضو النهار ملاحظاتهم في سجل المتابعة ، لقد انتهت نوبتهم ، وسوف تبدأ نوبتية بعد الظهر في العمل حتى العاشرة ، ثم تحل النوبتية الليلية . (كان وجود ممرض واحد للعمل بعد الظهر من أسوأ الأمور . كنا في حاجة الى اثنين او ثلاثة ليشغلوا المرضى ، ولكن كان ينقصنا العاملين . فكان على المعالج المهني والطبيب ورئيس الممرضين أن يتواجدوا حتى لا يتركز عبء شغل المرضى على شخص واحد) . بدأت المقاعد تنتقل الى القاعة في الطابق الاول ، وحين أعلن عن موت الملك في الدور الثالث من مباراتي مع لويس ، كانت الجمعية الادبية قد بدأت اجتماعها .



كانت مشاكل ايجاد العلاج بالعمل للمرضى المثقفين الذين يتزايدون باستمرار بمشاة منفص مستمر ، لم يكن لدينا المهنة او التسلية اللائقة ، كانت لدينا مكتبة صغيرة يمكن امدادها بكتبي الخاصة اذا دعا الامر ، ورقة شطرنج وراديو . لكن كان كل هذا اقل مما ينبغي بكثير .

وذاث يوم اقترحت على المعالج المهني أن ننظم نوعا من الامسية الادبية . « يمكن للمرضى أن يتسلوا ويعلموا بعضهم بعضا - ما رأيك ؟ »

لم يجبني بشيء ولكنه دبر الامر . وناصر المرضى المثقفون الفكرة بحماس ، ووافقوا على الفور أن يلتقوا ثلاث مرات اسبوعيا واستقر رأيهم بالاجماع على تاريخ المجر كأول موضوع لهم . ووضعوا ايديهم على مكتبي ، فاستعاروا المراجع وحددوا موعد اجتماعهم الاول .

ومنذ ذلك الحين تنعقد الامسيات الادبية في (الجراج) في الساعة السادسة من مساء ايام الثلاثاء والخميس والسبت . (كانت بقية الايام مشغولة ايضا ، ثم كانت هيئة التمريض تتلقى تدريبيها . وفي يوم الاثنين كان درس الطب العقلي ، ويوم الاربعاء تسميع يتولاه الطبيب العجوز ، ويوم الجمعة مناقشة تاريخ الحالات بإشراف المعالج المهني) . وفاقت النتائج توقعاتنا . لقد تصورنا أن المثقفين سوف

ينفرون من الحضور ، وأن الحالات الأكثر صعوبة ينبغي أن تدفع الى الحضور دفعا . ولقد قدرنا اثني عشر مشتركا ، فحضر ما بين ثلاثين وأربعين . وكانت هذه هي المرة الاولى التي تزدهم فيها غرفتي على هذا النحو . ولذلك قررنا بعد ذلك أن نلتقي في القاعة او في الهواء الطلق . وتضمن مستمعونا فصاميون مكتئبون ، وضعاف عقول مبتهجون ، وصرعيون كسالى . ان هذا يؤكد ان الحاجات الروحية ليست قصرا على المثقفين ، ذلك ان بعض المشتركين الاشد اقبالا على الحلقة الادبية لم يفهموا شيئا مما كان يقال ولكنهم استمتعوا باللعبة . ويجب أن أعترف ان هؤلاء الذين لم يفهموا أظهروا اهتماما اكبر من الذين فهموا . ان امر الحزن ، والصحفي العارف بكل شيء ، والرسام . والزري ويني لم يحضروا الا بعد ان دعوناهم مرارا ، ولم يحضر بعض المثقفين الآخرين على الإطلاق . وانما حضر بدلا عنهم غلام الاسطبل الذي لم يتلق تعليما مدرسيا تقريبا ، وجوناف الذي لم يتلق تعليما مدرسيا ، وثمانية من ضعاف العقول الذين لم يفهموا بالتأكيد كلمة واحدة من المحاضرات ، وثمانية من حالات الفصام المتقدمة الذين كان في مقدورهم أن يفهموا كل شيء لو انتبهوا ، ولا نملك وسيلة للتأكد من انهم فعلوا ذلك . ولكنهم كانوا يحضرون بانتظام ومثابرة .

وبدأت الحلقة الادبية بما قبل التاريخ في المجر . وتبادل الحديث محاضر من الخارج وآخر من «الداخل» على التوالي . وحاولنا فيما بعد ان نتغلب على الملالة . فظل التاريخ هو الخط الاساسي ، ولكننا اقتحمنا ميادين أخرى متجنبين الموضوعات الشديدة العمق والموضوعات الشديدة الاسفاف . وتزايد عدد المستمعين . وتخلف بعض المثقفين ، ولكن حل محلهم ضعاف العقول المعتوهين . ولم يشط ذلك من همة احد . ويجب ان أعترف ان المحاضرات كانت على جانب من الجفاف والبداية (من الصعوبة ان نتوقع ان يقدم مرضى الجرانج أبحاثا تاريخية مستقلة) ولكنها كانت قصيرة وتعقبها مناقشة حية . كانت المحاضرات تعتبر امرا طيبا من وجهة النظر العلاجية بالنسبة للمحاضر (فهو يخرج من تبلده وتجبره على التفكير بشكل منهجي ، وعلى الاعداد ومواجهته الجمهور) . وكانت المناقشة التي تعقب ذلك مفيدة للآخرين .

ولقد نتساءل كيف امكن أن تتلام الحلقة الادبية وأذواق هذه الجماعة المتباينة . كيف امكن اعداد برنامج يرضي كلا المعتوهين وطلبة الجامعة ؟ الإجابة ببساطة هي أن يحوز الموضوع رضا أشد المتحذلقين ، وأن تكون طريقة العرض بالغة البساطة .

مخطيء من يظن أن البلاء ليس في مقدورهم الاهتمام بهاملت ، وجياردونو او عصر النهضة . ومخطيء ايضا من يظن ان الحديث البسيط المفهوم في هذه الموضوعات امر غير ممكن . لقد ناقشت حلقتنا الثقافية التاريخ المجري من مرحلة ما قبل التاريخ حتى فرتري راكوزي Rako وكذلك تاريخ العالم في هذه الحقبة واهم الحركات الروحية المرتبطة بالعصر ، وحركة الإصلاح بالاضافة الى

جاليليو . لم نفعل شيئا جوهريا او شخصا مهما وقرأنا لشكسبير ، وسيرفانتس ،
ويانوش اراني Jamos Arany ودانتي - وأنني اؤكد ان كلا من المرضى
الاغبياء والاذكياء استمتعوا بذلك ايما استمتاع . فكرة مضللة تلك التي تزعم ان
الثقافة لا تهضمها الا الصفوة الممتازة . وانما على المرء أن يتعلم كيف يقوم
بتوصيلها ، بحيث يتقبلها اي فرد .

كانت هذه هي خبرتنا في الجرانج .

كان المحاضرون فصاميون في غالبيتهم ، بما في ذلك الحالات الخطيرة مثل
جون (يحكي أن) الذي لم يشاهد احد عضلات وجهه تتحرك قط . ورغم هذا فقد
اعد محاضرة عن لا يوش العظيم Lajoo the great بمفرده ، وقدمها دون
أن تختلج عضلة من وجهه . وكان القيصر بطرس العاشر قد بدا في التحسن حين
قرا الموضوع الذي اعدده عن الملك ماثياس Mathias وكان قد جمع المادة بنفسه
ايضا . ولم يلتفت الى احد وقرا في خشونة ولكن في ذكاء . أما محاضرة بيتر
مارتاير المصاب بالصرع الغريب الاطوار فقد تم تعديلها قبل القاها ، بينما ارتجل
القاظ في البئر المريض بالهستيريا محاضرتة . كما قدم لويز المتعدد الحرف
محاضرة طريفة عن جيور دانو برونو . أما اقل المحاضرات شأنا فقد قدمها مارتين
كيمست الذي تحدث بفطوسة وسطحية عن الملك الشمس Roi Soleil
اذ كنت لاحظ مع كل كلمة انه يحترق مستمعيه - وكان من المستحيل بالطبع تقديم
محاضرة جيدة بمثل هذا التعصب ولقد فهم الجميع ان حسن اختيار الموضوع ،
وإثارة المستمع لا يتأتى الا بالاعداد .

في ذلك السبت الذي أصفه لكم ، كان المتحدث هو النجار السوداوي ،
فتحدث عن العصر الذهبي في ترانسلفانيا والاحتلال التركي ، وبدون اكتئاب .
جلست مواجهها المستمعين ارقبهم . لا يمكن الزعم بأنهم كانوا منتبهين تماما .
كانت عقولهم غائبة ولكنهم منظمين . وقاطعت استرلاباتر المحاضر مرة وذلك بأن
تمشت عبر المنصة وصرخت في هستيرية . ولم يكن عملها هذا يثير انتباها خاصا .
وكان ايوجين السريع كالبرق الذي أصيب بالعنة نتيجة للالتهاب السحائي يقاطع
في كل مرة يسمع فيها لفظا اجنبيا «ما معنى سيطرة» «ما معنى هيومترم» فكان
الآخرون يسكتونه ، على الرغم من أن أسئلته كانت معقولة . بينما كان ليزلي رجل
الجبال ، بوزنه الضخم ، يغط في النوم . وظل بول بروان يهز رأسه . وجلس
امير الحزن وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة تائهة . وكانت ديني وجودي
ديوك ، وهما حالتني هيستريا ، تتشاحنان كتلميذتين شقيتين . أما ميزي التي
تعمل بالتطريز فقد تابعت المحاضرة في انتباه كامل . ووضعت ايرما المحبة للسلام
يدها على اذنها حتى لا تفوتها كلمة واحدة . وبدأت ويلي المنتظرة كأنها تستمع في اعتناء ،
ولكنها كانت تفشل من وقت لآخر في الاحتفاظ بعينيها مفتوحتين وظل ستيف
ستابلمان ينتظر حدوث شيء اكثر بهجة . وبدأ مارتين كيمست في صورة مفتش
المدرسة الذي يترقب وقوع المتحدث في هفوة . وكان في العش الذي يعلو رأسه

اربعة عصافير صغيرة تستمع الى المحاضرة ، كانت اهمهم تحلق كل دقيقة ، وتدور فوقنا ، فتفتح الطيور الصغيرة افواهها ، وتلقى كل واحدة نصيها ، ثم ترحل الام . لقد غدت عصافيرنا كبيرة جدا على العش ، وسرعان ما سوف يطفرون بعيدا . وكنا نرقب في عطف ما اذا كانت الصغار سوف تطير في الوقت المناسب . كان الصحفي هو اول المعقبين على المحاضرة . وكان في هذا مدعاة للسرور دائما لانه كان يتكلم بطريقة مشوقة . كان مكتظا بالمعلومات الحقيقية والمزيفة وكان يلقيها بطريقة تتسم بالحيوية . ولم يكن المستمعون يابهون لمبلغ دقة المعلومات ، ولكنهم كانوا يتقبلون اسلوب الصحفي . وفي الحديث عن الاحتلال التركي دارت مناقشتهم حول العادات التركية القديمة والحديثة ، وتبين ان هناك ثمة اثنين من اعضاء الجماعة زارا تركيا . الصحفي والمحاضر شخصيا ، النجار السوداوي . لذلك لم يكن غريبا ان يتم تبادل الملاحظات الهامة ، مبتدئين من الكلاب الكثيرة التي توجد في شوارع استنبول ، مارين بأسرار الحريم ، حتى طريقة صنع القهوة التركية وكيفية استخراج زيت الورد .



انصرف اغلب المرضى . حل موعد النشاط الحر . فتشكلت مجموعات صغيرة . فهنا لعب الورق ، وكرة القدم هناك . أخرجت ليلى المنتظرة مفتاح دولاب المكتبة من حزامها وأعادت الكتب . واستكان كل الى زميله في ركن القاعة ، او تمشيا في الحديقة وقد تشابك الذراع في الذراع ، وتولت باتيولا امر الكرة الطائرة ، على حين اخذ الدكتور العجوز يلعب الشطرنج مع كوكسور في . وحول مائدة البينج - بونج كانوا يحاولون اللعب الزوجي . لويس لافتر ، أشد الخصوم عنادا ، الذي ينسى حتى تخيلاته أحيانا في حمى اللعب ، ومعه زميله دنيس القافز في البئر ، وكان احد خصميهما هو اليكس بول الذي اختبأ متخسبا منذ أسابيع قلائل خلف الباب في وضع كتاتوني ، والذي ظل ستة أشهر كاملة مخفيا في مهارة انه من ابطال اللعبة . ولقد بدأ يتحسن منذ أعلن بفته انه سيلعب مباراة ... واشتركت أنا كرابعهم ، على الرغم من وجود آخرين كانوا يريدون ان يلعبوا ، مثل مارتين كيمست وجوتاف ، بيد انهم كانوا لاعبين ضعاف ، كما ان تنس الطاولة يصبح بصورة ما اكثر حيوية اذا ما اشترك الطبيب ايضا معهم . وتجمّع المتفرجون أساسا من حولي ، وان كان ذلك بلا جدوى . كانت كرات لويس لافتر لا يمكن ان ترد . بينما كنت أمسح عرقى والهث بعد كل هذا المجهود ، قال بول كنسكي انه لم ير مباراة مثيرة كهذه حتى في مباريات البطولة . لم يعن هذا اننا لعبنا كالمحترفين ، وانما حدث ذلك ببساطة نتيجة للآثار ، كان الفصاميون الخاملون وضعاف العقول يقابلون الكرات الموفقة والقفزات الطائشة بعاصفة من الضحك .

لم يكن الجمهور يتزاحم على المكتبة بمعنى الكلمة ، ولكن لم يبق كتاب دون قراءة . ولقد وسعت المكتبة عن طريق اخذ بعض المال من ميزانية الصور ، ولكن الشيء الاكثر أهمية ، انني شرعت انا نفسي وكذلك معارفي في تخليص مكتباتنا من الكتب التي لم نعد في حاجة اليها وإهدائها للمرضى . ولما كان القراء يتراوحوون بين البلهاء وطلبة الجامعة والاطباء ، فقد كنا نقبل اي نوع من الكتب شاكرين . الا انه بقيت لدينا بعد طريقة أخرى مأكرة للحصول على الكتب . كنا ننجح من وقت لآخر في بيع بعض منتوجات ورشنا دون علم مكتب التوريدات (كمقايض البلط والسلال ... الخ) فكنا نبتاع بالمال الذي نتحصل عليه سرا الكتب وكرات البينج - بونج واحتياجات الورش وضبطنا ذات مرة . لم يجد صاحب الحانوت احدا يعرض عليه مقايض البلط الا وكيل المستشفى . ولم يكن هذا في حد ذاته مهما لو لم يصف في رعوته : « انها صناعة ممتازة ، قام بها المجانين فسي الجرائح .. » . واكتشف الوكيل الموضوع ، فخصم المبلغ من دخلنا ، فليففر له الله .

لم يتفرق المرضى جميعا هذا المساء عقب الحلقة الادبية ، فسوف تجري بروفة بالملابس الكاملة . ذلك ان جماعة الجرائج توشك ان تقدم غدا مسرحية خرافية من فصلين ، بعنوان «الاميرة ويندي» عن قصة من تأليف اليك بنيداك . كان المعالج المهني هو المخرج والملقن والمدرّب في نفس الوقت . لم تكن مهمة سهلة تدريب المرضى على ادوارهم ، نظرا لان بعض الممثلين كانوا من الفصامين الجامدين الذين يقاومون الكلام ، وبعضهم من ضعاف العقول ، ولم يكن في وسع البعض مجرد القراءة . كيف تمكن من تحفيظ الاميين ادوارهم ، ذلك سره الخاص ، وهو معالج مهني في النهاية ، لا تعجزه مثل هذه المهمة .

كان عرضا بدائيا بمناظر شكسبيرية ، ومعرفة ضئيلة بالادوار ، ورغم هذا فقد قضى الممثلون والمتفرجون وقتا طيبا .

وانتهى العرض في الساعة الثامنة . على حين شرعت فرقة المرح بقيادة بيتر مارتير في الفناء ، ناشزة عن اللحن ولكن في اصرار . وانضم ليزلي رجل الجبال للمغنيين ، كان احد اعمدة فرقة المرح بالمعنى الحقيقي للكلمة . وشاركت الزبي لسبر في الفناء بدافع الحب فقط ، لم تكن صاحبة صوت ولكنها كانت متيمة بلا أمل في حب بيتر الذي لم يعرها التفاتا على الاطلاق . وكنا قد اعتدنا فيما سبق ان نشرع في الرقص في هذا الموعد في القاعة بالطابق الارضي ، ولكن «لسوء الحظ» تحسنت حالة العم زيتر جدا لدرجة انه عاد الى منزله ، فلم تعد لدينا الموسيقى الان ، خاصة وأن مرضانا لا يبدو انهم يحبون الموسيقى المسجلة .

وبدأت مباراة في لعب الورق محورها النجار السوداوي ، فكسبوا مسن بعضهم بعضا نقودا متخيلة في لعبة شعبية لم تكن معروفة لي . ولعب جوتاف ايضا ، ثم أمسك بالكنسة فيما بعد وجعل يقفز بها كما يفعل المهرج . وساد الضحك . كانت تكفي بضعة تعبيرات قليلة بالوجه او بعض الحركات المضحكة ،

حتى يشرح المرضى في الضحك .

كانت الساعة قد جاوزت الثامنة حين انصرفت والسيدة الاولى . لم يكن الانصراف سهلا . اذ كانوا يلحون بأسئلتهم على السيدة الاولى ، ويطالبونني بمباراة اخرى في تنس الطاولة او الشطرنج ، ولكن حالما اضع قبعتي البنية فوق رأسي ، كانوا يتحققون من انني اعتزمت الانصراف حقا ، عندئذ يبدؤون في توديعنا .

حان وقت الانصراف . ولكن دعوني أولا اقص عليكم قصة القبة البنية . حدث ان حل بالمدينة سيرك ، سيرك حقيقي بسحرته ، ومهرجيه وحيواناته . فظللنا نساومهم حتى وافقوا على أن يرسلوا الينا عربة محملة من العابهم . وأقيم العرض في الهواء الطلق ، فدقت وعزفت فرقة موسيقية مكونة من ثلاثة رجال في صخب ، وهرع المرضى بمقاعدهم وشاهدوا العرض في شغف . وقام اثنان من لاعبي الاكروبات بحفظ توازنهم فوق كرة فضية ثم جعلوا يصلصون بخمسة عشر طوقا معدنيا توزعت ما بين اذرعهم ورؤوسهم واقدامهم وقام احد اللاعبين وقد حجبت عيناه بتثبيت سلم عادي على الارض دون أن يسنده الى شيء وتسلقه حتى آخره . ولم يكتف بالتسلق ، وانما داب على التظاهر بأنه على وشك السقوط . فشرع بعض المرضى من ضعاف العقول في الصراخ رعبا ، ولكن السلم ظل ثابتا . وحمل شاب مفتول العضلات شريكته عاليا بينما وقف لاعب اكروبات ثالث فوق معدتها على يديه . اما اشد الاحداث إبهارا في هذا العرض فقد بدا حين طلب الساحر قبعتي ، فأخرج منها في سرعة البرق زوجا من الحمام الحي ، ثم كسر فيها بيضة ، اضاف اليها الدقيق واللبن وأوقد من تحتها النار ، ليصنع في النهاية كمية من حلوى البودنج . وضع المرضى بالضحك ، وزاد الطبيب المعجوز فكان يمسح الدموع من عينيه ، اما جيزيل مول فقد بدأت تقول «يا لطيبنا المسكين ! لقد ائلف هؤلاء الاوغاد قبعته الثمينة الا تمكنوهم من ذلك !» . ولكنني مكنتهم ، ولم تصب القبة بشيء ولكن هذه الواقعة العظيمة ظلت حديث المرضى عدة اسابيع .

بعد العشاء - اقصد عشاؤنا نحن ، فالمرضى قد تناولوا عشاءهم منذ وقت طويل ، وتناسوا كل شيء عنه ، ولن يضيرهم أن يكرروه - حل موعد المتعة الثانية لهذا اليوم - قهوة المساء . كانت ليلة السبت ، وقد نزل الطبيب المعجوز في الوقت المحدد ، وتصحبه زوجته لشرب القهوة ، كما حضر المعالج المهني ايضا . كانت هذه هي حياتنا الاجتماعية في الجرانج . وناقشت مايدور في العالم من أحداث مع الطبيب المعجوز ، بينما كانت المرأتان تتكلمان في شئون الطهي والأزياء ، على حين جهد المعالج المهني في تحويل دفة الحديث الى موضوعات اكثر امتاعا ، ونجح في ذلك أحيانا . هل يكفي هذا ؟ نعم كان فيه الكفاية . كنت أقرأ عليهم بصوت مرتفع فصلا من احد كتبي ، حين أفرغ من استكماله ، فكان المستمعون يعجبون به ، الامر الذي يشبع غروري كمؤلف . كان اصدقائي في بودابست

يصدمون ، اذا التقينا كل ستة شهور ويسألونني «هل يكفي هذا؟» . أجل ، بكل تأكيد . لست بحاجة الى ضجة وصخب بودابست . كنت أشعر في الجرائع كأنني كادلز الصغير في قصة هاج ويلز حين كان يرقب الضجيج في لندن ، متسائلا : ماذا تصنعون ايها الرجال ؟ ما الذي تصنعونه ولماذا ؟ ما جدوى كل هذا ؟... كنت اذهب أحيانا الى العاصمة ، ولكن سرعان ما أهرب مرتعبا . ففي بودابست يصبح المرء ضحية للمواصلات العامة . «كيف اعتدت على هذا ؟» كان الناس يسألونني ، وهم يشيرون الى الهدوء في الجرائع . وكيف اعتادوا على ذلك ؟ هكذا كنت أسأل نفسي . فعلى الرغم من انني قضيت نصف حياتي في بودابست ، الا انني لم استطع ان أفهم كيف يتحملونها . ولكن المسارح ، ودور السينما ، والمجتمع ... حسنا ان المرء قد يعتقد برهة انه من المستحيل الحياة بدونها . ولكنه ليس مستحيلا . فالراديو يزودنا بالموسيقى ويجنبنا التدافع في الزحام . فاذا تصادف ان كان البرنامج سيئا ، ففي وسعي ان أستعين بالبيانو . كنا نذهب أحيانا الى المدينة لحضور إحدى الحفلات ، وكان هذا يحدث لما . وكانت تحضره كل الشخصيات البارزة ، كان كل انسان لطيف المعشر حقيقة ، ومهذب ، كما ينبغي ... ولكننا كنا غزوفين عن ذلك . ان امسيات ايام السبت تكفي احتياجاتنا للحياة الاجتماعية . وفي وسعي ان أحضرها وأنا مرتديا خفي... اما بالنسبة للثقافة ، فنحن نحمل الثقافة في داخلنا . صحيح اننا بحاجة الى المزيد . لكننا لا يجب ان نغالي . ان ما لدينا في هذا المكان النائي فيه الكفاية - الف وخمسمائة كتاب ، وراديو صغير ، وقلم حبر يكتب ما يريد . وسرعان ما سوف نحصل على جرامفون ومعه ايضا اسطواناتنا المفضلة . نحن نملك ليالي هادئة وطويلة للاستماع الى الموسيقى والقراءة او الكتابة . وحولنا السلام والهدوء ، هدوء لا يمكن تخيله في المدينة . وثمة تسعون مجنونا يحبونا، ونحبهم . وفي هذا الكفاية .

حوالي منتصف الليل ، حين يغادرنا الطبيب المعجوز وزوجته ، كنا نتجه مرة اخرى الى العنابر . حيث كنا نتلقى تقرير الممرض النوبتجي (الذي يتكون عادة من اربعة كلمات . كل شيء يسير على ما يرام) ، كنا نلقي نظرة على حجرة او حجرتين ، حيث يغط مرضانا في نوم هادئ ، ثم نتأبط ذراع بعضنا ونمضي في الحديقة على ضوء القمر ، كأننا الملك والملكة في مملكة الاساطير النائمة . الان يسود هدوء حقيقي ، لا يمكنك ان تتصور مبلغ الهدوء . في مثل هذه الاوقات كنا نشعر غالبا اننا في منزلنا .

الفصل التاسع

كشف الحساب

كانت ايرما المحبة للسلام على صواب . فقد امضينا خريفا طويلا تملؤه المشاعر الاخوية الصادقة . كان الصباح رطبا ، والصقيع يغطي الحقول، واستحالت الاوراق في الحديقة الى اللون الاصفر البني ، واختبأت الاكمام البنية المشوبة بالحمرة خلال اشجار الصنوبر ، وازافت اشجار الفراولة الوردية لونا قرمزيا الى الصورة . ففدت الحديقة جميلة ، يلفها اطار اثري شفاف . ونسجت العناكب بيوتها الضخمة في عناية بين الاشجار ، التي تسمى بأسماء لاتينية معقدة . وبعيدا في الفضاء التمعت اشعة الشمس البازغة على قطرات الندى المرتعشة ، المتعلقة بخيوط بيوت العناكب منعطية للحديقة صبغة اسطورية . بيد ان الشمس المشرقة ومنازل العناكب لم تكن هي التي جعلت من الخريف غاية في الود ، وانما الجو المفعم بالسلام الذي ساد الجرائح .

كان معظم المرضى يعملون في الحقول ، يزرعون البطاطس ، ويجمعون بقية محصول الفلفل ، ويقومون بعدد من الاعمال الاخرى التي كان معناها غير واضح لديّ . كان الشيء الاساسي انهم يفهمونها . لقد حرثوا جزءا من الحقل ، وظهرت في الاجزاء الاخرى بشائر المزروعات الجديدة ، فاشاع ذلك عندي دهشة ملحوظة ، اذ لم اكن اعرف مثلا ان الخس تجب زراعته في الخريف اذا اردت

محصولا ربيعيا مبكرا .

كانت حديقتنا جرداء اكثر مما ينبغي - حتى انا لاحظت ذلك . والسبب ان بستانينا ابتاع منزلا في المدينة ، فشغلته اجراءات الشراء عن العناية بأي شيء عدة شهور ، اذ عكف على متابعة تحويل حسابه في البنك في الوقت المناسب وعمل على أن يسمح له المجلس البلدي بإخلاء شقة من مستأجريها ، الذين يقيمون في العقار الذي ابتاعه ، ثم والى بعد ذلك اجلاء المستأجرين والانتقال الى المنزل قبل أن يجد الوقت للعودة للعناية بالحديقة من جديد . وتابعنا قصة الشراء المعقدة بعين العطف ، وأحطنا بتفاصيلها بكل دقائقها . وكان من الجلي في ظل هذه الظروف أن تخلو تماما صوبة الزهور التي بذل في بنائها جهدا هائلا في العام الماضي . على كل حال نمت الحشائش في الحديقة بعد ما كانت مزروعة بالبطاطس في العام الماضي .

وانتهى بناء المظلة الخشبية من الطوب وعروق الخشب التي اخذناها من المبنى الذي هدمناه سرا . وبأشر اولد ويندي وهامستر العمل . كانا يتنافسان على البناء ، وكلاهما مدفوع للتجسس على خفايا ما أنجزه الآخر من بناء ، لدرجة انه لم يعد لاحدهما فرصة لمتابعة المرضى - الذين انشغلوا بهما بدورهم ، وكان حوالي من ثمانية الى عشرة من المرضى بينهم بعض الحالات الشديدة الاضطراب . كان ويند بلاور يناول الطوب ، وهو يؤكد في بسمة غامضة انه رئيس الجمهورية وأن المكان بمثابة سيرك ، وجعل احد الشبان المجددين يخلط المونة ، وهو يهلوس بصوت عال ، وتولى الرجل العجوز الذي كان يصر على مناداتي باسم «سعادة الكونت» اعمال التجارة ، وهو يؤكد في اصرار ان المعالج المهني قد سرق جرامافونه ، وتولى رجل في منتصف العمر ، واضح الذكاء (كان يعمل جزارا) بناء السقف بمهارة ، لدرجة لا تجعل احدا يشك في انه استيقظ في ليلة ليست بعيدة ، وحطم حوض الفسيل قطعا صغيرة دون سبب واضح ، وألقاها قطعة قطعة من النافذة وكان زميله الذي لا يفارقه في العمل مريض بالصرع اعتاد فيما مضى أن يوالي الصراخ لمدة ثلاثة ايام حين يصاب بالنوبة ، ويستقر فوق النافذة بطريقة تجعل زحزحته مستحيلة ، ويدلي قدميه من بين قضبان النافذة صابا سيلا من البذاءات على المارة .

وأوشك العمل في ورشة صنع السلال أن يبدأ فتم دهانها . وكان من الواضح اننا سنحصل على الاغصان اللازمة هذا العام بالرغم من أن الوكيل كان قد بذل قصارى جهده لتحاشي هذا الضرر . وذهب معالجتا المهني الى بودابست ودبرّ الحصول على حصة توازي طنا من أغصان الصفصاف من الدرجة الثالثة . وهكذا تقررت لنا الحصة ومدرّب صناعة السلال ، وطينا الورشة ، وبقينا في انتظار الاغصان . في العام القادم يحق لنا أن نشعر بالفخر لاننا سنصنع السلال من أغصان انتجناها بمعرفتنا ، رغم انف البستاني الذي كان يبذل كل ما في وسعه ليفتال زراعة الصفصاف . وسيتوفر لنا خلال بضع سنوات العديد من أشجار

الصفصاف مما سيمكننا من تزويد الآخرين به .
وكان العمل يأخذ مجراه في ورشتي التجارة وصناعة الأقفال . فلدينا
نجارين حقيقيين وصانعو أقفال ممتازين يعملون مع لويس المتعدد المهن المريض
بالاكتئاب السوداوي . كل ما ينقصهم المواد والادوات الجيدة . ولكنهم عكفوا على
العمل لدرجة انه لم يعد لديهم الوقت للاكتئاب .

وسارت الحياة الاجتماعية بعد الظهر سيرا مضطربا . واحصيت ثلاثة وستون
مريضا في اجتماع الندوة الادبية ومنذ شرعت الممرضة ايما في شراء اسطوانات
الموسيقى الراقصة ، اعتاد المرضى الرقص على الجرامافون . وكانت الممرضة ايما
ترقص معهم ، ايضا ، وكذلك فعلت روزي بالطبع (هاتان المرأتان كانتا يساويان
وزنيهما ذهبا . صدق او لا تصدق انهما استطاعا أن يجعلا حتى امير الحزن
يرقص) .

كنت أشفق فحسب على المعالج المهني المسكين ، فمذ غادرنا بيترو مارتر الى
مزرعة الدولة ، توفر على قيادة الكورال . ولحسن الحظ لم يكن يتمتع بالصوت
ولا الأذن الموسيقية ، ولذلك استطاع ان يتحمل نشاز المرضى المربع في ضيق
أقل نسبيا . وكان آخر ما توصلنا اليه من المدهشات أن ندبر ألحان جون يحكي
ان المتخشب بالكورال ، ناهيك عن جعله يرقص . ولكن هذا ما حدث بفضل العلاج
بالصددمات الكهربائية وبفضل الممرضة ايما كذلك . كان يتلقى العلاج الكهربائي
ثلاث مرات فحسب (اثناء نومه بالطبع) ، وحين يستيقظ تجلس الممرضة ايما الى
جواره وتلاطفه حتى «إنهار» واعترف انه يشعر كمن ولد من جديد وجعلنا نرقبه
لنرى كم ستستمر هذه الولادة من جديد ، والى أين ستؤدي به . لقد عشنا وراينا
من قبل عددا من المعجزات .

وحضر اثنان من المعالجين المهنيين للزيارة . قدما في منتصف الليل وانتويا
قضاء النهار بيننا ، على أن يبرحانا ثانية في المساء . وكان ذلك امرا مجهدا ،
ولكن الاجهاد لم يعرف طريقه اليهما . كانا يسعيان بحماس وراء تجربة من نوع
جديد . بدا كل شيء مبعثا لسعادتهما اذ لم ينبق لهما رؤية مثل هذه المصحة
العقلية المرحية من قبل . وأعربا عن شكهما بادىء الامر ان كل ذلك يتم بواسطة
مرضى (تم استئناسهم خصيصا) ، ولكن حين شرع العم تيبور في الصراخ قائلا
«اسرعوا» ، وسب اعدائه غير المرئيين بصوت جهوري صدقا أنهم مجانيين حقا .



خلال هذا الخريف الطويل - ثالث خريف امضيناه في الجرانج - حدث لي
شيء لا يمكن أن أسميه الا «التدشين» لم أَدشن في الجرانج ، وانما في مؤتمر
الطب العقلي السنوي الذي يعقد في الخريف ، وفي ظل ظروف بالغة الطرافة .
كانت شهرة مؤسستنا قد شاعت في هذه الاثناء . لصالحنا ترى أكان ذلك

لنا أم علينا لقد جذبت هذه الشهرة على كل حال عددا من المرضى من سائر اطراف البلاد ، وكان هذا في غير صالحنا ، لانها جذبت ايضا زوارا وأساتذة ومديري مستشفيات وأطباء ومعالجين مهنيين . ولقد أبدى المعالجون المهنيون حماسا خاصا ، سواء الاطباء منهم او اساتذة الكليات . وبذلوا في غمرة حماسهم كافة انواع الوعود وان لم يوفوا بواحد منها . ومع هذا فقد كانوا طبيين ، فقد زاد حماسهم من طموحنا . ولم يكن الاهتمام والحماس الذي أبداه الاطباء متساويا . لقد سر صغارهم - الذين زارونا على الأقل باننا نعامل مرضانا دون قيود ، بينما مال كبارهم الى التشكك في هذه «الثورة» وأبدوا ملاحظات ساخرة عن هذا العلاج «الترفيهي» . وألقيت محاضرة على بعض الاطباء ، على حين قاطعنا معظم أطباء العقول «المروقيين» سواء بدافع المعارضة او لفقدان الاهتمام فحسب .. هذا ما لا أعرفه ، ولكن الذين حضروا أبدوا اهتماما حقيقيا .

فليكن الامر ما يكون ، لقد استمرت شهرة الجرائح في الانتشار . وما اكثر ما أعد «عنبر العزل» الخالي من المرضى منذ فترة طويلة لاستقبال الزوار . لقد أدركوا أن مجرد الزيارة ، والتجول وسط أحواض الخضروات ، والتحديق في العمال لا يكفي ، بل عليهم أن يشاهدوا المرضى اثناء تناول الوجبات ، والرقص ، والشطرنج ، وتنس الطاولة ، وكيف يأوون الى أسرّتهم ، ويفتسلون في الصباح ، وكان عليهم أن يفهموا أن «معجزتنا» ليست في العمل الذي يتم وانما في حالة المرضى المزاجية . ولقد حضر العديد من زوارنا ليشاهدوا ذلك .

أعددت الخطاب المألوف الذي يستغرق عشرة دقائق لمؤتمر الطب العقلي المنعقد في الخريف . لم استطع ذكر الكثير ، اذ كيف يمكن تلخيص عامين من الخبرة في عشر دقائق فقدمت جدولين احصائيين - يبين احدهما نسبة المرضى الذين خرجوا وشفوا ، ويبين الآخر عدد الباقين في الجرائح . وعرضت بالفانوس السحري بضعة شرائح مثيرة تصور الحياة في القفص الذهبي ، التقطها لويس المتعدد المهن كجزء من علاجه بالعمل .

تنقسم مهنتنا ، كما هو معلوم لديكم ، الى فرعين مختلفين . أطباء الاعصاب وأطباء العقول ولا يعرف رجل الشارع الا نادرا مبلغ الخلاف الشاسع بين الفرعين فطبيب الاعصاب يختص بالامراض العضوية . الاورام الخبيثة ، والشلل والرجفة واضطرابات الحواس ، او بعبارة أخرى الامراض التي تنتج عن تغيرات تشريحية محددة تماما بصورة او بأخرى ، ولا يدخل الذهان في تخصصهم . ان هذه هي مهمة الطبيب العقلي الذي يتعامل مع الجنون والسيوباتية والأعصبية ، او بعبارة أخرى الامراض التي لا تزال خلفيتها التشريحية غير واضحة حتى الان ، والتي قد يظهر أن خلفيتها العضوية ليست مورفولوجية - اي في بنية الكائن - على الإطلاق وانما وظيفية فحسب .

ان الربط بين هاتين المجموعتين من الاختصاصين المختلفين عن بعضهما تماما هو في رأيي نوع من التعايش غير الموفق . ولا يعني هذا انه ليس بينهما اي صلة

صلة - فهل يوجد فرع من فروع الطب لا يرتبط بالوظائف العضوية للجهاز العصبي .
وحيثما يوجد أخوان ، يكون احدهما مفضلا في العادة عن الآخر وطبيب
الاعصاب هو الاخ المفضل في ميداننا ، على حين يعتبر الطبيب العقلي بمثابة الاخ
الشقيق . ويحتقر أطباء الاعصاب أطباء العقول ، ويعتبرون مجالهم بمثابة مأوى
للدجالين ، نظرا لاحتوائه على كم ضخم من الفكر النظري والقليل من الوقائع
المضبوطة (وهم على صواب في هذا) . ولكن أطباء العقول يشعرون فيما بينهم أن
علم الاعصاب هو الآخر ليس دقيقا الى هذه الدرجة ، ويفضلون الغوص في شراك
النفس الغامضة على تبسيط الطب الى مجرد ردود أفعال فيزيقية وكيميائية .

وتسفر هذه الخيرة عن نفسها بطريقة مضحكة حين يجتمعون معا . فالذي
يحدث أن أطباء العقول لا يبدون أدنى اهتمام بتفسيرات أطباء الاعصاب الدقيقة
لبعض مشكلاتهم ، ويضيق أطباء الاعصاب حين يعرض أطباء العقول لغوامض
النفس ويشرعون في الثرثرة سويا . وتصبح الكافتيريا هي بؤرة الاهتمام اذ يوجد
بها على الدوام نصف عدد الحاضرين يلتهمون الشطائر والكعك لانهم لا يجدون ثمة
ما يصنعونه أفضل من ذلك .

وكان هذا هو الحال حين جاء دوري للكلام . كان نصف الحاضرين يثرثرون
في الكافتيريا - وكلهم من أطباء العقول اذ سبقتني سلسلة من أطباء الاعصاب لا
أعلم من الذي جاءهم بالاخبار ، ولكن حالما شرعت في الكلام بدا الجميع يتدفقون
الى الداخل . لا أطباء العقول فحسب وانما المعالجون المهنيون والاختصاصيون
النفسيون ايضا ، من تلاميذي القدامى وزملائي الذين نسيتهم . وان هي الا
بضع دقائق حتى كانت قاعة الاجتماع ممتلئة .

ما الذي قلته ، شيء عن نتائجنا العلاجية . ان ٢٦ بالمئة من المرضى الذين
غادروا المستشفى قد تحسّنوا . وشيء عن تشفيهم . دبرنا استيعاب ٧٨ بالمئة
من المرضى في العمل ، بكفاءة ، ربما تقل او تزيد . وشيء عن حالة المرضى
المزاجية . ٨٢ بالمئة منهم يشعرون بالسعادة في الجرائج . وشيء عن الاسلوب
والحرية ، والعمل ، واللهو ، والمشاعر الاسرية والعطف - وطرق الرئيس
مطرقته لقد انتهت الدقائق العشر . (كان من الطبيعي ان يطرق ، نظرا لان الرئيس
كان من غلاة أطباء الاعصاب الذين يعتبرون ان الحديث عن أساليب كالعطف مضیعة
لوقت)

ونجحت نجاحا منقطع النظير . حتى أطباء الاعصاب الذين تبقوا لسماع
خطابي صفقوا ، لقد أعجبوا بما سمعوه . ولم يكن هذا سوى بداية تدشيني .
فلقد نهض كبير اساتذة الطب العقلي ، وكان قد سبق له زيارة القفص الذهبي
اثناء الصيف ، وأعلن وهو يشير الى ما لاحظته في الزيارة اننا نقوم بعمل الحوارين
في الجرائج . لقد رأى العديد من مؤسسات العلاج المهني ، ولكنها جميعا بمثابة
مؤسسات للسخرة المقنعة . أما الجرائج فهو المكان الوحيد في العالم الذي يعيش
فيه المرضى بحق دون «نظام عسكري» ، فلا موجب للدهشة على الاطلاق من

شفائهم بهذا النجاح وقال ان الوزارة تخطئ خطأ كبيرا حين تترك هذا «الزوج من الحواريين» يتعفن في الجرائع الى آخره .

ويجب ان اعترف ان هذا الفصل الاول من عملية تدشيننا كان بمثابة بلمس لروحي المجروحة اخيرا . انتزعت صيحة اعجاب من شخص اقدره . لم تكن نعمل عبثا اذن . فيها هو اكبر العاملين في ميداننا ، وهو من قد لاحظ وتفهم عملنا . لقد ابتهجت .

واتجه بول مادل الى المنصة ، وكله يتسم . اجل ، لقد كان هناك ايضا . وبعد اشارة البدء التي اعطاها الاستاذ ، انطلق بول في ملق معسول جعلني احمر خجلا . هل ذكر الاستاذ شيئا عن عيادة للعلاج بالعمل تضم خمسمائة سرير فليزيدها بول الى واحدة افضل ويعرض الف وخمسمائة سرير لمؤسستنا ذات الرسالة السماوية ...

وخلال هذا التكريم العاصف بدات الريبة تساورني . وزاد من تلى من المتكلمين من ريبتي . وبدا انه ما دمننا من الحواريين ، فليس في وسع غيرنا ان يصنع ما صنعناه . وكان هذا يعني الكثير ، ليس من الضروري لعب الشطرنج والبنج بونج فحسب بل ايضا الترفق بالمرضي ... والعيش بينهم طبقا فسي الجرائع او في الغابة . ولم يكن هذا العلم في مقدور اي شخص ، الا من له ايمان الحواريين .

لم اكن قد حلقت ذقني منذ المؤتمر السنوي الماضي ، وهكذا كنت احمل الان لجة ضخمة جذبت انتباهها كبيرا . وافترض زملائي في البداية انني تركت ذقني لاصبح محطا للانظار ، ولكنهم «فهموا» الان انها جزء من كوني حواريا . ولقد شعروا الان ان في وسعهم ان يسفروا عن حماسهم حقا . انه يقوم بعمل رائع - دعوه يستمر في متابعته ، دعوه يبقى في الجرائع بلحيته الرسولية ، وسوف يسعدنا ان نصفق له ...

وخلال الاستراحة صافحني مائة شخص . وظل الجرائع حديث اليوم ، وذروة المؤتمر . ثم عدنا الى الجرائع واستأنفنا الحياة كما يليق بالحواريين . ولم يعد احد الى ذكر مبنى المستشفى التي تضم الف وخمسمائة سرير ثانية . وقررت ان اقدم كشف حساب ، كشف يوضح بعدالة مبلغ ما انجزناه ، وما ينبغي علينا ان نستمر في العمل من اجل الحصول عليه . قلت لنفسني ، لا تكن شديد الطموح ، وإرض بالقليل . او لا ترضى . وكن طموحا ، ولكن افرح ايضا بالقليل الذي تم انجازه .

افرح ، مثلا ، لانك استطعت خلال عامين تخريج مائتي مريض من عنبرك . الامر الذي يعني ان في وسع العلاج بالعمل ان يشفى العديد من الحالات القديمة المزمنة شأن انواع العلاجات الفعالة . ولم يكن هذا العدد يضم أولئك الذين شفوا او تحسنوا فحسب بل شمل ايضا بعض الذين لم تتبدل حالتهم والذين لم نستطع

شيئا حيالهم . كما كان هناك ايضا الهاربون الذين يقدم رحيلهم الدليل الملموس على انهم لم يكونوا سعداء في القفص الذهبي . لقد بلغ عددهم ستة عشر خلال عامين . لكن اذا وضعنا في الاعتبار استحالة منع ثمانين شخصا متفرقا يسعون لاعمالهم في حرية من الهروب اذا رغبوا فيه - فليست هذه بالنسبة الكبيرة . ونسبة ٧٦ ممن لم تتغير احوالهم الى مائتي خريج ليست بالغة السوء ايضا . لم يتحسن ستة وسبعون ، ولكن تحسن ١٢٤ آخرون لقد تحسنوا الى الدرجة التي تسمح بتركهم يعودون الى منازلهم واسرهم او الحاقهم بالعمل في مزارع الدولة ولكن متواضعين . فلدينا نسبة تحسن تساوي ٦٢ بالمئة وهذا ليس بسيطا لو فهم المدير (بلا كلام فارغ) معنى هذا لانتشرت سمعنا لدى سلطات الاقليم والمقاطعة جميعا .

او افرح (هكذا قلت لنفسي) لانك دفعت ٧٨ بالمئة من المرضى الى العمل . فمن بين مائتي وخمسون مريضا ، كان مائة وخمسون يعملون جيدا ، ويعمل خمسة واربعون بشكل معقول ، وهذا يشكل نسبة ٧٨ بالمئة . اما الباقون ونسبتهم ٢٢ بالمئة فكانوا عازفين عن العمل ، او ممن لا يساوي عملهم شيئا . ولسو استخدمنا القهر لاستطعنا ان نجبر قلة منهم على العمل . لكننا لم نضع هذا ، ولم نأسف على ذلك . فلقد كان لدينا ثلاثة ارباع المرضى يعملون في طموح ، ويحبون ما يعملون ، ويشعرون ان الجرائج بمثابة منزلهم . ولقد كان عدد الذين يشعرون انهم في منزلهم اكثر من عدد الذين يعملون جيدا ، فقد بين مقياس (أحبه - لا أحبه) ان ١٨ بالمئة فقط لا يحبون الجرائج . ولقد أسفت لهذا العدد الكبير ، وانتوينا أن نصنع ما في وسعنا ، لنقل النسبة ، ولكن بدلا من التأس على الـ ١٨ بالمئة ، فقد ابتهجنا لنسبة ٨٢ بالمئة ، فالحياة في الجرائج تفيد - على الأقل من الناحية الذاتية - هذا العدد الكبير من المرضى .

وكان لدينا دليل آخر على مبلغ ما يشعرون به من سعادة - احصائيات العائدين ليس هؤلاء العائدون من الاجازة ، وانما اولئك الذين قمنا بتخريجهم بعد ان تحسنت حالتهم بصورة او بأخرى ، ولكنهم أثبتوا عجزهم على التعامل مع المجتمع السوي «وعادوا الى منزلهم» . وكذلك ايضا الذين حولناهم الى مؤسسات أخرى بسبب استحالة استيعابهم في العلاج بالعمل . والذين يكتبون او يبعثون بالرسائل الان يطالبون بالعودة . من الواضح انهم احبوا الجرائج على الرغم من عدم استيعابهم فيه تماما .

وكان جوتاف احد هذه الحالات . لقد اقسام ثلاث مرات ان يصبح رجلا مهذبا ، ثم ينخرط في زمرة السوء ، ويلقي القبض عليه - ويعود . ووعد اولد سبنسر ، صانع الاحذية ، والذي كان سكيراً في ايامه ، أن يبذل ما في وسعه ليعود لسابق عهده ، ويستعيد سجله التجاري ، لكنه شرع يشرب من جديد وينزلق الى الدرك الاسفل ، وعندئذ خلف كل شيء ببساطة وعاد الى المنزل ومنذ ذلك الحين وهو لا يقرب الكحول ، ويباشر العمل في ورشة أحذيتنا متمتعاً

برضى الجميع . وفقدت ماري وابلدرك الكثير من وزنها في مزرعة الدولة حتى غدت جلدا على عظم ، وأصيبت بالشلل - لكي تعود الى منزلها . وحين عادت الى الجرانج غدت مكتملة الصحة ، مرحة ونشيطة .

وأصبح بيلا تاكاس عاملا ماهرا من الطراز الاول في مصنع كبير ، ولكن بدا يعود اليه شلله ، فكتب مستفسرا عما اذا كان في مقدوره أن يعود . وكان في وسع ستيف سترر الذي كان يتسكع في ورشة أولد سبنسر أن يعيش في منزله بهذه النوبات الصرعية الخفيفة ، ولكنه كان يشعر بيننا انه اكثر سعادة ... وحين طرد الصيدلي مارتين كيمست ، لم يعد الى والده بل الى الجرانج . وسقط جس ليبينكاى ، الذي ظل صحيحا معافى لمدة عام ، فريسة للمرض من جديد وأودع احدى المصحات العقلية في جزء آخر من البلاد ، ولم يدخر والداه وسعا ولا نفقات ، ليعيدانه اليها . ووصلنا مؤخرا خطاب من ستيف دريفر ، ان مدمن تعاطي الكحول الذي هرب من الجرانج يكسب من ١٠٠ الى ١٢٠ فورنتا يوميا فسي بودابست ، في حمل الفحم ، ينقها جميعا على الشراب ، ويريد الان العودة . ورحل العم ريبورتر الى بودابست محملا بالآمال العراض ، وفي حقيبته كتابه الذي اتمه ، ولكنه كتب فيما بعد : «أمي العزيزة ، أرجو ألا تعطي سريسي الصغير الطبيب لاي مخلوق آخر لان الاحلام قد تنهار كقلاع اسبانيا ، ويعود الهائم في الدنيا الى منزله»

وداوم حتى أولئك الذين تقبلهم المجتمع على الزيارات . غدا ستيف تلجرام ساعيا للبرق في بودابست قرابة عام . وله أسرة ، تتقبله - ولكنه يمضي عطلات الصيف «بالجرانج» . وتخرج بول كنسكي نهائيا ، ولكنه عاد بعد شهرين للزيارة، ومعه جالون من النبيذ هدية . وكان لدى لويس المتعدد المهن اشتراك في السكك الحديدية ، فكان يأتي بشكل دوري ويقضي بضعة ايام في الورشة . وتعتبر حالة الفصامي الخالص ستيف زالاى اكثر اثارة ، كان يعمل الان في مزرعة مجاورة من مزارع الدولة ، وحين حضر لتقديم الشكر ترك لنا «عرضا» زجاجة من الكونياك . وعاد دنيس القافز في البئر الى المنزل لبحث عن عروس . ولكنه لسوء الحظ سقط في البئر بدلا من أن يتزوج ، ولكنه بعد ابلاله من هذا الحادث عاد الى المنزل في زيارة أخرى .

المنزل - كانت هذه هي كلمة السر . يبدو ان اعظم درس يمكن استخلاصه من تجربة الجرانج ليس هو الاثر العلاجي للعمل ، ولا الحرية والمعاملة الطيبة بل حقيقة مؤداها انه حتى المجنون يحتاج الى منزل .

لم نضع المرضى الذين عادوا او الذين بقوا في الجرانج في فئة «الذين خرجوا لتحسنهم» وانما اعتبرناهم «مرضى شرف» تحسنوا ولكن ليس في وسعهم بعد مواجهة متاعب العالم الخارجي . ولقد امتلأ الجرانج تدريجيا «بمرضى الشرف» وفقد دياميته . وجاء وقت أسفت فيه لهذا ، لكنني غيرت رأيي . لا ريب اننا تؤدي نصف المهمة فقط اذا تركنا هؤلاء الناس يخرجون لمواجهة الفشل . يجب أن

نتدبر امر تزويدهم بحلول دائمة على الأقل . وكنا نأمل أن تنمو المؤسسة بمرور الزمن . فلو استطعنا ان نتسع بمقدار ثلاثين سريرا سنويا ، لاصبح ثمة متسع للمرضى العائدين ، وكذلك «مرضى الشرف» الذين وجدوا في الجرانج على ما يبدو مستقرهم الدائم .



إذا وضعنا كل العائدين والذين سيعودون في الاعتبار ، يجد المرء نفسه يتساءل : ما هي العلاقة بين الاسرة والمجتمع وبين الجنون . لقد سبق لنا الحديث عن علاقة المرضى بالمجتمع . فاذا فحصنا جانبا آخر من المشكلة لوجدنا ان الامر يبعث على الرضى ، بل ويطلعنا على السبب في حنين المرضى للعودة . ولا شك ان هناك ثمة استنادات تبعث على الرضى ، لآباء يبدلون أقصى ما في وسعهم من اجل ابنائهم . لقد اعتاد آباء كل من سلف كوند متيج فرانيسك وشارلي سابستيتوت والقيصر بطرس العاشر ، وايوجين السريع كالبرق وهيلين انكز وجو بولجر أن يزورهم ، وكانوا يتلقون طرود الاطعمة بانتظام ، ولم يكف الآباء عن السؤال عنهم . كان مثل هؤلاء الآباء نادرين . لم يديروا ظهورهم لابنائهم بل على العكس ، كانوا يفضلون أن يعودوا بهم لمنازلهم بأسرع ما يمكن . ومن سخرية القدر ان هذا القدر من الولاء لم يتوفر الا لدى آباء أشد الحالات صعوبة، ومع هذا فقد كان في الامكان اعادة هيلين انكز وسلف كوند مننج فرانك والقيصر بطرس العاشر الى آبائهم في حالة طيبة بالرغم من أنهم يعتبرون من بين أشد حالاتنا خطورة .

ويشكل الاقارب «التقليديون» جماعة اكثر ضخامة ، انهم يرسلون الطرود والخطابات الضرورية ، ويأتون للزيارة أحيانا ، ويصمون آذانهم عن اعادة ابنائهم الى البيوت حين يشفون . كانوا يرضون ويبتهجون لان اولادهم يتقدمون بصورة مثالية في الجرانج ، ويرغبون في الابقاء عليهم داخله . فاذا أصرنا على عودتهم للمنزل ، لم نكسب شيئا ، فخلال اسابيع قلائل يتم ايداع الخريجين في مؤسسة أخرى . لا يعرف المرء هل يضحك ام يبكي حين يطالع الرسائل التي يؤكد فيها الآباء والاخوة والاخوات ان قلوبهم قد تحطمت ، ولكنهم يستحلفونا بالله الا نعيد لهم قريبهم العزيز لانه وتأتي بعد ذلك قائمة طويلة من الاسباب . فمثلا اشاع اقارب روزي الخياطة الطيبين انها لا تنام الا في حظيرة الخنازير وكان من المؤكد انهم هم الذين وضعوها في حظيرة الخنازير ، وهو امر شديد الوقع على هذه المخلوقة الملائكية ربة الدوق . فاستمدناها ، اذ ليس هناك ما يدعو لايدها مؤسسة مغلقة ، وطالبنا مجلس القرية بمراقبة ، لا المريضة بل الاسرة ، بيد انها لم تراقب بما فيه الكفاية . اذ طردت روزي عقب بضعة شهور من المنزل . وعثرت

على وظيفة في بودابست ، وحرصت الاسرة المحبة على تحاشي معرفة اين هي وكيف حالها .

وخلت الخطابات المليئة بالاسى من اية اشارة الى ان اقارب روزي يستغلون بضعة فدادين قليلة من الارض تمتلكها ، وهذا هو سبب احساسهم بأنها تعترض طريقهم .

ولقد كانت آني الحزينة على ما يرام ، وان شعرت بالاكئاب لانها كانت تفضل الحياة مع زوجها وبناتها الثلاث . ولكن لم يكن في وسعها ان تعود الى المنزل اذ اتخذ زوجها لنفسه في ذلك الوقت زوجة اخرى وانجب منها طفلا - على حين اودع بنات آني الثلاثة في احد الملاجىء . ومع هذا ، ظهر الزوج ذات يوم واصطحب آني الى المنزل . هل عاد الى صوابه؟ كلا على الاطلاق . لقد ضاق ذرعا بزوجته الثانية وكان يأمل ان تغلح آني في اجلائها .

ولم يكن هذا هو نوع المناخ الذي يهدىء النفس المجروحة . واقلقنا ما قد يحدث . وما حدث بالفعل هو ان سلوك آني خلال هذه المشاجرات العائلية العنيفة كان هو الاكثر سوءا . لقد كانت المشاجرات مع الزوجة الثانية أهون ما في الامر . وفي النهاية اذمن الزوج على الشراب ولم يطرد زوجته الثانية بل طرد آني وفي غمرة اضطرابها لجأت الى والديها . ثم شرعت تبحث عن عمل . ولحسن الحظ تبين اثناء الفحص الطبي انها مريضة بالسل فتم ايداعها المصحة . وهي لا تزال مقيمة هناك ، هادئة وسوية وعلى ما يرام . ولكن ما الذي سوف يحدث حين تشفى من مرض السل ؟ ان هذا لن يعني شفاءها من زوجها .

كانت عائلة ستيف بارتا في تشيكوسلوفاكيا ، وكان من المتعذر عليه العودة الى منزله ، بالرغم من انه كان دائب الحنين اليه . وأعلن حين جاء لدينا ان الرئيس روزفلت وعددا من الدبلوماسيين الاجانب يتفاوضون مع ممثلة فرنسية فاتنة في احدى غرف المصحة عما ينبغي أن يتم بشأنه . ولقد نسي الرئيس والممثلة الفرنسية فيما بعد ، وكف عن لعب الاستغماية حول الاركان في المساء ، وعن اخافة الممرضات ، وشفي . كان فيما سبق يعمل كاتباً . وحاول بعد خروجه ان يعثر على عمل . ولم يقبلوه كاتباً في اي مكان ، فاشتغل بالعمل البدني . بيد انه كان ضعيف البنية ، فخشينا ان ينوء بالعمل اجلا او عاجلا او ان يطردوه . وكانت آخر اخباره انه طرد من فوره من وظيفته الخامسة ، وأضحى شريداً ، بلا ملابس تقريبا ولم يذق طعاما منذ ايام . الى متى سوف يصمد كان من الغريب حقا انه لم يلجأ بعد الى احدى المؤسسات .

وكانت حالة تيني ليلي اكثر طرافة . لقد جاءتنا هذه الفتاة بصحبة اختها في سيارة فخمة ، وبدا انها مريضة «ذات وزن» . وتصرفت بادىء الامر وكأنها في مصحة خاصة ، فكانت ذات انفة وتعال . . ولكن منذ انطلقت اختها عائدة بالسيارة الفخمة ، اختفت تماما وكفت عن السؤال عن ليلي لمدة أعوام ثلاثة ، وهكذا نسيت ليلي مسلكها السابق وغدت عاملة مجدة . وكان في مقدورها رغم

رأسها الفارغة ان تتبين انها هنا في منزلها ، وانه لم يكن لها مكان في منزلها السابق . وحين الحقناها باحدى مزارع الدولة ، تمارضت حتى تمت اعاتتها ، وازداد شعورها انها في منزلها بيننا .

والتيقنت عرضا ذات مرة بأخت تيني ليلي في القطار . لقد جاءت بالطائرة ، واجبرها الطقس السيء على العودة بالقطار . ولم تفكر في زيارة أختها مجرد زيارة - بل على العكس ، كانت تخشى أن تفصح ليلي عن رغبتها في العودة الى المنزل بصحبتها اذا ما وقع بصرها عليها . اعترفت لي بذلك في القطار . واكدنا لها انه لا يوجد ثمة موجب للخوف ، اذ ان ليلي لا ترغب في مبارحة الجرانج . ذلك بالرغم من ان عودة ليلي لن تعود عليها بالنفع ، اذ كان في وسعها ان تتولى الاشراف على منزل أختها كما تفعل الان . لقد كانت اميل الى البطء والبساطة ، وان لم يمنعها ذلك من ان تكون عاملة نظافة لا تشوبها شائبة .

وهكذا تأثرت أختها واقسمت ان تزور ليلي في الاسبوع القادم . ولكن ذلك لم يحدث مطلقا خلال عام بأكمله .

ولقد كان لدينا العديد من الوقائع الشفاهية والمكتوبة التي توضح كيف كان الوالدان يدينون ابناءهم ، والابناء والديهم ، واخوتهم ، وانساباتهم ، والازواج والزوجات بعضهم البعض ، بمجرد او يصممهم المجتمع «بالجنون» . كان ذلك يرجع أحيانا الى دافع مادي ، وأحيانا الى الخوف من تضاعف المتاعب ، وأحيانا الى مجرد الخوف . وكانت الجرانج - اكثر من اي مؤسسة أخرى - بمثابة مشجع للأقارب على التخلص من أعبائهم ، ففيها سيكون «المسكين» على ما يرام، ولا داعي للندم .

واذا كانت الأسر على هذا النحو ، فما بالك الغرباء ؟ ما الذي يمكن توقعه من مجتمع اقام جدارا من المفاهيم الخاطئة على مر آلاف السنين حول عالم المجانين، وأحاطه بالخزعبلات المروعة ثم انتابه الرعب الحقيقي من الاكذوبة التي خلقها بنفسه؟ لقد كف الناس في القرى المحيطة بالجرانج عن الخوف من المجانين انهم يثرثرون معهم ، ويلتقون بهم في السينما ، ويتسوقون معهم من المحلات ، ويأمنون لبعضهم فيدعونهم ويقدمون لهم شتى الاشياء (بما في ذلك النيذ لسوء الحظ ويرسلون للمرضى دعوات خاصة للعروض المسرحية في قراهم . لكننا لا نتوقع هذا القدر من الاستنارة من المجتمع بأسره .

وتزودنا حالة ماري وايلدر بصورة نموذجية للعلاقة بين المجنون والمجتمع . يشير تاريخ حالة ماري وايلدر الى انها فصامية ، وان لم نتبين لديها هذه الأعراض . ربما كانت فصامية فيما سبق ، بيد انها الان فارغة العقل وهستيرية أحيانا . كانت هي التي عادت من مزرعة «القملة» هزيلة ومصابة بشلل فسي الساقين . في صحبة بيتروولف المصاب بالصرع والذي يعيش في داخله ، على حد زعمه ، شخصان - الذئب الشرير والقديس بطرس . بيد أن احدا من هاتين الشخصيتين لم يبادل ماري الحب ، ولقد حاولت عبثا اغواء القديس الشرير .

وسم بيتر من ماري في النهاية وطالب بإعادته الى قريته . وحيث أن نوبات الصرع لم تعد تنتابه الان ، بل أصبح يعمل في اتقان ، ولم يعد شريرا ولا قديسا بشكل مبالغ فيه ، فقد تركناه يعود الى منزله .(سارع اقاربه الطيبون بإيداعه مصحة المقاطعة العقلية وانقطعت أخباره عنا لانه «في حالة بالغة السوء للدرجة انه لا يسمح لهم بزيارة المخلوق المسكين») وأصبحت ماري وحيدة . داومت على البكاء ثلاثة اسابيع . كان ذلك خالصا حقا ، لانها لم تحظ منه بشيء سوى الضرب المبرح .

ولكن بمرور الزمن التأم جرح ماري وعادت للعمل في مثابة . وأصبحت أغانيها تتردد في أرجاء المنزل بدلا من صرخاتها . كانت ماري تتمتع بصوت رائع ، وحين ينساب ، يغطي على كل الكورال . وعادت معتدلة المزاج لانها وقعت في الحب ثانية - مع جوليوس جريم الذي بث الرعب في قلب السيدة الاولى في اول أيامنا بالجرائح بقصة سكيئة . وكان جوليوس جريم يحب في الاصل إلزي فلاتفوت ، لكنه نبذها من اجل ماري . وبعد ان ظلت كسيرة الخاطر لفترة ، تقبلت إلزي اهتمام ستيفن ماجور ، وهكذا انطلقا الى المجلس القروي ، حيث أعطوا لهم شهادة مزيفة بزواجهما . وكذلك ذهب جوليوس جريم وماري وايلدر للمجلس وحصلا على هذه الوثيقة «المضحكة» (قاتل الله روح الدعابة لدى المجلس - لماذا لا يستخرجون الوثائق الاخرى بمثل هذه السرعة) ، وعاشا سعداء بحبهما النقي . ولقد كان حبا نقياً فعلا اذ يعلم الجميع ان جوليوس جريم يفتقد ذكورته . ولم تبال ماري بذلك على ما يبدو .

بيد أن اخلاص الرجل لا يساوي كثيرا . صحيح ، ظل جوليوس يردد أن ماري هي زوجته الصغيرة المحبوبة ، وأنه لن يفارقها قط ، وأنه سيصحبها الى المنزل في قريته . وهكذا فعل ، فحزما متاعهما ذات يوم ولم يتوقفا حتى بلغا قريته . ومكثا في المنزل ثلاثة ايام ، ثم ملّ الاقارب من الزوجين فأعادوهما الى الجرائح . قلنا لهم في التليفون أن في وسعهم الاحتفاظ بالاثنتين دون أدنى خطورة ، فهما ليسا خطرين ، ولا حتى جوليوس الذي هاجم أمه ذات مرة بسكين وأن ماري عاملة نشطة تتمتع بصحة طيبة - لكن العائلة لم تلق بالا لكل ذلك . ولما كان نسيب جوليوس جريم هو رئيس المجلس ، فقد كان من السهولة بمكان أن يضعوا الزوجين في قطار ويرسلونهما الى المدينة ، حيث لم يعد أمامهما العودة الى الجرائح .

لكن جوليوس لم يتقبل الفشل . فحزم امره بعد أسبوع وعاد للمنزل بمفرده هذه المرة . واتضح للأسرة انه لا موجب للخوف منه . فأعطوه فرصة ليعمل . وعادت ماري تعاني من الهجران .

ذرفت دموعها ، وكفت عن التنظيف والفسيل لاسابيع . وظلت تتجول في المنزل ، بأكمله في صوت موسيقي ساعات لا حصر لها . وأرسلت الخطاب تلو الآخر الى «زوجها العزيز» ، دون أن تتلقى ردا . لقد تناساها جوليوس .

لكن الزمن يداوي كل الجروح ، فنسيت ماري جوليوس على مر الوقت ، واستعادت روحها المرحة ، وصوتها ، وحماسها للعمل .

وفضلنا في ذلك الوقت إعادة ماري الى المنزل ، فهي لا تسبب اية متاعب ، وتعمل بصورة طيبة ولم تعد تعاني من الوسواس ، والتهبؤات ، والنوبات - فلماذا تشغل مكانا هناك من هو احوج اليه منها في وسعها أن تعمل في المنزل بنفس الصورة الطيبة ، وترعى شئون منزل والدتها ، او تلتحق بمصنع . وهكذا أفرج عنها . واستقبلها أهلها في سرور واضح . لقد تبينوا انها سليمة فعلا ثم اعادوها ، زاعمين انهم لا يستطيعون رعايتها . ما دامت الدولة قد رعتها كل هذا الزمن الطويل ، فلماذا لا تستمر في ذلك .

وسعدت ماري بالعودة ، وشعرت بمزيد من الراحة لدينا عنها في المنزل . وسرعان ما أحبت ستيفن نافخ الريح .

كان ستيفن نافخ الريح فصاميا . وكان يؤكد في لحظات صفوه بهزة من رأسه أن ماري لم تبلغ معه شيئا ، ولكننا كنا نعلم أن ماري الوالهة ترضى بالحب الخالص ، لذلك لم ندهش لنجاح الفوز . كان الحديث مع الصبي من الصعوبة بمكان (لم يكن يجيب قط) فكانا يعتقنان ويتبادلان القبل في صمت ، وسعدت ماري بهذا .

لكن السعادة لا تدوم . فنافخ الريح يتعرض باستمرار لاشعة تأتية من التل المجاور ، وهكذا هرب ليمضي الى هناك مفتشا عن آلة الاشعاع المجرمة . واعتقد زراع العنب أنه جاء في طلب عنبهم ، فهددوه بالضرب اذا عاد مرة أخرى ولم يعر نافخ الريح ذلك اهتماما ، وعاد للتفتيش عن آلة الاشعاع . وأحضرتة سيارة الاسعاف الى المنزل مليئا بالكدمات وقد كسرت ذراعه . علسى حد زعم زراع العنب ، هوى الشاب المسكين من سفح الجبل المنحدر . ولم يقل نافخ الريح شيئا ، ولم أوجه اليه اية أسئلة . فانا أعرف زراع العنب معرفة جيدة . لم يعد في وسعنا الإبقاء على نافخ الريح بيننا أكثر من ذلك ، وتعين علينا ارجاعه الى بودابست . وغدت ماري وحيدة مرة أخرى .

رأينا فيما سبق جانبا من العلاقة بين «المجنون والمجتمع» ، ولكن يتبقى الكثير مما يمكن أن يقال . لقد هربت ماري في غمرة احزانها . انطلقت معولة على الطريق حتى بلغت المدينة التي تبعد ثمانية أميال في المساء . وهناك التقطها احد رجال الشرطة ، نظرا لانها كانت بمفردها تبكي . وذكرت له ردا على أسئلته اسمها وأنها قدمت من الجرانج . فاقطادها رجل الشرطة الى مستشفى المدينة . وهناك أيضا القوا عليها الاسئلة ، فرددت لهم قصتها . وعندئذ طلبني الطبيب المناوب على التليفون :

«ثمة امرأة هنا تزعم أنها جاءت من الجرانج .»

«أجل ، انها بالتأكيد ماري الشاردة .»

«هذا صحيح ، ماذا نصنع معها .»

«احتفظ بها لديك حتى الصباح ، وسوف أرسل لها شخصا . ولا داعي للخوف منها ...»

«بوسعي تبين ذلك ، لقد حادثتها ، وتبدو اقرب للسواء . ولكن ... أخشى الا نستطيع الاحتفاظ بها هنا ، فالمستشفى مزدحمة جدا .»
(ان ما يقصدونه بالفعل هو انهم يدعوا شخصا مجنونا وسط الاسوياء ... كان يجب ان أعرف ذلك .)

«أوصلها الى المحطة ، وضعها في القطار ، وسوف نقابلها في المحطة . انها مجرد محطتين ، وتستطيع ان تحضر بمفردها .»
«لكنها بدون نقود .»

«الا تستطيع اقراضها خمسة فورينيات ؟ سوف أردھا غدا .»
«حسنا ، لكن ... من الذي يتحمل المسؤولية .»
«اية مسؤولية .»

«اذا حدث شيء في الطريق ... سيقولون ان الطبيب فحصها وتركها تمضي، وهو المسئول عنها ...»
المسئولية ! لم يخطر لي كل هذا .

«ليس أمامك سوى أن تستدعي سيارة اسعاف وتعيدها الينا بالسيارة . انه امر اكثر تكلفة ، ولكن لا محل للقلق بالنسبة للمسئولية .»
وهكذا عادت ماري بسيارة الاسعاف . في صحبة ثلاثة اشخاص ، السائق ومرمضة وطبيب شاب - لأن «المجنون هو المجنون» ويجب أن يعامل طبقا لذلك . كانت الساعة التاسعة مساء ، ولدينا حفلة . استدعيت من مباراة الشطرنج التي كنت ألعبها ، ولم يمنع ذلك سينسر العجوز من أن يعلن «كش الملك» في نفس اللحظة . وكان الآخرون يلعبون البينج بونج ، ويرقصون ويفنون . وراقبت قلة من المرضى الفضوليين من في عربة الاسعاف ، وحاولت جيزيل ذات الشامة استعراض نفسها . وقدم ليزلي رجل الجبال نفسه ، وثرثرت اليزي اللثغاء في ابتهاج ، بينما أهمل الباقون الضيوف .

وشعر السائق والمرمضة بالسعادة بين المرضى ، بينما انتحى الطبيب جانبا، مرتعبا كمن القي به في الجحيم . طفق يرقب الراقصين في هلع ، وهو يرتجف ويهز رأسه .

سألني لجرد ان يقول شيئا ، «متى انشئت هذه المؤسسة» «ما اسم هذه المؤسسة .»

لقد افتتحت الجراجم منذ ثلاث سنوات ، وذاع صيتها ، ولكن هذا الطبيب الشاب الذي يبعد عنا ثمانية اميال لم يسمع عنها شيئا . هذا لا يهم ولكن كم كان عصيبا حين رافق الممرضة الى مكتبي لتحصل على بطاقة وعلى توقيعى ، وكم خشي أن يتركوه وحيدا وأعزلا بين هؤلاء الرجال المجانين ! لا شك انه كان سيسعد فيما لو رأى المرضى مكبلين وسخباء في زنازين . وعندئذ ربما قال في

رياء «يا للمخلوقات المسكينة...» ظل يرقبهم في رعب مستتر ونفور شديد حتى أنهى أوراقه ، فاندفع خارجا أسرع من أن يودعنا .
لقد أشعره المرضى أنه زار من فوره حديقة الحيوانات ، بكل ما تحويه من وحوش مروعة .



لقد كان المائة وأربعة وعشرون مريضا الذين خرجوا لانهم تحسنوا ولم يعودوا بمثابة دليل على نجاح الاسلوب . كان من الممكن في الحقيقة شفاء الناس بالاعتماد على الحرية ، والعمل والتسلية . لم اكن اعتبر العلاج البيئي معجزة تشفي كل شيء ، ولم اتصور قط أنه سيجعل جميع المرضى يتحسنون ولم افكر في أنه يمكن أن يلقي أي جانب من العلاج الفعال . ولكنني أومن أن الشفقة والبيئة المناسبة ضرورية لنجاح العلاج الفعال .

ليست الحرية هي ذلك العامل السلبي الذي يتضمن عدم استخدام القوة . ان العامل الايجابي أشد أهمية . ويمكن تلخيصه على هذا النحو . المرضى أحرار في ممارسة حياة شبيهة بحياة الأسوياء . من الواضح أنها لا يمكن أن تكون كالبيئة السوية تماما ، لأنه ليس في وسع المريض المجنون ، كما سبق أن ذكرناه، أن يتلاءم مع البيئة السوية وتصبح مهمة العلاج البيئي هي ملائمة البيئة للمرضى الذين لا يستطيعون أن يطوعوا أنفسهم لبيئاتهم . فبيئة الجرانج اذن بيئة صناعية ولكنها ليست غير طبيعية . صناعية لأنها تضع في الاعتبار حاجات المرضى الخاصة ، وهواياتهم ومخاوفهم ، وعجزهم الدوري عن العمل ، وحساسياتهم . وطبيعية ، رغم هذا ، لان المرضى يعيشون في مجتمع منظم لهم حقوق وواجبات، ويمكنهم العمل ويستطيعون ان ينشدوا الراحة واللهو المنظم بعد العمل . يتجولون في المنزل بحرية ، وكذا في الحديقة والمزرعة غير المسورة . ويذهبون الى السينما اذا ارادوا او للتسوق من القرية المجاورة . يقرأون ويكتبون ، ويلعبون الورق والشطرنج ، يرقصون ويغنون ، يلقون المحاضرات ويستمعون لها ، ويعقدون الصداقات ، ويحبون ، ويتشاجرون - بعبارة أخرى ، يجدون انفسهم في بيئة شبيهة من أغلب النواحي بعالم الأسوياء . عملهم منتج ، وأغلبهم يشعر تجاهه بالطموح . لديهم هدف في الحياة ، وينتمون لمكان ما .



واقمنا حفلة هادئة للمرضى في الكريسماس . لم نزد عن أن زيننا شجرة شربين بقليل من الشموع ، والحلوى والقناديل . وكانوا سعداء كالاطفال . واعتليت كرسيا ، وكلمتهم عن المحافظة على السلام ، فذرفوا الدموع .

ووزعت الهدايا . وكان ثمة جرامافون واثنى عشر اسطوانة راقصة ، بالإضافة الى رقع للعبة السلم والشعبان تكفي الجماعة كلها . وحصل كل منهم على شيء شخصي ايضا - منديل وزوج من الجوارب لكل رجل ، ومنديل واشارب لكل امرأة . لم تكن غالية الثمن ، ولكنها وصلت الى مبلغ غير قليل بالنسبة لتسعين مريضا ، ولا شأن لكم كيف دبّرت النقود . ورفض تاتو العجوز وجو الفظ هديتهما ، بينما استمتع الآخرون تماما . ولقد راقبت وجوههم ، وبخاصة وجوه المتخشبين ، الجامدين ، وحتى هؤلاء كان يبدو عليهم الارتياح .

وقدما في رأس السنة هدية أكثر إثارة من الجرامافون . آلة عرض وبضعة أفلام صغيرة . ضمت بالإضافة الى الروايات أفلاما علمية مبسطة عن حديقة الحيوان ، والطيران ، وزراعة الفاكهة الخ ... واستمتع مرضانا بكل هذا . انتهى صنع دولاب الادوات ايضا . صنعه النجار الحزين من بقايا العروق المتخلفة عن سقف المبنى المهديم . واستغرق وقتا ، ولكنه بدا جميلا .

لا زال النجار الحزين يباشر ورشة النجارة ، رغم وجود منافسين . ولسوء الحظ فان ذلك الحزين لم يستطع تحمل المنافسة ، ولذلك كنا مضطرين الى انشاء ورشة أخرى ليعمل فيها فيريس العجوز مع مارجينا المخرف . كان فيريس العجوز يعمل فيما مضى صانعا للعجلات ، بينما كان مارجينا يعمل بالنجارة . وتخلّى فيريس العجوز مؤخرا عن عادته في مخاطبتي بسعادة الكونت ، والتي تشعرني بضالة شأني ، ولكنه ، من ناحية أخرى ، أكمل صناعة مخرطة بنفسه . ولم تكن هذه أولى أعماله الرائعة ، وبفضله ظلت عرباتنا قادرة على الدوران .

وكان بيلا الطائر يعمل معهم بمثابة صبي . وكان يسلي أقرانه بما يرويه من نوادر خيالية ... اي أكاذيب . فقد قدم نفسه باعتباره مراسلا ديبلوماسيا متجولا وخبرا بالطيران اشرف على انتاج الطائرات في موسكو وأنه طار على ارتفاع خمسة وثلاثين ألف قدم بسرعة اثني عشر ميل الامر الذي سبب في انهياره العصبي وتعرضت طائرته للقصف خمس مرات ، واوقفه الالمان قبالة حائط الاعداد ثماني مرات واصيب في رأسه اربعة عشر مرة ... كما ابتكر ايضا أجنحة نفائثة يمكن ان تثبت في ظهر الشخص ، وتساعد على الطيران بسرعة اثني عشر ميلا في الساعة .

ويقوم بطل الفضاء الخيالي الان بصناعة نماذج من الطائرات في الورشة ، في تكاسل وبلادة ولكن بمنتهى الرضى . ورغم ماضيه المجيد فقد كان خلوا مسن العجرفة .

وتراخى العمل في ورشة الحدادة قليلا منذ ذهاب لويس المتعدد المهن الى منزله . وحل محله لفترة ما بيلا صانع الأقفال الطفيلي المريض بالصرع الكاذب ، ولكنني طردت بيلا . طردته لان ليس من حقه ، ما دام طفيليا أن يبدي تعاليه وقحته على المرضى الآخرين . كنت أعلم انه حالما يصل الى بودابست سيشرع فوراً بالتظاهر بأنه أصيب بنوبة صرعية ، وسيرسلونه الى ليوبتيمزو او أنجبالفولد،

ولكن لم استطع أن أمنع ذلك . لقد اعتقد الأطباء الذين شاهدوا نوباته المزمومة انه مريض حقيقي بالصرع . ولقد شاهدت هذه النوبات . كانت لدى بيلا فعلا ، وبرغم نوباته المزيفة ، سمات المريض بالصرع . لكن هذا ليس سببا لتبطله على حساب الدولة بينما هو قادر على العمل ، ومضايقته للمرضى الحقيقيين .

وتولى بول الراقص مباشرة ورشة الأقفال بعده ، وتلمذ عليه اليك الهامس . كان بول الراقص احد معاهد آمالنا . كان يمر بالمراحل الاولى من الفصام كما لو انه تعلمها من احد المراجع الطبية . وسرعان ما تبدل اتجاهه الاجراري الانطوائي ، وتفتح كالوردة . ثم كتب له ابوه انه قادم لزيارته ووافقت على حضوره وأرسلت بول الى المحطة ليستقبله . وصعق الوالد لحضور ابنه لمقابلته ببساطة عند محطة القرية التالية . لقد استمر يجلس لمدة عامين في احد الاركان ، لا يجيب على الاسئلة الا بصعوبة ، ملقيا اتهاماته او مستغرقا في الصمت ومع هذا كان بول في انتظاره على المحطة ، وانطلقا سويا الى الجرانج ، يثرثران ، ثم شاهد بول يشارك في الرقص ويلعب تنس الطاولة ، غاية في البهجة والتلقائية مما اثار دهشة الوالد حقا .

ولما كنا سنقيم لصناعة الأقفال ورشة خاصة خلال الربيع القادم ، فسان النجار الحزين سوف يصبح بمفرده مع مساعده . ولقد تم ايضا شفاء النجار الحزين ولم يعد حزينا . لقد أبقيناه فحسب لانه لا يجد مكانا آخر يذهب اليه ، فاذا تركناه ، سيعود لحزنه من جديد . وكان يحاول الان استئجار حجرة في القرية المجاورة ، او في احدى المزارع . وسوف يعيش هناك ، ويحضر للعمل كمشرف على ورشتنا حتى يتوفر له المال الكافي لافتتاح ورشة خاصة .

وتجمع معظم المرضى في ورشة صنع السلال ، هربا من برودة الشتاء . لم يمض على المرضى وقت طويل حين كانوا يرتدون الاسمال البالية ويرتجفون داخل الورشة المعبقة بالدخان حيث يقومون بتنقية البازلاء تمضية للوقت لم يعد نفس الموقد يدخن ، وانما يشتعل الان بصورة رائعة مؤكدا أن المواعد انما تدخن حين لا تتناولها يد الرعاية المناسبة . ومنذ حل ويندي العجوز عندنا ، عملت جميع مواعدنا على الوجه الاكمل . واكتسى نفس المرضى بصورة لائقة . كان هذا نتاجا لمهركة الربيع . لم يعد (بلا كلام فارغ) وشركاه يجرؤ على انفاق ميزانية كساء المرضى على اي بند آخر .

لم يكن غريبا اذن ان ينجح العلاج بالعمل هذا الشتاء بصورة افضل عما كان عليه في العام الماضي . كان لدينا قلة من العمال المهرة ، من أمثال جون صانع السلال المصاب بالصرع ، وجون محطم الاحواض ذو النزعة الفلسفية وفرائك الماجن المتخبط . تعلموا مهنتهم على يد المرضى باكاتش ، الذي كان صانعا محترفا للسلال ، على الرغم من أنه لم يصنع سلالا جميلة كتلاميذه . واضفى جون محطم الاحواض على سلاله جاذبية خاصة . لم يصنع اثنين متشابهين قط وكانت كل واحدة تعبر عن تهوياته الغصامية الشاعرية (لا يعني هذا ان سلاله كانت

غريبة او مضحكة ، بل كانت تتسم ، على العكس ، بالتصميم الفريد ، والاضافات الحلوة الصغيرة التي تخرج بها عن سخافة المؤلف) . واشتغل جادلوا الاليف بحماس عن العام الماضي . وصنعوا مساحات جميلة للأقدام ، ومشايات ، وشرعوا مؤخرا في صنع الصنادل . كانت هناك قلة تكتفي بالوقوف في احد اركان الورشة ، وقد بدا عليها الضجر ، ممن جاءوا في طلب الدفء لا العمل . ولم نجبرهم عليه اذ ان الامر سيصبح بمثابة السخرة بالنسبة اليهم . لقد تعلمنا ان اضعاء المعنى على العمل هو الذي يعطيه قوته العلاجية . ففي الامسيات يصبح هؤلاء الذين كان يبدو عليهم الضجر خلال النهار اكثر اهتماما بالامور . كان فصل الكرنفال ، والرقص في كل ليلة . ودارت آلة العرض ايضا . وتزايدت اسطوانات الجرامافون . وباشر ليز هالماجي المدرس الكحالي الاشراف على نادي المرح فكان اكثر اقتدارا من بيتر الشهيد او من المعالج المهني ذي الاذن الموسيقية الصماء لدرجة اصبح معها الاستماع الى الكورال متعة . وظهر أبطال جدد لتنس الطاولة الى جانب جاس ليبانكاوي ولويس لافتر ، واصبح جوليوس الميكانيكي الان هو اللاعب المفضل ، أما بول الراقص وفرانك الماغن فقد بدأ يخمها في الصعود (كانوا جميعا من حالات الفصام الحادة ، ويبدو أن تنس الطاولة أصبح وقفا على الفصامين . وحين كانت المخالفة التي يصاب بها ارنست المزدوج تمنعه من الاجابة على اية أسئلة ، كان يظل كلفا بالبينج بونج ويلعب مباراة ممتازة) . كذلك كان فرانك الماغن خصما لا يستهان به في الشطرنج ولم يكن مهلوسا اثناء اللعب كما يفعل لويس الضاحك وتاتوا العجوز ، ولكن كانت تنقصه براعة التفكير والتصميم المتوفر لدى جاس ليبينكاوي . وكانت قمة السهرة حين يرقص مارجيتا العجوز - الموجيك السابق - رقصة القوازك الروسية ، او حين تتخلى جيزيل ذات الشامة عن غليونها وترقص التشارداس مع اليك فم الضفدعة . منذ ستة اشهر خلت كان اليك فم الضفدعة صامتا كالقبر . بينما يرقص الان كالجمل وترقص جيزيل ذات الشامة كالغوريلا .

كنا نقضي وقتا ممتعا ، وكنا مع هذا نتطلع الى الربيع .

يجب أن يتضمن حسابنا اشياء أخرى عديدة . لقد ابتعنا ملابس للمرضى مثلا بمبلغ ٢٥٠٠ فورنت من مدخراتهم . وكان هذا بمثابة متعة مزدوجة - حين حصلوا على النقود أولا ، وحين تحولت ثانية الى معاطف او سراويل او أحذية . يجب ان اذكر بضعة كلمات عن ارباح المزرعة . لم اكن احاط علما بالارقام المضبوطة اذ ابقاها امين المخازن سرا عني . والواقع ان الارقام لا تستهوينسي كثيرا . اهتمت بشيء واحد ، اننا لا نخسر . على الرغم من ان الورش لم تكن مستغلة تماما بسبب عدم توفر المواد الخام . ولقد ناضلت من اجل توفيرها بعض الوقت ، ثم استسلمت . الا يكفي ان يكون المرء حواريا وحارسا في نفس الوقت ، ليكون امينا للمخازن ايضا . كان يجب ان اتولى ذلك ، لكنني لم اكن موهوبا في هذه الامور . على كل حال لم يصب مرضانا شيء من هذا الربح المتزايد . أما

بالنسبة لكاسب المستشفى ، فقد كانت كافية لبث القلق في نفس أمين المخازن . وان لم تقلقه كثيرا ، اذ كان أكسل من أن يقلق ، ولكن اذا سارت الامور معه على ما يرام ، فستصبح على ما يرام بالنسبة لي ايضا . أشد ما يستهويني هو هذه ال (اذا) . . ففي وسعي أن أثبتن انه اذا استقلينا عن المستشفى ، واذا توفر لنا أمين مخازن قادر يدبر عمله بذكاء ، واذا استطعنا تطوير المزرعة ، لامكن عندئذ أن نكتفي المؤسسة ذاتيا .

ويقتضي الامر ان أقول المزيد عن معاوني من الممرضات . كان لدينا ذات يوم سبعة ممرضات (بما فيهن المنوبات بالعنابر) وأصبح لدينا تسعة الان . ولقد استطعنا المطالبة بالتاسعة بعد أن زدنا عدد المرضى من ثمانين الى تسعين ، وحوّلنا المخزن الى عنبر للنوم . وظل العدد رغم هذا قليلا جدا .

ولم يكن من الصعب كسبهن . لم يبق من الفريق الذي بدانا به الا تاتي وهامستر وإيما . بينما انسلخ الآخرون . اما الجدد فلم يكن ممرضات من قبل ، فلم يعرفن بالتالي أن الامور يمكن أن تختلف . او سرعان ما أدركن أن العطف يجعل الامور اكثر يسرا بالنسبة لهن . لم يستطعن بلوغ مستوى إيما وروزي والسيدة الاولى ، ومع هذا فقد استطاعت هؤلاء الفتيات الفلاحات الصغيرات الأميات أن يفهمن ما لا يفهمه الاطباء في المصححات الاخرى غالبا الا بشكل نظري . كان لدى الممرضات فرصة ميسرة حقا ، ما عليهن الا أن يكن ودودات مع المرضى وما عدا ذلك سوف يسير على ما يرام . وحين كانت الممرضة إيما في بودابست تتلقى تدريبا ، ذهلت للفارق بين أساليبهم وأساليبنا . وخجلت من الاعتراف بأنها لا تعرف كيف تضع مريضا في قميص الكتاف نظرا لان هذا ليس من الامور الشائعة في الجرانج . وكان لديهم مريضا مقيدا لا تجرؤ الممرضات على مجرد الاقتراب منه ودون أن تعرف ذلك ، مضت إيما اليه ومشطت شعره ، وأطعمته ، وجلست تجاذبه الحديث . ومرو الطبيب المنوط ، فتدلى فكه من الدهشة ، ثم قال لبقية الممرضات :

«هل رأيتن ، تلك هي مشكلتكن . . . انكن لا تحبين المرضى» . وحاولوا استبقاء إيما لديهم . ولكنها لم تكن لتتخلى عن الجرانج . ومع هذا لم يكن من السهل حل مشكلة التمرريض في الجرانج . لقد كنا محظوظين مع إيما التي كانت تعمل كموظفة بريد في رومانيا ، والتي كانت تشعر أن في عملها كمرمضة بالجرانج حل لمشاكلها . ولكن كان هناك ايضا بيكاتشي على سبيل المثال ، الذي كان يعمل في صناعة السلال . وطالما كانت هناك صعوبة في الحصول على المواد الخام ، فمن الانسب أن يكون ممرضا - ولكن ماذا لو عادت صناعة السلال واثبتت انها اكثر ربحا . ثم كان هناك ايضا بيك الهادي الوديع الذي يشبه المصارعين ، والذي سيعود لتجارة الفراء حالما يصبح ذلك في امكانه . وهم محقون لان أجورهم كانت ضئيلة جدا . ماذا عن الشابات - ما الذي ينتظرهن أما آن فقد اقتنصت هامستر ، الشاب الوحيد الذي في سن الزواج - ولكن أي

مستقبل ينتظر الأخريات . كانت روزي جوهرة لا تجد من يقتنيها - ولا ريب انها سترغب في الزواج ان أجلا او عاجلا ، ولكن من الذي سيتزوجها هنا ؟ لقد شجعت الفتيات على مغادرة الجرائج والبحث عن مكان جديد قد لا تتوفر فيه مثل هذه الظروف الطيبة ولكن يمكنهن فيه الالتقاء بالشبان . وإلا فسوف يصبحن ان أجلا او عاجلا عانسات مسنات قبيحات - ليحفظ الرب المرضى منهن . لا ريب أن الامر كان يصبح غاية في البساطة ، لو أن الجرائج كان اكبر قليلا ، ولدينا خمسين ممرضا بدلا من تسعة ، اذن لوجد كل شخص رفيقه ، ولما عاد الجرائج مجرد محطة انتظار بالنسبة لهم .

ولقد كان المعالج المهني في نفس القارب ايضا . وشاب متحمس كهذا مطلوب بيد ان هؤلاء الشبان المتحمسين يطالبون بأشياء ليس في وسع الجرائج ان يوفرها . ومن بين الدفعة الجديدة من المعالجين المهنيين ، كانت لدى القلة موهبة ملحوظة . كانوا يهتمون بالمرضى ، ويهتمون بمهنتهم . اذ لم يختاروها بمحض الصدفة . واعتقد انهم في بعض الاحيان اشد اهتماما بالمجنون من الاطباء . صحيح انهم يفقدون طريقهم بسهولة في قصر التيه الذي يبنونه من الخيال الفج ، ولكنهم أصحاب خيال على الاقل ، يريدون شيئا ، حتى ولو كانوا سذجا في بعض الاحيان . وكان في وسعهم بكل تأكيد التعامل مع المرضى بصورة أفضل من الاطباء . فلديهم الصبر ، ولا يرون في الامور مساسا بكرامتهم .

قال لي طبيب عجوز ذات مرة : حسنا لا يمكن استبدال المعالج المهني بالطبيب . فكانت إجابتي : انت على صواب ، ولكن لا يمكن احلال الطبيب محل المعالج المهني ايضا . كلاهما مطلوب ، بل ومطلوب منهما ما هو اكثر بكثير مما يتوفر الان . فنحن مثلا بحاجة الى اثنين من المعالجين المهنيين على الاقل لمرضى الجرائج التسعين ليشأروهم خلال العمل ، واللهو ، والتعلم لا يمكن لرجل واحد ان يدرب من السابعة في الصباح حتى العاشرة في المساء ، ويتواجد في أماكن عدة في وقت واحد ، مهما بلغ طموحه . وللشباب رغباته ايضا ، فهم بعد يرسبون في القراءة والدرس ، وعقد الصداقات والرقص والخروج مع الفتيات ، والا يكونوا على قدر الامكان على مبعدة مائة وخمسون ميلا من الحضارة .

كان هذا ضروريا اذ لا تعتمد «الروح الجديدة» في المصحات العقلية على ما اذا كنا نستخدم قميص الكتاف ام لا ، وانما على ما اذا كنا في حاجة اليه . ويقرر هذا مسلك الاطباء ، والمرضين والمعالجين المهنيين .



ولقد كان ثمة نوعين من المرضى في القفص الذهبي . المجانين الحقيقيين ، والسيكوباتيين وضعاف العقول . وكان معظم المجانين الحقيقيين من الفصامين . بينما يتضمن السيكوباتيون المرضى بالصرع . والهستيريون ، ومدمني الكحول

والمشاغبين . وتشتمل المجموعة الأخيرة على ستة وخمسون من ثلثائة مريض
قضوا ثلاث سنوات بالجرائح (سبعة وعشرون مصابا بالصرع) وستة هستيريون
وثلاثة عشر مدمن كحول ، وعشرة من المشاغبين) . وبالإضافة الى الستة وأربعون
من ضعاف العقول يكون المجموع مائة واثنتين . وهكذا كنا ، من اجل الفصامين،
نعامل ثلث مجموع المرضى كأنهم فصاميون . وبعبارة أخرى كنا نعد احتياجاتنا
بحيث يتلاءم مع الفصامين ، فيما يتعلق بالعمل وقرار النظام ، ولم يكن هذا
كافيا بالنسبة للسيكوباتيين .

كانت هذه خبرة هامة . ما دمنا نتعامل مع أنواع شتى من المرضى سويا ،
فمن الطبيعي أن يتلاءم التعامل مع أولئك الذين أشد مرضا . ولكن هذا ليس
سليما تماما بالنسبة للحالات الأقل صعوبة او بالنسبة لسير العمل بالمؤسسة .
لقد تحدثت عن المتطلبات لا عن انجازات العمل الفعلي . ان الفصامين
يعملون احيانا بكفاءة اكبر ، وينجزون اكثر من السيكوباتيين ، وان لم نطلب هذا
منهم قط . وادرك السيكوباتيون وضعاف العقول أننا نشجع ولا نجبر ، فكانوا
يستفيدون من ذلك احيانا . وقد يفيد الحبس احيانا مع المشاغبين . وقد يكون
من المفيد حرمان الطفيليين من الطعام او ما شابه ذلك من ضروب العقاب الفعال ،
لكن لم تكن روح الجرائح تسمح بذلك .
يجب شفاء الفصامين اولا ثم تعليم الطفيليين .

ولقد قال ماكارنكو انه لا يستطيع أن يتصور كيف يكون التعلم ممكنا دون
عقاب . وانا ايضا لا أستطيع أن أتصور ذلك . ان التضييق على المشاغبين لم
يكن يكفي دائما . ولكن لم يكن في وسعنا أن نلجأ الى عقاب اكثر شدة وثلثي
مرضانا من الفصامين اذ يصبح ما هو عقاب بالنسبة للمشاغبين مدعاة لاضطراب
الفصامين .

ومن ناحية أخرى ، لم يبال الفصاميون بمقدار ما يتحصلون عليه من نقود
نظير عملهم . كانوا يريدون أن يقبضوا ، وان لم يتضح لهم مبلغ ضالة (٣٠ - ٤٠)
فورنتا التي يقبضونها في الشهر ، على حين كان ينعدم الحافز للعمل لدى
السيكوباتيين ما لم يحصلوا على اجرهم . وكان للطفيليين العذر في تبطلهم ، فهم
لا يعملون مقابل قروش زهيدة .

خلاصة القول ، احتاج ثلث المرضى الى أسلوب مغاير ، نظام اشد صرامة
واجور اكثر انصافا . في نفس الوقت الذي يصعب فيه التضييق على المجانين
الحقيقيين . وهكذا لم تحل مشكلة تعليم هاتين المجموعتين في عناصر مختلطة
اذ كانوا يشوشون على بعضهم بعضا .

من الخطأ أن نفترض انني أحبذ ضربا من العلاج بالجلد للسيكوباتيين وضعاف
العقول . فهذا أبعد شيء عن الصواب . اذ يعتبر استخدام القوة لاقرار النظام
وسيلة غير عملية في اي مجتمع . كل ما أقصده أن الطفيليين بحاجة الى ضرب
مخالف من اقرار النظام من الفصامين . اذ يجب أن نوفر لهم عالما مرحا بهيجا

بدورهم ، ويجب أن يتنوع عملهم . ويجب اعداد المرضات لآخذهم بالشفقة كما لو كانوا فصامين . ولكن يجب مطالبتهم في مقابل ذلك بالنظام والتنظيم والعمل بصورة طيبة . فإذا لم يستجيبوا ، وجب أن تسحب كل حقوقهم منهم تدريجيا الى درجة الطرد الكامل . ومن الواضح أن الفصامين لن يدركوا أن الطرد يعتبر عقابا ، ولكن يمكن استمالة الطفيليين بلا استثناء عن طريق الإبقاء عليهم فسي المؤسسة . اما القلة التي ترفض الإذعان فيجب طردها من الجماعة قبل أن تشيع الفساد في الباقين . يجب أن تكون القاعدة الاساسية في علاج الطفيليين هي أن توفر لهم أقصى ما في الإمكان وأن تطالبهم مقابل ذلك بأقصى ما في وسعهم . يجب أن يعالجوا من طفيليتهم ، هذا ما يجب أن يركز عليه الطبيب والمعالج المهني والممرض . ومن الواضح أننا لا نتوقع هذا من الفصامين المهلوسين أو مرضى البارانويا الذين يصارعون حوازمهم . ويكون من المستحيل إذن ايداعهم سويا مؤسسة واحدة ، او على الأقل فانه يجب فصل المجموعتين بوحي - من وجهة نظر النظام وانجاز العمل . وليس ثمة ضرورة لتطبيق هذا الفصل بصورة صارمة ، فربما يطالب ضرب من الفصامين بالاقامة بين السيكوباتيين منساقين وراء امكانية المزيد من الكسب ، ويصبح في وسعهم الصمود ازاء النظام الاشد صرامة . ومن ناحية أخرى ، فقد يقيم ضرب من السيكوباتيين مؤقتا بين المجانين ، ثم تتيقظ فيهم الرغبة في العودة للاقامة بين المرضى «الأسوياء» . ويخلق هذا أيضا درجات بين المرضى ويثير طموحهم للاقامة وسط جماعة ذات قوانين تحملهم المسؤولية ، او بعبارة أخرى تتشابه الى حد كبير وقوانين المجتمع السوي .



لم تزل اعشاش الطيور في المبنى خالية ، وان عادت احدى البجعات الى المدخنة . وتباطأت الاشجار ذات الاسماء اللاتينية في ارتداء ملابس الربيع ، ولم تظهر بعد اية علامة على أن شجيرات الكستناء سوف تقدم اشجار عيد الميلاد القرمزية الصغيرة هذا العام ايضا .

انه الربيع كعادته ، وان تأخر في المجيء . وانطلق المرضى يغادرون ورشة صناعة السلال التي تبعث على السأم ودبت الحياة في الحديقة .

لدينا العديد من المشروعات ، ما يكفي لخطة خمسية . ورشة جديدة لصناعة الاقفال وركن للاحذية من الانقراض . وحجرات للممرضات مكان حجرة المخزن المعتمدة، بعد أن تفتح بها نافذة . ونحتاج الى مطبخ لآسرة هامستر المتزايدة . ومفصل لهيئة المستشفى . وممرات الحديقة التي لم يتوفر لنا قط وقت لاعدادها . وسور حول الفناء الذي نزمع انشاءه . وحاجز لكسر حدة الرياح خلف خلايا النحل التي نزمع انشاءها . وكنا محظوظين لان علاقتنا بويندي المعجوز كانت على ما يرام الان ، فكان يعمل بحماس وبلا كلل . لم يدبر بعد كيف يتواجد في كل مكان في

نفس الوقت ، ولكنه تقبل تدريجيا حقيقة انه ليس هو الذي يعمل فحسب بل المرضى ايضا . ولقد عملوا فعلا . كان امير الحزن هو الوحيد الذي لم يكلف بعمل ، اما كل من عداه فكان يصنع شيئا . لم يزاولوا جميعا أعمالا ذات قيمة . فكان فرانك اللائم نفسه مثلا لا يعمل الا اذا وقف شخص الى جانبه . ويصدق نفس الشيء على شارلي الملحق ومع هذا لم يكن عمله يساوي مليما . وعادت حالة ماري البلهاء لتبدأ من الصفر . وكان ستيف تفاحة يعزق دائما حيث لا ينبغي له ان يعزق ، واهيانا كانت كاميلا الشاطيء او تيبور العجوز يتجولان لايام وهما يسبان وبهلوسان ، ولا يصنعان شيئا ، ويلعب ايفان الكسول المساكة مع لبس العجلاتي حين لا يجدان احدا يراقبهما ، اما الاغلبية فاستمتعت بالعمل .



سبق أن رأيت بول المشوش منذ ستة شهور مضت في المؤتمر التذكاري حين حاول ذر الرمال في عيون الجميع بمشروع عن المؤسسة ذات الالف وخمسمائة سرير ولكنه لم يخذعني . فأرسلت اليه تعليقا مضحكا أشبه بقصة الامنيات الثلاثة المدون أصلها في مجموعة القصص الشعبية المجرية . يدور على النحو التالي :

يحكى انه قديما ، عاش في احراش غابات بورتسوني ، رجل فقير وزوجته . وفي احدى الليالي ارادت المرأة ان توقد نارا ، لتطهو الطعام ، فلم تجد وقودا . وحين عاد الفلاح الى المنزل ، قال مبتهجا :

«حسنا يا امرأة ، ليس في وسعك تخمين ما حدث . لقد انتهى فقرنا ، وسوف نحصل على كل ما في مقدورك ان تمنيه» .

«رويدك ، لا تمضي في الهذر ، هل وجدت كنزا ، ام ماذا ؟»

«بل ما هو اكثر من ذلك . بينما كنت اجتاز الغابة ، خمني ماذا رأيت في منتصف الطريق أبصرت عربة ذهبية صغيرة يجرها سنجابان ، مفروشة هناك في الوحل الكثيف ، بداخلها أجمل جنية في العالم . مضت تستحث السنجابين بسوطها الذهبي» . اجذبها ، ايها القائد الصغير ! اعطها دفعة ايها القائد العظيم ! وكان كل ذلك عبثا ، اذ لم تتزحزح العربة .

لقد هوت في اوحال بروتسوني

«قالت الجنية ، ايها الرجل الطيب ، هلا ساعدتني على الخروج من الوحل فساعدتها طبعاً . أمسكت بالعربة الذهبية ورفعتها من الطين بالجنية والسنجاين» .

«أنت دائما ذو قلب طيب ساذج» .

«قالت الجنية ، حسنا يا بني ، العمل الطيب يجزي تمبله . اذهب الى منزلك واجعل زوجتك تتمنى ثلاث أمنيات ، اي شيء تريد . ولن اكون بول المشوش اذا لم تتحقق الامنيات الثلاثة فورا» .

قالت المرأة : «اسمع ، لا تفيظني ، وأنا غير مهيأة لذلك» .

«لا توبخيني ، ودعينا نحاول ، تمنى شيئا» .

«حسنا ، لن أكسب ولن أخسر . ولكن ما الذي أتمناه . أتمنى أن تصبح رئيس الأطباء في الجرائج» فليحفظني الله ، يا للغربة . ففي نفس اللحظة تحول الرجل الفقير وأصبح رئيس أطباء الجرائج . وهكذا تم ذلك .

«والآن تمنى شيئا أكثر حكمة» هكذا قال الرجل الفقير الذي تحول الى رئيس للأطباء لزوجته . وحكا راسيهما يفكران فيما يتمناه - شقة للطبيب ، ورش ، معدات ، خامات ، مباني جديدة ، أمين مخازن وبينما يتفكران ، اخذ رئيس الأطباء المسكين يشعل غليونه ، لكن الكوخ الرطب أفسد تبغه ، فلم يشتعل بالنار . وبينما يلعب في غليونه بصورة خرقاء ، غضبت المرأة وصاحت فيه : «ايها الآخرق ، أتمنى ان ينمو فوق أنفك المدير (لا - بلا كلام فارغ) !»
وحدث ذلك بأسرع مما قالت . نمت المدير (لا - بلا كلام فارغ) فوق أنف الطبيب المسكين .

حسنا ، ايتها السماوات الطيبة ، لقد حزن الرجل المسكين وزوجته . ماذا ينبغي أن يفعل الان ، والى اين يتجهان . وقال الرجل المسكين :
«يجب ان أتخلص من هذا الرجل يا امرأة . انتزعيه .»
وحاولت المرأة فلم تستطع ان تنزعه .
«يجب بتره بكل تأكيد ، وسيلكلفك هذا جزءا من أنفك ايضا ، لكن هذا لا يهم .»

«لا . لا يمكنني أن اتحمل ذلك !»

«حسنا ، ما دمت لا تريد ، فإمض اذن بالمدير (لا - بلا كلام فارغ) فوق أنفك .»

«وهل أظل مشوها بقية عمري .»

احتارا ماذا يفعلان .

«اسمعي يا امرأة» هكذا قال الرجل المسكين ، «اطلبي من الجنية الطيبة أن تبتر (لا . بلا كلام فارغ) من فوق أنفي .»
«يا لها من فكرة . ستكون هذه هي الامنية الثالثة . وابن ستذهب كل الاشياء الحبيبة التي اردت أن أتمناها - من أجلنا ، ومن أجل رجالنا ، ومرضانا ومرضانا»

«لا فائدة يا امرأة ، لا أستطيع أن أمضي بمثل هذه الحلية ، اسرعي ، وتمنى أن يسقط عن أنفي» . ولم يكن ثمة بد من ذلك ، فتنهدت المرأة وقالت :
«ايتها الجنية الطيبة ، اسقطي المدير (لا - بلا كلام فارغ) عن أنف زوجي العزيز»

كانت هذه نهاية القصة . لكن الرجل المسكين لا يزال جالسا في الجرائج (ولا - بلا كلام فارغ) فوق أنفه . لقد نسيت الجنية الطيبة كل شيء عنهما . ولم

تحقق أمنيتهما الثالثة .

وتخيلت أن بول المشوش سوف يفكر كيف ينتزع (لا . بلا كلام فارغ) من فوق أنوفنا . ولكن حينما التقينا ، وجدت في رأسه شيئاً مختلفاً تماماً .
«كانت قصة رائعة عن الامنيات الثلاثة ، فعلاً . لقد أضحكت القسم كله عدة أيام .»

«هذا حسن .»

«ومنذ ذلك اليوم ونحن نشحذ رؤوسنا ونناقش»
«أجل .»

«كيف نسجل رسالتك في السجلات . لانني اصررت على تسجيلها .»
وهكذا عرفت على الاقل ما الذي يشحذون رؤوسهم من أجله في القسم .
واتمنى أن يكونوا قد حلوا هذه المعضلة الصعبة الآن وضمنوا خطابي في السجلات .
وافق يوم التاسع من ابريل عيد مؤسستنا الثالث . وكانت فرصة طيبة لعرض النتائج ، النجاحات والفشل . ترى هل حققنا اياً من المهام التي اقيت على عاتقنا . اعتقد اننا فعلنا ، وبصورة لا بأس بها . ولكن اذا تعين عليّ أن اذكر على وجه السرعة ما هو جوهر ما أنجزناه ، لوجدتني شديداً . ربما يتعين عليّ أن اقول بادئ ذي بدء اننا وضعنا يدنا على المنهج . ولكن بعد تعمق دراسة تراث الطب العقلي ، ارى ان هذا امر مبالغ فيه . أترانا اكتشفنا ما لم يسبقنا اليه احد .
استطيع أن ازعم اننا اكتشفنا ما افقده سابقونا . ربما استعنا بالحريّة بطريقة اكثر ليبرالية عن سابقينا . ويبدو اننا بذلنا المزيد من الاهتمام لشغل المرضى عقلياً وفيزيقياً عما هو مألوف في المؤسسات المشابهة . لقد قرئنا شيئين يصعب فصلهما بأية حال - المشاعر الفردية الطيبة والشعور بالانتماء لمجتمع . لقد أنمينا الشعور بالمسؤولية لدى من اعتادوا الا يكونوا مسؤولين عن أفعالهم ، حتى ولو ارادوا . ولقد تعلمت أن الاعتقاد بأن المجنون ليس مسؤولاً عن أفعاله خطأ فاحش . توجد بالطبع ثمة حالات كهذه ، ولكنها قليلة جداً . ولا تخلق المصحات العقلية العادية نوعاً من عته المصحات (نتيجة لنوع المعاملة عادة) لدى المرضى فحسب ، لكنها تنتزع منهم كذلك احساسهم بالمسؤولية . والوقوف في وجه هذا من صالح المجتمع كما هو من صالح الافراد ، وبالنسبة للطبيب العقلي ، فليس هذا من قبيل الاهتمام بقدر ما هو من قبيل الواجب المنهج ... لم اشعر اننا مستعدون لان نضع منهجاً . اذ تنقصنا العديد من مناهج العمل التي تتلاءم مع الأنماط الكثيرة من مرضى العقول . ولم يكن نوع العمل الذي يؤديه المرضى الجوهر وانما الاتجاه الانساني . فيجب تدريب المرضين على معاملة المرضى بعطف . اذ يتوقف على ذلك كل ما عداه . ليس من الضروري مناقشة الاسوار وقمصان الكتاف ومبدأ «اللاقيود» او «نظام الباب المفتوح» مع أولئك الذين يدركون هذه القاعدة الاساسية . في وسع الناس البسطاء عديمي الخبرة المسبقة أن يتعلموا ذلك ، هذا هو الدرس الاساسي المستفاد من أعوام الجرانج الثلاثة . ولم يكن ذلك صعباً ، لانهم كانوا يخبرون مميزاته العملية كل يوم .

وخرجنا على مر السنوات بشعارات قلائل تلخص روح الجرانج : «حياة حافلة» - «بيئة صناعية ولكنها ليست غير طبيعية» - «متعة العمل الخلاق» . وكانت هذه الشعارات صحيحة بالتأكيد ، وان لم تعبر تماما عما قدمه الجرانج لنزلائه لم يتضح بعد مفهوم **المنزل** . يعتبر هذا الضرب من العجز عن الانتماء لمجتمع جوهر الجنون ، ولا يمكن التغلب على هذا الا اذا اشعرت المريض بالانتماء الى مكان ما ، انه ينتمي اليها ، الى هذا المجتمع الخاص الصغير ، هذه الاسرة الكبيرة - ومن خلالنا ، ينتمي الى العالم . بيد ان الانتماء اليها يتضمن خطرا آخر . فهؤلاء المرضى قوم مجروحون نبذهم المجتمع . وحاولنا الان ببالح المشقة مساعدتهم ليجدوا مكانا في مجتمع صناعي - ولكن ما الذي سيحدث لهم فيما لو اقيناهم في العالم الحقيقي - العالم الذي امريضهم؟ كان هذا سببا في عديد من الانتكاسات . ليس في وسع اولئك الذين كانوا اصحاء نسبيا اثناء اقامتهم بيننا ، واستطاعوا العمل بنجاح، وشعروا بانهم على ما يرام ، ان يعملوا بالضرورة دون بعض المساندة . هل في ذلك اية غرابة ؟ انه لو بترت ساق انسان ، فزودته إحدى المؤسسات بساق صناعية تعلم السير بها ، واذا سحبت منه الساق الصناعية واطلقوه وطالبوه بأن يسير ، فلن يدهش احد اذا عجز عن الحركة . ان التأهيل الاجتماعي للمرضى الذين يغادرون المستشفى مشكلة لا تزال تنتظر الحل . - ولكن الى متى ! وحتى يتم حلها سيظل العمل المبذول في جميع الاقفاص الذهبية نصف ما يجب ان يتم .

الجزء الثاني

الفصل الاول

تاريخ العلاج بالعمل

ارى لزاما عليّ ان اقرر منذ البداية انني حين حضرت الى الجرانج لم اكن اعلم شيئا عن الكتابات التي تناول العلاج بالعمل . كنت اعرف - طبعا - ان د. فيليب بينل Philippe Pinel اقترح حوالي عام ١٨٠٠ تشغيل مرضى العقل ومعاملتهم معاملة انسانية ، لكن احدا لم ينصت اليه . وفيما بعد قام كل من كونولي Conolly في انجلترا وفيجانيك Viszanik في فيينا بتخفيف القيود على المرضى ، وعند بداية القرن العشرين أنشأ «سيمون» Simon مؤسسة ذائعة الصيت للعلاج بالعمل في المانيا . هذا كل ما هنالك . واعتقد ان هذا هو ما كان يعرفه اطباء الامراض العقلية الآخرون ، اما اذا كانت لديهم معلومات اخرى فمن المؤكد انهم كانوا يحتفظون بها سرا لانفسهم . الا ان رغبتني في تمحيص المسألة قادتني الى التنقيب خلال ذلك الشتاء فيما وقع تحت يدي من كتب ومجلات تناول الطب العقلي ، ولم اكد انتهي من هذه المهمة حتى اصبت بالدهشة البالغة ، اذ تأكد لديّ ان النهج الذي اسير عليه في الجرانج - من علاج منظم بالعمل وترفيه مع قدر معقول من الحرية ، ومعاملة انسانية مع ما تتطلبه من حياة جماعية ونظام جماعي دون اللجوء الى العنف - ليس من ابتكاري الخاص كما كنت اعتقد من قبل . بل ان بعض الحكماء كانوا يعرفون كل تلك

الامور ويطبقونها من زمن بعيد ، وربما أفضل مما نفعل نحن الان فيما لو صدقت كتاباتهم التي خلفوها وراءهم . ومن الثابت انهم كانوا يتلقون ايضا عونا اكثر . «في عام ١٤٢٥ شهدت مدينة «ساراجوسا» مصحة تستقبل كل اناسواع المرضى ، وخصوصا المصابين بالامراض العقلية من كل الاقطار وكل الاديان تحت شعار الصحة للجميع وهناك كان المرضى يلقون رعاية حسنة ويعملون . وكانت فكرة مؤسسي المصحة لا تقوم على معالجة الانحرافات العقلية لدى المريض عن طريق العمل الميكانيكي فحسب . بل وعن طريق ذلك السحر وتلك الاثارة التي خلقها حافظ فلاحه الارض الطبيعي لدى الانسان ، وذلك حينما اضطر الى ان يجعل الارض مصدر للانتاج وبذلك يشبع حاجاته بثمرات عمله . فمنذ الصباح تستطيع ان ترى المرضى يقومون بشغل البيت (النظافة)، حمل الاخشاب والفحم والماء ، والمساعدة في الصيدلية (والتمريض) بينما يخرج البعض الآخر الى اشغال اخرى متنوعة . وكان معظمهم ، تحت قيادة ملاحظين اذكياء عطوفين ، يتشكلون في مجموعات تتفرق الى الحقول التابعة للمصحة بروح عالية . وهم غالبا ما يتنافسون فيما بينهم على تقسيم العمل الذي يختلف باختلاف الفصول فكانوا يزرعون القمح والبسلة والفلول وغيرها من الخضروات ويقومون بدرس القمح وجمع العنب والزيتون ، فاذا ما حل الليل تجدهم يخلدون الى السكون والنوم الهادئ في مصحتهم الفريدة والسعيدة في ذات الوقت . ولقد اوضحت الخبرة ان هذه هي الطريقة الاكيدة والاعظم فعالية في استعادة المرء لعقله ، كما اوضحت ان الافراد الارستقراطيين الذين يعافون العمل اليدوي وينظرون اليه بمزيج من الترفع والاحتقار ينزلون بعيدا فيظلون على اضطرابهم العقلي وهزيانهم» .

ان هذا القول الذي نشر عام ١٨١٩ لم يكن ليصدر الا عن فيليب بينل ابو العلاج النفسي الحديث ، وهكذا يمكننا ان نكتشف من خلال ذلك الاستاذ القدير ان السر كان معروفا منذ ما لا يقل عن خمسة قرون في اسبانيا حيث كانت الثقافة والحضارة قد بلغت القمة . فلم تكن مدينة «ساراجوسا» فريدة في انشاء مثل تلك المصحات ، اذ عرفت كل من فالنسيا وبرشلونة واشبيلية وقوليدو وفالادوليد وغرناطة مصحات رائعة مماثلة ، غير ان جميع تلك المصحات آلت الى الزوال فيما تلا ذلك من قرون . فلم تكد خمسة قرون من الزمان تمر حتى اصبحت المصحات العقلية غاية في الازدحام والقذارة واخذ المرضى ينامون شبه عراة ، الواحد فوق الآخر ، مقيدون بالقيود الحديدية ، او مهملين داخل الزنازين . اما العلاج بالعمل؟ فبدا وكأن احدا لم يسمع به من قبل .

وخلال الثورة الفرنسية اجاب اعضاء الجمعية الوطنية - رغم دهشتهم - دبينل الى طلبه في السماح له بنزع قيود المجانين . وقام بعمل تجربة على اثني عشر مريضا ، كان النجاح حليفه فيها جميعا ، فاتبع ذلك باطلاق سراح ٤٩ مريضة اخرى في عام ١٧٩٨ . ثم قام بنزع السلاسل عن نزلاء بيستر Bicetre وسالبتير Salpêtrier (كان الاول عبارة عن سجن منعزل ، وكان الثاني في

الاصل محجرا مهجورا لاستخراج الملح الصخري ، وما زالا يقومان حتى الان قرب باريس كمصحتين للأمراض العقلية) فأدخل أسلوبا جديدا وعلاجا نجح بواسطته في أن يسوس أكثر المجانين هياجا . وبذلك دخلنا عصرا جديدا في تاريخ الطب العقلي . ولكن كما يحدث عادة للاكتشافات التي تفتح عصورا جديدة - لم تأخذ تعاليمه في الذبوع الا بعد مرور ما لا يقل عن نصف قرن بعد وفاته . والحقيقة انها لم تتبوا مكانتها الحقيقية بعد حتى الان . فما الذي فعله اليوم ان لم يكن نزوع القيود التي تقيد جسد المريض وروحه مسترشدن في ذلك بتعاليم د. بينل ويعتبر هذا الكتاب «قفص من ذهب» استمرارا متواضعا لأعمال بينل . نرجو له ألا يصبح صوتا ضائعا في البرية .

يقدم هـ. ا. آدم A.H. Adam وصفا ممتازا للوسائل التي سادت في علاج مرضى العقل إبان العصور الوسطى وحتى النصف الاول من القرن التاسع عشر . وليس من شك في أن بعض معلوماته خليقة ببعثها من غياهب النسيان ، غير أنه ينبغي علينا أن نوضح أن ما نشر اليه هنا من الجبس والشد الى الخوازيق واحراق السحرة وطرده الارواح الشريرة بالرقى والتعاويد لم تكن انواعا من التعذيب المتعمد التي طاب للعصور الوسطى أن تمارسها بل وسائل طبية مارسها سائر اطباء القرون الوسطى المرموقين تدفعهم في ذلك الاعتبارات الانسانية والاهداف النبيلة التي ترمي لشفاء المرضى . وكان الراي السائد ان الجلد وسائر العقوبات الجسدية هي وسائل لا غنى عنها في العلاج . غير أن ثمة وسائل أشد خبثا من الضرب بالسياط كانت موضع الممارسة . فتحمس دكتور هورن E. Horn مثلا لمزايا «الوضع الاجباري» Forced porture وفيه كان المريض يعلق من جذعه بحبل في أعلى السقف مع تثبيت يديه على حائط الزنزانة كما هو معروف في وضع الصلب ويظل على هذا الحال مدة تتراوح ما بين ثماني واثني عشر ساعة . وبطبيعة الحال يرتمي المريض متعبا خائر القوى ميلا للنعاس بعد مثل ذلك العلاج فضلا عما يتملكه من خوف زائد أن يعود اليه مرة أخرى فيصير مجرد الاشارة اليه كفيلا بإلزامه الهدوء . اما الاستاذ الشهير أوتديث Outhensith فقد اخترع ما يسمى «بالكمام» mouth - gag الذي يدفع في فم المريض فيمنعه من الكلام واخترع د. رش Rush كراسي الارغام compulsion chair فكانت الضحايا تشد اليها لفترة تبلغ الشهور أحيانا ، وكانت وسيلة الترفيه الوحيدة المتاحة لهم وهم يجلسون صفا فكانت البصق على بعضهم بعضا ، ولكنهم حرموا منها بعد زجهن في «اكياس الارغام» compulsion sack التي حبسها د. هدرن بحماس بالغ ، اذ انها تجمع بين مزايا الكمام وقميص الكتاف strain Jacket وبالمناسبة فان قميص الكتاف اكتشفه احد معاوني بينل ومواطنيه عام ١٧٩٠ وهو كوربيه Quilleret وليس هاينر Hayner كما يقال أحيانا بطريق الخطأ غير أن الحظ لم يعدم هاينر القدرة الفائقة على الاكتشاف هو الآخر ، فلقد اكتشف على سبيل المثال «العجلة المخوفة» Hollow Wheel وفيها يستطيع

المرضى ان يقف مطمئنا طالما هو ساكن ، اما اذا بدا يتململ . فتأخذ في الدوران فيضطر الى القفز داخلها كالسنباب .

وأعلن دكتور هورن أن «السرير الدوار» Revolving Bed ما زال ذا فعالية اكبر فلم يكن اي مريض ليحتمله اكثر من دقيقة واحدة يصبح بعدها مستعدا لعمل اي شيء يطلب منه كي يتجنبه . ويتفق الاثنان هورن وهاینر في تحبذ العلاج بالماء البارد ، شريطة أن يستخدم كميات وفيرة وذلك بتعريض المريض لما يقرب من ثلاثمائة دلو من الماء البارد تصب على رأسه وكان هورن يؤكد شفاء العديد من المرضى بتلك الطريقة فكانت تنجح في تهدئة مرضى الهوس الهائجين واعادة المصابين بالاضطراب الى رشدهم وإنطاق الاخرس . والاغرب من ذلك نجاحها في جعل المصابين بالكآبة يستعيدون اقبالهم على الحياة . وزيادة على كل ذلك كانت تعتبر وسيلة تهذيب رائعة ، رغم انها تعطي نتائج أفضل اذا ما اندفع الماء البارد الى رأس المريض المقيد خلال أنبوبة بدلا من صبه على رأسه بالدلو . ولجأ هاینر الى ادخال مريضه فيما يشبه «التابوت» بحيث لا يبدو منه سوى رأسه ثم يقوم بوضع حوض حول رقبته كي يعيد الماء الى الحوض ويحفظ الحجرة من الجبل . وفي هذا الصدد نحب أن نؤكد - تجنبنا لما يمكن ان ينشأ من سوء فهم - أن هاینر كان يتكرر تلك الفظائع بدافع الاعتبارات الانسانية وحدها . فقد حاول تجنب الضرب والتقييد بالسلاسل فكتب يقول : «ملعون من يضرب من الآن فصاعدا اي مريض مسكين من هذه الفئة التي تعاني الشفاء وتستحق الشفقة والرافة والويل كل الويل لكل انسان سواء كان من كبار القوم او من صغارهم الذي يسمح بضرب المجانين» وأظن انه لم يدر بخلده قط أن كلماته هذه ستظل بحاجة اليها بعد مرور قرن من الزمان .

وحين استخدمت الادوية ، كان يفضل اختيار أشدها حرارة للنفور ، وعلى سبيل المثال حمض الطرطير المقيء ويؤدي تناول جرعات كبيرة منه الى تطهير الجسم واعطاء «صدمة» للجهاز العصبي . وكان تناوله باستمرار يعد ترياقا ناجعا للذهاءات لما يسببه من غثيان . وكان حمض الطرطير والزئبق يستخدمان من الظاهر ايضا فتدمن بهما فروة الرأس وتدللك حتى تتشقق . واستخدمت طريقة فعالة لعلاج الكسالى او الخبثاء او شديدي الكآبة او حكها بنبات القراض ذي الوبر الشائك . وكان من المعتقد ان زرع القراض في الجلد يعتبر علاجا ناجحا لاضطراب التفكير . اما بعض الاطباء فكان يرى ان كي جمجمة المريض وباطن قدمه في وقت واحد بأسياخ محمأة من الحديد يعطي نتائج أسرع .

ولقد ظلت مثل تلك الوسائل وما شابهها سائدة في العلاج الى أقل من مائة سنة مضت . بل وما زال بعضها ، بتحويرات حديثة سائدة، حتى اليوم نذكر منها «قميص الكتاف» و«السرير الشبكي» Net Bed و«الرباط الضاغط» الجاف منه والمبتل وتقييد المريض الى السرير ، ناهيك عن الصدمات الكهربائية التي

يتعرض لها المريض دون تخدير ، وهي تقف على قدم المساواة مع «العجلة الدوارة» .

غير أنه من الغريب حقا أنه في ذات الوقت الذي سادت فيه وسائل العصور الوسطى في العلاج ، قامت مؤسسات أخرى لا تستبعد تلك الوسائل فحسب ، بل وتطبق نوعا من المعاملة الانسانية مع أكبر قدر ممكن من الحرية . وما دام د. بينل قد نجح منذ الثورة الفرنسية في أن ينزع قيود المجانين بل واثف كتابا كاملا عن كيفية معاملتهم ، فللمرء أن يتوقع إذن وجود أعظم البيمارستانات تنورا في فرنسا . غير أن ما حدث كان خلاف ذلك . ففسي شارنتون التي تقع قرب باريس ظل «حمام الرعب» Fright Bath قائما حتى نهاية القرن الماضي . وكانت فكرته تقوم على القاء المريض على حدة في الماء البارد ويظل فيه حتى يشارف الفرق . وكانت مصحة بيستر الشهيرة Bicêtre التي قام فيها د. بينل بأعماله البطولية على درجة من السوء لا تقل عن سوء سجن يبلغ من العمر ستة قرون . وفي غمرة ما ساد في نهاية القرن الماضي من إهمال وتخلف كان ظهور بورنفي Bourneville بمثابة بصيص الأمل الوحيد .

وكان طبيبا عقليا حاول بصبر مسيحي دؤوب أن يعيد اربعمائة وخمسين معتوها الى حالتهم الانسانية السوية . عن طريق العمل والتعليم . وهو مثال ينبغي على المعالجين بالعمل عندنا أن يتعلموا منه الصبر والمنهج والإيمان . الا أن احدا لم يتعلم من ذلك المثال الرائع . ووقف الجميع منه الموقف المعتاد من أصحاب الدعوات . «فليحمل العبء كله وحده ، أخذته الشياطين» .

أما في بلجيكا فكان الوضع أكثر مدعاة للأسى ، فعلى الرغم من أن الحظ أعطى البلجيكيين بينل آخر متمثلا في شخص جيزلان Guislain الذي نجح في تخفيف قيود المرضى الى حد معين في عام ١٨٣٥ . الا أن تأثيره كان محدودا للغاية . فحتى ما بعد منتصف القرن كانت المصحات العقلية ما تزال في قبضة الدوائر الدينية التي كانت قبضتها أقوى من قبضة وزارة الصحة نفسها . كانت الطيور تمرح في الحدائق بينما المرضى يموتون داخل الزنازين والمراحيض . ولكي يسيطروا الامور على انفسهم كان المرضى يقيدون الى كراسيهم . فلم يكن العلاج من مهمة الطبيب الوحيد الذي استخدمته احدى المصحات يسكن على بعد خمسة وعشرين ميلا من المصحة ، فكيف يستطيع رعاية المرضى ؟

ومما يزيد في غرابة الامر أن «العلاج الاسري» لم يكن على تلك الدرجة من التقدم في أي مكان من العالم كما كان في بلجيكا . ففي احدى المدن المجاورة لانتويرب Antwerp والتي تسمى جيل Gheel كانت تضم ألفي مجنون الى جانب سكانها الذين لا يتجاوزون اثني عشر ألفا . وكانت مؤسسة التمرريض القائمة في جيل تبلغ من العمر عدة قرون . ويبدو أن المدينة ككل كانت تعيش من رعاية هؤلاء المصابين بالامراض العقلية . فكانت كل اسرة تستضيف في بيتها اثنان من المرضى حيث تخصص لكل منهما حجرة منفصلة . وكانت الدولة تتكفل بما يحتاج

اليه المرضى من مأكّل وملبس كما كانت تتابع ما اذا كان موضع الرعاية أم لا . وكانت الاسرة ترعاهم وتعتني بهم وتنزلهم منزلة ابنائها نظرا لما تدفعه اليها الدولة من مقابل .

اما هولندا فكانت لديها مؤسسة ممتازة في ميرنبيرج **Meerenberg** حيث كان المرضى يعيشون في أجنحة صغيرة ذات حجرات انيقة جيدة الاثاث تحت رعاية ممرضات متعلّقات يحبين مهنتهن . وكان لديهم استراحة رائعة . ومكتبة ضخمة تضم ما يقرب من اربعة آلاف مجلد وحديقة كبيرة بلا أسوار حيث كان المرضى - لا الطيور فقط - يستطيعون التنزه ، رغم انه لم يكن يبدو عليهم المرض (كما كتب احد شهود العيان) لم تكن تظهر عليهم آثار المرض لانهم كانوا يتمتعون بالحرية ، ويعملون في الورش المجهزة تجهيزا رائعا او في المزارع . كان عددهم يناهز ثلاثة آلاف مريض يعيشون بين ممرضات تلقين دراسة لمدة ثلاث سنوات كاملة في كيفية معاملة مرضى العقل . وبلغت نسبة العاملين منهم ٧١ بالمائة في الرجال و٦٢ بالمائة في النساء .

وكان الوضع في السويد شبيها بالوضع في هولندا . فغالبية المرضى يتنزهون بحرية ويعيشون في حجرات مريحة تحت اشراف ممرضات على قدر عال من التدريب ، ويتلقين أجورا سخية . ولكن لم يكن العلاج بالعمل منتشرا بالقدر الكافي ، فلم تتجاوز نسبة المرضى الذين يعملون ٣٦ بالمائة .

وفي انجلترا بدأ جون كونولي ثورة في هذا الميدان تهتدي بتعاليم د. بينل . وكان ذلك في العقود الاولى من القرن الماضي . فلقد قضى على غرف التعذيب **Yorture Ghambers** وادخل المعاملة الانسانية للمرضى وكان شعاره « لا

قيود» . كذلك ادخل الانجليز نظام الباب المفتوح . وكان يعني تحرير المرضى من الابواب الموصدة والاسوار والقضبان . ويقول احد المهاجرين (هاليداي) **Halliday** كان هناك ثلاثمائة مريض من مصحة وكفيلد **Wokefield** يعملون في الورش والمزارع . ويقرر مدير المصحة انه لم تحدث اية حادثة من جراء ترك أدوات العمل مع المرضى العاملين . وكان عمل المرضى يساهم في تمويل المصحة ويساعد على شفائهم بدرجة كبيرة في الوقت نفسه . وفي مصحة لانكستر كان جميع المرضى البالغ عددهم ثلاثمائة وستون مريضا يعملون . الرجال منهم في المزارع أما النساء فيعملون في ورشة خياطة . وكان نفس الوضع قائما في مصحات ستياتفورد **Statford** وجلوشستر **Gloucester** . ولقد اكد مدير مصحة ارماغ **Armagh** انه بعد تجريب شتى الوسائل لم يجد انجح من شغل المرضى بالعمل . وكان جميع المرضى - فيما عدا استثناءات محددة - يحسون بالامتنان حين تيسر لهم فرصة العمل . على أن اجبار المرضى على العمل كان امرا مستبعدا ولقد وصل هاليداي من استعراضه للموقف عام ١٨٢٨ الى نتيجة هي ان الصلة المنتظمة بالعالم الخارجي وشغل الجسد والعقل من أهم العوامل التي تساعد على نجاح العلاج الطبي .

وإذا ما صدقت كلمات شهود العيان فان أحوال المجانين لم تكن في أي مكان في العالم أفضل منها في اسكتلندا . وهذا هو الانطباع الذي يتركه فينا كتاب لتشورث الرئيسي . فلقد شهد منتصف القرن الماضي تحولا ضخما في مصحة أبرديني Aberdeen التي ظلت تعرض المجانين المقيدون بالسلاسل على الجمهور لقاء جمع النقود حتى القرن الثاني عشر ، اذ أصبحت تضرب المثل الرائع في العلاج البيئي والمهني لمرضاها وفق القواعد السليمة لذلك . وفي عام ١٨٣٧ أعلن مدير المصحة انه من الأفضل شغل المرضى بدلا من حبسهم خلف الأسوار وحشرهم داخل «قمصان الكتاف» ، وان جميع المرضى يستطيعون ان يقوموا بأعمال الفلاحة التي تعتبر وسيلة عيش عادية للفقراء كما انها لا تحط من شأن الاثرياء . وبذلك تم وضع المبدأ القائل «لا قيود» موضع التنفيذ ، ولم يكن ثمة ارغام على العمل فقد انشئت مستعمرة زراعية حيث كان أغلبية المرضى يقضون طيلة يومهم في الهواء الطلق وفي مصحة مورنج سيد Morningside كان جميع المرضى من الرجال والنساء يتناولون طعامهم مع بعضهم البعض (مع استعمال الشوك والسكاكين) كانت غرفاتهم المنسقة تحوي مواقد مكشوفة وازهار وطيور الكناري. وكانت المصحة تولي اهتماما كبيرا للترفيه والتشغيل معا . فكان نصف المرضى البالغ عددهم الالف يعملون في الورش والمزارع . وفي جارتلوش Gartloch كانت هناك مصحة مخصصة لفقراء المرضى وحدهم . وكانت مصحة فخمة مقامة وسط حديقة فسيحة دون أسوار ، وكان لكل مريض حجرته الصغيرة المؤثثة . ونادرا كان يهرب منها احد المرضى البالغ عددهم ستمائة مريض . وكانت المصحة تملك صالة واسعة لاغراض الترفيه وإلقاء المحاضرات وسماع الموسيقى . وكان لديهم قطع من حيوانات الزرعة جعلنا نشغل غيرة حين قرأنا عنها . وكان نصف المرضى يعمل بصورة منتظمة وكان ربهم يتجول بحرية كاملة . وكانت الممرضات يقمن مع عائلاتهن في بيوت أنيقة داخل المصحة نفسها ، ولذا كان من الطبيعي أن يتفانين في خدمة المرضى . وفي مصحة ودلي Woodilee كذلك كان المرضى يتجولون بحرية كاملة في حديقة فسيحة بلا أسوار . وكان بالمصحة قاعة فخمة لتناول الطعام ، وصالة واسعة تحس معها بالبخ . أما نوافذ المصحة فكانت بلا قضبان . وكان المرضى يمثلون ويرقصون ويستمعون الى الموسيقى . وفي ظل تلك البيئة البهيجة كان هناك علاج حقيقي بالعمل . لم يكن العمل قاصرا على من كان عملهم مربحا للمصحة ، بل ان القائمين على امر المصحة كانوا يشجعون المرضى من الكسالى على العمل ايضا وذلك لايمانهم بالعمل كوسيلة ناجحة للعلاج . ولم تكن ثمة قيود او ابواب موصدة . وكان المرضى يتلقون عناية فردية . ولم يكن للمصحة غير سور واحد ، هو ذلك السور الذي يمنع ماشية المزرعة من الخروج . ولم يكن ثمة نظير في أي مكان من العالم لمثل هذه المصحة المعدة لذلك الغرض اعدادا كاملا ، ولتلك الحرية التي يتمتع بها المرضى ، ولذلك

العلاج البيئي المستمر . وحين افارن كل ذلك بفقرنا وبدائيتنا وجهودنا التي تستثير الرثاء في الجرائع . افضل الا انساق في هذا الحديث المؤلم .

أما في ايرلنده فلم تكن الظروف على مثل تلك الدرجة من التقدم فليس هناك ما يجدر بنا أن نذكره سوى ما قام به د. لالور Lallor من جهود «مسيحية» في ذلك الميدان ، الذي نظم عملية تعليم وتشغيل المرضى في مصحة رتشموند Richmond خلال القرن التاسع عشر . ونجح في أن يجعل تسعمائة مريض من مرضاه البالغ عددهم الالف يعملون بانتظام وكانت المصحة دائبة النشاط والحركة بحيث لم يكن المرضى يجدون وقتا لديهم يفرقون فيه في اللامبالاة او يستسلمون فيه للهذات . واذا ما فكر المرء الى اي هوة انحدرت تلك المصحة الرائعة بعد وفاة لالور Lallor ، فانه سرعان ما يتساءل ترى ما قيمة ذلك العمل البطولي اذن ؟ ولكن من يدري ؟ الحقيقة أن المرضى هناك ظلوا يعيشون حياة انسانية وكانوا اكثر تماثلا للشفاء طيلة حياة لالور وهذا شيء تجب الاشادة به ، أم ترانا مسئولون ايضا عن استمرار جهودنا من بعدنا ؟

ليس معنى ذلك بحال أن عملية إلحاق نزلاء المصحة بمختلف الاعمال قد توقفت ، بل على العكس ، تضاعف عدد النزلاء واصبح لدى المصحة حوالى سبعمائة واثنين وأربعين نزيلا يعملون بين جموع النزلاء البالغ الفين ومائتين وخمسين . «يجبرون على العمل تحت وطأة استغلال يفوق ما كان يجري في عمليات تشغيل الفقراء الشهيرة في انجلترا في بداية القرن . وفي مكان «العمل الرحيم» حل نظام الثكنات العسكرية وبدلا من العلاج بالعمل قام الاستغلال والسخرة» . وكان الموقف في سويسرا شبيها بذلك حيث كانت الاستفادة من العمل أهم

من العمل . ولكن نشأ في مصحة القديس جولوني St. Gallen نوع خاص من العلاج بالعمل منذ عام ١٨٩٢ وهو «صناعة الصناديق» . ويصف مدير المصحة تلك الصناعة بأنها نشاط متعدد الجوانب يتيح لكافة أنواع ومراحل الجنون فرصة رائعة للعمل . ولقد اكد د. شيلر Schiller انه استطاع تشغيل ٨٠ بالمئة من مجموع مرضاه ، وكانت النتيجة رائعة ، فلقد هدا القلقون ، ودبت الحياة في المتخشين ، واستعاد المكتئبون الاهتمام بالحياة . «ان حياة من يسمون بالأسوياء تطوي عادة على النوم والاكل والعمل والترفيه ، وهذه العمليات تتكرر كل يوم ، ونحس معها بمتعة ، فاذا ما نجحنا أن نعطي للمرضى نفس تلك الاعمال المتنوعة وجعلنا ذلك امرا مستساغا فسوف يحبونها ايضا ويصبحون آنذاك اكثر قيادا» لقد كتب د. شيلر هذه الكلمات بعد خبرة طويلة في العلاج بالعمل بلغت حوالى خمسة وثلاثين عاما . واضاف ان السأم هو المصدر الرئيسي لاضطراب المجانين ، فاذا ما تخلصوا منه أصبحوا اكثر رضى ، وهي أولى الخطوات نحو الشفاء .

وظهر في روسيا القيصرية بينل آخر يدعى كروسنوبولسكي Zavatsky Krosnopsky الذي ترجم كتاب د. بينل الى الروسية عام ١٨٢٩ واضاف اليه

ملاحظات نقدية تستند الى وجهات النظر الحديثة في التشريح . ومع أن محاكم التفتيش واصطياد السحرة والعلاج بالجلد لم يكن واسع الانتشار في الشرق كما كان في الغرب «المتحضر» ، ورغم أن المبادئ الانسانية في الطب النفسي كانت قد اخذت في الرسوخ في روسيا بفضل كروسنوبولسكي فقد ظل مرضى القرن الاخير يعانون الاهمال الشديد وقرب نهاية ذلك القرن بدأوا في الاستغناء عن الزنازين وأدخل نظام المنابر . وحظي المرضى بقدر اكبر من الاهتمام بالترفيه عنهم . واصبح إلحاقهم بالاعمال اكثر شيوعا عن ذي قبل . الا ان قصة تشيكوف القصيرة التي تهرز المشاعر «العنبر رقم ٦» تعطي صورة صارمة لنوع الرعاية التي كان المرضى يلقونها في ذلك الحين .

وكانت معظم المصحات في المانيا شبيهة بالسجون او على أحسن تقدير بالثكنات العسكرية . فعلى الرغم من أن المرضى كانوا يعملون في الورش والمزارع فان روح الثكنات العسكرية الالمانية لم تكن الروح المثلى للعلاج المهني والبيئي . وعلى اي حال فان الرعاية المثالية للمرضى كانت تمارس في مؤسسات قليلة في المانيا هذا اذا ما صدقنا الكتابات . ففي مصحة كوبه Koeppe على سبيل المثال في مدينة الت شيربترز Alt - Scherbitz لم تكن ثمة أسوار او قضبان ، بل كان المرضى يعيشون في بيوت مريحة . وبلغت نسبة العاملين منهم ٩٠ بالمئة من المجموع الكلي . لقد افتتحت المصحة عام ١٨٧٤ ومنذ ذلك التاريخ لم تغلق ابوابها مطلقا ، ورغم ذلك او ربما بسببه فلم يضر منها سوى خمسة مرضى فقط من مجموع المرضى البالغ الف مريض . (تبدو الارقام هنا غير واقعية ومبالغ فيها وهذا ما يلقي الشك على الصورة كلها) .

في عام ١٩٢٧ القى مونكمولر Monkemoller نظرة شاملة على المائة عام التي تمثل تاريخ مصحة هيلدشايم Hildesheim الواقعة بالقرب من هانوفر . كان العلاج بالعمل مستخدما بالمصحة منذ افتتاحها ، فلقد كانت في الاصل ديسرا للراهبات . وعند تجديدها عشر على مخلفات من القرن الثالث عشر تبين الى اي حد لم تكن تصلح كدار للاستشفاء . الا ان روح التسامح التي كانت مصححة هيلد شايم تعامل بها نزلاءها تثبت من ناحية أخرى انه في الامكان أن ننجز أشياء رائعة رغم الظروف غير المواتية القائمة فلقد تم اعداد مزرعة على هيئة مستعمرة كبيرة للتغلب على مشكلة الازدحام التي واجهتها المصحة ، وكان النزلاء يعيشون في تلك المستعمرة في بيوت فلاحية صغيرة وكانوا يتمتعون بحرية كاملة ويشرف عليهم عدد قليل من الملاحظين بل وزادت تلك الحرية فيما بعد رسوخا فلقد تم انشاء قسم خاص في عام ١٩٢٥ خال من المشرفين . وكانت قيادة وتنظيم تلك الجماعة التي تتمتع بالحرية في يد احد النزلاء . وفي عام ١٩٢٧ بلغ عدد النزلاء الذين يقيمون في ذلك القسم الخاص دون مشرفين ما يزيد عن مائتين وخمس وخمسين . كما بلغت نسبة النزلاء الذين يعملون ٩٥ بالمئة وكانوا لا يعملون في المزرعة وحدها فحسب ، بل وفي الورش المعدة اعدادا كاملا لذلك . ولم تكن ثمة

قيود غير ان وسائل الترفيه كانت ما تزال «غير كافية» فلم يكن لديهم سوى بيانو وجرامفون وأوركسترا ومكتبة جيدة . وكان النزلاء يذهبون الى المدينة بصفة منتظمة لاستكمال ما لديهم من نقص في المقهى او المسرح او السيرك وما شابه . وهكذا يتضح ان ايا من هذه الاشياء لم يكن من اختراعنا .

كما ان فكرة تشغيل الرجال والنساء جنبا الى جنب لم تكن اضافة جديدة من جانبنا في هذا المجال . فلقد حدث ذلك في جابرسي Gabersee في احد المصحات التي اقيمت هناك منذ ١٨٨٣ . كانت تضم خمسمائة سرير وتطل على جبال الالب الممتدة في بافاريا . ولم يكن ثمة أسوار . وكان النزلاء يقيمون في عنابر . وكان لديهم جميعا ما يشغلهم دائما حتى أولئك الذين لا يستطيعون العمل . ولقد نالت تلك المصحة أقصى ما يمكن ان تناله مصحة عقلية من مجد ، حتى أن احد الزوار الرسميين قال عنها انها ليست مصحة مجانين على الاطلاق ما دام الجميع يعملون ويستطيع اي نزير أن يفادها متى شاء .

قبل ميلاد «القفص الذهبي» بمائة عام بالضبط اي في عام ١٨٥٢ تم افتتاح احدى المصحات قرب رجن بيرج Regenberg وهي المصحة التي افاض هـ . أ. (آدم) H.A. Adam في وصف تاريخها . ففي العام الاول من

افتتاحها اكتشف القائمون على امر المصحة أن المرضى الذين ظلوا مقيدين بالسلاسل في البيوت لعدة سنين على افتراض ان حالتهم ميؤوس من شفائها قد بدأوا فجأة يمارسون حياة انسانية في ظل جو المؤسسة المتسم بالحرية والحب والعمل . غير انهم لم يفظنوا الى المبدأ القائل بنبد القيود تماما الا في عام ١٨٧٣ وذلك حين تولى ادارة المؤسسة مدير لم يكتف بالحديث عن ذلك المبدأ بل وشرع فعلا في وضعه موضع التطبيق . الا ان الوضع عاد الى ما كان عليه بعد ستة أعوام بمجيء احد المديرين الجدد ، وأخذ عدد النزلاء الذين يعملون في التناقص السريع . ورغم ذلك استمر العلاج بالعمل قائما بل ومضى في طريق التطور . فلقد تم تشييد بضعة ورش جديدة . غير ان الامور اخذت في التدهور بمجيء مدير جديد آخر عام ١٨٩٣ . فهبطت نسبة العاملين من النزلاء الى ٣٠ بالمئة بينما اخذ الباقون يعانون ظروفا تعيسة في زنازينهم المنعزلة . ولم يكن الاطباء ليجراون على الاقتراب من المرضى الا في حماية المرضى ، ورغم ذلك كان النزلاء غالبا مسا يهاجمونهم ويرمونهم بالبراز واصبحت المصحة في حالة دائمة من الازدحام والصياح والعراك مما يعطي المرء احساسا انه في بيمارستانات حقيقية . وأخيرا جاء مدير جديد في عام ١٩١١ غير كل شيء . وتحولت البيمارستانات الى مصحة للعلاج بالعمل الى الابتهاج من جديد . اما اصحاب الحالات العنيفة والمتبلدة فقد اخذوا يعملون في سعادة ، كما لو كانوا يعملون من اجل انفسهم ، وكثيرا ما كان الطبيب يعزف البيانو لمرضاه . وكانت قصة تلك المصحة درسا هاما .

أما في المانيا فلقد عرف الطب النفسي داعية للحرية تمثل في شخص كريستيان فيرديناند هاينر Hayner الذي نادى في عام ١٨١٧ بنبد القيود

الحديدية والكرايبج والعلاج بالماء لمدة شارفت على نصف قرن كامل . وظلت وسائل العصور الوسطى تلك قائمة حتى تمكن كل من ماير وجرسنجر عام ١٨٦٠ من القضاء عليها وهذا ما صنعه فسانيك المجري الجنسية في برج فيينا لأمراض العقلية في نفس الوقت . واخذت المفاهيم الانسانية تكسب انصارا قرب نهاية القرن ، ومعها ذاعت مفاهيم الحرية والعلاج بالعمل واخذ كبار الاطباء العقلين من أمثال كرايبلين Kraepalin وجريسنجر Griesinger و هـ . ب . ا . داميرو H.B.A. Damerow آراءهم القائلة بأن العلاج بالعمل الحر - واساسا العمل في المزارع يجب أن يكون الطريقة العلاجية الرئيسية . ورغم ذلك ظلت الثكنات العسكرية الضخمة مثل ليبوتميزو Lipotmezo تقوم هنا وهناك في كافة أنحاء العالم فالقصور الضخمة ليست سوى بنايات بشعة تملؤها الزنازين التي لا تستطيع توفير الجو المناسب للحرية او العمل او الترفيه . ويقرر ستارلنجر أن العمل موجود دائما في المصحات العقلية ولكن العلاج بالعمل شيء آخر . ويقول سنل Snell أن المرضى في احدى المصحات كانوا يعملون في نقل الوقود من مكان الى آخر ثم يعيدونه الى المكان السابق مرة أخرى وهكذا . ومثل هذا العمل لا يجعلنا نتوقع نتائج طيبة . بل على العكس فهو كفيل بتحويل الشخص السوي الى معتوه حقيقي . (هذا العمل يذكرنا بعملية فرز البازلاء في «جرائج» . وفي ذلك الوقت كان العلاج بالعمل ما زال يجد بعض المعارضين على المستوى النظري مثلا د . كوفمان Kauffmann في مصحة هال الذي كان يرى أن أنجع وسيلة لعلاج الامراض العقلية في ابقاء المريض في سريره خصوصا اذا ما صاحب ذلك تغذية معقولة . الا انه لسوء الحظ لم ينجح في تحديد أنواع الغذاء المناسبة للمريض بالفصام . أما مسألة البقاء في السرير فلقد أصبحت شائعة منذ أعلن نيسر Neisser أن المريض الهائج يجب أن يلزم سريره حتى يهدأ . وكان لهذا الكلام معنى مفهوما في الفترة التي سبقت ظهور «العلاج الفعال» Active Treatment لكن «نيسر» لم يكن يدرك أن خلفاءه في الميدان سوف يقيدون التعساء السى أسرتهن لمدة أعوام بحجة .

وهكذا ظل العلاج بالعمل موضع النقاش هنا وهناك بل وموضع التطبيق والممارسة أحيانا وأدى تطبيقه الى نتائج باهرة في بعض الاماكن وفي أماكن أخرى ساعد فقط على استغلال قوة عمل المرضى . وظل الامر يسير على هذا النسق حتى ظهر «سيمون» فأيقظ أطباء العلاج النفسي من نومهم الثقيل . يدلنا تراث الطب النفسي ان «سيمون» لم يمتلك يوما ما روحا نضالية على الإطلاق . فلقد اضطر الى الشروع في دفاعه «المسيحي» عن العلاج بالعمل بعد ممارسة له في صمت طيلة عشرين عاما . ففي عام ١٩٢٣ واثناء احدى المؤتمرات بدرت منه ملاحظة عابرة سرعان ما أشعلت حمى الهجوم ضده . فاضطر وقتها الى الصمود عند موقفه دفاعا عن نفسه . وبعد مرور عام واحد ثار الجدل من جديد حول العلاج بالعمل في مؤتمر انزبروك Annsbruck انتهى الى تقرير . ان ما هو

طبيب في العلاج بالعمل كان معروفا منذ القدم وأن ما هو جديد فيه سيء . وهكذا تولد الاهتمام بالموضوع وتدفق الزوار على جوتنزلوه Gutensloh وبذا أخذت وسائل سيمون في العلاج تطرح للنقاش فتبناها البعض وعارضها البعض الآخر ، تحمس لها أناس وتحمس ضدها آخرون وهذا ما شجعه على أن يتناول قلمه ويصف ما سماه «بالعلاج الأكثر فعالية» ومم يتكون . على أنه لم يتسرع في الأمر فلقد أكمل كتابه عام ١٩٢٩ بعد أن تراكت لديه خبرات حياته كلها في العلاج بالعمل .

كانت السمة الشخصية الأساسية لسيمون تتمثل في التواضع . وكان يرى أنه لم يصف شيئا جديدا على الإطلاق ولم يكتشف شيئا بالمرّة ، لكنه وضع موضع التطبيق كل ما قاله جملة المفكرين من هيبوقراط Hippokrates حتى يوجين بلويلر Bleuler ليس هناك «طريقة سيمونية» اذن ولا نظام خاص بمصحة جوتنزاون Gutensloh بل مجرد علاج فعال استطاع سيمون أن يجعله أكثر فعالية .

لكن مهما كان تواضعه فانه لا ينفي أن عمله كان ممتازا . لقد حقق انجازات باهرة في هذا الميدان ، تمت كلها على يديه وحده وبروح مسيحية نادرة ومع ذلك نجد أن عدد الذين تابعوا جهوده من بعده كان محدودا ، ولم يكن ذلك يرجع لعب في شخصه او نهجه في العلاج .

لقد كانت نقطة انطلاقه ان التعطل عن العمل لمدة سنوات كاملة كفيل بشأن يحيل الشخص السوي الى بليد . «الحياة هي الفاعلية» وعبر الفاعلين يستطيع المجنون او المصاب بالنقص العقلي أن يصل الى حالة من الصحة العقلية المطلوبة، ومن هنا فلا معنى لحبس ضحايا الامراض العقلية خلف الاسوار والقضبان وبدا عمله في مصحة ورشتين Warstein عام ١٩٠٥ وكانت تضم في ذلك الوقت حوالي الف مريض ، يعمل منهم حوالي تسعمائة . ويبدو انهم كانوا يعملون بصورة طبية ، فلقد قال احد اطباء العلاج النفسي الذين زاروا المصحة وتجوّلوا بها ما يزيد عن ساعتين كاملتين انه رأى مصحة حقيقية لا بيمارستانا للامراض العقلية .

اما مصحة جوتنزلوه Gutensloh التي تم افتتاحها في عام ١٩٢٠ فلقد تأسست معتمدة على الخبرات المكتسبة من مصحة ورشتين Warstein وبدأت عملها مع ثمانمائة مريض .

واعتقد انني في غير حاجة الى تناول تجارب «سيمون» وطرق علاجه بالوصف التفصيلي ، فسوف يبدو كالحديث المعاد . فلقد كانت لديه نفس التجارب ونفس الطرق التي قابلتنا في جرانج . وهنا ارى لزاما عليّ أن اقرر اننا عمليا لم نقم باكتشافات جديدة . وأحس بالفبطة انني لم أقرأ كتابات سيمون قبل افتتاح القفص الذهبي - والا لكان معنى ذلك اننا نفقني أثره ، ولو انني لا أحس اي غضاظة فيما لو قد فعلنا ذلك .

لم يكن «سيمون» يلجأ الى استخدام القوة او العنف او العقاب . وكان يقسم المرضى الى مجموعات ولم يكن ليكل الى الممرضة اكثر من عشرة مرضى لرعايتهم . فكان ثمة مجموعات خاضعة للإشراف تضم المرضى الجدد او الحالات المضطربة كما كانت هناك مجموعات أخرى مستقلة لا يشرف عليها اي ممرضات . ولقد بلغ عدد النزلاء الذين يعملون دون اشراف احد ثلاثين نزلاء . أما جملة العاملين من النزلاء فلقد بلغت ٩٦ بالمئة يعمل نصفهم في مزرعة المصحة ويعمل النصف الآخر منهم في الورش . حقا كان الإنتاج هاما ، غير ان الشفاء كان أهم منه . وكان عمل النزلاء يتحدد طبقا لما يتطلبه شفاؤه . وبعد انتهاء العمل كان لا بد من التفكير في الراحة والترفيه فقد كانت المصحة تهدف الى خلق حياة صحية بين جدرانها . فلم يكن من المستطاع ان تظل المصحة على ما هي عليه من ادارة حسنة دون ايجاد وسيلة ترفيه منظمة . وكان ينبغي مكافأة المرضى على عملهم . وكان الهدف الاساسي للمصحة هو اطلاق من يشفى من المرضى . رغم ما كان يحدث من اعتراض مدير المصحة على ذلك بقوله انه يريد الاحتفاظ بالمرضى الممتازين . وهذا يوضح ان ادارة المزرعة يجب ان تكون في يد الطبيب المعالج . كما يجب تنويع الاعمال وتوسيع المصحة الى حد معقول .

هذا موجز أعمال سيمون التطبيقية . وفي مؤلف ثان قدم سيمون بعض الشروح النظرية فقال «ان المساوىء الثلاث التي تتهدد اي مصحة عقلية هي التعطل ، والظروف البيئية غير الملائمة وتوطين المرضى على الحياة دون تحمل مسؤولية ما» . وهذا هو السبب الذي يجعل من «العلاج الفعال» ضرورة لا غنى عنها . اذ لا بد من ايجاد جو عائلي فمن الثابت أن مثل هذا الجو يؤثر تأثيرا محمودا على أشد الحالات خطرا . ولا بد من تزيين العناصر التي يعيش فيها المرضى . فلم يحدث ان قام احد المرضى بتمزيق متعمد للستائر في عنابر النساء ذات الجدران المزينة بحذق . ولم تخسر المصحة كلها اكثر من ثلاث او اربع زهريرات طوال عام كامل . ولعله من الملاحظ ان الرغبة في التدمير لا تتجه الى الديكورات بل الى ادوات الاستعمال بصفة دائمة كالملابس والنوافذ وبياضات الأسرة . (ويحكي احد مديري عنابر العلاج بالعمل أن المرضى الذين يعملون بالتريكو يحرصون على وضع ابرهم جانبا بعناية متى نشبت المارك ثم يهاجمون بعضهم البعض بأيديهم) . ولقد قابلنا تجارب مماثلة كلما نشبت المارك بين العاملين من المرضى . ولقد كتب سيمون يقول ان جوهر العلاج النفسي يكمن في التربية اي في العملية الهادفة نحو تكييف المريض مع متطلبات الحياة فكل علاج يهدف الى تغيير الوسط البيئي فلا بد ان يتغير نوع العلاقة بين المريض والعالم الخارجي المحيط . ومن هنا لا ينبغي على المرء ان يعترف بما يسمى «استحالة العلاج» فالامر كله يعتمد على تعليم هيئة الممرضين العاملين . فاذا ما كانت الممرضة هادئة عطوفة ومؤدبة فالمرضى يتشرب منها هذه الصفات السلوكية هو الآخر وبذلك يختفي تماما جو البيمارستان الخائف . ومن هنا لا يجب علينا ان

نستحث المريض على العمل فحسب به نستحبه كذلك على اللعب ، فالسيكوباتي ليس الا طفل صغير . كما يتوجب على الممرض الا يعامل المريض كما يعامل الرئيس مرؤوسه ويجب عليه الا يدفعه الى القيام بأعماله هو نيابة عنه بل يجب عليه أن يعمل معه جنباً الى جنب . ولعله من الضروري أن نحاول جهد ما نستطيع أن نجعل المرضى يحسون بالسعادة وهذا لن يتأتى بالإغراق في تدليلهم . بل بخلق توافق بين ما هو مطلوب وما هو ممكن . وفي هذه الحالة نجد ان قدرا معينا من الحزم يجب أن يتوفر ، فالحب والتفاهم وحدهما لا يكفيان بل ينبغي أن يقوم النظام والترتيب الى جوارهما . كما ان الحرية لا تعني بحال أن يتصرف كل فرد على هواه . ويجب أن نراعي كذلك أن الكرامة الانسانية للمرضى ينبغي أن تصان وتحترم وترسخ .

ولعله من المؤكد أن المريض اذا ما انخرط في نشاط فعال وفي ظل ظروف مناسبة فانه سرعان ما يتحسن في ظرف أسبوعين لا اكثر . فستهدأ جميع الحالات القلقة والعدوانية والعنيفة بالإضافة الى حالات التبرم والانزعاج ، وتأخذ في الاتزان فتبدو طبيعية وهادئة ليس بالنسبة للطبيب او الممرض وحدهما بل وبالنسبة لبعضهم البعض ايضا . ويحسون بالانتعاش الجسماني كذلك . ونادرا ما كنا نتعرف على المريض بعد تحسنه من سجلاته الاولى لدينا . هذا هو جوهر المسألة . طريقة العلاج «الاكثر فعالية» ونتائجه .

واني أتفق مع سيمون في كل ما سبق من تفاصيل بل والتفاصيل التي اضطرت الى حذفها هنا . غير أن هذا لا ينبع أن هناك بعض النقاط التي اختلف فيها معه بناء على آرائي وتجاربي الخاصة . كما انني لا أصدق بعض القضايا التي أوردتها .

جاء مثلا في سجلاته انه لم تحدث سوى احدى عشر حالة هروب وخمسة معارك واعتداءين خفيفين على الممرضين من بين خمسمائة حالة في عنبر المرضى من النساء في مصحة جونزسلو خلال عام . وهذا ما لا يمكن تصديقه فتجربتنا في جرانج تؤكد ان ثمة ثماني حالات هروب من ثمانين او تسعين مريضا خلال العام الواحد ، رغم ان الامور في المصحة لم تكن سيئة بحال . (هذا العدد يشمل حالات الهرب الناجحة وحدها دون الحالات التي استطعنا أن نعيد فيها المرضى الهاربين من القرى المجاورة) ولعله من المتوقع أن نجد اكثر من خمسة معارك في السنة تنشب وسط خمسمائة سيدة سوية فما بالك بالسيدات المصابات بالجنون . كما انني لا أصدق ان الممرضين لا يتلقون سوى صفتين اثنتين طوال العام . ان المرء لا يستطيع أن يتخيل ممرضة أفضل من روزي ومع ذلك كانت تتلقى الصفعات والركلات بالعشرات من المرضى فهذه بعض لوازم العمل ولا مفر من تحملها .

ثم هناك موضوع تهدئة المصابين بالقلق . يقول سيمون انه لجأ اخيرا الى عزل المريض في حجرة منفصلة . هذا سليم وكثيرا ما يؤدي الى نتائج طيبة . غير

أن سيمون يؤكد أن فترة العزل المطلوبة لا يجب أن تزيد عن ثلاثين دقيقة وأن ثمانية عشر دقيقة - في المتوسط - كافية لتهدئة أي مريض . وهذا امر مستحيل فلقد فشلت فترة العزل التي بلغت من عشرين الى ثلاثين دقيقة في تهدئة أي من هيلين المؤمنة حين كانت تنتابها نوبات النيمفومانيسا (جنون الهياج الجنسي) او جودي ديوك حين تصاب «بشهوة التجوال» او مارجينا العجوز حين يصاب بنوبات الهذيان . كما أن العزل لمدة ١٥ دقيقة لم يجد نفعا مع المصابين بالصرع ونوبات الهستيريا . وجنون الاغماء التخشبي ونوبات الذهول .

وربما يكون سيمون على حق اذا ما كان يقصد أن العزل اذا دام ثلاثين دقيقة دون ان يعطي نتيجة ايجابية فلا جدوى من الاستمرار في عزل المريض مدة أطول من ذلك . الا انه لم يقل لنا ذلك . ولكن ما الذي يجب عمله في تلك الحالة ؟ واكتشفت اثناء قراءتي لفصل آخر من المؤلف انهم كانوا ينفون فترة العزل ولكنهم يستمرون في اغلاق الابواب عاما على المريض . وكانت المصححة هناك تشمل عنبرا مغلقا لمثل هذه الحالات المؤقتة من العنف وبطبيعة الحال هذا ما كنت لأفعله غير انني لم اكن لأحرص على ابقائه طي الكتمان كما كانوا يفعلون .

كما انني لا اصدق انه من الممكن أن نجعل ٩٦ بالمئة من مجموع النزلاء ينخرطون في العمل . وفي اعتقادي أن ذلك لا يتم الا اذا قام سيمون بحصر الذين لا يرغبون في العمل وارسلهم الى مصحة أخرى ، هنا فقط تصبح نسبة ٩٦ بالمئة تلك قابلة للتصديق . اما اذا كان ذلك لم يحدث فان نسبة ٨٠ بالمئة تبدو طيبة للغاية ، فنحن لم نستطع الوصول اليها في مصحتنا .

بتعبير آخر كان سيمون ميالا للمبالغة ولقد أثر ذلك تأثيرا سيئا على صحة تقاريره ، وألقى ظللا من الشك على بقية نتائجه . غير انني ارى شخصا انها في مجملها صحيحة فتجربتنا تؤكد ذلك .

أما النقطة التي اختلف فيها مع سيمون بصفة مبدئية ، فتتمثل في الفصل التام بين الرجال والنساء . ولقد ألح على هذه القاعدة مرارا انه حقا لم يشيد أسوارا بين هؤلاء لكن تعليماته الصارمة كانت تقضي بوضع كل من يخالف هذه القاعدة في العنبر الموصل الابواب . ويقول سيمون ان المرضى كانوا بصفة عامة يحترمون تلك القاعدة . وكان مرتاحا لذلك الحل من جانبه فكان من رأيه انه يمكننا أن نمنع ظهور الرغبة الجنسية اذا عملنا على عدم التقاء الجنسين . غير انه لم يخبرنا عن الهدف المرغوب من منع ظهور الرغبة الجنسية ، انه كان يفترض ضرورة ذلك . ويبدو ان نجاحه كان ناقصا في هذا الخصوص . فالرغبة الجنسية لم تمت ، ولقد رأينا يشكو من انتشار الشذوذ الجنسي ، وكانت الوسيلة الوحيدة للقضاء عليه هو مزيد من الاشراف الدقيق والدائم . ولو كنت في مكانه لا اقترح طريقة أخرى بسيطة وفعالة في ذات الوقت .



لقد ساعدت سمعة مصحة جوترسلوه مبدا العلاج بالعمل على الانتشار السريع . ففي خلال عامين اثنين ظهرت خمس وتسعون مقالة في مختلف الدوريات المتخصصة في الطب العقلي . وكان الرأي السائد بين معظمها يقول ان سيمون لم يقل شيئا جديدا وان «العلاج بالعمل» كان معترفا به من قبل وكان موضع التطبيق بنجاح كبير في كل مكان (والحقيقة ان استغلال قوة عمل المرضى هو الذي كان منتشرا ، رغم ان طريقة سيمون في العلاج كانت تمارس هنا او هناك) . غير ان هذا الحماس سرعان ما فتر . ثم مات سيمون وأخذ ما ينشر عن العلاج بالعمل يقل شيئا فشيئا . فيما عدا بعض العبارات التي تقرظه من حين لآخر . اما في الفصول التي تتناول «العلاج» في الكتب المقررة كنا نجد بعض الكلمات التي تمتدح العلاج بالعمل وتؤكد اهميته كوسيلة ناجعة في العلاج . لكن ما كان قائما في التطبيق لم يكن العلاج بالعمل بل استغلال قوة عمل المرضى لصالح المصحات التي يقيمون فيها . ولم يكن يسمح بالعمل الا لهؤلاء القادرين عليه ولا يخشى من ناحيتهم وكان مثل ذلك الوضع يحمل اسم «العلاج بالعمل» .

ليس في حوزتي معلومات كافية عن العلاج بالعمل في البلاد الاخرى وكيف يسير قبل الحرب العالمية الثانية وخلالها وبعدها ، فيما عدا هولندا حيث شاهدت في عام ١٩٣٩ احدى المصحات التي تطبق العلاج بالعمل بطريقة ناجحة . ثم عرفت بعد ذلك أن العلاج بالعمل أخذ بالانتشار في سويسرا . أما في فرنسا فلقد انتهى كل ما خلف الدكتور بينل من تراث الى النسيان . ولم يبدأ علاج مرضى الامراض العقلية على اساس سليم هناك الا متأخرا تحت اسم «منهج الثقة في المريض» وهو علاج السيکوباتيين بإيجاد «وسط بيئي» - ليس مختلفا - بل نوع سليم من الوسط البيئي الذي يمكن المريض من التطور في طريق التحسن . ولقد آلت تركة سيمون في هذا الميدان الى شنيدر Schneiber الذي يستطيع المرء ان يرى خلال كتاباته انه سار على درب رائدة . فلقد فاق سيمون في المبالغة ، اذ نراه يقول ان نسبة الذين فشل معهم في إلحاقهم بالعمل لم تتعد ٥٠ بالمئة . فاذا ما صدق مثل هذا القول يكون معناه على الفور انهم استخدموا في ذلك وسائل قهرية رائدة ، اذ انه من المستحيل ان يصدق ان هناك ٩٨٥٠ بالمئة من مجموع المرضى قد دخلوا في العلاج بالعمل . وبالتالي فان السؤال يفرض نفسه عما اذا كان في امكاننا ان نطلق على مثل ذلك العمل القهري «علاجاً» ام لا . ولعل هذا هو السبب الذي دفع شاهد عيان من بودابست الى الاعتراض مما يدور في جوتزسلوه فوصف المصحة بأنها مجرد مستعمرة للعمل الاجباري تعتمد على التمزيق العسكري الصارم ، مثلها في ذلك مثل سائر المصحات القائمة في المانيا او في امريكا التي تسيء الى مفهوم «العلاج بالعمل» .

وفي الاتحاد السوفيتي طبق ماكارينكو علاجاً حقيقياً بالعمل فيما يختص بتعليم المشاغبين ولقد تعلمنا منه اكثر مما تعلمنا من اي شخص آخر . كما طبق بروتوبوف العلاج بالعمل في مصحة كييف . وعرضت روييفا فكرة علاج المصابين

بالصرع عن طريق العمل . وتناول زينفتش في كتاباته مشاكل جراحة المرضى بالعصاب خارج المصحات . كما كتب كوجان عن النشاطات الخاصة ببيئات العلاج بالعمل التابعة لمعهد الدراسات النفسية والعصبية في موسكو . وهذا المعهد يقوم بعمل جليل فالسيكوباتيين او المجانين الناقمين يدخلون مصحات خاصة لمدة تبلغ الثلاث او الاربع شهور وذلك بغية اعادة تعليمهم . وهناك يعتادون على العمل المنتظم بل يستطيع بعض المرضى ان ينتقل الى بيته حيث يعيش ويعمل تحت اشراف مؤسسات العلاج بالعمل التي تمدهم بالتوجيه وفرص العمل . وكانت هذه التجربة فريدة في علاج «مرضى الامراض العقلية» . ورغم تلك الجهود الجبارة فما زال الاطباء في الاتحاد السوفييتي يرون ان العلاج بالعمل ليس منتشرا بالدرجة الكافية ويؤكدون على ضرورة تطويره والنهوض به . كتب جيليارفسكي في عام ١٩٥٠ يقول ان تحليل الموضوعات التي تناولتها معاهد الاتحاد السوفييتي بالدرس تبين ان موضوعات العلاج النفسي ، والتنويم المغناطيسي والعلاج بالعمل والعلاج الطبيعي ، والوقاية من الامراض النفسية لا تطرق اليه وقبل ذلك بعام واحد قدم كل من بانشيكوف ورايבורت تقريرا عن العلاج العقلي «كما هو مطبق في الاتحاد السوفييتي» فيما يتعلق بالعلاج بالعمل لا نستطيع ان نؤكد انه حقق نجاحا كبيرا هنا فيما عدا بعض المصحات القليلة العدد . وهذا النوع من العلاج لم يأخذ مكانته الخليفة به خصوصا اذا ما عرفنا مدى اهميته للامراض المزمنة . ولعل هذا يبدو شديد الغرابة فوفقا لتعاليم بافلوف (التي هي اساس الطب العقلي) وكذلك وفقا لآراء فريدريك انجلز عن الدور الخلاق للعمل تصبح اهمية العمل والعلاج البيئي والنفسي امورا غنية عن البيان .

وماذا عن المجر ؟

لم يسعدنا الحظ بظهور طبيب يوازي في اهميته د. بينل . اللهم الا اذا ما اعتبرنا ميخائيل فيسانيك بينل المجر . فلقد حرر فيسانيك المرضى المساجين في مصحة فيينا ، ثم نظم العلاج بالعمل ووسائل رعاية المجتمع لهم . ولم تتحقق معظم التوصيات التي نشرها عام ١٨٤٥ حتى اليوم . ومنذ ذلك الحين ظل الطب النفسي في المجر متميزا بالتوصيات الانسانية التي لم توضع يوما ما موضع التطبيق . لقد عرف معظم الاطباء النفسانيين المجريين ما ينبغي عمله ، غير ان الفرصة لم تتح لهم لكي يضعوا مشروعاتهم الرائعة موضع التنفيذ .

قام فيرينز بينيه بإلقاء عدة محاضرات هنا وهناك حول مزايا الحرية والعمل في المزارع . كما أسس فيرينز شفا مصحة خاصة عام ١٨٥٠ وبعد مرور اربعة عشر عاما كتب يقول : كان علاج المرضى عندي يعتمد على النشاط الذهني الذي اثبت اهميته البالغة في العلاج ، ولم يفشل الا في حالات معدودة . ونادرا ما كنا نلجأ الى استخدام «قميص الكتاف» واذا ما صدق هذا الكلام فان فيرينز سفارزر يكون قد سبق كل معاصريه . وكتب كارولي بوليو في عام ١٨٦٥ يقول ان مصحة ليپوتميزو Lipotmezo التي كان قد تم بناؤها في ذلك الوقت لا

تلائم العصر. ولقد اقترح بناء بيوت صغيرة ريفية للمرضى داخل مستعمرات مهنية يستطيعون فيها مزاولة الاعمال الزراعية لكن هذا الاقتراح لقي الرفض وتم بناء المصححة التي تسع خمسمائة مريض يوزعون داخل سبعين زنزانا . ولقد تضاعف عدد المرضى الان ثلاث مرات داخل المصححة ودون ادنى اتجاه الى الاستفادة من فكرة العلاج بالعمل . وفي عام ١٨٦٦ كتب جوزيف فيرلي يحتج على انشاء مثل تلك المصححات العتيقة قال يجب على المرء ان يعمل على خدمة الانسانية والاقتصاد الوطني بإقامة مستعمرات عمل تضم كافة الاعمال ، غير ان فكرة خدمة الاقتصاد الوطني تلك لم تحظ بالاهمية مثلها في ذلك مثل خدمة الانسانية . وتم بناء مصححة انجا يلفولد رغم اعتراض جميع خبراء العلاج النفسي . على اننا يجب الان ننسى ان نسبة المرضى الذين يعملون في تلك المصححات التي يعتبرها الكثيرون غير ملائمة وصلت ٦٨ بالمائة من مجموع النزلاء رغم ضيق مساحة المزرعة التي يعملون فيها والتي لم تتجاوز ١٥ فداناً في القرن الماضي . غير ان انتشار فكرة العلاج بإلزام المريض السرير ثم اندلاع الحروب العالمية . وفكرة العلاج الفعال «اذ ما يمكن ان تطلق عليه العلاج الهادئ» كل ذلك قضى على فكرة العلاج بالعمل في المهد .

في عام ١٩٠٤ عاد كالمان باندي من الخارج حاملا الاعتقاد القائل بأن بناء عنابر للمرضى الى جوار المزارع والورش افضل من بناء القصور الفخمة . كما قال بضرورة ارسال المرضى الى مستعمرات قروية حيث يعالجون بالعمل بصورة منظمة ومكثفة في ظل جو اسري . وكتب كتابا عن أوضاع الطب النفسي في الداخل والخارج . غير ان الظروف لم تكن مواتية كي يقوم بتنفيذ مشروعاته . ونظم ر. فابيني اول مستعمرة للعلاج في ظل التمريض الاسري خلال الحرب العالمية الاولى . ثم تأسست مستعمرتان اخريان على نفس النمط في الثلاثينات . وظلت تلك المستعمرات تؤدي واجبتها على النحو الاكمل حتى قيام الحرب العالمية الثانية، وما زالت هياكلها باقية حتى اليوم ، حيث تتبع المزارع فيها بعض المصححات العقلية ، غير انها لا تعتمد العمل كوسيلة للعلاج بل كوسيلة لاستغلال قوة عمل المرضى فاذا ما وجدنا بعض الورش الملحقة بالمصححات ، فهذا لا يعني أن تلك المصححات تعتمد العمل كعلاج بل كوسيلة للكسب . ولم يشذ عن ذلك سوى تجربة لازلو توث منذ بضعة أعوام التي استطاعت أن تتجاوز حالة «العمل القهري» الذي يطلقون عليه - ظلما - العلاج بالعمل .

وقد كانت آخر توجيه في هذا المجال بشأن اقامة مصحات للعلاج بالعمل تلك التي قدمها لابوش أنجيلال عام ١٩٥٣ في مؤتمر لأطباء العقل والاعصاب وقد تلقاها الجميع بالحماس الزائد ، لكن شيئا لم يتحقق في الواقع .
الا أن القفص الذهبي كان قد قام بالفعل في جرائح حيث ضم ثمانين سريرا فكان بمثابة الثمرة المتواضعة لمائة وعشر سنين من الصراعات المتصلة .



وهناك درس آخر يجب علينا أن نعيه من تاريخ العلاج بالعمل فلقد ظهر أن اعتماد جرانج الغير سليم على مستشفى عام ليست مشكلة جديدة او خاصة بالمجر بل مشكلة تبلغ من العمر ما يزيد عن قرن كامل . فعنبر الامراض العقلية الملحق بأي مستشفى كان يسمى «البيمارستان» في اللغة الدارجة . وهكذا لا نستطيع أن نطلق على «القفس الذهبي» أكثر من بيمارستان .

وتدل شكوى الاطباء النفسانيين المتكررة لدينا على اقتناعهم التام بمساوىء الاعتماد على المستشفيات . ويبدو أن المديرين من أمثال بلا كلام فارغ قد وجدوا منذ مئات السنين ليس في بلدنا فحسب بل وفي سائر البلاد الاخرى . ولقد قال د. بينل انه بدون التعاون التام بين الادارة المالية والادارة الفنية ، فان آراء الاطباء النفسانيين لن توضع موضع التنفيذ . ولقد صدر في اسبانيا منذ ١٨٣٦ قانون ينص على فصل المصحات العقلية عن المستشفيات العامة . اما في بلجيكا فلقد تأخر الطب النفسي كثيرا بوضع المصحات في أيدي رجال الدين . ولقد استسلم لنز بعد ثلاثين عاما من الكفاح الذي لم يحرز اي نجاح ورضى بالهزيمة المرة . اما في روسيا فلقد نجح روث في عام ١٨٦٧ في فصل العنبر الذي يديره عن المستشفى العام وفي عام ١٨٨٨ تم اقرار هذا القانون «يجب ان تتأسس المصحات العقلية منفصلة عن المستشفيات والاصلاحيات وان يترأسها طبيب نفسي مؤهل يخضع له جميع العاملين بالمصحة» .

ولقد دفع ذلك كالمان باندي أن يكتب في عام ١٩٠٥ «من المحزن بل ومما يضر بقضية العلاج في بلدنا ، أن السلطات لدينا لا تعتقد في امكانية علاج مرضى الامراض العقلية ومن هنا فهي لا ترى ضرورة للاطباء النفسانيين او المصحات العقلية القائمة بذاتها » ولقد كتب مثل هذا الكلام قبل خمسين عاما من تأسيس «القفس الذهبي» ولم يكن ذلك الكلام بالبرهان الوحيد الذي يثير الحزن على أن رغبات الاخصائيين قد ذهبت هباء فقد شل المدير المالي نشاطات د. بينل، وفشل كونولي في الحصول على منصب مدير احدى المصحات ، أما نجاح لالور في مصحة ريتشوند فأعقبه الاهمال والفوضى من بسده وتحطمت آمال لنز Lenz بفعل جمود رجال الدين . وانتهى بورنفيل الى الاستسلام وأصبحت مصحة سيمون الرائعة تدار بغير وعي او تفكير وضاعت نصيحة «باندي» في الهواء .



لقد شهد العلاج النفسي تغيرا اساسيا في العقود القليلة الماضية . فمند وقت ليس بالبعيد كنا نسلم باستحالة نجاح العلاج في هذا الفرع من الامراض وبالتالي ، كان الاطباء يحسون انه طالما لم يكن في وسعهم معاونة المرضى فان افضل ما يستطيعونه هو التفتن في حبسهم . والحقيقة خلاف ذلك . فجميع الوسائل الفظيعة التي عرفها القرن التاسع عشر من دوران في العجلة المجوفة الى

الاغراق بالماء الخ كانت تهدف الى العلاج وتؤمن به . ثم دخل العلاج بالعقاقير الميدان ثم جاء نيسر Neisser بالعلاج يلزام المريض السرير ثم أعقب ذلك ظهور العلاج النفسي والعلاج المائي وكلها تتجه ناحية العلاج ايمانا منها بعدم استحالتها . بل وعلى العكس فقد تميزت تلك الفترة بالتفاؤل العريض والفاعلية الكبيرة . . وما زالت جملة الاكتشافات المختلفة التي ظهرت فيما بين الحرين تحدث

تغييرات حاسمة يطلق عليها الان «العلاج الفعال» Active treatment

الذي بدأ تطبيقه على مرضى الشلل العام ولقد هبطت الان نسبة المصابين بالشلل في المصحات العقلية من ثلث النزلاء الى ٥ بالمئة . (وهذا لا ينفي ان المصحات العقلية ما زالت على ازدهارها السابق) . والشلل العام - كما هو معروف - ينتج عن مرض الزهري ، ولقد خفض اكتشاف السلفارزان Sulvarsan الذي تم على ايدي الطبيب الاشهر ارليش P. Ehrlich - عدد مرضى ذلك النوع من الشلل بصورة ملحوظة . وبفضل ذلك الدواء لا نجد لدينا الان حالات خطيرة كما كنا نجد في الماضي . ولقد بدأ تطبيق العلاج الفعال للشلل العام «هو العلاج بإحداث الحمى لدى المريض الذي ابتكره في فيينا عام ١٩١٧ البروفيسور فاجنر فويرج Wagner - Faurg واذا ما صدق اعتقاد العامة السائد ان كل أنواع الجنون ترجع الى الإصابة بالزهري فان آمال البروفيسور فاجنر - وكان مبالغا في التفاؤل - تكون قد تحققت بالفعل وان العلاج بالملاريا يمكن أن يضع حدا للجنون لكن من سوء الحظ ان ذلك العلاج يصلح فقط في حالة الإصابة بالشلل العام وهذا في حد ذاته ليس كسبا صغيرا .

ولقد بدأ الطبيب الكبير ساكل Sakel تطبيق العلاج الفعال ذاك على المرضى المصابين بانفصام الشخصية في فيينا عام ١٩٣٣ بعد اكتشافه للعلاج بصدمة الأنسولين . فهذه الصدمة بما تحدثه من غيبوبة يؤدي تكرارها الى ايقاف الهلوسة والاضطراب والقلق وأوهام الاضطهاد لدى عدد من الحالات على الأقل . وفي عام ١٩٣٥ توصل احد اطباء في مصحة ليوبتيمزو يسمى لاولو ميدونا Meduna الى نتائج مماثلة بإحداث نوبات صرع غير حقيقية تؤدي الى فقدان المريض للوعي لمدة محدودة . واستخدم في ذلك مادتي الكريازول والميترازول . ولقد اكتشف الاستاذ الايطالي كيرلتي Carletti عام ١٩٣٧ في مجزر للماشية ان نوبة الصرع يمكن إحداثها بواسطة الكهرباء ، ومنذ ذلك الحين اصبحت الصدمة الكهربائية بمثابة العلاج الدائم الذي يستخدم عادة في حالات الإصابة بالفصام . (ولعله من الجدير بالملاحظة ان كل تلك العلاجات تعالج مرضا معينا بآخر - بالملاريا او الغيبوبة او بالصرع) .

وتستعمل الان الكثير من العقاقير الطبية كعلاج فعال عند الإصابة بالفصام من بينها «الكور برومازين» الذي ظللنا نستعمله لعدة سنوات وكان يعطي نتائج أفضل مما كنا نتوقع باستمرار . وأخذ يحتل مكان الصدمة الكهربائية التي تعتبر علاجا قاسيا وان كان ناجعا ويعتبر علاج حالات النقص العقلي بحامض الجلوتاميك علاجا

فعلا وكذلك علاج حالات الصرع بعقار دفيني Dipheny hydantoin - وهو مضاد قوي للتشنجات - وأخيرا دخلت الجراحة (جراحة النص الجبهي Leucotomy الميدان لا في حالات من الصرع فحسب بل بعض حالات انفصام لم تنجح معها أية وسيلة من وسائل العلاج السابقة .

ومع مثل وسائل العلاج المتعددة تلك هل يمكننا أن نتساءل هل ما زال «العلاج بالعمل» خليقا بالاستمرار في الوجود ؟

والإجابة الصحيحة على مثل ذلك السؤال هي نعم . فكل وسائل العلاج تلك - رغم الاعتراف بنجاحها في علاج الكثير من الحالات - ما زالت غير كافية لعلاج كل حالة علاجا نهائيا . لا ننكر أن ثمة عددا قليلا من المرضى الذين لا يحتاجون العلاج بالعمل ويمكن شفائهم عن طريق «العلاج الفعال» . غير أنه من الثابت أن ثمة حالات أخرى لا يصلح لها العلاج الفعال الا كأساس أولي ثم يأخذ العلاج النفسي والعلاج بالعمل دورهما في إعادة المريض الى الحياة الاجتماعية السوية كما أن هناك حالات معينة لا تستجيب للعلاج الفعال على الإطلاق حتى تبدأ بالعلاج البيئي . وفي نهاية المطاف ثمة حالات لا ينفع معها العلاج الفعال المصحوب بالعلاج البيئي ، ورغم ذلك تحس بالتحسن في «القفص الذهبي» أكثر مما تحسه في مصحة كئيبة منعزلة .

ولقد دفع نجاح «العلاج الفعال» المتزايد الاطباء المعاصرين الى اهمال العلاج بالعمل أكثر مما فعل سابقوهم من الاطباء الذين عاشوا في فترة الاعتقاد بإستحالة علاج مرضى الامراض العقلية ، أما اذا اراد هؤلاء الاطباء المعاصرون أن يحققوا شيئا ذا قيمة في ميدان العلاج فعليهم أن يجعلوا من المرضى شغلهم الشاغل وينخرطوا معهم في الحياة . ومن الملاحظ اليوم أن الاطباء يحسون أنهم فرغوا من اداء واجبهم نحو المريض اذا اعطوه الاقراص والحقن والصدمات الكهربائية . ولا يقدرون أن المريض يحتاج كذلك الى الكلمة الطيبة ، والكرامة ، والحرية ، والشغل والترفيه والظروف البيئية الموائمة . ورغم ذلك فلا ننكر أن العلاج الفعال هو الذي مكن الاطباء من تطبيق طريقة العلاج الحر على نطاق واسع اليوم . كما أصبح العلاج بحقن اللارجكتيل والصدمات الكهربائية تحت وسائل التخدير المعروفة ناجحا في حالات القلق والرغبة في التدمير وجعل طريقة العلاج الحر أكثر ضمانا عن ذي قبل . والعكس صحيح فلقد وفرت الظروف البيئية الطبيعية للمصحات التي تعتمد العلاج بالعمل امكانيات أوسع للعلاج الفعال . وهو الامر الذي كان الجو الخانق المعزول خلف الزنازين لا يسمح به .

وحتى في الحالات التي ينجح العلاج الفعال في شفائها ، يظل عاجزا عن وضع اللمسات الأخيرة . فالاضطراب والرغبة التدميرية والاوهام والهلوسة كل هذه الأعراض تنتهي لكن ذلك ليس بكاف . فالطبيب يرى أن مثل تلك الحالة أصبحت سوية غير أن المجتمع يظل على رفضه لها . فالمجتمع دقيق في حكمه

للفاية . فالشخص الذي قضى مدة ما في احدى المصحات يظل موضع الشك ولا يقبله الناس بسهولة . ولذا نجد المريض الذي تم شفاؤه ووافقت المصحة له على الخروج يقف حائرا على الباب ، متوجسا فاقدا للثقة بالنفس ودون عمل . كما ان المصحة شغلت مكانة منذ مدة طويلة . وربما لا يجد عملا على الاطلاق فالجميع يخشونه . وعادة ما لا يجد مكانا يذهب اليه ويكون اهله غير متحمسين لعودته . وهكذا يجد نفسه خائر القوى . ضعيفا عاجزا مثقلا بالمتاعب ويكون عليه أن يخوض صراعا رهيبا يرهق قوى الجهاز العصبي للانسان السوي . حقا لقد تحسنت حالته او شفيت لكنه ما زال يحمل ندوبا عقلية . انه الان «موصوم» بدخول مصحة الامراض العقلية ومستقبله غير مضمون وعليه ان يشق طريقه وسط مجتمع لا يفهمه .

انه اشبه بسفينة جانحة دون قارب نجاة .
ولقد قام «القفص الذهبي» بدور قارب النجاة الذي ييسر الامور امام ذلك الشخص . وهو ليس عملا سهلا وسيظل كذلك حتى يطرا على تأهيل المريض اصلاح حاسم يوضع موضع التطبيق .

اعتاد كهنة أبولو في لويكادرس في الزمن القديم منذ ما يزيد عن الفي عام أن يعالجوا المجنون بقذفه من اعلى صخرة شاهقة في البحر التيراتي Thyrrhenian مع ربطه الى طيور عملاقة كي تحمله بهدوء حتى سطح البحر . ولقد كان علاجا بشعا لم يسجلوا لنا بكل أسف شيئا عن مفعوله) . لعله السلف القديم للصدمات الكهربائية (ولعل المرضى كانوا يخافونه كما يخافون العلاج بالكهرباء اليوم) . وما زال هذا التصور صالحا حتى اليوم للطب النفسي فالمصحة التي تعتمد العمل كعلاج تقوم بمثابة الطائر الذي تقي أجنته القوة المريض من التحطم على قمة الصخرة الشاهقة او الغوص في الاعماق حتى الابد .

الفصل الثاني

الفصام

إذا أقمت بين مائة من مرضى العقل ، فسوف تلاحظ عليهم الكثير من الملاحظات التي تغيب عنك إذا ما كنت بعيدا عنهم . ولقد بدأت اعتقد أن مؤلفي المراجع كانوا سيكتبونها بطريقة مختلفة لو أنهم عاشروا المرضى . كما أخذت أحس بالارتباك كلما فكرت في السنوات التي فقدتها رئيسا للأطباء في ليبوتميزو Lipotmezo فماذا كنت أعرف عن المرضى في ذلك الحين ؟ ما الذي يمكن أن يعرفه احد عن العقل المضطرب اعتمادا على التقارير التي يدونها الممرضون مع بعض الزيارات الخاطفة ؟ والزيارة تعطي صورة مشوهة فهي تدفع الطبيب الى استرجاع ما تعلمه في الكتب ولكن الصورة التي يأخذها لا تشبه المريض الا الى حد ما . وهي بالاحرى تشبه النموذج الذي عرفه خلال الكتب التي قراها . فيصبح تفسير المرض عملا ميكانيكيا ويغطي النمط الشائع على الخصائص . فاعتمادا على معرفته بالنمط الشائع يعرف الطبيب عن المريض أكثر مما فيه فعلا . فهو يعرف تلا ضخما من الاحتمالات ، الا أنه ليس من المؤكد أنه يعرف المريض نفسه .

في «القفص الذهبي» أخذت في التعمد على التفكير الحر فهناك كان مسموحا لكل شخص - حتى الطبيب - أن يتكلم ، وأن يكتب ، وأن يرسم ، وأن يلعب كيفما شاء . وفي ظل حماية القفص الذهبي وبعيدا عن تأثير تعاليم النظريات المقدسة التي لا يجوز الاعتداء على حرمانها ، استطاع المرء أن يعلن أن جوهر

الفصام يكمن في الحنين الى الحرية .

الحرية بمعنى أن يعيش المرء وفقا لقوانينه الفردية وهنا لا تكون العبودية نقيض الحرية ، بل الانصياع والتكيف الاجباريين . ان قوانين المجتمع تقوم على القوانين الفردية لعدد كبير من الناس . غير ان هذا لا يعني ان قوانين المجتمع تتطابق مع القوانين الفردية لكل هؤلاء الذين يألفونها . فالكمل مختلف عن مجموع اجزائه كما قال أرسطو من زمن بعيد . ان قانون المجتمع ليس مجموع القوانين الفردية بل نتيجة تلك القوانين فالقوانين الفردية لمعظم الناس تختلف عن قوانين المجتمع ، ولكنها لا تختلف عنها الى الحد الذي لا يستطيعون معه أن يمثلوا لقوانين المجتمع وهؤلاء الذين يمثلون يسمون الأسوياء .

والامثال سهل بالنسبة لمعظم الناس ، اما لان فرديتهم تتوافق مع المتطلبات الاجتماعية وإما لانهم لا يملكون فردية على الإطلاق . فكثير من الناس لا يتمتعون بالرغبة في الاستقلال ، في تكوين رأي حر ، في اتخاذ نقطة انطلاق خاصة بهم . وهذا ما نعينه بعدم وجود فردية لديهم أما هؤلاء الذين يملكون فردية متميزة فهم اما أن يدفعونها الى الامثال للارادة الجماعية للمجتمع ، وإما أن يرفضوا ذلك ، في الحالة الاولى تراهم يمثلون عن طوعية ، ومن هنا يصبحون أحرارا . وفي الحالة الثانية اما أن يمثلوا تحت القسر وإما أن يتمرّدوا . من هذا التمرّد يأتي الثوريون والمجددون والفنانون والعلماء الخلاّقون ، وكل هؤلاء الذين يمنحون الانسانية شيئا جديدا . غير أن كل الافراد لا يملكون مواهب خلاقة . ولذا يصبح الشخص الذي لا يملك سوى قدرات متوسطة شخصا غريب الاطوار ، وربما شخصا منعزلا عن الآخرين . وهو ليس مجنونا ، لكنه ليس سويا كذلك بمعنى انه لا يشبه الآخرين . وقد يصبح عصائيا ، في منتصف الطريق بين التكيف والتشبث بقانونه الخاص ، ويحيا حياة تقوم على محاولة غير ناجحة للحل الوسط . والمصابون بالفصام يختلفون عن ذلك النوع في أنهم لا يحاولون الامثال فهم القانون بالنسبة لانفسهم ، وهم لا يعيرون قوانين العالم التفاتا وقد يتجاهلونهم عن عمد . فماذا يفعل ذلك المريض المصاب بالكتاتونيا حين يقف متصلبا في احد الاركان محمّلا امامه ان لم يكن يحتاج ؟؟؟ لا ينطق ولا يأكل ، يشد الغطاء على رأسه ويرقد متصلبا في سريره ، ويظل على هذا الحال لساعات او لأيام ، لأسابيع وربما لشهور وأحيانا لسنوات . ماذا يفعل ؟ لا شيء الا أن يكون نفسه ، انه يفلق نوافذ العالم بكل ما فيه . لا يعترف بالعالم ، ويحتج على الواقع بكل سلوكه ذاك ، واذا تحرك ، فان تحركاته لا تحمل اليها معنى ما وماذا تمنّي بالنسبة اليه لا ندري . يكشر ، عضلاته تتصلب او تصير لينة كالشمع وبطرق لا نستطيع لها فهما . واذا تكلم لا تعدو كلماته أن تكون همسات غير مسموعة موجهة اليه نفسه . وتجده لا يستجيب لشيء ولا يتوقع شيئا ما من اي شخص ، ويفضل الا يتكلم على الإطلاق وعلى سبيل المثال كان كل من تابييه العجوز وكثير تيس وفيلما ساركوزي من نزلاء «الجراڤ» قادرين من الناحية

الجسمية على الكلام ، الا أن أيا منهم لم يجد لديه الرغبة في أن يتفوه بكلمة واحدة لمدة سنوات .

ولعل الامر يبدو غريبا اذا ما أطلقنا على هذا الانعزال السلبي اليائس «حرية» فحالة العزلة تلك لا تدخل السعادة على المريض ولا على العالم المحيط به ، انها فقط الحرية في الا يشارك . وهي لذلك حالة غريبة ، غريبة الى الحد الذي نطلق على المصاب بها مجنوناً . غير أن هذا لا يغير شيئا من الحقيقة التي تقول انها نوع من الحرية غير المحدودة في أن يظل الشخص منحصرا في دائرته الخاصة ولا يحاول أن يحتك بالعالم . وهو امر صعب ، الى حد أن القادرين عليه قليلون للغاية حتى من بين المجانين أنفسهم . وبمجرد ما يفتحون فهم فان حريتهم تلك تنقلص بسرعة . ألم نفقد حريتنا الاولى حين اكتسبنا اعظم قدرة انسانية ملحوظة ، اعني حين تعلمنا الكلام ؟ فالكلمة . ذلك الاصطلاح على ان اصواتا معينة تحمل معان معينة ، استطاعت أن تحررنا من قيود الحياة الحيوانية ، لكنها في ذات الوقت ربطتنا بروابط لا انفصام لها مع المجتمع . فحالة الكتاتونيا التي ترفض الكلام او الاتصال او التعرف على احد ، باختصار تزدري كل أنواع الاتصال الاجتماعي والانساني ، اقل انسانية ولكنها اكثر حرية . فهو بفهماته غير المترابطة ، ومستدعياته المشوشة ، ومنطقه غير المفهوم ، وعجزه عن الفهم ، وعدم قدرته على الخضوع لاي اغراء يعيش في عالم غريب عن عالمنا ، حيث يسود قانونه الخاص . وهذا هو السبب في انه لا يفهمنا وفي اننا لا نفهمه . غير ان عالمه المنفصل ذاك يتكون مع ذلك من فئات الكلمات والافكار التي يسترجعها عن عالمنا . وتتلخص حرية تلك الحالة في تجاهلنا .

أما مرضى الاوهام الذين يأتي كلامهم مخبولا ولكن يحمل بعض المنطق فهم اكثر انسانية الى حد ما ، ولكنهم اقل حرية والى حد ما ايضا ، فهم يحتفظون بشخصيتهم الخاصة الى ذلك الحد الذي تظل معه معتقداتهم راسخة ، وبحيث لا تؤثر حقائق الواقع عليهم . وانهم واثقون من أنفسهم ولا يعيرون آراء العالم المحيط أدنى اهتمام . وهم لا يقبلون التفاهم . وتراهم يقدمون بعض الاعترافات الصغيرة وقد يتنازلون ، الا عن افكارهم . أما من الناحية العلمية فليس لديهم صلة بالعالم ، وهم لا يهتمون بإقناع الآخرين بأفكارهم فهم يعرفون أفكارهم ، وفي هذا الكفاية .

ومثل هؤلاء هم المصابون بالفصام حقيقة . انهم يرفضون العالم كي يتمكنون من العيش بحرية نسبية ، وهذه عملية فاشلة بطبيعة الحال . والامر مختلف مع المصابين بالفصام الاضطهادي . فكلامهم ليس خليطا مشوشا ، بل تراهم يكوّنون نظرية تبدو معقولة لاول وهلة ، واضحة التحاليل على الحقائق ، وينتظمها بصفة عامة خطأ منطقي أساسي . وتراهم يعيشون على مستوى ديني او ميتافيزيقي او فلسفي او شعري ، ومستواهم الديني ذاك ما هو الا قانون قائم بذاته مثله في ذلك مثل المستوى الميتافيزيقي او الفلسفي او الشعري الذين يعيشون عليه ، واذا

لم تحلق روحهم عاليا فانهم عادة ما يعانون داخل السجن الذي اقاموه لانفسهم - مثلهم مثل صانع الأقفال الذي اخذ يطلب مني اليوم بعد اليوم ان اطلق سراحه من السجن الذي يقيم فيه مع الاشعة اللعينة . وهذه ليست بنكتة . فمرضى الفصام يحسون فعلا بتلك القوة السحرية التي تحصرهم في نطاق حريتهم الاولى . والحالات الاقل خطرا تقاوم وتتمرد وتحطم وتقنع وتسيطر ، اما الحالات الخطرة فتفضيدها من كل ذلك . وتراها تحيا في حالة تبلد دائم في الفراغ الذي تحيط نفسها به كقلعة محزنة .

لقد قال بارميندس ان مقياس جميع الاشياء هو الانسان ، لكنه لم يقل اي انسان ؟ أنا ام الآخرون ؟ الأشخاص السويون «الأسوياء» يقبلون الآخر كمقياس، اما المصابون بالفصام فيرفضون ، ويريدون أن يكونوا هم المقياس . والشعراء والشاذون يفهمون هذا جيدا لانهم يحسون نفس الاحساس وأنا لا أريد أن اخوض في أسرار العبقرية والجنون هنا ، ولكنه ليس خفيا أن الشعراء والمجانين مرتبطون مع بعضهم البعض بطريقة ما ، فكل من الشاعر والمجنون غير راض وكل منهما يستريح على وسادة عزيزة من عبادة الذات مثل الشاعر كوستولاني Kosytolanyi وكل منهما يوقن أننا لا نساوي الا ما نساويه امام انفسنا . وهذا في الواقع ليس عبادة ذات بقدر ما هو اعتراف مطلق بشخصيتهم .

أنا مع نفسي

مقياس

كلماتي المنحوتة من الذهب الخالص هي

كلمات السرور

على كل قطعة ذهب تتبدى

صورتي كصورة الملك

وفي الأعالي

ترى نقش الكلمة المشحونة بالزهو :

أنا !

ولقد توصلت الى ذلك ليس من نزلاء جرانج فحسب بل ومن دستوفسكي الذي وضع أصابعه بدقة على جوهر «الفصام» في وقت لم يكن الأطباء فيه قد صنفوا ذلك المرض بعد . يقول المؤلف على لسان رسكوليفكوف «ينقسم الناس الى قسمين العاديون وغير العاديين ، القسم الاول يحيا حياته في طاعة ورتابة . أما القسم الثاني فيرى مبررا في تخطي جميع العقبات والخوض في جحيم النار وعباب الماء من أجل ما يحمل من أفكار ...» وإذا ما تملكك تلك الأفكار شخصا ما يأتي الفصام أن راسكوليفكوف يريد أن يكون قانونا في ذاته . وهذه حرية زائفة وشوهاء لانها تقوم على رفض المجتمع . ما هذا النوع الغريب من الحرية التي تعطي لي وحدي دون الآخرين . انها الحرية التي يريدها الدكتاتور والمجنون . فالرغبة الانسانية جدا تصبح لا انسانية . والمصير الذي انتهى اليه راسكوليفكوف

مصير مأسوي حقيقي لرجل مصاب بالفصام . هنا تكمن الاستحالة الأساسية نحو تحقيق ذلك النوع من الحرية الخيالية التي يطمحون إليها .

وفي رواية «الأبله» يقول دستوفسكي على لسان هيوليت وهو يحتضر مثلا نموذجيا على التفكير الفصامي «أنا أكرهك يا جافريل أردليا نوفيتش لسبب وحيد وهو أنك تعتبر نموذجا ، تجسيدا ، تشخيصا وجوهرا للعادية الانانية الحقة الفادرة الوقحة . أنت تمثل العادية محفوظة حفظا . أنت العادية الاوليمبية التي لا يأتيها الشك . أنت روتين الروتين . لقد قدر عليك ألا يخطر على فؤادك فكرة جديدة . هل يوجد ما هو أبغض الى المصاب بالفصام من روتين الروتين ؟

وفي ايفان في «الاخوة كرمازوف» نقابل الفصام واضحا أمام أعيننا . وفي القصيدة التي كتبها عن «الفتش العام» يوضح بجلاء ما يجعل الشخص الذي يوصف بأنه روتين الروتين واحدا من القطيع يقول «أنك تعد الناس بنوع من الحرية لا يستطيعون ببساطتهم له فهما ، بل يخشونه كل الخشية لانه ما من شيء كان مرهقا للناس والمجتمع الانساني اكثر من الحرية» ويستطرد : لم يتحمل الانسان عذابا أكبر من بقاءه حرا لا يجد من يحنى الرأس ويركع أمامه . خلال مثل هذا المنظار يرى المصابون بالانفصام الرجل العادي ، المتوسط الذي لا يستطيع أن يتمرد وتلخص رغبته في أن يصير كالأخرين ، على نقض الخياليين الذين يعيشون على التمرد ضد التماثل ، والرفض المطلق للالتزامات ، وعدم القدرة على الإذعان والسعي الى الحرية كما يتخلونها حتى يدخلون في زمرة المجانين .



إذا عشت بين مرضى العقل فسوف تستنتج أنهم يختلفون كلية عما تصفهم الكتب المدرسية . أنا لا أتجاهل ، بل أعتقد أن ما تتعلمه منها موجود هو الآخر في الواقع وأن تطور المرضى يتفق مع وصف تلك الكتب . غير أن النظرية تأخذ في التحجر بينما تتابع الحياة تغيرها . وعلى سبيل المثال من المعروف أن الهستيريا لم تعد تطابق الوصف الذي اعطاه لها شاركوت M. Charcot في القرن الماضي . من ذا الذي يصادف نوبة هستيرية كبرى Grand mal اليوم ؟ قد تحدث من وقت لآخر لكنها تظل نادرة كقوس القزح . يقول الطب العقلي : لقد تغيرت عبقرية المرضى ! . لكن مرض الفصام تغير هو الآخر وكذلك جنون الاضطهاد والصرع . وليس هناك الان ما يسمى بالصرع السياسي الذي تحدث عنه لوبروزو كما تغيرت صفات الصرع لتصبح التشرذم والسخط . ونادرا ما يقابل المرء الان ضمن حالات الفصام ما يسمى «بالشخصية المنقسمة» التي وصفها بلير Bleuber بإبداع فائق ولقد أصبح الفصام في الحقيقة morbus totius Substantiae أو المرض ذو الالف وجه والجوهر الشامل الذي -

ولنعترف بالحقيقة ، لا نكاد نستوضح طريقنا خلاله . ومن ذا الذي يقابل حالات Paraphrenia اليوم . وحتى جنون الاضطهاد الغير زائف أصبح نادرا . كذلك فان حالات ذهان الهوس الاكتئاب اصبحت في ندرة الفيل الابيض . كيف زفوا تلك الحالات الى اذهاننا في الجامعة !

على ان ثمة وصفا قصيرا يرجع تاريخه الى ما قبل وصف كل من بليسر وكراپلين ، وهو وصف يطابق التطور الذي حدث في حالات الفصام اليوم . جاء ذلك الوصف على لسان بولونيوس حين قال واصفا حالة الجنون المؤثر فيه عند هاملت :

فقد نفر ..

ثم خرّ حزينا

ثم صام عن الطعام

ثم قام يترقب

وانتابه الضعف .. ثم الخفة ثم الانهيار .

وكأن ثمة مئات من النمل تطن داخل جمجمته دون انقطاع . فالخلايا تتخمر وتحرك وتتمدد وتتقلص أما ما نلمحه من كل ذلك فهو الاتهامات الباطلة، والشكوك التي لا اساس لها والافكار المشوشة التي تتبع بعضها الآخر دون ترابط . ثم «يلقي الشاب بنظرته الى الفراغ ويأخذ في مخاطبة الهواء» . ويبدأ في الهلوسة . انه لم يعد يحيا في عالمنا ، انه لا يناضل ضدنا بل ضد تلك القوى المنيعة التي خلقها بنفسه في عقله . ومن هنا تصبح عبوديته عبودية حقة لانه هو الذي خلق قيوده بنفسه . ومتى دخل الانسان في مثل هذه المباراة فسوف يخسر لا محالة . فتراه يحيا كالميت لا يعرف شيئا . لا يرغب ولا يريد ان يرغب ، لا يسأل ولا يجيب ، ويلفه فراغ كبير وينتظر في تلبد كامل الحكم النهائي الذي سيحرره من القيود التي فرضها على نفسه .

وفي نفس الوقت يستمر المرضى في مهاجمة الخلايا . وبعد اختفاء قوة - الارادة والعاطفة ، تبدأ القوى العقلية في التدهور . وحين يبدأ المريض في العودة الى نفسه بعد حالة الجمود الشبيهة بالحلم التي استمرت عدة سنوات يجد انه لم يعد نفسه ، بل مجرد غلاف محترق . ولم يعد يتمرد او يحتج كما لم يعد خائفا او غاضبا لقد احترقت ذكرى الصراع كلية ، وهو يتحمل الحياة في تلبد ويعبر عن امتنانه المتواضع لان الشمس ما زالت تسطع .



لقد كان القفص الذهبي في جرانج قبل كل شيء مستقرا لهذه النفوس المحترقة ، «المصابون» او غير القابلين للشفاء الذين لا ينتمون الى اي مكان آخر . لقد شتتهم لسنوات بل لعشرات السنوات حواط الرنزانة المعمة

وقضبانها ، وقمصان الكتاف ، وأواني الطعام وأصوات السجّانين النابحة . وكذلك الكسل ، والوقوف في الممرات الجرداء ، وخشخشة المفاتيح ، دائماً وأبداً نفس العدم الرتيب ، ودمر انعدام اللون ما بقي من محتوى ضئيل في خلايا عقولهم . لا ، انها لم تدمر كلية ، اذ انهم عندما نقلوا الى القفص الذهبي نظر المرضى حولهم في ذهول وبدوا في استنشاق الهواء النقي . لقد كان الهواء النقي شيئاً غير معتاد بدرجة ما ، الا انه ذكرهم بشيء يوجد لديهم منه ذكرى حية لا تكاد تبين . وأخذوا يتحركون في وجل ، يتحسسون جاروفاً ، يلمسون كرة قدم ، يحملقون في جرامافون . وفي الحديقة طرفت عيونهم أمام ضوء الشمس ، وأخذوا نوعاً بعدم وجود قضبان او مفاتيح او st. gack . ولم ينبسوا بنت شفة ، ولم يستجيبوا بحماس لانهم فقدوا الاعتياد على مثل تلك الاستجابات . وضربوا بالفأس في الارض على استحياء ، فذكرياتهم غامضة . ولم يكن «العقم العاطفي» يسمح لهم بالبهجة . ولكن ما أن يحتويهم ايقاع الحياة . ما أن يصبح العمل والتسلية تدريجياً طريقتهم في الحياة حتى يصبحوا أعضاء في المجتمع الجديد ، ويفزرو قلوبهم ببطء شعور جديد وهو : انهم يحسون بأنهم في بيوتهم . وكانت حياتهم الجديدة مليئة بالصدقة والحب ، والمشاجرات والمزاح . وأصبح العمل لذة والتسلية منهجاً . ولسنوات طويلة لم يكن لديهم ما يتطلعون اليه ، فقد كان كل شيء على ما هو عليه دائماً . اما الآن فلديهم برنامج - عمل تسلية ، مفامرة ، أمسية أدبية ، أمسية راقصة ، سينما يوم الاحد ، بائع الأيس كريم يوم الاربعاء ، الحمائم يوم السبت ، مباراة كرة الطاولة ، لعب الورق - او ربما الجلوس في الهواء الطلق فحسب ومشاهدة الطيور او ملاعبة القط ، وأن يتحدث الناس اليهم في لطف ، وأن يقرأوا اذا شاءوا ، او يسيرون في الحديقة مع نفس محطمة أخرى ، قليلة الحديث . صامتون اغلب الوقت ، وأن يشاهدوا العرض المسرحي الذي يقدمه زملاؤهم الاقل اضطراباً حتى دون فهم معناه ، وأن يذهبوا الى النوم متعبين بعد حمائم المساء لان هناك عملاً ينتظرهم في الغد ، عمل يجب انجازه - لماذا ؟ الله وحده يعرف ولكن يجب انجازه لانه بدونه ستكون الحياة فارغة ، وبعدئذ يجب جمع المحصول ، واذا تركناه فيسيذهب هباء - وسيذهب عملنا هباء وكذلك حياتنا وبيتنا ... من ذا الذي يدري ماذا يحدث في تلك النفوس العقيمة ؟ لا بد انه شيء كهذا في اعتقادي . لم يكونوا يتحدثون عنه ، ولكننا كنا نلاحظ انهم يحسون بالراحة . هل شفوا ؟ لا ، لا اظن ذلك . ولكنهم تحسّنوا وهذا انما متأكد منه وهو كل ما كنت اتوقعه .



كتبت كتاباً في الطب العقلي للممرضات . وكان هناك شيء يدعو الى الغرابة

في ذلك ، اذا ما وضعنا في الاعتبار تحفظا بشأن الكتب المدرسية . فالكتاب المدرسي يكتب عادة في المكتب . وهو يتناول بالضرورة الأنماط الشائعة وليس النماذج الفردية . ترى هل يمكنني تجنب هذا الخطأ او سأنزلق أنا ايضا لأعرض قضايا الطب العقلي التي اصبحت عقيدة جامدة .

بالطبع لم انجح تماما . ولكنني حاولت في اكثر من موضع أن أزع جانباً من الحياة الواقعية للحالات الفردية . ولقد استطعت ذلك لانني لم اكن اكتب بتكليف ، فقد كنت أكتب لمزاجي الخاص ولمرضاتي .

ورغم ذلك لم يكن العمل سهلاً بالمرّة . فان ينقل المرء هذه الاشياء الى اناس بسطاء غير متعلمين وان يجعلهم يكتشفوا المعنى الحقيقي خلف الكلمات وأن لا يكتفوا بذلك بل ويستوعبوه ويتعلموه بسهولة نسبية - لم يكن ذلك أمراً سهلاً على الإطلاق . ولم اكن أظن أن كتاباً صغيراً كهذا سيجعلني ابدل كل هذا العرق .

وكان هناك مرضان من أصعب الامراض عليهما من ناحية الاستيعاب وهما الفصام والهستيريا . وكان هذا أمراً طبيعياً ، لكون هذين المرضين أعقد فصول الطب العقلي . الى جانب أن مداهما لا حدود له بحيث يكاد يوجد فيهما كل الأعراض .

وفي النهاية القيت جانباً بكل الاوصاف المعروفة في الكتب وحاولت منهجاً جديداً . فقدمت المرض . مثل بيضة كولومبوس - كما يتكشف أمام أعيننا . وعندئذ حدث امر غريب . لم تفهم الأمراض الفصام فحسب بل فهمته أنا - أيضاً . فهمت في النهاية ، اكتشفت شيئاً كان حتى ذلك الوقت ينقص وصف الفصام - وهو الاستمرار Continuity ذلك الجذع الذي تنبثق آلاف الفروع والاوراق من الأعراض .

ويجب أن نلفت النظر الى أن اذهان المراهقة هو أصعب قضايا الطب العقلي . ولا أتصور للحظة أنني حللت المشكلة . فقد قال كريبلين عن الفصام كل ما يمكن قوله كما رتبها بلويلر في نظام . وكان بلويلر من الحصافة ليقول أن الفصام هو سلة المهملات التي يلقي فيها اطباء بكل ما لا يستطيعون تشخيصه . وكان لدينا في جرانج عدد قليل من المرضى وصموا بالفصام من عشرات السنين - لان مرضهم ببساطة لم يكن يندرج تحت اي تشخيص آخر . وكان في الفصام - كما يظن - متسع لكل شيء . ورغم انني لم اكن أظن ذلك ، فلم اكن اعرف بديلاً أفضل . وبالتدرج تم الوصول الى مرحلة تم الاعتراف فيها بفئتين من الفصام : النموذجي typical وغير النموذجي atypical .

ولم يكن هذا أمراً يدعو الى العجب . فالثرثرة التي لا تنتهي فصام ، وكذلك الصمت المطلق . وزيادة الحساسية فصام ، وكذلك اللامبالاة القاسية . والعناد الارادي فصام وكذلك التراخي السلبي . والتفلسف الرمزي فصام وكذلك البلادة الخالصة . والشك او اللامبالاة يمكن أن يكونا فصاماً وكذلك الامر بالنسبة للنظافة الوسواسية القصرية او الصد المفرط او الهرجلة او جنون العظمة او الشعور

بالنقص . وبعض الفصامين لديهم هلاوس وهذات بينما لا تحدث لغيرهم من الفصامين قط . فيظن احدهم انه يذهب شعاعا ، بينما يخترع الآخر اختراعات مستحيلة ، ويتحول ثالث الى العنف دون اي سبب ، ويخاف الرابع دون اي سبب كذلك . ويتجول البعض لا يقر لهم قرار بينما يتجمد الآخرون في اماكنهم كأنهم موميאות . ويكتب واحد منهم أشعارا شاذة او يرسم صورا غريبة بينما ينسى آخر جدول الضرب . وتظهر لدى احدهم الانحرافات الجنسية بينما تختفي الجنسية عند الآخر تماما . ويمتلئ احدهم بأطماح غير واقعية بينما يستجيب آخر استجابة سلبية لكل شيء . وبينما يرغب واحد منهم في اصلاح المجتمع ، يرفض آخر المجتمع بكامله بل يرفض حتى الاعتراف بعائلته .

وبعبارة واحدة ، يوجد كل شيء ونقيضه في الفصام . ومع ذلك فلا يزال يوجد فيه طابعه المميز الذي يؤكد وحدته التصنيفية ويجعل التشخيص سهلا رغم الكثير من الأعراض المتناقضة . ولا يمكن حتى الان فحص تشخيصات المرض العقلي داخل أنابيب الاختبار او تحت الميكروسكوب ومن الملاحظ أن الأطباء الذين يؤسسون تشخيصهم على نتائج الفحص المعمل وحده لا يتمتعون باحترام كبير . فبالإضافة الى معرفة المريض والأعراض الذاتية يحتاج الامر الى حاسة خاصة للتشخيص تشمل المهارة والخبرة . وقد أدخل بلويلر طبيب الأمراض العقلية السويسري المنهج الى «هيصة» الفصام . فوصف عملية الأعراض بشكلها البسيط ثم تنوعاتها الثلاثة - الهيفرنيا والبارانويا والكتاتونيا . وكانت الأعراض العملية هي اضطرابات التفكير واضطرابات الإرادة والانفعال ، وما سبق أن وصفته بأنه «يصبح الانسان قانون نفسه» وهو الذاتية **autish** - ويبدأ النمط الهيفرنيني في عمر مبكر وبعد احتراق الانفعالات سرعان ما ينتهي الى التبلد التام . وأما النمط البارانوني فيتميز بهذات الاضطهاد او العظمة اما النمط الكتاتوني فيتميز بالكتاتونيا الجسمانية والذهنية الكاملة .

وكل هذا سليم وصادق . ولقد تعلمناه كذلك لمدة نصف قرن وعلمناه كما هو، كان المرض كذلك أيضا . وكان الشيء الوحيد الناقص هو العمود الفقري للامر كله . وهو طبيعة العملية ككل . فكانت الانماط الاربعة تبدو منعزلة تماما كما لو كان كل واحد منها لا علاقة له بالآخر . ومع ذلك فقد كانوا متصلين . أن يكون «الانسان قانون نفسه» اي الذاتية **autism** هي السمة الأساسية المميزة للفصام . حجب الواقع ، والتحرق من اجل أسلوب للحياة فريد في حياته واستقلاله ، وعدم فهم العالم ، والانعزال الذي لا يمكن الاقتراب منه ، والانطواء، والعزلة هذه هي الميزات الأساسية للمرض المسمى بالفصام . والذاتية هي الـ **gonus proximus** ، هي الاطار الذي يحتوي كافة الانماط المتعارضة للفصام . وهم ليسوا في الحقيقة متعارضين ولكن مراحل متقدمة او متأخرة لنفس المجرى الذاتي .

ولقد حاولت تعريف ستة من مراحل متابعة للعملية الفصامية .

١ - يبدأ المرض عادة بأعراض مشابهة للنيوراستينيا (الاعياء النفسي) ، ولذلك يمكننا ان نطلق على المرحلة الاولى هذه المرحلة النيوراستينية **Nerastheniform** والنيوراستينيا هي الاعصاب وبعبارة أدق هي الخمود الجسماني والعقلي. فالشاب الذي كانت لديه عقلية سليمة وقدرة على العمل حتى تلك اللحظة تميد الارض تحت اقدامه ويصبح مترددا شديد الاحساس بنفسه **self concious** ، تقلقه مشاكل ميتافيزيقية بدلا من الالتفات الى عمله . وتعذبه مخاوف لا اساس لها ويتخذ عادات قهرية . تزداد شكاواه الجسمانية . فهو متعب ولديه صداع ومتاعب هضمية ، وهو عديم النوم ويحس دائما بالدوار ويضعف بصره وتشتد ضربات قلبه وهو يبالغ في كافة هذه الاعراض مثله مثل متوهم المرض . يصبح قليل الحيلة بدرجة متزايدة تمثل نفسه بالقلق ويوقف عمله ودراسته . ويدير ظهره لأسرته واصدقائه وينطوي على نفسه ولا يهتم بالعالم وتزداد حساسية وقابلية للاستشارة والكتابة .

وغالبا ما تفوت ملاحظة هذه المرحلة على الطبيب . فان المريض لا يلجأ دائما الى الطبيب ، وحتى اذا فعل ذلك فان شبح الفصام المشؤوم لا يمكن ادراكه الان ويأمل الطبيب ، مثل بقية افراد العائلة ، ان تكون المسألة ضعفا مؤقتا فسي الاعصاب يمكن شفاؤه بتغيير الجو وتناول بعض المهدئات .

٢ - وبثبت عدم جدوى العلاج ، ويتفاقم المرض . ويتخذ حديث المريض شكلا مفككا لا رابط بين اجزائه - ويدعي ان الجميع قد انقلبوا ضده ، وأنهم يحاولون ايذاءه واضطهاده وقتله ودس السم له . كما يكشف حديثه عن مبالغة في تقييمه لنفسه .

وهذه هي المرحلة البارانونية من الفصام بما يصاحبها من هذات العظيمة والاضطهاد . وتتميز بالاتهامات ، اذ تمتلئ نفس المريض التي تفاقمت حساسيتها بالشك والعداوة .

٣ - ثم يبدأ التركيب الفصامي الكلي في الاتضاح بجلاء . فيتعرض تفكير المريض وكلامه الى المزيد من الاضطراب . ولا يعود في الامكان فهم المضمون الصحيح لاتهامات المريض افتتانه بنفسه . وتحول الهذات الى شذرات عديمة المعنى ، فالمرضى يتكلم دون روية او تعقل ، ودون تسلسل منطقي . وهو غالبا لا يهتم بالمعنى بقدر اهتمامه بإيقاع الكلمات ، فنجدده يكرر تركيبات من الكلمات عديمة المعنى ، ويأتي بأقوال رمزية ، ويعزو الى كلماته وكلمات الآخرين دلالات سرية . وهو يرى الرؤى ويسمع أشياء أحيانا - هلاوس «الاشعاع» في الاغلب الأعم .

في هذه المرحلة من انحلال الشخصية يصبح اضطراب التفكير كاملا (مرحلة البله **Amentiform Stage**) . ان كلام الفصامي الهجاسي عبارة عن جنون مطبق ، وان كان لا يفقد التسلسل ، أما في مرحلة البله فان التسلسل ينعدم، او يصبح ملتبسا ، من الصعوبة اقتفاء آثاره .

٤ - ان المريض الذي ظل حتى الان متفرغ الوجه يفدو اشد كآبة واكثر غما .
فيزيد عزوف المريض عن الكلام ، بل والاتصال . انه لا يهتم بأسرته او بالاحداث
الخارجية ، ولا يعبر عن اية مشاعر ، ويرغب عن اي شيء ، ويفشل حتى في
التعرف على أسرته : ولا يبدي الفرح او الحزن ، كما لا يبدي الحب او الكراهية .
ويتلو ذلك اعتقال الانفعالات - الرفض العنيد للعالم ، الذي يبدو للمشاهد
الخارجي في شكل كآبة . ويعيش المريض حياة داخلية ، فيصرف عقليا عن
العالم . لا يريد شيئا مشتركا بينه وبين العالم ، ولا يهتم بأي شيء . انه بارد
جامد ، لا يسفر عما يدور في عقله . غاية ما هناك يتمسك ببعض الصيغ
المتعارف عليها ، يكررها في خشونة وبلا مشاعر .

ويطلق على هذه المرحلة الرابعة من مراحل المرض ، مرحلة اللامبالاة ، واهم
خصائصها ان المريض يفدو «قانونا في حد ذاته» .

٥ - ويعقب ذلك تحول غريب . يشعر المريض كأنه في حاجة الى اقامة حاجز
مزيف بين ذاته وبين العالم ، فيغدو سلوكه ضربا من اللوازم الشخصية قوامها
الطقوس الجامدة والحركات البطيئة او السكون وتعبيرات الوجه . واللفو المتواتر
او الصمت المطبق . انه يقف في احد الاركان ويظل يهتز الى الامام ، ويومئ
برأسه ، ويخطو خطوات موقعة ويفرك يديه او يقف في انتباه شديد بوجه خلو
من التعبير ، او يرقد في سريره بلا حراك لا يحتج ولو بكلمة على ما يحدث له .
ويطلق على هذه الحالة اسم **الكاتاتونيا Catatonia** ، وهي في جوهرها ضرب
من الجمود العقلي والفيزيقي والازمات الشخصية **manneism** .

٦ - ثم يحدث تدهور عقلي خطير . فحين ينتهي الجمود الكاتاتوني السى
الارتقاء ، ويصبح في وسعنا الحديث مع المريض من جديد ، نجد انه فقد
معظم معلوماته المكتسبة ، وقل تماسكه العقلي ، واختلت ذاكرته ، وتشتت
انتباهه . بعبارة أخرى يتحول تدريجيا ليفدو معتوها **demented** .
ومع العته ، يصح المريض اشد كآبة . فتتلاشى الاعراض المتنوعة وتذوب
غرابة الاطوار ، وتسيطر اللامبالاة الباردة على عقل المريض المعتوه .



نتيجة الانهباط المرضي **Neuratsh enifahm Inertia** الحساسية الزائدة
الهجاسية **Paranoid hypersensitivity** والشعور بالقهر ، التشتت الابله
Amenti form confusion اللامبالاة الاجترارية **antistic indifference** ، ثم العته
الكامل في النهاية تلك هي خطوات مرض الفصام . ولا أزعم ان هذه المراحل
الستة يمكن مشاهدتها في كل حالة . فكل المرضى لا يمرون بالضرورة بكل
هذه المراحل . ان الفروق الكبيرة بين الافراد الفصامين - وهي فروق هائلة
تتأتى من أن احدهم يصل الى عتبة المرحلة الاولى فحسب ، فيسفر عن أعراض

شبيهة بالانهباط المرضي (أحيانا لعدة سنوات كأمر الحزن مثلا) بينما يصل آخر الى مرحلة الهجاس ، او البله ، او اللامبالاة ، وربما الى حالة الجمود الكتاتوني او العته الكامل . والمريض لا يبلغ الحالة الاخيرة . «حالة العته» مارا بالضرورة بكل المراحل الاخرى ، وانما في اي مرحلة فهناك معتهون منهبطون مرضيا ، ومعتهون هجاسيون ، وحالات من المعتهين البلهاء وهكذا .

السؤال هو هل يمر كل مريض فعلا بهذا التسلسل العام ، ام يتخطى مرحلة او اكثر .

لا اعتقد بوجود ابتعاد جوهري عن هذا التسلسل برغم انه ليس هناك ثمة شك في ظهور بعض سمات مراحل سابقة في المراحل المتقدمة فمثلا تتضح في ثنايا الحديث المضطرب للمريض في مرحلة البله بقايا الاتهامات الهجاسية ، او نلاحظ آثار مرحلة «المريض قانون في حد ذاته» في فترة الجمود الكتاتوني .

ويبدو من المحتمل أن يبدأ الفصام عامة بأعراض الانهباط المرضي ، ثم تتلوها الاعراض الهجاسية ، وهكذا ، وانما تختلف حدة المراحل المختلفة اختلافا بينا . وأحيانا لا يسترعي انظار الطبيب الانهباط المرضي فحسب ، وانما مرحلة الهجاس ايضا ، او ربما يصبح في مقدوره تبينها فيما بعد خلال الوقائع العابرة او الذكريات . ومن ناحية أخرى فكلما كان الاستعداد الشخصي الذي يسبب الانهباط المرضي او (وهذا اكثر حدوثا) مرحلة الهجاس قويا نسبيا ، كلما قل اتضاح أعراض المراحل التالية كلية او لم تسفر عن نفسها اطلاقا . وتحدد خواص الجهاز العصبي للفرد اي مرحلة من هذه المراحل العديدة هي التي ستحكم الكائن .

ولقد يخلق هذا التحديد لنسق المراحل الستة انطبعا بأنها مراحل متميزة تماما . ولكن هذا ليس صحيحا . ويجب أن تؤكد **استمرارية العملية** . فهي مراحل متداخلة ، بينما تدبل أعراض الانهباط المرضي ، فتزداد أعراض الهجاس تأكدا ، عندئذ لا تعود تظهر الا آثار من أعراض الانهباط المرضي ، ويبدأ البله في الظهور . ومع ذبول أعراض الهجاس ، يزداد اتضاح التفكير الاجتراري **autism** حتى يبلغ ذروته في الكتاتونيا حتى تختفي كل هذه الاعراض بظهور العته التدريجي .

ما هي العلاقة بين نظرية المراحل الستة وتصنيف بلويلر ؟ ان بلويلر يفرق بين الفصام البسيط ، وبين أنواعه الهجاسية والكتاتونية والهيبرينية . ويتماثل الفصام البسيط مع المرحلة الثالثة والرابعة ، أما النمط الهجاسي فيتماثل مع المرحلة الثانية ، والكتاتوني مع الخامسة . ويبدو ان النمط الهيبريني عبارة عن نوع سريع من الفصام يعبر المراحل ركضا دون توقف عند المراحل ليصل الى العته الكامل في سن يكون للأسف مبكرا . وغالبا ما يتم تشخيص مرحلة البله باعتبارها سيكوباتية فصامية او عصاب قهري **Neuros compulsion** نظرا لانه اذا تحول المريض الى حالة قاصرة **Defective** في مرحلة الانهباط المرضي ، لما

استطعنا الحديث عن الجنون الا بصعوبة .

فماذا عن الشخصية المنفصمة الذي استمد الفصام اسمه منها ، والتي يعتبرها بلويلر نواة المرض ؟ ماذا عن الثنائية ، والشخصية المزدوجة ذات الوصف المألوف لنا جميعا في المراجع ؟

اذا نحى المرء الحالات الكلاسيكية التي تتضمنها المراجع جانبا واستقى من الحياة الحقيقية فانه مضطر أن يقرر أن الشخصية المنفصمة قد عفى عليها الزمن ، انها قد توجد أحيانا (حالة لويس لافتر في الجرائح مثلا) بيد أن هذا امر شديد الندرة ويدعو للدهشة . لقد لاقت الشخصية المنفصمة مصير النوبة الكبرى Grand Mal في «الهستيريا» التي ذكرها شاركوه ، فنحن نتعلمها ونعلمها . ولكن لا نلتقي بها الا نادرا .

ويعتبر الفصام مرضا عضويا ، مرضا لا يزال مصدره مجهولا لنا يصيب خلايا الدماغ . لماذا يندلع بسرعة أحيانا وفي أحيان أخرى يأخذ مجراه ببطء ، تنطمس الفروق بين مراحل أحيانا ، ويتحرك أحيانا بسرعة ووفق مراحل محددة بوضوح، كل هذه أسئلة لا تزال تعوزها الاجابة ، لماذا يشفى تلقائيا أحيانا ، ويقاوم أنجع انواع العلاج في أحيان أخرى ، لماذا يتواتر حدوثه في بعض العائلات ، بينما ينفجر في مكان آخر من الجنون الوراثي . لا يزال الفصام مرضا غامضا ، وسلسلة الأحاجي لا نعرف عنه الا اقل القليل ، على الرغم من اكتشاف عملية المراحل الستة . واعتقد أحيانا أن فروضا الحالية قد تكون خاطئة في مجموعها، وأنا نجهل جوهر المرض .

ولقد يكون مناسبا تدعيم هذه النظرية بالحقائق ، على الرغم من أن عملية المراحل الستة ليست نظرية بقدر ما هي مجرد تهاويم ناسك في (الجرائح) ، تعتمد على ملاحظاتي عن المرض . وبتعبير أكثر دقة ، لقد تعلمت النظرية من المرضى أنفسهم . فلنعرض امثلة قليلة عن هذه المراحل الستة .

يسهل وصف المرحلة الاولى اذا تذكرنا أمير الحزن ، فهو حالة متبلورة جلية من ذهان الانهباط المرضي . فحين يظل أمير الحزن واقفا الى جوار سريره عدة ايام يقاوم ما تسلط عليه ويقي نفسه من الامراض المزعومة ، وحين يرتعب من مجرد اقتراح بالقيام بعمل ويشعر بالتعب من التفكير في ذلك ، وحين يقوم الاحزان فوق الاحزان في قصائده ، وهو مقتنع بعجزه عن العيش ، معلنا انه سيرقد على العشب في احد الايام ليموت - كان في كل ذلك يعاني من الانهباط المرضي بصورة مضخمة لا تجعلنا نشعر بالارتياح اذا ما شخصناها بأنها مجرد «ضعف في الاعصاب» فهناك ما هو أكثر من ذلك الامر الذي يؤكد «تقلص الشيطان» وإيذاءه لنفسه وهلاوسه العرضية . كان يحاول الاحتفاظ بهلاوسه سرا ، وحتى حين يعترف بها ، كان يعلم جيدا انها مجرد هلاوس ، ولم يخلط قط بين الواقع وعالم الخيال . فكان يطلق عليها اسم «الغيبوبة الشعاعية» مقتفيا اثر بقية الشعراء العظام كفرلين وبو وهوفمان الذين خبروها . وكان ثمة ايضا اضطراب

هجاس خفيف ولكنه ملحوظ في تقديره لذاته ، كحديثه عن الرواية التي يكتبها ، او حين يشير الى نفسه بكل تواضع باعتباره شاعرا عظيما ، على الرغم من أن الشيء الوحيد غير المؤلف في هذا التقدير المبالغ فيه للذات هو أن شاعرنا يعبر عنه بصوت عال بينما يحتفظ زملاؤه بذلك في أنفسهم .

ظللت لا أستطيع تشخيص حالة شاعرنا ، حتى اكتشفت نمط المراحل الستة . فلقد كان مرضه اكبر من أن يكون انهباطا مرضيا ، واقل من أن يكون فصاما . لم يكن يعاني من الانفصام او التداعي الخلطي او اضطراب الكلام او الحساسية الزائدة او تبدل العواطف بالصورة المألوفة ، وبعبارة اخرى كان خلوا من الاعراض الرئيسية . ورغم هذا فقد كان فصاميا . في المرحلة الاولى من الفصام ، ولكنها استحالَت الى حالة قاصرة defective اعتبارا من هذه المرحلة الاولى .

بدا هذا غير مألوف ، فالعملية لا تتوقف بعامة عند هذه المرحلة . لكن في وسعي تذكر حالات مشابهة . ويبدو أن هناك ثمة ارتباطا بين صناعة الشعر وبين هذا الضرب من المرحلة . وأذكر في هذا الصدد حالتني شاعرين آخرين . أولا هما الفتاة الشابة التي كانت حالتها تسبق أمير الحزن بمرحلة والتي كانت أشعارها بمثلبة امثلة تقليدية للتفكير الفصامي . كانت هي التي علمتني أن المصحة المغلقة بمثابة قوت الجمال ، وأن الجمال يموت اذا لم تروه الدموع ودفقة الحب . ومنها استمرت اسم «الفصص الموه» . اما الشاعر الآخر فقد تعلم عني . فلقد تصادف لسوء الحظ أن قرأ في واحد من كتبي عن الوراثة والصبغيات ، الامر الذي جعله يعتقد أن جده - وليس هو - هو المسئول عن مرضه العقلي . فكتب في ذلك قصيدتين :

تعلمت في المساء في احدى القرى
في حجرة صغيرة ، مع التنهيدات
أن جدي هو السيد
سلفي السكير ، لا انا
اعرف الآن أن جدي
يضطهذني ، رغم أنه مات
ويحذق فيّ بعينين زجاجيتين
ويرقص على قمة رأسي .
ذات يوم سأغادر غرفتي عند الفجر
وقد عزمت امري
وسأرتقي التل في تحد
حيث أوجه اللطمة لجدي
ولكن ربما لا يهم

إذا لم يوجد تل - فلست أطلب سوى غرفة
فسيحة غير مفروشة ، أستطيع فيها
أن أخرج من ذاتي ، في قتامة المساء
يجب أن أشكر الله لهذه المعرفة
التي أزعج أنها نصف الشفاء
وان أعرف أن كل ما أعانيه
يلقي باللائمة فيه على سلفي .

ان أعرف أنه حين **الوحش المفترس**
ذو الصرخة الطويلة الحادة المنبثقة
يجعلني انطلق في وهدة الليل
فانه جدي وليس أنا .

والآن سأقول ما أعرفه أنا بمفردي
إذا هاجمني مرة أخرى معولا

فلن أستطيع أن أصارع من هو أنا
لذلك فأنا أكتب أشعاري على الماء ..

في وسع المرء أن يفهم بعض ما يسميه العلماء بالانفصام او الثنائية ، فحين
«تنفصم» الروح ، ينطلق الشخص الآخر ، المرعب من الاعماق ، الآخر الذي
ليس أنا ولكنه أنا .. ان الشيء المخيف هنا ان الشاعر لا يعرف حقا ايهما هو
الذات الحقيقية .

واضحة وضوح النهار وعباءة الليل السوداء
هي حالتي - فصبغياتي تتهددني بالفناء .
لا - ذاتي تعذبني بالليل والنهار
ولا أستطيع دفع المعاناة ما دامت قدرتي .

ثمة ذات ثانية في داخلي

تقتل ذاتي الحقيقية ، وهي في الواقع
قد قتلتها تقريبا ، وما أظن أن أشهد ذلك
انني احبس أنفاس وأشهد صيحة المنتصر .

تحتدم المعركة بيني وبين لا - ذاتي
واحدة من الاثنين يجب أن تمحى ، يا للمحاولة !
فالصراع سيدمر روحي
ولذا افكر في الموت كثيرا .

وحين تستسلم احدى الذاتين أخيرا
فمن المؤكد أنني سأكون قدمت
وحتى ينتهي قلق تحطم الأعصاب
أريد أن أعرف جواب السؤال - من أنا ؟

ان المرء هنا يساوره الاحساس بأنه لا توجد ذاتين فحسب وانما ثلاثة ، الثالثة هي تلك التي يرعبها مراقبة ما اذا كانت الذات او الذات الثانية هي التي سوف تنتصر . لم أفكر في شيء كهذا من قبل . فالفصامي لا يعذبه الصراع المحكوم عليه بالفشل بين شخصيتين فحسب ، وانما يزيد فيتعذب من جراء عدم استطاعته معرفة اي الشخصيتين هي الحقيقية . لقد تقبل الاثنين ، لكن الشك يسلمه لليأس .

كان مؤلف القصائد يناهز الاربعين . ابن رسام شهير ، وكان من المقدر ان يكون رساما موهوبا لو لم تتصارع ذاته مع الذات المفارقة في داخله . وهكذا ظل مضيقا في العالم ، محملا بالشكوك والقلق ، عاجزا عن التوافق ، يشرع فسي انشاء قصيدة او لوحة . كان احد اولئك الذين خبروا الانقسام وثنائية الروح بجلاء .

أذكر مدرّسة بيانو ظلت مثبتة على مرحلة الانهباط المرضي من مراحل الفصام . كان اخراجها من سريرها امرا اشد صعوبة منه بالنسبة لأمير الحزن . وكان عجزها عن الحياة شديدا لدرجة انها كانت تهمل شقتها لأيام دون تدفئة ودون أن تأكل نظرا لافتقادها الى القوة الدافعة لتعنى بضرورتها الاساسية . بيد أن هؤلاء المرضى المثبتين على مرحلة الانهباط المرضي لا ينهضون دليلا في الواقع على نسق المراحل الستة . وانما يأتي الدليل من اولئك الذين كان الانهباط المرضي لديهم مجرد نقطة البداية . وعلى الرغم من أن قلة منهم وصلت الى مصحة العلاج بالعمل ، الا ان (الجرايج) كان يضم بعض حالات منهم . فهناك مثلا أيوجين ميكانو ، الذي يبلغ من العمر الرابعة والثلاثين . اتم المدرسة ، وعمل ميكانيكيا ، وتنقل بين عدة مصانع . كان انطوائيا لا يهتم بالصدقة ، مفضلا العمل او القراءة . ومنذ عشر سنوات مضت غدا اكثر اكتئابا ، وعاجزا عن التركيز ، فأهمل عمله ، ودهمه شعور بالخوف فأصبح نومه مضطربا ، يفكر في الانتحار ، ويزيد فيشرع فيه مرة . أودع بمصحة عقلية . كان يتكلم بكاء ، وان كان شديد الانطواء والاكتئاب . يشغله مصيره المحزن كما يقول طيلة الوقت ، ويعتقد أنه مريض لدرجة تقعده عن العمل او تكوين أسرة . كان خلوا من الهلوس والهذات . وكان يظل مستلقيا في فراشه طيلة اليوم ، لا يكلم احدا ، خجولا ومتشككا . كان يشعر بوطأة الحياة ، يفقد الاهتمام او الحماس لاي شيء . يشعر بالتعب ويعذب ذاته — بعبارة أخرى كان متشبعا بأعراض الانهباط المرضي .

كان هذا هو الموقف منذ خمس سنوات خلت حين بدأ العلاج الفعال . ونتيجة للعلاج ، تحسن مزاجه بعض الشيء ، فرغب في العمل ، وأظهر بعض الاهتمام بالعالم ، ولكنه لم يتغير تغيرا أساسيا . أقبل وشرع في العمل ، ولكنه امتنع بعد أسابيع قلائل وظل لا يصنع شيئا لمدة أربعة اعوام . وزادت حدة أعراض توهم المرض لديه بصورة غير مفهومة ، وضعف بصره الى درجة أنه لم يعد في

وسعه سوى قراءة الحروف الكبيرة . وتدخلت قدماء من الجلوس ، فكف أيضا عن القراءة ، (كان في الواقع يعاني من قصر النظر البسيط ، ولكنه قادرا على القراءة جيدا ، ولم يكن ثمة مرض في قدميه) . وزاد قلقه من المرض تضخما ، كان يضمن وصفه للأعراض نظرات موحية وإشارات ذات «إيحاءات» غريبة ، فهو لا يمكن علاجه الا في السفارة السويسرية على حد قوله . وكان يذكر أنه ترك العمل لأن رئيسه قال عنه ظلما «ليس في وسعي العمل مع مثل هذا الرجل» . وكان ذلك غير صحيح ، فالرئيس لم يقل شيئا كهذا ، ولكنه ظل على اعتقاده بأنه فصل من العمل .

كان هذا هو تاريخ حياته حتى وصل الى (الجرانج) .

كان ذكاؤه وذاكرته لا يخطئان . وقدم إجابات صحيحة على ما قدم له من أسئلة ، وكان هادئا ، متحفظا مفرط الادب . انه لن يعمل ، كيف تسول لكم انفسكم شيئا كهذا؟ ولكن حين دفع اليه ببعض العمل في ورشة الميكانيكا ، تقبله واداه جيدا . كان يستريح اكثر مما يعمل ، ولكن على الرغم من بطئه ، فقد أدى عمله . ولكنه كان يجلس أحيانا لساعات او ايام مكتفيا بالتحديق «والاستراحة» . وفي المساء كان يقف ، شأن امير الحزن ، الى جوار سريره ويستغرق في السرحان . «أحب ساعات الليل» هكذا كان يقول على استحياء حين يطلب منه أن يأوي الى فراشه . وطلب من امه بعض المراجع بالانجليزية والاسبانية ، وانتحى جانبا بعيدا عن أي شخص آخر وعكف عليهم ، ولم يعرف ما اذا كان يدرس فعلا . ولمدة قصيرة خطب سيدة ، كان خجولا ومتحفظا ، بل ويعاني في محضرها ، كان يراقصها ويخرج معها للنزهة ، وهذا امر له دلالة نظرا لانه ظل لمدة عشر سنوات بلا علاقات نسائية . كان الان يرغب في الزواج ، ولكن سرعان ما فقد الشجاعة وامتنع عن الاهتمام بأي شيء . وظل قادرا على تقديم إجابات ذكية على الاسئلة، وان أصبح أشد غموضا عن ذي قبل . كان يرسم على وجهه ثمة ابتسامة توهي بالفموض . ولم يكن يأبه للعلاج بالصدمات تحت تأثير المخدر ، وان كانت حالته تتحسن مؤقتا نتيجة له . وذكر ذات مرة بصورة اقرب للعدوانية أننا لا نملك حق علاجه بالمجر نظرا لانه مواطن اجنبي ، ثم كتب رسالة خلطية للسفارة السويسرية، يشير فيها الى بعض الاخطاء التي اقترفها في نهاية الحرب ، والتي يرغب في التكفير عنها الان بأن يهب جسده لبعض أوجه التجارب الطبية . وظل بعد ذلك في انتظار الاجابة وهو يرقب المحيطين به متشككا ، ومسفرا عن سمات هجاسية متزايدة . اصبح متشككا وغير قابل للتعامل ، بينما تجمدت البسمة الصينية على وجهه .

بدا كأن مرحلة الانهباط المرضي قد اكتملت ، وبدت علامات الشك الهجاسي واضطراب مرحلة البله في الظهور . هذا خطاب للسفارة السويسرية خلو من اخطاء النحو والكتابة .

«يا صاحب السعادة ! في السابع والعشرين من مارس ١٩٥٠ زرت السفارة

للمرة الاولى لأعبر عن احتجاجي على الاعتداء الاجرامي على شخص ، وأطلب حماية السفارة ازاء تكرار مثل هذا الاعتداء المحتمل .

وأنني أعرف الان أن وجودي هناك وذلك الاعتداء الوقح القاسي من جانب اشخاص غير مسئولين يقيمون في المجر موجه ضد سعادتك وضدي علما بأنني في ذلك الوقت كنت عاجزا عن الوقوف على قدمي ، ولو للفترة القصيرة التي قضيتها هناك ، وكانت قلة من الزوار غير المسئولين في حجرة الانتظار يضحكون أمام عينيّ المحمومتين .

يا صاحب السعادة ، أعرف ان الامة المجرية ليست هي المسئولة فحسب عن هذه الواقعة ، ولكنني أشعر بمسئوليتي الشخصية . وكتعويض عن ذلك أقدم شخصي بلا مقابل للطب السويسري ، ليختبر في دواء او اكثر .
في انتظار ردكم ، دمتم لخادكم المتواضع ...»

وطلب في خطاب آخر من السفير السويدي أن يرسل له «دعوة سويدية للعلاج» قائلا انه تقبل في عام ١٩٤٦ بعض الملابس من احدى جمعيات الاحسان الاجنبية ، ومنذ ذلك الحين وهو يتردد على المستشفى فريسة للمرض ، ولكن ربما يمكن علاجه بالخارج ، وأعلن انه تخطى عن جنسيته المجرية ، ولكن لم تقبله اي دولة اجنبية . «يا صاحب السعادة ، انني استغث بك ، فربما لا زلت قابلا للشفاء .. »

كان المريض الوحيد الذي يحادثه ايوجين ميكانيك هو جوليوس فيز الذي كان يعاني من فصام الانهباط المرضي ، والبالغ من العمر اربعة وثلاثون عاما ايضا . كان يعمل ميكانيكا للادوات الطبية وكان ذا خبرة عظيمة تفوق خبرة ايوجين . وكان مرضه بدوره قد بدأ مع بداية الاربعينات في شكل قلق وعدم استقرار متزايدين . كان يعاني من الخذل ، في حالة كامنوم اشبه بمن يسير في حلم . كان يتحاشى الناس ويرفض العمل يعيش على العقاقير ولا يكف عن الشكوى من امراض متوهمة . وتنقل من مصحة الى اخرى . وتزايد الليبدو لديه في البداية ثم انعدم تماما .

وحتى عام ١٩٥٠ ظل يعمل جيدا بصورة ما ، ثم ظهرت عليه أعراض حوازية هجاسية غريبة . فكانت تروي عنه في المصنع قصص مرعبة وتسمى الشرطة لاعتقاله ، ولا يقدمون له المواد اللازمة للعمل .. الخ . وتنقل في العمل بين اربعة اماكن على التوالي وتركها جميعا . وحين اودع احدى المصحات العقلية عام ١٩٥٣ كان قد غدا سلبيا وعاجزا عن العمل منذ وقت طويل . كان سلوكه مترددا وشاكا وقلقا . ويشعر بالمرض ، وثمة شيء يطن في رأسه ، ويصرخ في أذنه . وظن انه من المحتمل أن السم قد دس له في طعامه ، وأن كيانه قد أضر نتيجة اشعاع قوي التردد ، «رأس يشدها شيء كهروفيزيقي» ... بعض الناس يهمهم تدمير صحتي» . ورفض الافصاح عن ذلك . كان تائها ، قلقا ، مضطربا ، وعدوانيا أحيانا ، خجولا ومتحفظا أغلب الاحيان . كانت متاعبه يصعب ترجمتها

الى كلمات ، فهو يشعر بانحراف الصحة ، وبأن الجو المحيط معاديا له ، ويعاني المخاوف ، فالتناس يحدقون فيه بطريقة غريبة ، ويتوقعون منه شيئا ، ولكنه لا يستطيع تبينه . كان متعبا ، متعبا ، دائما متعبا .

وحين اودع (الجرائح) ذكر كل ذلك بالضبط وبتفصيل كبير . كان يستطيع التعبير عن نفسه بوضوح ، وكانت ذاكرته جيدة (على الرغم من انه ذكر ان «ذاكرتي منعدمة») . وكان ذكاؤه لا يخطئ .

كان مرضه واضحا - بداية انهباط مرضي مع مصاحبات هجاسية . ثم اختفى ذلك ، وان ظل الانهباط المرضي باقيا ، مع رغبة في العزلة الاجترارية غدت مسيطرة . نجحنا لبعض الوقت في دفعه الى العمل ، فتوفر في جدد ومهارة ، بمصاحبة ايوجين ميكانيك ، على عمل عربة يد صغيرة ذات اربعة عجلات في ورشة الميكانيكا . وحين انتهيا من عملهما الخلاق ولم نستطع تكليفهما بمهمة اخرى لعدم توفر الخامات ، غرق كليهما في خمول الانهباط المرضي .

كان هذا المثال اول ما بصرنا بأن العلاج الشافي يتأتى بالعمل الخلاق .

وتعتبر المرحلة الهجاسية اكثر وضوحا . فهي تتميز بأفكار التلميح Ideas of reference ، اي التفسير الذاتي لكل شيء ، والشك والاتهامات والهدايات . انها تتسلل بعامة من الاعماق في بطء ، ثم تنتشر في العقل الشعوري واللاشعوري . وفيما بعد تختفي السمات الهجاسية ، وتبقى آثارها فحسب ، في المرضى الذين يتوقف فصامهم عند المرحلة الهجاسية .

كان لدى الميكانيكيان آثار من الأعراض الهجاسية ، وان غلبت السمات الانهباطية المرضية على مرضهم . ولكن الموقف يكون معكوسا بالنسبة لبعض مرضانا ، فيصبح الانهباط بمثابة خلفية للهجاس ، كما هو الحال بالنسبة لصديقي الذي كانت «تسلط عليه الأشعة من خلال جهاز» والذي سبق أن وصفت حالته بالتفصيل . كان ذكاؤه على ما يرام ، ولا يضطرب تفكيره في كل المناحي الاخرى، لكنه يظل متشبها بعناد بهذاء الاضطهاد ، فغداؤه يتم افساده ، ويبقى هو فريسة الاشعاع من خلال جهاز . وحالة اليكس الاسكافي من الحالات المشابهة . كان في وسعه ان يتحدث بذكاء في اي شيء ، وكان يصنع نعالا ممتازة للاحذية . ولكنه لاحظ ان عملاء خطيبته يطاردونهم في كل مكان ، حتى دورة المياه . فلم يكن يجسر على الاكل ، لان خطيبته سممت طعامه ، وهذا يبدو جليا من وجود هذه الفطائر التي سبق أن اعدتها له خطيبته ذات مرة . وكانت قيادات الحزب ايضا تضعه تحت المراقبة . وكانت المصحة التي اقام فيها من قبل مثابة للجاسوسية الدولية . وكان اخو زوجته يرسل اشارات سرية ، وثمة مادة كيميائية وضعت في ساعة حانوت الخلاقة لاختباره . وكان يسب اعضاء المجلس البلدي ، فهم نازيون يسعون لدماره نظرا لانه كان شيوعيا منذ حادثته . الناس يتجسسون عليه من الناحية السياسية ، وله اعداء في الحزب ، يقدمون المساعدة لمن لا يستحقونها ويضطهدونه هو .

وشكا مريض آخر بالهجاس من ان امرأة من الجيران ظلت تتعقبه منذ طفولته (على الرغم من انه قابلها منذ عامين مضيا فقط) ، فقد دفعت بفتاة شابة «لتفوص في عمق في عقله» بغية اثبات انه منحرف جنسيا . وقد حاولت في احدى المناسبات أن تؤثر عليه عن طريق غلام صغير ، وعن طريق اخيه في مرة اخرى ، وكانت النتيجة انه بلغ حالة من «الاختناق» . ان هذه الجارة «تدس أنفها في حياته» بسبب المجوهرات - لقد كان من المقرر أن يرث المجوهرات عن جدته فيما لو ولد فتاة ، وهذا هو السبب في أن الجارة تطارده بحبها . ولكن كيف يتقبل حبها على حين يعلم تماما انها قتلت طفلة في الثالثة من عمرها ، بل وقتلت خادمتها ، وكذلك أباه وأما ، «ثمة دم مسيحي في هذا ، كما تعرف» هكذا كان يقول في غموض . واعترف في لحظة اكثر صفاء انه يعرف الجارة المربعة بمجرد النظر فلم يسبق أن تبادل كلمة . بيد أن هذا لم يزعزع اعتقاده بأن المرأة تتبعه حتى الى هنا في (الجرائع) ولذلك فقد طلب مني في ادب أن أعيده الى بودابست ، حيث يصبح في وسعه الدفاع عن نفسه بصورة أفضل . ولقد رأيته فيما بعد في ليوبتيمزو يقف كالشده ، وقد شمخ برأسه في الهواء ، وضم فمه ، كما كان يبدو في الجرائع ، وأسر اليّ بالحقيقة التي تدعو الى الاسفاق أن جارته لا زالت تدس أنفها في مصيره .

نحن عاجزون بأزاء هؤلاء المرضى ، لقد أغلقوا على أنفسهم قفصا ، لا تنفع معه الكلمات .

ما الذي يمكن صنعه مثلا مع ذلك المعدن الذي لا يجانب سلوكه الصواب ، والذي يتحدث في منطق سليم وبذكاء فائق في أي موضوع ، ولكنه لا يستطيع أن ينتزع من رأسه فكرة انه موضوع «لاختبارات اشعاعات التفكير» المسطرة عليه ؟ وأن الناس «تسمع» أفكاره . وأنه يلاحظ أن الجميع يهزأون به ، فهذه مريضة مثلا تؤكد في يوم الجمعة أننا في يوم الخميس . متعمدة أن تسخر منه ، فالجميع يعتقدون انه لا يعرف في الايام . كان متشبعا بمثل هذه التفاسير التي تحور كل ايماء خارجية فتنسبها الى ذاته .

وهناك قلة من طلبة الجامعة سقطوا صرعى أعراض الانهباط المرضي ، ولم يكن الجزم باندلاع الفصام لديهم ممكنا الا عقب ظهور أعراض الهجاس . كان بعض البسطاء يعتقدون أن صعوبة الدراسات الجامعية قد أثلفت اجهزة هؤلاء التلاميذ العصبية . ولكن الأشد احتمالا أن فصام المراهقة يندلع فيهم بين سن الثامنة عشر والعشرين حتى اذا لم يتوفروا على دراساتهم .

كان جس ليبينكاي مثلا ، قد شرع في دراسة القانون ، وفي البداية كان كل شيء على ما يرام . ولسوء الحظ استجوبته الشرطة عدة مرات في موضوع لا يخصه . فاذا تردده واضطرابه يزدادان ، ويقطع دراسته . ثم يظهر عليه هذاء اضطهاد هجاس مؤده ان الترام يتوقف حين يركبه نظرا لانه مراقب ومنسوم مغناطيسيا وكان يغادر القطار ويسير عشرة اميال قاصدا منزله لانه يشعر بأنه

مراقب في القطار . وكان في المنزل قلقا مضطربا ، خمو لا ، كشر المطالب ، وعدوانيا أحيانا . فرفض الدراسة او العمل ، مكتفيا بالتسكع في المنزل وقد دهمه القلق . كان يقف الساعات الطوال لا يصنع شيئا . فاذا اطل من النافذة ورأى الناس ، فهم يراقبونه . واذا قدمت له أمه سيجارة ، فذلك لكي تسممه . واذا لم تعطه السيجارة ، فذلك لتمن في اذلاله ، واودع المصححات مرات عدة ، وعولج بالانسولين وصدومات الكهرباء فتحسنت حالته بشكل ما .

وحين جاء الى (الجراح) ، كان عرضه الباثولوجي (المرضي) الوحيد هو خوفه البالغ فيه من الشرطة . وكان يعمل بجد ، ولا غبار على سلوكه ، على الرغم من انه كان يغدو عدوانيا بفتة . كان يبدو متشككا ، خجولا . ومتريدا بشكل عام . وكان يعاني من مخاوف توهم المرض ، ولكن ذلك كله تحسن في حوالي شهرين فأعيد الى منزله .

وظل الشهور الستة التالية على ما يرام . فاشتغل عاملا في البداية ثم موظفا . ثم ترك وظيفته دون سبب واضح ، وامتنع عن مخاطبة أي مخلوق ، ثم أصبح عنيفا مع أمه لانها «تقوم بعمل اشارات تدل عليه من النافذة» . فأعيد ايداعه ثانية . وأرسله والده الى (الجراح) . وتعين علينا مقاومة هذاء هجاس جديد . كان يتخيل ان الأطباق في (الجراح) أكبر منها في أي مكان آخر ، فاذا تناول طعامه في هذه الاطباق ، حسبه الناس مجنونا ، بالرغم من انه على ما يرام . وهو لن يزاول العمل ، لان ذلك سيبرهن ايضا على انه مثل الآخرين ، مجنون . ولقد قطع لس بوجنار ايضا دراساته الجامعية . اذ أعلن في احد الايام عن رسوبه في احد الامتحانات وأن ذلك لا يبعث على القلق لانه لا يرغب في دراسته اطلاقا . واخذ في التسكع ، وإيداء تنمره ، وهو يدخن وينام بصورة سيئة . ثم أعلن فيما بعد انه ينوم تنوينا مغناطيسيا ، وأن هذا هو سبب رسوبه في الامتحان . وأشعره ذلك بالخلد وأعجزه عن التركيز او التفكير ، وشعر بالاكئاب . ثم أفصح فيما بعد عن ان أمه ليست هي أمه الحقيقية . وساورته ذكريات غريبة، **ورؤى مسبقة** ، فكان يعتقد ان كل من يراهم - قد سبق له رؤيتهم في مكان ما . وساورته احساسات مرضية خلطية متوهمة : فأذنيه قد تهدلتا ، واتسعت عيناه ، وانزلق جلد ذقنه ، وضمرت لثته . وتحدث بغموض عن الهلاوس . ومن وقت الى آخر كان يغدو قلقا وعدوانيا تماما . وحدث بعض جلسات العلاج الكهربائي من قلقه ، وان حل محله ضرب من البلادة اللامبالية .

وفي بداية وصوله إلينا ، روى كيف هوجم في الجامعة ، وأرسل بعدئذ الى إحدى المصححات العقلية ، التي يتحول الناس فيها الى «دمى طائرة» . «لا يوجد ثمة اساس قانوني او اخلاقي لهذا» ، هكذا قال . وأضاف ان كيانه تبدل كلية في المصححة ، حيث «سرت دقات قلبه» على حد قوله . وذكر بعض المشاكل المتعلقة «بالراديو» ، ومن الجلي انه ايضا كان ضحية «الاشعاع» شأن العديد من زملائه المرضى . ورفض العمل واختفت أعراض الهجاس البسيطة ، فبدات علائم

التبدل الكامل وعدم تكامل الشخصية الكلي في الظهور .

وتعتبر حالة هيلين انكر ، الرسامة ، اكثر ثراء . لقد عملت معنا ككاتبة على الآلة ورسامة بالاضافة الى كونها بستانية نشطة زهاء ثمانية عشر شهرا ، ثم عادت للمنزل ، لتعنى بشئون والدها . ومنذ ذلك الحين ، ظل كل شيء على ما يرام . كانت ابنة لوالدين منفصلين بالطلاق - وكلاهما غريب الاطوار - فسهلت جيناتهما وبقيتها امر اختلالها (بينما ظل أخوها ، في نفس ظروف الوراثة والبيئة ، سويا) . بغتة هجرت هيلين دراستها في الاكاديمية . واشتغلت سائقة على جرار ، ثم هجرت ذلك ايضا ، وشرعت ترسم من جديد ، لم تكن تحدث احدا من زملائها ، وضربت امها ثم تشاجرت مع محصل الترام والركاب ورجل الشرطة . ولهذا اودعت احدى المصححات العقلية ، ثم حولت لنا ، بعد العلاج الكهربائي المتكرر . ولم تأبه خلال الثمانية عشر شهرا التعرف على اسماء بقية الفتيات في حجرتها . وحينما يتصادف وتتنازل وتحدث مع بقية المرضى ، كانت تسميهم «هذا الشخص» . كانت عاملة لا تكل . تكتب كالبرق ، دون أدنى فكرة عما تكتبه . تعمل في الحديقة بمنتهى الحماس او تساعد في عمليات النظافة . كان ذلك بدعاة للفرابة : فالفتاة المتعجرفة لا تحجم عن اشد الاعمال قذارة . كانت صورها لا تنبئ بوهبة خاصة ، وان كانت صور لطيفة للاشجار المزدهرة والممرات التي يكسوها الجليد .

وكان محتوى هذاؤها الهجاس تصورها ان الناس «يتبعونها» . كانت تتهم اشد الرجال انشغالا عنها انهم يحملقون فيها بوقاحة ، ويحتكون بها ، ويشرعون في مغاللتها ، ويفكون ازرار سراويلهم امامها ، ويفمزون لها ، والنتيجة غير المتوقعة ، تهاجم هيلين الرجال الخالين الذهن تماما فتصفعهم او تركلهم . لم يكن لدينا خلال عامين ونصف سوى ثلاثة من المرضى «العنيفين» اي المرضى الذين يهاجمون الآخرين دون سبب واضح - اللهم الا هذاتهم . كان ثمة من يتعاركون ويتشاجرون ، ولكن فرق بين المشاجرات و«الهجمات» . فالهجوم يعني ان تستدير هيلين بغتة وتصفع الرجل الواقف خلفها على وجهه لانه «احتك بها بطريقة وقحة» فاذا تصادف ان شرع احد المرضى في الهلوسة قبالتها ، كانت تأخذ جانب نفسها مغضبة وترد عليه اذ كانت تعتبر سخافات عديمة الجدوى موجهة اليها . وكان احد الشبان يعاني من «لازمة عصبية» وكان يظل يهز راسه بشدة . فاعتبرت هيلين ذلك موجهها لها ايضا وهاجمت «الفلاح القدر» . لم يحدث ان اعترفت انها بدأت مشاجرة ، انها تتصرف التصرف الملائم فحسب ، «وتدافع عن حقوقها كسيدة» .

ولا يفوتنا ان نذكر فرانك الجراح هنا ، على الرغم من ان حالته ليست نمطية على الاطلاق . لقد فشلت نتائج العلاج بالعمل معه للأسف بسبب غلاظة حس هيئة المستشفى .

ولكنني لم أتمكن من تفهم المرض الذي عانى منه ، وما كان يعذب هذا الشاب

المحدود الحظ الا بعد ان غادرنا بعام . ولقد تفهمته عن طريق خطاب شغلت سطره القليلة المكتوبة بحروف ضخمة اربعة صفحات تعكس عن مرضه اكثر مما يعكسه تحليل نفس بالغ الطول .

حين جاءنا من احد المصحات العقلية ، حدثنا عن حياته المريرة في انفعال مكتوم ولكن بشكل ذكي ومفهوم . كان والده ، العامل ، سكيراً سيئ السلوك يعاني من هذه الاضطهاد ، وأمه سهلة الاستشارة ، وكان احد اجداده والعديد من ذريته من المجانين . ولم يعنِ الوالدين بالطفل الصغير الحساس . «اكتشفت وأنا لا ازال غرا انني مدعو للقيام بما هو فوق طاقتي ، دون ان يمد لي احد يد المساعدة . وكان راغباً في الدراسة ، فلم يساعده والده على ذلك . فمارس أعمالاً معقدة . وكانت طبيعته الانثوية تتحاشى كل ما هو عنيف وسوقي او ذكوري، حتى بالنسبة للجنس . وجرب مباشرة النساء ، وان كان الحب العنيف «مروعا» . وفضل في احد المراحل مصاحبة نفس الجنس ، فحكم عليه بالسجن اربعة اشهر ، كانت ذكريات السجن مروعة . ثم اشتغل في مستشفى للجراحة، فوجد اخيراً مبعثاً للرضى ، لقد عثر على مكانه في الحياة كان يريد في الحقيقة ان يصبح طبيباً ، ولكن كان عليه ان يتخلى عن الفكرة . وأصبح في وسعه ، كمساعد للجراح ، ان يرتدي معطفاً ابيض ويعمل بين الاطباء والمرضى ، وأن يحافظ على نظافة ولعان الآلات ، ويسمى الامراض بأسمائها اللاتينية ، وأن يشارك الاطباء الحرب من اجل الصحة ، واحب مهنته .

وبينما كان سعيداً يتصور انه وجد مكانه في الحياة ، نسي ان يفلسق الاوتوكلاف autoclave ، فاحترق ، وحكم عليه بدفع مبلغ اثني عشر الفا من الفورينات ، وفصل من عمله .

ويعوزنا وقت بالغ الطول لنروي كيف حاول اعالة نفسه وتسديد الدين، وكيف عجز في النهاية . فأودع في مصحة عقلية عقب فترة من الحزن وانهيار عصبي ومحاولة انتحار . وبعد ان عولج لفترة ، تم تحويله الى (الجرانج) .

كانت ملامحه اثيرية انثوية ، وايماءاته مدروسة ، وكلامه مؤثراً . كان حساساً قريب البكاء . وكان فاقد الامل في كل الناس . ولم يكن يرجو شيئاً من الحياة . وعلى الرغم من انثويته فقد شرع فوراً في العلاج بالعمل ، وأدى عملاً ذكورياً بإتقان ، كان يعزق كمن به مس ، من الصباح الباكر حتى الليل المتأخر ، مفضلاً الوحدة . ولم أرحب بهذا العمل المبالغ فيه (على عكس البستاني)، كان ينبغي ان أهبطه ، لكنني فشلت . كان يعزق على سبيل «التسرية» وكان يقرأ في الامسيات . فضل في البداية رواية اكسل مونث Axel Munth «تاريخ سان ميشيل» ، ثم جعل يتشرب سوناتات شكسبير . كنا نستغرق في حديث طويل من وقت الى آخر في مثل هذه المناسبات كان يتحدث دائماً عن العودة الى الجراحة . كان تعليمه بسيطاً ، وكان شغوفاً بالتعبيرات اللاتينية التي اعتاد استخدامها في غير موضعها ، بيد ان معلوماته الصحية كانت غزيرة بصورة تبعث

كيف أضع الأمور في نصابها ؟ حاولت تنبيه الطبيب المسئول في لباقة الى وضع كل شخص عند حده ، ولكنه لم يلحظ شيئا . ولم يكن هذا غريبا ، نظرا لان كمية المعاكسات لم تكن تزيد عن المعدل ، وفي وسع الشخص السوي الا يابه بها ، وربما كان المعاكسون انفسهم غافلون عما يصنعونه . هل كان يجب عليّ ان احذر الطبيب المساعد الا «يعوض» نقصه الشخصي بالتحكم في فرانك ؟ كان ذلك عبثا . وجدتني اطلب من فرانك ان يتذرع بالصبر . من السهل التبشير بالانسانية في (الجرائح) ولكن من الصعب ان تضعها في التطبيق حين يتعلق الامر بدعابات زملائك وإهانات الطبيب المساعد الخلو من اللباقة . وبدأ فرانك يشعر تدريجيا ان الجميع يبغون تذكيره من اين اتى . كذلك كان يرغب عن التوجه الى المنزل اذ كان يخشى اهتمامات صاحبه ، وهكذا كان يظل في المستشفى طيلة الليل يزاوّل التنظيف .

وجعل الطبيب المسئول يرقب ذلك في قلق قبل ان يقول في أسلوب اخوي :
- «عزيزي فرانك . اليس فكرة طيبة ان تزور الجرائح وتكلم قليلا مع المدير ؟ »

هز فرانك رأسه ، مفادرا الغرفة وبعد خمسة دقائق عاد يحمل خطابا على الآلة الكاتبة ضمنه استقالته .

ما الذي أصابه ؟ لا شيء ، لكنها كانت القشة التي قصمت ظهر البعير ، حتى الطبيب المسئول طفق الان يذكره بماضيه في المصححة . في ذلك الكفاية . وودعوه آسفين ولكن في ارتياح . سوف تصبح المستشفى اقل نظافة ولن يعود ثمة مساعد جراح بهذا الاصرار ، ولكن بدا الامر اشبه بالتخلص من احد النزلاء (الجرائح) الهادئين .

وتحول فرانك الجراح فأصبح معدتا . كان يرغب في شق اغوار الارض لكي يصبح في مقدوره ، بعد ان انسل من هنا ، ان يمحو آثار «الوشاية» من الحياة «التي تبعث على الشك» والتي طرحها خلفه . قد يكون ذلك صعبا ، ولكنه اذا صمد لمدة عام ، فلن يعرف احد شيئا عن ماضيه قط .

لعل ذلك ما كان يفكر فيه حين ابتلعه النجم تماما .
ولقد ابتلعه حقا . فلمدة ستة شهور لم نعد نسمع عنه . ثم وصلتنا رسالة قصيرة حافلة بالزخارف ، موجهة الى «الوالد العزيز !» .

«أخشى الا أصمد اكثر من ذلك ! ايها الوالد ! تذكروني ، ولا تنساني !
سوف أصف كل شيء في المرة القادمة . تذكروني !»

وجاءت رسالته التالية بالبريد المسجل ، التي وصلت موسى عليها ، أشد قصرا . كانت عسيرة القراءة ، تتسم بالاضطراب ، مليئة بالاسهم والخطوط. المزدوجة في صفحات اربع .

«الوالد العزيز ! انا آسف ! اغفر لي . لكنني لا استطيع بعد ذلك صمودا .
حكمة يا بيضاء العناية ، من اجلك وحده عشت ! غدا ، ربما يكون متاخرا جدا،

ولكن .. ولكن .. الوالد العزيز ، لا تنساني !!! ربما حين تتسلم هذه الرسالة
اكون في عداد الموتى . لا تناسني ، فانا ابنك ، أنا ابنك ، هل فهمت ؟
لا تنساني ! »

لم تكن «بيضاء العناية» بعض القوى الغامضة او حكما على القيم الاخلاقية
وانما كانت ببساطة مستشفى الجراحة ، والبياض الطبي الذي كان يستهويه من
الاعماق (الاعماق بالمعنى - التعديني والطبي العقلي - للكلمة) .

ان النص المدون هنا بعناية ليس مبعثا للانزعاج كالنص الاصلي . ولكنه كان
كافيا ليؤكد لي ان العملية قد استفحلت . لم يعد ذلك الرجل المرتب المدقق
النظيف ، قارئ السوناتات الذي يكظم ثورته حين يشعر بالإهانة - انها
الاستغاثة الاخيرة من عقل مضطرب .

طلبت منه في الرد مفادرة النجم والعودة .

لكنه لم يعد . بل ارسل رسالة أخرى ، كراسة مليئة بالكتابة . لم تكن في
اضطراب الرسائل السابقة وان لم تقل عنها دليلا على المرض . كشفت أن مرحلة
الهجاس التي لم تكن تسفر من قبل الا عن آثارها فحسب ، قد اكتمل تطورها .
في بداية ذهابه الى النجم ، كان كل شيء على ما يرام ، لم يتعرف عليه
احد . لكن خلال الاسابيع القليلة الاولى التقى بأحد المعارف القدامى ممن يحتمل
معرفتهم بموضوع الاوتوكلاف المكسور ، وهكذا «دارت العجالة» . اثنين آخرين
من المعارف ثم شخص مجهول يحمل وجها يبعث على الارتياح - أجل ، لقد تعرف
عليه في السجن - تكاثروا عليه ، «وبدأت عملية الابتزاز» في شكل قروض يطالبه
بها عديد من الناس ، ولا يجرؤ على الرفض . وعلى الرغم من أن هؤلاء المعارف لم
يذكروا حرفا عن السجن او الاوتوكلاف او المصحة ، فقد كان واضحا انهم امسكوا
ليؤمنوا استمرار عملية الابتزاز . ثم ظهرت اعراض توهم المرض ، فرقد بعض
الوقت في المستشفى بسببها . وما كان ذلك مجديا الا في تغذية المزيد من
الاتهامات الهجاسية نحو الاطباء الذين اعتبروا امراضه جميعا مجرد توهم مرضي .
واصبح أشد عصبية ، وشرع في شرب الخمر وتناول جرعات كبيرة من العقاقير ،
محاولا الانتحار ، ما دام لا يحبه احد ، ولا تسوى حياته شيئا . استمر في
تناول العقاقير ، لا لينتحر طبقا لاقواله وانما كمنوم (من المحتمل بالطبع انه تخيل
كل هذا ، اذ كيف أمكنه الحصول على هذا القدر الكبير من السم) . اخيرا نقلوه
الى المستشفى بسبب كل ما تجرعه من عقاقير . لقد غاب عن وعيه . وأصيب
بتسمم معدي ، فاستجوبته الشرطة ، وكف الان عن الرغبة في تسميم نفسه .
كان ذلك حين ارسل الخطابات المضطربة ، ولكنه تغير تماما منذ ذلك الحين . ظل
يرفض دعوتي نظرا لانه مرتبط حاليا بأحد أنواع العلاج بالعمل ، فلقد أعفوه من
التعدين ، وعهدوا اليه بقسم الاسعاف بالمنجم . جعله هذا يستعيد فرحة الحياة
والثقة بالنفس فورا . في «بياض العناية» وسط كل هذا السواد ، مرة أخرى بدأ
يشعر انه طيب . صحيح انه محاط برجال «يعرفون» او «يشكون» في بعض ما

يتعلق به ويدلون بتعليقات معقدة ، ولكنه لا يابه بهم .

ثمة اناس يفسدون حياتهم بأيديهم ، ومدمرون لذواتهم ، وكان فرانك الجراح احد هؤلاء . لم ينقذه «بياض العناية» ، ففصل اخيرا من المنجم ، واعيد قسرا ليعيش في (الجرايح) من جديد . وظل مدة يعمل جيدا ، وقد بدا مستبشرا راضيا ، لم يكن قد اكتشف متعبا له بعد .

ومن الضروري اثناء مناقشة « المرحلة الهجاسية » استعراض مختلف انواع الهجاس . ان كل الحالات فسي « المرحلة الهجاسية » حالات شبيهة بالهجاس Paranoid وليست حالات هجاسية .

فالهجاس الحقيقي مختلف . فبينما تتعدد السمات الهجاسية ، يندر الهجاس نفسه ، اي ذهان هذات الاضطهاد - العظمة . ويعتبر العرض الاساسي في الهجاس هو ذلك النمط المحكم الذي لا يهتز من الهذات . ومن بين المرضى الذين سبق وصفهم ، لا يقترب من هذا الضرب من المرض سوى الرجل ذو الجهاز المشع، فهو لم يكن مضطربا، لا يوجد ثمة تدهور عقلي، ولا اخطاء في الحواس - تتلبسه فحسب فكرة وقوعه في اسر جهاز الاشعاع .

ان العثور على الهجاس الحقيقي اكثر منه في المراجع عنه في المصحات . ويمكن مشاهدة احد هؤلاء المرضى الحقيقيين بالهجاس في ليوبتيمزو ، نبي بلحية طويلة وفيما عدا ذلك فكل شيء على ما يرام اللهم الا اصراره على ذلك النمط المنطقي البناء من الهذات . المقدمة المنطقية فحسب هي الخطأ الوحيد : الاعتقاد بأن الله قد اختاره ليكون نبيا .

ولدينا نحن ايضا مريضة بالهجاس : القديسة اجنيس . لقد ظلت تعمل خادمة حتى اختارها الله . ولم تكن تعرف لماذا حظيت بهذا الشرف العظيم . لقد اقترب السلام العالمي ، سيدبر الرب ترتيباته عن طريقها . الرب يقضي أحكامه . يعاقب الشرير ويجزي الطيب .

ولو صح هذا ، لوجب على الرب ان يعاقب اجنس بكل تأكيد ، لانها ، على الرغم من كل صلواتها ، كانت ذات روح شريرة . كان في مقدورها ان تجمع بموعظة الحب في اي وقت ، ولكنها لم تكن تحب احدا . وكان مفهوما انها لا تعمل وتتوقع ان تكون في انتظارها ، فهي قبل كل شيء قديسة . بيد ان التحفظ البارد الذي كانت تعامل به بقية المرضى كان ينهض دليلا على الشك في انها تتمتع بروح قديسة . فيما عدا ذلك كانت سوية تماما . كانت تتكلم بدكاء في جمل مرتبة ، وظائفها العقلية على ما يرام ، ادراكها سريع وصاف ، ولديها قدرة نافذة . كان الشيء الوحيد الذي لا تتنازل عن الاقتناع به هو شخصيتها المقدسة .

كانت مريضة بالهجاس ، بالهوس الديني .

ولكونها كذلك ، كانت تقضي اليوم كله في التأمل والصلاة . كانت تحتفظ بقلة من كتب الصلوات الممزقة ، التي يتناسب محتواها مع شخصيتها الدهانية تماما . وكانت ترتدي عباءة حريرية سوداء ، مطرز عليها ثلاثة خطوط صفراء تنهض علامة على انها من المختارين . وكان لديها شخص يعتقد فيها بإيمان ، فيركع

امامها لساعات وهو يصلي لها .

وكان هذا العابد مدرسا فيما مضى . ونظرا لانه سرعان ما سيعود للتدريس ثانية (كما يتصور) فقد ادخل ملاحظات هامة على كتبه . كانت الملاحظات والرسوم تترى خلف بعضها في تشتت مضطرب . ثمة علامات رمزية وخرائط ، وزهور تنبت من حيوانات وآلات معقدة تندفع صوبهم . وثمة احصائيات غريبة مثل تقدير مجموع اطوال انهار اوربا .

وكان المدرس ايضا ينفق الساعات في الصلاة (لم يكن يعمل بالطبع) ، وحالما اكتشف قديسة حقيقية بالقرب منه ، عكف على الركوع تحت قدمي اجنيس . وهكذا نالت اجنيس ما لم ينله سوى قلة من القديسين : التقدير اثناء الحياة .

كان بعض المرضى لا يشكون الهجاس الفعلي ولم يكونوا فصامين وانما سيكوباتيين هجاسيين كمارتين كيمست مثلا ، وذهم الجنون آخريين وهم على عتبة الشيخوخة كالعالم زيتر او اولد تيننت .

كان العم زيتر يحمل اعتقادا هذائيا مؤداه ان زوجته تخونه مع ابنه . ولقد عرفت زوجته ، كانت سيدة عجوز رقيقة لطيفة لا تكثر لزوجها حتى عندما كان يدعوها بالحيوانة النجسة وما الى ذلك من الفاظ السباب .

ولا ازعم انه كان في مقدور العم زيتر ان يفصح عن هذائه . فجمرات الشك النارية الحمراء لم تظهر تماما ، ومع هذا فقد دبرنا ترتيب الامور ، بحيث غدا سعيدا يعزف الموسيقى الراقصة للمرضى كل مساء . بل انه بدأ يتحدث مع زوجته بلغة مهذبة ، حتى امكن اعادته الى منزله وفق نظام الافراج الشرطي Parol . وكانت المحاولة موفقة ، وشكرتنا زوجة العم زيتر بحرارة اذ اتيح لها ان تعيش معه ثلاثة شهور في سلام وادع . ثم اصيب العم زيتر بنوبة مات على اثرها . وبالتالي لم نعرف ابدا كم استمر اثر العلاج في الجرائج لديه . وفقدنا موسيقارنا الذي كان يساوي ثروة .

ولقد وجد مارتين الكيماوي ماواه لدينا . لقد كانت هذه الكتلة من الشحم المتدثرة في الفراء القديم بمثابة اتهام هجاس في شكل انسان . كان يحفظ قانون عقد العمل على ظهر قلب ، ويشم رائحة انتهاك القانون في اي خلل او خطأ بسيط . والحياة تفص بالاخطاء التي لا يستطيع اي مخلوق تلافيها حتى ولو كان مارتين كيمست . لذلك كان دائم الغضب مصدوما . تناسى مهنته ، وكان من الواجب ان يكون مدعيا عاما لا كيميائيا . عندئذ كان في وسعه ان يعيش لعاطفته ويستخدم قوى القانون كاملة في مواجهة جميع الاخطاء . ولربما كان قاسيا ولكنه سيكون عادلا .

اما الان فهو يكتفي بالتسكع في (الجرائج) ، تكاد تخنقه قذارته لم ار فسي حياتي رجلا في مثل قذارته . لم يكن كل شيء في حجرته على درجة من القدرة

لا توصف فحسب ، بل كان يخلف العفن والنفايات اينما حل . كان مثقفا ذكيا ، ومطلقا ، وذو خبرة بالموسيقى - لكن المرء يخشى أن يضع بين يديه كتابا او خطابا، فسوف تنهض القذارة والاهمال دليلا على انه لمسه. وكان يجب أن يذهب للتسوق ويصنع ذلك بمهارة ، ولكن كانت تبدو حقيبته كأنما دحرجت على قراب الطريق ، تختلط الزبدة والسكر داخلها بأحد الكتب .

من المؤكد انه لم يخلق ليكون صيدليا كيماويا .

كان لدينا هجاس آخر لديه الميل للتقاضي ، هو اولد تيننت . كان فسي الخامسة والخمسين من عمره . من أسرة تشتغل بتجارة الماشية كونت ثروتها في الحرب العالمية الاولى . وكان اولد تيننت يحب الحديث عما قامت به أسرته من احتيال ، وكيف كانت تفش بدكاء كل من يقع في طريقها .

كانوا مستأجري مزرعة تبلغ عدة آلاف من الافدنة ، مارسوا فيها غشهم ، فحصل أبناء الاسرة على شهاداتهم من مدرسة عليا تحوطها ظلال من سوء السمعة ، ولقد حصل اولد تيننت على شهادته بهذه الطريقة ، ثم حصل على درجة فسي الزراعة من المانيا ، على الرغم من انه لم يتعلم قط الحديث بالالمانية . ومع هذا فقد كان يفهم في الزراعة ، كان يعرف الكثير عن الانتاج والفش . عقب الحرب العالمية الاولى أصبح شيوعيا في البداية ثم ضابطا في الجيش الابيض (لم يكن جنديا فقط ولكنه أصبح ضابطا على الفور) . ثم شرع يمارس أعماله غير المشروعة. عقب الحرب العالمية الثانية عاد فالتحق بالحزب الشيوعي ، ونظم محلا تعاونيا ثم افتتح حانوتا لبيع الخمر ومارس أعمالا خاصة . وكانت هذه فترة صعبة لانه لم يكن يحصل على أرباح الا بالفش . فجهر بأن الحزب يضم عناصر رجعية أساسا ، وكان ذلك حين بدأ نشاطه كمخبر سري . بدأ يهتم بالسياسة ، فوصل السى نتيجة مؤداها ان المجر لا تضم سوى شيوعيين حقيقيين هما : رئيس الوزراء راكوزي وهو شخصا . بيد ان الحزب كانت له وجهة نظر مغايرة ، ففصلوه . كان هذا على حد زعمه ، من عمل أعداءه (مبتدا : من أقرب اقاربه : ابنه ، وابن أنسبائه واخوة زوجته الذين كانوا جميعا اعضاء في الحزب ويعملون بالسوق السوداء في نفس الوقت) . ولقد اعتقد من ناحية أخرى ان الحزب لم يفصله الا لاسباب تكتيكية ، فهم يعلمون انه بهذه الطريقة يصبح قادرا على العمل الاكثر فعالية . وسجن لاشهر قلائل بسبب الاتجار في السوق السوداء . ولم يأبه لذلك كثيرا ، فقد ظل داخل السجن يتصرف كمهيج ثوري وكان يشعر بالسعادة .

واقتنع ان الحزب يوجهه ، وان راكوزي شخصا يضع عينه عليه ويقدر جهده . وان موعد عيد الميلاد قد تغير الى اليوم الثاني من مايو ليوافق الاحتفال بعيد ميلاده . كانت لديه العديد من الهذات المشابهة ، مثل الابتكرات الزراعية «ذات الاهمية القومية» التي يوالي ارسالها للجرائد ، وسرعان ما توضع فسي التطبيق ، وعلى الرغم من اغفال اسمه ، فان الجميع يعرفون انه خلفها . وعقب عام ١٩٥٢ تنقل من مهنة الى أخرى، مبلغا عن الناس في كل مكان ، محاولا

اقتناص الرجميين ومرسلا البرقيات الى راكوزي . كان مكروها في كل مكان ولكنه مرهوب الجانب ايضا ، وكان الناس يسعون للتخلص منه . وزاد ذلك من اضطرابه العصبي ، فأودع اخيرا في لبيوتميزو وحدث هذا ، بالطبع ، وفق تدبير سري من الحزب . واستطاع في داخل المصححة العقلية ان يلتقط اشارات سرية اكدت ان الحزب لم ينسه . كما كان له اثر مهديء بالنسبة للمرضى الآخرين ، وقد شفي بمساعدته مئات من المرضى . كما اودع عنبر المجانين الخطرين ، ليقوم بعلاجهم ايضا . في نفس الوقت الذي توصل فيه الى وسيلة مبتكرة ، من شأنها اذا وضعت في التطبيق ، أن تزيد من غلة المحاصيل ستة عشر ضعفا . ولكنه يحتفظ بالاختراع سرا الان . فلم يخبر احدا بشأنه سوى بعض المرضيين الذين تظاهروا بتصديقه وتنبؤا على الفور انه سوف يغدو رجلا عظيما .

وحالما أطلق سراحه من المستشفى العقلي ، توجه الى وزارة الزراعة ، ثم الى قيادة الحزب، والبوليس السياسي، وسارع بالتبليغ عن جميع الناس. ثم عاد الى منزله، وتنقل بين المهن الموسمية ليبلغ عن الجميع من جديد. ثمة اخطاء في كل مكان، ولذلك لم يكن يجد صعوبة كبرى . نادرا ما كانت تقاريره لا تستند الى اساس ، ولكنها كانت تتسم بالمبالغة الشديدة . وحتى لا نغمله حقه نقول انه كان يعري ويبلغ عن الناس دون النظر الى الحزب الذي ينتمون اليه . كان يتخذ اصدقاء من اثرياء الفلاحين ، والكهنة والتجار ، فيكسب ثقتهم ثم يبلغ عنهم . ولكنه كشف ، بنفس الحماس ، سكرتارية الحزب التنفيذية ، ومدير مشروع الدولة . وكان يشكو من البوليس السياسي احيانا الى الشرطة العادية والعكس بالعكس . حين يستمع المرء الى كل هذه الاعراض مكثفة على هذا النحو يظن ان اولد تيننت يحمل راسا مضطربا ، بيد ان هؤلاء الذين التقوا به لم يشكو في شيء يحمل مظنة افتراض ان عقله ليس على ما يرام . كان سيدا وقورا حسن الملامح ذاكن البشرة . له شعر حريري متموج . يخفي شاربه الكث البني بمهارة ملامح وجهه الشرقية ، أقرب الى اعيان الارياض منه الى تاجر المواشي (خلق فيما بعد لسوء الحظ شاربه بعد ان تبين ان الناس يخلطون بينه وبين ستالين) . كان يتحدث بذكاء ، وسلوكه ممتاز ، مهذب ، وله عين نسر تلاحظ اي خطأ فورا فلا تبلغ عنه المختصين ، وانما البوليس السياسي دونما ابطاء . كان صدوقا ومرحا ، ويبدو كسيد عجوز متفتح ، عمليا جدا ومنظما ممتازا . لم يكن يتجنب العمل بل يسعد بتأدية أبسط الاعمال البدنية . وكانت فرصة ممتازة لمزاولة القيادة . كان يقود الجماعة اوتوماتيكيا اينما حل ، وكان الجميع مجبرون على الشعور بسلطانه . واعتقد ان الجرانج هو المكان الوحيد الذي لم يبلغ فيه عن احد . لا لانه لم يصادف اخطاء لدينا - فلا شك انه وجدها . الا انه تبين اننا لسنا مسئولين على هذا القصور ، وانما المستشفى وقوى أخرى غامضة . واعفانا في تقاريره نظرا لانه اعتقد ان الحزب هو الذي وجّه الى هذا المكان ، وان من واجبي ان ارسل تقاريره ، فليسامحني الله ، فلم ارسل اية تقارير ، لقد تبينت ان السلطات

لديها من تقارير اولد تيننت ما يزيد حاجتها .

كانت الشهور الخمسة التي قضاها في (الجرائج) بمثابة فترة ثمرة .
احترم المرضى اولد تيننت عموما وتمتع بنفوذ هائل . ويرجع ذلك جزئيا الى خبرته في الزراعة ، وفي جزء آخر الى سلوكه الممتاز ومهارته التنظيمية الفائقة ، واخيرا وليس آخرا الى الساعة التي كان يقضيها معي يوميا بحجة العلاج النفسي .
كان المرضى ينصتون اليه ، كما احب المرضى متفهما الاغراض واسباب العلاج بالعمل بطريقة تفضل العديد من الخبراء الخارجيين ، وكان من رايه تنظيم مزرعة للدولة من «تعاون المرضى المعاقين» (ووافقناه على ذلك) فاقترح بالتالي تحويل (الجرائج) الى «تعاونية انتاجية» تتسمى باسم ماتياس راكوزي وأن نشرع في قطع الاخشاب من الغابة المجاورة . ونختص انفسنا بنصف هذا الخشب ، ونبني بتمنه قرية اولاً ثم مدينة ، ونربي ارناب الأنجوراه ودودة القز ثم ننشيء في النهاية مصنعا للحريز . كانت كل مشروعاته على هذا النحو . ولم يكن ما يقوله لغو فارغ ، ولكنه كان مستحيل عمليا . «لماذا هو مستحيل عمليا» . كان يسأل في سذاجة . لسنا في حاجة الى تمويل . ان بناء مدينة راكوزي لن يتكلف شيئا عمليا . اما فيما يتعلق بالارباح ، فلنترك تدبير ذلك له ولابتكاراته .
ان الجانب الذي يستوجب الغرابة في كل هذا انه كان على اتصال وثيق بشتى المسؤولين ، في المكاتب والوزارات ، وكان يجب عليه ان يدرك بالتالي من واقع خبرته ان هناك امورا اقل بساطة من بناء مدينة لم يسهل تنفيذها - ومع هذا ظل يؤمن ويخطط بغزارة . ولكنه سرعان ما تخلى عن المستحيل مقابل شيء مثيل في استحالاته .

لقد قرر الزواج ، كان يريد زواج ارماسلندر ، وهي مريضة تصغره بعشرين عاما . ووقفت الاسرتان ضد الزواج ان العريس كبير جدا ، والعروس صغيرة جدا ، وعارضت ايضا بدوري . ولكن كان كل ذلك عبثا . ظل اولد تيننت يخدع نفسه ويخدع ارما عدة شهور بوعده ضرورة اتمام هذا الزواج . وبذل محاولات محمومة مع حمو المستقبل ، ومع ابنه هو وكذلك مع نسيبه (وكان اكبر من العروس المنتقاة) ، وحصل لنفسه على وظيفة ، واخرى لخطيبته (او على الاصح حصلت انا على وظائف لكليهما) ، وبدأ البحث عن شقة . كان يزورنا كل اسبوعين من مقر وظيفته ، دون ان يعبأ بالتكلفة والمتاعب . وحين اصبح كل شيء معدا ، تولى العروس الجزع وغيرت رايها - او ربما ظهر في افق (الجرائج) شاب وسيم ، وعلى عكس ما هو متوقع قالت لا وكان مما يدعو للدهشة كيف تقبل اولد تيننت الموقف الجديد بسرعة .

ولكن قبل ذلك حدث الكثير . لقد حاول مرارا ان يزيد انتاجنا بأفكاره الجديدة . كان يرى مثلا ان التربة تحت الثلج المتجمد لا تحصل على الهواء ، فلا تستطيع الحبوب النماء ، وبالتالي يجب ثقب الثلج المتجمد في بعض الاماكن . واراد ان ينشر اختراعه في كل المزارع في سائر المدينة ، يجب ان يحاط عامة

الناس بذلك . ولم نجرب ذلك في الجرائج لعدم وجود اية تلوج ذلك الشتاء ، وأن وجدت فلم تكن تتجمد . واستهدف احد ابتكاراته الاخرى فحص درجة الحرارة في مخزن البطاطس بانتظام ، والتأكد عن طريق فتح وغلق النوافذ من الاحتفاظ بدرجة الحرارة المطلوبة . ٢-٨ سنتيجراد دائما ، حتى لا ينبت البطاطس او يتجمد . ولم نضع هذا الاختراع في التطبيق ، لسبب بسيط فلم نكن نملك مقياسا للحرارة .

ثم غادرنا الى منزله ، ليعقد الصلح مع ابنته وزوجها ومع ازواج اخواته وحموه . كان مختصا مع نصف البلدة . اما سبب الشجار فتبليغه عنهم بتهمة الاتجار في السوق السوداء او الآراء الرجعية . ولقد نجح في فصل قلة منهم من الحزب . وهو لم يصنع ذلك بدافع الحقد بل لاسباب تربوية ، ومع هذا فقد استاءت الاسرة من ذلك بصورة ما . ولعرفتنا بغيرة اولد تيننت على الحق ، فان تقاريره يمكن ان يكون لها اساس طيب من الصحة . ومما يؤكد ذلك ان افراد الاسرة العنيين شرعوا في عقد الصلح معه واحدا وراء الآخر . بيد ان جو حفلة الغداء العاطفي التي اولموا له جميعا ، لم تثنه عن ابلاغ عن عمليات السوق السوداء الخاصة بزواج ابنته وزوج اخته للبوليس السياسي في اليوم التالي .

لقد كان اولد تيننت من اولئك الهجاسيين النادرين الذين يعلمون انهم مرضى . كان يعلم ان اعصابه ليست على ما يرام تماما . لذلك أفاده الوقت الذي أمضاه في (الجرائج) . لقد قلت حساسيته المفرطة ، واستعاد ثقته بنفسه ، ولم يعد يشعر بضرورة الهرع الى البوليس السياسي عند وقوع كل خطأ ، اكتفى بأن يصنع ذلك في المرة العاشرة . كذلك تخلى عن فكرة الرجوع الى المكان الذي ابلغ عن كل شخص فيه ، وبالتالي فالجميع يعادونه . وتقبل نصيحتي (توجيهات الحزب كما كان يعتقد) بالذهاب الى احدى مزارع الدولة .

ولم يكن ارسال اولد تيننت الى احدى مزارع الدولة بالقرار السهل . كنت أعلم من جهة انه سيكون ذا نفع للمزرعة . فهو متحمس وذكي وأمين وماهر في الزراعة . وستكون انتقاداته مفيدة . ولكنني كنت أعلم من جهة أخرى ان من المستحيل تبديل طبيعته الهجاسية . كان من المؤكد انه سيعثر على خطأ في وظيفته الجديدة ، فيتحكم في نفسه بعض الوقت ، ولكنه سرعان ما يشرع في التبليغ ثانية .

وكان هذا ما حدث . سرعان ما اكتشفوا ان عمله يفوق عمل بقية المرضى بكثير فاعتبروه مستخدما يعتمد عليه . ولكنهم سرعان ما اسفوا لذلك . لقد لاحظ اولد تيننت كل الاخطاء . فاحتفظ بها اولا لنفسه ، ثم اسر بها للمدير ، ثم أعلنها في احد اجتماعات العمل ، ثم ارسل تقارير مكتوبة لوزير الزراعة وبقية المسؤولين . وكانت النتيجة ان فصله المدير بسبب العصيان . لكن لم يكن من السهل التخلص من اولد تيننت . لقد سعى حتى كشفوا انه كان على صواب فسحبوا قرار الفصل . عندئذ طالب المزرعة بمبلغ ١٨٠٠ فورنت كتعويض . وهو يكتب الان

تقارير جديدة من أخطاء جديدة في وظيفته الجديدة .

وكان اليكسي البناء أحد مرضانا المصابين بالهجاس . كان عاملا مجدا علم نفسه بنفسه . فرغم افتقاره الى التعليم الرسمي وكونه عامل بناء بسيط فقد تعلم الكثير عن البناء - بأسلوب متفرد . كان قد بلغ مرحلة من «المعرفة المشوشة» . كان يبهر رجل الشارع بحرفيته الدقيقة ، ولكن كان في وسع الخبراء فحسب ان يسخروا من تصميماته المستحيلة . لقد قضى سنوات في تصميم مبان شعبية جديدة من نوعها لمنزله ، ذات تصميم شبه كلاسيكي بالغ الغرابة ، تضم أعمدة وتجاويف وعقود وقباب في تكرار بليد ، بحيث لو تم له بناء المدينة الجديدة عام ١٩٨٤ كما كان يقدر ، لفظ الناس في النوم وهم يجتازون شوارعها . لم يكن قد ابتنى شيئا في الواقع اللهم الا حظيرة للدواجن فسي (الجرانج) ، تخلو من العناصر شبه الكلاسيكية لسوء الحظ وكانت كراساته المتضخمة لا تفص بالتصميمات الهندسية فحسب ، بل أفكاره في الفلسفة وعلم النفس ايضا . لم يكن قد قرأ شيئا تقريبا . تكفيه صفحات قلائل من كتاب كي يهاجمه ويعلن انه يعرف كل شيء بطريقة أفضل من المؤلف - بغض النظر عن اي فرع معني من فروع المعرفة . فهو شاعر وعالم في الاجتماع ورسام ومعني بجغرافية الاجناس وكاتب وفيلسوف ، ويزيد على ذلك جميعا فيعد نفسه ليصبح المهندس العظيم للعصر الحديث .

وكانت هذه السمات من جنون العظمة تختلط لدى اليكس البناء بشعور خطير بالدونية ، تعلم نصف شخصيته انه خلو من الموهبة في اي شيء ، بل حتى لو توفر قدر منها ، تنقصه المثابرة ، بالاضافة الى عجزه عن الاقتناع يقعده عن الموافقة او التعاون مع اي مخلوق . ولما كان يعرف هذا ، فقد استسلم لنوع من السخط المرير ، ولعب دور العبقري الذي اسيء فهمه ، وعكف على تدابير مريعة للانتقام من العالم الذي يرفض الاعتراف بعظمته . كانت خطاباته تفص بعلامات التعجب عاكسة النمو المعادي للمجتمع لهذه الموهبة المبتسرة .

شيئان جعللا هذا الصراع الداخلي مأساويا - افتقاده القدرة الذاتية الناقدة وذكاؤه الذي «في غير موضعه» . من دلائل افتقاده الى الضبط الذاتي انه زار المجلس البلدي لاحدى القرى غير المعروفة لديه فعرض بناء كنيسة على الطراز الروماني ومركز اجتماعي على الطراز الكلاسيكي للقرية . كما عرض ان يضع خبرته تحت تصرف القرية في اي شيء من التصوير الفوتوغرافي الى الزراعة (لم يسبق له في حياته ان التقط صورة ، ولم يكن يعرف اوليات الزراعة) ولم يطلب في مقابل ذلك سوى حجرة صغيرة وفورنت واحد شهريا من كل مواطن في القرية وهذا عرض متواضع بالتأكيد ! ذكاؤه السليم يجزم ان مثل هذا العرض سخافة، بيد انه خلال هذائه الهجاسية لا يستطيع مقاومة الدفعة القهرية لتقديم هذا العرض .

ولدينا ايضا مؤلفة مصابة بالهجاس وان كانت اكثر اصالة . كانت قد نشرت

بضعة روايات ، ولديها الآن مخطوطات عدد من الروايات الجديدة والمرحيات تدهش كيف حافظت على ذكائها ، رغم اضطراب الذكريات الذي يسببه العلاج الكهربائي الذي استمر عدة سنوات (كانت قد نسيت حتى عناوين رواياتها التسعة عشر) ، والسذاجة غير المحدودة التي تتصور بها علاقتها بالمجتمع . فائناء وجودها في الجرائع مثلا وقعت في حب احد المرضى الذكور ، وكأمر طبيعى طالبت بالانتقال لتبقى معه وتعيش وياه في زواج غير شرعي . واعتبرت رفضنا أسلوبا فاشيا ، وهربت من حجرتها اثناء الليل ، قافزة من شرفة الدور الاول الى الطابق الارضي ، حيث تسلمت الى حجرة المرض الذكر بأقدام موجهة واستلقت عارية في سريره . ولكن الحظ عاكسها . اذ اكتشفت هربها قبل عودة المرض الذكر وادركت فوراً اين افتش عنها . وكانت تنتفض غضبا حين اعدتها الى حجرتها ، واعتبرت ذلك انتهاكا للحقوق الانسانية ولم تتردد في مقارنتنا بحراس معسكرات الاعتقال .

لعل اكثر جوانب هذا المشهد أهمية ان المرأة التي مسها الحب كانت فعلا على صواب . لقد عقناها عن ممارسة حق انساني أولي . فالحجاسيون دائما على صواب الى حد ما . وتتميز العقلية الهجاسية بأنها تبني بصورة غير ناقدة نسقا كاملا من الهذات التي تتضخم لتصبح موضوعا مستقلا ، حول نواة دقيقة من الحقيقة الموضوعية . وهذه صورة من صور التفكير الاجتراري autism من التحول الى قانون في حد ذاته .



عود الى تتابع المراحل الستة ، نتحدث عن المرحلة الثالثة او مرحلة البله Amentiform .

وكلمة A. mentia تعني غياب العقل ، عن اللاتينية mens, mentis التي تعني العقل او الذهن . ولا تطلق كلمة البله على الغياب الكامل للعقل . فالضعف العقلي الخلقي Congenital افتقاد للعقل ايضا ولكنه يسمى بالعتة والبله والهوك تبعا لدرجته ويشملهم جميعا اسم oligophreny الذي يعني **العقل الصغير** . وتعتبر حالة التبلد الفائق في العقل التي تعترى المشلولين والصريعين والمصابين بتدهور الشيخوخة بالاضافة الى من وصلوا الى المرحلة النهائية من الفصام تعتبر ايضا «غيابا للعقل» - ولكن هذه تسمى بالعتة لا البله . ويدل البله على حالة يصبح حديث المريض من اللغو بحيث يبدو كأنه «فقد عقله» ، ولا يرجع اضطراب الحديث الى التدهور العقلي ، وانما هو مجرد اضطراب .

وثمة العديد من المرضى البلهاء في الجرائع ، ولقد ذكرت قلة منهم مثل اولجا جوسيب وماري كاموميل التي كان في وسعها ان تفجر سيلا من الكلمات . لكن

احدا لا يقارن بجوزيف جاردسمان ، وإليكم مثالا من فيضان كلماته المضطربة :
«لقد ولدت مرتين . حينما تدهورت الامة الجرية ، كان علم الطب لا يزال
في طفولته . ثمة جزء من المجريين استقروا في اليابان ، بينما انتقل الجزء الآخر
الى تركيا ، وهؤلاء هم البوسنيون . اما مولدي السابق فكان في مونتنيرو .
وكان المفتشون الاسبانيون مجريون من الترتسفال ، وذهبت الى وسط اوربا
كمؤلف موسيقي ومطرب اجتماعي ، انا لعب فقط كعازف ثالث للكمان فسي
اوركسترا المفتشين الاسبان لمدينة زيجد لانني طردت بسبب الدوار في رأسي» .
اما بالنسبة لميلاده الاول يكفي ان الاسقف جلاتيلدر اصطاد الخنازير البرية
والثعابين من شارع كوسس لاجوس . وقد شارك والده السابق في عملية الصيد .
ولقد كان الاسقف جلاتيلدر «سعيدا جدا» بأن البنادق يجب ان تفحص ، واطلق
والداه البندقية ، فاخترت الطلقة جمجمة المريض . كان لا يزال حيا ، وهكذا
دفنه والداه أسفا مع كمانه .

اما مولده الثاني فحدث على هذا النحو :

«كانت أمي طفلة دخلت في سجل جمهورية اليابان الشعبية ، كانت تجمع
البطاطس في الحقول ، وكان لينين هناك وقال تكون او لا تكون ، اذهبي لمنزلك
والزمي سريرك . وحدث ان ذهبت الى المنزل وهناك ولدتني . وحين بلغت شهري
الثامن عشر ، اخذوني الى فيينا ، حيث مقر قائد الفيلق العالمي جاتزر كنزي ،
عالم الكون العظيم ومدير عام الجامعة العالمية للعلوم الطبيعية قال ما دام الامر كذلك
بالنسبة للطفل ، كون والده اسبانيا وأمه يابانية ، فالقوا به في خضم الحياة
حتى يتعود ذلك قليلا» .

ولقد القي به في خضم الحياة قليلا ، فعلا . من ذلك ، انه أمضى ثمانية
اعوام في السجن لانه حاول نسف احد القطارات . وكان وقتها قد جن بالتأكد ،
لانه اراد نسف القطار كجزء من واجبه باعتباره حارس التاج . وكان التاج قد
فقد ، وهو يعرف مكانه ولكنه لن يكشف عن ذلك حتى لي انا .

«لقد فقد التاج لان مفتشي الموسيقى الاسبان وشعب المجر العليا يمضون
في كل اتجاه ، وهكذا ظهرت سلوفاكيا الى الوجود ، وسيكون مصيرها بلا شك
ان تضم لبولندا . لقد تخلف التاج عن الحريق العالمي ، ويجب ان نذكر اول
ساعة رملية حين تركوا طيور النورس وحيدة على الرمال المتحركة .

«وتنقل التاج في أماكن شتى . فأخذه الى تركيا ، ليعرضوه هناك ، ثم
الى انجلترا ، وحاولوا اخيرا اخذه الى اليابان ، وعندئذ اختفى .»

في هذه الفترة أصبح صديقنا قسا . لقد تخرج من الجامعة قبل دخوله
المدرسة الابتدائية ، وقال الناس يجب على الطفل ان يبحث عن التاج . «واصطنع
القساوسة ثوبا عبر وسط اوربا ، وهكذا جاء الفيضان ، فهو ليس غضب الله اذن
ولكنه نتيجة الصراع الديني الداخلي . لقد أطلق الاسقف جلاتيلدر النار على
ايلونا تسيرني وماتت ، ولهذا كان من الضروري ان نضع شيئا حسب قرارات

وأسر اليّ في اليوم التالي بصورة بالغة السرية انه مركز ، وقد دوّن اسمه في السجل باعتباره «ماركيز جمهورية السوفييت الشعبية التقدمي» .
واتضح في اليوم الثالث انني ماركيز ايضا ، وعليّ أن أجتاز الامتحان امام محفل الفلسفة الدولي ، ولكن لا داعي للخوف ، لانه سوف يساعدني - فهو استاذي .
وفي نفس الوقت كان يعمل بدأب في مزرعة الخضروات ، وان كان ينتحي بسي جانباً يومياً لحديث صغير متزن عن المحفل او عن السيد المدعو سمرتسكي التي تستحق حالته الدراسة .

واختفي في احدى عطلات نهاية الاسبوع . وسرعان ما أرسل لنا خطاباً يطالب فيه بمهماته التي تركها خلفه ، وعلمنا انه عاد الى قريته بالقرب من تسيجد وانه يعمل عاملاً باليومية .



ويتكشف جوهر الفصام في مرحلة تزايد اللامبالاة - والتفكير الاجتراري الكامل - اذا امكن ان يتكشف «شيء في هذه الحالة من الغربة . ويكون المريض الان من انعزاله عن العالم نسقاً كاملاً . كان في البداية لا يستطيع ان يعثر على موضعه ، ثم يشعر فيما بعد انه مضطهد ، ثم تظهر الافكار التي تعزله عن الآخرين وقد اختلطت كلها ، اما الان فتبدأ تتبلور في نسق . وفي نفس الوقت يزيد المريض من إحكام الخناق على نفسه ، فيعزل نفسه عن العالم نتيجة للعجز المتبادل بينهما عن الفهم .

ويطلق على هذه الحالة عامة اسم التبلد الانفعالي او الانطفاء ، وفي اعتقادي ان هذا خطأ . انه ليس انطفاء او تبلدا بقدر ما هو انسحاب الى داخل القوقعة . ويفلق الفصامي الابواب - عيناه وفمه وقلبه .

فاذا استطاع المرء ان يتلصص من خلف هذا الباب المغلق ، يجد ان التفكير الاجتراري يكف عن ان يكون مجرد عبوس او عداء او تركيز حول الذات *egotism* او انطواء او اي شيء شبيه بهذا . وهذا ليس كشفاً جديداً ، ولكن قد يعتقد الباحث غير المدقق ان التفكير الاجتراري مجرد انطواء . ان بلويلر الذي يعتبر بمثابة اعظم حجة في هذا الموضوع وجد ان التفكير الاجتراري يتخلص من قواعد المنطق والواقع وتحكمه الحاجات الانفعالية . وليس هذا من خواص الفصام فحسب ، ولكنه يتوفر ايضا في الاحلام ، والاساطير ، والخرافات ، وأحلام اليقظة ، والشعر .

ويعتبر التفكير الاجتراري بمثابة تفكير في تحقيق الرغبات *Wishfull thinking* لا يضع الواقع ولا المنطق في الاعتبار ، ويتجاهل قوانين الطبيعة وقوانين الانسان . ان التفكير الاجتراري لا يضع في الاعتبار سوى قانون الفرد .

ويمكن تقصي كل مرحلة على حدة وبمنتهى الوضوح في حالة ستيفن لأكوفي .
كان قد أصيب بمرحلة الانهياط المرضي في الجامعة . وظل في دراسته شاكيا متدمرا حتى دهمه الشك الهجاس والمبالغة في تقدير الذات ، فهو مخلص العالم ، يتآمر عليه الناس . وطفق يتحدث عن مؤامرات وتنظيمات سرية ، والداه ليسا والداه الحقيقيين وانما التقطوه من مكان ما ويحتفظون به الان اسيرا ، ولكن .. ثم غدا تفكيره اشد اضطرابا فشوّه كتبه بعدد من الرسومات الغريبة والشعارات ، واختلطت معلوماته في الطبيعة والفلك بغرائب الخيال ، فطلع مثلا بنظرية مضطربة عن «البحر الموزع» فالبحر يجعل الاراضي تتآكل ، وتوزع القوى الطبيعية البحار ، والضباب فوق سطح البحر نتاج احتراق المعادن ، والغاز الطبيعي السائل ، الذي يخرج من البحر ، ويسبب هذا التوزع الاولي توزع طبقات الارض ... وكان هذا كله يختلط بسلسلة من التعليقات البذيئة ، والرسوم المربعة ، والكلمات الموزونة غير المنسقة ، والتداعيات من نوع «المجربة كتابة قديمة ، كتابة مومياء ، مومياء سوف تحضر ، ماما سوف تحضر ، ام سوف تحضر ...»

كان يتكلم نادرا ، ولا يشارك في العمل او اللهو ، ويكتفي بالسير وكتابة بنات أفكاره الغريبة في كراسته . كان مقبلا عن العالم الواقعي ، يعيش في عالم من صنعه أفضل من العالم الواقعي رغم اضطرابه ، لانه يقدره ، ولا يضطهده ، ولا يوقعه في الاسر .

الاسر والحرية - انه الموضوع الرئيسي ، والاهتمام الاساسي لمثل هذه الحالات . وهذه رسالة شاب يجتر أفكاره ، عكف على ذاته ، عقب عودته مختلا من احد معسكرات الاسرى ، وظل نزبلا على المصححات منذ ذلك الحين .

«كان ذلك من زهاء تسعة أعوام ونصف حين وقعت في الاسر . لم أستطع تحمله ، وان كنت بريئا تماما . لقد جعل روحي شقية فرحلت عن موطنـي الاصلي ، عن البيئة التي ألفتها ... ولقد وعد الطبيب المسئول ان يحررني ، واذا به يضعني بدلا من ذلك في الجرانج . وانا لا اعرف ما الذي يمكن ان يصنونه لصالحني ، ان لدي الاهتمام ، لم افقده . وقد يكون من الافضل أن أسيطر بعض الشيء على اهتمامي الخاص . ليس صحيحا انني آخر رجل على سطح الارض . من الافضل لي أن اعود الى منزلي وأحاول ان اعيش في حرية . على المرء ان يتعلم كيف يعيش ، وأنا اعرف ذلك . فلتدق أعناق طلاب الحروب . من حقي أن أعيش منذ ١٩٤٥ كنت في معسكر الاسرى ، ومنذ ٤٧ وأنا نزيل في مصحة عقلية ، وتلقيت عددا لا حصر له من العلاجات ، العلاجات الكهربائية المزعومة ، التي لا أتحمل مجرد التفكير فيها ، ناهيك عن تلقيها . صدقني ، اذا لم تفرج عني فاني افضل الانتحار على المعاناة ظلما . ان المرضى الآخرين يشعرون بذلك ايضا ، ولعل هذا هو سبب افراطهم في اغاظتي . ان مقاربة الانتحار ، الذي يعتبر تنفيذه اشد صعوبة من التفكير فيه ، ليس عملا جيدا بالنسبة لي . ولن أسمح للمجانين ان يدفعوني للموت ، لقد كنت أعتز بقيمة حياتي جدا قبل ان

أصبح من أسرى الحرب ، والآن أيضا أفعّل نفس الشيء . وكل ما يمكنني أن أصنعه ، فأنني أصنعه لنفسي ، بيد أنني أطلب منك أيضا ، أن تأتي وتخلصني من هذا الجحيم ، فأنا رغم كل شيء لم أفقد رأسي . ولا تحكم عليّ بأساليبك العتيقة في التفكير إذ يجب أن تعلم أن الشخص العاقل لا يمكن أن يتواجد في مقبرة فمن المعروف أن الإنسان ليس حيوانا يمكنه تحمل أي أنواع المشاق في هدوء . لذلك أكتب طلبتي هذا لتخلصني من هذه المشقة ، وسائر أنواع المشاق الأخرى . ليس في وسعي أن أنتظر مكتوف الذراعين حتى أتخطم . يجب أن تعلم أنها ليست غلطتي أن كنت هنا ، من المشين أنهم أحضروني الى هنا ولم يرسلوني الى المنزل . انه عارهم الذي يثير الاشفاق على هذه البلاد ، لانه يؤدي الى فقدان الطبيب والنبيل . والديّ الاعزاء ، أختتم رسالتي متمنيا لكما ولكل الاصدقاء عيد ميلاد سعيد . »

ولسوء الحظ ، كان من المستحيل تحريره ، كان هو الذي احتفظ بنفسه اسيرا ، كان يهاجم المرضى النائمين في براءة ويشرع في ضربهم لانه تخيل انهم يفيظونه . فاذا كان زملاؤه النيام يفيظونه ، فكم بالحري سوف يفيظه عالم الناس الاسوياء الايقاظ .

ولقد كنا أسعد حظا مع بطرس العاشر الذي ابتداء فصامه وهو بعد صبيا في المدرسة الثانوية ، بنفس الطريقة المألوفة ، أعراض الانهباط المرضي . لم يعد في وسعه اجتياز الامتحان النهائي ، بالرغم من ان اهتماماته الثقافية لم تنضب للحظة . كان يحمل كتابا في قواعد اللغة الانجليزية او مرجعا للجيولوجيا في يده حتى في أشد حالات اضطرابه وسرعان ما تنحى هجاسه للانطوائية الاجترارية والقلق الفامض المجرد وبرغم العلاج المتعمق ، بدأت أعراض الجمود الكتاتوني في الظهور . فكان يقف برأس منحنية وابتسامة جامدة مستقبلا الحائط ، او رافدا دون حراك على سريره ، لا يجيب على الاسئلة الا بصعوبة . وفي احيان أخرى جعل يقول اشياء مستحيلة ، متخذا سمنا غريبا وإيماءات تبعث على الضحك . ومن وقت لآخر يفتدو عدوانيا مع بقية المرضى والمرضين .

جاءنا على هذه الحالة . كان منطويا ، خجولا ، جامدا ، تستفرقه أفكاره الاجترارية . وغدت هذائته اكثر اتساحا ، فكان يدعو بعض المرضى وزراء معتقدا في نفسه انه ستالين تارة والقيصر بطرس العاشر تارة أخرى . فاذا وقف في الردهة ، فلكي يرتجل خطابا سياسيا حماسيا ، ولكن حين يقربه احد ، كسان ينتحي جانبا . ونادرا ما يمكن حثه على العمل ناهيك عن اللعب .

ولرب يعتبر المرء ان من يعاني هذا الضرب من الفصام لمدة ثمانية أعوام ، ويقضي متنقلا من مصحة الى أخرى ، متعاطيا علاجا متكسرا من الانسولين وصددمات الكهرباء ، تكون تجربة علاجه مرة أخرى مضيعة للوقت . لكن الامر لم يكن كذلك . كان بطرس شديد الخشية من العلاج بالصددمات الكهربائية ، لدرجة انه كان يظل ممثلا بالشك ومرتعجا حتى بعد حقنه بالايفيان ، فيرفع رأسه وينظر

حوله في رعب ليرى متى تبدأ الخدعة لكن الخدعة لم تكن تبدأ ، إلا حين يسقط بطرس في النوم أخيرا (كان يحتاج الى ضعف الجرعة المعتادة من الأفيان - كانت مخاوفه تقاوم حتى العقاقير) وتلقى العلاج وحدثت المعجزة . فخلال ثلاثة أسابيع تحسنت حالته تماما . وتحول القيصر بطرس العاشر الى طالب هادئ يستذكر للامتحان باجتهاد . لم يكن ذلك بالتأكيد نتيجة للعشر صدمات الكهربائية (لقد تلقى قبل ذلك ما يزيد عن المائة) وإنما للجو المصاحب في الجرانج ، وما فيه من حرية ، وعناية ، وعطف ، كنا نختصه به اثناء سيره نحو الشفاء يوما بعد يوم . فكتب لأسرته رسالة حسنة الترتيب وذكية ، جعلت والداه يستقلان القطار في اليوم التالي ، لقد اراد مشاهدة ما حدث ، اذ لم يسبق طيلة ثمانية أعوام أن كان على هذا القدر من صفاء الذهن . ثم القى محاضرة كاملة في الندوة الادبية عن الملك لويس الأكبر . واعيد الى منزله ، وتوفر منذ ذلك الحين على دراسته في المدرسة والاستعداد للامتحان النهائي . وكتب والداه انه أصبح على شيء من الخجل ، والحساسية ، والقلق ، ولكنه خلو من أي آثار للجنون . هل يستمر هذا ؟ أم انها مجرد مرحلة ؟ الزمن وحده هو الكفيل بالإجابة عن هذا السؤال . ولم نحقق مثل هذا النجاح الدرامي مع جون (يحكى أن) ، وان بلغنا معه مرحلة العودة الى منزله في اجازة لمدة أسبوعين . فسافر زهاء ثلثمائة ميل . لكنه لم يستطع البقاء هناك ، نظرا لانه لم يتوفر لوالديه أساسا القدر من التعاطف الذي توفر لوالدي بطرس العاشر . ولقد أسعدنا رجوعه ، اذ كان من أحسن بستانينا .

ظهرت بدايات مرضه في سن الثانية والعشرين ، حين كان يدرس القانون. واتسم مرضه ، بالإضافة الى اعراض الانهباط المرضي والهذاء بالشذوذ الجنسي المتباين . (وهو ما حدث لبطرس العاشر ايضا وكذا بقية الفصامين من افراط جنس وانحرافات في البداية ، ثم ما يبدو اختفاء كامل للدافع الجنسي فيما بعد) . حين جاءنا في سن الثانية والعشرين ، لم يكن ثمة أثر لأي شيء من هذا. كان عرضه الوحيد الملحوظ ، بالإضافة الى الانطوائية الاجترارية ، هو ما يمكن ان يسمى «الحركة الاوتوماتيكية» طبقا للاوامر . لم يكن يصنع أي شيء تلقائيا ، ولكنه يؤدي أي شيء ميكانيكيا ، كالألة حين يؤمر . واعتدنا ، حين تحسنت حالته بعض الشيء ، ان نستخدم الامر في اجتذابه الى وسائل الترفيه ، فكنا نأمره بلعب الشطرنج ، والرقص ، والفناء ، والمشاركة في الندوة الادبية ، بل والابتسام والمرح . وكان ينفذ جميع الاوامر بحماس ، بما فيها الامر بأن يتسم ويفغدو مرحا . ولم يعد في حاجة الى اوامر فيما بعد . لقد ظل عاجزا عن التحرك التلقائي ، وان لم تعد استجاباته الانفعالية تفرض عليه . ومع هذا ، فقد ظل التعبير المرتسم على وجهه جامدا كالقناع .

وقد يتوقع المرء خواء عاطفيا خلف مثل هذا القناع الجامد . ولكن القناع كان خادما . لقد اكتشفت مرارا ان المريض الذي يتخذ وصفا كاتاتونيا ايضا ،

يرقب كل شيء ويستجيب له انفعاليا . ان عقله يحكمه الاصرار على ان يكون «قانونا في حد ذاته» . وهذا ما يحدث فعلا ، وان كان لا يشير اليه على الاطلاق . وتستخدم اساليب غاية في البراعة لتجعله يفصح عن ذلك ، وعندئذ يتكشف أمامنا هذا النمط من نسق التفكير .

لقد طالبنا جون (يحكي أن) أن يدون افكاره كتابة . وبرغم اتضاح النسق ، بأقسامه وأقسامه الفرعية ، فلم يكن من السهل اكتشاف جوهره ، اللهم الا ان جون (يحكي أن) يشغله مرضه بالفصام . «طبقا لما سمعته في الجرائع سيكون لي مساء ، اي ان مصري لن يتغير ، حتى اصل الى التدهور النهائي عقليا وجسديا، وحتى اذا لم تصل حالي الى هذا السوء ، فلن أعود صالحا لابسطة الاعمال . كان هذا ما اكتبه . اما «المساء» فربما قصد به «التحرر» ونهاية الاسر . هل اصل الى هذا المساء بذهن عاقل ام مريضا بالفصام ؟ ما الذي يؤدي الى انفصام الشخصية ؟ هل هو العلاج بالصدمات ام الجنون ام الخبرة المريعة التي مرت بي مؤخرا ؟» - كانت الخبرة المريعة التي ذكرها هي حقنة مخدر الافيان التي اخذها جون (يحكي أن) دون ان يختلج له جفن - شأن اي أوامر اخرى - ثم ادركنا الان فقط اي اثر مريع تركته فيه هذه الحالة من التخدير . اي شخصية تأتي سوف يتم التضحية بها على مذبح هذه الوسائل - هل هي الشخصية الاولى القديمة ، وكذا مستوى معنوياتي المرتفع (اي الشخصية العاقلة السابقة) ام الثانية (اي المريضة) ؟ ألا يمكن ان يوجد ثمة انفصام تتكون عنه شخصية جديدة نتاج لاتحاد الشخصيتين ؟ وأبلغ المساء وأنا معافى ... اي بذكرة كاملة ووعي سليم» . الامر المهم في هذا التفسير هو الوعي في حالة الفصام . هل يشعر فعلا بانفصام الشخصية ام انه يسمع عنها فحسب ؟ ربما شعر بالثنائية الناتجة عن ديناميات انفعالاته المقموعة ، والاوامر التي ينفذها اوتوماتيكيا وتغوق كل شيء . وأرسلناه الى منزله ، ولكنه عاد بعد ان قرر انه ما دام ليس في وسعه ان يعيش حياة مستقلة ، فمن الافضل ان يقيم في الجرائع لا المنزل الذي تتعطل فيه ارادته ، ويحاول بكل قواه ان يتدرب بالصبر . أن تفهم الهوة المروعة التي تفصل الفصامي عن مجتمعه السوي من الصعوبة بمكان . لقد حدث الانفصام فعلا ، اي فكسرة الوعي بالانفصام ، في حالة جون (يحكي أن) . ولم يفصح فيما بعد عن دلائل أبعد لتطعاته الجنسية الشاذة التي أفرغت أسرته في بدايات مرضه ، ولكن يحتمل ان هذه الفريزة قد شكلت احدى شخصياته ، وكان هذا هو السبب الذي أدى لجنونه ، الرغبة في أن تخرج هذه الشخصية الكامنة الى النور .

انت لا تعرف الا غريزة واحدة - فحذار ،

ان تلقى الاخرى على الاطلاق !

ثمة روحان في صدري ،

واحدهما سوف تطلق الاخرى .

ان هذا التحذير الذي يقدمه فاوست ينطبق بالفعل على جون (يحكي أن) وعلى

كل الفصامين الذين يبدو انه تصطرع في داخلهم شخصيتان . ويعتبر لويس لافتر مثلاً تقليدياً على الانقسام ، وان بدا حالة شاذة . لم نعرف شيئاً عن حياته السابقة - ذاته السابقة . وكان هذا غريب ، نظراً للصدقة الدافئة بين لويس وبينني . كان من رجال الجندرية وفقاً لبيانات سجله الطبي . ولكن كان ممن المستحيل تصور لويس مرتدياً خوذة . كان أقرب ما يشبه الى باعة المحلات . كان محباً مفرطاً للاستطلاع . تستهويه الاشياء ، وخاصة أنواع المواد ، كثيراً ، وكان خبيراً في النسيج والاحذية ويهتم اهتماماً فائقاً بمشتريات المرضين ويرغب في معرفة أثمان كل ما ابتاعوه بالضبط . وكان ملماً تماماً بأنحاء المجر ، وربما كان بائعاً متجولاً . وكان يخاطب المرضات بأسمائهن الأولى ، كأنهن أخوات . كان يتدخل في كل شيء ويسأل كل أنواع الاسئلة ، ولكنه فجأة يفوص في عالم غامض ، فيهلوس بصوت مرتفع ، مخاطباً نفسه جهراً ويضحك . ولكن اذا حدثناه، فرد وجهه الشبيه بوجه ميفيستوفيليس بفتة في سرعة البرق وألقى بتعليق مداور : «هل من جديد ؟ هل نلعب دوراً ؟» .

وكان لويس يتحاشى اي نوع من العمل ، يلعب تنس الطاولة جيداً ، ولاعب شطرنج مفرم ولكنه ضعيف . وكان مسئولاً ايضاً عن التليفون . وكان هذا حلاً مثالياً ، اذ يبدو انه يعمل بينما لا يصنع شيئاً في الواقع . بالإضافة الى انه يشبع فضوله الفطري ، بينما خلال التليفون يعرف كل شيء . كان يحوم حول التليفون طيلة اليوم ، وحين يدق ، يختطف السماعية ويتولى «العناية» بالموضوع وكان يتولى العناية بموضوعات شتى - ولكنه كان بعد ذلك فصامياً . وحين كان من الضروري ان يمسك بالسماعة وينتظر ، وكان ينسى نفسه ويهلوس في البوق ، فيغمغم بكلمات بلهاء ويضحك . ولكنه في اللحظة المناسبة يفلق ازرار عقله المجنون متحولاً الى الآخر السوي ويؤدي عمله بكفاءة . وكان يشبع رغبته الخفية في المرح عن طريق التليفون - فكان يفسد ترتيب مواعيد المعالج المهني على سبيل المثال . ثم يضع السماعية ، وان هي الا دقيقة فاذا هو يذرع الردة مهلوساً .

ما الذي كان يتحدث به الى نفسه في مثل هذه المناسبات . لقد حاولنا آلاف المرات ان نسمع عليه ولكننا لم ننجح ، برغم انه كان يهلوس حتى اثناء لعب الشطرنج - بين حركتين - او البينج بونج بين ضربتين . كان يغمغم من بين اسنانه المطبقة . «احضرها هنا . لعنة الله هذه الفتاة العجورية القذرة ، لا استطيع احضارها هنا» . ظلت هذه هي الجملة الوحيدة المفهومة التي استطعت التقاطها خلال عامين . اما الباقي فكان مجرد غمغمات غير واضحة وضحكات شيطانية . ولكن اذا سألناه «ولكن يا عزيزي لويس ، ما الذي لا تستطيع احضاره الى هنا من تلك الفتاة العجورية التي انت دائب الحديث عنها» كان يبتسم في خجل وينتقل الى موضوع آخر . كان من المستحيل ان تحصل منه على شيء . كنت ألعب معه مباريات الشطرنج المفروضة عليّ يومياً (كان يهزم عادة) ولكنه كان يكسب في مباريات تنس الطاولة . كان يسدد الضربات التي يستحيل صدها وهو يهلوس

لكنني لم أستطع الاقتراب منه . كان لا يزال يحبنا . ويعيش وسطنا كعضو محبوب في الاسرة يتجشم المشاق من اجل متاعب كل من فيها - لثانية واحدة ، قبل ان يفرق ثانية في العالم الآخر .

اذا صح ان هناك انفصاما فهذا هو بالتأكيد ، انفصام في الوعي ، وفي الشخصية ، وصراع بين **الانا** و**الانا** المغايرة ، وهو ما وصفه الشاعر يانوس اراني بصورة افضل من بلويلر .

هل اصبحت شبعا يزور مملكته
انا ارقب في ضعف ، وصبر وهدوء ،
واسأل في دهش : اما زلت نفسي ؟
ام احتل ذلك الآخر مكاني ؟

لقد كان لويس الضاحك شبعا يزور مملكته . ومن الغريب ان كانت احدي شخصياته ذكية ومرتبة ومنطقية بينما تعيش الاخرى في عالم من الرؤى الغريبة . (كان لدينا تقرير وحيد عن مبلغ غرابة هذه الرؤى . فقد ذكرت احدي الممرضات انها شاهدت لويس ذات مرة يتمشى في الحديقة ، حين توقف ، وانفجر في ضحكة شيطانية ، وفتح ذراعيه وقال «يا له من عدد مهول من الجثث . . ها ها ها . . يا له من عدد مهول من الجثث . . ») وبدا كأنه يرى السكان المذبوحين في احد معسكرات الموت). كانت ذاته المنظمة الذكية التي لا تسفر عن اسطع علائم التدهور العقلي عازفة عن كشف اي شيء عن **أناه** او **الانا** المغاير . لم يسعنا معرفة ما اذا كان له والدان او اخوة او اخوات او زوجة او اي اصدقاء . لم يحدث ان تلقى رسائل او طرودا . ويحدث هذا لباقي الفصامين ايضا ، فأثناء تلبدهم يرفضون الماضي ، واقرب الاقربين . بيد ان لويس لم يكن متبلدا على الاطلاق بل على العكس كان ذو قلب دافئ ، ومخلوق عطوف ، يشارك الجميع متاعبهم ، يعانق المرضى ويقبلهم ، كان مهذبا ومفيدا لبقية المرضى - اي ضرب من التبليد الانفعالي هذا ؟ وبغثة تختفي الطيبة من وجهه ، وتحل محلها تقطبة ميكانيكية ، وتسرح عيناه الى بعيد ، ويضحك كالضبع ، يضحك ويضحك . لو لم تكن ضحكة على مثل هذا القدر من المראה ، لاعتقدت انه يضحك منا ، من العالم بأسره .



حين يصبح التفكير الاجتراري اشد خطورة ويتحول الى كتاتونيا ، تفدو الصورة اكثر عقما . فالتفكير الاجتراري بعد يعني فلسفة غريبة معينة ، بينما الكتاتونيا مجرد جمود دفاعي ، ومقاومة عنيدة وتعبيرات تبعث على الاستغراب . ان تكرر كلمة او ايماءة الى حد الاملال ، ان تظل تهتز او تصر على الخلفة او تكف عن الحراك تماما - فهذه هي الكتاتونيا .

لم تفه كلارا تيزي بكلمة لحقبة كاملة ، اللهم الا مرة تحت ضوء القمر حين

اهتاجت عواطفها . انها تعمل الان في مزرعة الدولة كآلة الصماء ، ولكنها لا تتكلم هناك ايضا . وظلت ايرما ساروتزي بكاء منذ مراهقتها ولكنها ايضا رفضت العمل . ويظل اولد تابه مستغرقا في الصمت لشهور ويكتفي باستخدام لفظة الإشارة ، وبفترة يشرع في الكلام وكأن شيئا لم يكن . وكان يعمل بهذه الطريقة ايضا . كان يعمل احيانا منذ الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من المساء ، ويقع احيانا أخرى في بقعة واحدة لاسابيع . واعتاد بيلا بودوفيا الرقص بطريقة غريبة في مساحة مربعة طيلة العام . كان يسير حول المربع ، مؤديا نفس العدد من الخطوات دائما ، ويتوقف في أماكن معينة ، رافعا ذراعيه الى رأسه وهو يومي كأنه يمشط عارضيه ، بينما يقفز في خطوات راقصة . وكان يكرر هذا آلاف المرات ، وربما عشرات الآلاف من المرات . ولم تكن لدينا فكرة عما يرمز اليه هذا الطقس . ويسير ستيف آبلز جيئة وذهابا بخطوات عسكرية وهو يعد في صوت أجش «واحد اثنين ثلاثة اربعة - للأمام» . ويلقي تعليمات عن كيفية الدوران ، ثم يبدأ كل شيء من جديد . او يتفوه ببعض المقاطع بطريقة كهنوتية . «ويلقي تعليمات يأكل الانسان ، يصبح الانسان جائعا . من يمتلك الكثير من المال فهو رجل غني . من يريد ان يقص شعره ، لن يتبقى له الا شعر قصير . واحد اثنين ثلاثة اربعة - للأمام» . كان يفرق في العمل احيانا ، او يظل في سريره ولا يتفوه بكلمة ، ويتجمد جسده كأنه قد من خشب . كان في وسعه ان يهمل في العراء كأنه قطعة من الخشب . (ذات مرة ، وبينما هو على هذه الحالة الكتاتونية، شرعت المريضة إما في ملاطفته حتى تحرك واستيقظ ومضى صوب الاستراحة وشرع في الرقص مع إما . ان تجعل مريضا كتاتونيا يرقص - فهذا شيء لا يمكن السماح به الا في الجرانج) . وكان بول براون يتسمر في بقعة واحدة لا يلوي على شيء ، مداوما على هز رأسه . ويجلس جوني جويكس القرفصاء ، ويتضاؤل في نفسه الى أقصى حد ممكن . ويثني رأسه على صدره ، ويجد متنفسا لحنقه بتوسيع سراويله من وقت الى آخر . (لكن شرعت روزي في حثه على غناء الاغاني الشعبية بصوته الدافئ المقبول) ويدير شارلي سبلمنت رأسه جانبا في وداعة ويردد كلمته الخالدة «لا» .

لم يكن هذا الانطواء الجامد ، وهذا الانكار والرفض الشرس ، وهذا الاحتجاج الصارم على كل شيء يعني الاحتراق وخواء الروح . لقد بكت كلير تيزي بدموع حقيقية حين ودعناها في مزرعة الدولة . وشرع شارلي سبلمنت فجأة في الكلام ، عقب هروبه من أمه ، حين استحثته الشرطة «بصفعتين» . وظل ارنست دوبل على جموده الكتاتوني ثلاثة شهور لا يتحرك حتى وصل الى منزله . ولم يوسخ جوني جويكس بنظونه في القرية المجاورة ، وانما شرح لهم بتعقل من اين جاء ، والى اين يريد ان يرحل ، بل وزيف كذبة متقنة . ولم يكن ستيف آبل يلمس الطعام اثناء وجود المريضة في الحجرة وحالما يصبح بمفرده ، يسمح له عرضه الكتاتوني بالجلوس والتهام غذائه . وكان بيتر بوروفيتش يرقد في سريره

بعينين زجاجيتين ، لا يجيب على اية اسئلة ويبدو في الحال من العجز كما لو كان لا يستطيع الكلام . وبغثة ينهض ، ويمضي الى مكتب البريد بالقرية المجاورة ويطلب بودابست - ويجد ما يكفي من العقل ليطلب «سجلها على الحساب» - ويخبر والديه باستفاضة انه على ما يرام ويريد الذهاب الى المنزل في الاجازة . ثم يعود الى سريره ويستلقي فيه بنفس التخشب والوهن السابق . واختفى جو بولجر بغثة بعد ان امسك عن تخشبه الكتاتوني الذي استمر لشهور ، وفتش جميع المرضين الاماكن المحيطة حتى منتصف الليل ، بينما كان مختبئا في حظيرة الخنازير وهو يضحك على المطاردة المثيرة ، ويفر بعيدا حين يقترب الباحثون عنه . في اعماق الكتاتوني ثمة سخرية ملحوظة وكراهية وخداع . وربما انتقام ايضا . وهو نوع غريب من الانتقام لان قسوته تضر الكتاتونيين انفسهم ، لكنهم يزاولون متعتهم كاملة مهما ارتفع الثمن ، اي رفضهم العنيد للمجتمع .

وهم يعانون في نفس الوقت . الامر كله اشبه بتخشب الخنافس حين يدهمها الخطر المفاجيء من حيوان اكبر - كالانسان مثلا - يحاول لسهم . ويسمى هذا الفعل خطأ «تصنع الموت»، ليس في نية الخنفساء تصنع الموت . لقد فارق احد مشاهير اطباء العقول الالمان ، كرتشمير ، تخشب وشلل الهستيريا «بتصنع الموت» . بيد ان وجه الشبه اكثر اقترابا بالنسبة للكتاتوني .

وتختلف الكتاتونيا رغم ذلك ، فليس في وسع الخنفساء التي تتخشب ان تسفر عن ملامح ساخرة تواجه بها العالم ، ولكن الكتاتوني يصنع ذلك على التحديد احيانا .

انهم يحققون بصمتهم ، وجمودهم ، وحركاتهم الغريبة او خلفتهم العنيدة والى اقصى مدى «الحرية» الفصامية ، التي جوهرها ان تتحرر من المشاركة . وتعقب ذلك عملية العته dementia البطيئة . لا يزال ما يحدث في الدماغ اثناء سير الفصام غامضا حتى الان . ويعتقد البعض انه مرض عضوي بالجهاز العصبي يؤدي الى الاعراض العقلية ، بينما يزعم آخرون ان ما يؤدي للمرض سبب عقلي ، وان انحطاط الجهاز العصبي مجرد نتيجة . وكلا الفرضين محتمل . وتزودنا خبرتنا المتواضعة في الجرائع بأمثلة كافية لتدعيم وجهتي النظر ، ولن احاول الانحياز الى جانب (على الاقل لان من المحتمل ان تكون وجهتي النظر صحيحتين) ولكن الذي لا شك فيه انه حين يصل المرض الى مرحلة العته ، يحدث ثمة اختلال في خلايا اللحاء Cerebral cortex ويختلف تبدل الفصامين العتوهين في هذه المرحلة قليلا عن نظيره لدى المشلولين والصرعيين ومدمني الكحول والمرضى بعته الشيخوخة . اذ تتعطل تدريجيا خلايا الذكاء في الدماغ في كل هذه الحالات . لم اذكر سوى القليل عن المرضى بالعتة ، بالرغم من انهم يكوّنون ١٤ بالمئة من المرضى في الجرائع - اثنين واربعون معتوها متعبين افنتهم النار . نادرا ما يتكلمون ، لا لانهم مستغرقون في اجترارهم الكثيب ، بل لان ليس لديهم مسـا

يقولون . لا شيء يستهويهم . كفوا عن المعاناة ، وهم فوق الخير والشر . لا زال بعضهم يهلوس ويردد هذات معينة ، ولكن لم يعد لذلك اية أهمية . كان عدد كبير منهم يصر على حضور الندوة الادبية ويشارك في اللهو آخر النهار . تختلط ثرثرتهم الغيبة بضحكات الآخرين ، ولكنهم لا يفهمون بالتأكيد كل ما يدور . يؤدي معظمهم عمله في هدوء ، ويذهب الى السرير بعد العشاء ، وينام حتى الصباح . وربما يشعرون بالرضاء على طريقتهم الخاصة . من المؤكد انهم لا يبدون علائم عدم الرضا ، وهم يدون مطالب ولا يتشاجرون . موجودات خلو من القلق والمشاكل . يأكلون ما يقدم لهم ، ويؤدون عملهم بأفضل ما في وسعهم . لم يعودوا «خطرين» ، لم يعد من الضروري في الواقع الابقاء عليهم في مصحات المجانين - ولكن اين يمكن وضعهم ؟

لم يكن في وسعي ان اكتشف الفصام لدى العديد منهم ، لو لم اتخذ من تاريخهم المرضي شاهدا على انفعالاتهم وهلاوسهم وهذاتهم الماضية . من يصدق ان ماري سوالو العجوز مريضة فصامية ؟ انها تمضي النهار بطوله تنظف وتفسل وترتق الجوارب في هدوء رصين . كانت بسيطة ، لم نسمعها تتفوه قط بكلمة مضطربة او عدوانية . ولقد كان من المستحيل فيما مضى التعامل مع مسر سميت ، اذ كانت تهلوس بشدة ، ولكنها اصبحت الان اشد من يقشر البطاطس حماسا في المطبخ ، ولا يبدو عليها ثمة اثر للمرض ، بيد انها فقدت ذاكرتها ، وضاعت دائرة اهتماماتها ، ونضب ذكاؤها . وكان فرانك كاوفمان يشتغل في ورشة النجارة ، يصنع ايدي ممتازة للفؤوس ، فهذا ما تبقى من مهارته كصانع سابق للعربات .

لم ينطفئوا ويتبلدوا جميعا الى هذا الحد ، ولكنها على العموم مسألة وقت فحسب . الامر الذي يؤكد بصورة ما ان هذا الضرب من العته يعني السلام بعد المزيد من العناء .

مطلوب فقط أن يتوفر لهم جميعا مأوى كالجراج ، والا فإين يمكن ان يسعدوا بالسلام «الذي يستحقونه» في ظل ظروف اكثر انسانية نسبيا !

ولقد كانت مجموعة الهيفيرنين اشد مدعاة للحنن . انهم يتوزعون على شتى مراحل الفصام ، وتنتهي مأساتهم الى أعرق ضروب التبلد . ولعل ما يدعو الى الاسى انه لا يصيب بعامة الا الشبان الموهوبين دائما . أولئك الذين كانوا من التلاميذ اللامعين في المدرسة ، موضع فخر أسرهم ، والذين كان مدرسوهم يحاولون اللحاق بمواهبهم المحلقة التي تبشر بأكثر الآمال اندفاعا - بفترة يهتزون ، ويفقدون الثقة ، وتتضخم حياتهم الانفعالية . ثم ينتابهم الشك ، ثم فتيرة الشعور بالمهانة ، ثم البلبلة ، والعكوف العنيد على الذات والاعتراب عن الحياة وبداية الهيفيرنيا المبكرة . بفترة تجد الاسرة ان الشاب الذي كانوا يفخرون بما يردده من اشعار ، لا يستطيع ان يتذكر جدول الضرب الا بالكاد . هناك مثلا جوليوس رود نوي الذي يبلغ من العمر الان عشرون عاما والذي

لا زالت امه تحتفظ بكراساته المدرسية لتدلل على مبلغ نجابته في المدرسة . ظل مرغوبا من الجميع ، حتى بدأ يتصرف بصورة شاذة في سن السادسة عشر . اصبح وقحا غريب الاطوار يردد الهذات ، وشرع يتحدث عن ضرورة اقتراف اشياء غريبة ، حين وصلنا ، كان قد بلغ آخر خطى مرحلة البله ، فكان يردد كل انواع الفلو ، ويتمشى جيئة وذهابا . ويقلب وجهه بصورة كتاتونية . لم يعد له من ذكائه القديم الا شذاه .

ولقد كان باجز في العشرين من عمره ايضا . كان صبيا من الفلاحين أمضى في المدرسة خمس سنوات فحسب ، ثم عكف على الدراسة بالمنزل حتى يتسنى له اجتياز امتحان الشهادة الاولى . وعقب ذلك مباشرة كان يجب ايداعه المستشفى . ان احدا لا يعرف كيف ولا ماذا حدث له . انه الان يحرق أمامه ويكر على أسنانه دون سبب .

وكان ليزلي سنائي يريد ان يصبح قسيسا ، لكنه ترك المدرسة بسبب رؤاه الدينية وهذاته قبل ان يحصل على الشهادة . وتلت ذلك مرحلة انتقاد الذات . وسرعان ما خفت حدة تعصبه الديني ، وأصبح انطوائيا ، يتكلم في اضطراب ويردد نظريات غير مفهومة عن الذرات البشرية والرباط الميتافيزيقي بين الدين والوجود المادي . وغدا اكثر جمودا وغباء ، وتجمدت على وجهه بسمه بلهاء ، بينما يساقط فمه اللعاب . ثم صار يقف او يرقد في وضع كتاتوني ، ولا يجيب على الاسئلة . وحين جاء الى الجرانج ، كان في الخامسة والعشرين من عمره ، معتوه تماما ، لا يستطيع الكلام او الاكل الا بصعوبة . كان يلتهم الاقدار التي يلتقطها من اكوام السباح . كان يوما من المهتمين بالمسائل اللاهوتية ويتكلم ثلاثة لغات ، وليس في وسعه الان ان يتلو الصلاة الربانية .

ويعتبر الهيبفرفرينيون اكثر فصول الطب العقلي مدعاة للعطف . من المستحيل اعادتهم الى كائنات اجتماعية ، اقل العزاء انهم في عتاهم دائمي ولا يعانون .



سواء كنت مصيبا او جانب الصواب بالنسبة لنسق المراحل الستة ، فالذي لا شك فيه ان الفصاميون كما وصفت . ان النسق لا يهم ، ذلك ان المرض نتاج الطبيعة ، ونحن الذين نقدم النسق . وربما لا تهم التصنيفات او العبوات التي نضع فيها الامور . وان كنت اوصي بعبوتي الخاصة . اذ اعتقد ان هذا التصنيف سهل وصحيح . انه يفسر كيف لا يتعارض الشيء ونقيضه في نفس المرض - الحساسية والامبالاة ، الثثرة والخرس ، التفلسف والتبلد الكامل ، بيد ان هناك ثمة حالات تفلت من تصنيفي ومن تصنيف بلويلر كذلك ، كان بيتربورفيتش احداها ، وكذلك فرانك (المتهم ذاته) وروزي الخياطة وقلة آخرين . واننا لتساءل هل هي حالات «غير نمطية» ، ام انهم ادرجوا تحت قائمة الفصام لاننا لا زلنا نصنف في الكلام ولم نجد بعد مكانا لهم .

الفصل الثالث

الصرع

يُعتبر الصرع امرا بالغ الصعوبة . ومن المعروف جيدا ان هناك ثمة من عانوا الصرع من بين المواهب المبدعة ، كالفنانين ، والرسامين ، والقادة العظام ، بيد ان معظم المصابين بالصرع من نزلاء الجرانج كانوا متدهورين عقليا . وتوضح احصائيات الجريمة كم يكثر المصابين بالصرع من القتلة واللصوص (بل وتزيد بين اقاربهم) . ومن جهة أخرى هناك الكثيرون في عائلات الكهنة والراهبات . وتتضح الشفقة المفرطة والقسوة في نفوس المصابين بالصرع بصورة متطرفة .

من اين نبطح هذه الثنائية ؟ انها تركة قابيل وهايل لو شئنا الصورة الادبية . ففي النفس البشرية يوجد الطيب والخبث ، الملاك والشیطان ، الفضيلة والرجس . ويبدو ان هذه الثنائية تصطرع في جانب من أدمغتنا . ويمكن افتراض انه في قلب «مركز الفضيلة» هذا ثمة جزء من الدماغ ينتج عن اثارته فقدان الوعي والكتابة القهرية . والا ما هو السبيل الى تفسير وجود ظاهرتين على هذا القدر من الاختلاف البين ، هما الشخصية الصرعية والثوبة الصرعية يسيران معا جنباً الى جنب ؟

لم يكن المرضى بالصرع في الجرانج من الشعراء او القواد ، وانما كانوا من ضعاف العقول . ويسبب الصرع في حد ذاته العته ، ولم يفقد مرضانا الصرعيين

قواهم العقلية بعد ولكنهم كانوا من ضعاف العقول ذوي القدرة الضئيلة على التطور . وكان تاريخهم المرضي يتضمن عوامل ثلاثة : الضعف العقلي ، نوبات دورية مصحوبة بفقدان الوعي ، شخصية صرعية شاذة .

وتزودنا حالة بيتر مارتير بفكرة ما عن طبيعة شخصية المصاب بالصرع . لقد كان هذا المحتال الكسول الشاب الدائب التذمر ، يغلف شروره بالعطف ولا يبذل جهدا على الاطلاق للتحكم في مزاجه . كان بمثابة حالة نمطية للشخصية الصرعية اذا جاز لنا ان نتحدث عن الانماط . لقد كان هناك بيتر مارتير واحد فحسب حتى ولو كان نمطيا . ولقد كان الآخرون نمطيون ايضا ، ولكنهم كانوا مختلفين في نواح شتى .

كان هناك رادار ، الفلاح ، مثلا . كان يشبه اولد تيننت في تخرجه من احدى المدارس الزراعية وكونه فوق الخمسين . وحين وصلت زوجتي وانا الى الجرانج ، ألقى خطاب الترحيب بالنيابة عن بقية المرضى . ورغم انه لم يكن يعرفنا ، فقد ظل يتحدث عن مآثرنا بطريقة أشبه بالتأبين في الجنازات . لقد كان رادارا ديمافوجيا . وهذا ليس تشخيصا ، ولكنها سمة شخصيته الرئيسية . وكان مغنيا عاطفيا ، على الرغم انه يتكلم بصعوبة ، ويتعثر غالبا (الصرعيون وأقاربهم يتعثرون غالبا في الكلام) وحين أرسلناه فيما بعد الى مزرعة الدولة ، عاد فالقى خطبة تثير الدموع باسم المجموعة التي ستفادنا . في مثل هذه المناسبات كان يغدو معسولا ومنافقا ومداهنا . بيد انه لم يكن يجب العمل على الاطلاق ، وانما أوقع بدلا من ذلك بتثبيط الهمم وزرع السخط بين الناس . وكان يثير كل يوم غالبا معركة وهمية لم يعد احد يأخذها مأخذ الجد - بما في ذلك هو شخصيا ، بيد انه غدا شديد التعود عليها فكان يثيرها حتى وهو يعلم انه لن يربح شيئا من ورائها .

ولقد أودع المصحات منذ شبابه . ويدل تاريخه المرضي على انه بدأ يشعر بالدوار والضعف في سن الثانية عشر . ولم يسبق أن شاهده احد مصابا بنوبة صرعية نمطية . ومع هذا فقد أودع المصحة بعد ان شخصت حالته «ذهان صرعي» . وادين عام ١٩٤٠ في المحكمة بتهمة الحريق العمد . ولم تكتشف قط حقيقة ما حدث ولقد أوضح بصورة مضطربة ان اجتماعا سياسيا قد حدث في قريته ، وانه كان مطاردا لانه شيوعي ، فاضطر للاختباء ، ثم أشعل النار فسي مخزن للدريس وأبلغ الشرطة انه مصاب بجنون الحرق العمد Pyromaniac ولما كان هناك ثمة علاقة بين جنون الحريق والصرع ، فقد ابتلع الاطباء اعترافه المزيف وأودعوه المصحة بدلا من السجن .

الخير فيما وقع ، بيد ان مطاردة الشيوعيين توقفت في ذلك الوقت ، وكان في وسع صديقنا أن يكف عن تمارضه - ويعود الى الحياة الطبيعية ويفدي بلده المحبوب بنفسه - هذه الرغبة التي طالما أفصح عنها باكيا مرتجفا . لكنه لم يعد . كانت حياة البطالة في المصحة مناسبة لشخصيته . ولم يكن في المصحة من هو

أشد منه اصرارا على التبطل (اللهم الا السيد فيدلر (صانع لا شيء) ، نائب المدير وان كان يتقاضى نظير ذلك مرتبا على الاقل) ، وكان يعرف جيدا انه لا يستطيع الحياة في اي مكان آخر على التبطل وإثارة المتاعب . لذلك واطب على نوبات الدوار بحماس ، ودأب على الشكوى من امراض متوهمة ، يستبح بحمد الادارة احيانا يرفعها الى السماء حيناً ، ويمرغها في احيان اخرى في الوحل . وكان يقوم بسرقة مدخرات بقية المرضى ، بينما لا ينقطع حديثه عن الامانة .

واقترح في لحظة من لحظات الشعور بالاباء ان نوحّد جهدنا انا وهو للقضاء على الصرع . لا صرعه هو ولكن الصرع بعامة . ولم يكن أسلوب العلاج الذي اقترحه لهذا الغرض شيئا آخر الا الجنس لقد أجرى تجارب علمية تأكد منها ان الحياة الجنسية المنتظمة تشفي الصرع . وتراجع عن الاعتراف بأنه مارس هذه التجربة في نفسه (على الرغم من ان شريكته أولجا جوسيب الثرثرة لم تبّق سرا انهما استخدما مرارا هذا العلاج الممتاز) . وأشار الى احد اصدقائه وكان يتعرض لعدد من النوبات من قبل ، ولكنه منذ انهى مهمته مع فتاة مصابة بالصرع ، لم يتعرض كليهما للمزيد من النوبات . ولسوء الحظ ، كان موضوع التجربة قد أعاده الطبيب العجوز الى مستشفى المقاطعة لانه كان عدوانيا لا يمكن احتماله ، وهكذا أعيقت التجربة ، ولكن رادار أقسم انه اكتشف العلاج المؤكد للصرع ، وعرض ان يتقاسم معي دخل هذا الاسلوب ، وان علينا أن نعلنه في صحيفة علمية، ونشارك الدخّل الذي سيديره .

وأنتي متأكد تماما من ان طريقة رادار لن تنجح مع كل المرضى بالصرع وان كنت لم أدهش لانها نجحت معه ومع صديقه ، ذلك ان كليهما كان مصابا بالصرع الهستيرى . واعتقد كذلك ان الجنس يقلل النوبات عند من يمارسونه بالرغم من ان ايرما سلندر المتعددة الخطّاب كانت أقل هستيرية من الرجال السابق ذكرهم ويسمى الضرب المصابة به من الصرع بالصرع «الخالص» انا أميل الى الاعتقاد بأنه حتى الصرع الخالص - اي الصرع الخلقي الذي يبدو مستقلا عن الظروف الخارجية - يتأثر الى حد كبير بأسلوب الحياة ، ويبدو من المحتمل ان قمع الغريزة الجنسية قد يسبب النوبات في الصرع الخالص ايضا . ومع هذا لم اكن مستعدا لافتتاح مصحة بالاشتراك مع رادار او علاجه الجديد في مجلة علمية . فمهما كانت الاهمية العظمى لاكتشافه ، فلم يكن يدرك الا قليلا انه يلعب بالنار امامه ناحيتي ، فبوسعه ان يزاوّل تجربته العلمية في الخفاء ...

وهكذا فعل ، ولكنه لم يستسلم . واكدت شريكته ، أولجا جوسيب المضطربة تماما ، انها أنجبت منه ستة وأربعين طفلا ، الامر الذي يستدعي اقامة مصحة اطفال من أجلهما . ولكن لحسن الحظ ان أولجا العجوز لم تعد يمكنها الانجاب ، وهكذا لم تكن للتجربة اية مخاطر . ولكنني اعترف انه عقب هذا «العلاج الجنسي» لم تعد حالة رادار العقلية اكثر هدوءا فحسب، وانما حالة أولجا الفصامية العجوز التي كانت واحدة من اكثر مرضانا اضطرابا وقصورا . كانت

شديدة القصور لدرجة يمكن ان توصف في فترات اندفاعها انها عدوانية ، وان كان الطب العقلي يعترض على هذا . كان فم أولجا العجوز يزيد ، وتجحظ عينها حين تلعن العالم في هذه اللحظات لا يجديها شيء حتى «العلاج الجنسي» .

ولما لم يستطع رادار ان يعالج نفسه تماما بعلاجه الخاص ، فقد جربت علاجي انا ، العلاج بالعمل . ولكنه لم يكن اكثر نجاحا . لم يكن من السهل جعل رادار يعمل . لقد ولد متبطلا . ومع هذا ، نجحت في النهاية عن طريق الحوافز ، والتشجيع ، والوعود ، والتهديدات والملق وصعق المرضى والمرضون جميعا ، رادار يعمل ، شيء لا يصدق . وقرر ، وهو يذكرنا بشهادته الزراعية ، ان في وسعه ان يحيل حديقة المؤسسة الى جنة عدن الحقيقية اذا اخذنا بمشورته . واخذناه بكلمته : برهن على ذلك . ولم نتحصل على جنة عدن ، بيد ان الثرائر الكسول ظل يعمل بكفاية لاشهر قلائل ، بل وأرسلناه الى مزرعة الدولة مع اول دفعة . ومضى في حماس . سوف يبرهن عما يمكن ان تصنعه المعرفة المتخصصة والعمل ، وسوف يعود مدير المزرعة من جديد . وتلقيت منه رسالة طنانة شاكرة .

«عزيزي الدكتور المسئول ، عذرا على اقلاقك بهذه السطور ، لكنني لا استطيع ان أنسى . انني معافى واشعر على ما يرام ! لكن ما يؤلني ان العش الذي كان قلبك الطيب يرعاني فيه بمزيد الحب والعناية ، والذي كان صاحبه يسمى ...» (هل يمكن ان أنكر ان قلبي الطيب لم يشعر ابدا بأي عاطفة تجاه هذا المريض على وجه الخصوص ، بالرغم من انني حاولت اخفاء هذه الحقيقة) «لا استطيع ان أنسى انه انت الذي اعاد اليّ كرامتي البشرية . وجعلت في امكاني ان اعود عاملا شريفا في المجتمع وابنا مخلصا لوطني !»

وهكذا على امتداد اربعة صفحات .

ثم لم نعد نسمع عنه المزيد . والتقيت به بعد عام في عنبر مرضى العقول في ليبوتميزو . كان بالغ الرثاثة والقذارة كعادته ، ووعد في طنطنة ان يحيل الجرانج الى جنة ، فيما لو استطاع العودة اليه ...



لقد تم تصنيف هذا الزراعي المتبطل ، الذي انجب من أولجا سنة واربعون طفلا ، وكان أشد قذارة من مارتين كيمست ، باعتباره مصابا بالصرع بالرغم من ان احدا قط لم يشاهده مصابا بنوبة صرع حقيقية . ومع هذا كان ثمة فسي شخصيته ما يسمى «بالشخصية الصرعية» . الكسل المنافق ، والكلام المعسول ، والوعود المتسمة بامتداد الذات ، ونوبات سوء الخلق ، والتذمر المتمرد ، والانسحاق ، والشعور بالاشفاق على الذات ، والشح بالجهد ، والدسائس الفاسدة والتظاهر بحب الخير - هذه سمات الشخصية الصرعية ، ويمكن ان

نضيف الغباء والتبلد الذهني . وأحيانا الدور او فقدان الوعي او حالات التشوش Clouded ولقد توفر ذلك جميعا في رادار . بيد ان رص هذه السمات الى بعضها ، ليست هي ذاته تماما . ان شخصيته الخاصة ، وقدره الخاص ، هو بذاته مفقود في هذا الوصف . ما الذي يدور في رأسه حينما يغدو قديسا او منافقا - او سيء الخلق ؟ ولماذا اختار هذه الحياة القادرة المملة في الصحة ، هذا التبلد والكدر ، على حين انه قادر حقا على العمل وفي وسعه ان يعيش حياة مختلفة تماما ؟

وهناك ايضا شامبي ، غلام في التاسعة من عمره . كان الغباء مرتسما على وجهه . وكان يصاب بنوبات من الصرع الخالص وخاصة عندما يشرب . وكان يبدو من وقت الى آخر كأنه يسير في حالة من الرخاوة غير واع بنفسه تماما . وحين كان الاشقياء يحكمون الجرانج ، كان يسايرهم ويشارك في كل اعمالهم الشريرة . ولكن كان من الممكن تهدئته بسهولة بالتهديد او بكلمتين طيبتين . ومن السهل استهوائه للخير كما للشر وكان صرعه من نوع شديد التباين عن رادار . وكان من الصعب ان يضحي شخصا ذكيا ، وان كان في وسع العلاج ان يوجه شخصيته الصرعية الى الاتجاه السليم .

او لنأخذ بيلا فيليب راعي الخنازير . كان في السادسة والعشرين من عمره ولكنه بادي الطفولة لدرجة تجعله يبدو في السادسة عشر . ونظرا لضعف عقله كان مشغوبا بالمشاركة في اي ضرب من ضروب الشغب ، لكن لم يكن في وسع الفتوات ان يدعونه يمارس اي شر . وكانت تكفيه بضعة كلمات ليمارس أشد الاعمال قذارة كمن به مس ، وتملا أقل اهانة قلبه بالمرارة حتى الاعماق . وحين يحدث هذا كان يضرب كطفل مغيظ .

وذات مرة ، عقب وصولنا الى الجرانج بشهر ، نشبت في المطعم معركة ضارية ، وحين استطلعت الامر ، أبصرت ثلاثة اشخاص يلقون بأنفسهم فوق بيلا فيليب البادي الهياج ، والذي كان مصرا على ركل الباب بعنف قبل ان يجبروه على الرقود ارضا . واستطعت بصعوبة ان انتزع هامستر وصانع الاحذية الفجري من فوق راعي الخنازير المعن في العويل ، واثناء «تأدية» واجههم كمرضين» جلس احدهم فوق صدره ، وآخر فوق رأسه ، بينمالقى احد المرضى بنفسه فوق قدمي بيلا من قبيل مساعدتهم .

وحينما خلصته ، أخبرني ، باكيا ، عما أصابه من هون - لقد حصل زميله

على نصيب اكبر من اللحم ، بالرغم من انه اشتغل أقل منه ... وكانت هذه فرصة طيبة لاللقن المرضات محاضرة في «تهذية المجانين المحتاجين» ، ما دامت وسائلنا مختلفة في الاساس . انهم يسخرون الان من وسائلهم السابقة . وتعلموا اخيرا الا يبرروا الامر بعجزهم عن تمالك انفسهم من فرط الغضب .

وانتابت بيلا فيليب نوبات منتظمة من الصرع من وقت الى آخر . كان

يسقط فاقد الوعي ، وتنتابه التشنجات ، فيضرب نفسه ، ويخرج الزبد من فمه . ثم يرقد فيما بعد على سريريه في حالة من الغيبوبة نصف نهار بأكمله ، فلا يسمع أو يرى ، مكتفيا بالبكاء والصياح قائلا : «أماه ! أين انت يا أماه» .
لم نعرف أين أمه ، أو ما اذا كان له أم حقا . لقد سبق أن كاتب الطبيب العجوز كل الجهات . الشرطة ، ومختلف مجالس المدن ، فكان يتلقى دائما الرد بأن الشخص موضوع البحث غير معروف لديهم . لكن الصبي لم يكف البحث عن أمه . بل أراد ان يذهب مع اول جماعة تم ارسالها الى مزرعة ، ليكتسب مالا ، ويغدو حرا ، وعندئذ يمضي ليجد أمه .

حين جاء موعد الوداع . قضى خمسة عشر دقيقة متعلقا برقبة رئيسة الممرضات باكيا ، ثم طرق باب حجرتي ، وألقى بنفسه على كتفي باكيا ولعابه يغمرني . وشعرنا بالأسف من اجله واخبرناه انه ليس مجبرا على الرحيل . لكن بيلا ما كان ليبقى . مضى دامعا باكيا كطفل يفتش عن أمه .
قبل انقضاء شهرين ، أعيد من مزرعة الدولة الى ليبوتميزو باعتباره من الحالات «الميتوس منها» و«العدوانية» .



هل هذا هو الصرع ؟ اجل ، ولكن هكذا ايضا كان نقيضه .

لم يكن لدى بيتر وولف العجوز البالغ من العمر اربعة وأربعين عاما مثلا ، اي اثر للشفقة او الطفولة او العاطفية . كان سيء الخلق ، جافا يصعب الاقتراب منه . نادرا ما يتحدث مع المرضى الآخرين ، ويفضل العمل بمفرده . ويعود اكتبابه بصورة جزئية الى انه أصيب بأول نوبات الصرع في سن كبيرة . فلم يتأثر عقله ، بل كان على وعي بمرضه ، الامر الذي عذبه . واستمر الاكتئاب حتى بعد ان قلت عدد النوبات بفضل العلاج ، بل واختفت فيما بعد تماما . كان من الصعب ايجاد تفسير معقول لحالته المزاجية .

وعلى عكس معظم مرضى الصرع الآخرين ، لم يكن بيتر وولف طيبا مع اي مخلوق . لم يكن يحب احدا او يبالي بمخلوق . لم يكن يضايقه سوى ولع ماري ويلدر الجميلة المرححة به . لكنه لم يعبا بها . كان يسرق الأغصان من الجيران فيصنع منها سلالا ، ثم يبيعها الى الجيران ثانية . وحين تضجروا من سرقاته وحاولوا ابعاده ، انتابه الغضب ، وكان هو الذي أجلاهم في النهاية ، وان لم يحسن ذلك من طباعه . فحاول الانتحار مرات عديدة وكاد ان ينجح تقريبا .
وشفي بعد ثمانية عشر شهرا وتم تخريجه . شفي من الصرع ولكن كآبته استمرت . لم يكن من أولئك الذين وجدوا الجرائح بمثابة مأوى لهم . لقد رفض المجتمع المصنوع ، والقفص المموه ، ومضى الى منزله ظنا منه انه واجد المأوى في بيئته الحقيقية . بيد ان هذا لم يحدث . ولا ريب ان بيته الحقيقي

اعتبره غريبا ، اكثر من واقع الامر في الجرائح . وخشيت أن ينتحر .
(لم ينتحر . لكنني قابلته بعد ستة اشهر في مصحة عقلية اخرى . لم
يتعرف عليّ ، وتعرفت فيه بصعوبة على هذا الرجل الذي كان بادي الذكاء .
كان ممثلا عن آخره بجرعات البريترات ، يقف متخشا في مكان واحد . لم
يستطع تذكر الجرائح ، واكتفى بالشكوى في لغة بدئية . هذا هو الاثر المفيد
«للعلاج المسكن» الذي «يهدئ من قلق المرضى») .

ولم يتشابه لوكاس العجوز مع وولف او الآخرين . لم يكن صغير العقل او
جافا ، لا منافقا ولا طيبا ولا شريرا . مجرد فلاح عجوز يعمل في الحقول بمهارة
واخلاص . تستوي لديه في ذلك كل الحقول . كان لوكاس العجوز عاشقا لامنا
الارض ، كالفلاح بطل احدى الروايات . فاذا دعت الارض ، فلا شيء يعسوق
جسده الذي انهكه العمل . داهمه التبدل في بطنه ولكن بخطى حثيثة ، ففارقه
ذكاؤه وذكرته ، وأن احتفظ ذهنه بكل ما يتعلق بالزراعة وكأنه كان يدرك ضرورة
الاقتصاد في ذكائه الذي لم يعد يصلح للكثير ، فأثر الا يفكر في شيء سوى
الارض . لم يكن يتحدث مع المرضى الآخرين ، وفي غير حاجة الى اللهو . فاذا
تفوه بشيء ، فهو مفعم بالارادة الطيبة ، والشفقة ، خلو من شائبة النفاق
«الصرعي» . كان من مرضى الصرع القلائل الذين يسفرون عن تواضع حقيقي.
كان مخلوقا راضيا وسط الساخطين الى الابد .

وكان اليكس بيتروت ، وهو مريض آخر بالصرع ، يضيف على النزل جوا من
الجلبة لعدة ايام حين تدهمه نوبة من الصرع في اثر اخرى . أصيب ذات مرة
بسلسلة من سبعة عشر نوبة . كان يسقط بعنف شديد يجعل الحفاظ عليه مهمة
صعبة بالنسبة لثلاثة رجال . ولحسن الحظ كان بقية المرضى متفهمين ومتعاطفين
معه ، وكان يقف على حراسة سريره لساعات رجل قوي البنية وان كان فصاميا
مختلا تماما ويعاون المرضى في تهدئته حين تعاوده النوبة .

ولرب معتقد ان مثل هذه النوبات المتتالية التي تبهط المرضى الرجال من
شأنها ان تهد كيانه . ولكن ابدا . فحالما يستعيد اليكس نفسه ، كان يهبط من
سريره ، ويتناول طعامه بشهية مفتوحة ، ثم يتجه صوب الحديقة ويعمل بجهد
شديد كأنه لم يتعرض لنوبة قط . او كان يشرع في الرقص دون ان يشعر
بالتعب .

لكنه لم يكن يعمل الا اذا واثته الرغبة . فاذا ركب في رأسه ان هذا هو موعد
الانصراف ، فلا رجعة عن ذلك . «في وسعي أن أعمل بالمنزل» هكذا كان يقول في
عناد . ولم يكن من المفيد مناقشته لانه يفقد أعصابه بسهولة ، وعندئذ لا يضع
اعتبارا لاي شيء . كان يهاجم كالديك المقاتل .

ودبرنا أن نضع حدا لنوباته ، حتى يصبح في وسعنا أن نحقق رغبته وندعه
يعود لمنزله . ولا ريب انه سينخرط في بضعة مشاجرات في قريته ، لكن هذا
يحدث «للأسوياء» ايضا . والواقع ان لجو الجرائح الفضل في وقف النوبات .

فسرعان ما تخلص المرضى الذين كانت تنتابهم النوبات يوميا في الغالب قبل وصولهم ، من نوباتهم مع العلاج الخفيف او بدون علاج على الاطلاق . وذكر والدنا امرأة مريضة بالصرع ، وضعيفة العقل ، ان سيدة عجوزا افزعت المريضة وهي في الرابعة من عمرها بمكنسة ، ومنذ ذلك الحين تصاب بالاغماء يوميا فسي الغالب . وبدا ان مكنسة العجوز السحرية ليست بذات اثر في الجرانج . كانوا في المنزل يبهظون المريضة بالعقاقير ، اما هنا فانها تتعاطى حبتين عديمتي الضرر يوميا ويكفي «الجو» ليخلصها من النوبات . اما ضعفها العقلي فلا يمكن علاجه بالطبع .

ثم كان هناك فيري صانعة الدانتيل . كانت ابنة اسرة من المثقفين التحقت بالمدرسة وتعلمت ضربا فريدا من فن صناعة المخرمات . لم تكن غبية قط ولكنها محدودة جدا ، ذلك انها كانت مرحلة فعلا ، وماهرة ، وان انحصرت افكارها في مساحة محدودة جدا . ووفقا لاحصائيات اخيها . كانت تصاب بالنوبة عشرون مرة في الشهر ، ناهيك عن حالات الرخاوة التي كانت تستمر بضعة ثواني ، تضرب أثناءها يديها بلا معنى ، وتزوغ عينها ، ولكن دون تشنجات . ولم تكن تشعر بحالات الفيوبة هذه ، ولكنها كانت تكتشف فيما بعد انها فقدت ابنة الكروشييه او اخطأت في شغل الابرة . ويجعلها هذا تشك في انها مريضة .

كان يصعب احتمال فيري المسكينة . كانت فتاة عجوز نقافة تدين العالم في استهزاء على سخافاته ، وتختص بالسخط اخيها المهندس . او «السيد الفني» كما كانت تسميه تهكما . كانت تدعوه في خطابات «الاخ المبجل» وتشعر بالمرارة لمحاولته التخلص منها . ولكن كل من يعرف اخلاق فيري التي لا تحتمل لا تنتابه الدهشة لان السيد الفني حاول التملص من قبضتها .

كانت تكره الممرضات ، وتسمي ممرض النوبتجية الليلية «الذكر الفحل» ، والممرضات «الجلقات ذوات الجلايب الزرقاء» وان لم تجانب بذلك الحقيقة . وكان ينتابها السخط حين يرقص الآخرون . فهناك دائما احدى المحاضرات الطبية او العلمية المبسطة في الراديو في نفس موعد الموسيقى الراقصة ، وهي تفضل بلا شك الاستماع اليها ، لم تكن تعباً قط بحقوق الاغلبية ، وهكذا ، فحين تخسر المعركة ، كانت تنفجر بالفضب . وطالبنا الاخ «الفني» بتزويد أخته براديو حتى تتمكن من سماع ما شاءت من البرامج . وبدا كان هذا هو غاية ما تمناه . وحين تكون وحيدة في غرفتها ، كانت تدير الراديو احيانا ، فاذا دخل اي شخص آخر اغلقته ، فهي غير مهينة لتقديم التسلية المجانية . وفوق كل هذا كانت شديدة التدين .

لم تحدث العشرين نوبة الموعودة . وفي البداية لم تحدث حتى حالات الرخاوة . ولكنها عانت فيما بعد من اختلال الشعور من وقت لآخر . ولا يستطيع المرء ان يتقصى السبب بعامة . ربما لم يعجبها خطاب اخيها الفني الاخير او ربما لا يجد احدا الوقت لتشاغب معه . ولكن حينما كنت اجد الوقت المتوفر للاعب

فيري الضامة، فلا حاجة بها للعقاقير . هكذا كانت تقول فيري نفسها . وهي على صواب . وحين كانت رئيسة الممرضات تنزل بها الى شقتنا ، ويجلسان سويا يشترطان الإبرة لمدة ساعة او ساعتين فقد كان هذا يعادل اسبوعا من العلاج . ولكن حين كنا في اجازة لمدة اسبوعين ، أصيبت فيري بالنوبات ثلاث مرات يوميا . وحين عدنا اختفت النوبات .

وأوضح ذلك ان لعب الضامة واجب لا يقل أهمية بالنسبة للطبيب ممن الشطرنج او البينج بونج . فهذه جميعا وسائل علاجية جادة ، مهما أضجرت الطبيب . ويجب ان نوجه بعض التفكير الى اسباب حدوث النوبات الصرعية . صحيح ان نوبات لوكاس العجوز وفنسنست العجوز كانت تمر كالبرق فسي السماء الصافية . وقد يكون هذا ايضا واقع الامر بالنسبة لبيل فليب، وشامبي، وجون صانع السلال ، وستيف كوبلر المتلعثم . ولكن كانت لا تنتاب النوبات الاغلبية المكونة من اربعة عشر مريضا بالصرع الا حين يوجد المثير . (ومن الممكن ان ينطبق ذلك على الآخرين ايضا ، ولكننا لم نكن نعرف المثير) دستوفسكي ايضا ، كانت تدهامه النوبات دائما عقب خسارته في الروليت . ولكن ماذا يستطيع المرء ان يقول عن صرع ايوري فورستر ؟ كان مستعدا لارتكاب اي شر ، ولاجتناب العمل ، ولم يكن هذا الوغد يتصنع النوبات ، استنادا الى سجله الطبي القديم الذي يؤكد اصابته بنوبات صرعية «نمطية» ، ولكن كان ما ينتابه فسي الجرائح أبعد ما يكون عن النوبة الحقيقية . ما الذي كان يصنعه ؟ كان يتبطل عن العمل ، ويجلس في احد الاركان وقد بدا عليه الاستياء يشكو آلاما في قلبه ، ويحرص الآخرين على اثارة المتاعب (شأن صديق قلبه رادار) ، ويهرب الى القرية ويعود مخمورا ، فيطلق بذاءاته ، وبغفة يفيض على صدره ويفتح فمه ، ويترنج ، ملقيا بنفسه في مهارة على الارض ويشرع في الضرب بذراعيه . كانت هذه هي نوبته «الصرعية» . ووعده فيما بعد بتواضع ان يتحسن ، فاشتغل قليلا بضعة ايام ، ثم عاد الى سابق عهده من جديد . كان شديد الوله ، يكاد يذوب حبا ، ويكتب خطابات غرامية ، ويعد بالزواج ، ويرسل صوراً مقدسة . وليس هناك ما يدعو للدهشة اذا قلت انه صديق رادار الذي كان موضوعا لتجربة «العلاج الجنسي» . كان يقدو اكثر هدوءا واسهل احتمالا بالتأكد حين يجد شريكا في الحب . بل في مثل هذه المناسبات يصبح عطوفا احيانا . ولم يكن في وسع احد بأن يتحسن بمثل هذه الثقة كما كان يفعل . بيد انه كان متبطلا لا فائدة ترجى منه ، يجد ذريعتيه في نوباته الصرعية ، كانت نوباته هي المهرب الاخير ممن العمل .

نمطية ام غير نمطية ... من المؤكد ان نوبته ليست نمطية ، ولكن اتجاهه الكلي المناق الفاسد المتبطل كان كذلك . ولكن على نمط ماذا ؟ ليس على نمط الصرع بالتأكيد ، والا فبماذا نسمي لوكاس العجوز او فنسنست العجوز وفيري وجون صانع السلال والآخرين في هذه الحالة ؟ ولكن يبدو ان كلمة الصرع تطلق ايضا

على مجموعة صغيرة من ضعاف العقول بدرجة او بأخرى ممن يولدون متبطلين ومعادين للمجتمع . وأكدت خبرة الجرانج انه حتى في وسع هؤلاء ان يصبحوا عمالا مجدين اذا بدأت عملية اعادة التعليم لديهم مبكرة بما فيه الكفاية - وان لم يصدق هذا على كل الحالات . لقد كف باتيولا ، ضعيف العقل الشاب ، عن نوباته وسوء خلقه عقب بعض التهريج المبدي واشتغل بصورة ملحوظة لفترة وبذلنا جهدا عظيما كي ننأى بليزلي بانيوز عن تأثير ايمري فورستر الضار ، فعاد اخيرا الى منزله وقد استحال الى عامل مجدر . لكن هذا بشكل عام كان جهدا مشكورا وبيعت على القنوط ، نظرا لتزايد عدد حالات الفشل عن حالات النجاح بين هؤلاء المرضى بالصرع من الفتوات او المتبطلين ، حتى لو نجحنا في تحقيق بعض التحسن المؤقت معهم في الجرانج . تم تحويل سبعة من المرضى بالصرع الى مزرعة الدولة تحت الاختبار ، وفشلوا جميعا . مع اننا لم نرسل اسواهم بل أولئك الذين عملوا معناه، الواقع ان التعامل مع المرضى بالصرع اكثر مشقة من التعامل مع الفصامين . لم يكن هناك خطأ حقيقي في بعضهم باستثناء انهم متبطلين عتيدين . لم يصب ستيف ذو السنة الواحدة الا بخمسة نوبات على مدار عامين ، ولكن لا العلاج الجنسي ولا العلاج بالعمل استطاعا كفه عن التبتل . ولم يكن أروين جولد شتين يشكو من شيء سوى رغبته عن العمل . كان من الصعب مسابرة فهو كثير المطالب ، متعجرف ، وفي نفس الوقت متملق ومنافق . ويا لكمية الشكاوي والامراض التي يستطيع ان يفكر فيها ! كيف يمكنه العمل بمثل هذه البنية ...؟ وحين كان يضيق بقية المرضى بوقاحته ، يجد ملاذه في احدى النوبات ، ولكن حتى الممرضات الحديثات غير المجريات كن لا يصدقن قط ان تشنجاته الصرعية حقيقية . وهرب اخيرا من الجرانج لانه سأم استمرار حثه على العمل ، ولعله يحكي الان في مصحة انجيا لفولد قصصا ما أنزل بها من سلطان عن قسوتها .. ايوجين دافت ، مرعب جميع المستشفيات بالمدينة ، جبل في شكل رجل ، يجيد خمسة حرف ويرفض مزاوله اي منهم . الرجل الذي لا يصنع شيئا سوى الادعاء والشكوى انه متفوق في كل شيء ، ويستطيع أن يبدع أشياء رائعة ، وسوف يثبت ذلك لنا لو لم .. لو لم يكن على هذا القدر من الضعف الذي يمكنه بالكاد من الوقوف على قدميه . ما أسرع ما يحتاج الى حقنة ، فهو يشعر بالمرض . العلاج بالعمل في مؤسسة ؟ يا لها من فكرة أن يحضروه الى هنا . هو الذي تبين للاستاذ س كبير الاطباء في ص ، وللاستاذ ع أن مرضه العضوي لا يمكنه من العمل . هو لم يعمل بالتأكد - ولن يعمل . بعد يومين غادرنا ساخطا . اما جون سمول القصير النظر فكان شخصية اكثر غرابة .

ويبدو ان الصرع لا يعوق مثل هذا النوع من العمل . اما الان فيكتفي بالتفاخر بنفسه ، ويسب جميع المخلوقات ، وكل الاشياء وبشر المتاعب . وتنتابه ايضا الرؤى الدينية ، اذ يتراءى له الرب يسوع شخصا في كل مجده . من الواضح انه يدعي كل هذا ليعتذر بالطبع عن تبطله ، فرغم كل شيء لا يتوقع المرء عملا

يدويا تافها من شخص تطهرت نفسه عن طريق الرب القوي في الجسد .

وتؤكد حالة مارجريت التترية اي خليط من الخير والشر عليه البشر .
اصيبت هذه الفتاة التسعة بالالتهاب السحائي في سن الخامسة ، فخلفها مريضة بالصرع والضعف العقلي . كانت تتملق كل انسان كقطعة تتمسح . وان هي الا دقيقة حتى تسفر عن كراهيتها وتحطم كل ما تقع يدها عليه . كانت تلقي الاغطية من النافذة ، وتفرغ امعاءها في الممر ، وتتكلم في قحة . ربما كانت مضطربة لانها تدرك حالتها المحزنة ، وتريد ان تصب جام غضبها على هذا الظلم .

ولكن لماذا يتصرف ديسيدر واندرر على هذا النحو ، او ما هو اسوأ ؟ كان مراهقا في السابعة عشر من عمره ، لم يصب بالالتهاب السحائي ، ولم يكن متأخرا عقليا على نحو يضع بين يديه سببا وجيها للسخط على العالم . يأس والداه من سرقاته المتكررة ومجادلاته . كان يتحدى الصبية الاقوى منه ثم يحتمي في جبن خلف نوباته الصغيرة المصطنعة المثيرة للاشفاق . فكان يخبط ويلهث ويلقسي بنفسه . لم يكن تصنع فعلي ، بل هروب هستيري عن طريق المرض . لكن هذا الاتجاه من المعارضة وعدم الرضى ، من كثرة المطالب والعجرفة يميز المريض بالصرع .

اما شارلي درل الذي يشبه الخنزير ، فكان يلتهم في شغف كل انواع المواد المعدنية - من ملاعق ودبابيس ومسامير وادوات صغيرة . ابتلع مثقابا فسي الجرانج . ولكن قبل ذلك ، تمكن من ان يشيع في المنزل حالة من الرعب بمسلكه الوحشي . كان أشبه بطفل عملاق ، وكانت اندفاعاته العدوانية بمثابة صورة مزعجة ، لأولئك الذين لا يعرفون عقليته الطفلة . وكان شارلي درل يلثغ ، ولا تفهم كلامه الا بصعوبة ، ويتلجلج ويخلط حديثه بكلمات لا وجود لها . لم تنتابه في الجرانج اي تشنجات صرعية وانما العديد من نوبات الغضب . كان مهتاجا دائما ابدا . يتكلم ويتملق ويتزلف ويتشاجر ويصرخ ويحطم النوافذ ويهاجم الناس ، ثم يتراجع بصورة طفولية ويعد بأن يصبح طيبا . وان هي الا دقائق حتى تتردد في الحديقة صرخات الحرب التي يطلقها من جديد . كان في الامكان ترويضه واستبقائه في حالة من الهدوء النسبي فيما لو اهتم به المرء على نحو مستمر ، لكن نظرا لاستحالة تزويده بممرضة خاصة طيلة الوقت ، فكانت مشاكله تترى واحدة تلو الاخرى .

في اليوم الثالث من اقامته بالجرانج ، اقترب مني وقد ارتسمت على وجهه نظرة فزع .

«من فضلك يا دكتور اجر لي عملية» وانتزع قميصه كاشفا عن معدته .

«عملية ؟ لماذا ؟»

«لقد ابتلعت مثقابا ...»

هرعت الى الورشة ، فوجدت العم هوف ، معلم المعلمين ، يصرخ بأعلى ما

في وسعه :

«كومة البراز ، هذا القدر ، تسلك الى هنا في هدوء ، وحين استدرت ، ابتلع أحسن مثاقبي . دعوه يدخل هنا مرة أخرى ، وسوف يرى ما سيحدث له . أجدر به ان يبتلع شوكة مدنسة ... او يلتحق بالسيرك ويفدو بالعا للسيوف ! »

كيف استطاع شارلي ابتلاع مثقاب طوله اربعة بوصات ، هو وحده يعلم . اما الان فقد بدا مدعورا ، وفي غاية البراءة كمن لا يستطيع ابتلاع مجرد دبوس . ازدريته وحولت له ظهري :
« ما دميت قد ابتلعت ، أتمنى لك حظا طيبا » .

وأوصيت الآخرين ألا يعيروا ابتلاعه المثقاب أهمية حتى لا يزيدوا من شعوره الخفي بالانتصار ، كان يرجو ان يجعل من نفسه محظا للاهتمام .
ارسلناه رغم هذا الى المستشفى ليفحص بالاشعة . اذا صح انه ابتلع المثقاب حقا ، فهذا امر لا يدعو الى السخرية . وظهر المثقاب في أمعائه بوضوح بالاضافة الى دبوسين ابتلعهما في المستشفى لان الفحوص الطبية « اثارَت أعصابه » . ولقد اثار بدوره أعصاب القائمين على المستشفى لدرجة جعلت الجراح يعلن : مثقاب او لا مثقاب فلن يحتمل شارلي في عنبره دقيقة أخرى . لم اندهش ، ولكنني بالاحرى فزعت حين طلبت عربة اسعاف لترسله الى عنبر مرضى العقول في مستشفى المقاطعة حيث تتوفر الاشعة والجراحة ، فاذا بالمدير (لا . هذا كلام فارغ) يخطرني انه لا توجد ميزانية مخصصة لنقل المرضى . وما دمنا مكننا شارلي من ابتلاع المثقاب فيجب ان نرقب وننتظر ما سوف يحدث لنا . ولكن ماذا لو ثقت معدته ؟ حسنا يا الهي ، الامر كله يدعو للجنون ...

لم يكن أمانا سوى ان نستعيد شارلي بالمثقاب والدبوسين في معدته . وظللنا يومين نراقب جميعا حركة أمعائه في اضطراب . لقد كان القدر طيبا مع الجرائح . ففي اليوم الثالث ظهر المثقاب عن طريقه الطبيعي . واعدناه الى العم هوف الذي كان لا يزال غاضبا . وهذا اولد ويندي ايضا ، لا شيء منقوص من العهدة الان . ولم نكثر كثيرا للدبوسين - فهما ليسا واردان في كشف (العهدة) . ولكننا لننا كفايتنا من شارلي وشهيته الغريبة فوضعناه في قطار واعدناه الى ليوتميزو . وهناك اضاف بضعة مسامير ويد ملعقة الى الدبابيس ، فأرسلوه من ثم الى مستشفى جانوس حيث الجراحة ميسرة .
و حين أعيد الى ليوتميزو قابلته هناك . طالب بالسماح له بالعودة الى الجرائح (يبدو انه ذواقا بالنسبة للمثاقيب ...) ولكنني كنت كالحجر الصلد .



لا يقاوم بعض مرضى الصرع العمل على هذا النحو المحدد . فكثيرا ما كانت النوبات غير المتصنعة تعوق جون صانع السلال ، مثلا ، ولكنه كان رجلا مثابرا

حقا ، ويعتبر بمثابة العمود الفقري لورشة صناعة السلال او شارلي صانع الاحذية ، وشريك الممرضة اياما المفضل في الرقص . افلحنا في وقف نوباته المتكررة ، واعدناه الى منزله بعد ان تحسن ، لكن لم يستطع والداه احتمالاه اكثر من اسبوع . وتسببا بسهولة في اصابته بنوبة جديدة ، واعاداه الى ليوبتيميزو . وطالب عدة شهور بالعودة الى الجرانج . وأشعره اعاده ايداعه (الجرانج) بالسعادة .

وكان انتوني الزنديق يريد ان يصبح راهبا واختير اخا من الدرجة الثالثة ، لكنه لم يستطع الاستمرار في الرهينة بسبب نوباته المتكررة . وكان هذا الرجل الضخم جم التقوى ، فهو يعلق حول رقبته ايقونة مقدسة ، ويضع دواؤه على الصليب اولا ولا يتناوله الا بعد ذلك ، كي يجعله اكثر فائدة ، ويغمغم بالصلوات طيلة الوقت . وفي شبابه ، درس فلاحا البساتين ، ويعتبر الان ذو فائدة عظمى لمزرعتنا . وكانت اخته راهبة .

ولقد جاءت ايرما سلندر المتعددة الخطأب ايضا من عائلة قساوسة وراهبات ، رغم انها لم تكن تعيش في حياة القداسة الشديدة (وكذلك أسرته فيما اعتقد ، ايضا ...) . كانت شخصية مرموقة ، وعروس اولد تينانت ، وكانت هي التي اجرى معها ايمري تجارب العلاج الجنسي . وكانت الوحيدة من مرضانا التي اجريت لها عملية اجهاض على مر السنوات الثلاثة لمؤسستنا .

لم يكن قد انقضى على وجودنا بالجرانج سوى اشهر قلائل ، حين اجريت هذه العملية الدقيقة . وحين عادت ايرما من عنبر الولادة ، بدت اكثر نحافة عن ذي قبل ، لقد انهكتها العملية . وانهكتني انا ايضا ، كنت أدرك كم سيثرثر زملائي المخلصين ويخوضون في هذا الاجهاض . كما ترون - كل هذا بسبب هذه الحرية الزائدة . ما الذي سوف يحدث فيما لو تهدد منهجنا المتحرر عملية اجهاض شهريا ؟

بصراحة ، لم نفعل شيئا لتحاشي الامر . خضعت لحكم القدر - ونكاية في المنافقين ، شاء القدر الا تقع اية حوادث سعيدة اخرى في الاعوام التالية . فاذا وقعت حادثة او اثنين بعد هذه الفترة القانونية (ولماذا لا تقع ؟) فلن نأبه للامر طويلا .

لقد عادت ايرما اذن اشد نحافة عن ذي قبل . كانت تدرك ان الجميع يعرفون عارها ، وحتى وان لم يفصحوا عن ذلك . (مجتمع المرضى يشبه في هذا مجتمع الاسوياء من الناس ، يتقبلون الحب ولكن يحتقرون نتائجه) وصعب مراسها في البداية . فكانت تتمشى جيئة وذهابا وقد ارتسم الغم على وجهها ولا تزاول عملا وتتشاجر ثلاث مرات يوميا بصوت مرتفع يمكن سماعه في كافة ارجاء المنزل . وتكرر ضروبا من السلوك الهستيري . وفكرنا مليا كيف نهدئها ولكن قبل ان نكتشف الوسيلة ، عادت الى وداعتها من تلقاء نفسها . وخلال فترة النقاهة ، لم تزاول العمل وانما جعلت تقضي اليوم بأكمله في حجرة النوبتجية مقصية تحت

أقدام السيدة الاولى . كانت ترتق ، او تحيك او لا تصنع شيئاً . فاذا خرجت السيدة الاولى لشأن من الشئون ، انتظرتها ايرما في ولاء . غدت بمثابة مراسال، وهذا طبعها الحاد الميال للشجار ، وردد المنزل ضحكاتها . كان لديها نوع غريب من الكتمان ، فكانت تخفي مشاعرها دائماً ، ولم تكن تنادي السيدة الاولى بماما شأن الاخريات ، بل بالأم . ولم يتبدل حالها حين وقعت ثانية في الحب بعد ستة اشهر . ولقد لاحظنا ذلك حين ذهبت طواعية الى الحديقة وعملت فيها دون كلل، كي تبقى على مقربة من ميكي القزم . (بدت الفتاة الطويلة النحيفة ، والصبسي الناقص النمو غاية في الغرابة جنباً الى جنب) . وثابرت فيما بعد على الجلوس في الورشة امام ماكينة الخياطة ، الامر الذي كشف عن تحول مشاعرها نحو الخياط السكير . كانت تغير محل عملها كل ستة شهور ، ولكن والحق يقال لم تكن تبحث عن صديق جديد الا بعد ان يفادر القديم المؤسسة .

وجعلها حبها الاخير محط الاهتمام من جديد . لم يكن ثمة خطأ في ذوق اولد تيننت حين اختار هذه الشابة الصغيرة نسبياً ذات الملامح الطيبة عروساً له . لقد كان قوام ايرما المنتصب ، وقدها الجميل ، وشعرها الطويل المضمون في شينيون ، وعيناها الزرقاوان وملابسها التي تنم عن ذوق ، يشفون لاهمالها نظافتها الامر الذي عجزنا عن اصلاحه . ويبدو ان الرجال لا يابهون لذلك . كانت قصة حب تكتنفها المصاعب . كان والد ايرما حارساً متقاعداً فسي السكة الحديد ربى اولاده الاثني عشر على التعاليم الصارمة للدين الكاثوليكي . وكما هو معهود في الاسرة الصرعية . كان ثمة قساوسة وراهبات من بين الاثني عشر ابناً . وكان من المستحيل الان بالنسبة لايرما نفسها ان تضم أسرة الاكليروس المتعصبة هذه يهودياً بين ظهرانيها . ولكنها من ناحية اخرى ، احترمت الزراعي الفخور الثرثار ، لان السيد المهذب سيد مهذب لا في الجحيم فحسب بل وفي المصحة ايضاً . وهو ايضاً اول رجل على سطح الارض يطلب يد ايرما . وهذا امر يختلف من كافة نواحيه عن مجرد الحب . وسرعان ما ادركت ايرما انه سواء كان يهودياً ام لا فلن تجد ما هو افضل نظيراً . صحيح ان اولد تيننت كان مسناً بالنسبة لها ولكن في وسعها ان تتغاضى عن سنة مقابل «الحياة الحقيقية» التي يعدها بها .

لم اكن راضياً تماماً عن فكرة الزواج ، لكن من الذي يقف في وجه «الشباب» . حسناً ، المستقبل كفيل بأن يقرر ما اذا كنا سنرقد في زمان تيننت . في تلك الاثناء ، حصل اولد تيننت على وظيفة في مزرعة الدولة . وجعل يزور عروسه بوازع من الضمير الحي ، ويخططان للمستقبل . لكنهما وقعا في خطأ فاحش . لقد كانا صريحين . (وهذا سبب تعثر اولد تيننت في الحياة. .) . واخبرنا والذي ايرما بالانباء الطيبة ، وعندئذ حدث ما يدعو للعجب . ارسل لي الوالد العجوز الذي يناهز من العمر ستة وسبعون عاماً خطاباً خاصاً ، كما ارسلت لي الأم خطاباً منفصلاً ، ثم ظهر الوالد شخصياً ، متوكأً على عصي مستنداً

الى احدى بناته ، يتلوها أختين - راهبتين . لقد حضرت هذه الزفة بأكملها
تطالبني بوقف الزواج . لم أر قط ما هو اكثر عذوبة واكثر تركيزا من الحقد الذي
نفثته هذه الجماعة المتدينة . لم يعد لهم سوى هدف واحد - اغراق قريبتهم
المريضة في الماء ، او اعدامها ، او ايداعها احدى المصححات العقلية مدى الحياة .
وكل هذا من قبيل **الفن للفن** ، اذ ان استمرار ايداع ايرما بإحدى المصححات
العقلية لن يعود عليهم بأي فائدة . ولكن نظرا لانها جلبت العار على العائلة المقدسة
بمرضها بالصرع ، فلتبق في السجن الى المنتهى .

وتسابت الاسرة تروي قصة الرعب . لقد خربت ايرما والدها العجوز ،
ايرما مزقت ملابس أخواتها ، ايرما تحطم كل شيء ، ولا تعمل ، وتصاب بنوبات
الصرع طيلة الوقت ... من المحتمل ان هذا كان صحيحا في احد الاوقات ،
فالسجلات الطبية وكذا تصرفات ايرما لا يدعان مجالا للشك في انها لم تكن دائما
على مثل هذه الحال الطبية . ولذلك لم تنتابني الدهشة ، وأنا أرقب العائلة
المقدسة يكاد يخنقها الغضب والحقد . وعلموا ، والمقت يتبدى عليهم ان
ايرما لم تعد تصاب مؤخرا الا بنوبة واحدة كل ثلاثة شهور ، قلت فيما بعد ،
فأصبحت لا تحدث الا حين يقع ما يؤثر على توازنها العقلي ، وانها ولذلك لا
تتعاطى ادوية الا فيما ندر . (لم أجرو على اخبار الراهبات بموضوع العلاج
الجنسي) كيف يخطر على بال احد الزواج من أختهم المريضة لا يمكن ان يكون
شخصا شريفا بالتأكيد ، انه يريد استغلال الفتاة المسكينة فحسب . يستغلها
بالتزويج منها ، كيف ؟ هكذا سألتهم فغمغمت العائلة المقدسة وممررت . لا بد انه
منحرف ... السنا نعلم انه يهودي

ولم تغفل العائلة المقدسة التأكيد ، بكلمات معسولة ، على انني مسئول بالطبع
عن كل شيء .. اذا كنت أشعر ان الفتاة بمثابة عبء ، فهم مستعدون لايداعها
مؤسسة أخرى ، خلف ابواب مستشفى المقاطعة المفلقة فالامر بالنسبة لهم سواء.
لكنه لم يكن سواء بالنسبة لايرما او بالنسبة لي . أخبرتهم ان ايرما قد شفيت ،
وانها تعمل بجد ، وانها ليست خطرة ، او مجنونة - بل في وسعها ان تعود الى
منزلها آمنة . لا ، لا صرخت العائلة المقدسة مرتعبة . الا هذا ! اما الى مستشفى
المقاطعة او الى قاع الجحيم ، اما المنزل فلا . حسنا ، لماذا لا تسمحون اذن
للزراعي الماهر بإصطحابها الى منزله ؟ كلا ، والف كلا ! وسط هذا الكورال
العائلي الساخط ، كانت ايرما هي الوحيدة التي تصرف في اتران .

حتى ذلك الوقت كنت أعارض الزواج ، لكن أغضبتني خسة هذه الاسرة ،
فلندعهما يتزوجان . فلقد حصل أولد تبنت على وظيفة ، وسوف احصل لايرما
على الاخرى ، وعندئذ في وسع هذين الشخصين البالغين الحرين ان يتزوجا .
من الذي يستطيع ان يعترض ؟

ولكن لم أشبع شوقي الى الانتقام . فبعد ان وفرت الوظيفة لايرما وبقي عليها
ان تغادرنا ، قالت لا دون سابق توقع . هل أقنعتها الاسرة ؟ لقد تعللت بهم ،

ولكن كان هذا مجرد تعلقة . الواقع انها خشيت من ملاقة العالم . انها سعيدة هنا، وتشعر بالامان ، خشيت الزواج ، والعمل المسئول ، ومتاعب تدبير المنزل - وما لا تدريه الا السماء . فقالت انها لن ترحل . وكتبت خطابا الى اولد تيننت انهت علاقتهما . وتنفست الصعداء وبقيت سعيدة في الجرانج .



هذا الصرع ، وهذا ما عليه مرضاه . انه ضرب غريب من المرض ، لقد ظل هذا المرض المقدس يثير الرهبة والفزع منذ بداية الزمن . والناس يطلقون عليه مرض القلب ، رغم ان لا علاقة له بالقلب - اللهم الا ان بعض مرضى الصرع يضعون ايديهم على قلوبهم بصورة قهرية قبل الاغماء . ويجب مرضى الصرع الزعم بانهم يعانون «فحسب» من مرض القلب، فهذا اقل ايلاما من الاعتراف بأن عقولهم ليست على ما يرام . ويشكو الصرعيون الهستيريون دائما من ضيق الصدر .

ثمة طبيب عقلي ايطالي من القرن الماضي ، اعاق تطور الطب العقلي بعدد من النظريات ذات الوقع ، اذاعت شهرته عالميا ، ألف كتابا عن العلاقة بين العبقرية، والجنون والجريمة . ليس من الصعب أن نخمن الاسم . سيزار لمبروزو Cesar Lambroso . لقد خلط العالم بالخيال ، واسبغ على افكاره العلمية نوعا من الخيال الشري الى درجة حجت ما تتضمنه من حقيقة ضئيلة . فأكد في كتابه «الرجال العباقر» ان جميع الرجال العظام قد عانوا من احد انواع الجنون . حسنا ، لا شك ان اغلب العباقره والموهوبين لديهم من السمات الغريبة ما يسهل بقليل من «النوايا الطيبة» اثبات جنونهم ، وتفردهم ، وعدم انسانياتهم . وهناك ايضا قلة من كبار الموهوبين أصيبوا فعلا بالجنون فلو أغفل لمبروزو احدهم ، فقد اكد ويلهيام لانج - ايخبادام Wilham - Eichbaum مؤخرا جنونهم . ولقد ارضى العلماء الاكثر تواضعا انفسهم حين قالوا ان مشكلة العبقريّة لا زالت تستعصي على الحل شأن مشكلة الجنون ، ولن تصبح المشكلة اشد بساطة اذا تحول العباقره الى مجانين .

لكن لمبروزو احصى حشدا من عظماء الرجال المصابين بالصرع الى درجة شككت في الامر كله . وصرع دستوفيسكي حقيقة معروفة ، وسجل التاريخ شيئا عن نوبات يوليوس قيصر ايضا ، وان لم يسجل الكثير . ولكن لا يوجد دليل على الاطلاق على صرع نابوليون المزعوم . الا ان لمبروزو لم يبخل على أسماء : شارل الخامس ، والقيصر بطرس الاكبر ، وریشيليو ، وبترارك ، ومولير ، وفلوبير ، وموسييه ، والفيري ، وباسكال ، وهاندال ، وباجاتيني ، ان هؤلاء هم اكثر الاسماء الملحوظة في قائمة مرضاه بالصرع . ويل لمن اصابهم الاغماء مرة واحدة في حياتهم ، او انتابتهم التقلصات او مجرد النسيان ، فهذا كاف لضمهم للقائمة . أما عديمي الانسانية فيصعب حصرهم .

وفي احد كتبه الاخرى اكد لمبروزو ان الذين يتهددون المجتمع ، كالمفتالين السياسيين والمتآمرين ، مرضى ايضا بالصرع . رغم انه عمم فروضه من حالات بالغة الضلالة ، الا انه ابتكر اسما جديدا - فأطلق على تدمير المجتمع اسم «الصرع السياسي» وبنى منطقته على قضية مؤداها .

الفوضويون مدمرون للمجتمع .

المدمرون للمجتمع مرضى بالصرع السياسي

اذن كل الفوضويين مرضى بالصرع .

وبالغا ما بلغ زيف هذا الاستبدال ، فهو يحمل في قلبه ذرة من الحقيقة . وعلى الرغم من ان لمبروزو كان عالما سطحيا ، وان لم يكن مدلسا . لا تصمد كل معطياته التاريخية أمام الفحص المتعمق ، ولكن يتبقى مع هذا ان هناك قدر كاف من الموهوبين والمجرمين بين مرضى الصرع (والعكس بالعكس ، عدد كاف من المرضى بالصرع بين العابرة والمجرمين) مما يدل على وجود علاقة ما . ولم يكن لمبروزو هو الوحيد الذي لاحظ ذلك . اذ لم يستطع علماء النفس المختصين بدراسة المجرمين ان يكونوا بمنجاة عن الميل الى تأكيد وجود عدد من مرضى الصرع بين المجرمين ، بل والمزيد من شبه الصرعيين - اي أولئك الذين لا يعانون من نوبات فعلية يفقدون فيها وعيهم ، لكن أسرهم تضم مرضى بالصرع ، ولديهم خلق صرعى ، فهم زنادقة شريرون ، ومدمرون متهورون ، ومحطمون منافقون للمجتمع ، ومتبطلون طفيليون ، وساخطون على الدوام ، والغريب في الامر ان أسرهم تضم في الغالب قساوسة او راهبات . وغالبا ما يكون احد افراد العائلة ممن يخافون الله ، متعصبا ومتدينا ، كأنما قصد ان يكفر أمام الله عما يرتكبه الآخرون في حق الانسانية . فاذا طبق المرء هذا البحث على القديسين والانبياء، لوصل الى نفس النتيجة ، فإما يجد القديس قد عاش فيما سبق حياة لا تتسم بالقداسة ، وإما يوجد بين أقاربه الآخرين مجرمين او مرضى بالصرع .

ان هذه الثنائية التي تعتبر سمة مميزة للأفراد شبه المصروعين او للعائلات شبه الصرعية ، هي الصراع القديم بين الخير والشر ، بين هيرموزو وأهريمان ، هي معاناة الروح بين الخير والشر ، تركة قابيل وهابيل .

ولا يبدو ان الخير والشر سمات مقصورة على مرضى الصرع . فالبشر جميعا طيبون وأشرار بالطبع ، والناس جميعا ذوي طباع . ولكن التناقض هو المشكلة الرئيسية لحياة مرضى الصرع الانفعالية .

هناك اذن بعض الحقيقة فيما قاله لمبروزو ، حينما لم يقصر الصرع على النوبات ، واعتبر الشخص الذي لم يصب بالنوبة مريضا بالصرع ، طالما يحكم شخصيته وعقليته هذا الصراع بين الخير والشر . الصرع مرض يصيب الشخصية الكلية (شأن الفصام) . ويتخذ الاسوياء موقفا من قابيل وهابيل ، فيقبلون قابيل او هابيل ، او يتقبلوا في الاغلب بضعة من كل منهما . وهذا ما لا يستطيع المريض بالصرع ان يفعله ، انه يحاول ان يكون هابيل كلية ، وحين يفشل هذا ، يتحول الى النقيض ويحاول ان يغدو قابيل كلية ، ولا ينجح في هذا ايضا ،

بالطبع . ومن هنا يتبدى السخط الأبدي ، والصراع ، والتدوين القهري ،
والقداسة الشديدة . وتأخذ هذه الثنائية شكل الحل الودي الناضج بطريقة او
بأخرى بين الاسوياء على حين يعجز المريض بالصرع عن تحقيق هذا التوازن .
ويجبره سخطه على سجن نفسه في قفص . ويحتج أحيانا على كون (القفص) مموه
بالذهب ، فليس في وسع الذهب ان يتلأأ بما فيه الكفاية أمامه .

اما لماذا تصاحبه التشنجات وفقدان الوعي ، فهذا سر لن يحل الا حين يصل
علم النفس البيولوجي الى مرحلة اشد تقدما . ولكن ليس من الصعوبة بمكان ان
ندرك أن التشنج الذي يصرع المريض بالصرع أرضا يزيد من احساسه بالمرارة .
ومن حقه ويزيد من عجزه الذي يدعو الى الاشفاق او من سعيه الذي لا يقاوم الى
الانتقام ، او كلاهما معا .

الفصل الرابع

الهستيريا وانيوراستينيا والعصاب

لعله كان من الواجب أن تسمى الهستيريا باسم بروتس Proteus ، بطل الميثولوجيا القديمة الذي كان في وسعه أن يبدل ملامحه حسب ارادته . ولقد تبدلت نظريات الهستيريا صوراً شتى شأن أعراض المرضى الهستيريين أنفسهم . وتباينت أسبابها وطبيعتها باختلاف المؤلفين الذين كتبوا عنها . بل مراراً ما يفشل الأطباء في اعتبارها مرضاً بقدر ما هي «مجرد هستيريا» . وتسميتها «مجرد هستيريا» دليل استخفاف ينطوي على أنها ليست أمراً خطيراً ، يستحق الخوض فيه .

ورغم هذا ، فالهستيريا امر خطير لا يجب الفص من شأنه . وراء الخلفية العلمية لهذا الاتجاه المستخف ، حقيقة مؤداها ان الفحوص الميكروسكوبية على أدمغة المرضى الهستيريين لم تكشف حتى الآن عن أي تغير باثولوجي . هل يعني هذا ان الاعراض الهستيرية تحدث في وجود جهاز عصبي سليم ؟ من الأفضل للمرء ان يتصور ان الهستيريا ليست نتاج تغيرات وظيفية في خلايا الدماغ ، او بعبارة أخرى لا يصاحبها أي تدهور في نمو او ضمور الخلايا ، أي لا يوجد تلف فيزيقي ، لكن تغدو ثمة عملية الهدم والبناء - العملية الكيميائية - في الخلية باثولوجية . وهذا يفسر سرعة ظهور الاعراض ، واختفائها العرض الكامل وتباينها الهائل .

ويعزو البعض المرض الى أخطاء التربية ، والى الآثار الضارة لخبرات

الطفولة ، والى التأثيرات البيئية غير المستحبة . ويتلمس الآخرون السبب في افتقاد الاشباع الجنسي ، نظرا لوجود الاضطرابات الجنسية لدى غالبية المرضى بالهستيريا . ويفسر الكثيرون الهستيريا - مقتفين أثر كوهنستم Kohnstamm وفرويد S. Freud - باعتبارها «هروب الى المرض» من قسوة الحياة ، على حين يرى آخرون ان الشيء الحاسم هو غلبة الدفوعات الانفعالية الاشد بدائية على الجانب الارادي والفكري الاكثر تطورا . ووفقا لهذا الرأي ، تصبح الهستيريا «استجابة بدائية» بالمعنى الذي استخدم فيه الكلمة لوبون G. Le bon وكرتشمير E. Kretachmer . ويرى شنيدر K. Schneider ان الدافع الى التفوق هو الذي يسبب الهستيريا . بينما يزعم ياسبرز K. Jaspers انها الرغبة في اظهار ما هو اكثر من الموجود ، او الرغبة في إيهار الآخرين وفقا لما يراه زوندي Lipot rzondi ووفقا لآراء بافلوف Pavlov في فيزيولوجيا الاعصاب ، تسيطر المراكز فوق اللحائية على اللحاء ، ولما كانت هذه المراكز العصبية فوق اللحائية هي التي تضم العناصر الانفعالية «الاكثر بدائية» فانها تعيق وظائف اللحاء العقلية .

ونظرا لوجود هذا العدد الكبير من وجهات النظر المتباينة (وهذه عينة فحسب من ركام النظريات) يشعر المرء بأنه مدعو للتمسك بوجهة نظره الخاصة في هذا المرض الذي يبعث على الجدل . وسوف تكون الكلمة الاخيرة لعلم فيزيولوجيا الاعصاب ، حين يتم اكتشاف العلاقة بين وظائف الجهاز العصبي وبين اعراض الهستيريا . وحتى ذلك الحين علينا ان نقنع بوصف ما نراه .
واننا نرى ان المرضى بالهستيريا بلا استثناء غريبو الاطوار لا يستطيعون الملازمة بين انفسهم وبين المتطلبات السوية للحياة ، فينتحون جانبا ، **ويهربون** او **يتهمدون** . وصحيح ان هروبهم او تمردهم ليس من عمل العقل ، وليس فعلا اراديا واعيا ، ولكنه بمثابة نوبة تصدر عن اللاشعور ، او عن المراكز الفريزية القهرية الانفعالية فوق اللحائية ، بلغة الفيزيولوجيا .



ولنحلل ، مثلا ، حالة دينيس القافز في البئر .
فهذا الشاب البالغ من العمر ثمانية عشر عاما أحضرته أمه ، ونصحتنا ان نكون قساة معه . وخلق لدينا هذا الاتجاه الوالدي غير المألوف اهتماما متزايدا بخلفية الحالة . أوضحت الأم القاسية في حزن مأسوي ، انها لم تدخر وسعا مع هذا الصبي ، ولكنه لم يكن صالحا لسوء الحظ ، فدأب على ترك العمل ، وبيع ملابسه واستخدم ثمنها في طلاء المدينة باللون الاحمر . وأكسدت ان ابنها لن يشفى ، ولكنها اعربت عن انه اذا استخدمنا يدا حديدية لدفعة على العمل ، فربما فكر طويلا قبل ان يسبب لامه مثل هذه الاحزان من جديد .

وبعد هذا وجدت الأم المحبة بضعة كلمات لتقولها عن زوجها الذي انفصلت عنه بالطلاق منذ زمن بعيد . فرسمت صورة مؤثرة لامرأة وحيدة تعيش لابنائها فحسب ، ثم ودعت ابنها الذي لا يساوي شيئا وداعا باردا ، ومضت دون ان ترسل له مجرد بطاقة بريدية لعدة شهور .

وفحصت الابن الفظ باهتمام . فوجدنا ما اعتدنا على تبينه من قبل ، بدلا من الوحش الذي وصفوه لنا ، وجدتنى امام امير ساحر . كان له وجه فتاة شاحبة ، وشعر ملائكي اشقر ، وعينان زرقاوتان حالتان ، وقوام نحيف ، وصوت ناعم ، واخلاق طيبة . ولكن بعد ان تقابلت مع جو ستمب ، وجو تاف ، وبير مارثير ، ومن اليهم من الصبية الخجولين ذوي الشعور الناعمة ، اصبحت محصنا جيدا ضد مثل هذه الجاذبية الخادعة ، ففحصت الغلام في قسوة ، لاكشف عن «الفعل الذي يزار عاليا ويرعد في أعماقه» .

واتضح من سجله المرضي ان أسرته تضم شخصا مجنونا ، وان والده كان سيكوباتيا غريب الاطوار . (لم يذكر السجل شيئا عن أمه ، ولكن حديثا قصيرا معها كان كافيا ليؤكد لي انه ورث شذوذه بلا ريب عن كلا الوالدين) . أما الصبي فقد رباه والده ، وهو محام معروف بالمدينة ، اعتاد ان يخدع زوجته على مرأى من ولديه . وحين انفصلا ، عاش مع راقصة اكبر سنا من نفس مدينتهما ، وتزوجها فيما بعد . واستخدم سوط الحصان في تربية اولاده . فظل الصبيان لا يحدثان والدهما الا لماما ، وينالان مما في جيوبه ومن سوطه . وكان مريضنا قد بلغ السابعة عشر من عمره حين سئم هذه المعاملة ، فترك المدرسة العليا ، واصطحب أخاه الى بودابست . ومنذ ذلك الحين لم يلتقيا بوالدهما . وعقب بضعة اسابيع من رحيله ، ليعيش مع أمه ، شرع يعاني من القلق ، ويقول اشياء غريبة ، ويخشى الشرطة السريين ، وحاول شنق نفسه . وعندئذ اودعوه مصحة ليبتميزو للمرة الاولى .

وفي المستشفى ، استمر قلقه لاسباع . فكان يرى رؤى مزعجة ، ويسمع صوت أمه ، واعتقد انه يراها في المصحة ، وشعر بالذنب على ما سبق ان رواه من اكاذيب حقيقية او متخيلة . ثم ذكر اتهامات خطيرة ، فالتاس يزعمون انه اقام صلات جنسية مع أمه ، ولكن هذا غير صحيح .

عولج بالانسولين ، فتوقف القلق بعد ستة اسابيع ، وصفت واعيته . واصبح منذ ذلك الحين طفل العنبر المدلل . ورجع ذلك في الاساس الى ولعه بالشطرنج . كان لاعبا ممتازا ، يتفوق على من عداه . شعر انه اصبح على ما يرام ، لكن استمر العلاج بالانسولين (اذ يجب ان يسود النظام ، فاذا تقرر للمريض خمسين «نوبة اغماء» فيجب ان يتمها جميعا ، حتى اذا حدث وشفي قبل ذلك ...) فجعل يطيل من مدة العلاج عن طريق التظاهر بالاغماء في فترات بعد الظهر ، الامر الذي زاد من عدد صدمات الانسولين المقررة . وأخيرا صرحوا له بالخروج . عندئذ - لا يعلم سبب ذلك الا الله - اتصل بالمستشفى تليفونيا ، زاعما أنه من

ضباط الشرطة . وروى قصة مضطربة . ان الشاب الذي غادر المستشفى منذ بضعة ايام عضو في هيئة اجنبية للمخابرات وشارك في الحرب الاهلية الاسبانية ، وقد قتل بالأمس جنديا أثناء مشاجرة ، ثم القاه في الدانوب ، وقفز وراءه وغرق ... وأعادته هذه القصة الخرقاء ثانية الى ليوبتيمزو . وهناك ظهر بضامد كبير على رأسه لم يسمح لاحد بانتزاعه ، وتبين فيما بعد عدم وجود جرح تحته . وبعد تسعة ايام صرحوا له بالخروج . ف قضى ثمانية عشر شهرا يعيش في المنزل ويعمل بأحد المصانع . وجعل ينفق كل وقت فراغه على الشطرنج ، الذي استغرق فيما بعد الوقت الواجب ان يقضيه في العمل فشرع في التفتيش عن عمله . ليلعب الشطرنج ، ويذهب الى الحفلات في الامسيات ، ويمارس بعض عمليات النصب الضئيلة وتخلي اخيرا عن وظيفته ليجد المزيد من الوقت لاشباع رغبته . ولم يعد يسدد ديونه ، ورهون ملابسه ، وقروضه ، وغدت ليالي الشراب جانبا منتظما من حياته ، حتى اعادته امه الى ليوبتيمزو . لكن نظرا لانعدام اعراض اي مرض لديه ، فقد صرحوا له بالخروج بعد اسبوع . وكان ذلك حين حصلت امه على اذن بإيداعه بالجرايح ، حيث ينبغي له ان «يستقر» .

جلس الان الغلام الوديع الناعم الشعر ذي التسعة عشر ربيعا أمامي ، لا تزال عيناه مليئة بالدمع لانه ترك امه ، وقد بدا كل شيء منه على ما يرام . ما الذي في وسعي ان أصنعه به ؟ هل يجب ان اكون قاسيا ؟ لماذا ؟ وكيف ؟ استمعت الى قصته . روى كل شيء لي بصراحة . فلم ينكر حتى عمليات النصب وتعاطي الخمر . كان يقدر امه ، استطعت ان اتبين ذلك من طريقة كلامه .

لا داعي للقصة . ولقد اعترف فيما بعد انه عقد العزم على الامتناع عن العمل هنا ، مهما فعليا . ولكننا لم نفعل شيئا . ف شعر بالخجل ، وشرع يعمل بمحض رغبته في الاسبوع الثاني . «الآخرون جميعا يعملون» . هكذا كتب الى امه «فشعرت ان التبطل يبعث على القلق ..» لم يثر اي مشكلة على الإطلاق . كان هادئا ، مطيعا ، مهذبا . يلعب الشطرنج بمهارة فائقة حقا . مهارة فائقة لدرجة اننا اتحنا له بعد اشهر قليلة الاشتراك في دوري الشطرنج . ففاز فيه بسهولة . واستطاع ان ينشئ بعض العلاقات الطيبة هناك ، فوعده بوظيفة اذا خرج من المستشفى . وسرعان ما فعلنا على الرغم من ان امه رفضت ان تعطيه موافقتها ولم تعتن حتى بمجرد الرد على خطابات ابنها . كان علينا اذن ان نخرجه بدون موافقة . وودعنا الصبي وداعا حارا ، وغادرنا تملؤه الامال .

وسرعان ما أرسل لنا تقريرا في خطاب مطول . كل شيء على ما يرام ، لقد وفق الى وظيفة طيبة ، وشقة رائعة ومجموعة لطيفة من الاصدقاء وكان يزورنا أحيانا . في ملابس تشبيه للتعبير عن امتنانه بالشفاء ، وبدا عليه الحزن وهو يروي كيف استقبلت امه أخبار شفائه في برود . ولم ترد على رسائله الا نادرا ، بل وجرت عليه المتاعب . كانت قد زعمت انها سددت عنه دينا قديما ، ولكنه فوجيء لدهشته بالانذارات تتوالى عليه تتهمه بالاحتيال . سرعان ما استطاع

تسديد الدين ، واستقرت الامور .

لاحظنا بعد فترة انه لا يزورنا من اجل خاطرنا وانما لاجل عيون احدى ممرضاتنا الفاتنة ، وسرعان ما طلب الزواج منها . فأبدى والدتي الفتاة موافقتها ، وبدا الجميع يترقبون الزفاف . وتأهبنا للاحتفال بالنجاح الاعظم للعلاج فسي الجراح .

ولكننا تسرعنا بهجة .

انتظرنا الصبي يوم الخطوبة عثا . لقد هرب من خطيبته . وبعد بضعة ايام تلقينا اشارة من قسم الامراض العقلية بمستشفى المقاطعة تفيد انه يعالج هناك . وكان هذا ما حدث . على غير توقع ذهب الى بودابست ، ليرى امه ، وحينما عاد ، كان في قمة ثورته . ودون ان ينبس بحرف ، قفز في احد الآبار . وسقط في هاوية الشر ، لكن تم انتشاله ، وحملوه في سيارة اسعاف الى قسم الامراض العقلية . حزننا عليه صاحبة المنزل - هذا الغلام الطيب - كانوا يحبونه فسي المصنع جدا ...

اردت تقصي ما حدث ، فمضيت في اثره الى المستشفى .

استقبلني في حالة مشعته . بدا كممثل مبتدىء يحاول ان يؤدي دور رجل مجنون . فأخذ يقفز الى اعلى واسفل ، وجعل يكرر دون توقف وقد جحظت عيناه «يستوي الامر بالنسبة لي ... سوف أموت ... سوف أموت . فسي السادس من سبتمبر سأكون قد مت ...» قال ذلك تسعين مرة . وان اجابتي ايضا بضعة اجابات تتم عن ذكاء . علمت ، لدهشتي ، بأمر كان يداريه عني . يبدو انه في نفس الوقت الذي طلب فيه يد الممرضة كان له «جو» ، فتاة صغيرة جميلة ، كان يئشها الغزل ايضا . وكانت المرأتان على طرفي نقيض . فالممرضة فتاة قروية شريفة بسيطة ذات شخصية قوية تكبره قليلا ، وتعتبر بمثابة بديل لأمه ، والاخرى فتاة غرة من مدينة صغيرة يستطيع ان يشرب ويقضي معها وقتا طيبا ، وتعتبر بمثابة عشيقة مثالية . وجاء يوم الخطوبة ، فلم يستطع ان يحسم امره . ادرك ان الممرضة هي الاختيار الافضل ، لكن حواسه وطبيعته المغامرة دفعته نحو الاخرى . فافترض مبلغا كبيرا من النقود ، انفق على الفتاة ، ثم استقل القطار ليزور امه يسألها الصيحة . حسنا ، لقد ذهب الى المكان المناسب . لا نعلم ما قالته له امه ، ولكن في وسعنا ان نتصور . واكدت رسالة تالية صدق ما تصورناه . لقد وقفت في وجه فكرة الزواج برمتها . الامر الذي اشاع فيه الاضطراب ، فجعل يتسكع في المنزل ، ثم زار احدى قريباته باكورة احد الايام وكانت قد وضعت لتوها طفلا ، وهناك ، وفي محضر الزوج الذي اعترته الدهشة «اقر» ان الطفل طفله ، ومن الجائز ، على حد قوله ، انه ليس ابنه وانما ابن اخيه ... ويستطيع المرء ان يتخيل كيف روع الزوج . في لحظات صفاء اعترت صديقنا القافز في البئر الدهشة لقيامه بمثل هذه الفعلة ، فلم يكن هو او اخيه على صلة قط بهذه الأم الشابة .

وعاد بعد ذلك الى المنزل ليقفز في البئر كي «يتقذ» احدهم شرف الاسرة ويحمل الوزر كله ، وعلى اية حال فانه سيموت في السادس من سبتمبر .
وانكشفت بعض عمليات الاحتيال الضئيلة . فهو لم يسدد بعد النقود التي سبق له اقتراضها ، وكانت الملابس والاحذية التي يحضر بها لا تخصه ، واشترك في مشاجرة علنية في احدى المناسبات .

وعالجوه بصدمات الكهرباء المركزة لمدة شهرين في مستشفى المقاطعة وحين اعدناه الى الجرانج ، اخذ يتصرف بصورة لائقة ولم يعد يتذكر الامور التي رواها من قبل . وتملكنا العجب لما سوف يترتب على هذه الوقائع المحيرة .

اخذ الصبي يتصرف على نحو سوي بضعة ايام . ثم نصب السيرك من جديد ، مصحوبا هذه المرة بحالة نسيان واضحة . كان ينسى كل ما لا يوافقه . وبدا كمن لا يتذكر انه قفز في البئر ، او ذهب الى بودابست ، او قدم وعودا بالزواج ، او فسخ خطوبته ، او اقترض وأنفق النقود ، في نفس الوقت الذي كان يتذكر فيه تماما امور متعلقة بعمله . لم ينتج نسيانه اذن عن العلاج بالصدمات وانما عن حالة من «الرخاوة» الهستيرية تغيب في الذهول كل ما يبعث على الضيق .

وأنا لست من الكلفين بعلم نفس الاعماق ، ولكن اذا كان في وسع «عقدة أوديب» ان تفسر اي شيء في اي مكان ، فهذا مكانها . لقد كان دنيس القافز في البئر يحب أمه بلا شك . كان يعاني ، بلغة علم النفس ، من الارتباط الباثولوجي بأمه ، وكان عاجزا عن «الانفصال» عنها يؤكد ذلك هذا التقدير الذي كان يتحدث به عن هذه الام غير المحبة ، وهذه الكلمات التي ردها في مرحلة سابقة من اضطرابه ، اذ كان يقول انه «أحب أمه بطريقة من الجرم ان تحب بها أم» ، الامر الذي يعاقب مقترفوه في الدرك الاسفل من جحيم دانتي (يثور التساؤل ما اذا كانت أقسام امراض العقول في بعض المستشفيات لا تستوي مع هذا الدرك المربع من الجحيم) .

ولا أعلم ما الذي ادى بصديقنا الى التثبيت على أمه — هل هي الخبرات التي عاشها مع الوالد العبوس ام شيء آخر . ولقد أدرك هذا الجذب بوضوح . وحين انتوى الزواج من الممرضة الجادة الناضجة التي تكبره بخمسة اعوام ، كان يحاول الانفصال . لكن المحاولة لم تنجح ، نظرا لان الام النائية كانت اقوى ، وحال ذهوله الهستيري دون اتخاذ اي قرار . وكان هذا ما يريد .

لم يكن ثمة ما يدعوه لكي يقفز في البئر ، بسبب ارتباطه القوي بالأم . لقد كان يعاني من صدمة انفعالية حادة ، ومن «اضطراب في العمليات العصبية العليا» . اي هذه العملية التي تسيطر فيها المراكز العصبية فوق اللحائية البدائية على اللحاء (من وظائف اللحاء السيطرة على القوة الشريرة ، والعواطف والانفعالات الخاصة بالمراكز فوق اللحائية ، بالعقل والارادة) . ففي حالة صديقنا القافز في البئر ذبلت وظائف اللحاء العقلية ، فوجد مهربا «جنونيا» (لا يوجد تعبير اكثر من

هذا قدرة على الشرح) - في قاع البئر اولا ثم في قاع النسيان الكامل حيث ترتع الانفعالات والعواطف في حرية - حتى يشفي اللحاء وبعيد فرض نظامه تدريجيا. وهذا ما بدأ يحدث منذ كبت صديقنا بارتياح «سلوكه الفج» (القفز في البئر) في اللاشعور . وكان لديه مبررا قويا يفعل هذا لان عقله كان سيظل يخل من مثل هذا الفعل الى الابد . اما ان عقله لم ينغمس في الامر كلية وانما تخلى فحسب عن الاسبقية للقوى الانفعالية الطفلية والانثوية فانه يتضح من ان صديقنا ظل حتى في اقصى حالة اضطرابه وشذوذه لاعبا ممتازا للشطرنج ، وهو عمل تصعب مزاولته بالعواطف وحدها (كان يكسب معظم المباريات وهو مغمض العينين - الامر الذي يتطلب ذاكرة غير عادية) .

على كل حال ، تحسنت حالة القافز في البئر بشكل مضطرد ، فصفت واعيته ، وان ظل البئر وكل ما يرتبط به في أعماق عقله اللاشعوري . وقطع علاقته بعشيقته ، وعاد للمرضة المخلصة وعمل بلا كلل في وظيفته . ولكن قبل ان تأتي النهاية السعيدة عاد الى حالة الذهول مرة اخرى حين أوشك على ان يستنفوا عنه ، ولكنه تغلب عليها عن طريق الاصابة بنوبة هستيرية . وعولج في ليبوتيميزو ، وكان ثمن علاجه بالصدمات الكهربائية ان اعتبروه فصاميا ، الامر الذي اعفاه من الخدمة العسكرية . ورغم هذا الماضي الخطر ، فقد تسلق القافز في البئر حتى خرج من بئر الهستيريا وتزوج بالمرضة رغم احتجاجات أمه (الزيجات لا تنطبع في اللحاء ...) وسرعان ما أنجب (القافز في البئر) الطفل . وسوف تعيش الاسرة في سعادة متواضعة حتى تثير الحياة بعض الصاعب الاخرى التي سيكون من السهل التهرب منها بمساعدة حالات الرخاوة الهستيرية . وحالة مارجريت ميوت المومس الشابة الرقيقة لا تقل أهمية .

فبينما عجزنا عن شفائها تماما ، من مرضها الاساسي على الاقل ، بالمعاملة الطبية ، الا اننا حللنا مشكلة اثارته دهشة مشاهير أطباء المدينة . ويرجع الفضل في الدهشة التي لم تثر مشاهير الاطباء فحسب ، بل ومارجريت ميوت أيضا الى السيدة الاولى .

لم تأتينا مارجريت من قسم الامراض العقلية وانما من حفرة على طريق جانبي . التقطها احد رجال الشرطة من ضواحي المدينة «فاقده الوعي» ، وأقلتها سيارة الاسعاف الى قسم الامراض الباطنية بالمستشفى . وأثناء ذلك استردت وعيها ولكنها لم تتكلم . جعل الاطباء المقيمون يتطلعون اليها ، يتفكرون ، ويحتارون فيما ينبغي ان يصنعوا . بدت متفهمة لاسئلتهم اذ كانت تهز رأسها ، ولكنها لم تفه بعرف . وطلبت بلغة الإشارة ورقا وقلما ، وبسرعة كتبت اسمها (اسما مزيفا كما تبين فيما بعد) ثم ما يلي : «انا خرساء منذ ولادتي ، ولكنني استطعت ان اسمع جيدا ، لقد كنا تسعة اخوة وأخوات ، ولد وأربعة اخوة عميانا وخمسة بنات خرس .» ومات الاخوة والاخوات جميعا وبقيت هي على قيد الحياة . مات والداها اللذين لم ترهما قط . لم تتلق تعليما مدرسيا . فشلت شتى المحاولات لشفائها

من خرسها . واستغرق تعليمها الكتابة خمس سنوات . اقامت في مؤسسة للصم والبكم لمدة عام . كانت في طريقها لزيارة بعض المعارف ، لكنها مرضت في القطار، ولا تعرف كيف وصلت الى المستشفى .

كتبت كل هذا بقدر ملحوظ من الذكاء ، ودون توقف ، مع بعض الاخطاء الاملائية . غمغم الاطباء المقيمون وتمتعوا ، وفحصوها ، وقاسوا افعالها المنعكسة، وشموا انفاسها ولكنهم لم يعثروا على ما ينير لهم الطريق . هل هي مشلولة الى جانب بكما ؟ لقد صرحت الفتاة انها لا تستطيع النهوض من الفراش .

واخيرا ارسل الاطباء المقيمين في استدعائي . توجد «حالة عقلية» هل تلقي عليها نظرة . انها مريضة بالحالة الصرعية Status epilepticus . هكذا ذكر الطبيب المقيم مدلا على جهله ، فأسرعت من فوري ، لان الحالة الصرعية ليس هزلا ، ويمكن ان يموت البعض بسببه . ولحسن الحظ لم يكن ثمة حالة سبات او حالة شلل . أبصرت عصفورة رمادية صغيرة على السرير ذات عينين مرتعبتين ، شعرها مقصوص بطول بوصتين . فاختبرت افعالها المنعكسة بدوري ، وسلطت الضوء في حذقتها . لا شيء . وعرضوا عليّ ما كتبت عن الاخوات الخمسة المصابات بالخرس وعن الاخوة الاربعة العميان . مجموعة غير مالوفة من الاخوة والاخوات ، وبمثل هذه الاخطاء الاملائية الشائعة ؟ تستطيع ان تسمع كل شيء ولا تستطيع ان تنطق بحرف - كان هذا غريبا . ثمة في حنية مرفقيها جروح بنية كانما جرحت نفسها بشفرة حلاقة .

«دعونا نفحص مشيتها . انهضي من فضلك .»

«انها لا تستطيع المشي ...»

ولكن تبين انها تستطيع . نهضت من الفراش وترنحت متداعية حتى الباب . ومن فوري وصلت الى تشخيص الحالة . لقد تم العثور عليها في حفرة فاقدة الوعي ... لا تستطيع المشي رغم سلامة جهازها العصبي ... ثم تتمكن من السير على هذه الصورة الغريبة من الترنح ... الخطاب الغريب عن الاخوة العميان والاخوات الخرس ... بل ما هو اغرب - بكما في مقدورها ان تسمع ... آثار محاولات الانتحار على الذراعين ... لا يمكن لهذا جميعا الا ان يكون هستيريا .

وابتسم الطبيب المقيم بعدم اقتناع .

«حسننا ربما ... نحن معشر الاطباء المقيمين ليست لدينا خبرة كبيرة بهذه الامور ... ومع هذا فاننا لم نشاهد هستيريا على هذا النحو ... ثم ماذا عن البكم ؟» هكذا سألني كأنه يفحمني .

«أعتقد انه يتناسق مع هذا النمط الكلي .»

«أتعني انها ليست بكما حقا ؟»

«تماما .»

لم يخف الطبيب المقيم ريبته .

«حسنا ، دعنا نقوم بتجربة» هكذا قلت في تصميم «سوف اصطحبها الى الجرانج .»

ولقي العرض قبولا على اية حال . وتنفس الاطباء المقيمين الصعداء لتخلصهم من هذه الحالة الغريبة . وجاءت سيارة الاسعاف واقلت الفتاة . كانت بادية الارتباك في اليوم الاول ، ولكنها غدت بعد ذلك كقطة تبحث عن يربت عليها . تكومت الى جانب السيدة الاولى لا تصنع شيئا طيلة الوقت الا ان تهر . كانت جياشة بالحب وتتضور في طلبه . ولكنها ظلت صامتة كالقبر . لم تكن تتفوه بمجرد السعال .
ثلاثة ايام كاملة ..

وفي اليوم الرابع قالت لها السيدة الاولى :
«حسنا يا عزيزتي مرجريت ، في وسعك ان تنهي هذه الملهاة . اننا نعرف جيدا ان في مقدورك ان تتكلمي اذا اردت . فلماذا لا تفعلي ؟ ألا تحبيننا ؟»
«على العكس» ، هكذا اجابت البكماء «انني احبك يا ماما .»
وكان هذا نهاية خرسها . ومنذ ذلك الحين تكلمت الى حد الثرثرة .
دق جرس التليفون بعد الظهر . المستشفى تستفسر عن حالة البكماء .
«دقيقة من فضلك ، سأرسلها لكم على التليفون .»
«البكماء ؟»

وحدث ذهول عظيم . وحضر (لا . هذا كلام فارغ) شخصا بذاته على التليفون .
بدا على البكماء بعض الخجل قبل ان تعلن انها المتحدثة .
سألها (لا . هذا كلام فارغ) مستفسرا : «لماذا تتكلمين الان ؟»
«حسنا ، كما تعرف ... لقد كانوا جميعا في منتهى اللطف معي ... فرأيت

الا أضيقيهم ...»
لم يدعها كثيرا انها تكلمت الان بقدر ما تساءلنا لماذا لم تتكلم قبلها . لقد ادلت ببيانات متناقضة . ولكنها تبينت انه من المستحيل خداع السيدة الاولى التي تمرست على الفحص المستحق الذي يوقع الاضطراب بالمخادعين الاكثر خبرة من مرجريت . تضرع وجه مرجريت بالحمرة اخيرا وضحكت قائلة :
«كان من الاجدر ان تكوني قاضيا للتحقيقات يا ماما .. حسنا ، انصتي ، وسأحكى لك .»

وبدأت تروي الحقيقة فعلا - التي تثبتنا من صدقها فيما بعد .
ولدت في قرية صغيرة نائية منذ اربعة وعشرين عاما . وكان والدها غاية في الفقر ، اذ لم يكن لهما سوى فداني ارض . كان والدها عاملا متقاعدا في السكك الحديدية ، على حين ماتت أمها منذ وقت بعيد . وكان لها اربعة اخوة وأخوات . ليس فيهم أعمى او أبكم . ومنذ عشر سنوات تزوج والدها مرة اخرى ، ليجد من يرعى شئون الاولاد ، وضربتها زوجة ابوها بضعة (علق)، وكانت محقة في ذلك، لم تجد مرجريت ما تقول به على زوجة ابوها .

واكملت الصف السابع في المدرسة ثم عزفت عن المدرسة . وبدأت تساعد في المنزل او تتسكع في الحقول . وفقدت بكارتها في سن الخامسة عشر وبعد عام واحد شرعت تزاول حياة الانحراف : فكانت تخرج مع الشبان ، وتغشى الحانات ، وتدخن ، وتنق الليل بطوله بالخارج . لم تكن تتظاهر او متأبئة ، ترضى مضاجعة اي رجل نظير حفنة نقود ، وحملت ستة مرات . في مثل هذه الاحوال كانت تخلص نفسها بأن تدفع داخل بطنها بإبرة تريكو ، ثم تذهب الى الطبيب وهي تنزف ، فيستكمل اجهاضها في حينه . لم تعرف ابدا من هو والد الطفل ، اذ كانت تضاجع رجلا آخر كل يوم .

وسرعان ما شاعت سمعتها في قريتها . وحاول والداها ان يغيروا من سلوكها بالكلام اولاً ، ثم بالضرب ، وعندما فشلوا في ذلك ، طردوها . ولم تعباً ، وانما مضت تتجول في الاماكن المجاورة ، متنقلة من حانة الى أخرى . لم تكن بحاجة الى منزل مستقر . . . وذات مرة وبينما كانت حاملاً مرة أخرى سافرت الى بودابست واختفت بين الاشجار المقابلة لمستشفى جانوس ، حيث جرحت بطنها . وعثروا بها هناك تنزف ، فاقتادوها الى الداخل ، واستكملوا الاجهاض ثم اخرجوها . وبدأت تمارس حياة البغاء في بودابست . كانت تعطي نفسها لاربعة او خمسة رجال في بعض الليالي نظير فورنتا او اثنين . وقبضت الشرطة عليها ، فالتقت في الحجز بنسوة أخريات على شاكلتها كانوا اكثر خبرة ، فانضمت لهن بعد الافراج عنها .

وفي الصيف السابق على حضورها اليها سافرت الى احدى مدن التعدين ، لتزور اخيها الاصغر الذي كان يعمل هناك صيباً . ولكنها لم تجده . وكانت قد سأمت وتعبت من الحياة التي تحياها ، فتجرت بعض النبيذ المخطوط بالكحول . واكلت بضعة لفافات تبغ ، ودخنت علبة بأكلها ثم استمرت تشرب . وجلست في الصباح الباكر ، وقد اخذها الذهول والاعياء ، على الارض أمام احدى المستشفيات . فعثر عليها المعدنون فاقتادوها الى الداخل . وشفيت بعد ان اجري لها غسيل للمعدة . ثم قررت ألا تنطق بحرف . فاتخذت لها اسماً مستعاراً ، وابتكرت قصة الاخوات الخرس والاخوة العميان وبقيّة القصة بأكلها . وكانت تكتبها كلها على النحو الذي فعلته عندنا . وتزيد ، فكانت ترتمي على الفراش ، وتجعل جسدها يتخشب ثلاث او اربع مرات يومياً ، وتفرك يديها ، وتلقي بنفسها من على السرير . ولكي ترفع من حرارة الموقف . كانت تجمع اللعب في فيها ، وتعض شفتيها حتى تدميها ثم تتظاهر بأنها تتقيأ لعباً مدمماً . وخافها المرضى الآخرون واستثارت الأطباء . فاوثقوها ، ولكنها استمرت في نوباتها حتى ازرقّت وحين حاولوا علاجها ، رفست الطبيب في بطنه . وفي نفس الوقت كانت تسمع وتفهم ما يدور حولها ، اذ كانت على وعي كامل . كانت كل فعالها مزيفة . وحافظت على بكها للدرجة انها كانت تذهب الى دورة المياه ، حين تريد السعال . وأخيراً ساقوها الى قسم الامراض العقلية . ولم يستطيعوا علاجها هناك

ايضا - فرفست الابرة من يد الطبيب . وحضر احد الاطباء من العيادة العقلية في بودابست ، حيث قام بفحصها واصطحبها معه الى بودابست في سيارة الاسعاف . وظلت على هذا الحال هناك كذلك . فأجريت عليها الفحوص . لم تغدها المقاومة والركل . فأخذوا عينة من النخاع الشوكي وعمل اشعات بعد حقنة الهواء في المخ وعديد من الفحوص الاخرى واجروا رسما للمخ ، وثقبوا جمجمتها مرتين لاجراء جراحة مخية . (اجل ثقت جمجمتها مرتين . أمكن تبين آثار الثقب . حدث ذلك حين حلق شعرها ، وكان لا يزال قصيرا) كما فحصوا حلقتها كذلك ليتبينوا ما اذا كان ثمة اصابة في الاحبال الصوتية . وكان هذا من الفحوص التي يصعب تحملها . ولكنها تحملته . بل وتحملت قياس حساسية الحواس Onsesthesia . ونوموها ذات مرة على ان تتكلم ، لكنها لم تفعل .

واصبحت حالة مشهورة في العيادة . وفحصها عديد من الاساتذة وكان في سقمها ان تعدد أسماءهم . بل وعرضوها في الجامعة بانتظام باعتبارها حالة «الخرساء التي تسمع» . ونصح بعض الاطباء باجراء عملية في الحلق ، وشك آخرون في وجود ورم بالمخ .

كانت كل كلمة من هذا صحيحة . وتحت يدي سجلها الطبي الذي لم يستهويني لما فيه من اخطاء ، ولكن لانه كان مليئا بأعراضها العضوية وكل انواع اضطرابات الافعال المنعكسة والحواس ، كالقياس وكلها ذات اسباب نفسية ، وأسفر فحص الجمجمة بالاشعة عن وجود «ضلع» dislocation . يحتمل ان يكون اساسه وجود ورم بالمخ . لقد كانت جميع هذه الاختبارات والفحوص بمثابة الدليل على تيقظ ضمير هؤلاء الاخصائيين العظام - ولكن ألم يكن في وسع القليل من الشفقة الانسانية ان تؤدي الى تشخيص اكثر دقة ؟

بعد ان تم ثقب جمجمتها مرتين دون ان تنطق بحرف ، وبعد ان ثبت بطلان احتمال وجود تورم بالمخ ، حولت الى مؤسسة الصم والبكم . (ثمة دليل على ان مدير المؤسسة كان يعاملها على اساس انها بكماء قادرة على السمع) . وسرعان ما سئمت كل هذا ، لم ترحب بالبقاء بين اناس اشد منها بكما ، فهربت وعادت الى منزلها . وشرعت في الكلام وهي في القطار . وحين لم تجد والديها بالمنزل ، مضت الى احد اقربائها واستأنفت حياتها المنحرفة من حيث تركتها . ولكنها سئمت من ذلك ايضا . فاستقلت القطار وارتحلت بلا مقصد . وحين حل الظلام غادرت القطار ، وسارت في ضواحي المدينة بالقرب من الجرانج ، ورقدت في الحفرة على جانب الطريق .

اغرب ما في هذه القصة ان المرء كان في وسعه ان يتوقع اي شيء من هذه العصفورة الرمادية الصغيرة الا الانحراف والدمارة . كانت قليلة النمو من الناحية الفيزيكية ، وتخلو من الجاذبية الجنسية على الإطلاق ، كانت اقرب الى الدمامة منها الى الجمال . ولقد امضت ثلاثة شهور في الجرانج ، راقبنا اثناءها ما اذا

كانت مهتمة بالرجال . فلم تكن كذلك . وكذلك لم يهتم بها احدا ، ما دامت لا ترغب مخلوق . وعقدت صداقة مع صبي صغير في نحو السادسة عشر ، ولكنها كانت صداقة اخوية ، لا تزيد . ولم يخطر ببال احد انها امرأة . كانت عابثة شقية اميل للطفولة . وذكرت من نفسها ان الرجال لا يبعثون لها على الرضى . ان هذه البغي الصغيرة الرقيقة التي باعت جسدها لكل عابر سبيل منذ سن السادسة عشر لم تعرف مباحج الحب .

واعتقد اننا غيرنا منها كلية . بدت مقبلة على العمل ، ومتلهفة ، وطموحة ، وعاطفية ، ومحبوبة . لماذا لا تجد طريقها الى الحياة السوية ؟ وكان هذا ما حدث ولكن بطريقة مخالفة .

طلبت الرحيل لزيارة والديها . نظرا لانها غادرتهم وهي فتاة منحرفة فقد ارادت ان تعود كحمل بريء . سوف تقضي اسبوعا ثم تعود ، فهي تحب اقامتها هنا ولا يمكنها مجرد العيش بدوننا .

كثبت لوالدها ، فرد مرحبا بها . وسمحنا لها بالمضي . وبعد يومين ، وصلنا خطاب من المنزل يفيد انها وصلت واستقبلت احسن استقبال . ثم لا شيء . مضى اسبوع ولم تعد . ومر اسبوع ثان ، ولا اخبار بعد . اسقطنا اسمها ، ولكننا لم نفهم ما حدث . وبعد اسابيع دلائل اصطحبت احد المرضى الى احدى المزارع ، فاذا بي لا التقي الا بمرجريت . اقتربت مني فسي ارتباك والقت بنفسها حول عنقي .

«كيف جئت الى هنا ؟»

تلجلجت وهي تروي قصة ملفقة . لقد توجهت الى بودابست مع امها ، فمرضت ودخلت المستشفى ، وتوسلت عبثا ان يعيدوها الى الجرانج . ولكنني عرفت منها الحقيقة فيما بعد . لقد سافرت فعلا الى بودابست (بدون امها) وزاولت احد تصرفاتها الهستيرية في الترام ، كان تكون حاولت الانتحار ، فاقيدت الى المستشفى ومنها الى ليوبتيمزو . وشعرت بالالفة مرة اخرى فبدات تتصنع الاعراض حتى استدعوا لها (كونسلتو) من الاطباء . ومرة اخرى بدأت احتمالات كل ضروب التشخيص (ما عدا «البكم مع توفر السمع» هذه المرة) . فاعتقد بعض الاطباء بوجود مرض عضوي ، وارتأى طبيبها انها هستيرية، فأرسلوها الى احدى المزارع تحت الملاحظة .

وتوسلت اليّ أن آخذها معي ، فأهلتها ثلاثة اسابيع بنقاها في المزرعة تحت الاختبار . اذا سارت على ما يرام ، فسوف أعيدها . ويبدو ان الاسابيع الثلاثة كانت طويلة عليها جدا ، فهرت ، وسرعان ما بعثت برسالة من قسم الامراض الباطنية بمستشفى آخر تخطرني انها سوف تنتحر ، وتطلب ان نذكرها بالاعتزاز .

ولم تنتحر بالطبع . ولكنها عادت بعد عام على التحديد . وخلال هذه الفترة مضت تنقل بين خمسة عشر مصحة عقلية . لقد ادمنت هذا الاسلوب في الحياة

بما فيه من انتحارات مزعومة وفقدان للوعي ونوبات «صرع» ، ساحة الأطباء من انوفهم عدة أشهر وهي تسخر بهم في سرها . وحين تسام الامر كله ، كانت تهرب ، وتستقل القطار وتشرع في اعادة الكرة من جديد في مدينة أخرى . يا لتشكيلة التشخيص التي جمعتها . ارسلت وراء سجلاتها الطبية من كل مكان ، كانت قراءتها متعة ما بعدها متعة .

واعادتها سيارة الاسعاف الينا مرة اخرى من مستشفى المدينة . وكان التشخيص هذه المرة ، من قبيل التنوع ، حالة تسمم Tatanic . احتملها رجال الاسعاف بعناية حتى لا يثيروا نوبة جديدة من التقلص الناشيء عن التسمم . ونادت السيدة الاولى على الموكب قائلة «قومي يا مرجريت ، كفي عن المخادعة !» فقفزت المريضة «المريضة بالتسمم» والقت بنفسها على صدر ماما الامر الذي جعل فك رجل الاسعاف يسقط من الدهشة .

وعملت بالجرائح في حماس وروح طيبة اشهر قلائل ، ثم عاودت الهروب . وكتبت لنا من مستشفى نائية ، في هذه المرة شكوا في وجود ورم بالمخ . دعوني اعترف . كنا نتذكرها باعتزاز . لقد كانت بغيا صغيرة رقيقة . ولم اعتقد قط انها سوف تنتحر ، فظللنا في انتظار عودتها .

وحتى ذلك الحين دعونا نناقش فسحة ثانية منها هي الزبي ويني . اذا كانت مرجريت قطعة صغيرة حلوة فان الزبي كانت شريرة ملحوظة . ورغم تشابه سمات من الهستيرية وانعدام المعايير الخلقية في كليهما ، الا ان ما كانت تزاوله مرجريت في رقة (حتى الكذب) كانت تفعله الزبي بصورة تعافها النفس . كانت شاعرة وكناسة في شوارع واحدة من المدن الصناعية الجديدة ، حتى تم طردها . ورفضت ان تأخذ عبرة من ذلك فاستمرت تمتدح المدينة الجديدة بقصائد طنانة ، وتصب سبلا من اشعارها على احد محرري بعض المجلات الادبية ، بالرغم من ان الاخير سبق واعلن رأيه في شاعرية ويني عدة مرات . ولم يكن شيء من ذلك ليهم لو لم تأت بعض الفعاليات الهستيرية التي تعافها النفس من وقت الى آخر . كان من المستحيل احتمالها ، فهي مليئة بالخيلاء ، ثرارة ومزدرية للآخرين .

واطلقنا عليها اسم ويني (اي المصهلة) لانها كانت تصهل كالمهرة حين تكون معتدلة المزاج . وسرعان ما تنتهد بعد ذلك بشكل مأسوي وتسب ، مستخدمة أشد الكلمات فحشا . وكانت تزعم الاقدام على الانتحار احيانا لتستدر العطف . لكن روح الجرائح صنعت المعجزة مع ويني . فتخلت عن خصالها التي تعافها النفس واحدة تلو الاخرى ، ولم تعد محتملة فحسب بل ومحبوبة ايضا . احيانا كانت تطفو احدى الذكريات غير السارة من ماضيها الهستيري فكانت تحاول قمعها ، وهذا امر يستحق الاحترام حقا . لقد أمكن تعديل جوهر ويني البعيد الفور ، الامر الذي يصعب تحقيقه فعلا لدى الهستيريين . وبدأنا نأمل في انها ستقلع عن حياتها الطفيلية تماما ، فسمحنا لها ببعض الاستثناءات . وزودناها بعلاج خاص . واهتمنا بها شخصا ، فبدأت تعمل وتتصرف بطريقة تدعو للرضاء . كانت

كتابتها تخلو من الاخطاء ، فأسندنا اليها تعليم ضعاف العقول . في هذه المناسبات كانت ترتفع معنوياتها . كانت تغدو اكثر سعادة حين نسند اليها مهمة في الحلقة الادبية ، او نختصها بدور هام في احدى المسرحيات . وهكذا فكلما زدنا المسؤولين الملقاة على عاتقها كلما اجتذبتنا ثقتها ، وكلما زدنا من مودتنا نحوها — على الرغم من مقاومتنا الداخلية — كلما زادت حالتها تحسنا .

وطالعنا ذات يوم بوجه مكتئب وأعلنت انها بصدد الادلاء باعتراف مروع ، توقعت امرا تافها نتيجة تدخلها في شئون الآخرين ، الا ان اعترافها هذه المرة كان خطيرا بما فيه الكفاية : ان أخاها مودع بالسجن لقضاء اثني عشر عاما لارتكابه جريمة قتل . شككت انها تسعى وراء ذلك لجذب الانتباه ، ولكن رد ادارة السجن اكدت لي صدق «ادعائها» . وظلت يومين تتمشى وقد بدا عليها الاكتئاب ، ثم تناسلت قلقها ، وعادت تسهل بمثل مرحها السابق .

كانت في الثامنة والعشرين من عمرها ولم يوانها الطمث قط . وسبق علاجها بالهرمونات ، من أقراص وحقن وعملية كحت وزرع الغدد ، وكل ذلك عبثا . لم تتعاط عندنا شيئا من ذلك . لكن يجب ألا نفعل الاثر الهام للعلاج البيئي، فبعد ستة اشهر في الجرانج ، جاءها الطمث .

اما أشهر مآثرها فحين تتبعنا الى جبال بروتسوني . كنا في اجازة . وبينما نضرب دون اي توقع في احد الممرات المستورة في الغابة ، اذا بنا نلتقي بها فجأة . لا ريب ان غريزتها هي التي اقتادتها ، اذ كان العثور على كوخنا الخفي من الصعوبة بمكان . وشرعت فورا في الغسيل ، وعاشت معنا سعيدة في الغابة طيلة أسبوع . وأخيرا أفسد الحب بلا أمل علينا علاجها ، أثار القوى الهستيرية الكامنة في أعماق نفس ويني من جديد . انتصرت العاطفة على العقل ، وعادت الاعراض الهستيرية الظهور واحدة تلو أخرى .



لا يكاد يوجد مرض لا تنطبق أعراضه على الهستيريا . من الطفح الجلدي حتى تشنجات الصرع ، من نوبات البرد حتى آلام المخاض ، ومن الشلل الى العمى ، اذ تتسع الهستيريا لاي شيء . وهناك ظرفين يجعلان التشخيص امرا من الصعوبة بمكان . أولهما ان المرضى الهستيريين يدعون دائما او على الأقل يبالغون فسي أعراضهم ، لدرجة تستثير غضب الطبيب ، فيتهمهم بالفش ويأمرهم بأن يمارسوا الاعيهم مع شخص آخر غيره . ومع ان هذا موقف خاطيء ، لان الهستيريا وراء كل هذه الاعراض المزعومة . يوجد ثمة غش قهري لا شعوري ، خداع حقيقي للذات ، يكمن وراء خداع الآخرين وتنشأ الصعوبة الاخرى من السبب النقيض — اذ تنبني أعراض الهستيريا غالبا على امراض عضوية . بعبارة أخرى . فالذين يشكون عادة من «نوبات قلبية» هستيرية تكون قلوبهم فعلا على غير ما يصرح ،

والذين يعانون «النوبات الصرعية» يكون بناءهم صرعيا في الاساس . فالمرضى ذو المدة المرحفة ، تتسبب الهستيريا في اصابته بسوء الهضم والقىء ، وإذا كانت مفاصله ضعيفة شكا من «النقرس» . فالهستيريا تتلمس أضعف الثغرات في بناء الكائن . واكلها مقاومة . وتهاجمه .

ويبهظ الطبيب رأسه ليكتشف الهستيريا ما بين النقيضين . المرض المزعوم والمرض العضوي .

وقصة مارجريت البكماء التي سردتها أكثر الامثلة تدليلا على ذلك . فليس من شك ان الفتاة كانت تتظاهر وتقود أفضل الاخصائيين في المدينة من انوفهم بأعراضها المزيفة والمتعمدة . ولكنها تظاهرت بشكل بالغ الاتقان لدرجة جعلتنا نوافق على انها «تخادع» فحسب . لقد أسفرت عن أعراض نيورولوجية بالغة الخطر لدرجة شككت الاخصائيين في وجود ورم بالمخ . وكانت الهستيريا هي التشخيص السليم فيما بين النقيضين : المخادعة وورم المخ . كانت تتوخى بصورة شبه شعورية وشبه لاشعورية الهرب من الدعارة ، والشعور بالراحة النسبية دون عمل منتظم . وبصورة طفيلية ، بعيدا عن مواصفات المجتمع . ويعتبر هذا هروبا وتمردا ، او يعتبر بعبارة أخرى هستيريا .

لقد جاءتنا مارجريت البكماء باعتبارها حالة صرع . وتعتبر النوبات شبه الصرعية من أكثر أعراض الهستيريا توترا . ويصعب أحيانا تمييزها .

وكان بيلا لوكيمست نصف مريض بالصرع ونصف هستيري . كان مليحا ، موثوق التراكيب ، ذو شهية مفتوحة وقدرة طيبة على المرح . وكان يعمل بجد في ورشة الآلات . وكان يغشى عليه من وقت لآخر ، ويفدو مذهولا ، وتدهمه تشنجات صرعية ثم يتجول بعد ذلك في حالة من الرخاوة . ويظل يرقد في سريره خاملا مكتئبا عدة أيام . تشابهت نوباته مع الصرع الحقيقي ولكنها لم تكن حقيقية . كان فيها ثمة شيء مزيف ، واحتيالي . وأيام كان في بودابست لم يكن مقتصدا في نوباته كما هو الحال في الجرانج حيث تصيبه نوبة واحدة في الشهر ، أما هناك فكان يغشى عليه عدة مرات يوميا في الشارع او يسقط من الترام . وبذلك نجح في الحصول على المعافاة العسكرية . ولم يكن ذلك يخلو من صحة ، اذ كان سقيما من الناحية العقلية بفضل أسلوب الحياة الطفيلية . فعاش هنا وهناك على نفقة الدولة محاولا استثارة العطف عليه .

ولقد كانت هذه المجموعة من مرضى الصرع الهستيريين تعاني أيضا من الضعف العقلي بصورة أو بأخرى . وتميزت مجموعة أخرى بانحرافات جنسية شتى الى جانب الطفيلية والضعف العقلي ، بالإضافة الى النوبات شبه الصرعية . وتم ابداع قلة منهم بالجرائج ، ولكنني رأيت المزيد منهم في قسم الامراض العقلية في هارشجي ، وهي مؤسسة معروفة مخصصة للهستيريا الجنسية .

ويجب ان ابدأ شرح هذه الحالات التوضيحية بحالة الفيرا (عروس المساء) التي خبرت أسلوبها غير المألوف في الحياة في هارشجي . وبعد ستة أعوام

أشرفت على تعديله في الجرائح .

درست الفيرا (عروس المساء) لتصبح ممثلة ، ولكنها أصبحت كاتبة على الآلة . فلقد غشي عليها ذات مرة على المسرح فلم تجرؤ بعد ذلك قط على القيام بدور . وفيما بعد تزايدت اغمائها بصورة مضطربة . وعذبها شعور بالخدر ، ومخاوف غير معقولة الى جانب الصداق . وشكوا في العيادة في اصابتها بالصرع . وذكرت للأطباء انها تخشى الحياة الزوجية ، وربما يسبب لها هذا الخوف نوبات الاغماء . وفسرت مخاوفها ، مرجعة اياها الى انها زاولت العادة السرية بإفراط منذ سن مبكرة وانها تشعر بالذنب نتيجة لذلك . وفقدت الوعي بعد هذا الاعتراف وظلت تصرخ عدة ايام مطالبة بمن يمارس معها الفعل الجنسي . وتم اشباع رغبتها . لكن اللذة لم تدم طويلا . فبعد ايام قلائل سئمت المريضة هذه العينة من الحياة الزوجية وحاولت طرد العريس . لكن ذلك جاء متأخرا ، وكان يجب اتمام الزواج . وأثبت العريس انه ليس عاملا علاجيا يبعث على الرضى . كان رجلا منحرفا شديد الافراط جنسيا جعل يطالب زوجته عدة مرات يوميا بأن تؤدي واجباتها الزوجية بشتى انواع الطرق . ومما رواه لي الزوج بنفسه ومن وصف المريضة وامها ، تبينت انه يبهظها الطلب .

ومرت الاعوام ، وغدت النوبات الصرعية اكثر تواترا . وحين حولت المريضة الخطوة الى عنبري كانت قد بلغت ما هو اكثر من السأم لا من زوجها فحسب ، ولكن من الأطباء ، والمستشفيات ، ومن الدجالين كذلك ، الذين ترددت عليهم عدة اعوام . كانت تطلب النصيحة من كل مخلوق وتنفذها ، لدرجة جعلتها تفقد كل عاداتها تدريجيا . أوصاها احد الناصحين بعدم التدخين ، وآخر بعدم التردد على دور اللهو ، وثالث بعدم الاكل نهائيا ورابع بالامتناع عن العمل ، وخامس بتجنب المجتمع ، ولكن نوبات الاغماء لم تتوقف ولم تعد تفكر في شيء سوى مرضها . وصاحبها أمها في كل مكان ، لم تكن تجرؤ على مجرد الخروج بمفردها . واصطحبتها الأم ايضا الى الجرائح . ورددت لنا التفاصيل التي تثير الاهتمام ، من ذلك مثلا ان الجميع كانوا يعيشون في حجرة ، الوالد والوالدة ، والابنة ، وزوجها . لذلك لم يكن مما يدعو للدهشة ان تكون الام ملعة الماما كاملا بحياة ابنتها الجنسية ، وكانت المرأة تنام عادة في سرير أمها لتهرب من زوجها الذي تحبه ، والذي كان معرضا عنها . واخبرتنا الام المتوفرة على الملاحظة ان نوبات الاغماء التي كانت تغتور ابنتها تتشابه بصورة غريبة مع الفعل الجنسي ، وسرعان ما اكتشفنا صحة تشخيص الأم . وأمكن تلافي النوبة بصورة تدعو للدهش . فذات مرة ، وفي بداية احدى النوبات ، صاح احدهم من على الباب يستدعي الفيرا على التليفون ، فزوجها يطلبها ، فتوقفت النوبة بفتة ، وهرعت الفيرا الى التليفون .

وذكرت الام ان ابنتها مارست العادة السرية منذ كانت في شهرها الثامن عشر . وحاولوا منعها في البداية وعاقبوها على ذلك ، لكنهم خشوا فيما بعد ان يتسببوا في ضررها ، فتركوها تستمر في ذلك . وكان هذا ما فعلته في اصرار ،

حتى بعد ان تزوجت ، كما اخبرنا زوجها ، الذي تعرفت عليه ايضا . كان شخصا كريها ، قاسيا وعنيفا ، وكان من السهل تصديق شكواي زوجته ، وحتى هو لم ينكرها . وذكر لي انه برغم انه لم يدخر وسعا في تأدية واجباته الزوجية ، الا ان زوجته لم تكن ترضى قط ، واكثر من ذلك ، كانت تزاول العادة السرية ، عقب المباشرة الجنسية .

حاولنا اقناع الزوج ألا يكون أنانيا لحوحا ، والزوجة بأن تتقبل منه الاشباع ولا توفره بذاتها .

وكان العلاج ناجحا . وتعلم الزوج اسرار الزواج السعيد ، وقلت النوبات تدريجيا . وسعدت الفيرا بزوجها ، وعادت تأكل ، وتدخن ، وتعمل ، وتستمتع . وشعرت انها شفيت . ولم أقل عنها تفاؤلا . اما فيما يتعلق بالزوج ، فقد كنت متأكدا انه لن يستطيع ضبط نفسه طويلا . ورغم اني قمت باقناع والديين بمبارحة الحجره كل ليلة لبضعة ساعات كي توضع لاستخدام الزوجين الشابين الخاص وطلبت من الام الا تأخذ الابنة الى سريرها ، فقد بدا هذا الحل لا يبعث على الرضى .

ولم تعتورني الدهشة حين تسلمت رسالة من الفيرا بعد ست سنوات . لقد احسنت انها على ما يرام لبضعة شهور عقب العلاج ، ولم تعاودها النوبات ، ولكن حين بدأ زوجها «يطالب بالمزيد والمزيد من الامور المستحيلة» عاودتها النوبات . الامر الذي ضايق الزوج ، فكف عن مطالبه . وانفصلا اخيرا . وارتحل الزوج ، ولكن لم تتوقف وطاته ، كما لم تتوقف النوبات وعادت الفيرا تنتقل من طبيب الى طبيب ، وتتردد على المنومين والدجالين ، واعتبروها مريضة وعولجت بعقاقير الصرع ، وكل ذلك دون طائل ، ولم تعد تعرف ما الذي ينبغي ان تصنع . ولا انا ايضا . فلا يمكن لمشكلة الهستيريا ان تحل الا اذا غيّر المريض حياته كلها ، وبيئته تغييرا كاملا وشاملا . لكن الناس لا ينفصلون عن بيئاتهم . لقد انجزنا مع الفيرا نصف المهمة ، حين افلحنا في وقف نوباتها ، وكان من الافضل ان تنفصل عن زوجها الفظ وتجد السزوج المناسب . ولكن من لديه القوة لتحقيق ذلك ؟

سبق وتسبب مناخ الجرانج في عدة مفاجئات . ربما تساعد البيئة الجديدة الفيرا ايضا ؟ كتبت اليها استدعيها وسوف نتكفل بالباقي . وصلت بالسيارة ، بصحبة امها - بالطبع - التي لم تفصل عنها منذ اعوام . حين هبطت من السيارة كان منظرها يثير الاشفاق . هزلت ، وأصبح وزنها سبعة ستونات على الرغم من انها طويلة وذات عظام عريضة . جعلت تلقي نظرات زائفة (أصيبت بالنوبة في الطريق) وتلعثمت ولم تجرؤ على مبارحة امها لحظة . كانت في الثلاثين الا قليلا ، امرأة مطلقة ، كانت تعمل منذ سنوات قلائل موظفة في احد المكاتب ، ولكنها تبدو الان كمراهقة خجول . اخبرتني امها انه تم اعتبارها مريضة مستعصية ، ومنحت معاشا قدره خمسمائة وسبعون فورنتا .

وانها تتعاطى العقاقير الخاصة (فينيتيون Phenyttain وباربيتيرات barbituarates الادوية المعتادة للصرع) ومع هذا تصاب بنوبة او اثنين يوميا ، ومن ستة الى ثمانية في اسوا الفترات . ونادرا ما يمر يوم دون نوبة على الاقل . وخلال السنوات الثلاث الماضية مرت بها فترة مقدارها ثلاثة اسابيع لم تعثر بها اية نوبات . اعترف انني شعرت بالخوف عندما رايت حالة الفيرا ، وقرأت سجلها الطبي ، واستمعت الى تفسيرات امها الموضوعية . ما الذي يمكن ان نصنعه مع مثل هذه المعتلة فيزيقيا وعقليا ؟

خلت الايام الخمسة الاولى من النوبات . كان الطقس سيئا حقا ، لدرجة جعلت اشد المرضى عزيمة لا يؤدون اي عمل جاد . ومضت فيرا تتسكع دون ان تلوي على شيء . تكلمت قليلا ، وظلت تكرر خمسة عشرة مرة يوميا بصوتها المتلثم بطريقة مصنوعة كيف ناشدت امها ان تعثر عليّ كائني هدية عيد الميلاد ، وكيف تمكنوا اخيرا من العثور عليّ . وانهم في ليبوتميزو لم يخبروهم اين اقيم ، فاقفت امها اثري حتى جبال بروتسوني ، واخيرا وصلت الفيرا الى الجرانج ، لتعبر لي الان عن مبلغ السعادة التي ستكون عليها امها وابيها واخيها وعمتها وابنة اخيها وابنتها في العماد . اذا عالجنني «الاستاذ العزيز» . ولم تكن تقول شيئا خلاف ذلك . يبدو ان الفيرا غدت بلهاء .

في اليوم الخامس اصببت باول نوباتها ، حدث ذلك بعد ان صفا الجو وارسلناها لانتقاء الحشائش مع الآخرين .

لقد كرهت تنقية الحشائش ، على الرغم من انها لم تذكر لنا ذلك ، فشكت من صداع نصفي يقاوم اي انواع المسكنات . وبفترة هوت وجعلت ترفس بقدميها وتضرب على غير هدي ، ثم تترنح في غيبوبة .

ثم جاء اوان جمع السبانخ . الذي لم يستهو الفيرا في شيء . كانت تكره تناوله او جمعه . كانت سحنتها تنقلب حين تقرب حقل السبانخ او طبق السبانخ ، فتسقط على الارض او تنزلق تحت المائدة . ولم تكن تحب اخذ الدوش البارد في الصباح كذلك . في هذه المناسبات كانت تخط رأسها في بلاط الحمام الصلب .

ويجب ان اذكر انها لم تكن تحافظ على نفسها اثناء نوباتها . وهناك ثمة اعتقاد خاطيء مؤداه ان النوبات لا تعتور المرضى الهستيريين قط حين يكونون بمفردهم وانهم لا يؤذون انفسهم ابدا . ولكن ما اكثر ما قفزت الفيرا من فراشها لتسقط على رأسها ، حتى وهي بمفردها في حجرتها وكان يتعين علينا اخراجها من تحت السرير التالي وهي مقطوعة الحاجبين .

وبينما كانت تترنح ذات مرة في حقل السبانخ ، قالت للسيدة الاولى «الامر شديد الغرابة ، يا اماه .. يبدو كأن صوتا يردد على مسامعي باستمرار . ليس هذا ضروريا ... ليس هذا ضروريا ...»

حسنا ، أدركت السيدة الاولى ان الفيرا عازفة عن جمع السبانخ ، وان الصوت أخبرها لهذا بعدم ضرورة الامر . وذكرت الفيرا فيما بعد ان العمل الشاق في الشمس المشرقة لا يفيد ، وانه ليس من الضروري تعذيبها بمثل هذه الوسائل . كان الاشتمزاز يرسم على وجهها ، وبدت مكتئبة وهي تتحسول بنظرات محملة بالشكوى . وكلمت أمها تليفونيا تخبرها ان المكان على ما يرام وان كان المنزل أفضل بلا شك . كان البشر يعتربها في المساء ، ويعتدل مزاجها بصورة ملحوظة بعد انتهاء ساعات العمل ، وتقبلت ملاطفات رجل يكبرها سنا فجعلت تسير الى جواره وقد تشابكت ذراعيهما . وكانا يرقصان ويتبادلان الغزل - في مثل هذه المناسبات لم تكن تصاب بالنوبة .

وسرعان ما هزمتنا . من يواتيه قلبه ليدفع بها الى حقل السبانخ ما دامت تفقد وعيها كل عشر دقائق ؟ كانت الممرضات يتركنها تنام في الخيمة ، عندئذ لا تعتربها النوبات .

واحصينا فيما بين خمسة عشر الى عشرين نوبة يوميا ، حتى تعبنا من العدد . واحصيت ذات مرة تسعة نوبات متتالية ، حدثت جميعا بين ذراعي . كان الامر المثير للاهتمام انها كانت تفقد الوعي تماما خلال النوبات . وكان في وسع المرء ان يتبين من وجهها ان النوبة سوف تواتيها . . اذ كانت تعتربها نظرة مرتبكة ثم تنقلب سحنتها ، وترفع ذراعيها ، وتنفس بصعوبة ، وتدفع بقدميها ، وتنزلق لتسقط على الارض ، تحت المائدة او السرير ، او تكفي بالرقاد على الارض رافعة ساقيها . وتتقلص عضلاتها وتتصلب - ثم ينتهي كل شيء ، تنهض في ذهول وتحملق حولها وقد ارتسم على رجبها تعبير كئيب . لم يكن هذا تصنعا بالتأكيد ، او مشهد لاثارة العطف او غشا - ولكنه لم يكن كذلك وبالتأكيد نوبة نمطية من الصرع .

وفي بداية الامر كانت وجباتها بمثابة تعذيب اضافي . كانت تستغرق تسعين دقيقة في تناول طعامها . ولكن سرعان ما تغلبنا على ذلك ، فأقبلت على الاطعمة الدسمة بفضل الانسولين . سرعان ما غدت ذات شهية ممتازة ، فكانت تأكل نصيبا مضاعفا من كل الاصناف ، وتشرب اللبن الذي نحضره لها من مزرعة مجاورة وتتسلم طرد اغذية من المنزل كل اسبوع ، كانت تأكله عن آخره . وكان هذا بداية شفائها ، فحين زاد وزنها ، اصبحت نوباتها اقل توترا . وتحسن الجو ، ولم يتبق ثمة سبانخ ، فبدرنا امر الحاقها بعمل أفضل - واعتادت الفيرا ببطء على العمل ففدت تمارسه طواعية وبدون نوبات وكانت أمها ايضا تكتب لها لتشجيعها . وتضافرنا جميعا على تشجيعها والتأكيد على تحسنها حتى بدأت تسير في اتجاه التحسن فعلا .

ثم انتفى ذلك جميعا مع حلول موعد عطلتنا الصيفية .

خشيت ان تحدث المتاعب مع الفيرا اثناء غيابنا . كانت متعلقة بي كما لو كانت لدي قوة سحرية ، فتوقعت ان تتدهور حالتها . لكنني لم اعتقد قط انها

ستصير على هذا النحو من السوء . داهمتها النوبة عشرون ، ثلاثون ، أربعون مرة في اليوم ، ولم تكن تفيق من حالة الرخاوة ، واثناء فقدانها الوعي ، مزقت كتابا سميكا من كتب القصص مزقا صغيرة . ورفضت العمل رفضا مطلقا «انني مريضة ولست عاملة» . وكانت تصيح في الممرضات بشكل عدواني ، فبدأوا يكرهونها ، وكان في وسعهم ان يتبينوا تشابه نوباتها ونوبات الصرع الحقيقية . فاذا صاح فيها الطبيب العجوز خلال النوبة «كفي عن ذلك يا الفيرا» كانت تدور بباصريها في ذهول وتتوقف فعلا . وحين كانت الممرضات يصحن فيها غاضبات «كفاك هستيرية يا الفيرا ، فقد سئما من ذلك» كانت تتوقف لتعود من جديد في خلال خمس دقائق . أما في لحظات صفائها ، فقد كانت ترقص ، وتغني ، وتقبل من تلتقي به من الرجال كيفما اتفق . في مثل هذه الاوقات كانت تعترف انها «بحاجة الى رجل» . ورفضت الادوية ، والقت زجاجة اللبن على الارض ، وداست على نصيبها من الخبز والجبن ، وغمرت نفسها بالاقدار ، ومزقت ملابسها وبللت نفسها . وفي صبيحة احد الايام هرعت وهي عارية تماما الى حجرة المعالج المهني وعرضت عليه عرضا صريحا . وعندما رفض شرعت تقبل المرض النوبتي العجوز وتبث فيه الذعر بما أبدته من رغبات .

وارسل المعالج المهني خطابا قاطعا الى بروتسوني يسألنا النصيحة . لقد قلبت الفيرا الهدوء والصفاء في الجرائح كله رأسا على عقب . ولحسن الحظ ، كانت عطلتنا على وشك الانتهاء . فشرعنا في العودة . وأدركت الفيرا تماما اننا سنصل في ظرف يومين ، وكأنما بفعل ساحر توقفت التشنجات والاضطراب . ولم تعد تذكر ما قامت به . وأصبحت في وداعة الحمل . وحين وصلنا ألقى بنفسها على أعناقنا كالطفل .

وأعقب ذلك شهران بلا نوبات . منعنا الادوية ، وظل الحال كما هو . ومرت فترة الطمث الشهري دون نوبات ، بالرغم من ان هذه من الفترات الحرجة . وزاد وزنها ، واستمتعت بالمشاركة في الالعاب ، واشتغلت بجد ولم تعد تتلعثم - لا داعي للانكار ، اعتقدنا انها شفيت ، خاصة انها كانت تحصل على «العلاج الجنسي» . كان شريكها يكبرها قليلا ، وكان سيكوباتيا من مدمني الكحول أودع الجرائح لصابته بحالة من الاكتئاب . وقع في حب الفيرا ، فاعتدل مزاجه . واستعاض عن الشرب بالسير معها وقد تشابك ذراعيهما .

ولم تصل هذه العلاقة بين الرجل المجرب والمرأة المطلقة الى مرحلة الحب الناضج بسهولة . كانت الفيرا تتصنع الحياء والتكتم ، يثير فيها زوجها السابق ذكريات مؤلمة عن الجنس . ولكن العاشقان التقيا في النهاية ، وأدركت الفيرا ان الامر شديد الاختلاف عما خبرته مع زوجها . كانا قد شرعا في التفكير في الزواج ، وكان البشر قد غمرنا جميعا ، حين وقع امر مثير للدهشة . فجأة شرعت النوبات تعترى الفيرا ، نوبات اكثر عنفا عن ذي قبل . فأغمي عليها من عشرين الى ثلاثين مرة على مدى اسبوع كامل ، مقاومة اقوى المهدئات والحقن ، والصدمات

الكهربائية ، ثم توقفت النوبات ، ولكن اعترتها غيبوبة استمرت أسبوعا .
وتعني الغيبوبة ان اللاشعور انفلت من رقابة الشعور وبدأ يمارس حياته الخاصة . وهي مرحلة تتسم بالهلوس والقلق النفسحركي Psychomotoric وظلت الفيرا تقفز وتتكلم سبعة ايام دون لحظة راحة . وتحشرج صوتها فلم يعقها هذا عن الكلام . وضافت بالملابس ، فكانت تهوول وسط الرجال عارية ، وتلقي بنفسها عليهم وتجذبهم نحوها . وكانت تبلبل نفسها كل ساعتين . وانتفىس احساسها بالخجل ، تماما ، فكانت تجري في الاستراحة ، وتباعد ما بين ساقيها وتتبول . او تبرم بطانيتيها برما محكما ، وتضعها بين فخذيهما وتظل تمارس العادة السرية عدة ساعات ، وفي نفس الوقت تتكلم ، وتغني وتصبح بلا توقف - وأحيانا بالشعر .

وحدقت اولا في الفضاء بنظرة عديمة المعنى ، وكررت آلاف المرات «من اجل السلام والصلاح - كل وراء الآخر» . ثم تتطلع فيما حولها وتعلن في دهشة انها قد قامت ثانية «يا لله ، ويا للغرابة ، لقد قمت من بين الاموات .. وكذلك والديّ العزيزين ايضا .. يا لكميات الازهار .. هذا لا يوجد هنا ، اليس كذلك؟... انه في العالم الآخر ، والآن كل شيء يبدأ من جديد .. لقد بعثت من القبر ، اليس كذلك؟... ولكن كيف وصلت الى هنا ما دمت قد مت ؟... لا ريب انني قمت من جديد ... سوف تعالجنني يا دكتور .. لقد قمت من القبر ...» وشرعت في الهلوسة فيما بعد ، وسمعت اصوات والديها وتحدثت معهما ومع زوجها كذلك ، فيما قبل كانت تتحدث عنه بوضوح ، فتعلن رفضها الدائم له ، ولدهشتنا أصبح ما تردده الان على النحو التالي :

«اليكس ، عزيزي اليس ، تعالى ! تعالى ، ماذا تنتظر ؟ تعالى وأرقد الى جانبي ! اين انت ؟ انني اسمع صوتك يا اليكس . لا ريب انه يخلع ملابسه الان . لقد شفيتني . انا زوجتك ، وسأكون لك وحدك . انك زوجي اليس كذلك . تعالى ، تعالى يا اليكس ، سأصنع ما يرضيك ، ولكن احترس من ان تسبب اية متاعب . تعالى هنا ، تعالى الان ، اين انت ، انني اسمع صوتك ، سوف اكون لك يوميا . انني سأطير . تعالى ، انني احبك انت ، انت وحدك ، تعالى اليّ لانني اكاد اطيّر . اليكس ، اليكس يا عزيزي اليكس ، تعالى ، تعالى السيّ بسرعة ، سأكون لك ، يا عزيزي اليكس تعالى هنا اليّ ... قبلني ، قبلني . سوف اصنع كل ما يرضيك . زوجي ، زوجي ، عزيزي اليكس . لن اعود اليها من جديد ، لن اتمزق الى اشلاء مرة اخرى . لقد قمت من القبر . كل انسان يصنع ذلك . ماذا تقول ؟ ألم تصنع ذلك ؟ لقد خرجت من القبر ، لقد قمت . هناك استاذ رائع جعلني أقوم . لا زالت السيدات يتكلمن . دعوا سعادتها تتكلم . لقد فعلت ذلك ايضا . كل انسان يصنع ذلك . تعال ..»

كان في وسع اي انسان ترجمة هذا الكشف اللاشعوري الصريح ، وكان تدوينه من السهولة بمكان لانها ظلت تردده دون انقطاع لمدة ثلاثة ايام . وغدت بعد

ذلك اشد عدوانية . وتخلت عن فكرتها الطيبة عني ، وطفقت تسبنا جميعا
بالفاظ مقدعة ، وتبصق ، وتدفع الممرضات وترفسني . وزادت هلاوسها ،
وسمعت اصوات مختلف اعضاء أسرته ، وكانت ترى شابا ناعم الشعر . ثم
اخذت تكرر عبارات غير متماسكة آلاف المرات ، من ذلك مثلا «يا إلهي ، سأفرز
ما لا يكون ! يا إلهي ، سأفرز ما لا يكون ! يا إلهي سأفرز ما لا يكون !...» او
«لقد مت ، بالطبع ، ودفنت . امه ، سأفرز ما لا يكون .»

لم يعد ثمة اثر للحياء السابق و«الرقعة» . وحين كانت الممرضة تستدعيها
الى التواليت ، لتتحاشى تبولها على الارض كانت تصيح في وقاحة «انا لست
مجنونة ، سأرفسك في معدتك !» وترفسها فعلا وصفقت المعالج المهني وحطمت
النوافذ ، وتفوهت بالشتمات المقدعة . «اذن فأنتم تريدون اخضاعى ؟ اذن انتم
تبتغون طردي ؟»

وبعد اسبوع من الغيبوبة بالضبط استفاقت الى نفسها . ولم يعد ثمة اثر
للاضطراب او الهلوسة . ولم تتذكر شيئا على الاطلاق . «لقد أخبرني المرضى
بكمية السخافات التي تفوهت بها .. انني مت وما أشبه ... وكيف تصرف
بصورة مروعة ... اوه ، لشد ما أشعر بالخجل» . ولا ريب في انها كانت
ستشعر بالخجل ، فيما لو كانت مسئولة عن لا شعورها - وهذا امر متروك
للمناقشة .

ثم قضت شهرا خلو من النوبات ، في سلام وهدوء . وزارها والدها ،
فقدمت لهما خطيبها وقد تضرجت خجلا، وسألت وتلقت موافقتها الابوية . واثناء
فترة طمئنها ، اعترتها بضعة نوبات خفيفة اوقفناها عن طريق الحقن . وتحررت
من نوباتها لمدة اربعة شهور آخر ، وذهبت الى منزلها لتمضية اجازة . وغدا
الجميع سعداء ، لقد تحول الهيكل العظمي المنهك الى مخلوق نشط ومستقل جيد
التغذية .

ثم دب سوء التفاهم بينها وبين خطيبها الذي «لم يستطع مجاراتها» . وأدى
ذلك فورا الى حدوث النوبات ، وبعد بضعة ايام عاودتها الغيبوبة . عاودها
اضطرابها بصورة بالغة السوء كما في المرة الاولى وان جلست هذه المرة مستفرقة
في نفسها في حالة من الرخاوة تردد فيضا من اللغو . واعترتها بعد ذلك بستة
اسباع فترة اخرى من الرخاوة (لم تعرف ما الذي اثارها) كانت قد عادت لخطيبها،
ولكنهما كانا يتقابلان لاما) وأدركنا عندئذ امكانية علاج الغيبوبة بحقن اللارجيكتيل
Largactil . ثم اصبحت تعترها نوبة واحدة في الشهر ، في المتوسط ،
وكذلك حالة الرخاوة التي تسبق الغيبوبة ، ولكن حقن اللارجيكتيل كانت تعيدها
على ما يرام خلال ايام قلائل . وساد التفاهم الكامل بينها وبين خطيبها . ولم تعد
تذكر زوجها السابق ، حتى في حالة الاضطراب ، وانما كانت تتساءل متسى
تستطيع الزواج من خطيبها ، ومتى يكون لهما سكنهما الخاص .
وكان هناك ثمة خلفية جنسية وراء هذا التفاهم الكامل . لقد لاءمت الفيرا

بين مطالبها وقد رأت **خطيبها** . فاستطاعا ان يجدا الاشباع لدى بعضهما البعض مقدما كل منهما للآخر افضل ما عنده . وكان هذا يعني الكثير . فمعظم حالات الهستيريا تنسم بافتقاد الاشباع الجنسي - وعدم التناسب الفيزيقي والعقلي بين الرجل والمرأة ، وتفاوت الاحتياجات .

وحين اصبحت الفيرا على ما يرام ، زاد وزنها ستونان . ومن الغريب انه في الشهر الاول تضخمت بطن الفيرا في الشكل والحجم فبدت كأنها حامل في الشهر السادس . فحولناها الى اخصائي في امراض النساء لان الجميع ظنوا انها حامل - على الرغم من انها لم تكن كذلك . ولم تنشأ مظاهر الحمل نتيجة زيادة وزنها فحسب ، وانما للغازات التي تجمعت في بطنها . كان التفسير السيكولوجي لهذا الامر ان الفيرا تريد ان تصبح حاملا ، فأمرها تكوينها الجسمي المناسب بهذا «الحمل الهستيري» . وعندما تبينت الفيرا على نحو شعوري ولا شعوري انها ليست حاملا ، هبطت بطنها ، على الرغم من انها استمرت تزيد في الوزن . وغدت الفيرا حسنة القوام .

كان هذا آخر أعراض الفيرا الهستيرية . وتخلت فيما بعد عن الرغبة في الحمل ، كما تخلت عن زوجها السابق ، وعن العادة السرية وأصبحت كاتبة ممتازة على الآلة تحلم كيف ستؤث وتدير شؤون منزلها . ويمكن القول مرت عبر مدرسة الشذوذ الجنسي المرير حتى تعلمت ببالح الصعوبة كيف تعيش حياة جنسية سوية ، وهي لم تتعلم ذلك فحسب ، بل لآمت نفسها لذلك فيزيقياً وسيكولوجياً . وعندئذ توقفت أعراضها الهستيرية .

ولكن ماذا بخصوص الصرع ؟

لم تشف من الصرع . ظلت تعترتها نوبة الصرع بين الفينة والفينة ، عدة مرات شهرياً ، اثناء فترة الطمث غالباً . في هذه المناسبات كنا نعالجها لنمنع ازدياد النوبات . وأوضح ازدياد ضغط القلب ان هذه النوبات ذات منشأ عضوي . وكانت حقن اللارجيكتيل تتكفل بحالات الرخاوة والاضطراب .

ولكن بقي شيء واحد لم تنفع معه الحياة الزوجية ولا حقن اللارجيكتيل وكان ذلك تناقص قواها العقلية . لقد غدت الفيرا على جانب من الفناء ، ضاق أفقها ، وغدت قدراتها الناقدة شبه طفلية . ولحسن الحظ لم تفقد قدرتها على الكتابة على الآلة او الهجاء رغم حالة العته الخفيف ، فقامت بنسخ صفحات كتاب «القصص الموه» باعتبارها كاتبة ممتازة على الآلة .

وشرعت تعد العدة لزواج قريب .

ويجب اضافة بضعة سطور عن زوج المستقبل . سبق ان ذكرت انه كان يعاني من السيكوباتية وإدمان الخمر الى جانب الاكتئاب الاستجابي . ولكنه لم يتعاط الخمر لدينا سوى مرة واحدة خلال سنتين ، كما لم تعتربه حالة الاكتئاب سوى مرة واحدة خلال ثلاث سنوات . فلقد تسبب الشجار مع الفيرا في عودته للشرب هذه المرة ، اما الاكتئاب فقد تسبب عن جرح عقلي أصابه به احد المرضى الآخرين .

كان يعمل بناءً ونجاراً . ولم يعد مريضاً بعد ، وإنما أصبح موظفاً فسي
المؤسسة . كان عاملاً ماهراً يعول عليه . وبدأ يعد العدة بدوره لحياته الجديدة ،
ولزواجه . ودبراً امر السكن والاثاث في الجرائح ، سوف يستأنفان حياتهما
هنا ، فنحن بحاجة الى بناء والى كتابة على الآلة . وكانت الفيرا محتاجة الى
العلاج من وقت الى آخر ، وكان كليهما بحاجة الى بيئة تبسط عليهما الحماية .
دعونا نتوقف هنا .

هذه ثاني الزيجات التي تمت في مؤسستنا . كانت الاولى زيجة دنيس
القافز في البئر وممرضتنا . وكان دنيس القافز في البئر حالة هستيرية ،
وكذلك كانت حالة الفيرا (عروس المساء) وخطيبها المريض بالاكتئاب . لقد افلحنا في
علاج ثلاث حالات هستيرية ، عن طريق تعديل ظروف الحياة تعديلاً أساسياً
واعطيناهم هدفاً لحياتهم ، وعملاً وبيئة ملائمتين ، وساعدناهم على تنظيم حياتهم
الجنسية ، وانهينا ارتباطاتهم الباثولوجية بالأم ، والزواج الاول ، والزوجة الاولى .
وساعدناهم في اختيار شريك للحياة وعاوناهم على التغلب على مصاعب الحياة .
توجد ثمة أمور أخرى ضرورية لتحقيق الشفاء المناسب والمستمر - وربما
الدائم بالإضافة الى العلاج الطبي . أجل ، ولكن متى ، وأين ، ومع كم من
الحالات يستطيع المرء النجاح في تعديل قدر المريض على هذا النحو الجذري ؟



لقد سردت قصة الفيرا (عرس المساء) بهذا القدر من التطويل لأنها كانت من
الحالات البالغة النمطية . وهي تعتبر نمطية لان افتقاد الاشباع الجنسي يختبئ
عادة خلف أعراض الهستيريا ، ولأن الأزواج في معظم الاحيان لا يعاونون الا
بأنفسهم دون النظر الى زوجاتهم . ومما يدعو الى الدهشة ان الفعل البسيط
الذي تستطيع الحيوانات ممارسته بصورة طبيعية وبدون سابق تعلم يمكن ان
يصبح مصدراً للعديد من المشاكل في عالم البشر . ولو لم تمحصني التجربة ، لما
استطعت ان ادرك كم يبلغ عدد الرجال الذين يجب تبصيرهم بأن تحقيق اللذة ليس
وفقاً عليهم فحسب .

وهناك مريضة أخرى ، كانت تعاني من جنون الشبق Nymphomania
ولم تكن تسفر عن اي أعراض صرعية ، وإنما كانت تشكو من حكة شديدة لسم
تستطع جميع وسائل علاج الامراض الجلدية وقفها جاءتنا جولي (المرضة) وهي
تبلغ من العمر اربعين عاماً . كانت ظروف عائلتها أشبه بما تضمه احدى روايات
دستوفسكي . كان والدها اسكافيا وامها امرأة غريبة الاطوار أصابتها حرفة
الادب ، تزوجت ولها ابنة من زوج غير شرعي ، ثم انجبت فيما بعد خمسة أطفال .
ولم يكن الزواج موفقاً لاسباب كثيرة من بينها ان الزوج دأب على مغازلة ابنته
بالتبني (تزوجها فيما بعد ، وأنجبا خمسة أطفال آخرين) . «وجنت» الام نتيجة

لذلك ، على نحو لم أتبينه ، وان كانت منيتها وافتها بإحدى المصححات العقلية . ولا يصعب تصور أي ضرب من الطفولة ذلك الذي خبرته مريضتنا في مثل هذه البيئة . كانت في نحو السادسة أو الثامنة حين شرع والدها يؤجرها لمعارفه ، لاشباع ميولهم الجنسية المنحرفة مع الفتاة .

وولدت طفلها الأول في سن الثامنة عشر ، ثم أنجبت طفلين آخرين لا تعرف من يكون والدهما . ثم ولدت أيضا ثلاثة توائم ، ماتوا فورا لحسن الحظ . وكبر اولادها الآن ، وأصبح أكبرهم في الثانية عشر . ولم تكن تحفل بهم على الإطلاق . وحينما كانت ترضع طفلها الأول عملت مرضعة لدى أسرة أرستقراطية رفيع الشأن ظل يبسط حمايته عليها لمدة طويلة . في تلك الاثناء ظلت تأمل في تحقيق أطماعها العريضة في الزواج من أحد ذوي المراكز . ولكنها فشلت . كانوا يكتشفون حياتها الداعرة واكاذيبها المرضية ان أجلا أو عاجلا ، فينبذونها . وزاد ترددها في الهاوية . لم تكن تزاول البغاء لأسباب اقتصادية في الغالب ، بقدر ما هو لاشباع حاجاتها الجنسية . وعلى الرغم من ان لها جم غفير من العشاق ، وأنها لم تترك وسيلة منحرفة للاتصال الا وجربتها، الا انها لم تلتق باللذة المنشودة . لقد كانت هذه المرأة الشبقة التي تبلغ من العمر أربعين عاما تزاول العادة السرية في المصححة العقلية بلا حياء .

وبالإضافة الى ذلك ، كانت تكذب وتفش بقدر ما تسمح لها شخصيتها الهستيرية . حتى جلدها كان يكذب . فيصاب بالحساسية التي تستعصي على كافة أنواع المراهم وكل حقن طبيب الامراض الجلدية . ولم تقاوم العلاج النفسي . فأمكن خلال اسابيع قلائل ان نضع نهاية لطفحها الجلدي . بيد ان هذا كان علاجا سطحيًا يتناول المظهر . ولم يكن من السهل الوصول الى جذور الشر - الى شخصيتها الهستيرية المريضة بجنون الشبوق المليئة بالمخاتلة .

يوجد بعامة ثمة خطأ ما في قيم المرض بالهستيريا الاخلاقية . لا يقتصر على الجنس فحسب . ويبدو هذا مفهوما ، نظرا لان خداع العالم هو جوهر مرضهم ، وكذا محاولة الظهور بشكل مبالغ فيه وعلى نحو مغاير - وهذا امر لا يمكن الحصول اليه بطريقة أخلاقية . ويكون هدف الخداع بعامة ضربا من ضروب الطفيلية . وهذا نوع بسيط نسبيا من التطفل حين يستهدفون من ورائه مجرد التطفل على المجتمع . انه أسلوب الهستيريا البدائية . وهو ما يمكن مشاهدته داخل الجرائح لدى مرجريت البكماء ، والزوي ويني ، وجودي ديوك . فهن لم يصرن بفيات بسبب شبقهن الزائد وانما لميولهن الطفيلية وافتقادهن الى المعايير الخلقية . كما كن ضعيفات العقل بصورة تزيد او تقل ، لا تخلو اجتماعيتهن من هذه الجوانب الخطرة التي تتوفر لدى المحتالين الهستيريين غير المجانين .

هناك مارتا ستوت على سبيل المثال . لقد كان هذا البرج من الشحم التي تعاني من البدانة المفرطة نتيجة اختلال هرموني تحمق في العالم في وداعة عجل .

كانت تشكو من أعراض نوربستانية ، ولم يشك احد عدة اسابيع انها تشكو من متاعب اكثر خطورة . ولكن كشفتها سرقة ارتكبتها على نحو أخرق . وحين تبعتها الخيط ، اكتشفنا انها كانت تسحبنا من أنوفنا عدة اسابيع بأكاذيبها المرضية . كانت أكاذيبها في معظمها تبدو بريئة وبلا هدف ، كانت تكذب لمجرد اللذة . ولم تكن تكذب فحسب بل كانت تتصرف ازاء ما ابتكرته مخيلتها وكأنه حقيقة واقعة . فلقد زعمت مثلا انها اعز اصدقاء ثنائي من الممثلين ، تقضي اغلب اوقاتها معهما ، وتبتاع الهدايا لاطفالهما والادوية لجدتهما ... الخ . وكانت تتصل بشقتها الخاصة في الاوقات التي تعلم ان احدي صديقاتها موجودة هناك ، وترغم انها الممثلة وتحدث حديثا مطولا عن نفسها وعن صداقتها الرائعة . ولم تكن كلمة واحدة من ذلك صحيحة . فلا الثنائي يعرفها ، وليس لهما طفل او جـدة مريضة . لماذا تبتكر هذا ؟ لمجرد التمثيل والضحك خفية . (صنع دنيس القافز في البئر شيئا مشابها حين اتصل بليبو تميزو تليفونيا وروى قصصا مرعبة عن نفسه) وكانت تحاول اقناع معارفها انها عازفة بيانو ممتازة ، وانها بصدد القيام بجولة موسيقية في ربوع سويسرا بدلا من آني فيشر، وتؤكد انها التقت بوزير الثقافة ... الخ وكانت الحقيقة تكتشف في خلال خمس دقائق ، فلقد كانت أكاذيبها مكشوفة جدا . ورغم هذا لم تقلع عنها . كان في مقدورها ان تروي أشد القصص استحالة في بساطة لا تصدق وباقتناع . وكانت تستفيد أحيانا وعلى نحو طفيف من أكاذيبها ، فتقرض ديونا صغيرة او تتلقى هدية ، ولكن هذا لم يكن مهما بالنسبة لها ، فالمهم هو المرح واللعب ، والاثارة . وكذلك التطفل بالطبع ، فعلى الرغم من عقلها الصافي لم يكن في وسعها مزاوله اي عمل .

وتعتبر حالة بيرل (كبيرة العينين) - الرسامة الموهوبة - من الحالات الاكثر خطورة - لا من الوجهة الباثولوجية بل من الوجهة الاجتماعية . كانت وغدة ولصة منذ طفولتها المبكرة . وسبق ابداعها مدرسة اصلاحية حيث تعلمت اصول الحرفة على نحو أفضل (وليس المهنة الشريفة) . كان لديها طفلا وهي في الثامنة عشر من عمرها ، وشرعت منذ ذلك الحين في حياة الدعارة . وعلى الرغم من هذا كانت لديها خطط رائعة ومخيلة واسعة . فشرعت في كتابة رواية ، مدلة عن موهبتها . ولكنها لم تستطع اشباع حنينها الى الحياة الصاخبة في ظل العوز التي تحياها . فاحترفت الدعارة . فكانت تختفي من المنزل من وقت الى آخر لتجول في المدينة او بالخارج . وقضت ثمانية اشهر في السجن بتهمة الاختلاس . وتعرفت على المورفين على يد احد اصدقائها الاثرياء ، ولكنها اقلعت عنه فيما بعد . وتم اعتقالها بعد الحرب ، ولكنها هربت ، وتعرفت على اثنين من الدبلوماسيين، وسافرت معهما الى فيينا دون هدف او خطة محددة . وهناك تزوجت . وكان زوجها ايضا يشبه احدي شخصيات دستوفسكي صورة مجسمة للطيبة والصبر، كانه نسخة من اليوشا Alyosha او الامير ميشكين Mishkin . لم ار رجلا اكثر منه تفهما ، وصفحا ، وصبرا . كان حرقيا بسيطا حولت المرأة حياته الى

جحيم اذا كان في وسع المرء ان يحيل حياة القديس الجحيم . كانت تسرقه ، وتخدعه وتعذبه بنوبات من الثورة ، وتهجره ، وتعود اليه بعد عشرة ايام . وكان عليه في بعض الاحيان ان يبحث عنها في قسم الشرطة . وكان الزوج الوديع يغفر لها كل شيء ويتوفر على تمريضها حين تمرض . فلقد كانت تعتري بيرل نوبات «صرعية» كذلك . وفقدت وعيها ذات مرة لمدة ثلاثة ايام ، لم تستطع بعدها مبارحة الفراش لمدة اسبوع ولم تستطع الرؤية وحين جاءتنا كانت مصابة بشلل هستيري ، بالاضافة الى الصداع ، والقيء وسرعة الاستثارة ، ونوبات الاغماء ، ومحاولة الانتحار . وكانت تحب زوجها وتحترمه بشدة وتذكر مبلغ ما تسببه له من اسى . وكانت تشعر بالخجل وتريد تعديل سلوكها ، ولكنها كانت تشعر بالعجز عن ذلك . كانت تطفح بالندم والرغبة في التوبة - لكنها كانت في نفس الوقت صعبة القيادة ، عدوانية ومزيفة . كانت تباع ادوات زوجها الثمينة لقاء بضعة تفاهات . ثم تنكر كل شيء فيما بعد ، وتروي اكاذيب مختلفة ، وتندم على ما فعلت ثم تعاود كل شيء من جديد .

«هذا هو مرضي الحقيقي» هكذا كتبت في اعترافاتهما . «وضميري ، وذنبي . لا أستطيع ان اضع شيئاً دون ان اثير الحزن او المرارة . هل انا جديرة بالاهتمام وروحي على هذا النحو من الاضطراب ؟ من الافضل أن اضع نهاية مفاجئة لهذا الكوم من الاقدار الذي ادعوه «نفسى» . يا لمبلغ ما بداخلي من القذارة والخطيئة . وليست لديّ الشجاعة للتخلص من ذلك . يجب ان اخفي من على سطح الارض ، حتى يمكن لزوجي ان يحصل على قدر من السعادة في الحياة» . وإليكم ما قاله زوج المريضة :

«اصيب جدها لامها بالجنون في سن متقدمة واضحى شريدا . وكان ابن عم والدتها مجنونا .

«وفي تقديري انها ليست مجنونة ، وليست سوية كذلك . انها لا تتحمل المسؤولية تماما . وتتخلى بمنتهى الطيش عن ممتلكات الاسرة لتساعد الغرباء . وتثور بسهولة ، وتطلق القول جزافا ، أقل مما تنفذه . وذات مرة سافرت دون توقع الى فيينا بلا جواز سفر او حقائب ، وقضت هناك عشرة ايام ، دون ان تعني بأخبارنا . لديها مخيلة واسعة ، وتعتقد الصداقات بسهولة ، غريبة ، تزج بنفسها في أعمال مشبوهة ثم تتهم الجميع انهم يقفون ضدها . انها مندفعة لا تأبه للخطر . تكذب ، وتتمسك بالانكار حتى النهاية وتتمسك بعناد بقصصها الملتوية . وحين تغضب يغمي عليها وتعترىها التشنجات ولكنها لا تؤذي نفسها . ذات مرة عجز الطبيب عن افاقتها لمدة ثلاثة ايام . وانعدمت استجاباتها ، وألقت بنفسها فاقدة الوعي . وهي لا تدلل طفلها او تضربه بدون سبب . (الطفل يشبهها على نحو كبير) . وهي نهمة للجنس ومن المحتمل انها تهتم برجال آخرين ، على الرغم من انني لم اضبطها تخدعني سوى مرة واحدة . . . وهي عدوانية أهانت احدى النسوة أمها - فأوسعت المرأة ضربا الى درجة رقدت معها أسبوعين في

المستشفى . وتعرض لها احد الرجال في الشارع ، فضربه ضربا مبرحا أفقده سنتين ، وجذبت رجلا آخر من شعره حتى انتزعته . وأحيانا تأخذ محاولات انتحارها صورة جادة ، انتشلوها ذات مرة من الدانوب . وانتزعت منها بندقية مرة أخرى . ارادت يومها ان تطلق النار على طفلها كذلك .»

واستطاعت في المستشفى ان «تنهض على قدميها» بالمعنى الحقيقي للكلمة . وعادت الى منزلها معتدلة المزاج ، وهي تعد بتعديل سلوكها . واشتد شفها باحدى الممرضات ، فزارتها في شقتها . وبعد بضعة شهور سرقتها . كانت أشبه بجروشنكا او ناتاشا ايفانوفنا ، فعادت بعد السرقة الى الامر ميشكين ، وغفر لها بالطبع .

وبدا العلاج بالصبر الذي بدأ به زوجها يؤتي ثماره ، فبعد ما يزيد عن حقبة رايت بيرل (كبيرة العينين) مستقرة وادعة . فقدت حيويتها وجمالها وان لم تفقد غرابتها ، أقلت عن احتيالها وتلاشت أعراضها الهستيرية واحدة تلو الاخرى . وانني على يقين من ان شفائها يرجع الى صبر زوجها غير المحدود . وربما يرجع كذلك الى امر آخر — ذكاؤها . لقد فتح العلاج النفسي المبكر بصيرتها ، وأدركت انها لن تجني شيئا من مفامراتها ، ولكنها ستجني الكثير من زوجها . وغدت ربة بيت ممتازة وزوجة مخلصة اصبح في مقدورها ان تشيع البهجة في حياتهما على نحو مغاير . ادركت ان مثل هذا الزوج يعتبر هبة يجب ان تشفي من اجل خاطرها .



اما دون ديسيت فقد تفوق احتيالها بمراحل ، فخدعت قضاة المدينة والاطباء العقليين منذ حداثتها . كانت من اسرة من الاعيان . مات احد اعمامها مريضا بالشلل ، وكان ابنه رساما غريب الاطوار . وكانت عذيلة والدها مسرفة بشكل هستيري ، بينما كانت واحدة من أخواته معتوهة وعصابية ، والاخرى مسرفة ماتت مريضة بالهوس ، وكان ابنها عصابيا . هذا موجز مختصر لهذه العائلة الهستيرية ، وفي وسع المرء ان يتخيل على اي نحو تغدو الحياة بين هذه الشخصيات . وكان والد دون مغامر وامها امرأة انانية باردة ، يائسة تكره ابنتها . ولم يكن ذلك دون سبب . فمنذ مراهقتها ودون تشتت بكذبها ، وتسرق من امها ، فسرقت ساعتها مثلا واقامت بضمنها حفلة لاحدى صديقاتها . وفي سن الثالثة عشر انخلع فكها بفتنة ، فظلت مفتوحة الفم . واستدعي الطبيب لبعيد فكها الى مكانه . ثم أصبح يستدعي مرارا وتكرارا لان الخلع تكرر بصورة بالغة الاضطراب . وكان ذلك يحدث دائما كلما شعرت دون انها أهينت . وفي بعض الاحيان لم يمكن اعادة الفك الى مكانه الا تحت التخدير . وتم اصطحاب دون الى المستشفى ، حيث فحصها الجراحون واطباء العقول دون جدوى . وبدأت

الاسرة تعتاد على هذا الخلع تدريجيا .

وفي سن السادسة عشر تزوجت محتالا سكريا . وعارضت الاسرة الزواج ولكنها اذدرتهم . وخدعها الزوج، وقامر بأموالها . وظل يصنع ذلك عشر سنوات، لم تظل خلالها دون على اخلاصها للزوج المخاتل فحسب بل زودته بالمال ايضا طيلة الوقت . فحالما يكتب الزوج رسالة اليها عن ديونه في القمار (كان يكتب الرسائل لانهما كانا يفترقان عادة) تبيع دون آلتها الكاتبة او ترهن ملابسها دون تردد ، او تسرق او تخدع الناس ، لتتمكن من ارسال النقود الى زوجها ، الذي لم يشكرها قط على ذلك .

ولقد كانت دون ويست فائقة الجمال ، تترك انطبعا طيبا ، وكانت واثقة بنفسها . واذا تطلع المرء في عينيها الزرقاوتين البريثتين لم يستطع ان يتخيل بالقطع ان في وسعها ان تخلع ضبتها بمحض ارادتها وكانت تهوي بعمق في هوة الافلاس . ولم تساعدنا اسرتها . فحاولت التكسب عن طريق الكتابة على الآلة والحياكة ، وحصلت على أعمال بسيطة لا تستحق الذكر ، ولكنها سرعان ما فقدتهم ، وفحصت احدى المصححات العقلية . وهكذا وصلت الى عنبري في المستشفى بمثابة مصحة حقيقية بالنسبة لها ، تستطيع في داخلها ان تستريح من مضايقات الحياة .

وفي البداية كانت بالغة اللطف ، شرحت مأساة حياتها في تعاون وبساطة متناهيين . لم نلاحظ طبيعتها المحبة للوقية الا بعد اسبوعين . غدت كثيرة المطالب والشكوى . فاذا شعرت بالظلم ، ثارت واقسمت ان تنتقم - وسرعان ما ينخلع فكها . لم تكن على علم بعادتها الغريبة هذه فاستدعينا الطبيب المنوب وقد استولى علينا الرعب . وشعر الجميع بالاسف لدون المسكينة ولم يمكن اعادة الخلع الى ما كان عليه الا تحت التخدير بكلوريد الاثيل ، الامر الذي زاد من سمعتها . وفي اليوم التالي تكرر الخلع خمس مرات . والامر الذي يدعو للغربة ، ان ذلك لم يكن يحدث الا وأنا خارج المبنى . وكان في العنبر ثمة طبيب شاب يبدو انه حاز اعجاب دون . فكانوا يهرعون اليه عند حدوث الخلع . وذات مرة كانت دون تستحجم عارية تحت الصنبور ، حين شرعت بفتة في الصراخ تستدعي الطبيب ولكنه لم يأت ... فلقد اصدرت امرا باستدعاء الطبيب المنوب بدلا منه . وكانت النتيجة انه عندما انخلع فك دون «اثناء نومها» وحضر السيد العجوز بدلا من الطبيب الشاب اعادت دون فكها الى مكانه بدون تخدير .

واستطعنا بالعلاج النفسي ، ان نتخلص من هذا الخلع الاحمق خلال بضعة اسابيع . لكننا لم نستطع القضاء على «طبيعة دون المدمرة» لقد كانت المرأة العاجزة تبذل ما في وسعها لتفسد الامور على نفسها . لقد كان العرض الهستيري الذي اختارته من النوع المؤلم (لا يخطرن ببال احد ان الفك المخلوع من الامور المحببة ، حتى ولو تم على نحو هستيري) . لم تكن تتمتع بأي قيم اخلاقية ثابتة ، وانما بنت حياتها على الاكاذيب والادعاءات . وكانت تدرك جيدا اي اساس واه تستند اليه،

واقسمت ان تبدله في المستقبل ولكن تعهداتها لسوء الحظ ، لم تكن لتؤخذ على محمل الجد . وعبنا شرحنا لها عوامل الماضي التي تسببت في وضعها الراهن (العناصر الوراثية والبيئة الاسرية السيئة ، والاب الذي افسدها والام الحقود) لكن هذا لم يصلح من امر مستقبلها . وسيظل العلاج النفسي وسيلة محدودة ما لم تتغير ظروفها كذلك . فالشخصيات التي «يعاد انفتاحها على الخارج» لا يمكن ان تلقى في المياه العميقة بسهولة حتى وان تعلمت بعض السباحة ، انهم بحاجة الى طوق النجاة ، ومع هذا يجب ان يرقبهم المرء عندئذ وفي يده حبل النجاة ، والا غرقوا بالتأكيد .

وتحسنتم دون تحسنا ملحوظا في المستشفى ، واقلعت عن عادة الخلع وغادرتنا في حالة طيبة . وفي نفس الوقت طلقت من زوجها وتبحث الان عن زواج جديد ووظيفة طيبة . كانت جميلة مليئة بالآمال ، ولكن قبل ان ترحل مباشرة ، اختفى معطفها الشتوي . ودبت استشارة عظمى ، وبحث الجميع عنه بطريقة محمومة ، من الذي استطاع سرقة ، ولم يتم العثور على السارق ، ربما لانها هي التي فعلت ذلك ، احساسا منها انها مدينة للعنبر بهذا «الانتقام» . ومن الجائز انها هربت معطفها الى خارج المستشفى في اليوم السابق ، وربما باعته او رهنته ، من يدري ؟ ثم قلبت المنزل رأسا على عقب وبحث عن السارق على هذا النحو من الحماس الكثير . ولكن فكها لم ينخلع ، وكنت فخورا بذلك .

وتعتبر دون ديسيت من الحالات الخاصة ، لا لانها اختارت هذا العرض غير المؤلف فحسب ، ولكن لانها ، بالمقارنة بحالات الهستيريا في المعدل ، كانت مدمرة لذاتها . ونحن لا نأخذ محاولات الانتحار التي يقوم بها المرضى الهستيريون على محمل الجد عادة ، ولكنني لم اكن لادهش اذا نجحت واحدة من محاولات دون المتكررة .

وبعد شهر من رحيلها ، قابلتها في الشارع عرضا . لم يتحقق شيء من الوظيفة الموعودة او من الزواج . لقد أغراها **خطيبها** على ان تقضي ليلة معه ، فوافقت وأصيبت بالسيلان (على حد قولها) وتم الفاء الزواج .

وبعد عام سمعت بإلقاء القبض عليها . ومضت الى السجن جميلة ومرحة كعندها . وشرحت لبقية السجينات انها سجن من قبيل «الخطأ» وسيتم الافراج عنها في اليوم التالي . ولكن هذا لم يحدث . لماذا لست أدري . ولكنني ، وحتى اكون صريحا ، شعرت بالاسف من اجلها .



وهناك ايضا أولئك الذين يعانون من القلق ، والخوف من الاماكن المتسعة **Agora Phobia** ، والقهر ، وثمة المصابين بتوهم المرض وحالات النورستانيا الهستيرية . وهؤلاء يعترهم أحيانا عرض رئيسي غريب واحد ينبني عليه المرض

المعقد كلية ، وعرضهم الاساسي الشائع هذا هو **العجز عن تحمل الحياة** . انهم شديدا الضعف ازاء صراع البقاء هذا هو اساس الامر كله . اما ان يصحب هذا غالبا مشكلة جنسية فأمر مفهوم ، وان لم يدع الى الظن بأن اضطراباتهم الجنسية هي التي تسبب العجز عن التحمل . الاقرب الى السى الاحتمال ان الهستيريا والنورستانيان من امراض الهرمونات والجهاز العصبي ، وبالتالي يفدو من الطبيعي ان تختلط الاعراض الجنسية بالاعراض الفيزيكية والعقلية .

واراني استعيد قصة مسز ايوجين الغريبة التي لم يتسم سلوكها بأي اعراض هستيرية واضحة . وكانت بالغة التواضع في الحديث عن الاشياء الكثيرة التي تشكو منها - كنا نستخرج شكاواها منها كأنما بكلاية . وتضمنت اعراضها: الشعور بالضغط على الرأس ، وطنين في الأذنين ، والدوار ، والاحساس بدوامة في الدماغ ، والرؤية المهزوزة والنقاط امام العينين كمن ينظر من خلال زجاج شبه شفاف ، وآلام روماتزمية في كل المفاصل والعضلات ، وتقلصات في الاوعية الدموية ، واختلاجات في الجسم كله ، ويقع زرقاء على الجلد ، وتقلصات معدية وإسهال ، ورغبة مستمرة في التبول ، وازدياد ضربات القلب ، وآلام قلبية ، وارق ، وكوابيس ، وشعور بالتمزق، وشعور تام بالانهك عند الاستيقاظ في الصباح ، وشعور بالتوتر ، وشعور باقتراب الموت ، واكتئاب ، ورغبة في الانتحار ، وحساسية زائدة ، وخوف من العدوى والميكروبات ، ونظافة قهرية ، وفقدان الطموح ، وإحساس مستمر بالمرض ، واحساس بالدونية ، وارتعاش ، وكسل وخوف من الاصابة بالعمى او بالشلل . والى جانب هذه المشاعر الذاتية توجد ثمة اعراض موضوعية - فقد كانت تعاني التهاب في المثانة ظل يقاوم جميع ضروب العلاج لمدة عشر سنوات .

وخلال البحث عن خلفية هذا العرض الموضوعي غير المؤلف ، علمنا ان والدتها عاشا منفصلين بسبب طبيعة أمها المتقلبة . ولقد كانت لا تزال طفلة غريبة حين لاحظت ان أمها على علاقة برجال آخرين تسمح لهم بمرافقتها . وكانت تشارك أمها الغرفة التي تستقبل فيها الأم هؤلاء الرجال الغريباء ، وكانت الابنة شاهدة على حياة أمها الجنسية العاصفة وكانت تفار من الرجال . وكانت تقدر أمها المندفعة الهستيرية الكسولة الوقحة . وان لم يعمها هذا التقدير عن الحقائق. وخلقت حياة الأم الجنسية الخجل المحير في نفسها ، لدرجة انها ، وحين بلغت الثامنة عشر ، وتزوجت برجل في الثالثة والثلاثين من العمر ، عارضت بعنف اي موقعة جنسية . وتقبلت فيما بعد فكرة الاتصال الجنسي ، ولكنها لم تستشعر اية لذة منها . وبعد ثمانية عشر شهرا من الزواج انفصلت عن زوجها ، واعترفت فيما بعد ان سبب الطلاق يرجع الى «سلوكها الذي لا يحتمل» . وانتقم منها زوجها في آخر لحظة ، فنقل اليها السيلان وكان هذا سببا في التهاب مثانتها المستعصي .

وسرعان ما تزوجت مرة اخرى . وكان زوجها الثاني رجلا رقيقا ، لكن

الحياة الزوجية لم تكن على ما يرام معه كذلك وذلك يرجع اساسا الى امراضها . ولم يقدم لها الجنس اية متعة ، وانما على العكس ، كان يسبب لها الالم والخوف . وحاولت ابعاد زوجها عنها حتى لا يزداد الالتهاب سوءا . وكان الزوج مهياً لتقبل هذا الوضع ، اذ كان ذلك النمط من الرجال الشغوفين بعملهم ومهنتهم . وان جعله ذلك عنيئا .

واخبرتني كيف اعترتها الدهشة حين شفي التهاب المثانة مؤقتا عندما احبت احد الاشخاص كان حبا افلاطونيا متكثما ، وحين انتهى ، عاودتها الآلام المثانة .

وثناء العلاج بدات تدرك انها تقف شخصا وراء عدم شفاء التهاب المثانة لتؤمن لنفسها ضد الاتصال الجنسي الذي جعلته حياة امها الجنسية بمثابة رعب يمثل امامها . ولقد شفي التهاب المثانة تدريجيا فيما بعد ، كما اختفت الاعراض الاخرى كذلك ، حين عادت الى حياتها الزوجية المألوفة مع زوجها مرة اخرى . وحين غادرت المستشفى في حالة طيبة ، اعترفت ان مخاوفها لم يكن لها اساس من الصحة ، وانها لجأت الى المرض هربا من مصاعب الحياة (وبصراحة لقد فضلت المرض على ان اقلب حياتي راسا على عقب) وتحاشيا لامر طبيعي من امور الحياة .

اما مسز ارنست دريمر فقد فاقت المرأة المذكورة آنفا ، ان لم يكن فسي الحشمة ، ففي التفاهة ، لانه لم يخطر لي ببال انها تعاني اي مشكلة جنسية على الإطلاق . كانت في الثامنة والثلاثين من عمرها ولكنها بدت اكبر من عمرها بعشر سنوات على الاقل . كانت امرأة ذابلة في منتصف العمر ، يرسم على وجهها تعبير من المرارة والقلق ، ويبدو الضجر والسخط كأنهما جزء من شخصيتها . ولم تكن تتمتع بأية جاذبية جنسية .

وكان عليّ فيما بعد ان اتخلى عن انطباعاتي الاولى . وكل الاحكام المتسرعة التي توصلت اليها . اذ اكتشفت انها ليست عجوزا تضيق بالحياة او تبرم منها . وتضمنت شكاواها الصداع المستمر - قرب الرقبة على التحديد - والارق ، والشعور بالتعب ، والانتفاخ البسيط في المثانة ، والحموضة ، وآلام المبايض ، والشعور الصادم ، كانت حادة ، شديدة الحساسية ، تحاشي الاختلاط ، فقدت عشرين رطلا من وزنها ، لا تهتم بأي شيء ... الخ . ومن خلال هذا الطوفان مسن الشكاوي اهتممت بعرض ذكرته مصادفة : انها لا تستشعر اللذة الجنسية . واتفق هذا جميعا مع الصورة المألوفة للنورستانيا .

لم اجد الا نادرا مريضا يتعاون مع طبيبه في عزم على الشفاء كهذه المرأة . فنحن نعالج معظم المرضى ضد ارادتهم المقاومة ، خاصة حين يطلب منهم التصريح عن رغباتهم الجنسية القبيحة . ولكن المسز دريمر كانت تختلف . في البداية اسهبت في الشكوى ، وافاضت في الحديث عن شهامتها ، وكيف يستفيد منها الآخرون ، ولكنها سرعان ما استهواها العلاج ، وحاولت ان تتقصى اصل اعراضها

بشفق حقيقي . وجعلت تسرد أحلامها ، لتدفع بالعلاج . واستغرق علاجها شهرين ، وخلال هذين الشهرين صفرت عشرة أعوام . . اي بمعدل عام فسي الاسبوع ، وهذا امر بالغ الإبهار .

كان والدها سيكوباتيا هجاسيا ، وأمها مريضة بالهستيريا ، تشكو الصداع النصفي ، حفل زواجهما بالمشاجرات والمنازعات - على مشهد من الأطفال - بالإضافة الى أمور أخرى كانت تحدث امام أعينهم . كانت في التاسعة من عمرها حين اكتشفت ما يدور في فراش والديها في المساء . ومنذ ذلك الحين جعلت ترقبهما على نحو محموم ، وتتساءل لماذا يمارسان الحب ليلا ، على حين يتعاملان بفظاظة اثناء النهار .

وسرعان ما توفيت أمها . وتزوجت أخواتها واحدة بعد أخرى ، وتزوج والدها ، كذلك ، وظلت هي عانسا . وتزوجت اختها الصغرى بأسرع منها (وضايقها هذا ايضا) وأنجبت أطفالها قبلها . ولم يوفق أخوها في زواجه ، اذ هربت زوجته مع احد السقاة . وتزوج أخاها الاصفر امرأة تكبره بثلاثة عشر عاما . خانها مع كل من التقى بهن ثم هجرها في النهاية . ولقد أحزنها كل هذا، ولكن كان أسوأ ما في الامر جميعا هو زوجة والدها الشريرة . وفي سن العشرين ارتبطت برجل . كان بمثابة حبها الاول الكبير . ولكنه تركها بعد اربعة أعوام . فظلت مقيمة على حبه . ولا تجد المتعة في الجنس الا اذا حركت ذكرى حبيبها القديم .

كانت قد بلغت الثلاثين من العمر حين وجدت انها لا تستطيع تحمل معاملة زوجة ابها الفظة ، فانتقلت الى بودابست وعملت بائعة في حانوت . كانت في حالة عقلية سيئة ، تخشى على نفسها من الانحراف . وفي تلك الاثناء التقت بزوجها المقبل وكان يكبرها بسبعة عشر عاما . كانت ساعتها على استعداد للزواج من الشيطان نفسه . ولكن كان عليهما ان ينتظرا ثمانية أعوام أخرى قبل ان يتمكن من الطلاق من زوجته الاولى .

وعند هذه النقطة الحرجة نمت مسز دريمر عن ذكاء باهر حين فسرت الامر لي بأنها كانت تبحث ووجدت الاب في زوجها الكبير ، وأن هذا يفسر سبب فشل حياتهما الجنسية ، وذلك بسبب مشاعر الذنب أولا ، وثانيا بسبب الرغبة في الانتقام . واعترفت بمسئوليتها عن افساد اتصالهما الجنسي وعدم تمكين زوجها من اية متعة ما استطاعت الى ذلك سبيلا . ولكي تخلق مانعا حقيقيا ، تركت ابنة زوجها البالغة تشاركهما الحجرة مثلما حدث لها مع والديها من قبل .

ثم انتقلنا الى الاحلام . اعترفت وهي متضرجة خجلا انها حلمت مؤخرًا احلاما غريبة ، تشوبها الرموز الجنسية المستترة أحيانا والمكشوفة في معظم الاحيان . من ذلك مثلا حلمت انها تتشاجر مع زوجها ولكنها تحاول مصالحته عن طريق عرض ثديها المتورم عليه ، ويرضى الزوج ، وتنتظر ان يباشرها

جنسيا - ولكن دون جدوى . وكانت بعض أحلامها مكشوفة على نحو لا يسمح بنشره .

وسمحنا لها بالخروج تحت المراقبة ، وصالحناها مع زوجها ، وأخذ الاثنان يأملان في ان تشفى سريعا . بدت أقل من عمرها بخمس سنوات واختفت نصف اعراضها . وتتابع أحلام جديدة ذات محتوى جنسي مكشوف فحلمت مثلا انها تزاول الحب مع حبيبها الاول في الطريق . وزارت زوجها وقد عمها المرح (في الحقيقة وليس في الحلم) وسرت بالنتائج أيما سرور . وذكرت فيما بعد بحماس ان أمراضها الفيزيكية ترتبت عن افتقادها الى التدليل وكانت بمثابة هروب من مشاكلها . واختفت اعراضها الواحد تلو الآخر . واثناء زيارتها الثانية للمنزل انخرطت في حديث طويل مع زوجها ، وقرر ان يصبح حبيبها بدلا من والدها ، وعاشا بعد ذلك في سعادة .

وهناك ثمة عدد كبير من النسوة المرضى بالهستيريا النورستانية . يفصن بالشكوى من توهم المرض ، ويبتكرن من الامراض ما يبعث على الذهول . وهن يخفين في البداية انهن يعانين من مشاكل في حياتهن الجنسية ، ويتصرفن كما لو ان الجنس لا وجود له ، ويعبرن عن ازدرائهن لهؤلاء النسوة المنحرفات اللواتي يفكرن في مثل هذه الامور القبيحة - ولكن سرعان ما ينهرن ويعترفن . وغالبا ما يعترفن لانفسهن اولا لان عملية الكف تكون قوية لدرجة تجعلهن يحتفظن بعذابهن سرا حتى على انفسهن . وحين يفتح الباب ، تعترين الدهشة - ماذا ، هل انا على هذا النحو ؟.

كانت مود ستار مريضة بتوهم المرض في الخامسة والعشرين من عمرها تشكو بالاضافة الى عدد لا نهائي من الاعراض الفيزيكية ، من الخوف من الجنون وامتلاء جسدها بالقمل . وكانت تجد نفسها مقهورة على الاغتسال طيلة الوقت . وكانت تصاب بالاكئاب من وقت الى آخر دون سبب معين . وتحاشت الاحتكاك الفيزيقي بالرجال خوفا من «خطر» العدوى . وكانت تخشى كذلك ان يظن اقاربها الذين يعيشون بالخارج انها تعيش حياة «داعرة» فيمنعون عنها مساعدتهم المالية ، ويتركونها للجوع والمسغبة . وفضلت ان تصارع هذا الحشد من الشكاوي الفيزيكية ريثما تستطيع العثور على صديق على ما يرام يؤمن لها مستقبلها . سماع هذا النوع من القصص يضطر المرء الى تكوين فكرة أخرى عن النقاء الخلقي لبعض العذارى .

ولقد وصلت مسز لويس لام الى العنبر محمولة على محفة ، وظلت عاجزة عن الوقوف على قدميها عدة اسابيع . لم تكن تبدو هستيرية . كانت كائنا بدائيا ، ترتدي ملابس بسيطة ، ذات جسد غير متناسق وخلو من الجاذبية الجنسية او الزينة . وربما يعتقد المرء ان ابنة لنجار ، وزوجة لميكانيكي ، لا تتوفر لها رفاهية المرضى بالهستيريا . ولكن كان مما يدعو الى الدهشة ان اسرتها لم تكن على هذا القدر من البراءة الذي يتوقع ان تكون عليه أسرة نجار . فأحد أعمامها يمتلك ناديا

ليليا في امريكا . وكان ابن عم امها أفاقا تزوج من أخت مريضتنا الصغرى واصطحبها الى القاهرة ، حيث زاول حياة منحرفة ، ثم ترك زوجته وسافر الى امريكا . واغرمت والدة المريضة شغفا بالخيول . وكانت قاسية على اطفالها وكانت تضربهم احيانا حتى يشارفوا على الموت .

كل هذا يسهل على انها حين نضجت وبلغت العشرين من عمرها تزوجت دون حب من ميكانيكي «رشحوه» لها ، ، وبدأت الاعراض الهستيرية تتوالى . توهم المرض اولا ، ثم نوبات الانغماء ، فسرعة الاستثارة ، والاندفاع ، ونوبات الغضب ، كما كانت تضرب ابنتها كذلك حتى تشارف على الموت دون سبب (المجرد كما اعتادت امها ان تصنع معها) . واخيرا أصيبت بشلل هستيري *astasia - abasia* واودعت المصححة .

لم أجرؤ على سؤال هذه المرأة ذات المظهر المحترم عن حياتها الجنسية الا بصعوبة . وحين فعلت ، رفضت مجرد الفكرة ، وساءها ان أشك في اية متاعب على هذا النحو . ومع هذا فقد شغلها الامر ، نظرا للقصص العديدة التي سمعتها من زميلاتنا في الحجرة . على اي نحو آخر يجب ان تزجي النسوة الوقت في المصححة ؟ كن يتحدثن عن أدق أسرارهن الخاصة . ويعتبر مثل هذا «الاعتراف المكشوف» بمثابة عامل مساعد للعلاج النفسي ، فالرغبة في الاستعراض تطلق الكف من عقالة على نحو أفضل من الاسئلة التي يوجهها الطبيب . وهكذا حدث ان شرعت مسز لام في النهاية تتحدث تلقائيا عن حياتها الجنسية . فأخبرتني اولا عن مشاعر الذنب التي اعترتها حين زفت في بادئ الامر الى الميكانيكي وهي تحب سرا شخصا آخر سواه . ثم اعترفت انها لم تحقق اية متعة جنسية حقيقية على مدى اربعة عشر عاما من حياتها الزوجية . ومع هذا وهي تقر الان بذلك - فالرغبة تكاد تقتلها . وان منعها الخجل - مصارحة زوجها . وكان يعنفها بدوره على برودها . واعتبرت ذلك - كما لو انها أصيبت بالشلل - بمثابة عقاب إلهي على زواجها دون حب .

وتحدثنا مليا ، حتى استطاعت مسز لام الوقوف على قدميها . مضت تتعثر في البداية ، ثم اصبح في وسعها ان تخطو خطوات ، ثم اصبحت مؤخرا تسير في الحديقة لمسافات طويلة ، وأخيرا مضت معافاة الى منزلها . لم تخبرني بالكثير عن حياتها الجنسية ، وان كنت أعتقد انها حصلت على بعض النصائح الطبية من زميلاتنا في الحجرة قبل رحيلها ، وكانت معنوياتها مرتفعة .

أما حالة ايرنا (الصياحة) فقد فاقتهم جميعا . ويرجع اسمها الى عاداتها القهرية في الصباح دون سبب مفهوم . كان يحدث ان تضيق من حلم وتشرع في الصراخ حتى يتجمد الدم في عروق الجميع ، وكانت تستيقظ وتبث الفزع في العنبر جميعا . فاذا واثتها الرغبة في الصراخ اثناء النهار فقد كانت اكثر حنكة ، اذ كانت تمضي صوب الغابة وتتخذ بقعة مقصية وتصرخ ما شاء لها الصراخ .

كانت امرأة متعلمة ذكية رغبت ان تصبح كاتبة في مبدأ الامر ثم طبية فيما

بعد . ولكنها في النهاية أصبحت موظفة بالبريد . وقدمت وصفا مطولا لأسترتها الكبيرة التي ضمت أدمعاء هجاسيين وأنمطا من ذوي الحساسية المرفهة ، وبعض الهستيريين غربيي الاطوار ، والبلطجية ، وقلة من المرضى بانحرافات جنسية غير شائعة . وهناك ثمة امرأة مسترجلة (ذات اعضاء جنسية ذكرية ، وتتزي بزي الرجال) وسيكوباتي يعاني من الجنسية المثلية . وجدة كبيرة شديدة الشبق ، وعوانس مسنات ، ومتحذلقون متخشون ، وطفيليون . واستطاعت ان تعدد بالاضافة الى ذلك قلة شرعت في الانتحار ، وعديد من السيكوباتيين والمجانين ، وعدد لا يحصى من العصابين ، وحالات الهستيريا ، والضعف العقلي . ولكن كان هناك ايضا قلة من المثقفين ثقافة رفيعة تضمهم الاسرة . اطباء ومهندسين، وقساوسة ، وأساقفا .

ازاء خلفية اسرية كهذه ، لا تصبح اعراض ايرنا (الصياحة) . من غرابة اطوار ، ونزوع الى الانتحار ، وانحرافات جنسية ، ومخاوف من كافة انواع المرض مثارا للدهشة . كانت هشة التكوين الفيزيقي ، تعتبرها كافة الامراض من الالتهاب الرئوي الى الالتهاب السحائي ، وكان قلبها مصابا . ومنذ سن الخامسة عشرة وهي تحاول الانتحار مرة تلو الاخرى ، بالسّم ، والشق والقفز من النافذة . كانت شديدة التوتر ، قابلة للاستثارة تعذبها المخاوف ، تضرب أطفالها دون سبب ، وكانت تتوقف احيانا عن الاستمرار فيما تزاوله ، اذ كانت بالفة العصبية بالنسبة للعمل او التركيز ، لا تستطيع تأدية اعمال المنزل . اما اظهر اعراضها فكان هذا الصراخ .

وكان تاريخ حياتها بالغ الدلالة . حين كانت في الشهر التاسع من عمرها . انتحرت أمها . فربتها جدتها وأفسدتها . وبسبب نضجها العقلي المبكر ، اطلق عليها الاطفال في مثل سنها اسم (الحصيفة) Half Witt وزاولت اللعب الجنسي مع غلام في مثل سنها ولما تبلغ العاشرة . واجبت بعد ذلك غلاما يكبرها، وعلى الرغم من ان هذا الحب المراهق كان عفا نقيا . فقد أتهمها زملاء الدراسة بشتى الاتهامات ونبذوها . وتناهى الى مسامع والدها بعض اخبارها فاستجوبها . فكان ان أخبرته عن مغامرتها المبكرة دون ادنى شعور بالذنب ، فبلغ الحقن بالوالد مبلغا جعله يضربها ولا يكلمها لمدة ثلاثة شهور .

وابتدرها الطمث في سن الثالثة عشرة وتزوج والدها في نفس الفترة . فكرهت زوجة ابوها ، وشرعت تتصرف على نحو غريب الاطوار . فقدت السيطرة على نفسها ، وشرعت تمارس ضروبا من الافعال الهستيرية ، وتلقي بنفسها على الارض . فأودعت احدى مدارس البنات الداخلية . وأثناء حزنها ووجدتها قفرت من نافذة الطابق الثاني وكسرت قدمها .

وخبرت تجربة جنسية أخرى في سن الخامسة عشر ، كانت هذه المرة مع قس كاثوليكي ، أقنعها ان تزاول معه علاقة جنسية بعد ان اقنعها ان الجنس هو نبع الحياة . . وهي حجة تبدو غير مألوفة أن تصدر عن قس ورغم انها دامت

عامين ، فقد بقيت لها عذريتها سالمة .

وهجرت القس . فدهمها الخوف الا تحظى بإعجاب احد ، وسعت بشتى الطرق لتحصل على من يشاطرها الجنس . فكان ان سافرت الى بودابست وأغرّت رجلا في القطار اصطحبها الى احد الفنادق حيث أطفأ ظمأها دون ان تفقد بكرتها . وأخيرا وبعد بحث طويل وجدت شخصا خلصها من عذريتها .

وفي سن الثالثة والعشرين تزوجت مهندسا . وأعجب زوجها بطموحها الادبي . فعاشا حياة زوجية بادية الغربة ، لقد أغرم كل منهما بالآخر ولكنهما كانا يتشاجران طيلة الوقت ، ويضربها زوجها . ولكن أغرب ما في الامر انهما تبادلا الادوار . فتقبل الزوج دور المرأة ، نوع من صورة الام على حين قامت هي بدور الاب القاسي . كانت تكره العمل المنزلي ، ولم تستخدم الابرة طيلة عشر سنوات . وعزت ذلك الى ان زوجها ضربها ذات مرة منذ عشرة أعوام ضربا مبرحا عندما شرعت تخطط بعض الاشياء ، لدرجة انها وقعت على الارض ، وأصيب ذراعها الايمن بالخدر . ومنذ ذلك الحين تصاب بالخدر كلما أمسكت بالابرة في يدها .

وفي بداية زواجهما لم يرزقا بأطفال ، وقد آلمها ذلك كثيرا جدا ، وعزت ذلك الى انها ظلت غير مكثفة جنسيا . وكان هذا مما يدعو للدهشة اذ كان في وسع القس ان يرضيها دون اتصال جنسي فعلي - على حين لا تجد الاشباع مع زوجها المفرط جنسيا . كانت تستمتع «بمقدمات الفعل الجنسي» فحسب ربما لان القس قد عودها على ذلك .

وسواء لهذا السبب او لسبب آخر ، فقد زادت غرابة اطوارها . «ان لديها خططا حافلة» هكذا ذكر زوجها واستطرد قائلا «لكنها لا تستطيع مزاوله عملها اليومي ، فهي تصرخ دون سبب ، وتضرب الاطفال ضربا مروعاً ، وتقذف بالاطباق على الارض ثم تحطم القطع المتناثرة كل على حدة . لديها شخصيتين ، ذكر وأنثى . ويبدأ الصراع حين ينحي الذكر جانبا .

هكذا كانت رؤية الزوج للأمور . اما المرأة فقد اعتقدت انها تعاني من عقد «مازوخية» (لم اكن انا الذي اطلقت الاسم او اقترحته ، بل جاء اعترافها تلقائيا). ويجب ان اضيف ان الزوج لم يكن يضربها ضربا «هينا» بل كان يركلها ويضربها في وحشية (كما كان يفعل والدها حين اكتشف «فجورها») وحاول خنقها . وكانت هي التي تستثيره لذلك . لم تكن تستمتع بالضرب بقدر استمتاعها بالإذلال والخنوع ، ثم بمحاولة مصالحتها فيما بعد والتي كانت تنتهي بالاتصال الجنسي . بيد ان الضرب كان يثيرها كذلك ويمدها باللذة . وهي تذكر انها كانت تضرب في طفولتها مرارا ، لانها اعتادت ان تبلل فراشها حتى في سن الثالثة عشرة .

وبعد فترة العقم الاولى ، جاء الاولاد ، فأنجبت سبعة اطفال على نحو سريع . وربما يتصور المرء ان اما لسبعة اطفال سوف تصبح ناضجة وتتخلّى عن غرابة اطوارها - ولكن لا . كانت ترعى اولادها طالما هم في سن الطفولة ، ثم تزداد

معاملتها لهم فظاظة . كان من الواضح انها ليست مازوخية فحسب ، وانما سادية ايضا ، كانت تستغرقها حالة من الذهول حين تضرب اولادها . ولكن كل مناسبة من هذه المناسبات كانت بمثابة استثارة لتغري زوجها بضربها . ثم يأتي الخنوع والوفاق الشهوي .

ولا اعرف صراحة ، كيف استطاع العلاج النفسي الذي استمر لمدة شهرين أن يساعد هذه الحالة الخطيرة . ولكن الحقيقة تقول ان ايرنا (الصخابة) كانت قد هدأت حين غادرتنا . لم يستطع احد ان يخاطبها بكلمة اثناء علاجها ، وبالتالي فقد كانت هي نفسها التي فكرت في طريقة تدفعها نحو التحسن . ووضحت لنفسها الكثير من الامور المضطربة . ولم أجرؤ على الامل في تحسن مستمر . ولذلك فقد اصبحت بالدهشة حين علمت بعد عام انها لا تزال على ما يرام وانها تحيا حياة نشطة تخلو من النوبات الهستيرية . وكان من المستحيل الجزم عما اذا كان هذا التحسن سوف يستمر لانها سرعان ما دخلت المستشفى في حالة فيزيقية ضعيفة وماتت بعدها ببضعة ايام بمرض القلب . ولقد تحدثنا طويلا قبل موتها . فأخبرتني انها تغيرت كلية عقب العلاج النفسي وانها وثقت علاقة ممتازة بزوجها وأطفالها واشتغلت بجد . وانعدمت نوباتها ولكن عاودتها حالتها العصبية على نحو أسوأ حين شملها المرض الفيزيقي كلية ، وان لم تصل الى درجة الحدة السابقة .



ليس في وسع أولئك الذين يسبقون كلمة «هستيريا» بكلمة «مجرد» ان يفهموا على الاطلاق الحالات الشبيهة بحالة ايرنا (الصياحة) . فهي ليست «مجرد» هستيريا بل هي مرض لا يقل خطورة عن اي نوع من الجنون . وهناك بالطبع شيء كهذا اسمه «مجرد» هستيريا يؤتي مرضاها من التصرفات ما يشبه سلوك المهرج «الصخاب» . . . ولكن دنيس القافز في البئر والزي وبني وجودي ديوك قد اثبتوا في الجرائع ان الهستيريا مشكلة طبية حقيقية *Crux medi corm* . وهي ايضا مشكلة أسرية *Crus Cojugis* ، مشكلة صراع الشريكين في الحياة الزوجية، كما صورنا في الحالات المعروفة . اذكر زوجة احد البيطرين فانت ايرنا (الصياحة) في نوبات غضبها . لم يكن شيء في شقتها يظل في مكانه عقب هذه النوبات المربعة . واصيبت مغنية سابقة للاوبرا «بحمى عصبية» مستمرة بالمعنى الدستوفسكي للكلمة . تشبهها في ذلك عازفة موهوبة على البيانو ، لم تفسد الانحرافات الجنسية والاكتئاب الناشئين عن الهستيريا عليها مهنتها فحسب بل وحياتها كلها . وعاشت زوجة صرعية هستيرية لفنان موهوب في حالة مسن الرخاوة لمدة خمس وعشرين عاما حتى أصيبت تدريجيا بالعتة . لا يستطيع المرء ان يقول «مجرد» ازاء هذه الحالات .

ورغم شيوع الاضطراب الجنسي لدى مرضى الهستيريا ، فلا زلت على اعتقادي بأن لا اساس للاعتقاد القديم الذي استمر في عام والذي يعتبر الهستيريا مرض الجنسية المضطربة . كلا ، فالهستيريا مرض الدوافع الحيوية ، اذا جاز لي التعبير عن نفس بصورة بسيطة . وتوجد الاضطرابات الجنسية الواضحة من بين اعراضه دائما ، ولكنها ليست الاعراض الرئيسية . وتكفي الاشارة الى حالات الهستيريا داخل الجرانج - كالزي ويني ، ومارجريت البكماء ، وجودي ديوك ، وماري ويلدر ، وديس القافز في البئر ، الذين اثبتوا جميعا ان حالات خطيرة من الهستيريا قد تظهر دون اية اضطرابات جنسية . وثمة اعتقاد خاطئ آخر شائع يستحق التفنيد . اذ يقال غالبا ان اضطرابات الحياة الجنسية الهستيرية وقف على اليهود ذوي الشهوة الزائدة وهذا ليس صحيحا . لدرجة ان جميع الحالات التي عرضتها هنا ليس من بينها يهودي .

وقد تدمر **النورستانيا** كذلك حياة ضحيتها . لقد امضت احدى معلمات الكمان عدة شهور في قسمي في حالة من القصور الذاتي المطلق . واستطاعت ان تتماشى بصورة ما ، وكان في وسعي ان اتبع مصيرها لعدة سنوات ، فبدت كشخص يشارف الفرق وصلت المياه الى فمه فهو يضرب في ضعف ولكنه لا يفرق بمعجزة . وكانت على حالتها هذه ترغب في الفرق . «لشد ما يؤلني انهم يريدون علاجي هنا . اريد ان اموت ، وكلما كان ذلك بسرعة فهو افضل ، حتى لا أسنمر في المعاناة لا اريد اي حقن . اتمنى لو ان تقفز على مسر (م) وتخفني، لن ادفع عن نفسي . لماذا يجب ان يعيش شخص مثلي ؟» ونجنا في انتشالها من هذه الوهدة السحيقة ، لكن ظروفها ظلت لدرجة ارتأت انا نفسي انه من الافضل لها ان تموت . لم يكن لها احد سوى اخت لها ثلاثة اطفال ، كانت مأساة في حد ذاتها وأخ مجنون . (كان اخوها يعالج بالجرانج وكان مريضا بالفصام الهجاسي) ولم يكن لها مأوى او وظيفة . وكانت تتقاضى معاشا ضئيلا مضحكا . وتخلى عنها تلاميذها واحدا وراء الآخر اذ لم تكن تواتيها القوة على الاستيقاظ في الصباح لتتردد عليهم ، وحين تفعل كانت تصل متأخرة عن موعد زهاء ثلاث او اربع ساعات . وكانت بالغة التدخين ، ولكنها كانت تقع دائما في غرام قس الاعتراف . لم يكن غراما مراهقا بل عاطفة مستعرة تستمر أعواما ، يصاحبها بالطبع احساس عميق بالدنب . وكانت ترغب في تناول الاسرار المقدسة يوميا ، ولكن كيف يمكنها هذا وهي لا تستطيع التخلي عن حبها بصدق ؟.

من اجل ذلك استطاعت الوقوف على قدميها ، ووجدت مأوى تعيش فيه على صورة ما . كانت تتجمد من البرودة في الشتاء لانها لا تجد القوة على النهوض واشعال النار . ونادرا ما تأكل لانها لا تجد القوة على التسوق والطهي - ولكنها عاشت رغم ذلك ، ووجدت تلاميذا وعاشت على شفا الفرق .

وليست النورستانيا وقفا على النساء . صحيح ان النساء في طليعة المرضى بالهستيريا ، ولكن هناك المزيد من المرضى بالنورستانيا بين الرجال الذين يذهبون

بدوا ، حين يحاولون مباشرة مهام اكبر مما يطيقون . وهذا ما حدث ، على سبيل المثال ، لاحد مرضاي البالغ من العمر سبعة وعشرون عاما ، كان يعمل نجارا ولكنه اشتغل موظفا اثناء النهار وطالبا جامعا في المساء . فأرهبه العمل غير المألوف ، وشعر بالغربة في موقعه الجديد ، فضاع بصورة تدعو للرائ . كان ذكيا ماهرا ، لكن عقده الدونية أبلته قبل الاوان . وثمة موظف آخر في السابعة والعشرين من عمره ايضا بدأ العمل في مهمة علمية واعدة . وحين بلغ منصبا عاليا ، أرقق نفسه بالعمل حتى فقد الارض من تحت اقدامه تدريجيا ، وبدأ يشعر بالقلق ، ويبيكي ، وغدا مترددا جيش النفس ، لا يستطيع ان يعطي تعليمات واضحة حتى لأبسط السعاة ، ناهيك من اصدار قرار في امر من الامور الهامة . وكمن يضرب في الفراغ ، شعر انه لا ينتمي الى شيء ، ولا يستطيع ان يجد مستقره او يجد صوته او نفسه . حدث له هذا على الرغم من انه شهد له بالكفاءة الممتازة ، وأحبه الجميع واحترموه ، ولم تستثن من ذلك حياته الزوجية . وكل هذا بلا طائل ، لقد فقد ثقته في نفسه ، وهوى في غمرة الاكتئاب ، وعجز عن العمل .

كانت هذه جميعا من الحالات الروتينية ، التي يسهل علاجها . فتحت عنوان «الانهيار العصبي» او «سوء التوافق» توجد اغلب المهام المجزية بالنسبة لطبيب العقول . فما عليه الا ان يستخرج جوهر الامر الى بؤرة الشعور . ويخطط لاهداف جديدة . ويرسم الحدود ويعطي الارشادات ، ويقوي الثقة الضعيفة بالنفس ، ويخفض من التقدير المبالغ فيه للآخرين - بعبارة اخرى يعيد بناء التوازن . وهذا ليس امرا بالغ الصعوبة . فالزمن والمريض كذلك يساعدانه . اما النورستانيا التي تشمل الشخصية الكلية ، كما في حالة مدرّسة البيانو ، فأمرها بالغ الصعوبة ويذكرني هذا بقصة نك (المهندس) . كان رجلا ذا قدرة عقلية فذة ، احتفظ بوظيفته الهامة برغم عجزه الذي كان يستمر احيانا لشهور ، واستطاع اكتساب تقدير الآخرين بمعرفته المتخصصة وظل عند تقديرهم على الرغم من مرضه الخطير بالنورستانيا - لقد ظل هذا الرجل يتردد على الاطباء بانتظام منذ طفولته بسبب الإرهاق والاكتئاب . ولم يكن يشكو من شيء سوى الضعف البالغ . كان يشعر بأنه أضعف من ان يناضل ، سواء من اجل عمل عسير او كسب ود امرأة او مجرد الاهتمام بشئون الحياة اليومية . كان رجلا يفكر على نحو مادي ، والواقع انه كان من المهتمين بالمال بصورة كبيرة . ولم يسبق له ان وقع في الحب . تزوج مرتين ، وبعد تفكير واع في كلا المرتين ، كان في حاجة الى من يرعى شئونه . لم تكن حياته الجنسية تشوبها متاعب من نوع خاص ، فهو لا يزيد عن كونه مختلف بعض الشيء في هذا الامر شأن غيره من بقية امور حياته . وعاش قانعا بعجزه متقبلا حقيقة كونه اقل طاقة عن الناس الاصحاء ، وعليه بالتالي ان يستغرق في اعماق السبات حتى يستطيع ان يعود للعمل فيما بعد . ولم يكن يأبه اذا ما خاتته المرأة التي يقتنيها . كانت هناك ثمة علاقة بين

التاريخ الاسري وبين اتجاه نك (المهندس) كما يبدو من الفساد الشائع بين اقاربه .
كان جده الاكبر قد مات منتحرا ، وكانت احدى بنات الاخير مصابة بضرب خطر
من توهم المرض ، وكان احد احفاده عصايا غريب الاطوار ، مات منتحرا كذلك .
وماتت أم المريض في احدى المصححات التي تم ايداعها فيها بسبب «عصاب مزمن» ،
على حين أصيبت احدى أخواته بالعصاب وماتت بالالتهاب السحائسي ، وماتت
اخرى في سن صغيرة بعد ان ظلت مريضة لاعوام . وكان احد اخوته يشكو من
اضطراب عصبي عضوي خطير .

ولا ينشأ نقص الدوافع الحيوية ، وفقدان النشاط ، عن النورستانيان فحسب
بل عن **العصاب** ايضا . ما هو الفرق بين هذين المرضين ؟ تعني النورستانيان
الضعف الاساسي ، ونقص القوة الفيزيكية والعقلية في الشخصية الكلية ،
والعجز عن الصراع ، والاعراض الحقيقية والمتصورة التي قد تشتمل بشكل عام
على الاعراض العصابية ذات المضمون الذي يعبر عن الوهن (الأثينييا Asthenia)
وهي قد تكون ميلا فطريا واسلوبا مستمرا في الحياة ، كما كان الحال بالنسبة
لمدرسة البيانو والمهندس . وقد تكون عرضا مؤقتا للاجهاد في العمل ، كما
يتضح من حالات النجار والموظف الباكي كالطفل . او قد تكون مقدمات للفصام ،
او الشلل الخفيف ، او الذهان الناشئين عن التسمم اما العصاب فهو **دفاع مرضي**
ضد مخاوف غير معقولة .

وتعني المخاوف غير المعقولة او غير المتسقة ان يخاف المريض دون سبب
حقيقي . فهو يخاف من الامراض والعدوى ، والميكروبات ، والاماكن المفتوحة او
المغلقة ، والزحام او الوحدة ، والارتفاع او العمق ، والقطط او الكلاب ، وریش
الطيور او ملمس اي شيء له شعر - يستحيل تعديد جميع ما يمكن ان يخافه
العصابي . والخوف او الرعب الذي يكون له موضوعا وليس له سبب يسمى
المخافة Phobia ، مثل مخافة الميكروبات Bacillophobia او مخافة الاماكن
المغلقة claustrophobia ما الى ذلك . ويوجد ثمة نوع آخر من الخوف العصابي
ليس له موضوع على الاطلاق ، ويطلق عليه اسم الحصر Anxiété وسواء كان
لهذه المخاوف موضوع او لم يكن ، فانها جميعا بلا سبب . ويصبح الخوف غير
المعقول مأساويا نظرا لان حالة من يصيبه العقلية تكون على ما يرام . ان قدراته
الناقدة سليمة ، ويعرف جيدا مبلغ سخف مخاوفه ، ومع هذا لا يستطيع
نبذها . ان محاولة اثناء المريض العصابي عن قلقه بالنسبة للمخافة أشبه في عدم
جدواها اثناء الهجاس عن وساوسه - وذلك على الرغم من اعتراف العصابي بعدم
معقولة عرضه .

ويعتبر توهم المرض Hypochondria بمثابة نوع خاص من الخوف ، انه
الخوف من امراض متوهمة .

وقد يستخدم العصابي وسائل شاذة ، يدرا بها مخاوفه ، فقد يجبر نفسه
على مزاوله افعال طقسية معينة مثلا ، كأن يلبس ويفتسل بطريقة طقسية ، او

بعد الكلمات التي يقرأها . او يضع خطوطا بالقلم الاحمر تحت الاسماء ، او يرجع الى الباب عدة مرات ليتأكد مما اذا كان قد أغلقه حقا ، او يكرر كلمات بعينها ، او يغمغم بصلاة سحرية او يزاول طقوسا معقدة قبل ان يأوي الى الفراش . ويطلق على هذا السلوك اسم السلوك القهري Compulsion ولنتذكر الافعال القهرية التي كان يمارسها امير الحزن . وهو وسيلة دفاعية ليست ناضجة تماما . اذ انها لا تدرأ الخوف بل على العكس تربى مخاوف جديدة . فالمرضى يخاف الان ان يكون قد نسي ممارسة فعله القهري ، فلا يستطيع ان يفلت من الكوارث التي ستترتب عن ذلك .

ولا يزال علماء النفس يختلفون عما اذا كانت عقدة الدونية المصحوبة بالخوف سببا ام نتيجة . فالواقع ان العصابين جميعا لديهم هذا العرض ، الذي يأخذ احيانا شكل التعويض الزائد Over - compensation ما في حالة الجبان الذي يستحيل شجاعا بسبب الخوف .

وتكتنف حياتهم الجنسية بعض المتاعب بشكل عام كذلك ، ليس على نحو ما يعتري حالات الهستيريا ، ولكن بصورة غير مباشرة ، فالشخص الذي يخشى العدوى او الميكروبات او ملامسة الناس ، او الشخص الذي تعذبه بعض مشاعر الذنب الفاضلة او الذي يجد نفسه مجبرا على مزاوله بعض الطقوس المعقدة التي تنفص عليه كل لحظة من حياته ، لا نتوقع منه حياة جنسية متزنة الا بصعوبة . ويخشى معظم المصابين الجنس بسبب عقدة الدونية لديهم . فاذا تغلبوا على ترددهم ، أحاطوا الجنس بكثير من الطقوس المعقدة التي لا تحقق لهم ولا لشركائهم اية متعة من الفعل الجنسي . وكثيرا ما يترددون على الاطباء بشكاوى محورها الجنس (العنة اساسا) ثم يتبين ان العنة ليست سوى حلقة في سلسلة من الاعراض العصابية .

ويحتدم جدل كثير حول اصل العصاب . والذي لا شك فيه انه مسألة استعداد فطري ومسألة بيئة . وبشكل عام تعزي اهمية قصوى الى الاخطاء الوالدية في الطفولة المبكرة ، و«الاهانات» التي تحدث في الحياة الاسرية ، والتي تكون الاسرة غالبا على غير وعي بها . ان المبالغة في التدليل او القسوة ، والتبذؤ وتفضيل اخ او اخت آخر ، والشجار بين الوالدين او التلصص على حياتهما الجنسية - تشكل مثل هذه الامور عادة «الصدمة» النفسية التي يتم الكشف عنها فيما بعد . ويجب ان يوضع في الاعتبار ، رغم كل شيء ، ان مثل هذه الخبرات توجد في حياة كل انسان فنحن جميعا كنا اما الطفل الوحيد او الاكبر او الاوسط او الاصغر - هذه كلها من مسببات الصدمة - لكننا لن نصبح جميعا عصابين . ولنبدأ امثلتنا بحالة اروين (أكرة الباب) . لقد دمر المسلك القهري مستقبل هذا الشاب اللطيف الذكي تماما . كانت تعذبه فكرة قهرية مؤداها انه لم يغلق الباب . كان يعلم انه قد أغلقه ، ولكن لم يكن لذلك من جدوى . وكان قد تردد عليّ عدة اشهر للعلاج ، فلم اكتشف لديه اية صدمة انفعالية طفلية - ولم أشفه

ايضا . كنت أقوم بتوصيله حتى الباب بعد الجلسة العلاجية وأغلق الباب وراءه بنفسى نظرا لان ذلك يجعل انصرافه اكثر سهولة . ومع هذا ، فقد كان يعود في بعض الاحيان بعد ساعة ، ويظل يتسكع «على غير هدي» في الطريق امام المنزل ، ثم ، حين لا يجد احدا بالقرب منه ، يقفز الى البوابة ويأخذ في هز اكرة الباب المفلق . وكان سكان المنزل على معرفة بالامر فكانوا يتلصصون عليه من خلف الستائر وهو يهز اكرة الباب على غير طائل . ماذا يريد ؟ — هكذا كانوا يسألونني من قبيل الحيرة او التفكه . ما الذي كان يريده ؟ — آه لو استطعت ان اعرف ! كان يريد ان يتأكد من انه أغلق البوابة حقا — ولماذا ؟ ولماذا لم يصدق مع انه تأكد من ذلك ؟ كان يعود احيانا من الترام بعد ساعة ، بفتة نسمع صوت الباب ، انه يقف هناك يهز البوابة .

وكان يشكو من مسلك قهري آخر ، كان أسوأها جميعا . فلقد تزايدت مشاكله في العمل . كان يفحص الملف سبعين مرة ، ليتأكد من ان كل شيء على ما يرام فعلا . او يمسك احدى الاوراق يتفحصها بنظره القصير وهو يهزها بطريقة غريبة ، هازأ رأسه ، كمن يقنع نفسه مرات ومرات ان كل شيء يسير على النظام المقرر . وذات مرة وقع على احدى الاوراق الرسمية ثم اسقطها بعد تردد طويل في صندوق الخطابات (وكان هذا يبهظه تماما لانه بمجرد ان يلقي الخطاب في صندوق الخطابات ، فلن يستطيع استعادته ثانية) ويبدو انه كان متسرعاً فلقد كان عليه ان يعاود الفحص مرة اخرى ، ليتأكد مما اذا كان قد مهرها فعلا بتوقيعه . ولكن فلنوضح الامر : انه لم يشك في الامر لحظة ، ومع هذا كان يريد ان يقنع نفسه مرة اخرى . ولكن قضي الامر ، لقد غيبها صندوق الخطابات في جوفه . وتفكر في الامر بضعة ايام حاول ان ينسى الكارثة . ولكن عبثا . فاستسلم اخيرا للمسلك القهري الذي كان اقوى منه . مضى الى الوزارة التي ارسلت الوثيقة اليها . استقبلوه ، وسألوه عما يريد ، وحاولوا اقناعه ان الامر ليس بذي بال حتى اذا لم يوقع عليها . ولكن لم تجد المناقشة . اخيرا اضطروا للبحث ليروا ما صار عن امر الوثيقة ثم اخبروه انهم قاموا بتصديرها . وشكرهم على المعلومات ومضى ينتقل من مكتب الى آخر . وتعجب الناس مما يريد ، وتضاحكوا عليه او تضايقوا منه . ونجح اخيرا في العثور على الوثيقة في احد المكاتب . وكان توقيعه عليها بالطبع ولم يثر ذلك دهشته . وانما شكرهم ووقف في مكانه ، ممسكا بها في يده ، فاحصا اياها بنظره القصير ، وهو يهزها مرات عديدة . وسعل ، وغغمغ وتمتم في ارتباك ، ولكنه ظل يحرق في الوثيقة . واخيرا اعادها وشكرهم ثانية ، واعتذر آلاف المرات ثم مضى . ولكنه توقف عند الباب .

«معذرة .. مجرد ثانية واحدة ... هل تسمحون بإطلاعي عليها مجرد ثانية واحدة ... »

ووقف من جديد ، والورقة في يده ، يحرق فيها كأنما يتمنى لو استطاع التقاط صورة فوتوغرافية للخطاب بعينه ليكون أشد تأكدا من تأكده .

هذا هو المسلك القهري .

وغدا خلق الثياب لانه لم يكن يتحمل التخلي عن ملابسه القديمة ولا يستطيع التعود على الجديدة . وكانت حلاقة الشعر كل ثلاثة شهور ازمة مروعة بالنسبة له ، اذ كان عليه ان يراقب الا يقص الحلاق ما يقل او يزيد عن المطلوب . وكان يعرف حلاقا لم يعد يدهشه ان يعود اليه ثلاث مرات ، بعد يوم ، ليطلب منه ان يقص له مليمترين لا تزيد او تنقص ، في هذه الجهة . كان مثقفا ، يتحدث عدة لغات ويرتبط بعديد من الاصدقاء . ولكنه فقد الان القدرة على اللبس ، لا يمسك مجرد الكتاب في يده الا بصعوبة . احتل المسلك القهري عليه حياته . وكان يذهب احيانا الى جبانة قديمة ويقرا شواهد قبور الموتى المجهولين . وكان يشعر بالراحة في مملكة الموتى .

وبعد ثمانية اعوام من العلاج غير المجدي اعيد الى الجراح . لم يكن قد تغير ، لا زال يهز اكرة الباب كما كان يفعل منذ حقبة مضت . جربنا عدة ادوية ، الى جانب العلاج بالعمل ، والعلاج النفسي - ولا حاجة للقول بأن في ذلك كان عبثا . لم يعد عليه الامر بنتيجة واحدة . لقد رد خطاب سبق ان تلقاه منذ عشر سنوات من أخته التي تقيم بالخارج .

ولم تكن اكثر توفيقا مع جون (لاعب كرة القدم) كذلك ، كان رجلا مفتول العضلات لا يستطيع احد على الاطلاق ان يأخذه بشبهة المرض العقلي . كان يشكو من العنة ، ولكن سرعان ما تبين ان لديه من الشكاوي ما هو اكثر خطورة من ذلك . كان رياضيا محترفا ، ولذلك كان اكثر ما يزعجه وهو على ما هو عليه من عنة ، ان يبدو بمظهر الدون جوان ، حتى لا يضطر الى الاعتراف بعاره أمام زملائه الرياضيين ... ونادرا ما رايت من هو ادعى منه الى الاشفاق . كان يبدو في صورة المعافى ، بعضلاته الضخمة ، وان كان يجهد بالبكاء كدمية مريضة . واكتشف بقعا ملونة على جلده فاراني اياها متوهما انه اصيب بالتقيح ، وأن جسده سيتعفن كله وأنه يشعر برأسه ينساب وبنخاعه الشوكي ينصهر ... وربما يعدي الاسرة كلها ... انه لا يستحق ان يعيش حياته ، فلحظاتها كلها عناء، سوف ينتحر ، لولا انه يرتعب خشية من الموت .

وسط هذا الطوفان من توهم المرض ، كانت العنة هي الشيء الحقيقي الوحيد .

واتذكر من بين مرضى الخواف سيدة مسنة على جانب من الذكاء والشفقة لم تجرؤ على الخروج الى الشارع بمفردها طيلة اثني عشر عاما . اصبحت ابنتها بالحمى القرمزية حين اعترها الخوف من الطريق ، واودعت مستشفى الامراض المعدية . وكانت السيدة تزورها يوميا ، خشية ان تموت الطفلة . وشفيت الفتاة ، وان ظل الخوف على ما هو عليه . وحين حدث ذلك كانت الأم قد اصبحت ارملة ، اذ قتل زوجها في حادث سيارة قبل ذلك بثمانية اعوام . وفي ظل تاريخ حياة كهذا لم يكن من الغريب ان تخشى الخروج الى

الشارع . فلقد كانت تعلم من خبرتها ان الموت يترصدها هناك . وحين كانت تجبر على الخروج بمفردها ، كانت تشعر بقلبها يكاد يقفز من حلقها . واعترفت صراحة انها تعاني من توهم المرض منذ خمسة وعشرين عاما . كان ذلك قبل زواجها بوقت طويل حين شرعت تخشى الموت بلا سبب .

وكانت هناك ثمة امرأة اخرى يعتورها خوف مرضي من التراب والقذارة والغبار ، بالاضافة الى خوف غير معقول من الكلاب . فحاولت ان تؤمن نفسها بالاغتسال القهري ، دون جدوى ، بالطبع . كانت تبدو شديدة النظافة والتطهير دائما . وقبل ان ألتقي بها بعامين ، كانت قد انتقلت لتقيم في منزل كان صاحبه مصابا بمرض جلدي . وكانت تعلم انه مرض غير معدٍ ومع ذلك لم تكن تتمالك نفسها عن النظافة والتطهير بإصرار . كانت تدعك وتفسل وتمسح وتزيل الغبار اليوم بطوله . ولا تهدأ للحظة . وخشيت الناس بعامة ، وكذلك الضجيج والسجائر ، ثم الحياة الزوجية ايضا فيما بعد ، لدرجة انها لم تدع زوجها يقربها لمدة عام . وقصدت عرافا شهرا يشتغل بالتنويم المغناطيسي ابتز منها كمية كبيرة من النقود قبل ان يوصي باجراء عملية جراحية في الدماغ . ولم تتوان المرأة ، فلقد كانت تشعر انها لا تستحق الحياة وسط هذه المخاوف المريعة والشكاوي . والغريب في الامر انها عثرت على طبيب وافق على اجراء العملية (استئصال الفص الجبهي) ولكنهما لحسن الحظ لم يتفقا على أتعاب العملية . وكان ذلك حين جاءت الينا .

وسخر القسم بأكمله من هذه المرأة المنكودة . فلقد كانت تمضي في تنظيف غنبر المستشفى من الصباح حتى المساء ، وتنفض ملاءة سريرها ، وتهرب من دخان السجائر ، وتجاهد لتحمي سريرها من الميكروبات .

وأمكن علاج هذه المرأة بسهولة بالصدمات الكهربائية . لقد صنعت نفس الصدمات الكهربائية التي نستخدمها مع الفصامين الاعاجيب مع هذه المرأة . اذ كفت عن التنظيف المحموم عقب الصدمة الاولى ، وبعد الصدمة الثانية بدأت تتطلع الى زيارة زوجها ، الذي كانت تخشاه من قبل ، وبعد الثالثة اصبح كل شيء على ما يرام . وتظاهرت انني سألقي في وجهها بمحتويات نافضة السجائر - فلم يقلقها ذلك على الاطلاق .

ولسوء الحظ ، لم ينجح هذا العلاج السهل مع الجميع . بل على العكس ، لم يكن له تأثيرا على معظم المصابين بالمسلك القهري والمخافات والحصر . وانما أفلح في زيادة الخوف المرضي السابق من الموت فحسب . ويعتبر العصاب الذي لا تصاحبه أعراض محددة يمكن علاجها بمثابة عبء ثقیل يستمر مدى الحياة .

ولقد التقيت بالعصابية ذات المسلك القهري المنكودة روزي بريفند عندما كانت في الثالثة والثلاثين من عمرها ، وكانت تعاني من المسلك القهري منذ حقتين . كانت مفرطة البدانة في طفولتها ، اذ كانت مفرمة جدا بالحلوى . كان الناس ينتقدون بدانتها فشرعت في انقاص وزنها واستحال الغذاء المنقوص الى امتناع

منتظم عن الطعام ، فظلت عدة سنوات لا تأكل الا بالقدر الذي يبقى عليها الحياة . غدت جلدا على عظم . وعرضها والداها الثريان على اساتذة ، وأرسلوها الى مصحة ، وكل ذلك عبثا . وظلت تعالج ستة اعوام على يد محلل نفسي . فعوفيت من الامتناع عن الطعام ، وان لم تشف من مسلکها القهري كانت تقرا وتدرس فيما سبق بشغف - ولكنها لم تعد تستطيع القراءة الان اذ كان مسلکها القهري يضطرها الى اعادة قراءة بعض الاجزاء ثلاث مرات خشية ان تتعرض اسرتها لمصير مروع . وكانت تعاني كذلك من الاغتسال القهري المألوف ، فكانت تفتسل على نحو طقوس ، وتنظف وتثبت الاشياء بصورة قهرية . وفي وقت من الاوقات اصبحت متدبنة بصورة مبالغ فيها . فكانت تتمم بصلوات معينة لا تفتقد في قيمتها من الناحية العقلية ، وان لم تستطع ان تمتنع عنها . ولم يحدث ابدا ان استشعرت اية رغبة جنسية وكانت لا تهتم بالرجال ولم يكن لديها صدقات كذلك ، وهكذا عزلت نفسها تدريجيا عن العالم الخارجي . وكانت تخشى الناس، وخاصة الموظفين . وبالرغم من انها لم تكن في فترة حداد على احد ، فقد اقتصرت على لبس السواد - ربما تعبيرا عن حزنها على مصيرها المرير . وكانت مدققة بصورة تفوق المألوف ، لم تكذب قط ولا تستطيع حتى مجارة المجاملات الاجتماعية المألوفة . كانت شديدة الحساسية ، شكاكة ، قلقة تنحي على نفسها باللائمة . ونظرا لعزلتها ووداعتها على هذا النحو غير المحدود ، فقد كانت تدرك تماما انها ستغدو عدوانية جدا فيما لو اطلقت العنان لانفعالاتها . وفسرت طقوسها القهرية، زاعمة انها سوف تتسبب في وفاة والداها لو اهملت اي واحد منها - على الرغم من انها تدرك جيدا ان هذا مجرد لغو فارغ .

وأدى العلاج الى بعض التحسن عقب بضعة شهور . استمر مسلکها القهري، ولكنها استردت بعض قواها الحيوية . وأصرت على افعالها القهرية تماما كما يدق شخص لا يؤمن بالخرافات على الخشب بعد ان يذكر امرا يدعو للتفاؤل ... وامتنعت عن ارتداء السواد ، وتهيات للخروج ، بل حتى للرقص ، واخذت تفكر في الزواج . وعادتها لذة العمل ، وجعلت تؤدي وظيفتها على ما يرام . وظلت مصرة على مسلکها القهري الذي شبت على التعود عليه لمدة حقبتين ، شأن الشخص الذي لم يعد مؤمنا ولكنه مستمر في الصلاة ، ليظل في جانب الامان . وجعلت تتحدث عن مسلکها القهري «المفضل» في مرح وبشياء من الخجل ولكنها لم تتخل عنهم لانهم يمدونها بالثقة في النفس . كانوا بمثابة سند لها في عجزها وشللها النفسي . فمهما ارتفعت معنويات المصاب بالشلل ، فانه يظل لا يطوح بكمكازيه بعيدا ، اليس كذلك ؟

وبعد سنوات التقيت بروزي بيرفيد مرة اخرى . لم تعد في ثياب الحداد، وتعيش حياة مستقلة ، وتعمل بجد وعلى نحو طيب ولديها اصدقاء . كانت تشعر بالسعادة . وان كانت لا تزال تحت تأثير افعالها القهرية «المفضلة» التي تزاولها سرا ، كانت تسالمهم ، او بتعبير اكثر دقة ، استسلمت لهم . وكان هذا بمثابة حل وسط مكنها من ان تعيش حياة محتملة . الا ان الخطاب الذي

كتبته روزي اثناء العلاج سيظل شاهدا محزنا يوضح كيف يستطيع المسلك القهري ان يعذب ضحيته في قسوة .

«... استيقظت في الصباح على صوت احدهم يدخل الحمام . عليّ الان ان أنتظر ثلاثين دقيقة حتى أستطيع الدخول ، كي أزاوّل الطقس الصباحي الذي لا أستطيع قبله ان أشرع في عمل شيء . تقلبت في فراشي . انفتح الباب - عاد احدهم لدخول الحمام . جعلت أتمشى في الحجرة ، وأنا على وشك الانفجار ، وفتحت النافذة اذ شعرت بانعدام الهواء ... شرعت في البكاء اثناء تناول الافطار ، ولكن سرعان ما توقفت اذ تبينت انه من السخرية ان ابكي اثناء الاكل . على اية حال فالبكاء في الصباح ليس امرا مستحبا ، ولكن الامر يختلف في المساء ، حين لا يزعجك احد . يجب ان اقرا ، واستذكر ، ولكنني لا أستطيع ذلك . يا لاحترام الافكار والانفعالات ! سوف أجن . ام ترانسي جنت فعلا ؟ تستحيل الحياة على هذا النحو . انها حياة تخلو من المعنى مليئة بالمهانة . كيف يستطيع المرء ان يستمر في الحديث عن الكرامة البشرية ؟ وحيدا وسط البشر ، ينزف من آلاف الجروح الداخلية ، وسط عذابات الافعال القهرية والمخاوف التي لا تنتهي . لم اكره قط شخصا بهذه الضراوة كما اكره الان نفسي ... لقد ظلمت اعيش على هذا النحو طيلة عشرين عاما . كنت في نحو الثانية عشر او الثالثة عشر حين ابتدا الامر ، ومنذ ذلك الحين توقفت عن النمو . وظلمت طفلة منذ ذلك الحين . فالافعال القهرية تستغرقني . وقعت فريسة للرب ، واعتقدت في البداية ان بي مس من الشيطان . فبكيت ، وصليت ، وشعرت باليأس ، وحاولت ان اقاومها ، ثم حاولت الاستسلام لها . لكنها لم تخفني او تعيق ارادتي . وابتعدت عن الإله الذي طلبت منه العون عبثا ، ثم تحولت اليه ثانية خوفا من ان تصاب أسرتي بمكروه . لم اخش على نفسي . وكثيرا ما ساورني الشعور بأنه يقضي وقته في السخرية بصراعي العاجز . فلديّ فكرة ضئيلة عنه ، وان كنت حريصة على ألا اخدع نفسي . وحين كانت المخاطر تتخطانا ، كنت أهرع لشكره واسأله المغفرة المستمرة . لكن الافعال القهرية لم تتراجع ، سواء استعنت بالرب او بالانسان او بالمحلل النفسي . ولم أعد أخشاهما فيما بعد مهما ظهرت في العديد من الاشكال الجديدة والمتباينة . وادركت انها لن تخاف بل سيتملكها الغضب . ولذلك جعلتها تملكني جميعا . ورعيتها جميعا ، واصبح لديّ الان ما أفضله منها . وهي تجشمني بالطبع كميعة من العمل ، وتسبب لي التعب والمعاناة . ولكن هل في مقدوري ان اتوفر على مهمة اكثر أهمية من ان اكون في خدمتها فلأدع الافعال القهرية تعيش - ويجب ان اعترف انها تحيا على ما يرام وعلى نحو أفضل من يوم الى يوم . انها تمتص دمي وتسمن وتنضج عليه . وتأكل قلبي ودماغي وتبني منهما عضلاتها . انني اتركها تتكاثر وتشد عودا ، حتى اصبح من السهل عليها الان ان تحتويني . وأنا لا اشفق حتى على نفسي لانني

احتقر نفسي كثيرا على ضعفي وجبني . هذا ما أستحقه ! لقد قضي الامر .



لقد اضفت حالات الهستيريا ، والنورستانيا والعصاب التي استمديتها من المصحات الى قصة الجرائح لا لاستكمل صورة الاضطرابات العقلية فحسب ولكن لانني توصلت الى نتيجة مؤداها اننا نستطيع عن طريق العلاج بالعمل والعلاج البيئي ان نحقق نتائج افضل . ولكي نكون اكثر دقة فان هذه الحالات الصعبة بحق تعوزها بيئة صناعية ولكنها ليست غير طبيعية ، شأن ما يعوز المجانين . فان جوهر امراضهم هو الصراع الاجتماعي . سوء التوافق . ويمكن ان «نستكشف» شيئا من أعراضهم ان الظروف الاسرية للمرضى الآخرين تجعل من المستحيل عليهم ان يتركوا بيئتهم الحقيقية لاي مدة كانت ليتعلموا الحياة مع الناس في «مجتمع مصنوع» جيد التنظيم . ولكن يبقى ان هذا هو الحل الصحيح لمعظمهم . ان مارجريت البكاء والزي الصياحة ، والفيرا عرس المساء ، ودنيس القافز في البئر ، بل وحتى ابروين اكرة الباب عاودتهم الحياة جميعا ووجدوا انفسهم في هذه البيئة مثل بيلا لوكسميث ، وجودي ديوك ، وايمري فورستر الذين خلصوا انفسهم تماما من نوباتهم الصرعية ، ومثل ما نجحنا في دفع الآخرين الى العمل المنتج والتخلص من مخاوف امراضهم المتوهمة وفعالهم التهرية ، كان في وسعنا ان نخلص مسز نامساك من صرعها ، وجولي المرضعة من طفحها الجلدي ، ومارتا ستوت وبيرل كبيرة العينين ودون ديسيت من تأففهم ، ومسز دريمر ، ومسز لام من أعراضهم الفيزيكية . وربما كان في وسعنا ان نستحث مدرسة الكمان على العمل بروح معنوية عالية وربما ساعدنا نك المهندس او حتى روزي بيرفد . وفي اعتقادي انه يجب ان يتسع العلاج بالعمل ليشمل مرضى «المصحات» أولئك كذلك . ولكن هذا لا يتأتى بالطبع ، بمجرد وضعهم في الجرائح . فما الذي نستطيع ان تصنعه مدرسة الكمان هناك ؟ وما هو العمل الذي نستطيع ان نقدمه لطالب الجامعة ، والموظف العام ، والمهندس والمدرس في مدرسة عالية ؟ كيف نستطيع اشباع حاجاتهم الذهنية ؟ ان علاج المثقفين بالعمل لا يزال مشكلة تتطلب حلا . ونحن نعلم ان هذا هو السبب الذي جشمننا من اجله مارتين كيمست وجس ليبينكاى وغيرهما من المرضى المثقفين العديد من المتاعب وتؤكد حالات الهستيريا والنورستانيا والعصاب على نحو اكثر جلاء ضرورة ان تحل هذه المشاكل بنفس روح الجرائح - لا في الاحراش ولكن في مكان ما بقرب العاصمة وبمعدات تلائم على نحو افضل الحاجات الثقافية المرتفعة . وقد يبدو هذا غريبا ، لكننا اعتدنا ان نقول يجب انشاء مدينة للسيكوباتيين تضم الناس الموهوبين الذين تعوقهم سيكوباتيتهم عن الحياة في عالم الاصحاء - حيث تمكن لهم فرص العمل والحياة، في ظل ظروف وعلاج يتناسبان وغرابة اطوارهم .

الفصل الخامس

مدمنو الكحول والمشاكسون والمحتالون

سبق لي ان ذكرت الوضع القانوني الغريب - وغير المقبول تماما - الذي تجد في ظله مجموعة كبيرة من السكيرين ، والمتشردين ، والشخصيات المنحرفة والمشبوهة مأوى لها في المصحات العقلية . ويتلخص العذر والتفسير الطبيين لهذا الوضع غير المستحب في ان هذه الحالات المناهضة للمجتمع حالات سيكوباتية في معظمها ، ولها الحق الدقيق في العلاج الطبي من حيث هي كذلك . وهو حق دقيق فعلا ، لان هذه الحالات تدخل في الحقيقة ضمن نطاق شئون الشرطة . والواقع انه لو بلغت العلوم الطبية حدا يمكنها من شفاء السيكوباتيين بعامية ، والسيكوباتيين المنحرفين عن المعايير الخلقية بشكل خاص ، لحاربنا من اجل ايداع السكيرين ، والمتبطلين ، والمحتالين ، وفتيات الشوارع وسيداتهن ، والنشالين ولاعبي الورق في مستشفيات مزودة بأفضل الاجهزة بدلا من السجون ومعسكرات الاشغال الشاقة . حيث يستطيعون الحياة داخل مصحات علاجية تزينها النباتات الدائمة الخضرة ، وحيث تحدث الاعاجيب بفضل سحر الطب ، وحيث نثبت ان اللصوص في مقدورهم ان يصبحوا من افضل رجال الشرطة ، والازواج الخائنين من افضل الازواج والآباء ، ونحيل المتسكعات في الشوارع الى رئيسات جمعيات حماية الاخلاق، ومدمني المورفين الى صيادلة أمناء ، والمتعطلين السكيرين الى اعضاء ممتازين في نادي الموظفين . ولكن حتى تبلغ العلوم الطبية هذه المرحلة ، فسنظل نعارض الدوافع العملية التي تجبرنا ، لعدم وجود حل

افضل ، على قبول المرضى بأخلاقهم بين المحطمين عقليا .

ولا يضيف الى الامر شيئا اننا نتعامل هنا ايضا مع اناس تحطمت سفنهم ، وكانوا ضحايا لفساد اخلاقهم . لقد تحطمت سفنهم ، هذا صحيح ، ولكنهم يجادلون في ان المجتمع هو الذي حطم سفنهم . وهذا ليس صحيحا . فمهما بالغوا في اتهامهم للمجتمع ، يتبقى انهم كانوا المسؤولين بانفسهم عن انهيارهم . وهم يستترون في ظل المصحة العقلية لانها تخليهم من المسؤولية . وربما يوجد الامل في شفاء الحالات النادرة التي يمكن تغيير مجرى حياتها ، من بين مجموعة اخرى من السيکوباتيين . اما السيکوباتي «المنحرف اخلاقيا» فلا يمكن علاجه ، لانه أعدى أعداء نفسه ، ومدمر لذاته . عبثا نبني لهم البيئة المثالية ، فهم يدمرون عمدا ما ابتنيناه لهم . ويسرعون الى دمارهم ، بصورة واعية غالبا . ولقد اطلعنا تجربتنا في الجرانج على العديد من الامثلة المؤسفة لهذا التدمير العمدي للذات .

لقد علقنا آمالا كبيرا على (ليس هالماجي) ، الذي لم يكن على وجه الارض ثمة مدمر للكحول اكثر منه جاذبية . كان وجهه العريض مبتسما دائما . ورغم كرشه العريض الذي يسبقه كان يرقص بلا كلل مع نزيلات القفص المموه . لا يخصص واحدة . بل يراقص اشد العجائز بشاعة بنفس الحماس الذي يراقص به شابة حسناء . كان في مقدوره ان يخلق الجو في دقائق كأربع الموجهين الاجتماعيين . اذ كان يجمع حوله من عشرة الى خمسة عشر شخصا ويجعلهم يرقصون (التسارواس) حتى يصيبهم الدوار ويمتلئ المنزل بالضحك . ويقضي المشاهدون وقتنا على نحو لا يقل مرحا عن الراقصين . كان (ليس) لا يعتريه التعب . يتواجد في كل مكان في نفس اللحظة ولا ينسى احدا ، وكان منظما بارعا لا يسمح ابدا بإطفاء جو المرح ولو لثانية واحدة . كان يغني ويلعب على احدى آلات النفخ بينما يتصبب العرق من رقبته الغليظة ، وتنفقد الضحكات على وجهه المستدير - كان من المستحيل انقضاء الوقت على غير ما يرام حين يكون موجودا . وحين زارتنا الصحفية كات كليفر سحرها (ليس) ، فجعلها ترقص ، وتقول فيما بعد انها رقصت لأول مرة في حياتها ولكن « من المستحيل مقاومة (ليس) » .

وكان من المستحيل مقاومته فعلا . كان مقتدرا في العمل او شغل اوقات المرضى على نحو ما في اللهو . وكان في وسعنا ان نخلد جميعا الى الراحة مطمئنين حين يناط له العمل ، فقد كان يراقب كل شيء ويهتم على الفور بكل شيء . وكان يكتب لوحات خطية تحمل عبارات مناسبة للمرضى لا تقل جودة عن تلك الموجودة في مداخل العديد من المصحات .

جاءنا من احدى المؤسسات في الشمال ، لا كمرض وانما كحالة ادمان على الكحول ميثوس منها . وكان في الاصل مدرسا . قضى بضعة سنوات فسي الاتحاد السوفييتي كأسير حرب ، وحين عاد الى وطنه، لم يسمحوا له بالاستمرار في التدريس لعدم صلاحيته سياسيا . فعمل معدئا . وتزوج . وانجبت زوجته

طفلا ، ثم طلقها (الزواج ، الطلاق) - قصة مكررة بالنسبة لمدمني الكحول . ويكاد لا يوجد مدمن كحول لا ينحي على زوجته باللائمة بسبب ما هو فيه من رذيلة) . وكسب مبالغ طائلة فبالغ وبالع في الشراب وانغمس الى جانب ذلك في عدد متزايد من الفضائح ، وصادفته المتاعب مع الشرطة . اذ لم يكن في وسعه ان يضبط لسانه ، بعد ان يحتسي بضعة كئوس . ونصحه احد زملاء الشراب ان يحصل على شهادة مرضية . شهادة تثبت انه يعالج في مؤسسة عقلية ، اذا اراد لنفسه ان يفلت من العقاب . ودله على طريقة غاية في البساطة . عليه ان يزعم انه يرى فئانا ترتدي قبعات حمراء اينما يمشي وجهه .

ونفذ (ليس) امره . فبعد مشاجرته التالية اسر لرجل الشرطة ان شيئا لم يكن ليحدث على غير ما يرام ، لو لم تشرع هذه الفئران ذات القبعات الحمراء في الرقص حوله . ففر رجل الشرطة مذعورا يطلب سيارة الاسعاف . وبعد خمس عشرة دقيقة وصل (ليس) الى قسم الامراض العقلية .

وهناك عاود الحديث عن الفئران ذات القبعات الحمراء كذلك فعاالجوه علاجا بسيطا واعطوه شهادة مرضية . واصبح منذ ذلك الحين ضيفا مقيما على الشرطة ، لكن رجال الشرطة كانوا يتحاشونه . فهو مجنون ... احاطته هالة سحرية استمتع بها كثيرا . فتزايدت عربدته ، وامضى المزيد والمزيد من ايامه في قسم الامراض العقلية ، يتعاطى الشراب ويتشاجر . لقد قلب رئيسة الممرضات «راسا على عتق» كما ذكر ضاحكا ، ولم يكن ذلك دون سبب .

بعد هذه التمهيدات جاءنا مع برعمين آخرين . كانا مدمنين عربيدين مثله ، وسأختصهما بالحديث فيما بعد . وعلمت من الخطاب الذي وصل بصحبتهما انه تم ارسالهم الى الجرانج كحل اخير . فاذا لم نفلح في اسلاس قيادهم فلا جدوى بعد الان .

واحرزنا قدرا معيننا من النجاح مع (ليس هالماجي) خلال خمس دقائق - ورغم هذا كان كل ذلك عبثا . لقد جاء ، ورأى وهزم . وصل ، وتطلع فيما حوله ، ورأى كل شيء ، وأعجب بكل شيء ، وابتسم ابتسامة عريضة ، ولم يعد للحديث عن الفئران ذات القبعات الحمراء وانغمس في حياة القفص الممسوه النشطة . لقد كسبنا ، وكسبناه .

وعيناه ممرضاً في نهاية الاشهر الثلاثة . فقد ظل يؤدي دور الممرض اثناء العلاج بالعمل ، اما الان فقد اصبح ممرضاً بالفعل . وسر الجميع لذلك وبلغ من شدة الفرح مبلغا دفعه لان يسكر . ولم نهتم لذلك ، شعرت انه ليس من حقنا ان نطالب مدمني الكحول بالامتناع عن الشراب على حين نسمح لغير المدمنين بالشرب . لم تكن المشكلة مجرد الشرب ، ولكن ما اذا كان يفقد اتزانه وشرفه ، واحساسه بالمسئولية ، وقدرته على التمييز .

ولم يفقد ليس هالماجي شيئا ، بعد ، ولهذا فقد احتفظ بوظيفته وباحترامنا له . واستطيع ان اقرر اننا لم نتحصل ولن نتحصل على ممرض افضل منه .

فنظرا لخبرته القيمة بالمصحات العقلية ، كان في وسعه ان يفهم اسلوبنا . وكان في مقدوره ان يحكي للآخرين عن الضرب ، وقميص المجانين ، والصدمات الكهربائية التي كانت تستخدم كعقاب ، وكذا عن السرقات والرشاوي التي يتقاضاها المرضى . لقد كان يوضح محاضراتي بأمثلة مصورة من خبرته الخاصة .

كان لديه عيب واحد . كان يستمتع بالدسائس والاكاذيب . ومع هذا فقد كان يزاولها بطريقة جذابة لا يضيق بها ضحاياه . وكان يؤديها من قبيل الفن للفن ، ويذكر جميع من عملوا معه بالسوء - لكن من وراء ظهورهم فحسب . وأفسد سمعة روزي بخاسة واعتبرها خصما له ، بعد ان أحبطت روزي محاولاته . وتعتبر هذه من القصص الشائعة بين مدمني الكحول لدينا . في اليوم الاول يطلعوننا على مأساة حياتهم العظمى . الزوجة الشريرة . ويقولون في اليوم التالي انهم لن يتطلعوا ثانية الى اية امرأة . ويعرضون الزواج - على روزي عادة - في اليوم الثالث ، ويقسمون ان يبدؤا حياة جديدة من الان فصاعدا . ويشرعون في كراهية روزي التي ازدردت بهم في اليوم الرابع . وفي اليوم الخامس يقسمون لامرأة اخرى على الحب الابدي ويسكر في نهاية الاسبوع ، ويبدأون كل شيء من جديد في الاسبوع التالي .

انتاب الهدوء ليس هالماجي بضعة شهور ، حتى حضر حفل قران فعاد بعد فترة من العريضة دامت ثلاثة ايام ، لم يترتب عليها أمور بالغة الخطورة . كل ما في الامر انه أنفق على الشراب ستمائة فورنت استدانها وسوف يسدها من أجره في ظرف شهر . كانت وسائله في استثارة العطف تتسم بالقدرة على جعل الغرباء يقرضونه مائة او مائتي فورنتا على الفور .

ولم تبدأ المتاعب الا بعد ان وضعنا فيه قدرا بالغا من الثقة جعلنا نسمح له بمصاحبة احد المرضى الى بودابست . عاد بعد موعده مخمورا ومدينا بألف وثمانمائة فورنت ، بعد ان جال في طول البلاد وعرضها بحثا عن قروض . وركز اساسا على زيارة اقارب المرضى ، واستغل اسمي في مطالبتهم بمبالغ تتراوح ما بين مائة الى مائة وخمسين فورنتا . واعطاه اقارب المرضى الخائفين ، خشية ان يبتزها من اولادهم . وكانت هذه خدعة قدرة ، جعلتني اكاد أصعق . واعترف ليس بكل شيء نادما . ولم يفه بكلمة في الدفاع عن نفسه . وتوسل اليانا ان نقبله والا نعطيه من النقود الا ثمن السجائر لمدة ثلاثة شهور ، وأن نسدد ديونه بالباقي من أجره .

ونفذنا وفق ما طلب . ولكن ليس لم يعد نفس الشخص . فأيام كان لا يزال مريضا كان يجد من الطبيعي ان يعمل من اجل الكفاف ، ولكن أصبح من الصعوبة بمكان الان ان يتقبل خلو جيوبه من النقود عدة اشهر . وحين تخلو جيوب سكير ساخط - تزيد المشاكل عنها حين تمتلئ اذ عندما تتوفر النقود ، يكتفي بصرفها ، اما حين لا تتوفر فانه يستولي على بعضها وينزلق بسرعة نحو الهاوية . غدا الان مديونا للجميع ، وتحصل على النقود بوسائل مشبوهة ، وباع نفسه لمختلف

السكيرين داخل المؤسسة وخارجها ، على نحو متعمد . ووجد من ذكائه ما جعله يردد :

« انني اعرف انني اندفع نحو دماري . لكنني لا اجد الطمأنينة . لن يوجد ثمة مكان أصلح لي في العالم اكثر من هنا ، انا أعلم ذلك . وأعلم انني سيلقى بي للكلاب . وان حياتي لا تساوي مجرد لعنة . انني كومة اقدار . لا تأخذكم بي الشفقة . »

ومع هذا فقد اخذتني الشفقة ، وبأنفسنا كذلك . كلمته عشر مرات ، مئات المرات ، دون جدوى . كان يوافقني على ما اقول ، ولكنه اعتزم الرحيل . واستبقاه حب جديد هنيهة قصيرة ، ولكن حين وقع الانفجار (ينتهي حب مدمني الكحول عادة بانفجار) افترقنا اصدقاء .

لم يكن الوداع الاخير . اذ عاد بعد اسبوعين في حالة كاملة من الضياع . وسألني أن أوافق على ايداعه كمرضى . اعتراه الفتور ، والتبطل وانغمس طيلة الوقت في الشراب ، وبدأ عليه الانسحاق - ثم اختفى بفترة . وتقضت ثلاثة ايام حين أرسل اليّ بطاقة يريديّة من جواتز ، بالنمسا . لقد عبر الحدود . وظل يغمري فترة ببطاقات التحية ، ثم لم نسمع عنه شيئاً . وبعد مدة من الزمن كتب اليّ من مصحة عقلية سويدية . وهناك لم يكن يعمل ممرضا بالطبع . وتتشابه في ذلك تماما حالة اليكس زالفاري . لقد كان مدرسا فأصبح ممرضا بعد فترة من المرض وكان يؤدي عمله بصورة ممتازة ، وغادر البلاد في النهاية كذلك .

لم يكن سمينا ، بل نحيلاً ضامرا ، أميل للاستثارة والعصبية . وبدلاً من رؤية الفئران ذات القبعات الحمراء ، كان يتصنع «حالات الرخاوة» حتى حصل على «شهادته المرضية» ، وجال في أنحاء البلاد ، يحتال على الناس ، ويعسد النسوة بالزواج ليبتز نقودهن ، ثم يسترد ذاكرته بفترة . وكانت الشهادة المرضية تؤكد اصابته بالبوريامانيا Pariamania ، وهذا امر مختلف ، ويجعله بمنجاة من عواقب ما يزاوله من تدليس . كانت له ذاكرة ممتازة . وكان يزاوّل تشرده في حالة من الرخاوة ، يتذكر اثناءها تماما أسماء وعناوين معارفه الذين لم يرههم منذ عشر سنوات ، ويعرف كيف يكسب قلوب ونقود ضحاياه بأكاذيبه الملتوية . فقد كان في مقدوره أن يلفق قصة عن كيف فقد تذكرة سفره ، او كيف خدعته زوجته ، على نحو يقطع نياط القلوب يجعل الذين قدت قلوبهم من الحجر فحسب هم الذين يرفضون له مطلباً . وحاول ابتزاز نقود اهالي المرضى كذلك . وان هي الا اسابيع قلائل حتى تصلني رسالة تطالبني ببضعة مئات من الفورينات اقترضها المريض بإسمي ...

ويكاد يكون اساس تشرده السيكيوباتي وإدمانه على الكحول نمطياً . فبعد طفولة متعثرة اشتغل مدرسا بالارياض ، وهناك التقى بامرأة ، اصطحبته الى حجرته في اول مرة يلتقي بها وتجردت من ملابسها . وأصبحت هذه المرأة زوجته

وسبب انهياره . لقد خدعته ، وتشاجرا يوميا . وأنجبا ثلاثة أطفال ، ولكن ترايدت شكوكه ، وعصبيته ، فأغرق أحزانه فيما بعد بالخمير ، وهجر أسرته ، وطفق يتصمعلك ، ويدعى محاولة الانتحار ويشرب بكل ما يكسبه . وفي سن الثلاثين عولج tapering - off ثم عاد الى زوجته ، وقضيا فترة الصلح على نحو من العريضة ، لكن استمرت علاقتهما الودية لاسباع معدودة . ثم اكتشف ان المرأة لا زالت تخونه ، فهجرها ، وتم طلاقهما . وأصبحت شكواه الرئيسية ان زوجته تمنع عنه اولادها الثلاثة - وان لم يكن يأبه بهم في الواقع على الإطلاق . (من المؤلف ان ينجب مدمنو الكحول اولادا ثم لا يهتمون بهم - باستثناء جوليوس المنجد ، وان كنت سأحدث عن ذلك فيما بعد) وباع ممتلكاته اثناء فترة تشرده ، واقترض نقودا . وبعد علاج ثان tapering - off عاد لمزاولة التدريس . وسار كل شيء على ما يرام عدة شهور . ثم انتابه الحنين الى اولاده (او هذا ما زعمه على الاقل) . فعاد الى المنزل ، وهناك لم تسمح مطلقته بالزيارة ، وأخبره احد الاولاد من خلف الباب المفلق ان «ماما لن تفتح الباب لانها في الفراش مع رجل ...» . وفي غمرة أحزانه حاول الانتحار فاقتيد الى قسم الامراض العقلية . والتقى في حديقة المستشفى بامرأة ساذجة غبية ، تزوجها من فوره دون موجب على الإطلاق . «كنت أبحث عن أم لاولادي» هكذا قال بصورة منطقية . وكان لزواجه القبيحة الغبية اما كذلك ، وسرعان ما طردته . وأعقب ذلك فترة من التشرد ، فكان يجد نفسه ذات مرة في شمال البلاد ، ثم في الجنوب ، ثم اكتشف من تذكرة القطار التي في جيبه انه اتجه الى اقاصي الغرب - على حد زعمه . وفسر تشرده برغبته الشديدة في العثور على شخص يتبنى اولاده ... واستقر به الترحال في ليبوتيميزو . حيث عولج بالعقاقير طيلة ثلاثة شهور . فعاد لمزاولة التدريس . وعلمنا من سجلات الشرطة فيما بعد بأمر انحرافاته وبكل ما اقترضه من نقود . وعاد يهيم على وجهه ، قاصدا زوجته الثانية التي لم يرها منذ اكثر من عام هذه المرة . وجدها حاملا ، فشعر بالمرارة على نحو ما ، وأغرق أحزانه في الشراب وحالة الوعي الرخو ، حتى استقر في عنبر للأمراض العقلية ، فطالب بتحويله الى الجرانج .

هذا مجمل مختصر للحياة المضطربة التي عاشها ، والتي يبدو ان اساسها القول الشائع : **فتش عن المرأة** . وظل اليكس عندنا على نفس النحو كذلك . فأراد الزواج من فوره بروزي ، ثم بإحدى السكرتيرات في مزرعة الدولة المجاورة ثم من إحدى الخاديمات ، ابتز منها الف فورنت . ثم انطلق بعدئذ من جديد ، يهيم على وجهه في ذهول ، حتى عاد بدين جديد مقداره الف وأربعمائة فورنتا . لا زال بالمجر ثمة محتالين ..

كان ممرضا بارعا ، خبيرا ، واسع الحيلة ، ومحلا للثقة . زين العنبر في حماس ، وامتلأت الجدران بفضلها بالصور والرسوم الشعبية . كان بالطفل الكبير أشبه . مليء بالطموح والافكار البراقة . وكان سهل الاستهواء ، يفقد قوة

الإرادة ، ويسهل توجيهه للخير وللشر .

وفيما بعد ، خلال فترة من فترات رحيله المحنومة ، شعر ان العالم مفتوح امامه ، وأن في وسعه أن يبدأ حياة جديدة ، وأن الامور اصبحت على نحو رائع - فاختفى ذات صباح وعبر الحدود النمساوية .

ولا بد انه اكتشف بمنتهى السرعة ان الامور لن تسير على هذا النحو من الروعة ، ما دام قد اصطحب معه شخصيته السيكوباتية . ربما استطاع ان يسبح بمهارة في المياه المضطربة بادىء الامر ، ولكن ماذا يصنع بعد ذلك ؟ لقد كان أعدى اعداء نفسه ، بفض النظر عن الموقع الذي يقف فيه من الحدود . اسفنا من اجله . كان يساوي لدينا وزنه ذهباً . وفقدنا به ممرضاً آخر من افضل ممرضينا الرجال .

تكاد قصص حياة الآخرين لا تستحق الذكر ، اذ يسير مدمنو الكحول على نمط واحد .

لقد جاء جون البناء وفرانك الخباز مع ليس هالماجي من الطرف الآخر من البلاد . واصبح جون البناء زوج المستقبل لالفيرا (عرس المساء) التي سبق لي الحديث عنها في الفصل السابق . وكان وجه الخلاف انه لم يكن يسيء الى زوجته وانما كان يستعطفها . وبدلاً من الفئران ذات القبعات الحمراء كان يدعي حيلة أخرى - الاكتئاب . استطاع ان يستغرق في ذلك الى درجة لا يتحدث خلالها لعدة ايام ، وانما يكتفي بالبكاء وهو يلوح بيديه في حزن ويرفد مواجها الحائط . ولكنه ربما كان يشعل سيجارة خلصة ، فينسى عندئذ ان يتظاهر بالحزن . لم يكن تظاهراً بالضبط ، ولكنه برهن على انه سلوك مقصود ، بأن كان يعلن على الملأ قبل ان تتباه نوبات الاكتئاب ، انه بصدد الرقاد في سريره ثلاثة ايام لن ينطق خلالها بحرف ... وفيما عدا ذلك كان عاملاً ممتازاً ابتنى لنا مظلات وحظائر للخنازير ومداخن وكوخ جذاب للبواب . لم يسكر خلال عامين الا مرة واحدة . واعتاد ان يشرب باتزان كأسين او ثلاثة كئوس اسبوعياً ، فلم نكتثر لهذا . بل على النقيض ، أصبح موضع ثقتنا ، فالمدمن الذي يستطيع التوقف بعد كأس او اثنين يعتبر من الحالات التي تبشر بالخير عن أولئك الذين يختارون بين احد النقيضين . الامتناع الكامل او السكر الى درجة العريضة .

لا يكفي الامتناع النسبي لمدة عامين في حياة سيكوباتي مدمن للكحول لاعلان شفائه الكامل . ولقد نجحنا في أن تستقر حالة جون البناء ، ولكن ربما يرجع هذا اساساً الى الفيرا (عرس المساء) او الى اننا اتحنا لهذا الرجل ، الذي تخلى من قبل عن كل شيء ، بما في ذلك نفسه ، عروساً وهدفاً في الحياة . لقد سبق وانطفأت في داخله شعلة الشباب التي كانت متوهجة لدى المدرسين . وقنع بالسعادة التي أتاحتها له شخصية الفيرا (عرس المساء) الغبية المصابة بالصرع ، والوظيفة الصغيرة التي شغلها لدينا . وطالما ظل على قناعته ، فلن يعود أعدى اعداء نفسه ، ولن تتكرر رذائله التي كانت بمثابة تعويض عن بعض الامور التي لم

يعد في حاجة الى التعويض عنها .

هكذا وجد فرانك الخباز كذلك عروسا لدينا . كان في الخمسين من عمره ، أحب امرأة ضعيفة العقل تناهز السادسة والثلاثين من عمرها وسعد كل منهما بالآخر . وأقلعت الفتاة عن أسلوبها المتقلب في الحياة وغدت زوجة مخلصنة مثابرة . واحترمت زوجها بطريقتها البهاء وتقبلت الحياة الجيدة التنظيم التي يحيونها . وتخلّى الزوج من جانبه عن زواجه السابق المنكود ، واكتشف ان الارتباط الجديد يلآئم على نحو أفضل طبيعته المستبدة . كان قد هجر زوجته الاولى وأولاده بسبب زواج ابنته من شرطي شيوعي . وكان لا يتحمل الشيوعيين لانه رجعي قح ، ولا يتحمل رجال الشرطة لانه مدمن عتيق على الكحول . ومن سخرية القدر - ومن الامور التي تؤكد ان هذه مجرد تعلات كذلك - ان أخا زوجته الجديدة كان ضابطا بالشرطة عاد لتوه من موسكو بعد عام من الدراسة .

بعد فترة نسبية من الامتناع استمرت ستة شهور وبعد عمل شاق ، خرج الزوجان الى العالم ليجربا حظيهما . فعادا اليها مخمورين بعد ثمانية أشهر أخرى . سرعان ما اعدنا الامور الى نصابها . لكن بدأ الزوج يسفر عن حدة طباعه ، واتهاماته وطغيانه . واعيد اطلاق سراحهما ولكنهما هذه المرة لم يذهبا بعيدا . أمضيا الاسابيع يحتسيان الخمر في حانة احدى القرى . ولم يجدا السعادة التي كانا ينشدان اذ كان عجز الزوج المرضي وقسوته لا يحتملان الا بصعوبة حتى داخل المؤسسة . والمجتمع يتطلب قدرا ازيد من التوافق .

ولقد أكد رحيل الزوجين المفاجيء ان الامور لا يمكن ان تستمر على ما يرام بالنسبة لمدمني الكحول السيكوباتيين . فالى جانب اقامتهما في القفص المموه ابتنينا لهما كوخا كاكواخ الاساطير له جدران ناصعة البياض ، وباب وأطر خضراء للنوافذ ، مؤثث بالأسرة ، والاصونة ، والموقد . ابتناه جون البناء ، وضع اثائه ليس كوفمن ، وأعد روز هيبس الموقد وقام آل ستمبلر بأشغال الكهرباء . ووضعنا فرانك الخباز في هذا المنزل الصغير . وأصبحا بوابين .

وحسدتهما المؤسسة بأكملها ، مرضاها وممرضيها . ترى هل كان هناك من هو أحق منهما بالحسد ؟ لقد كان في استطاعتهما أن يعيشا في منزلهما الصغير كيميائين . ويستطيعان العمل في الحديقة الصغيرة المحيطة بمنزلهما . ويحصلان على كل ما يحتاجان اليه من الدولة - طعام كامل ومنزل خاص ، ومبلغ للزوج ، وفي مقدورهما كسب مبالغ اضافية من وقت الى آخر . ووظيفة البواب محترمة يعتبر شاغلها اهل للثقة واعتقد المرء ان أسرة الخباز ستقيم هناك حتى نهاية العالم . ولكن لا . بدا فرانك الخباز يتشاجر مع روز هيبس وهو مدمن كحول سيكوباتي كذلك عندما جرؤ على أن يقدم له النصيح بخصوص الموقد . ثم تشاجر ثانية مع ستيف دريفر ، وهو مدمن على الكحول كذلك - لسبب لا أتذكره . كما تشاجر ايضا مع شخص آخر ثم احتسى نصف زجاجة من الروم . ومعرضين عن كافة ما تلقياه من نصائح طبية ، غادرانا مفضبين ، بين بكاء الزوجة المرير . وهما

يشربان الان في الحانة وتكتنفهما الديون ، ولا زال الكوخ الاسطوري معدا لاستقبال المحتال التالي .



هناك مثل مجري يقول ان الكلاب لا تصاب بالجنون حين تعاملها الحياة على نحو طيب . وانا لا اعرف في الكلاب ولكن هذا القول ينطبق بالتأكيد على مدمني الكحول . فطالما تكتنفهم المتاعب ، فهم ودعاء متواضعين ، مليئين بالندم والعزيمة الطيبة . ولكن حين ينجلي الموقف ويحصلون على عمل ، تستطيع ان تشم رائحة انفسهم على بعد عدة خطوات .

ولناخذ روز هيبس مثلا . لا حاجة للقول ان زواجه الاول كان فاشلا وانه شرع في الشرب ، وتمادى اكثر واكثر ، حتى حصل على الطلاق . وتزوج بواحدة من فنيات الشوارع فيما بعد ، ثم هجرها واستمر في التصعلك وفي سن الثانية والخمسين استقر به المقام في الجرانج . كان ميكانيكيا بارعا . ظل عدة شهور لا يتحدث عن الشراب وكان مثابرا يعول عليه لدرجة اننا عيناه ميكانيكيا للمؤسسة . فكانت النتيجة انه لم يستطع أن يبتاع لنفسه قميصا واحدا من أجره البالغ الف ومائتي فورنتا في الشهر . وغرق في الكحول والديون عقب اسبوعين من تعيينه . وكان ذا طبيعة شرسة ، ميلال للشجار ، لقلاقة فضولية ، فضايق الجميع وكانت تضايقه اية تفاهات . وكان يحتاج الى علاج نفسي عدة مرات اسبوعيا حتى يتخلص من نوباته الانفعالية . وكان على المرء ان يقوم بتهدئته هو ومن حوله . وتضايق بقية موظفي المؤسسة لانني لم الق به الى الشيطان ، وكانوا ، بصراحة ، محقين في ذلك . وحطم سيارة المؤسسة ، وهو تحت تأثير النوبة . فلم نستطع تجاهل الامر ، وقمنا بالخصم من مرتبه . وكان هذا معناه انه سينفق على الشراب مبلغا يقل مائتين وخمسين فورنتا شهريا . ولكنه لم يتقبل الامر . فقدم انذارا وبدأ يستبق نحو دماره - واعتقد انه يفعل ذلك دفاعا عن «شرفه» . لقد كان فسي وسعه أن يجد مكانه في «مدينة السكوباتيين» حيث يمكن احتماله ، فالاسوياء من الناس لم يحتملوه ، وهم على صواب ، وكان التسامح ظلما بالنسبة للموظفين الاسوياء .

وكان ستيف دريفر من سكان احدى المصحات العقلية في بودابست ، وقدم للمحاكمة اربعون مرة على الاقل . كان يعمل سائقا على سيارة لنقل الفحم ، وينفق ما يكسبه على الشراب . وكانت له وقائع مع الشرطة ، وظل لسنوات لا ينقضي اسبوع الا ويتم القاء القبض عليه ونقله في سيارة الاسعاف وابدى استعدادا للعمل في الجرانج ، بهدوء ومثابرة ، حتى عيناه سائقا وعاد منذ ذلك الحين فصاعدا الى الشرب . وفي النهاية طالبنا هو شخصيا بأن نعيده مريضاً مرة اخرى لانه لا يستطيع تحمل المسؤولية او مقاومة ما في جيبه من نقود .

واجدني دون حاجة لسرد القصة الكاملة لجوزيف كوك ، نظرا لانها شديدة الشبه بسابقاتها . كانت النهاية هي التي اختلفت فحسب . لم يذق فسي الجرانج قطرة واحدة من الخمر - حتى اليوم الذي وظفناه فيه . كان يطبخ بمهارة ، فأصبح طباحا . وزاد ابتهاجه لدرجة السكر . وبعد اسابيع قلائل عاد للسكر ثانية ، ولكنه كان سكرانا لدرجة انه شرع في الهياج وحاول ان يطعن كل من امامه بسكين ضخمة . ثم هذا وياشر مطبخ الجرانج زهاء عام ، مؤديا عمله بصورة حسنة . وكان يشرب نادرا وقليل . اما ما يضاف لهذا التحسن فصلحه مع زوجته التي عينها مساعدة بالمطبخ . فانتقلت الى الجرانج مع ابنتها الصغيرة النشيطة ، وعاشوا سعداء - حتى شرعا في الشجار من جديد ...

وساعدت استعادة الهدوء العائلي جولوس المنجد ، كذلك . او ربما يجب ان اقر انني لا اعرف ما الذي ساعده تماما . عرفته منذ ستة أعوام ، في ليوبتيمزو، اثناء كنت مشرفا على قسم التخفيض المدرج tapering - off . واعتقدت ان جولوس المنجد قد شفي نهائيا . كان منجدا ماهرا ظل يمتلك حانوته الخاص حتى بدده وهجر أسرته . كان يشرب غالبا نصف جالون من الخمر القوية يوميا . ولم اكن اعرف لماذا ، ولكن منذ تاريخ حديثنا الاول لم يعد يلمس الخمر بتاتا وانخرط في العمل من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من المساء . دفن نفسه في العمل . وعاد الى منزله بعد ستة شهور . وخلق ورشة جديدة من العدم ورد زوجته وابنته . وبدا كأنه فخور بأسرته وعمله ، ولم يشرب قطرة . وعبر عن امتنانه بأن قام بأعمال التنجيد بشقتنا . ولم يكن لدينا اثانا كثيرا لحسن الحظ ، والا عرضنا هذا العمل المجاني للخراب . فلقد اقتصر جولوس على استخدام الخامات الممتازة فحسب ولم يسمح لنا ان نوفر سوستة واحدة او اوقية فحسب من شعر الخيل .

وظل يزورني لسنوات فيما بعد او يرسل اليّ بطاقات التهئة . ولم يشرب . وذكر لي انه كلما قدم له اصدقاؤه النبيذ ، طالع «وجهي الكريم» فلا يستطيع تذوق نقطة منه .

ولكن بعد فترة امتناع دامت خمس سنوات ، علمت وانا فسي الجرانج ان المنجد كان يشرب . يبدو ان «وجهي الكريم» قد فقد تأثيره . كتبت اليه اطلب ان يتخلى عن كل شيء ويحضر فورا . وجاء في منتصف الليل بعد يومين مترنحا من السكر . لقد وصله خطابي بعد الظهر فاستقل القطار السريع وسكر في عربة الاكل . ويجب ان اعالجه الان .

ولم يشرب المزيد . لم يترك كنبه او مقعدا في الجرانج الا وأصلحه . وضع مائتي مرتبة جديدة ثم هرع الى منزله لان الموسم قد بدا ، وأسرت وزبائنه في انتظاره .

ربما لن يشرب لمدة خمسة أعوام اخر . كانت هذه حالة تم شفاؤها . ويمكن اعتبار حالة ليس كوفسن في عداد

الحالات التي تم شفائها كذلك . لقد عمل في ورشة النجارة لدينا زهاء عام ، وخلال هذه الفترة لم يسكر سوى مرة واحدة - ويجب ان نقول في معرض الدفاع عنه انه سافر في ذلك اليوم ثلاثين ميلا في عربة ، خلال اكوام الثلوج . وكان مستعدا للقيام بأي عمل . كان يشتغل بصناعة توابيت الموتى ، ونظرا لاننا لم نكن بحاجة الى هذه المهنة ، فقد اتجه الى النجارة . واعتبرناه المدمن الوحيد الذي لم يكن سيكوباتيا بل مجرد سكير . كان يشرب زجاجة كبيرة من الخمر القوية في اليوم . ولكنه لم يكن سيكوباتيا ، ولم يكن أسوأ عدو لنفسه ، ولهذا فقد اعتقدت ان العلاج بالامتناع على مدى عام كامل سوف يساعده نهائيا . ولكن من يدري ؟ لن يستطيع المرء ان يتأكد الا بعد عشرة أعوام .

وكان لدينا نجار آخر كذلك ، هو جوليوس المكتئب ، الذي علقنا عليه آمالا كبارا ، ولكننا بؤنا بالفشل المرير . لم يجئنا باعتباره مدمنا وانما بمرض «الاكتئاب الاستجابي» ، ثم اكتشفنا فيما بعد انه سكير أصيل . ولقد سبق ان ذكرت «النجار المكتئب» الذي لم يكتف بأن يجعل ورشتنا تزدهر فحسب ، بل حلقتنا الادبية كذلك .

كان شخصية حقيقية من شخصيات العالم السفلي - فهو من المشتغلين بالسوق السوداء وإدارة المواخير ، ومدمن سابق على المورفين ، ومن المحتمل انه كان مقامرا وأفاقا كذلك . لم أر قط رجلا اكثر تزييفا وعنفا . ولكنه أصبح لدينا بمثابة الشرف والمثابرة ذاتها ، لعدة شهور . وكان علينا ان نقدم له الشكر على عديد من الاصونة ، والدكك والرفوف . ولكنه علمنا ان النمر لا يتخلى عن جلده الارقط حتى في الجرائح .

لقد كان الجرائح تحت تصرفه فعلا . اثنا له حجرة منفصلة مجاورة لورشة النجارة ونفذنا له كل طلباته . كنا نعرف ، كما يعرف هو كذلك ، انه لا يستطيع مسايرة العالم . ولكن في استطاعته ان يعمل هنا على سجيته ، فوضعنا ورشة النجارة المجهزة جيدا تحت تصرفه . فكان يعمل للمؤسسة في الصباح ، ويعمل بعد الظهر في الطلبات الخارجية .

وتسبب الحب في انهياره . لم يقع جوليوس المكتئب في حب روزي (على الرغم من انه مر بها مرورا عابرا) وانما أحب ممرضة كبيرة ، بادلته حبا حارا عصبيا . وأرادت الطلاق من زوجها (وكان مدمنا للكحول كذلك) وأخذت تمهد للزفاف الجديد كئيبا مراهقة .

وخشيت من النتائج . فلقد كانت الممرضة تعيش حلمها الوردي متعامية عن النفس المظلمة التي وقع عليها اختيارها . وعبثا استخدمت قواي في الاقتناع لاثنائها عن هذا الحب . ولم ينقذنا من الكارثة سوى عجز النجار عن اخفاء شراسته وخداعه طويلا . اعترته ثقة شديدة وشرع في الشرب والكذب . وضع المنزل من تصرفاته ، وخاف الجميع قوته البدنية الهائلة . كان عدوانيا سيء السمعة . فغش الجميع ، وسبب لنا الارتباك بأعماله المشبوهة ، وكان كذابا من الطراز

الاول لعب دور البريء بمهارة جعلت الممرضة المتدلهة لا تعرف هل تصدقني ام تصدقه . وأخيرا وبعد حيرة طويلة ، عادت الممرضة لصوابها واستفاقت لنفسها . ونقلنا النجار السكر الى احد العنابر ولم نسمح له بالعودة الى حجرته الصغيرة المجاورة للورشة . فاعتراه الغضب وغادرنا وهو مغيط . وبعد ستة شهور كتب الينا من السجن .

لقد كان فشلا ذريعا ، وكنا سعداء اذ لم يكلفنا سوى اقل الاضرار . وظل سبنسر العجوز يباشر ورشة الاحذية في الجرانج طيلة اعوام ثلاثة ، جاءنا في سن الرابعة والاربعين ، وان بدا في الستين . كان الرجل خطاما يدعو الى الاشفاق . يكاد يكون خاليا من الاسنان ، تكسو وجهه عديد من التجاعيد ، وترتعش يداه ، ويتضح اضطرابه تماما . كان يعاني من شلل كاذب ناتج من الادمان وغدا قليلا على نحو متزايد . وكان من الصعب ان تصدق انه تزوج منذ عشر سنوات ، على الرغم من ان ذلك لم يكن يدعو الى الغرابة ، اذ كان وقتها في الرابعة والثلاثين من عمره . وارادت زوجته ان تطلقه بعد اشهر قلائل من الزواج لانها اكتشفت ان زوجها يشرب ويراهن على الخيول . وكان سبنسر يضرب زوجته واولاده بالحزام ، ويحطم الاثاث ، او بعبارة اخرى ، يتصرف شأن مدمن الكحول المزمن المألوف . وكان يقاد أحيانا الى المصحة العقلية وهو فاقد الوعي بتأثير الشراب . ويقال انه كان في مناسبات اخرى يراود اصغر بناته على نفسها وهو سكران .

والغريب للغاية ، ان هذا الرجل ظل على نحو من الهدوء لدينا كان على رأسه الطير . كان يعمل في الورشة اليوم بطوله ، ويلبس في المساء كأي صانع عتيد ويشرب كأسا من النبيذ لم يكن يخرج منه عن طوره قط . وكان يكسب مبالغ طيبة في الجوار ، فكان في مقدوره ان يشرب المزيد . ورحل الى منزله ذات مرة في اجازة . وبعد بضعة ايام وصلت من زوجته رسالة خاصة ، لقد سكر سبنسر في المنزل سكرًا وحشيا ، وحطم الاشياء ، وثار وأبقى على الاسرة في حالة من الرعب . اما الاسوا من ذلك ، فقد قام بالاستيلاء على معطفه الشتوي الذي ظلت تحافظ عليه مدة طويلة ورهنه بالتأكد مقابل الشراب .

وحين انتهت الاجازة ، عاد سبنسر . وصل في معطفه الشتوي الانيق ، وقبعة جديدة فوق رأسه ، في حالة من الوعي الكامل . باع معطفه يا لها من فكرة ! أجل ، لقد شرب بضعة كئوس من النبيذ مع الاصدقاء في المنزل ، وسكر كذلك ، لا داعي للانكار - ولكن هل كان ذلك سيئا على هذا النحو ؟ انه لم يؤذ احدا . لقد بالغت زوجته قليلا بالطبع ، ودائما ما تفعل .

حسنا ، كيف يستطيع المرء ان يكتشف الحقيقة ؟ ثمة علاقة غامضة بين السكر والمجتمع . لماذا كان سبنسر شديد الوداعة بيننا على حين كان وحشا في المنزل ؟ ولماذا كان وحشا في المنزل بينما كان شديد الوداعة بيننا ؟ هل كان وحشا حقا ؟ تبقى الحقيقة انه عاد في معطفه الشتوي ..

وعينًا سبنسر صانعا للاحذية بالمؤسسة . كان يشرب بانتظام ولكن نادرا ما يسكر . ولم يتسبب لنا في اية مشاكل .

وكان كوتسورفي العجوز ، الميكانيكي ، مواطنا محترما من مواطني الجرانج شأن سبنسر . كان زميل الطبيب المساعد المخلص في لعب الشطرنج . تعلّم مهنته في جراتز . وكان يفهم في اصلاح الساعات وكذا الآلات الكاتبة وكان يزاوّل جميع انواع أشغال الخراطة والميكانيكا . ولكن ليس على نحو طيب تماما، نظرا لان الشراب وتصلب أنسجة الدماغ قد أوهنه قليلا وجعل يدها ترتجفان . وكان قد مضى عليه عام لم يتناول فيه قطرة من الخمر ، حين طلب الإفراج عنه . كان قد حصل على وظيفة في محطة للجرارات . وبعد شهور قلائل عاد سقيما مهزولا . وسمحنّا له بالاستراحة ثلاثة اسابيع . فوقف على قدميه وعاد للعب الشطرنج ومزاولته أعماله الصغيرة ثم أفلح في العثور على وظيفة أفضل . أصبح ميكانيكا في مؤسسة خيرية . واذا استطاع ان يشعر بأنها بمثابة مأواه حقا ، فلن يعود قط الى الشراب .

ولقد سبق ان رويت بالتفصيل قصة احد مشاهير مدمني الكحول لدينا ، الشاعر الذي كانت تنبث منه رائحة الثوم . وأحب ان أضيف هنا ان الرذيلة المهلكة تمكنت منه بعد ان أحرز نجاحا ماديا وأديبا وغدا شاعرا مرموقا ومواطنا ناجحا .

كان هناك ثمة اتهام غريب في احدى رسائله المتجنية . «لا توجد مكتبة . وانما تقرضني الخادمة احيانا بعض صفحات الجرائد بدافع الشفقة ...» لم يكن لدى هذه الخادمة اية صفحات جرائد ، ولم يكن في وسعه ان يتلقى منها كتبا من اي نوع ، ولكنه كان يتلقى منها النبيذ اذ كانت الخادمة مدمنة على الكحول كذلك .

كان اسمها مسز ليبزناي ، عاشت في المصحات العقلية احقابا كمريضة فصامية . ولكنها لم تكن فصامية ولم يسبق لها ان كانت سيكوباتية سكرة ، غريبة الأطوار لا يمكن مضاهاتها بأحد . ولم تنجح في الحياة فاتخذت من المصحة العقلية مأوى لها . وكانت تعرف جيدا كيف تبتز بعض المزايا الصغيرة على حساب المرضى الحقيقيين .

وفعلت ذلك في الجرانج باديء الامر . والى جانب كونها لصّة ، كانت تمارس الوقيعة ، وثرثرة وسكرة . ومع هذا كانت تبدو كفاءتها واضحة ، في اي عمل يسند اليها ، كالخياطة ، والفسيل ، والخدمة ، وأعمال الحداثق ، كانت تؤدي عملها بامتياز .

وكانت مسز ليبزناي زعيمة الثرثارين التي تتدخل في كل شيء . وكان الجميع يخشونها ، وتحيق المصائب بأولئك الذين يقعون ضحايا سلطة لسانها . وكانت تسرق من المرضى ، حتى تظل في يدها نقودا تنفقها على الشراب . وافلحنّا في فضحها . وحاولت عبثا التدخل في أمور السيدة الاولى التي لم تكن تصفي الى

نميبتها واكتشفت سرقاتها .

وقد يظن المرء ان تدخلنا الصارم قد استثار المقاومة العنيفة من جانبها . ولكن لا . لقد عادت الى صوابها ، واصبحت مسر لبيزنائي خير معين لنا . وحين كنا نسند اليها مباشرة التنظيف ، كانت تبرهن على اي نحو طيب تستطيع قياد المرضى الذين تشرف عليهم . كانت أفضل بكثير من المرأة المسئولة عن التنظيف التي استأجرناها من القرية ، والتي كانت تعتقد ان قيادة العمل تعني ان تقول للمرضى ما يصنعون ثم تترقد بقية النهار . لم تكن مسر لبيزنائي تكتفي بالرقاد . لقد اصبحت عاملة ممتازة ، بعد ان ظلت طفيلية زهاء حقبتين .

وكانت اولى المريضات بالادمان التي تم تأهيلها على هذا النحو . وظلت تعمل جيدا لمدة سنوات ثلاث . واستمرت في الثروة وان لم تعد الى اختراع الافتراءات ، واكتفت بالابقاء على لسانها يضرب فحسب . وكانت تسلم الجزء الاعظم من مرتبها الشهري ليوضع في الادخار ، حتى لا تنفقه على الشراب . وذهبتا معها مرتين الى المدينة في جولة للشراء ، وانفقت في كل مرة ثلاثة آلاف فورنتا على الملابس الجديدة .

وكانت تذهب الى القرية المجاورة لتشرب هناك مرة في الاسبوع . وكانت تعود وقد غشي منها البصر لا تدري ماذا تقول . ولكن الامر لم يكن بذى بال . لم تكن تضر احدا . وتبدأ عملها في موعده . وبفضلها كان كل شيء في الجرانج يبرق من فرط النظافة . وبفضل الجرانج كانت تشع من فرط السعادة .

كان يوجد ثمة حوالي عشرين مريضا من مدمني الكحول حاولنا علاجهم في الجرانج ، من بينهم ثلاثة مرضين ادمنوا الشراب . ويبدو ان هناك وظائف تفضل الشرب - او ربما يفضلها الشاربون . وهي تتضمن المرضين الرجال او خدم المصحات العقلية ، وهذا احد الاسباب التي تجعلني ازمع ان النساء أفضل كمرضات . فهم نادرا ما يكونون سكيرات . لقد شاهدت مصحات كان جميع من فيها من المرضى دائما في حالة من الذهول المستمر بتأثير الكحول . وتستطيع ان تتصور بأي قدر من العناية يؤدون مهام وظائفهم ، وبأي قدر من الانسانية يعاملون أولئك الذين عهد بهم رعايتهم ، وكيف يصلحون خاصة لمزاولة علاج مع الآخرين .

ليس كل من يشرب يعتبر مدمنا على الكحول او سيكوباتياً بالطبع . ففي الجرانج ، كان البستاني ، وهامستر ، و ويندي واحد الطباقين يشربون بكميات ، بيد ان هذا كان بمثابة نوع من الشرب «الاجتماعي» فحسب . ماذا يستطيعون ان يصنعوا غير ذلك في الجرانج ، ما داموا لا تستهويهم الكتابة ، او القراءة او سماع الموسيقى ؟ انهم يتجمعون ، ويسلقون الغائبين من خلف ظهورهم بالسنتهم ، ويشربون . ولم يكن هذا امرا محليا ، او شاذا ، بل هو امر مألوف، لسوء الحظ ، تماما .

ومدمني الكحول في الغالب حرفيين مهرة . لم اتحقق من ذلك في الجرانج فحسب وانما في المصحة العقلية في ليو تميزو كذلك حيث كان يقوم بمعظم اعمال الاصلاحات الروتينية مدمني الكحول من الميكانيكيين والكهربائيين ، والنفاشين ، والبنائين المهرة - الذين يستأنفون الشرب بعدئذ رغم انف العلاج المقيء واقرص الانتابيوس . وبعد بضعة شهور من العلاج «الناصح» ، يعادون ثانية الى قسم التخفيض المدرج في احدى المستشفيات الاخرى . ويدورون في حلقة مفرغة .

وحين ا تذكر ايام الفشل في ليو تميزو ، اراني يجب ان اقرر انه برغم كل الاخفاق ، لا يزال اسلوب الجرانج اكثر نجاحا . لم يتحول السكيرون الى معادين للكحول ، ولكنهم وبرغم عودتهم للشرب - من آن الى آخر اصبحوا **مؤهلين للحياة** - على الاقل في هذه البيئة التي تحميهم . من سبعة عشر حالة خطيرة من حالات سيكوباتية ادمان الكحول الميثوس منها ، نجحنا في حمل سبعة على العمل بانتظام والشرب القليل او المنعدم لمدة تزيد عن عام . وسقط خمسة مدمنين آخرين بانتظام في حماة الشراب ، فكنا نفق الى جوارهم في هذه الظروف ونساعدهم على التغلب على ازماتهم بالكلمة الطيبة ، او القسوة او اقرص الانتابيوس ليعودوا بعد ذلك يعملون على نحو طيب . وكان هناك خمسة من المرضى فحسب فشلنا معهم تماما - اثنين من التريزية ، وساقى ، ونجار وشاعر . وهذا يؤكد مرة اخرى ان السيكوباتيين المدمنين على الكحول لا يمكن شفاؤهم بالعلاج فحسب ، ولكن يجب ان يتغير **قصرهم** . فيجب خلق ظروف للحياة من اجلهم ، تجعل العلاج غير ضروري . وهذا امر صعب لاننا نتعامل هنا مع سيكوباتيين تأثرت قدراتهم الناقدة ولديهم دافع منحرف لافساد الامور على انفسهم . ويعتبر الشرب بمثابة عرض واحد فحسب - وهو ليس اكثر الاعراض أهمية - من اعراض سيكوباتيتهم المدمرة لدواتهم ، وهذا هو السبب في ان الانتابيوس والابومورفين لا يفيدان معهم . ولا يجدي معهم المنطق والعقل ، والفهم كذلك ، نظرا لان نقيضهم الباثولوجية مضادة للعقل . يجب ان نخلق من اجلهم خليطا غريبا من المعقول وغير المعقول ، يستهدف اشعارهم بالمسئولية ، مع التفاضى مؤقتا عن تحملهم المسئولية ، وفرض النظام مع السماح ببعض التراضي ، واستبدال العشوائية بالنسق المنظم ، وتقديم الفرص العريضة لارضاء كل الاحتياجات وتمكينهم من ان يعيشوا الحياة الجماعية على نحو فردي . واغلب الاحتمال ، ان هذا لن يتحقق ، اذا امكن تحقيقه ، الا في «مدينة السيكوباتيين» . وبينما يجب المدمنون الاندماج في مجالس القصف والشراب ، نراهم يكرهون ويحتقرون بعضهم بعضا على نحو قوي حين يتعلق الامر بالعلاقات الاجتماعية السوية . انهم عاجزون عن التوافق لا بسبب سكرهم وانما نظرا لعدم قدرتهم على معايشة الآخرين . ويتشكل بين المجانين عادة ضرب من الروح الجماعية ، بيد ان مدمني الكحول لا يحملون هذه الروح الجماعية . انهم يكرهون غيرهم من السكيرين من أعماق

قلوبهم ، ويستطيعون ان يصفوا بألفاظ لا تصلح للنشر على اي نحو من السوء هؤلاء الاشخاص الآخرين . فليدهم حس أخلاقي ناضج بإزاء جميع من عداهم ، ولا يعرفون الرحمة ، ولا يبدون الرقة والفهم الا مع انفسهم فحسب . ويسمون مزاولتهم للشرب «بالفترة المؤسفة التي لا تستحق الذكر ، لانها آخر محاولات الافراط ، ومن بعدها يعدون الان وعدا حقيقيا ونهائيا بعدم العودة الى ذلك نهائيا ... ويؤكدون في نفس الوقت ان خلاعة زملائهم في الشراب غير أخلاقية على نحو مشين ويؤكدون لي ان وعود هؤلاء السكيرين الاوغاد لا تساوي شيئا ، وانهم سيعودون للشرب في ظرف أسبوع . انهم يعيشون جنبا الى جنب في عزلة ، يدسون ويفترون على بعضهم بعضا . بل هم على استعداد لايقاع الضرر بانفسهم ليصيبوا الآخرين بالضرر كذلك .

انني اوصي بشدة بانشاء «مدينة السيكوباتيين» حيث يستطيع هؤلاء الناس ان يجدوا شكلا من الحياة التي تناسبهم ، وان كنت لا اعبأ بأن اكون عمدة لهذه المدينة .



ويفوق متعاطو المورفين مدمني الكحول في الكذب وانعدام الاخلاق وبرغم ان انعدام اخلاقهم يكون على نحو اخطر ، نجدهم يحتفظون بمظهرهم لمدة اطول . وتكون شخصية السيكوباتي السكير عادة ذنيئة ومندفعة ، وقذرة غالبا . اما متعاطي المورفين فهو ، على العكس ، لطيف ، وجذاب غالبا ، ومتحضر حتى في شراسته . وينبع الفرق في اعتقادي ، من ان مدمن الكحول اقرب الى شبه الصرعي من ناحية الخلق ، بينما توجد لدى متعاطي الافيون سمات هستيرية . من بين مدمني المورفين في القفص الموه كانت احدهما تعمل ممرضة اعتادت ان تثير ضجة ملحوظة بمسلكتها الهستيري ، ولكن تم تهدئتها . ثم علمت فيما بعد انها سقطت في هوة الادمان .

وكانت الاخرى شخصية ادعى لاثارة الاهتمام ، كانت نصابة حقيقية . شرعت تمارس النصب في سن الثامنة عشر ، واصبحت الان في الخامسة والثلاثين وقد بدا يتقدم بها العمر . واستطاعت في افضل اوقاتها ان تؤدي اعمالا مدهشة ، فكثيرا ما كانت تتظاهر بأنها طبيبة او مهندسة . اما الطف حيلها فكانت حين قامت «بتأميم» الصيدليات . حدث ذلك حين كانت الصيدليات لا تزال ملكية خاصة ، وان حدث قدر ملحوظ من التأميمات . فاعتادت ماجدا مورفينست ان تدخل الصيدليات واحدة بعد اخرى ، وتتظاهر انها موظفة رسمية (وكان لها من المظهر المعتد ما يغني عن تقديم ما يثبت شخصيتها) . وتلقي الاوامر في عزم ثم تطلب مفاتيح دواب السموم من الصيدلي المصعوق وتأخذ المورفين وتنصرف . ولا زالت ليبوتميزو تتحدث عن احد حيلها . لقد مضت الى هناك من اجل

العلاج . ولكنها تظاهرت بأنها طيبة ، وظلت تقوم بالإشراف على سجلات المرضى الطبية عدة شهور .

وقضت في السجن مدة طويلة وأدينّت ، بتهمة التجسس . وكانت تتمتع بعقلية حادة ، تحلق عاليا ، لتسقط فيما بعد . وبرغم أفكارها الذكية ، لم تكن محتالة موهوبة (المحتالون الموهوبون لا يودعون المصحات العقلية) . وانتابها التعب والوهن ، وحتت للحياة الهادئة . وحاولت أثناء إقامتها في الجرانج الزواج من سيكوباتيين مكتئبين . أغرت أحدهما بأن أصبحت عشيقته ، وأغرت الآخر بأن لم تصبح عشيقته ، لكن أحدا منهما لم يتزوجها . وكانت تقلب . بفضل دسائسها ، موظفي المؤسسة بعضهم على بعض ، ثم تنفض يدها من الموضوع وكأنها أنت عملا مجيدا . وادعت في القرية المجاورة انها مهندسة ، وتظاهرت انها مريضة بالقولون ، لتحصل على حقنة مورفين وتسرق معطفا من وبر الجمل . كان الاسلوب الجذاب الفاتن الذي تزاوّل به ماجدا مورفينست احتيالها جديرا بالملاحظة . وكان من حيلها المتكررة الناضجة غالبا أن تعترف بأخطائها باكية ، وتقر نادمة انها ستبدأ حياة جديدة ، وأن حياة العبث قد انقضت ، ومن الآن فصاعدا لن تقول الا الحقيقة . ثم تستمر في الكذب بعدئذ بالطبع . ولكن يجب ان أعترف انها كسبت قلوبنا بشقيقتها ، وتمنينا معها (أو ضدها) أن تبدأ حياة جديدة حقا . ولكن أثبتت الاحداث التالية ان هذا الامل عبثا . وحتى ذلك الحين امتعت نزلاء القفص المموه ساعات عدة نظرا لانها كانت ممثلة ممتازة .

وتشبه حالة ماجدا مورفينست حالة دون ديسيت ، وبرل كبيرة العينين ، وبقية المحتالين الهستيريين من عدة جوانب . ولا يؤدي تعاطي المخدرات الى الاحتيال ، فهذا احد أعراض سيكوباتيتها فحسب ، وان لم يكن أخطرها . اذ لم تكن ماجدا من أولئك الذين يستمتعون بالمخدر حقا . كانت ترى فيه ملاذا . وحتت لدينا من كافة الاعراض . ولم تسفر عن علائم الرغبة في المورفين . ومع هذا ، فبمجرد ان رحلت كان اول من وقع في أحبالها طبيب مجهول ، حصلت منه على جرعة لماذا ؟ هل اشتاقت الى تأثير المخدر بهذه السرعة ؟ من الاصوب انها ارادت ان تتأكد انه اذا تم اللقاء القبض عليها أثناء احتيالها ، فلن يتم ارسالها الى السجن بتهمة الاحتيال او السرقة وانما الى مصحة عقلية باعتبارها مدمنة مخدرات . ووجدت جوديث سويندلر ، وهي إحدى مريضاتنا ، في الجنسية المثلية ملاذا لها ، تماما كما وجدت ماجدا في المورفين . وتعتبر الجنسية المثلية في الذكور ، طبقا لقوانيننا البادية الغريبة ، جريمة يعاقب عليها ، اما بين النساء فتعتبر مرضا يستحق العلاج . ولم تكن جوديث سويندلر تعرف ذلك حين أغرتها - ولما تزل في سن المراهقة - امرأة لواطية ومنذ ذلك الحين وحتى سن الثامنة والعشرين لم تبد اهتماما بالرجال وان تقلبت بين صديقاتها مرارا . كانت تفضل الفتيات الأكبر سنا اللواتي في مقدورهن ان يلعبن دور الام ، والاخت ، والزوج والعشيق .

لم تكن تدعوها الحاجة للبحث عن بديل لامها ، فليديها أم حقيقية عطوفة ، طيبة القلب ، ومتفهمة صنعت كل ما هو ممكن ، لعلاج ابنتها . لم تترك طبيبا عقليا في بودابست لم تأخذ اليه جوديث ، ولكن دون جدوى . ولم يكن تصادمها المستمر مع المجتمع يعود كثيرا الى جنسيتها المثلية بقدر ما هو راجع الى اكاذيبها المرضية . وسبق فصلها من مختلف المدارس والوظائف . وحوكمت في المحكمة اكثر من مرة ، وان نجحت دائما في ان تودع المصحة العقلية بدلا من السجن (من الصعب علي الفهم لماذا عولجت في هذا القدر الكبير من المصحات من الفصام . لقد اضعف العلاج الطويل بالصدمات الكهربائية ذاكرتها ، ولم يؤثر في جنسيتها المثلية او احتيالها الا قليلا . وعلى العكس زاد من عدم تحملها للمسئولية ، اذ جعلت تنحي باللوم على العلاج بالصدمات لتذكر ما كانت ترغب في تذكره فحسب) ونادرا ما رأيت حالة ادعى منها الى اليأس . ان تفكير الفصامين الاجتراري ليس حاجزا أصعب في التغلب عليه من جرار الاكاذيب التي كانت جوديث تتحصن خلفه . كانت امرأة عديمة الجدوى ، عاطلة وثرثرة ، تدعي المعرفة بكل شيء على نحو افضل من اي شخص آخر . وكانت تحب وتكره بانفعال وتستطيع الانتقال من انفعال الى آخر في ثوان . وحين وصلت الى الجرانج ، وقعت من فورها في حب الممرضة جولي التي كان يمكن ان تصبح أمها . وسرعان ما تحول حبها المصدوم الى حقد ساخن وغيرة . وبدا ان العلاج النفسي المطول قد خلصها من شغفها بالنساء ، فأحببت ذات مرة رجلا يكبرها . على الرغم من ان الرجل لم يبادلها حبها على الاطلاق وحاول اجتنابها ، فقد تخيلت دائما انها رأت «براهين» على مبادلتها حبها . فالرجل يحدجها بنظرات «معينة» ، ويفمز او يقول «حسنا» بنبرة صوت غريبة ... ولم تجعل من حبها سرا بل جعلت تتكلم عنه بصراحة ، وعرضت نفسها على الرجل على نحو مكشوف . وظلت تتصرف بصورة مهذبة اشهر قلائل ، واستحالت ذات عزيمة وعاملة مجدة وبدا كأنها اوقفت الكذب . ولم تبد شغفا بالنساء . وأخيرا حصلت على وظيفة وتركت الجرانج تحدها آمال كبار .

وتركت وظيفتها بعد يومين (وان لم تعد المقدم او ملابس العمل) ومضت صوب بودابست حيث استأنفت حياتها القديمة . فأفرغت دولاب والديها من الملابس وباعتها . وعملت في مهنة عرضا ثم لم تستقر . لا يعلم احد ما اذا كانت مستمرة في مغامراتها الجنسية المثلية ، وان استقرت على صداقة متصلة مع رجل ، تبين فيما بعد انه خنثي .

وأبصرها بستانينا مرة في معسكر صيفي . كانت محاطة بحشد كبير من الناس ، كانوا على وشك تسليمها للشرطة ، كانت قد قامت بسرقة . وبعد غياب دام ثمانية عشر شهرا ، عادت فجأة نظرا لانها قدمت الى المحكمة بتهمة الاحتيال . كانت تأمل في حكم مخفف اذا ذهبت الى المحاكمة من مصحة عقلية . وقضت ثلاثة اشهر ثانية في الجرانج . وأدت هذه الشهور الثلاثة الى

حب عاطفي آخر ، كان ناجحا . اعترفت جوديث بذلك حين فقدت بكارتها ، ولكن شريكها لم يكن متأكدا تماما . على اية حال ، مضت اللواطية السابقة تحدث الجميع عن مبلغ السعادة السماوية التي يوفرها جو مدمن الكحول . وسررت بهذا لانني تمنيت ان تنتهي هذه العلاقة الفرامية جنسيتها المثلية . وكنت اقل سرورا لرؤية جوديث وقد غدت اصعب مراسا على نحو متزايد . اصبحت وقحة كثيرة الطالب ، تكذب ، وتلقي الاوامر على المرضى ، وأهملت هندامها وغدت ميالة للشجار . ولحسن الحظ سرعان ما سئمت شريكها ، فسافرت السى بودابست واستأنفت احتيالها هناك . ربما تكون قد شفيت من جنسيتها المثلية ، وتبحث عن رجال يصلحون للزواج . لكنها لم تصبح اكثر حكمة او اشد امانة . (قابلتها عدة مرات بعد ذلك ، لقد شفيت من جنسيتها المثلية ، لكن بقيت السيكوباتية) .



في البدء احتفظ الفتوات بالجرائح والاماكن المجاورة في حالة من الرعب . ثم عادوا فيما بعد منفردين وقد تخلصوا مما يبعث على الرعب منهم ، حتى اصبحنا كلفين ببعضهم . لكننا لم نستطع ان نقدم الا القليل بالنسبة للخطأ الموجود في شخصيتهم على نحو ما فعلنا مع مدمني الكحول او الافاقين الهستيريين . وكان من المعتاد فيما مضى ان يوضع كل هؤلاء الناس تحت فئة «النقص الاخلاقي» . ومهما كان العرض ، فثمة يوجد نوع من النقص الاخلاقي تحت السطح ، مصحوب غالبا بضعف عقلي خفيف .

وتوجد من بين ضعاف العقول فئة تصنف باعتبارها ضعف عقلي كاذب . وهم جهلة ولكنهم ليسوا اغبياء ، يرجع افتقارهم الى التعليم لظروف خارجة عنهم . قد يضم تاريخ حياتهم اليتيم في ملجأ ، او التشرذ بلا مأوى ، مشاكل الحرب او والدين الدائبي الشجار ، لم يتلقوا تعليما مدرسيا واصبحوا مجرمين صفار خبثاء . انهم لم يصبحوا فتوات بعد ولكنهم فتوات مبتدئون . وقد امكن تحويل هؤلاء الذين لم ينضجوا بعد ويصبحوا فتوات حقيقيين الى رجال شرفاء في الجرائح ، لقد كانوا بحاجة فحسب الى مأوى ، والى من يحدثهم بلغة انسانية ، حتى يصبحوا ودعاء .

كان هؤلاء التعساء هم المفضلون لدى الممرضة إيما . لقد تسلمت من وقت ليس ببعيد رسالة من احدهم ، انه يسير في وظيفته على ما يرام ، وهو يؤدي الان الخدمة العسكرية ، ويشعر بالسعادة ويرغب في زيارتها في عيد الميلاد . وكان ستيف تليجرام هو المفضل لدى السيدة الاولى التي لم تكن تبعر حبها ، ولا يذكره والداه الا بالكلمة الطيبة .

ولم نصادف متاعب كثيرة من الفتوات الحقيقيين كذلك ، ولكن النتائج كانت

تدعو للرثاء وحين أعيد ايداعهم . بدا كل منهم كأمر ساحر . كان جو ستمب اللطف والاجتهاد مجسمين . لا اثر لنوبات الغضب التي أبقت الدكتور العجوز في حالة من الرعب ذات مرة . ما الذي غيَّره على هذا النحو ؟ لا أستطيع ان أدري . وعلى حين كان يشعر بأننا نجبه ، كان متنبها للنظام كذلك . وحين أرسلناه للعمل في احدى مزارع الدولة ، ظل يعمل على خير ما يرام بضعة شهور . ثم غدا عاملا ممتازا بأحد المناجم وسرعان ما عاود الشرب . وهو يعمل الان ثانية في احدى مزارع الدولة ، ولن يتسبب في اية مشاكل بعض الوقت .

كان هؤلاء الفتيان جميعا ضعافا قابلين للاستهواء . وبسبب ضعفهم ترددا في مسالك معوجة وكان يجب اخذهم بالحزم المتدفق ، فيكفون عن اثاره المتاعب . وظل ميكى القزم محبوب العنبر زهاء خمسة شهور . كان جنيا صغيرا مرحا ، وعاملا ممتازا ، ولاعب بنج بونج لا يبارى ، يتقافز على نحو يبعث على الفرابسة بساقيه القصيرتين مسترجعا الكرة من تحت المائدة . وسرعان ما ألقي القبض عليه ، بعد ان غادرنا ، بتهمة تزوير مستندات . وكان جوتاف هو الذي دفعه لذلك ، ولكن جو هرب في الوقت المناسب .

وكان جو تاف نمطا للحدث المنحرف . كان والداه يكرهان بعضهما حينما ولد ، وسرعان ما تم طلاقهما ووضعاه في احدى المؤسسات . وفي سن العاشرة هرب الى بودابست وتسكع في الشوارع . فالتقطه لص محترف مرسه على فن السرقة . فاللصوص المدربين يستعينون بالاطفال عادة في المراقبة او دخول الفتحات الضيقة ، ولقد اصبحت هذه هي مهنة جوتاف وتعلم حرفة النشل وكان يفخر بأنه خبير في النشل . وسرق ذات مرة ساعة يد مخبر معروف . وكان يحتفظ بأربعة نقوش موشومة على ذراعه ، يستطيع عن طريقها ان يفتح اي قفل ذو ارقام سرية . وتعلم تزوير الاختام والوثائق (رغم جهله بالكتابة) وكان يعرف كل وسائل الاختفاء ، والنشل ، وكل سور ، وقاض ومحقق ومصحة عقلية . واعتاد جو تاف الحياة على النشل ، والسرقة ودخول المنازل . وكان أسلوبه المعتاد ان يقف امام احد المقاهي التي يؤمها المصابين بالجنسية المثلية ، ويعقد تعارفا مع احدهم ، ثم يستدرجه الى الضواحي ، ويترك نفسه للعناق ثم بفترة يضرب «المنحرف» على رأسه ، ليفقد وعيه ويمكن سرقة في هدوء . وكانت هذه عملية مأمونة لان الشريك المصاب بالجنسية المثلية لا يجرؤ على الخوض في الموضوع حتى اذا استطاع .

وقبض عليه بما فيه الكفاية . واودع مدرسة اصلاحية ، وزنزانة ، وسجن ، ومعسكر اعتقال ، وحجز الشرطة ، ولكن غالبا في المصحات العقلية لانه كان يمثل دائما دور ضعيف العقل المصاب بالصرع وهو دور لم يكن سهلا بالضرورة . فقد كان عليه في المرة الاخيرة ان يقنع ثلاثة اطباء بأنه مصروع وضعيف العقل . ويتطلب ذلك حرصا فائقا على الا ينسى الاكاذيب التي سبق ذكرها . ولحسن حظه ، كانت لديه ذاكرة ممتازة . اما اعظم انجازاته فكانت حين وضع الطبيب العقلي امامه

فورتنين وستون فليارا ليعدها . فالتقط فورتنا ، وصدق فيه بتعبير يتسم بالفباء ، ثم أعاده وأعلن انه لم يسبق له رؤية شيء كهذا . وخشي ان يسخر حتى الحارس من مثل هذا الاجراء الوقح ، ولكنه استطاع ان يدخلها عليهم . وصدقه الطبيب وأعطاه شهادة بذلك . (ما كنت لاصدق حرفا اذا لم تكن ثمة وثائق رسمية تثبته) .

وكانت هذه هي الطريقة التي أودع بفضلها في ليبوتميزو للمرة الخامسة . وكان التشخيص يتراوح بين الصرع او النوبات الهستيرية او الضعف العقلي . لم يكن الامر الذي يدعو الى الدهشة أن جو تاف كان صبيا لطيفا مجتهدا، او انه لم يصب بالصرع (حتى الممرضات المبتدئات في الجرانج كن يدركن انسه يتظاهرن) بل لانه أحب العمل . لقد أحبه وتعلم كيف يحبه ، وكان يسعد بإداء اي نوع من العمل الاضافي . وكان يسر خاصة اذا استطاع ان يقود ويوجه . وان أصبح هناك ثمة محصول كاف من اغصان الصفصاف في الجرانج خلال سنوات قلائل ، فان ذلك يعود في الاساس الى جو تاف الذي قام بحفر آلاف في التربة الصلبة غير عابىء بالكالو الذي غطى راحته . فاذا اختفى مريض ، كان جو تاف لا ينشني عن تغطية القرى المحيطة ، بحثا عنه ، حتى في المساء . وأمكن ائتمانه على النقود ، والدراجة ، واي شيء . كان هناك شيء واحد لا يمكن ان يتوقع منه - المثابرة . كان يعمل بسرعة وبصورة طيبة ، اما اذا اعتراه الضجر ، فانه يتبدد في الهواء . واختفى من الجرانج مرات عدة ولكن لم يحدث ذلك قط دون انذار . وفي المرة الاخيرة عرفت منه انه كان في السجن .

طالما يعامل المرء هؤلاء الصبية بالحزم ، فانهم لا يسبون اية مشاكل ، ولكن حالما يتعدون بضعة أميال قليلة ، حتى ينفلت زمامهم . انهم فعلا بحاجة الى حياة جماعية حازمة ، على نظام ماكارنكو ، واستعراضات (انهم يحبون ذلك) ومهام جديدة طيلة الوقت - فربما حوّلهم هذا الى مواطنين نافعين . اما في حالتهم الراهنة ، فانهم يسقطون على جانب الطريق واحدا وراء الآخر . لقد تم شنق واحد من اسوأ الفتوات الذين اقاموا في الجرانج ، وميكي القزم وجوتاف في السجن ، ويتب ذو الفم المشروم القوي القبض عليه لكسره احدى الخزائن . وإدعى الجنون ثم كتب من مصحة انجيا لقله انه يرغب في العودة الى الجرانج ، ولكننا قطعنا الامل منه ولم نكن نريد كذلك ليس هيب الذي تميز باعتباره اول رجل على وجه الارض اصفعه رغم صحته الممتازة .

فلقد اخبرني الممرضون ان ليس هيب يتسلى بإجبار فرانك جوكر الضعيف العقل تماما على الركوع والصلاة على حين يصفعه ليس هيب على وجهه . وبعد فترة قصيرة قرع ليس هيب على بابي ، ودفع فرانك جوكر الى الداخل وقال : «انهم يقولون انني أضايق هذا الغلام ... والان قل له . هل لمستك بإصبع واحد؟ تكلم !»

وتمتم فرانك قائلا «لا» .

نهضت ، وأخرجت فرانك من الحجرة وصفعت ليس هيب على وجهه .
ولم أناقش ما اذا كان هذا يتفق مع مبادئى ، او مهنتي كطبيب ومربي ، او
مع «روح الجرانج» ، لم أفكر في الامر من ناحية النظرية على الاطلاق ، ولكنني
ضربته ببساطة . ليست قاسية بما فيه الكفاية ، وأنا آسف اذ أقرر هذا ، اذ
ليست لديّ خبرة في ضرب الناس .

كنت انا الذي تأثرت للامر منا نحن الاثنين . لقد تلقى ليس هيب عديدا من
الصفعات خلال حياته لدرجة انه لم تبد عليه حتى علائم الدهشة . ومن المحتمل
انه كان سيصاب بالدهش اذا لم يصفع .

ولسوء الحظ ، لم يكن لهذا العلاج اية نتائج مشجعة . اذكر انه حين ضرب
ماكارنكو احد تلاميذه الوقحين ، خلق فيه ضربا من التغيير ، جعل الغلام فجأة
يصبح معهد جوركي . لكن صفعتي لم تحدث مثل هذا الاثر . لقد هز ليس هيبس
كتفيه ، وغادر الحجرة ، وظل وقحا على حاله .

وفيما بعد صفعت شخصا آخر . ولم تكن نتيجة ثورة غضب بل كانت صفقة
أبوية لأوقف ايرما سلندر المتعددة الخطاب عن الصراخ الهستيري وانتجت اثرا .
لقد كفت ايرما عن الصراخ ودخلت فيما بعد الى حجرتي لتسألني :
«قل لي يا ابي ، لماذا ضربتني؟»

وقلت لها السبب ، ففهمت ، وأصبح كل شيء على ما يرام .
ومع ذلك ، فاني أفضل الا اتبنى الصفع كأسلوب .
لقد حققنا نتائج أفضل بالتأكيد مع الفتوات عن طريق المعاملة الطيبة عما اذا
كنا وقحين وهذا هو الامر الطبيعي . لقد تعودوا على الوقاحة ، اما المعاملة
الانسانية فانها تدهشهم وتجردهم من سلاحهم .

الفصل السادس

وجهة نظر الجرانج في الجنون

لنتحدث قليلا عن البلبلة او ما يبدو كالبلبلة التي يراها بعض الملاحظين العابرين في موضوع الطب العقلي . فثمة انطباع ان علاج العقول قطاع شديد التخلف من قطاعات علم الطب . فبينما تسير أفرع الطب الاخرى على علاج تشخيصي واثيولوجي منهجي منذ زمن طويل ، لم يتفق الطب العقلي بعد على مشكلة التصنيف . ولا يتفق مشاهير اطباء العقول على تعريف المفهومات الاساسية . وثمة مدارس فكرية متعارضة لا يرغب كبار المشايخين لها في سماع شيء من وجهات نظر بعضهم بعضا . وربما يبدو الموقف في الطب العقلي مشوشا بالنسبة للملاحظ الخارجي ، وربما لا يدري كيف يحكم على المدارس المتعارضة التي تناقض او على احسن الاحوال تتجاهل بعضها بعضا .

واقع الامر ان هذه ليست بلبلة بقدر ما هي علامة صحة ، وربما صحة جيدة متكاملة . الا ان ما يجعلها تبعث على شيء من الازعاج هو الافتقار الى اساس عام .

ومن الصعب ايجاد مثل هذا الاساس العام . فبينما ترسي مجموعة من الباحثين ابحاثها على معطيات هستولوجية فحسب ، وتراقب اخرى التغيرات الوظيفية ، وترى ثالثة في الجينات حلا لكل المشاكل ولا تضع رابعة في الاعتبار سوى العوامل البيئية ، وتركز خامسة على الآثار البيئية في الطفولة فحسب ،

وتخضع سادسة كل شيء للأسباب الاجتماعية ، وتعزي سابعة الأمراض العقلية الى الجروح النفسية ، وثامنة الى الجنس ، وتاسعة لاساليب التعلم الخاطئة ، وعاشرة الى الاجهاد او الفرائز او الهرمونات ... وفي وسع المرء بعد ان يطيل هذه القائمة .

ولكن هل يمكن تصور وجهة نظر موحدة على الاطلاق ، يستطيع المرء على اساسها تعريف مختلف الأمراض العقلية بدقة ، ويصلهم في نسق - يسهل لنا تصنيفها أن نميز السيكوباتية عن الذهان او الجنون والعصاب عن كليهما - دون ان نستبعد اثر اي من العوامل المذكورة دون ان يصبح الامر مجرد تكثيف تلفيقي؟ اعتقد ان هذا ممكن . فهناك جانب واحد يبدو انه يقدم اساسا للحكم القاطع على مختلف الأمراض ، ولا يتناقض مع اي من العوامل المذكورة هذا الجانب هو **علاقة الرضى بالمجتمع** .

ولا أعني «بالمجتمع» مجرد المعنى الاجتماعي للكلمة بل المجتمع في سياق العلم الطبيعي . وهو بهذا يضم النظام الاجتماعي الذي وضعه الانسان بالإضافة الى نظام الطبيعة ، اي الوجود ككل بقوانينه الطبيعية والاجتماعية . ولعله يكون من الاصوب الحديث عن علاقة «المرضى» بالعالم بدلا من علاقة «المرضى» بالمجتمع - ونعني بالعالم ، العالم المنظم لا مجرد «عالم» هلامي .

وكما ان الكلمات « أخلاقي » و « غير أخلاقي » و « مذهب » و « موهوب » و « جميل » لا يمكن فهم معناها الا في علاقتها بالمجتمع ، يصدق الشيء نفسه كذلك على كلمة «مرضى» . فاذا كان لدى جميع الناس ثلاثة ملايين خلية دم ، لما اعتبر الامر أنيميا ، واذا كان لدى جميع الناس مائتي مليجرام من السكر فسي الديسيلتر الواحد من الدم ، لما اعتبر الامر مرضا بالسكر . واذا استطاع كل انسان ان يرى اشياء ليس لها وجود ، فلن يكون هناك ثمة هلاوس . واذا اقتنع كل شخص ان الشيطان يعربد داخله ، او ان جميع المخلوقات الانسانية تضطهده، فسوف يعتبر ذلك بمثابة خطأ وليس هذيانا مرضيا . لقد ظل بلايين الاشخاص يعتقدون عدة آلاف من السنين ان الارض مركز الكون ، وان الشمس تدور حول الارض - خطأ وليس هذيانا . وثمة العديد من المعتقدات الدينية والخرافية التي تناظر أشد الهذات خلطا . وربما يأتي يوم يعتبر فيه الشخص الذي يعتقد في الحياة الاخرى ، وفي الجنة والجحيم ، وفي الملائكة والشيطان بمثابة شخص غير سوي . ومع هذا فلا زال ملايين البشر في يومنا هذا يؤمنون بذلك ولا يعتبرون مجانين وانما متدينين . بل حتى من يؤمن بالارواح والاشباح في يومنا هذا لا يزال يعتبر سويا على نحو او آخر برغم سخف معتقده .

لا يمكن فهم ما يجعل الشخص المجنون مجنونا اذن الا في علاقته بالمجتمع . فهناك ثمة تنظيم اجتماعي حقيقي على نحو يزيد او ينقص تتقبله أغلبية الناس العقلاء كحقيقة واقعة . وربما يرى الشخص المستنير الحق في عدد من وجهات النظر الخاطئة ، وربما يكون أشد ذكاء عن سائر الناس ، ولكنه لا يصبح اكثر

سواء . ان جوهر الذهان ان **الشخص** المجنون يتخطى المجتمع الحقيقي ، ويخلق مجتمعا وهميا وكذلك طبيعة وهمية لنفسه ، ذات قوانين ذاتية ، وإحساسات غريبة ، ومنطلق مفلوت . انه لا يعير قوانين الطبيعة والمجتمع التفاتا ، كما لو كانت غير ذات شأن عنده . ويتجاهل اساليب التفكير السوية المتعارف عليها وكذا قوانين المنطق التي تسودنا . انه يخلف الحقيقة وراءه الى عالم من خلقه الخاص ، يعيش فيه وحيدا في نفس الوقت الذي لا يستطيع ان يفهم لماذا لا يفهمهم الآخرون عالمه .

وعلى نحو اساسي ، وان لم يكن بشكل واع ، يعتبر المجنون جميع الناس مجانين حين يفشلون في رؤية ما يبدو امامه في منتهى الوضوح . كتب توماس مان في «دكتور فاوست» يقول : «يعلم الجميع ان المجنون لا يخشى تخيالاته وانما يستمتع بها ..» وهذا يعني ان **المجنون يشعر بالالفة في عالم جنونه** ، على الرغم من انه يعاني منه . هذا هو المجنون اذن . انه النعمة الطبيعية التي يتحدث بها جوزيف (الحارس) عن حيلته السابقة ، او سلف كوند فنج فرانك عن مونه الاول او هيلين (المؤمنة) عما قاله لها يسوع المسيح حين كانت تقوم بالتنظيف او اولجا جوسيب عن الاطفال المرضى بالتيفوس في قريتها ، والطريقة التي «تبينت» بها ماري كاموميل في عظام الكلاب طفل زوج اختها المقتول او تاكد امري زيتير من ان زوجته قد خانت مع ابنه ، او اعتقاد جوزيف بربريتور بأن المستشفى تؤول اليه ، بالبنادق الستة والثلاثين ، او على النحو الذي امسك به كوترا العجوز بالطبيب في يمانه وزوجته في سراه ، وكما كان فرانسيس جامون يعاني من ان الدم المتعفن في فخذة ، وتقفز جنيات آندرو سافوكيتور حوله في حذائه ، وكما اخترع الماحور سفينة طائرة للسلام العالمي ، وشعر تاني العجوز بأنه تحت تأثير الاشعاع ، ولم يصدق ايرنست دوبل ان زوجته قد طلقته ، وآمن بيتر العاشر انه ستالين ، ووهب ابوجين ميكانيك جسده للسفارة السويسرية ، واليقين الذي علم عنه جوليوس رددنوي ان الجنود الامريكيين يعسكرون في الجوان ، وأدرك جس ليبينكاى ان الصحون عندنا أصغر عنها في اي مكان آخر ، بينما تاكد اليكس الاسكافي ان دمه قد تم استبداله ، وتأكدت القديسة آجنيس انها اختيرت من قبل الرب ، وصلى المدرس لها جاثيا على ركبتيه ... كل هذا جنون ، عندما يتخطى المريض المجتمع الحقيقي ويخلق لنفسه عالما ، وقوانين ومنطقا وهميا . ويبنى عالمة الوهمي من قصاصات وتنف الحقيقة . من الجلي انه لا يفهمنا - ومن الطبيعى كذلك الا نفهمه .

ويتضح هذا الوجود فيما وراء القانون بجلاء في الفصام - خيرة انواع الجنون . وثمة في مهنتنا مصطلح نادر الاستخدام يعبر عن هذه الحالة بوضوح هو **التفريب Dereism** . وتعني هذه الكلمة الفرية الاغتراب عن ال Res .. اي الشيء . فالفصامي يصبح خارج «أمورنا» . ونادرا ما يلاحظ التفريب في المرحلة الاولى ، مرحلة الانهباط المرضي ، فهو ليس جنونا بعد ، ولكننا مجرد

تمهيد له . ولكن يصبح الانفصال ، والتعارض ملحوظا بوضوح في مرحلة الهجاس ، وكلما زاد التفكير الاجتراري تميزا ، كلما تشكلت النظرة المستقلة للطبيعة ، بمنطقها الغريب وفلسفتها . ويستتبع الخواء الانفعالي «الجنون» ذو «النسق» الذي يتزايد فهمه صعوبة . ويعتبر الجمود الكتاتوني بمثابة معارضة ساخرة عنيدة للمجتمع ، ربما تزيد الى درجة السبات والبكم ، ورفض الطعام . واخيرا ، حين تصل مرحلة البلادة الهادئة ، العته ، يبدأ المريض عندئذ فحسب في عقد السلام مع المجتمع ببطء ، وبالقدر الذي يسمح عقله القبي .

ويتقبل الفصامي حقيقة كونه يعيش في عالم منفصل ، ومن هنا تنبع عدم مبالاته . وهو ، على عكس الهجاس : الذي يفقد هذا التقبل . انه يبني نسقا هذائيا وهميا ويجاهد طيلة حياته كي يجعل الناس الاسوياء «المجانين» يفهمونه . ولما كان لا ينجح في ذلك ، فانه يشعر بالمزيد من الشعور الصادم ، الامر الذي يتلاءم مع نسقه ويزيد من حدة ميله لعزو كل الامور الى شخصه . فبالنسبة اليه لا يوجد شيء في المجتمع سوى نسق هذائه . انه يتحاشى كافة الاشياء التي لا تدخل في اطاره .

اما اليأس المرير لدى المريض بالسواد فأمره يختلف . انه يصبح ايضا مغتربا عن العالم الواقعي . فلا يستطيع تقبل ذلك ، ولكنه لا يصارع كذلك من اجل عالمه الخاص . ولذلك يظل يشكو ، مكررا اتهاماته المرضية للمجتمع ، الذي لا يستطيع العودة اليه ، ولنفسه ، التي لا يستطيع ان يغفر لها انها أوصلته الى هذه العزلة .



اما **السيكوباتية** فأمرها مختلف .

ان الشخص المجنون لا يعرف او لا يتعرف على العالم الواقعي . أما السيكوباتي فانه يعرفه ويتعرف عليه وان كان يعجز عن التلاؤم معه . ان **السيكوباتية بمثابة ثورة على الواقع او هروب منه** . ويجب ان ندرك ان الشخص المجنون لا يعرف ما هو الواقع ، على حين يعرفه السيكوباتي لكنه ينبذه . نظرا لانه اما راغب في شيء آخر ، او محب للواقع لكنه لا يستطيع مجاراته .

وهذه حالة اشد ايلاما ، من جوانب عدة ، عن الجنون . واذا كنا نتفق مع توماس مان على ان المجنون يستمتع ، الا انه لا يسعنا ان نقول الشيء نفسه عن السيكوباتي . ان الاسم في حد ذاته يدل على انه يعاني من العذاب العقلي . وهناك مجموعة من السيكوباتيين لا يمكن ادراجهم في تصنيف المرضى والاصدق ، ان هناك ثمة مجموعات ثلاث على هذا النحو . ينضوي تحت الاولى اولئك الذين يتقبلون العالم كما هو لكنهم عاجزون عن المشاركة الكلية في الصراع

من أجل الحياة او عن ملاحظة قوانينه ملاحظة حققة . فهم عاجزون عن الصمود لمطالب المجتمع . وهؤلاء هم الهروبون ، الذين ينتحون جانبا ، وتشرح حياتهم جزاين - ونعني بهم السيكاثينيين الضعاف . أما اعضاء المجموعة الثانية فهم اقوى قليلا ، انهم يدركون انهم غير معدين لنمسط الحياة المألوف ، ولكنهم يدركون كذلك انه ليس في مقدورهم الحياة وفقا لقوانينهم الخاصة كلية . ولذلك يتخذون حلا وسطا : يصبحون غريبي الاطوار وفرديين ، يتحاشون الناس ويتسمون بالعناد ، ولكنهم يعرفون الحدود التي لا ينبغي لهم تخطيها . اما الثالثة فمجموعة نشطة كذلك ، اذ تضم اولئك الذين يرفضون الاستسلام للعالم كما هو بل يحاولون تشكيله عنوة وعن طريق القوة وفقا لمطالبهم الخاصة او تصورهم الخاص . او اولئك الذين يريدون ببساطة أن يتحكموا فيه . وهؤلاء هم **الطفة** ، والظلمة ، والفتوات ، والذين يعينون من انفسهم مصلحين ، والمعاندين المهورين ، ودائيي الشجار ، ومحترفي التقاضي ، والمخربون . وجوهر هذه الانماط الثلاثة هو انهم لا يستطيعون - ولا يريدون على نحو جزئي - ان يتوافقوا مع الواقع .

ومن هنا تبدأ اولى الخطوات الى عالم المرضى الحقيقيين . فحين يستحيل سوء التوافق الى قصور عقلي ، لا تصبح السيكوباتية مجرد مشكلة اجتماعية بل تتحول الى مشكلة باثولوجية ، الى مرض يجب ان يعالج . وهناك سيكوباتيون يظلون يعانون من القصور الدائي طيلة حياتهم (مثل نك المهندس او أنتوني التقي) وان كان اغلبهم يعيشون حياتهم على الحافة الرفيعة لعدم القدرة ، يرقدون في أسرة المستشفيات فترات طويلة ، ثم يشروعون في التعثر ، وهم لا زالوا على نحو هش ، في العالم الخارجي (معظم رواد مصحات «الامراض العصبية» من هذا النوع) .

ولكي يستطيعوا شق طريقهم على نحو اكثر سهولة في خضم السيكوباتية ، ابتكر أطباء العقول كلمة «شبه» التي تعني ان المريض لا يعاني من المرض بل من شيء شبيه به . فالسيكوباتية شبه الهجاسية مثلا ليست هجاسا ولكنها شيء شبيه به ، ينبنى على ثنائية قوامها التقييم المبالغ فيه للذات والشك . والسيكوباتية شبه الفصامية غير الفصام وان شابه المريض نظيره الفصامي . ويختلف السيكوباتيون عن الفصامين في علاقتهم بالمجتمع . فالهجاسيين والفصامين قد أسقطوا من المجتمع ، لكن السيكوباتيين شبه الهجاسيين وشبهه الفصامين يتعلقون خارجه فحسب .

وهناك ثلاثة أمراض لا يزال تصنيفها في الطب العقلي محاطا بلبلة عظمى . تلك هي **الهستيريا والنورستانيا والصرع** . فأحيانا ندخلهم تحت عنوان الامراض العقلية ، وأحيانا تحت الامراض العصبية . وتقول احدى النظريات ان الهستيريا جزء من العصاب ، وتزعم أخرى ان العصاب عرض هستيري . ولا يعتبر البعض ان الهستيريا مرض على الاطلاق وانما هي مجرد «نمط من الاستجابة» او «استجابة

بدائية» ، ومرحلة ادنى من التطور . ويمكن وضع الهستيريا والنورستانيا تحت العنوان العام للأمراض «الوظيفية» نظرا لعدم ارتباطهما بأي تغير عضوي يطرأ على الدماغ ، ولكن ماذا عن الصرع الذي يتشابه مع الهستيريا من عدة جوانب ، ولكنه يتضمن تغيرا عضويا في الجهاز العصبي ؟ وتنشأ الصعوبة من ان الصرع يكون احيانا فطريا و احيانا مكتسبا . بل انه حتى النورستانيا ، برغم طبيعتها «البنيائية» تتخلل احيانا عن حذرهما كي تظهر دون توقع لدى البالغين ، كأنما هي نتيجة اجهاد عقلي عصبي (توتر عصبي) .

وفي اعتقادي انه اذا صورنا هذه الامراض في علاقاتها بالمجتمع لوجدنا انها تنتمي بلا شك الى السيكوباتية . اذ ان محكات السيكوباتية تصدق عليها جميعا فهي تمرد على الواقع ، في صورة ايجابية او سلبية او الهستيريا ثورة ايجابية ، والنورستانيا هروب سلبي ، ويتضمن الصرع كلا من التمرد الايجابي والطفيلية السلبية .

وربما كان من الأوجب ان تطلق على هذه الحالة اسم الخصومة بدلا من الثورة . فالمرضى بالهستيريا كثير المطالب قليل الطاعة ، ناقص النضج ومعرض عن تقبل الحقائق ، كالطفل الصغير الذي يخبط برجليه دون رادع . وهو احتجاج مجنون وعنيد ، نوبة غضب ، «عاصفة من الحركة» المستمدة ، وطوفان . من الهبات الانفعالية المنطلقة . وتتم استجابات المرضى الهستيريين الذين لا تثيرهم التوافه على نحو من الاعلاء ، انها تتضمن كل ما هو غريب في الهستيريا ، ولكن بصورة مختلفة . فيغمي على المريض او يصاب بالشلل او «بنوبة قلبية» او يخلع فكه او تعثره نوبات مثل المصابين بالصرع . ويكون المرض بمثابة احتجاج وخصومة وعجز عن التوافق ، والتعاون او رفض للصعاب ، وطوفان من الانفعالات التي تتغلب وتخلق الذكاء - مؤقتا على الاقل . ويكون الاطار البيولوجي لهذه العملية على النحو التالي . تتغلب المراكز العصبية البدائية تحت اللحائية مؤقتا على وظائف اللحاء الناضجة الراشدة ، العاقلة ، المنطقية . وليس امام الوظائف الانفعالية البيولوجية الاشد قدما (الحيوانية او القبل انسانية تماما) ، ذات الرغبة المنطلقة ، والارادة غير المنطقية سوى سلاحين في مواجهة صعوبات الحياة الانسانية : التمرد والهروب . ويكون هذا الميكانيزم تحت اللحائي معاديا للمجتمع ، فهو متمرد ، عنيف ، يرفض النظام ، وهذا ما يجعل الحالة الهستيرية ثور او يعثرها الاكتئاب . وهذا يفسر لماذا يكون المرضى بالهستيريا جد مختلفين حين لا تعثرهم النوبة . كانت الزبي (الصياحة) تكتب الشعر وتقرأ «فاوست» - ثم تسب العالم في لفة بالغة البذاءة وتتمرغ على الارض كخنزير . وغمرتنا جودي ديوك جميعا بحبها ، واشتغلت بجد ، دون اي مقابل . ثم هربت من المستشفى ووهبت نفسها لاول شخص التقت به مقابل كأس من النبيذ . وكانت الفيرا (عرس المساء) الخجل والحياء متجسدين - ولكنها كانت تطالب اثناء النوبة بليلة زفاف وتحاكي حركات الجماع وهي غائبة عن الوعي . وكانت بيرل كبيرة العينين

ودبعة ومتواضعة كراهبة ، ولكنها كانت تتصلك كعجوبة أثناء النوبة . وكانت
ايرنا الصارخة متعلمة وطموحة ، وكانت مدرسة متحمسة لاهل قريتها البسطاء ،
ولكن حين تعثر بها النوبة ، تصرخ ، وتضرب الارض بقدميها ، وتلقي بنفسها على
الارض ، وتحطم الاواني وتشاجر مع زوجها .

ومن الطريف ان نلاحظ كيف يتم تفسير هذه الثنائية من الوجهة الفسيولوجية
والبيولوجية والسيكولوجية . فيتمسك علماء الفسيولوجيا بأن الاجزاء تحت
الحائية الاكثر بدائية تهزم ميكانزمات اللحاء الاكثر تطورا . ويرى علماء البيولوجيا
ان الفرائز تتغلب على العقل . ويقول علماء النفس ان اللاشعور يسيطر على
الشعور . وتشير العبارات الثلاثة الى نفس الظاهرة - فهناك وراء العقول
والشعوري ، واللحائي ، يوجد ثمة دافع قديم حيواني ، غير معقول تتسبب
الهستيريا عن اندلاعه .

وربما يعتبر الشكل الآخر من الهستيريا بمثابة هروب ، اذا قارناه بالخصومة
الاجابية للمجموعة المتمردة . هذا هو السقوط فسي هاوية الاكتئاب الغائم ،
و«الهروب الى المرض» ، الذي يسبب امراضا فيزيقية شتى ، من الطفح الجلدي
حتى الشلل . ودائما ما اعترتنا الدهشة للطريقة الملائمة التي تسنى بها لدنيس
القافز في البئر او الزي الصياحة ان يتناسيا ببساطة كل ما لا يحسن تذكره .
ولكن اظهرت هذه الحالات بجلاء مبلغ ما تتضمنه هذه السلبية الواضحة من
عدوانية . فعلى سبيل المثال ظل دنيس القافز في البئر في حالة من الذهول حتى
زال خطر التجنيد ، وابقت جولي المرضعة على طفحها الجلدي ، ومسز لويبرلام
على عجزها عن النهوض والسير ، ومسز ايوجين كوي على التهاب ماثاتها ،
وتعاطوا علاجات متخصصة لعدة شهور او ربما عدة سنوات ، وبفضل مرضهم
فحسب خفف المجتمع المشفق عليهم من مطالبه وقدم لهم شتى التنازلات .

ولست استطيع مسايرة الرأي العام - الرأي الطبي بخاصة - الذي يعتقد
ان الاستجابات الهستيرية تستهدف تحقيق غرض معين . ولا يجب ترجمة هذا
الهدف باعتباره هدفا مباشرا بالمعنى الدقيق للكلمة . لقد كان الهدف في حالة
دنيس القافز في البئر واضحا وقريبا نسبيا ، ومع هذا ظل سبب اضطرابه
للهرب من الخطوبة بالقفز في البئر غامضا . لكن الاعراض الخطيرة لدى ايرنا
الصارخة او دون ديسيت افترقت تماما الى اي هدف واضح ، ناهيك عن الفيرا
عرس المساء التي استسلمت لصراع كاذب مستمر وعاشت بمعزل عن العمل او
الحياة المرحة . لماذا ؟ لتحصل على زوج ثم تنبذه ؟ لقد كان في مقدورها ان
تتحصل عليه وان تتخلص منه كذلك بأقل التكلفة . وأبلى مسز ايوجين كوي
نفسها بالتهاب المثانة الذي استمرت تعانيه لمدة عشرة اعوام بالاضافة الى عديد
من الشكايات الاخرى لان زوجها كان اكثر اهتماما بعمله عن اهتمامه بها . ليست
الجريمة والعقاب غير متناسبين هنا قليلا ؟ ولقد كان من الممكن احيانا اكتشاف
الغرض المباشر وراء التصرفات المرعبة لارنا الصارخة ، وان لم يفسر ذلك

شخصيتها السيكوباتية الكلية .

بل على النقيض . لقد كانت الشخصية السيكوباتية هي التي فسرت الغرض على نحو او آخر . وتعتبر السيكوباتية الهستيرية بمثابة ضعف في الجهاز العصبي ، تتحرر فيه اشد اجزاء العقل بدائية من آسار «الكف اللحائي» ، وتفدو عاجزة عن الاستجابات المتساوية مع الاهداف والاسباب ، بل تعذب ضحيتها بإستجابات متطرفة كالتمرد او الخصومة او الهروبية المشوشة .

ويكون الموقف متشابها في حالة الطموح والاستعراضية . ففي بعض حالات الهستيريا تتضح بجلاء الحاجة الى المشاركة ، او الاستعراض بأي ثمن . ولقد ملت فترة الى تفسير الهستيريا باعتبارها زيادة في غريزة الاستعراض . الا ان هذا التفسير يبدو شديد الآلية وشديد التبسيط حقيقة يصبح من الاهمية بمكان للمريض في أغلب حالات الهستيريا ان يكون مركزا للانتباه ، ومحطا للانظار ، وان يبدو اكثر او مختلفا عن حقيقته (وهذا هو المصدر - جزئيا على الاقل - لقدرتهم الخيالية على ابتكار الاكاذيب) ولكن لا يوجد بين المرضى الذين وصفت حالاتهم هنا، ابتداء من مارجریت البكماء حتى ايرنا الصارخة ، من يمكن تفسير شخصيته بهذا العامل الوحيد . واذا قبلنا هذا التفسير المبسط لكان حكمنا متأثرا بالبريق المزيف لنساء «المجتمع» الهستيريات .

ولا يعني هذا خلو الهستيريا من التمثيل . فهو متوفر في معظم الحالات . ولكنه يعتبر بمثابة سمة مميزة لا تفسيرا للمرض .

ويجب ان نذكر شيئا عن العرض «شبه العضوي» ، عن هذين النقيضين المعروفين في العلوم الطبية باسم **العضوي والوظيفي** . ويطلق على الاعراض الوظيفية اسم الاعراض النفسية المنشأ كذلك ، وهذا يعني انها أعراض لا تصاحبها تغيرات عضوية وان اسبابها نفسية . وهكذا تعتبر الهستيريا اضطرابا «وظيفيا» او «نفسيا المنشأ» ، حتى اذا صاحبها أعراض «شبه عضوية» - كالشلل او العمى ، او الربو او الطفح الهستيري - فهذه لا تعتبر أمراضا عضوية حقيقية ولكنها تصنف في فئة «الامراض المتخيلة» .

بيد ان التعريف ليس صحيحا تماما . فلا يمكن اقامة مثل هذا التمييز القاطع بين العضوي والوظيفي بالنسبة لاعراض الجهاز العصبي . فقد تكون الاعراض العضوية الخطيرة ذات اصل نفسي المنشأ ومع هذا تتطلب تدخلا جراحيا . بل قد تكون مهلكة . ويكفي ان نذكر أمراض القلب النفسية المنشأ ، واضطرابات الدورة الدموية ، والتوتر الزائد ، وانفجار الشرايين ، وقرحة المعدة والإثني عشر ، « والاضطرابات المعديّة العصبية » ، والنزيف المعدي ، وأمراض القولون . والالتهابات الجلدية المختلفة او «الربو العصبي» ، وبعض اضطرابات الحيض . ومن الخطأ القاتل محاولة الفصل بين الجوانب النفسية المنشأ والجوانب العضوية لهذه الامراض . فالمرض النفسي المنشأ يكون عضويا في نفس الوقت ، تصاحبه تغيرات تشريحية محددة . ومن ناحية أخرى يمكن احداث أثر فعال بالنسبة

للأعراض العضوية غير النفسية المنشأ ، كالتنكرات التشريحية الخطرة ، عن طريق علم النفس . ان الشفاء بما يشبه المعجزة لقروح المعدة الخطرة ، وأمراض القلب ، والحموضة والتزيف المعدي الزمن في ظروف سيكلوجية مفارقة - أثناء الحرب أو خلال الخدمة العسكرية مثلا من الأمور المعروفة تماما . ومن الأمور المعروفة كذلك ظهور اضطرابات الحيض المتزايدة أو حالات زيادة افراز الثيرويد أثناء الحرب أو في السجن . ان النوبات القلبية أو انفجار الشرايين الذي تسببه الصدمات العقلية من الأمور الشائعة في الأدب ، كما تؤدي أسباب مشابهة الى الصرع «الحقيقي» كحالة (دستوفسكي !) . ولقد شاهدنا حالات «ربو عصبي» ذات أسباب سيكلوجية ظلت لعدة سنوات تسفر عن أقسى أعراض «الربو الرئوي» الموضوعية والعملية . وفي وسع الذين لا يؤمنون بالمعجزات أن يفسروا معجزات الشفاء التي تتم على يد الأولياء والقديسين على نحو لا يخرج عن كونها نتيجة تأثير النفس على الكائن .

ولا يعتبر تقسيم فئات الجنون الى عضوية وغير عضوية أكثر حظا من سابقه . فالفصام ، مثلا ، يعتبر من الأمراض العضوية لانه يؤدي في مرحلة من مراحله المتقدمة الى اصابات في خلايا الدماغ . وان لم يمكن حتى الآن تقصي مثل هذه الآثار في حالة الهستيريا . لكن من يستطيع أن يخبرنا بمن جاء أولا ، الدجاجة أم البيضة ؟ هل تؤدي الإصابة في خلية الدماغ الى حدوث الأعراض العقلية ، أم هل تدمر الأعراض العقلية الخلايا ؟ ومن العلوم للجميع أن اصابات الخلايا تحدث تغيرا في الوظيفة ، ولكن ألا يؤدي التغير في الوظيفة كذلك الى استجابة في الخلية ؟ الذي لا شك فيه ، أن الفصام يعتبر مرضا وظيفيا في مراحله الأولى ، تضطرب فيه فحسب وظيفة الخلايا لا تكوينها المورفولوجي ، وهو أمر يؤكد الشفاء الكامل الذي لا يصبح ممكنا فيما لو سبق تدمير خلايا الدماغ . لقد شفي فيكتور وايتز تماما ، على سبيل المثال ، بعد فترة أسابيع ثلاثة ظل خلالها يهلوس ، ويصارع هذائه ، ويسر الى نفسه بأمور غامضة ويكتب خطابات مضطربة لراكوزي بينما كان الطبيب يسجل تداعياته الطليقة المختلطة بالاختزال ، كشاهد نمطي على اضطرابه . هل من المتصور أن يتمكن الجهاز العصبي الذي يجدد خلاياه المدمرة بمنتهى البطء أن يجددها خلال ثلاثة أسابيع ؟ هذا أمر بعيد الاحتمال . ولكن لو ان فيكتور وايتز قد انزلق للفصام مرات قليلة أخرى لظهرت الاصابات في الخلايا ولغدا الشفاء الكامل مستحيلا .

هل يجب اعتبار الهذات والهلوس بمثابة أعراض عضوية أم وظيفية ؟ اعتقد انها لا عضوية ، كما هو الحال بالنسبة للشلل او النوبات ، ووظيفية في نفس الوقت نظرا لان وظائف الكائن أساسا هي التي تصاب بالمرض . والكائن وحده دينامية من جسد وعقل لا يمكن تجزئته الى عضوي ووظيفي . فلا يوجد جسم حي بدون عقل ، وبدون الجسد لا يوجد العقل . فهذان الاثنان ليسا سوى واحد .



ومن الجلي تماما أن **النورستانيا** كذلك تنتمي الى عائلة السيكوباتية لا الى العصاب . فجوهر النورستانيا هو الهرب من الواقع . ولا تتضح العلاقة الوثيقة بين المرض والظروف الاجتماعية على نحو بين مما توجد هنا ، فالنورستانيا عبارة عن ضعف في الجهاز العصبي في صدامه مع مطالب المجتمع المتعددة الجوانب . والمريض بالنورستانيا لا يثور ، أو يعارض ، أو يشق طريقه الخاص ، وليست لديه الرغبة في الظهور على نحو متزايد أو مختلف . انه ينهار ببساطة ويعرض عن الصراع ، كمدرسة الكمان التي كانت تحب القساوسة .

ويسفر الجهاز العصبي عن استجابتين غريبتين يكونان الخلفية الفسيولوجية للنورستانيا . التوتر المتزايد والانهاك المتزايد . وتتميز (مجموعة أعراض القلق) بالاستجابات المتزايدة ، وشدة حساسية الحواس والجلد ، والاحساس بالاحباط ، وزيادة وظيفة الجهاز العصبي السمبثوي ، والاستجابات الانفعالية العنيفة والمندفعة ، والعدوانية المتراكمة ، والقابلية الشديدة للايحاء وان كانت قصيرة ، والاستثارة والنوم الخفيف ، والاستيقاظ السريع وما أشبه . وتتضمن «مجموعة أعراض الانهاك» التعب ، والاحساس المستمر بالانهاك، والتعب السريع ، والكميات البطيئة وغير الكافية من العافية ، والافتقار الى المداومة ، والنعاس - المصحوب غالبا بالنوم المضطرب والاحساس الذاتي بأن الشخص لم يأخذ كفايته من النوم الذي يزيد من الشعور بالتعب والشعور بعدم الكفاية ، والطفيلية ، المزاج المكتئب، وافتقار العزيمة الى العمل ، وعدم القدرة على الاصغاء ، ونفترات الذاكرة ، وعدم القدرة على التعلم ، ومشاعر الدونية ، والخوف والقلق ، والكف العصابي ، الحساسية المتوهمة للأمراض ، وتقلب المزاج . ولما كانت القدرات العقلية لا تقل، بل على العكس ، تتزايد عادة ، في اللحظات التي يحرر المريض نفسه من قيود عجزه ، نجد المريض يضع لنفسه خططا متحمسة وطموحة ، ولكن سرعان ما تنتهي هذه اللحظات الصحية النسبية . ويصاحب المرض على الدوام شعور بعدم الكفاءة ازاء أعباء المجتمع ، تحرك في نفس المريض انفعالات مختلطة من الغضب ، والغيرة ، واليأس والحسد ، وهذا ما يؤدي ببعض مرضى النورستانيا الى أناس يوزعون اتهامات الهجاسية .



ويقسم الطب العقلي الصرع الى نمطين . فطري ومكتسب . وهو تقسيم غير صحيح أو مفيد ، بل هو بالاحرى مضلل ومشوش . ولا جدوى كذلك من الجدل حول الى أي مدى يكون الصرع عضويا وإلى أي مدى يكون وظيفيا . ولعله من المفيد ، من ناحية أخرى ، أن نقرر في النهاية أن الصرع ليس ذهانا وليس «مرضا عصبيا» بل هو ضرب من السيكوباتية وان نوضح أن السمة الجوهرية في الصرع ليست الاصابة بالنوبة بل بناء الشخصية .

ولهذا كان بيتر مارتير - الذي يجسد السيكوباتية الصرعية - متقلبا ، وعدوانيا ومتدينا على نحو منافق ، وفي نفس الوقت صعب الارضاء ، وطفيلي كثير الشكوى . ولا بد ان ينضوي تحت هذه المجموعة حتى لو لم تعتوره النوبات، شأنه شأن أنتوني المتظاهر بالتقوى او بيلا لوكيمست الطفيلي الواضح . وتعتبر النوبة في حد ذاتها بمثابة خفض لعبة التوتر العصبي . ويثور سؤال لماذا تكون عتبة التوتر العصبي لدى السيكوباتيين الطفيليين ذوي الانفعالات المرائية فحسب أقل دائما من المعدل . والاجابة على هذا السؤال ليست معروفة ، ولكننا الفنا هذا الصراع الغريب بين قابيل وهابيل ، بين الحب والكراهية الذي يؤدي الى السخط والتمرد في العلاقات الاجتماعية (والعدوان والجريمة) من ناحية والى الهرب (الطفيلية والشكاوي المتوهمة من المرض) من ناحية اخرى .

قال كاتبولس :

انني احب واكره . ربما تعجب لماذا ؟ انا لا اعرف ، فأنا اشعر هكذا ، وأنا اتعذب لحزني على ما افعله .

هذه هي السيكوباتية الصرعية . وتكون مشوبة بعدد من السمات الهستيرية، والنورستانية والهجاسية نظرا لانها تنتمي الى العائلة السيكوباتية الكبيرة . والعصاب امر جد مختلف . فهو ليس ذهانا ولا سيكوباتية ، بالرغم من انه يكون مظهرا لكليهما . وقد يطلق عليه اسم «الاضطراب العصبي» اذا لم يسبب الخلط بينه وبين الامراض العصبية العضوية لبسا كبيرا .

ويعتبر العصاب بمثابة حلية دفاعية خاطئة ازاء مخاوف غير مفقولة .

وحين نضع الزاوية الاجتماعية في الاعتبار نجد انه بينما لا يدرك الشخص المجنون حقيقة العالم ، ويدركها السيكوباتي ولكنه لا يستطيع التعامل معها ويخاف بالتالي من الحياة ، نجد ان العصابي يدرك الواقع ولا يخشاه - ولكنه يخشى اشياء غير واقعية .

والخوف في حد ذاته ليس عصابا . ولكن حين يصطنع المريض وسيلة دفاعية غير واقعية ازاء خوف وهمي ، ويته تثبت ذلك لديه ، فيصبح كالاسطوانة المشروخة التي تكرر نفس المقطع من اللحن مرات ومرات ، على نقيض رغبته ، فهذا هو العصاب .

وتعتبر أشكال الخوف العصابي المعروفة هي **الحصر والمخاوف** . وتتضمن الاخيرة **توهم المرض** ، اي الخوف من المرض والميل الى تخيل المرض . والحصر بعامة خوف يفتقد موضوعا ، حالة من القلق لا يحاول المريض اثناءها مجرد أن يجد بعض الدوافع لخوفه . ومن ناحية أخرى ، يبتكر ويعتقد المريض بالمخافة او توهم المرض في كافة النزاع الخرقاء التي تثير مخاوفه ولكنه لا يفسرها على الاطلاق .

وهناك اساليب دفاعية متعددة ازاء الخوف ، «كالتعويض الزائد» عن عقدة الدونية مثلا ، وكالاجتناب ، حين يرفض المريض التعرف على امور معينة . ولكن يعتبر **المسلك القهري** افضل دفاع عصابي . ونستطيع أن نلمس ذلك في حالات اروبين (أكرة الباب) أو روزي بيرند ، كما استطعنا ملاحظته الى ما لا نهاية لدى أمير الحزن ، انه ذلك الشعور الملح بضرورة ان تكرر على نحو لا نهائي ، فعلا يبدو سخفه الكامل واضحا حتى للمريض نفسه . وتعتبر الطقوس التي يتم مزاولتها بعناية فائقة بمثابة محاولة لحل وسط مع المخاوف الوهمية وان كانت محكومة بالفشل منذ البداية .

كم يبلغ عظم الدور الذي تلعبه الخبرات المربعة في الطفولة في ظهور العصاب ، وما هو الدور الذي تلعبه الهرمونات ، والغرائز ، والمجتمع والوضع الاقتصادي للفرد ، والشعور واللاشعور ، هذا ما يزال ينتظر أن يتضح . ويبدو أن ثمة ضعف مرضي يصيب جانبا معينا من الجهاز العصبي ، هو الذي يؤدي الى الغلبة المنكرة لعمليات الكف . وهذا يوضح أن تطبيق التعارض بين ما هو عضوي وما هو وظيفي لا يجد مبرره كذلك في موضوع العصاب . لا يمكن الحديث عن «العضوي» مقابل «العقلي» بل ان التفرقة الباتة التي يتم اصطناعها بين البيئة وبين وحدة الجسد - الروح لا تجد ما يبررها .

ويكاد من الصعب أن نحصي نوعا آخر من الاعصية غير ما ذكرنا . وليس ثمة ما يدعو للحديث على نحو منفصل عن العصاب الجنسي «نظرا لتضمن معظم الاعصبة على اضطرابات جنسية ، ربما لانه لا يوجد شيء افضل من الجنس في اثاره الصراع العصابي . ويدور «العصابي الجنسي» ، شأن أي عصابي آخر ، في متاهة الحصر ، والخوف ، وتوهم المرض ، والمساك القهري . ويعتبر العنة ، والبرود الجنسي ، والقذف المبكر ، وبقية الاضطرابات الجنسية بمثابة مترتبات او أعراض للميكانزم العصابي (باستثناء الجنسية المثلية الهورمونية المنشأ) - ونترك للمناقشة ما اذا كان التفريق بين «اعصبة الاعضاء» و «الاعصبة الخاملة» أمر له ما يبرره . وتفسر وحدة الجسم والنفس لماذا لا تتسم الاعصبة بالاعراض العقلية فحسب وانما بالاعراض الجسمية كذلك . ولا يدع العرق ، والشحوب ، والاسهال ، والاحساسات الهضمية غير المقبولة ، ودقات القلب ، مبررا للحديث عن الاعصبة الخاملة وهو أمر يصدق كذلك على بلل الفراش ، واللوازم العصبية ، والارتجاف . فمن المؤكد أن للخوف العصابي مظاهره الفيزيكية والعقلية - او هما مظهران لشيء واحد . ولقد اصبح مفهوم «العصاب الصدمي» من المفهومات التي عفى عليها الزمن ، ولا نستطيع الحديث الان الا عن «العصاب الاستجابي» على اكثر تقدير ، وذلك حين تنشأ استجابة باثولوجية تحت تأثير أحد المواقف غير المألوفة والمربعة (الحرب او الحوادث) دون أن يتم تثبيتها على نحو نهائي وقطعي ، اذ أنه بعد انحسار الموقف ، يستمر العرض بعض الوقت ثم يتغلب الكائن عليه يسد ان هذا يعتبر اقرب الى قطاع الهستيريا منه الى العصاب .

ختم

مضى عامان تقريبا منذ كتبت الكلمة الاخيرة في نهاية الجزء الثاني من «الفص الذهبي». ومنذ ذلك الحين انسابت مياه كثيرة تحت الجسر . اصبحنا مؤسسة مستقلة ، وتخلصنا من المستشفى ومن المدير (لا . هذا كلام فارغ) . وانتقلنا من الشقة الرطبة الى قلعة في نوتنجهام . وبدلا من الثمانين مريضا ينتفع الآن من الفص المموه مائة وثمانون مريضا تحت رعاية اربعة اطباء ومعالجين مهنيين . بل أصبح لدينا سيارة وان لم تكن على ما يرام تماما . كيف حدث كل هذا ؟ ان السجل في مفكرتي .

يونيو ١٩٥٥

عدنا من عطلة صيف هادئة في بروتسوني . واستقبلنا الجرانج بهدوء

المهود .

كانت المفاجأة الوحيدة ان ايرما سلندر المتعددة الخطاب قد اعترأها الاضطراب ولو كانت ايرما فصامية وليست مريضة بالصرع ، أو لو سبق تعرفها لمثل هذا الامر ، لما اثار ذلك الدهشة ولكنه حدث الان فعلا ومعرفة لماذا وكيف حدث ذلك في هذا الوقت بالذات لا تخلو من اهمية .

وللحقيقة ، ظلت ايرما لا تستحق لبعض الوقت لقب «المتعددة الخطاب» فمئذ رحل اولد تيننت - وكان هذا منذ عام تقريبا - غدت ايرما وحيدة تماما . ولم تكن هذه غلطتها وحدها ، ولكنها على نحو ما فقدت جاذبيتها الجنسية تماما ، بالرغم من انها كانت جميلة . كانت ممشوقة ، وكانت مشيتها المتثنية جذابة ومثيرة في نفس الوقت . ولم يابه الرجال قط كم هي قدرة موحلة تحت ثوبها المحبوك جيدا ، ولم يكن هذا هو السبب في انهم أهملوها الآن . كما لم يكن بسبب نوباتها كذلك ، اذ لم تعتربها نوبة قط منذ تسعة شهور .

وعندما عدنا ، وجدناها مختلة تماما . كانت تستلقي تائهة وقد بدا عليها الغباء أو تعدو وسط الآخرين كما لو انها لم تعرفهم من قبل . وحدقت فينا ، كذلك ، وبدت كأنها لم تتعرف علينا . ورفضت الأكل أو العمل ولم تكن تتكلم ، استقبلت الحائط بابتسامة بلهاء ارتسمت على وجهها ونامت . وحين طلبنا منها النهوض ، نزلت من السرير ، وشرعت تغير ملابسها ، وظلت تحديق أمامها ، ثم عادت فنزعت ثيابها ثانية وعادت الى فراشها .

ما الذي حدث لهذه الفتاة ؟ عرفنا بالامر تدريجيا .

عقب رحيلنا ، شعرت بالحنين لوالديها . فطلبت اجازة وحصلت عليها . وعادت الى منزلها بمفردها . وصعقت العائلة المقدسة . ما الذي تريده منهم ؟ ان ثلاثة سنوات فترة طويلة ، ولقد أمضت ايرما ثلاثة أعوام بيننا . وقضت قبل ذلك عددا من السنين في مستشفى المقاطعة ، والآن ها هي ذي بفتة - ماذا يمكن ان يعني هذا ؟

وعلى رأس كل هذا ، فانها بدت على ما يرام . لم تعتربها النوبات لمدة تسعة شهور ، ولم يتبق الكثير من انفعالاتها العنيفة السابقة أو عدوانيتها . لم يعد هناك ما يخيف من ايرما التي كانت تبعث فيما مضى ، باستثناء أنها كانت يجب ان تبقى في المنزل ، مسببة لاسرتها العار والخسارة المالية .

وادركت الاخوات الزنديقات الخطر فورا ، فشرعن يتكأن أشد الجروح ايلاما : ما نوع هذه العملية التي اجرتها ايرما منذ ثلاثة سنوات ؟ كانوا يعرفون جيدا أنها عملية اجهاض وكانت ايرما تعرف ، كذلك ، ولكنها لم تخض في الامر قط من قبيل التحفظ العنيد . ولا معهم كذلك ، وربما حتى ولا مع نفسها . لقد اعتبرته عارا . كعادة القرويات حين يصبحن «نسوة ساقطات» ، الامر الذي يجعلهن منبوذات من أسرهن أو قريتهن . لقد كانت لدى ايرما نفس الفكرة عن العفة كبقية أسرته . فطالما ظل الفعل سرا ، فليس ثمة ما يشين ، لكن يحل الخزي بأولئك الذين «انكشف» عارهم ، لم يكن الفعل في حد ذاته ولكن اكتشافه هو الذي يعتبر جريمة .

ولقد «انكشف» عار ايرما منذ ثلاثة أعوام ونصف ، فأجرى طبيب الولادة لها العملية ، ولم نعد نذكر الامر ثانية قط . صدقت . لقد صدقت هي نفسها تقريبا ما كنا نزعمه للآخرين من ان ذلك الذي تم استئصاله كان ضربا من الورم . لكن الاسرة لم تقنع بتفسير يقتصر على مثل هذه العبارات العامة والمراوغة . وعجزت ايرما عن الذب كلية . اكتفت بأن غغممت وتمتمت ، لكن اخواتها التقيات طالبنها على نحو بالغ الاثارة «بالحقيقة» . لقد أردن أن يسمعن بأذانهن شخصا ، ومن فم ايرما نفسها ان العار الكبير قد حل بها ، وان العملية لم تكن ثقل أو تزيد عن كونها الرعب مجسدا ، الرعب ، والعار ، والجحيم الذي يعتبر مجرد تسميته خطيئة . طالب الراهبات باعتراف كامل ، حتى يستطعن ان يشعرن بالتفوق . ولكن بدلا من ان تدلي ايرما باعتراف نادم ، اعترتها نوبة صرعية .

حدث ذلك كله في اليوم الاول لذهابها الى المنزل .

حين روت لنا ايرما ، في حالة من شبه الغيبوبة ، عن احزانها ، ذكرت أن اخواتها ضربنها كذلك . وأردن أن يرين الجرح في بطنها وأن تروي عليهن كل شيء ، وكل تفصيل ، ولكنها أبقت على الصمت المحير . عندئذ هاجمتها الاخوات المقدسات وشرعن يضربنها . فاعترتها النوبة . وحين صفى عقل ايرما ، فيما بعد ، أنكرت بشدة أنهم لمسوها حتى بأصبع واحد . «لقد استفسروا فقط » هكذا قالت مترددة «أردن أن يعرفن كل ما في الامر» . على كل حال ، لقد حدثت النوبة في الليلة الاولى ، ولم تتوقف ، نوبة تعقب الأخرى . وفي اليوم التالي فقدت الوعي ، وفي اليوم الثالث احضرتها سيارة الاسعاف ، وهي لا تزال فاقدة الوعي،

من الباب للباب .

يا للعائلات المقدسة ، يا للاخوات ، والاخوة ، والآباء ، والامهات ! ويا للاقارب الطيبون الذين يخضعون لرابطة الدم ! ويا للشفقة المقدسة ، والعدل النبيل ، والتسامح المسيحي ! لقد شفيت ايرما ، ومرت الفترة الصغيرة دون أثر في ظرف اسبوع . دون أثر ؟ من يدري . ما الذي أعرف كما يقول مونتاني . شيء واحد أكيد ، لقد خلفت في نفسي أثرا . لقد تقضى وقت طويل منذ ذلك الحين ، دون نوبات صرعية ، ودون حالات الرخاوة العقلية ، ودون فقدان الوعي . هل كان بمحض الصدفة ان أصيبت بالنوبة في ذلك الوقت ؟ يا للمرض المقدس ، يا للمرض الحقيقي والعضوي ، والتشريح والهستولوجيا وردود الافعال وعلم الطب الدقيق ! يا لتقسيم الصرع الى صنوف حقيقية ونفسية المنشأ ! **ماذا أعرف، ماذا نعرف ؟** اننا نعرف على رجه اليقين ان الاخوات المقدسات قد أئرن لدى ايرما المريضة بالصرع الحقيقي نوبة استمرت اسبوعا واحدا .

وان هذا لم يحدث من قبيل الصدفة بالتأكيد .

وذات مرة اصطحبنا فيري المطرزة معنا في عطلتنا . سافرت معنا الى بودابست ، حيث قابلها «أخوها الفني» على المحطة . وقضت خمسة أيام بالمنزل مع أسرتهما . وعاملوها على نحو طيب ، وكانوا لبقين عطوفين ، فأخذوها الى المعرض وأرضوها بشتى الوسائل . لكنهم لم يستطيعوا اخفاء طفلهم الذي كان يبلغ من العمر شهورا قلائل ، والتي غارت منه فيري . وغارت من زوجة أخيها كذلك ، لانها كانت صحيحة وسليمة لا تعتورها أية نوبات ، لقد اغتصبت زوجة أخيها مكانتها لدى «الاخ الفني» . كانت تدرك في لحظات صفوها جيدا ان هذا حمق ، وانها لا تستطيع أن تنازع حقوق الزوجة ، لكن في أعماق نفسها كانت الانفعالات القاييلية لمرض الصرع وليس المنطق هي التي تسود .

وعادت الى الجرانج في حالة من الرخاوة . وظلت بعد ذلك اسبوعا كاملا وهي مكتئبة تحلم أحلام اليقظة ولا تتعرف علينا أو تدري حتى أين تكون . وخلال عطلة أخرى من عطلاتنا ، أصيب جون صانع السلال بالاضطراب وجلس هذا المريض بالصرع الوديع المتواضع لدى النافذة لمدة أيام ثلاثة ، وقد

تدلت قدميه من خلال القضبان ، متفوها بألفاظ نابية تجل عن الوصف حتى أنبح صوته . ثم صفى ذهنه بعد ذلك ، ولم يعد يتذكر شيئا من الامر .

وكان ذلك أيضا أثناء إحدى رحلاتنا ، حين أصيبت الصرعية الهستيرية الفيرا (عرس المساء) بأول نوبات هذيانها . ولقد ذكرت ذلك من قبل ، فاكفى هنا بالإشارة إليه . كانت الفيرا (عرس المساء) تصاب بالاضطراب في كل مرة تفادر فيها القفص المموه ، ولم يكن ينقذها من الهذيان سوى العلاج بالالارجيكتيل في مواعيد منتظمة . وكان يحدث نفس الشيء لفالنتين جنرال ، وهي فتاة مصابة بصرع حقيقي . وبرغم حقن الالارجيكتيل ظلت تهلوس خمسة أيام عندما عدنا . وعلى أساس من الخبرة السابقة أوقفت العلاج بالعقاقير وتوقعت أن حالتها سوف تتحسن خلال يومين . وكنت مصيبا .

وعلى ذكر هذه الهذيانات الغريبة أروي قصة مارجيتا العجوز وقفزه في البئر . لم يكن مارجيتا العجوز مصابا بصرع حقيقي ، ولكنه كان من مشوهي الحرب العالمية الأولى ، أصيب بشظايا لا زالت في رأسه . اعتادت نوبات غضبه المفلوتة ، شأنها شأن رقصة الوحش ، أن تنتهي بفقدان الوعي وأصيب ببضعة نوبات صرعية منتظمة كذلك ، وغدت قدراته العقلية أكثر انحصارا . وكنت أشك في أنه اعتاد أثناء شبابه أن ينعش تلافيف دماغه بالفودكا والروم .

كان عليه أن يجري عملية جراحية لأصابته بفنق ، فنقلناه الى المستشفى . ولم تحدث ثمة مضاعفات . ولكن بعد ساعتين ، وحين كان العنبر غاصا بالزوار ، شرع مارجيتا العجوز يهرف على نحو خلطي ، فصرخ وصلى ثم قفز بفتة من سريره ، وفي قميصه وسرواله الداخل فقط ، وبالجرح الجديد في بطنه - هرول خارجا من العنبر ، نازلا السلالم ، عبرا الحديقة حتى خرج من البوابة . وجرى خلال شوارع المدينة المتربة ومن خلفه مساعد الجراح المدهوش والبوابون حتى تخير صدفة بوابة أحد الحدائق فجرى صوب البئر الواقع في وسط الفناء . وجذبه مساعد الجراح والبواب من كعبه على حين كانت رأسه قد غطست في البئر .

انتشلوه ، ووضعوه في سيارة الاسعاف وأعادوه الى الجراح . وصل في حالة من الهذيان المطلق . كان كلامه مختلطا ، ورأى رؤى مرعبة ، وجعل يصلي في خليط من الروسية والمجرية وتوسل ، باكيا ، في طلب الرحمة ، مناشدا ايانا أن ندعه يرجع الى البئر .

حاولنا تهدئته بالكلمات والحقن . وتركنا تاتي يجلس الى جواره ، ليراقبه . ولكنني شعرت بعدم الارتياح ، وبعد ساعة ذهبت الى العنبر لالقي نظرة . فقابلت تاتي في الممر .

«أين مارجيتا العجوز؟» سألته ، وأنا ممتليء بالهواجس .

«لقد اصطحبته الى دورة المياه» .

«أو لا يزال هناك؟» .

«أتمنى ذلك ...» .

دخلنا فوجدنا دورة المياه خالية . وحاول تاتي ان يشرح انه ذهب الى حجرته الخاصة لثوان معدودات ...
وساد قلق عام . وجرى المرضون في كافة الاتجاهات ، بحثا عنه . الى
الآبار !

كان المبنى يضم خمسة آبار . وفي قاع واحد منها عثرنا على مارجيتا العجوز
جالسا في الماء ، متعلقا ببعض الاحجار البارزة على عمق ثلاثين قدما .
ودلينا الدلو ، فأمسك به مارجيتا العجوز ، وأدار العجلة أربعة أشخاص .
وتم انتشاله . لم يصب بشيء ، لقد نسي نعليه في البئر فحسب
وأعقب القفز في البئر فترة من الهذيان الشديد الهياج استمر ثلاثة أيام .
وتم تقييد مارجيتا العجوز في سريره بالملاءات ، اذ كان من الصوبة أن تمنعه ثمة
من القفز ثانية في البئر (كان ذلك قبل أن نحصل على اللارجيكتيل . وكانت هذه
هي الحالة الوحيدة ، خلال أربعة أعوام من العمل في الجرانج ، التي « قيد » فيها
مريض) .

ولا حاجة للقول ، أن الجرح التام على ما يرام . فلا استطاع الحمام القذر
ولا المجهود العضلي الذي استمر ثلاثة أيام ولا تمزق الرباط من على بطنه أن
يلحقوا به أذى على أي نحو ما .

يوليو ١٩٥٥

استبدلنا معالجنا المهني .

لقد توصل بيتر ، الشاب المتحمس الذي ظل يناقشنا مدة عامين لبيتدع
أسلوبا جديدا ، الى أنه اذا أراد أن يحقق نتائج في صالح الطب العقلي ، فلا بد من
الالتحاق بكلية الطب . لقد شعر أنه لن يمتلك السلطة لتحقيق أي شيء وهو مجرد
معالج مهني .

ويجب أن اعترف أن هناك صدقا في بعض ما قال . فالاطباء يعتبرون
المعالجين المهنيين دخلاء دائما ، ومهنة الطب تطل عليهم من عليائها . واعتقد أن
هذا خطأ ، لكن آرائي لن تغير الحقائق . «يجب أن يكون المعالج المهني طبيا ، اذا
أراد أن يمتلك السلطة» ، تبدو هذه العبارة الغريبة ذات وقع . حاولت أقناع
بيتر أن يحارب لاعطاء السلطة للمعالجين المهنيين بدلا من الحصول على درجة في
الطب ، ولكنه فضل أن يمضي ستة سنوات في الجامعة ويحصل على شهادة
اخرى . كان قد سبق له الحصول على درجة في علم النفس .

وتمنيت مخلصا أن يستطيع بفضل شهاداته العديدة أن يحقق عملا كبيرا .
ولا شك أن حياة المدينة كان لها تأثيرها عليه بعد عامين من حياة الاقاليم
الراكدة في الجرانج .

وجاءت جولي لتحل مكانه ، حديثة التخرج ذات حماس لا يحد .
وشعرت المرضة ايما ، وكانت من اكبر أنصار الرجال ، بالأسف حين سمعت
نبأ التغيير . وعلى حد قولها «فالرجل هو الرجل» - الذي يعني أن عمل الانثى

لا يعادل قط عمل الرجل . ولكن كان عليها أن تعترف سريعا بأن جولي لم تكن هذه الصفة الخاسرة . وأنا شخصيا أفضل الممرضات الاناث ، وأعطى الرجال والنساء فرصا متساوية للعمل كمعالجين مهنيين ، وأفضل الادباء الذكور . ويعتبر العلاج المهني مهنة نصف طبية ونصف تمريضية ، ولذلك فانها تناسب الرجال والنساء على حد سواء ، وان مارسوها على نحو فارق .

لقد كان بيتر ، على سبيل المثال أقرب الى المنظم منه الى المنفذ ، كان يوجه أفضل مما يزاوِل العمل . كان مليئا بالافكار ، التي يمكن وضع بعضها في التطبيق ، ولكن كقاعدة لم يكن هو الذي يضعها في التطبيق . لقد جعله التفكير في المشروعات الكبيرة ، يكاد لا يجد الوقت للتفاصيل . كان ينظم المرضى ليقوموا بتمثيل الروايات ولكن لم يكن له صبر على البروفات . بل كان يشجع الممثلين على الارتجال (وكان لهذا محاسنه كذلك) ولم يكن يهتم بفحص حياة المرضى الداخلية ولكنه كان يقف الى جانبهم عمليا كلما اقتضت الضرورة . وآمن دائما بوجهة نظره ان المعالج المهني يجب أن يوجه العمل والهو ولا يضيع في التفاصيل .

وكانت جولي جد مختلفة . لقد ذابت تماما في المرضى . واعتبرت مشاكلهم مشاكلها ، وشاركتهم في توترهم أو قلقهم ، ودافعت عن حقوقهم الحقيقية أو الوهمية . وأمنت معهم روابط انفعالية . كان بيتر محترما من قبل المرضى ، لكن جولي كانت محبوبة . وكان بيتر يتمتع بسلطة أكبر ، ولكن كان لديهم ثقة أكبر في جولي ، لقد كان بيتر يوجه ، وجولي تتعاون . تعاونت مع الاطباء والممرضات والمرضى . ولم تضيف ابتكارات ذات دلالة ، ولم تكن لها نظريات مسبقة ، وكانت ذات خصال يمكن استثمارها على ما يرام في هذه المهنة ، ومع هذا كانت بالفة الفضول . وحين تكون المعالجة المهنية فضولية فانها تهتم بمصير المرضى . وتحب الاستماع الى مشاكلهم ، وتدفع حتى قليلا الكلام للحديث ، وتخلق الثقة في العلاج . أكبر ما يمكن ان تقدمه للمريض أحيانا هو انتباهنا - أن نسمع له ونهتم بما يقول .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي جعل جولي تساوي وزنها ذهبيا في الجرائح . لقد كسبت قلوبنا برضاها . معظم الناس لا يبدوون راضين قط عما لديهم ، ويتطلعون الى شيء آخر ، الى المزيد ، ولا يستطيعون الاستمتاع باللحظة التي يحيونها . وكانت جولي تتطلع الى شيء آخر وإلى المزيد كذلك ، ولكن ليس في التو واللحظة . انها الآن هنا ، وحسنا انها استطاعت أن توجد ها هنا وتؤدي ما كانت تصنعه . لقد كانت من فتيات العاصمة ، عرفت جميع الناس في بودابست ، وقرأت كل شيء ، وترددت على كل حفل موسيقي ، وتواجدت دائما في ثلاثة أمكنة في وقت واحد ، على حين تخاطب بالتليفون تسعة أمكنة أخرى - وأصبحت هذه الفتاة أكثر من جزء في الجرائح كأنما ولدت هناك . كانت تشعر بأنها في منزلها ، وكانت سعيدة وتقبلت باخلاص حظها السعيد بوجودها بيننا . ومن وقت الى آخر كانت تذهب الى بودابست لمدة يومين أو ثلاثة ، ولكنها كانت

تنتظر العودة بفارغ الصبر .

كتب لازلو في نيميث في «ثورة الكيف» أن الناس يجب أن يتوفر لهم الشعور بالفخر في عملهم . فمعظم الناس لا يحترمون ما يفعلون . انهم جميعا يطمعون في شيء آخر ، ومكان آخر - حتى ولو كان على غير ما يرام ، الامر الاساسي الا يكون متشابها . ونحن نعرف ان مقياس السخط الانساني بلا حدود . ويمكن لهذا السخط أن يكون مفيدا حين ينشئ الطموح . ولكن هل من الممكن أن يكون المرء راضيا وطموحا في نفس الوقت ؟ لقد جربنا ذلك في الجرائع ونجحنا . ربما كان هذا من الدروس الصعبة التعلم ، اذ كانت جولي هي التلميذة الوحيدة التي بدت كأنها تبنته ام ترى انها ولدت على هذا النحو .

اغسطس ١٩٥٥

وجاء صيف هاديء استمتعنا به .

لكن شيئا تغير ، لا في الجرائع وانما في العالم الخارجي . بدانا نكتشف اننا اصبحنا مشاهير . بدا الجرائع اثناء الصيف والخريف كأنه معرض للازياء . واقتفى الزوار المشاهير آثار بعضهم بعضا . وتم تجهيز حجرة ثانية للضيوف . وتضمن الزوار طلبة ، ومعالجين مهنيين وأطباء وأساتذة . وأضاف نشر واحدة من محاضراتي الطويلة عن الجرائع في «مجلة الطب العقلي» الى هذه الشهرة . وبدأت المهنة تحاط علما بروح الجرائع ، وبدأت تؤثر في أطباء العقول . ولم يقتصر ذلك على صفارهم فحسب . ولدهشتنا البالغة . لم تقاوم السلطات كذلك . ولا ريب أن طبيعتي الهجاسية سرت من الشكوى من أن «احدا لا يفهمني» ومن أن «أطباء العقول المحافظين يتآمرون علينا» - ولكن يجب أن أعترف أن الجميع فهموا ولم يتآمر علينا أحد . وأصبح يشار الى الجرائع بالاحترام والحسد . ولقد كان ضربا طيبا من الحسد ، اذ كان يعني أن الآخرين يرغبون في محاكاة ما نصنعه . بقيت هناك مشكلة واحدة فحسب . لقد تشبثوا بعناد في الاعتقاد بأن أسلوب الجرائع لا يمكن الا أن يزاوله رسول ذو لحية طويلة، ولم يكن هناك أحد على استعداد لاطالة لحيته . وعبثا حاولت أن اشرح أن كل ما هو مطلوب هو مجرد الروح الانسانية ، وأن اللحية ليست مطلوبة - فلقد اصرروا . ثم حدث في الخريف امران كان لهما تأثيرهما الجذري على الجرائع . كان أولهما أن بول مادل ضاق بوظيفته في الوزارة (أو ضاقت الوزارة به ...؟) فتخلى عن منصبه الى اليكس بودر . وكان ثانيهما استكمال قلعة نوتجهام ، أخ المستقبل للجرائع ، وثاني مؤسسات العلاج بالعمل في البلاد .

وكان استبدال بول مادل باليكس بودر يعني انتقال مزاوله الطب العقلي من يدي شاعر حالم الى يدي جراح ذي عقلية عسكرية . ولم نكن نعرف بعد ما اذا كان هذا بمثابة تغيير نحو الافضل . كان من المؤكد أن اليكس بودر رجل أفعال ، على حين كان بول مادل رجل الوعود . لو استطاع اليكس بودر أن يحقق الامور التي استطاع بول مادل أن يعد بها فحسب

وبدا بودر بأن استقل سيارة وزار جميع المؤسسات العقلية في البلاد وحين وصل الى الجرانج كان اليأس قد اعتراه من جراء ما رآه من امور تبعث على الرعب . وبدا كان المهمة قد أخذت عليه كل مأخذ . ولكن وجهه اشرق هنا ، وانتابه الحماس - أجل ، هذا ما يجب أن يكون ، انه امر غاية في البساطة ... كان قد اصطحب معه أحد مشاهير الاساتذة ، الذين اشتهروا بالريبة . ولكن المرتاب تعاطف كذلك . «أجل ، هذا هو المطلوب» هكذا قال في نعمة ، ولكن بعينين ملتفتتين ثم تحول نحوي بنظرة لائمة .

«ومع هذا ، فقد أخطأت خطأ كبيرا ...» .

« ؟ »

«كان من الواجب أن تدعو رجال الصحافة والسينما للزيارة» .

حسنا ، إذن فهذا كل ما ينقصنا .

ولم يقنع اليكس بودر بمجرد قضاء النهار والمساء في الجرانج ، فوضعني في سيارتهم واصطحباني معهما الى نوتنجهام .

كانت قلعة جميلة تكلف اصلاحها اكثر من مليوني فورنتا . يعتبر مسكن الجرانج الى جواره لا شيء . كان يوجد ثمة غرف رائعة ، واستراحة ضخمة ، وشرفة عظيمة ، وحديقة مهمة ، واسطبلات حديثة وجراج ، ومفصل ومطبخ . بل يوجد ثمة بدلة لرئيس الاطباء . لكن حجرات الموظفين كانت رطبة كما هو الحال في الجرانج .

وحين عدنا من رحلتنا هذا المساء ، قال اليكس بودر .

«يجب أن تأخذ نوتنجهام» .

وثنى الاستاذ المرتاب بعده مؤكدا ، وتركتهما يتغزلان في . كأنني فتاة خجول بصراحة ، استهوتني فكرة الذهاب الى نوتنجهام ، وأعجبني التملق ، واجتذبتني الاستقلال ، وأخيرا وليس آخرا ، استهوتني البدلة الجميلة . لكنني لم اعترف بذلك لنفسي ، وأصررت على أنني أرغب أن اظل في الجرانج حيث اشعر بالسعادة . لم اكن قد رايت (لا - هذا كلام فارغ) نحو ثمانية عشر شهرا ، كل شيء على ما يرام ، ومريح ، وبسيط - لماذا يجب أن أرحل ؟ كنا قانعين بالمرتب وبالعمل وبمعظم هيئة المؤسسة ، وبالخلاء الجميل - وبعبارة أخرى كان كل شيء غاية في الروعة .

وانتاب اليكس بودر الغضب .

«اللعة ، انك تبدو كأنك الرجل الوحيد القانع في هذه المهنة .. لقد جلست في انحاء البلاد عدة شهور ، فكان كل ما سمعته هو الشكاوي» .

ومع هذا ، فحين احضروا لي البدلة التي لم يكن لها نظير ثانية وبدأوا يعزفون بمهارة على نفمة مزايبا الاستقلال ، والفرصة العظمى للزدهار ، والمسؤولية الوطنية .. الخ ، الخ ، بدأت اتردد .

عشا الدرس الذي تعلمته من وعود بول مادل ، بدأت اصدق الآن وعود

اليكس بودر .

«ومع هذا ، فالامر مستحيل» . هكذا قلت على نحو أكثر ليثا ثم أردفت .
«لا أستطيع مفادرة الجرانج فورا ، اليس كذلك ؟ وبدون سيارة يسدو من
المستحيل الاشراف على المنزل والقلعة . اليس هذا صحيحا ؟» .
وصدقا على هذا ووعداني فورا بأنهما سيخصصا سيارة للمؤسسة .
«حسنًا . اذا حصلت على سيارة ، فسوف أتولى الامر . أما اذا لم أحصل
عليها ، فلن أفعل» .

كان اليكس بودر لا يزال غرا جديدا على الوزارة . فاعتقد ان هذا شرط
بسيط .

«حسن . سوف تحصل على السيارة» .
وافترقنا كأصدقاء . واعتقدت أن هذه نهاية صداقتنا لانه لن يحصل لي
على سيارة قط بأية حال من الاحوال .

سبتمبر ١٩٥٥

أخطأت هذه المرة .

وفي نفس الاسبوع طلب اليكس بودر والاستاذ المرتاب من المجلس العلمي
ادراج العلاج بالعمل في جدول أعماله ، وتحدثنا مع شتى المديرين الصفار والكبار
في الوزارة . كانت النتيجة أنني استدعيت الى بودابست على عجل وأوليت
بتقرير استغرق ساعتين عن الوضع المؤسف للطب العقلي وكيف يمكن أن يشق له
العلاج بالعمل طريقا . ثم أمرت الوزارة فورا الطبيب المسئول في مستشفى
المقاطعة بوضع قلعة نوتنجهام تحت تصرفي دون ابطاء والحاق الجرانج بونتهام .
وأعطيت السيارة .

كانت السيارة من النوع الفورد القديم ، في نحو الثلاثين من عمرها على
الاقل . وتعاملت على الوصول من بودابست على عجالاتها الخاصة . وفي الجرانج
تم تفيكيها وأعلن أنها تساوي ستة في المائة من قيمتها الاصلية . كم ستستغرق
الستة في المائة حتى تعود سيارة كاملة من جديد ؟ وأي نوع من السيارات ؟ ولكن
سنعرف المزيد من ذلك فيما بعد . الرجل هو الرجل ، هكذا قالت المرضة ايما .
السيارة هي السيارة وهكذا فكرت في سداجة . ليست هناك فرصة للتراجع ،
اننا في طريقنا من الجرانج الى نوتنجهام .

ديسمبر ١٩٥٥

لم يرحب المكتب الطبي للمقاطعة بفكرة تحويل قلعة نوتنجهام الى مصحة
عقلية ، لكن لم يكن في وسعه أن يصنع شيئا . وفي ديسمبر عيني وأمر بافتتاح
المؤسسة .

كان من السهل أن تعطى أمرا . لكننا وجدنا أن الاصلاحات لم تنته ، وأن
التدفئة المركزية لا تعمل ، وكذا الكهرباء ، ولم نجد ثمة موظفين أو أية معدات الا
بصعوبة . لقد توفرت بعض المعدات ، لكن المقاطعة أعارتهما الى مؤسسة أخرى .

وبدأت المراسلات . كتبت المقاطعة الى الوزارة لتدبير الاعتماد . واجابت الوزارة بالرفض ، فلقد سبق تدبير الاعتماد من قبل ، والآن كان دور المقاطعة . المقاطعة لا يوجد بها الاعتماد الكافي . تأسف الوزارة ، ولكنها ليس لديها الاعتماد كذلك . واختصما حول هذا الموضوع بعض الوقت ، على حين اخذ المرضى في ورشة النجارة بالجراجح يعملون جهدهم ، فصنعوا من الاعمدة الخشبية الناتجة عن المبنى المهذوم أسرة ، وموائد ، ودكك واصونة ملابس . كان من الواضح ان المال والاثاث لن يتوفروا من جراء هذا الاختصام . كل ما وصلنا منهم جهاز للاختزال . ولو لم تقم ورش الجراجح بالانتاج ، لما وجد المرضى شيئا يجلسون عليه او اليه . ولم تكن مشكلة الموظفين اقل سهولة . احتجنا الى طبييين (احدهم في الجراجح ليحل محلي) ومعالج مهني للجراجح لاننا كنا سنصطحب جولي نونتهام ، ووكيل ، وكاتب حسابات ، وموظفين للامدادات وممرضات .

واستأجر اليكس بودر والاستاذ المرتاب الاطباء - شابين من بودابست جاء الدكتور هوتر الى نونتهام والدكتور جوفال الى الجراجح . وكان من السهل الحصول على ممرضات . اخذنا معنا روزي (وبقيت ايما في الجراجح ، واخذت مكان السيدة الاولى) وسيتم تدعيم روزي ببعض الشابات من القرية ، فلم يكن قد افسدن بعد ، اذ لم يسبق لهم رؤية مصحة عقلية ، وسوف يتعلمون منا الاسلوب. وضمت نونتهام الان سبعة ممرضات . وأسندت للممرض الوحيد النوبة الليلية . وعملت الفتيات السبع واثبتن أن القوة البدنية ليست مطلوبة في التمريض العقلي .

وتم تجنيد أغلب الحرفيين من المرضى في الجراجح . فعيّنت روز هيبيس ميكانيكيانا ، وسبنسر اسكافيا ، وجون البناء بناء ونجارا ، وجوزيف كوك طباحا وستيف دريفر خادما . وهكذا وظفنا خمسة من السيكونياتيين مدمني الكحول . وبقي أن ننتظر مبلغ ما سوف يحققونه من نجاح .

لم يكن هناك مريض مناسب ليعمل كيلا . كنا بحاجة الى شخص يفهم هذه الوظيفة ويحافظ على مصالح المؤسسة . لكن احدا لم يشأ العمل كيلا أو رئيسا للحسابات . وأخيرا تقدم جون البقال ، من أصحاب الحوانيت يطلب ، وكان حتى هذه اللحظة يدير حانوتا ويريد الآن التخلص سريعا من المحل ، لاسباب خاصة . لم اكن شديد التفاءل بقدراته ، لكن لم يكن أمامي الخيار . ونظرا لان احدا لم يتقدم لوظيفة رئيس الحسابات ، فقد استمّنت بفيدرل (الذي لا يصنع شيئا) من الجراجح لعدم وجود من هو أصلح منه ، وكل امل أن يحفره الاجر المضاعف والكريم كي يزاول بعض العمل .

لماذا كان العثور على موظفين من الصعوبة بمكان ؟ لان القرية الصغيرة كانت تبعد عن الطريق العام بمسافة اكبر من الجراجح . كان الجراجح يبعد عن الطريق الرئيسي بمقدار ميلين ، أما اقرب محطة سكة حديدية الى نونتهام فكانت على مبعدة خمسة أميال ، ولا يمكن الوصول الى خط السكة الحديدية الرئيسي الا بعد

تبديل القطارات عدة مرات .

كنا على الحدود تماما . وفي الايام الصافية كنا نستطيع رؤية الثلوج تغطي قمة جبل راكس الذي يعتبر النقطة المتقدمة لاوروبا الغربية .
يناير - ابريل ١٩٥٦ .

وصل الى نوتنجهام فريق طلعي من خمسة عشر شخصا في ديسمبر للتنظيف والترتيب والتأثيث . وغادرنا المستشفى في ذلك الوقت . بعد ثلاثة أعوام من التعايش المؤلم تحت الهدنة العظمى . وخلال هذه السنوات الثلاثة بأكملها لم نتلق من الملابس والمواد والاحذية والاربطة وابر الحقن تحت الجلد كما تلقينا في هذه الشهور الاخيرة . بل لقد استأذنا المدير (لا - هذا كلام فارغ) في الرحيل على نحو مهذب . وتحاشينا كل الموضوعات المحرجة ، وتبادلنا الثناء الفارغ والامنيات الطيبة وافترقنا في سلام .

وفي يناير عام ١٩٥٦ وضعنا اثاثنا في سيارة نقل ، وحملنا ثلاثون مريضا في سيارات الاسعاف ، وقصدنا نوتنجهام ، منمين مرحلة لا من حياتنا فحسب ولكن من تاريخ الطب العقلي المجري كذلك . اذ لم يعد هناك شك في أن الجرانج قد اثر في جميع أطباء العقول وعديد من الاطباء الآخرين كذلك ، بالإضافة الى التعليم الجامعي ، ووزارة الصحة وتدريب المعالجين المهنيين والممرضين . ولا أزعم أننا احدثنا تغييرا جذريا . ابعد ما يكون عن هذا . كل ما نستطيع ان نزرعه أننا أيقظنا ضمير المهتمين وهذا ليس بالعمل الذي يستهان به .

كيف كنت اشعر حين غادرت الجرانج ؟ بالالم ... صحيح ، كنا في طريقنا الى قلعة جميلة ، والى تجهيزات أفضل ، والى الاستقلال (اذا اعتبرنا الاستقلال أن يصبح المسئول الصحي المقاطعة رئيسنا بدلا من الدكتور «لا هذا كلام فارغ»)، وصحيح ، اخذنا معنا مرضانا المفضلين ، وظل الجرانج لنا كذلك - لكن الرحيل يؤلم . ترى هل ننجح مرة اخرى في صنع ما سبق لنا أن صنعناه من قبل ؟ لن يتدهور الجرانج اذا ادراه من على مبعدة ثلاثين ميلا ؟ هل نستطيع تصديق وعود الوزارة وخطة التنمية والمشروعات العظيمة ؟ كنت خائفا ، وكنت متشائما .

ولكن لا وقت للحزن - فالامور تتطلب التدبير ، والعمل يجب ان يبدأ . وقامت الطلائع بترتيب بضع حبرات قلائل ، وركبت المعدات الكهربائية والتدئثة . كان المتنزه بحرا من الوحل . ولم يكن لدينا مفسل بعد ، وكانت سيارتنا في ورشة التصليح .

ولو لم تسمح لنا مصحة الامراض الصدرية المجاورة باستخدام مفسلها ، وسيارتها وخبرتها في التنظيم ، لما استطعنا حراكا . كانت أقرب مدينة على مبعدة عشرون ميلا ، ومجلس المقاطعة على بعد ثلاثين ميلا ، وكان علينا أن نحصل على الطعام والملابس وعديد من الاشياء الاخرى من هناك . وكان فبراير شديد البرودة ، فانكمشنا مخدري الاطراف في القلعة الجرداء .

بدأت الشمس تسطع في مارس. وبغثة تبدل كل شيء . اندفع بعض المرضى

خارجا ، ليحيلوا بحر الاوحال الى حديقة . وصنعنا الاسرة الضرورية والملاءات وزدنا عدد المرضى الى ثمانين . كان للقلعة متنزه كبيرة ، ولكن لم توجد ثمة ارض تصلح للزراعة . وبعثا حاولت استئجار الارض - لم استطع الحصول على ياردة مربعة في هذه القرية الغنية ، وهكذا اعرضنا عن أن تكون لنا حديقة خضرواتنا الخاصة ، اكتفينا بحديقة رمزية في ركن من المتنزه . ومع هذا فقد كان هناك ما يكفي من اعمال الزراعة التي يمكن تأديتها هناك . وابتنى البنائون كوخا جميلا للبواب عند المدخل ، اذ كان من المستحيل هدم السور كما سبق أن فعلنا في الجرانج . وظلت البوابة مغلقة ليلا ونهارا ، لا للابقاء على المرضى ، ولكن للابقاء على القرويين بعيدا ، بعد أن بدؤوا يزعمون المرضى . ذات يوم استرعت الصرخت انتباهي . وجدت جون الفصامي محطم الاحواض جالسا فوق فلاح شاب سكران . وفسر جون الامر في رزانة . «لقد جاء هذا السكر هنا واخذ يتشاجر . لا داعي للقلق ، فلن أؤذيه ، سوف أطرحه ارضا فحسب ...»

ومنذ ذلك الحين ابقينا البوابة مغلقة .

لم تعد المزرعة هنا هي أهم اقسام العلاج بالعمل وانما الصناعات اليدوية . جلست النسوة لدى النوافذ الشمالية في الممر الفسيح يشتغلن مفارش جميلة للمائدة وستائر ذات رسوم شعبية ، بمهارة متزايدة ، تحت اشراف المدربة . وبدا السخط على الوكيل البقال لهذا الاتلاف في القماش والخيوط ، لكن المرضى لم يقيموا وزنا له وزينوا حجراتهم . كما وضعنا نولين كذلك . وقامت امرأة فصامية مختلة تماما كانت تعتقد أنها دوقة اسبانية وحائزة على جائزة نوبل بخياطة ملابس ممتازة للمرضى ، بينما تهلوس بشدة . كذلك بدأ العمل في ورشة تجليد الكتب . وزار أهل القرى المجاورة ستوديو التصوير عندنا مرارا وتكرارا ، وكان لويس المتعدد المهن قد انشأه أثناء احدى زياراته لنا . وأمكن الاستمتاع كل ليلة بالرقص والالعب والحلقة الادبية والغناء وتنس الطاولة والعزف على الاكورديون وسماع الراديو في الاستراحة التي كانت من الضخامة بحيث كانت قاعة «للفرسان» . وكان الدكتور جوفال والمعالج المهني يحضران للزيارة من الجرانج مرة في الاسبوع . وكانت هذه فرصتنا لمناقشة شتى الموضوعات العلمية حول فئجان من القهوة .

مايو ١٩٥٦

في شهر مايو أصبح لدينا حصانان وتليفون ، كما اعدت السيارة كذلك . اعدت ! لقد تم اصلاح المحرك ، ودهان الهيكل بلون رمادي قدر وكساء المقاعد بأحد انواع البلاستيك مقابل خمسة وأربعون ألف فورنتا في تعاونية ميكانيكا السيارات . ما الذي تكلف بحق السماء خمسة وأربعون ألف فورنتا ، وما الذي استغرق خمسة شهور ؟ فيعد يومين من وصولها أعيدت السيارة للتصليح ، ولا زالت الاصلاحات مستمرة . تحطم كل شيء ، ورشح كل شيء . كان الامر اشبه بالتنين ذي الرؤوس السبعة . في كل مرة تقطع فيها احد الرؤوس ، ينبت مكانه

راسان . اذا اصلحنا عطبا ، ظهر معه عطبان . اشترينا اطارات جديدة ، واكس جديد ، ورادياتير جديد ، وجهاز جديد لتعشيق التروس ، وسوست جديدة ، وروافع جديدة ، وعلبة تروس جديدة ، وبطارية جديدة ، انفقنا ثلاثين الف فورنتا اخرى على السيارة ، ففدت اسوا حالا مما كانت عليه من قبل . عادت للتوقف ثانية ، وفككت اجزاؤها . فاذا تصادف وسارت ، كانت تصدر ضجيجا كأنها جزار .

لا بأس ، ذهبنا بها الى الجرانج بضعة مرات قلائل .
كان انطباعي الاول مذهلا . ما الذي حدث للجرانج ؟ حياني المرضى القدامى فرحين ، لكن اين الممرضات ؟ واين العمل ؟ كان المرضى يتسكعون ، ومعظم الحديقة اهلكت . اين البستاني ؟ والمعالج المهني ؟ ورئيس اطباء .
كانت الساعة العاشرة صباحا . وجدنا الطبيب العجوز في العيادة مع الممرضات المنوبين . لا يزال الطبيب العجوز يحتفظ بروحه المرحه . قال مفسرا :
« صدق او لا تصدق ، لقد تحول الجرانج الى عيادة . هذا صحيح ! هناك من اربعة الى خمسة جلسات كهربية يوميا ، ومن ثمانية الى عشرة جلسات للعلاج بالالارجيكتيل والممرضات مشغولات جدا عن مراقبة المرضى لانهن اما يباشرن العلاج او يراقبن الذين في الاسرة » .
« في الاسرة ؟ » .

« أجل غير مسموح لمن يتعاطوا الالارجيكتيل ان يفادروا أسرهم . اوامر الدكتور جوفيال » .
« والبستاني ؟ »

« ذهب الى المدينة لينسق حديقة المستشفى . لا يوجد ثمة ما يصنعه هنا . فالمرضى القدامى يعرفون ما ينبغي بدونه ، اما الجدد فهم لا يعملون . ولكن لدينا قلة من النجارين والنقاشين والبنائين المتأخرين » .
كانت الورش تؤدي عملا طيبا . ودهن النقاش جميع الابواب والممرات بالابيض الناصع . امرت البناء بنزع قضبان النوافذ فورا . لقد ضايقتني هذه القضبان طيلة ثلاثة أعوام .

لو انه لم يكن العديد من المرضى في الفراش ! لم اكن اميل الى ابقاء الناس في الفراش ، حتى خلال العلاج بالالارجيكتيل . اننا ايضا نفضل هذا العقار الجديد الممتاز ، ونستخدمه ولكن ذلك لا يتم الا في المساء ، حتى لا يعوق أثره المثبط للناس عن العمل . وعلى نقیض ما يشاع ، نستطيع ان نقرر بعد ثلاثة آلاف حقنة الالارجيكتيل وتسعة آلاف قرص اننا لم نلمس اية آثار ضارة لاستخدام الالارجيكتيل مع عدم الإبقاء على المرضى في السرير . بل اننا على العكس ، حصلنا على نتائج طيبة جدا . فمن بين خمسة وأربعين مريضا يتعاطون جرعات قوية من الالارجيكتيل رقد واحد فقط في السرير لانه كان مصابا بضعف في القلب . واستفاد مريضان او ثلاثة من المرضى الكسالى من الاعياء الذي يسببه الالارجيكتيل

ورقدوا في الاسرة خفية . ولكن بعد يومين من الانهاك عمل اغلبهم وشاركوا في النشاط الترفيهي . وطلب الحلاق العجوز ستيف من الممرضة أن تقدم له الجرعة اليومية بعد العشاء حتى يستطيع تحمل العمل على هذا النحو بطريقة افضل ، فلدیه عمل كثير . وكان يساعد البناء ، ويبيض الجدران ثم يقوم بعد ذلك بالحلاقة لجميع المرضى الذكور .

ويعتبر ستيف العجوز نصر اللارجيكتيل المضاف الى العلاج بالعمل . حين جاءنا ، كان مضطربا وعدوانيا لدرجة جعلت حتى ممرضاتنا المدربات يخشينه ويطالبن باعادته . ولكنني لم أعده . بل اعطيناه علاجاً باللارجيكتيل ، ولم يكن هذا بالامر السهل ، لانه كان يعترض بشدة على أي نوع من العلاج ، ويتفوه بالبذاءات ، ويهلوس باستمرار . وحين لا يسب كان يضحك لنفسه . كان ينتزع الاشياء ، ويبصق ، ويضايق الجميع ، ويرسم رسومات غريبة ، ويشوح في الهواء ويتكلم مع نفسه . واستمر هذا سبعة أعوام . وبعد علاج طويل باللارجيكتيل ، اصبح من اكثر المرضى نظاما واخلاصا في العمل في نوتنجهام . وكان يذهب الى القرية ، ويرعى شؤونه الخاصة بكفاءة . وارسلناه الى منزله تحت المراقبة لمدة اسبوعين ، فوجد زوجته مع رجل آخر ، ولكنه لم يكثر حتى من ذلك . فصفى منزله ، وجلب معه معدات الحلاقة ويفكر الآن في أن يستأجر لنفسه حجرة صغيرة في القرية ويفتح محلا للحلاقة هنا . لم تكن فكرة سيئة . وكان يشرع كل شهرين في القهقهة والتحديث في الفضاء - ولكن العلاج باللارجيكتيل لمدة ثلاثة أيام كان كفيلا باعادته الى صوابه .

ويعتبر اللارجيكتيل عقار مدهش حقا ، وان لم يكن غريبا ، بالطبع . انه يعني عصرا جديدا في الطب العقلي . وحتى هؤلاء الذين لم يكن يشفيهم كان يهدئهم على نحو افضل من أي شيء سابق عليه . فحين يكون اللارجيكتيل والعناية الطبية متاحين فلا مزيد من الهياج . كان للثنين فعل السحر . وحين توفر لنا اللارجيكتيل اصبح من السهولة بمكان تنمية روح الجرانج . واصبح من الجلي أن تتحول جميع المؤسسات الى العلاج بالعمل لانه بفضل اللارجيكتيل لم يعد من الضروري الخوف من المريض ، ولا مبرر للخوف من العنف المفلوت او النشاط النفسي الزائد القلق . ففي النهاية اصبح عدد الذين لم يسلس قيادهم ضئيلا لدرجة لا تجعل العلاج يضعهم في الاعتبار بقدر ما يضع أولئك الذين يمكن شفاؤهم .

ومع هذا لم يستغل ذلك الآن هناك . تطلعت حولي مبهوتا . ما الذي حدث ؟ واجاب الطبيب العجوز في استسلام : « إدارة جديدة ، مبادئ جديدة ... اننا الآن نعالج المرضى . أخشى الا تكفي الميزانية لكل هذه العقاقير ... » .

يونيو ١٩٥٦

أصبح كل شخص يدس للآخر في الجرانج . كيف وصلوا الى هذا في غضون أشهر معدودات ، ظل ذلك غامضا . تزعم كل من المعالج المهني والوكيل زمرة .

وأصبح البستاني شديد الانشغال بالدسائس والعمل في منتره المدينة . وانتقلت معظم الممرضات الى نوتنجهام . وزاد عدد الممرضين الرجال الاقوياء - ولم يكن هذا بالامر الطيب بالنسبة لروح الجرانج . وانطحن الطبيب العجوز بين الفرق المتعارضة . وفقدت الممرضة ايما الارض من تحت قدميها ، لقد كانت متميزة كممرضة ، ولكنها فشلت كرئيسة وعجزت عن مزاوله السلطة .

وانصلح حال السيارة قليلا ، فاصلح ذلك من روح الجرانج . كنت اذهب الى هناك مرة في الاسبوع او كل اسبوعين . لاهديء الانفعالات وادعم سلطة الطبيب وايما . وترك التجارون والبنائون المتنازون المكان (بعضهم مشفيا ، والبعض مدمنا) ولكنني استطعت ان احملهم في النهاية على انتزاع القضبان من على النوافذ ، معبرين عن روح الجرانج على الاقل بهذا الاجراء الرمزي . ولكن من السهل انتزاع القضبان من المباني عنها من العقول . وبدا من الامور الاكثر سهولة أن تخفف من قيود العقول المريضة عن قيود العقول الصحيحة . ولعل اكثر ما يدعو الى الدهشة تبني العاملين في نوتنجهام لروح الجرانج باستعداد اكبر ، بالرغم من انهم لم يكونوا قديسين . لقد وجدت العديد من الدسائس هناك ، كذلك . فهناك اولا العدد الكبير من السيوكوباتيين مدمني الكحول الذين رقاوا الى ميكانيكيين ، وسائقين ، وممرضين ، وبنائين . كانوا جميعا ذوي طبائع متآمرة حقودة متنافسة . لكن الجو المسالم هذا على نحو ما من دسائسهم ، ولم يأخذهم أحد مأخذ الجد - حتى هم انفسهم . وتسبب الوكيل السليم في مزيد من المتاعب . لم يفهم اي شيء مما يدور في نوتنجهام . وكان يرقب في شغل متى يرتكب أحد المدمنين خطأ حتى يستطيع ان يقول لي في دهاء مرائي اي ضرر اصاب به مرضاي الاقتصاد القومي . هذا الوكيل التابع لنا . حلمت ذات مرة بامكانيات التطور التي يمكن تحقيقها اذا كانت لي مؤسستي الخاصة ووكيلي الخاص ، ولقد حصلت الآن على وكيل خاص ، اعترف ان وكيل المستشفى السابق كان افضل منه .

ومع هذا ، كان الجو العام في نوتنجهام طيبا . ورجع هذا في الاساس الى فريق الممرضات الممتاز . لقد رعت الشابات السبع المرضى ، تحت اشراف الرئيسة . كان بعضهن ماهرات ، وبعضهن غير ماهرات ، ولكنهن جميعا تشبعن بروح الجرانج . وكانت روزي هي التي تقود النغم . كانت اكبرهن تبدو بسنواتها الاثنتين والعشرين كممرضة خبيرة . كانت قد نجحت في امتحانها في ذلك الوقت ، وكذلك فعلت جودي ، ولم يكن هذا هو سبب امتيازهن . لقد عشن لمرضاهن ولؤوسستن . لقد كانت هاتين الشابتين روزي وجودي ، بمثابة برهان قاطع على ضرورة ألا تكون ممرضات العقول مجرد عاملات مأجورات ، بل يجب ان يكن أخوات بالمعنى المثالي للكلمة . ربما يكون من صفط القول الزعم بأن اي فتاة من سن الثامنة عشر الى العشرين تناسبها هذه المهنة ، ولكن من المؤكد أن ثلاثة او أربعة ممرضات ماهرات يمكنهن أن يخلقن جوا يجعل من الوحشية أمرا مستحيلا وغير مفهوم . ما الذي جعل هؤلاء الفتيات يتوفر لهن القدرة على التعامل مع العدوانيين

الأشد اضطرابا بمثل هذه السهولة ؟ انها شفتهن ومرجهن ، ومحضرهن اللطيف
ثم حماسهن في الاساس . لم يحدث قط انهن لم يتطوعن لم يد المساعدة حين
يتطلب الامر ذلك لان نوبتهن قد انتهت ، دون أن يشكين بل الاصح أنهن كن
يتنافسن مع بعضهن البعض على تحمل الاجساد الثقيلة النائمة أو اعطاء الحقن ،
جاعلين عملنا أكثر سهولة بتعليقاتهن المدربة . وادهشني الحماس الذي كن يزلن
به الاظافر المهمله ، كان المرضى الذين يقاومون قص أظافرهـم اثناء الصحو يتم
قصها لهم وهم نيام . وربما كان يبدو غريبا الحكم من مثل هذه البسائط .
ولكنني أستطيع أن أقرر أن أفضل المرضين هم الذين يلاحظون - مثل هذه
الفرص ويفيدون منها . والذين لا يخشون أن يأخذوا دشا باردا في الصباح
والمساء . ولا يمكن أن يعهد بنظافة المرضى الى ممرضين لا يهتمون بنظافة انفسهم .
كان هؤلاء الفتيات نظيفات الجسم والروح ، ولذلك كن ممرضات طبيبات .

واضفت الرئيسة شيئا جديدا على اسلوبنا في العلاج بالعمل . لم تكن
السيدة الاولى هي الرئيسة هنا وانما اختها . كانت ممرضة ذات خبرة ، لكن هذا
كان أول عهدها بمرضى العقول . كان الشيء الجديد هو العمل اليدوي الذي
مارسه المرضى تحت توجيهها . والى جانب ذلك ، كان هناك ابتكار في الاسلوب .
ذلك هو الدقة . فنظرا لانها تمتلك حسا جماليا غريزيا ، لم تكن تتحمل العمل
ضبط عشواء . فأضت ليالي وراء ليال تنسخ الرسوم الشعبية من المراجع ،
وتكبرها وتصنع منها بتروونات (نماذج) . ولم يكن من الغريب بعد مثل هذا المجهود
ان تسمح بأن تفسد المواد والتصميمات . كنا نعتقد جميعا أنه يكفي المعالج المهني
أن يزاول المرضى العمل المنوط به تنفيذه . وقد أدركنا ان العمل المنتج فحسب
هو الذي له قيمة علاجية ، ولكن جاءت هذه الرئيسة وعلمتنا أنه يمكن أن نتوقع
من المرضى عملا فنيا دقيقا ماهرا . لم يكن يهمها أن تأمر المريض بفك الشغل
السيء للمرة السابعة وتشرح مرات ومرات كيف ينبغي أن يتم . واحتج المرضى
في البداية ، ثم اكتشفوا بانفسهم على أي نحو أكثر جمالا يمكنهم أن يعملوا ،
وتعودوا الشغل . ولم يستأوا من الرئيسة بسبب «عدوانيتها» ، فلقد كانت ذات
سلطان كبير حتى على المرضى المضطربين بحيث لم يكونوا يجروون على مواجهتها
بالعمل غير المتقن .

وهكذا ، أصبح من بين سبعة وأربعين مريضة ، احدى عشر يمارسن عملا
يدويا على نحو فني ممتاز ، ناهيك عن قلة ذات موهبة متوسطة ، أو الخياطات
واللواتي يقمن بأعمال التريقع . وانا لا أتحدث الآن عن الاهمية المادية لكل هذا
(فلم نكن نستفيد منه) ولا في دوره في جعل المؤسسة أكثر جمالا (كنا نستفيد من
ذلك على أوسع نطاق) ولكن عن دلالتة بالنسبة للعلاج بالعمل . فمن بين الاحدى
عشر كان ثمة مريضتين بالصرع ، وحالتين خطيرتين من حالات السيكوباتية ، وكان
سبعة من الفصاميات المضطربات تماما ، التي بعد أحقاب من البقاء متعطلات وجدن
أخيرا وسيلة للعيش مناسبة ومفيدة ، بل وأكثر من ذلك ، تعيد اليهن كرامتهن

الإنسانية . كان الدرس المنهجي المستفاد ، أنه يمكن عن طريق الدقة والحزم الاخوي الحصول على عمل ممتاز من بعض المرضى الذين في أقصى حالات الاضطراب العقلي .

ان العمل في مثل هذه المؤسسة يمكن أن يكون له شأن، طالما باشره المسؤولون كأنما بقوة داخلية تحفزهم ، شاعرين أنه مجال اهتمامهم الشخصي الخاص ، كما فعلت الرئيسة ، وطالما كان لديهم مساعدين متحمسين مثل روزي وجودي .
انني ادون هذا في مذكرتي حتى اظل اذكر دائما انه مهما كانت اضافاتي لروح الجرانج ، فلم يكن في مقدوري أن أستمع بدون السيدة الاولى ، والرئيسة وهاتين السابيتين . .

سبتمبر ١٩٥٦ .

كان التاسع من سبتمبر ، العيد السنوي الرابع لوصولنا الى الجرانج .
لقد أضحت رحلة اليومين في سيارة النقل والمساء الذي قضيناه بلا سقف يحميننا ذكرى شاحبة . هكذا كان وصولنا المؤلم عندما لم نجد أية استعدادات .
ولقد نسبنا تقريبا على أي نحو من العبوس انتزع الطبيب العجوز المسامر من حائط الحمام ، ونتذكر بالكاد الممرض الاسكافي وزميله ، وجوليوس جريم بسكينه وبقية المرضى المحذقين فينا . ما الذي تبقى منهم في الجرانج ، وما الذي أصبح عليه الآخرون ؟

لدى كراسة سميكة سجلت فيها أسماء وسمات المرضى الشخصية . وفي وسعي أن اقرأ مصير أربعمائة صديق وأنا أتصفحها .

ذكريات . . المستر بازوكي الذي أخطأت وحسبت أنه البستاني في اليوم الاول ، عبثا غادر الصديق المسكين الجرانج مشفيا واشتغل بجذ في مهنة حاذقة لمدة عام . كان يعيش الآن في احد الملاجئ ، مشلولاً لقد أصيب بصدمة . ورجع جوليوس جريم الى منزله ، ولم يعد يهدد أمه بسكين المطبخ . وعاد جو بروبريتيور الى منزله كذلك . مع بنادقه الستة والثلاثون . ولا يزال القديس جون المرتعش ها هنا ، يعمل صامتا في الحديقة ، كخادم . واحتفل سبنسر العجوز بالعيد السنوي الرابع لوصوله الى الجرانج . لقد جرب حظه في العالم مرتين ، ولكنه انتهى الى نتيجة مؤداها انه لن يشعر بثبات الارض من تحته الا في ورشة اصلاح الاحذية بالجرانج . وسرعان ما تقضي عام منذ تم تعيينه اسكافيا للمؤسسة وتمتع بحرية القفص الموه . وأقلع العم مايك عن عادة تسبيح الرب بلعنة طويلة عقب الغداء واقامة القداس الالهي فوق كومة من السباح ، لكنه لا يزال يطعم الخنازير في مثابة . ولقد تسلمنا من فورنا برقية تحية من ستيف (تلفراف) ، كان يعمل ساعيا للبرق في بودابست منذ ما يزيد عن عامين وكان قد بدأ يفكر في الزواج . وزارنا اليكس بارنوت بدافع الولاء ، آتيا من مزرعة الدولة حيث يعمل ، بالرغم من انه لا يزال عاجزا عن جمع ثلاثة الى اثنين . ولا زال فرانك كونت ، في مزرعة اخرى من مزارع الدولة ، كان يخاطب المرضى باعتباره « السيد الوكيل رئيس

الحسابات» ، ولا يزال يطالب بحقه في عشرين بنجوس يوميا بأثر رجعي منذ خمسة وعشرون عاما . وكان ماثيو صوت الثور يخيف الآن العاملين في مزرعة أخرى بخواره .

مضيت أتصفح الكتاب .

هيلين انكر ، الفنانة الشابة الوهوبة ، لقد عادت الى منزلها منذ عامين ، ترى شئون منزل والدها وتلقيت منها رسالة مؤخرا ، انها على ما يرام . لا زالت لوحاتها زينة الاستراحة في الجرائح . وكف جوتاف عن مسألة الحياة ، كان الآن مودعا بالزنازة ، ففي هذه المرة لم ينجح في حملهم على تحويله الى مستشفى الامراض العقلية . وكانت مسز ليزناي لا تزال مشغولة بأعمالها المنزلية الصغيرة كاجيرة في المنازل . وكانت تعود سكرانة قليلا حين تعكف في حجرتها ، لكن عملها لا غبار عليه . وخطب دينين القافز في البئر الممرضة ايلا وتزوجها دون ان يقفز الى البئر مرة أخرى . وقد أنما انجاب طفلهما الاول . وعاد لويس المتعدد المهن الى موطنه ببعض الاكتئاب ، كان يفضل الحياة هنا . فكان يعود من وقت الى آخر يشد الهدوء . وفي المرة الاخيرة قام بالدعاية لاستوديو التصوير الفوتوغرافي في نوتنجهام ، والقى على الرضى سلسلة من المحاضرات الموضحة بالفاوانس السحري . وبدأ العم ريبورتر يتقبل فكرة عدم نشر كتابه عن الجنون الان ، وقضى الشتاء في مؤسسة أفضل تدفئة ، ولكننا تلقينا رسالة منه في الربيع تعلن ان «الجوال سوف يعود» . وطردها مارتين كيمست الذي كان يفيض بالمشروعات العظمى والقدر كعادته . واستطاع ان يصمد ازاء الحياة بعض الوقت ، لكنه عاد وقرر انه من الافضل ان يخلد الى الراحة في مصحة عقلية وكان من المدهش بما فيه الكفاية ، ان يعمل بيتر مارتير على ما يرام في احدي مزارع الدولة لمدة طويلة ، ولقد تسلمه والده فيما بعد ، ليستأنف دراساته الموسيقية ، ولم أسمع شيئا عنه بعد ذلك . لم اكن أثق في شفائه . ولا زال والدي القيصر بطرس العاشر يكتبان الينا ، وكذا والدي بول كينسكي (زار نابول مرتين) ، وتم تحويل روزي ما شيت ، والقديسة اليزابيث ، من ناحية أخرى الى مؤسسة مغلقة ، وعبثا كان عملهم الجاد عندنا . ولا يزال امير الحزن يقاوم الميكروبات بنفس الحماس السابق . ويكتب في نفس الوقت بعض القصائد عرضا ، مثل :

عبد عجوز أنا ، لأحزاني وتنهدي ،

خادم الحزن المفضل ،

مكتئب دائما يطعنه الالم

في هذا العالم التعس الباعث على الأسف

روحي المريضة تبحث دائما عن قرين

عن روح أخرى تهيم في هذا العالم

العبوس البارد ، المجهول ، لها نفس المصير

انني كسحابة المساء

أشعر كأنني أبكي ، عاجزا عن المقاومة

شحاذ حطمته ساعات الماضي المحزنة

اتيت من الايام الميتة ، المفطاة بالتراب جميعا

قد اعيش اياما آخر ، او قد تكون هذه هي النهاية !..

انني اقف في الليل الازرق المخضر

كيتيم عاجز ينشد الضوء

عمن من الاصدقاء اتحدث ؟ لقد ظلت ايرما سلندر المتعددة الخطاب بدون
خطيب منذ رحيل اولد تيننت . وتعودت تدريجيا على هذه الحال ، ولم تعتربها
نوبة صرع طيلة ستة اشهر . (علما بأنها - والكلام موجه للمستتر رادار - لم تتلق
علاجا جنسيا) . واصبح كوتسورني العجوز ميكانيكيا وبطلا للشطرنج في احد
المؤسسات الخيرية . واخذ والدا جورج تيتشر ابنهما الى المنزل ولكنسه ضرب
والده بعد اسابيع قلائل ، واعيد مرة اخرى الى مؤسسة مغلقة . ومن ناحية اخرى
يعيش ستيف هستوريان في منزله منذ عام ، وقد استعاد صحته كاملة ، وربما
لم يصب بأية انتكاسات . واصبح تاتي العجوز اكثر هدوءا ، ولكنه من وقت الى
آخر لا يزال يكرر شكواه من اولئك الذين سجنوه . وأصر احد المسجلين من
المدينة على مقابلة ستيف آبل شخصا ليسلمه ورقة طلاق زوجته فأخذ ستيف
آبل الذي كان مختلا تماما ، الوثيقة ولم يصنع بها شيئا مجنونا ، كأن يضعها على
رأسه ، وانما قرأها جميعا ، بصوت مرتفع وملحن ، بما في ذلك أرقام السجل،
ثم أعلن لدهشتنا الفائقة ، بصوت عادي انه فهم محتوياتها . كان امرا يدعسو
للأسف ، فلقد ذكر ان زوجته رغبت الان في طلاقه وهو مريض ، بعد ان كانا
يحبان بعضهما حبا شديدا . ثم عاد يتحدث ثانية بصوت مفاير : «لعلها تريد ان
تزوج ثانية ؟ هذا امر لا يهمني ونستطيع الطلاق ، وفي وسعي ان أتزوج ثانية
كذلك . وعلى كل حال ، لقد خلق الناس ليعيشوا أزواجا ، كالحوانات اليس
كذلك؟» وضحك بطريقة أشبه بضحكات مجنون في إحدى الميلودرامات الرخيصة.
وكان لدينا مريض آخر وصلته ورقة الطلاق ، ذلك هو فيكتور وايتز . جاءنا
مريضا بالهلاوس تعذبه الوسواس . احضره مرافق «حذر» من بودابست مقيدا .
وشفي من جنونه امام اعيننا كما لو كان انفلونزا . ولكن عندما سلمته برقية زوجته
التي تخبره فيها بعزمها على طلاقه وعدم السماح له بدخول الشقة ثانية ، أغبر
وجهه فيكتور . ولم يصدق الامر في البداية . ولكن بعد محادثة تليفونية ، صدق
الامر وعلى مدى يومين عاد يهلوس هلوسة رجل مجنون . ولا ريب ان شيء مشابه
سبق ان حدث لجون محطم الاحواض التي اقنعت زوجته بكتابة محتويات الشقة
الضئيلة التي اقتناها بعمله الشاق باسم ابنته . ثم خدعته ، وطلقت منه واخذت
الفتاة والممتلكات . واعيد جون محطم الاحواض ثانية الى إحدى المصحات العقلية،
وأحيانا ، في المساء ولاسباب لا يعرفها هو نفسه - كان يحطم كل شيء يقع تحت
يده الى قطع صغيرة ، كمجنون . واهتم عندنا بأحد أحواض الفسيل وسخان

انتزعه من الحائط . ثم انتابه الهدوء ، فصنع السلال وغرس الزهور ،
كنت أتصفح كتابا يضم اربعمائة مصر ، من النجاحات والفشل . ولا يمكن
أن يوجه لنا اللوم بالتأكيد لاننا لم نستطع ان نجعل الاربعمائة مريض يتماثلون
للشفاء . ولا كان هذا ما تعاقدت عليه . ومع هذا فلقد قدمنا لهم وقدمنا لانفسنا
شيئا - العمل والمتعة ، والبيت الصدوق ، والكلمة الحانية ، والاسرة الطيبة ،
والقفص الموه - شيئا يشبه الحرية ، والسلام ، والهدوء من بعيد ، «مصححة»
للحكماء ، والشعراء والرسامين كما كتب آدي .
كان هناك سجلا للزوار كذلك . تضمن كلمات من اقارب المرضى ومن الزوار
اعضاء المهنة .

وأرادت ثابتان عطوفتان كن في زيارة اختهما ، وهي شابة ثالثة ، أن يقدمن
لي بقشيشا اقتطعه من مصاريف المدرس التي جمعوها ، كما اردن اعطاء بقشيش
للممرضات وجميع الناس كذلك ، نظرا لانه على ضوء خبرتهما السابقة كان ذلك
امرا ضروريا . . . وذكرنا انهما اعتادا ان تصلهما رسائل من الممرضات في المصحات
العقلية الاخرى ، يكتبن فيها ان كارولين بحاجة الى هذا او ذاك ، ومن ذلك انهن
طلبوا مظلة مرتين - والسما وحدها تعلم ما الذي حدث للمظلة التي طلبتها
كارولين ، ولماذا طلبتها ، وهي لا تخرج من المصححة . اما الان فانها كانت تخرج
وزاد وزنها ، واصبحت هي التي تأكل محتويات الطرود التي تتلقاها . واعتذرت
لي الأختان والدموع . في اعينهما ، وارادتا تقبيل يدي ، وخاطبتني بلقب صاحب
السعادة ، وكتبتا في سجل الزوار بعاطفية العصور الغابرة :
«لو كنا شعراء ، لكتبنا قصيدة ، ولو كنا مثالين لنقشنا على الحجر كيف
يعني بالمرضى وبأي ضرب من الحب الكريم يعاملون هنا . . .»
وترددت أخت ليزلي حامل الجبال طويلا قبل ان تجرؤ على زيارة اخيها ،
وعندئذ كتبت :

«حين سأعود مرة اخرى ، سأشعر انني اعود الى منزلي» .
وكتب طبيب عقلي يشرف على احد اقسام العقول في بودابست :
«لقد جئت الى الجرانج متوقعا ان ارى معجزة ، وعادة ما يخيب أمل المرء في
مثل هذه المناسبات ، ولقد خاب أملنا حقا . فبدلا من «المعجزة» وجدت
«الحقيقة» . . . ان هذا هو اكبر ما استطاع ان يحصل عليه المجنون من المجتمع
منذ العصور القديمة - المجتمع الخاص» .
وكتبت زوجة احد اطباء العقول بعد ان شاهدت الكثير :
«هذا هو حيث وربما بدرجة اكبر كذلك كيف أحب ان اعيش» .
وكتبت احدى المشتغلات بعلم النفس :

«منذ زرت المكان وانا أعجب ليس في الامكان مساعدة الاصحاء . . .»
وهكذا ، تعليق وراء آخر . امهات وازواج واخوة وأخوات ، واطباء ومعالجين
مهنيين ، وعلماء نفس ، واصدقاء وزوار ، مجهولون . أسلوب طيب ، واسلوب
رديء ، هجاء صحيح وجمل خاطئة مبتذلة ، انسياب متدفق او استبصار

فردى - ولكنها تؤدي جميعا نفس الرسالة .

أكتوبر ١٩٥٦

غدت الحياة رصينة هادئة مسالمة . لم نعد نرسل المرضى المتماثلين للشفاء الى منازلهم او الى مزارع الدولة ، فلقد تعلمنا ان مكانهم هنا ، وان علاجهم لن يصح الا هنا . وجعل هذا من المصلحة مؤسسة ابوية . كل شخص عضو في الاسرة ، عطوفين على بعضهم بعضا ، غفورين لضعف بعضهم بعضا ، لم نعد نرغب في تأكيد اي شيء او محاضرة اي مخلوق ، نريد ان نعيش مع المرضى في سلام وحريسة فحسب . وفهم المرضى هذا ، وكذلك الممرضات . تسبب السيكوباتيين الذين تم تعيينهم في مختلف الوظائف في بعض المشاكل - لكن رجنا بهذا التنوع . كان الامر اشبه بتجربة صفيرة نحو انشاء «مدينة السيكوباتيين» ولكننا خرجنا بخبرة غريبة مؤداها ان «التعيين» لا يفيد السيكوباتيين بالضرورة . ومن ناحية أخرى كان يوجد ثمة سيكوباتيين مستترين بين الموظفين ، اناس لم يأتونا مرضى - ولكنهم يسببون من المشكلات اكثر مما يفعل السيكوباتيون «المعتمدون» . لا يعتبر السواء او المرض محطا لصلاحية الموظف ، وانما على المؤسسة الانسانية ان تجد او تربى موظفين انسانيين . وهذا لم يكن سهلا على الدوام .

كذلك كان من الواجب بالطبع تدريب المرضى على ان يكونوا انسانيين ، وهذا ليس بالامر السهل كذلك . ولكنه ليس شديد الصعوبة ايضا . ذات صيف تم ارسال مريض الى الجراح بسبب وقاحته وعدم تعاونه . فلم نصنع شيئا لنفیر منه . كان يكفيه ان يتنفس الهواء في الجراح بضعة اسابيع قليلة ، حتى تغير . لم يسمع منه احد كلمة وقحة لعدة شهور . وأصبح شغوبا راضيا ، شاكرا السلام ، والرصانة والجمال الذي يحيط به .

وكان هذا نفس ما حدث للآخرين . توجد المشاجرات في اي مجتمع وكذلك وجدت لدينا ، لكن كان المرضى عادة يلزمون المتشاجرين اماكنهم . ونشأ ضرب غريب من الاعتزاز بالمؤسسة . لقد اعتزوا بأنهم استطاعوا ان يتواجدوا هنا ودافعوا عن روح المكان .

واقبل مرضانا بخاصة على برامج التسلية في فترة بعد الظهر واصبح للحلقة الادبية جذورا . وكان هناك عرض او محاضرة للمرضى كل ثلثاء وخميس وسبت ، وكانت السينما في ايام الاحاد . وكنت أقدم المحاضرة بنفسى ايام السبت . وتجمع تسعون في المائة من المرضى لهذا الغرض ، وكان الناس يأتون من القرية كذلك . تحدثت عن كلاسيكيات الادب العالمي . ومع بعض المساعدة البسيطة وضعت خمسة مسرحيات ذات فصل واحد تستغرق تسعون دقيقة . ونجحنا نجاحا ملحوظا مع «سيرانو» و«هاملت» و«تراجيديا الانسان» .

«انني اعرف اسمك» هكذا قال احد المشاهدين لي في اليوم التالي على العرض ، ثم استطرد قائلا : «انك العم هاملت ! فلديك قلعة على شاطئ البحر،

قلعة حقيقية ، أليس كذلك» .

واستمر بعد ذلك يدعوني العم هاملت ويدعو السيدة الاولى العمة هاملت .
وتقبلت اللقب الجديد بسرور ، بالرغم من انني ، لسوء الحظ ، لم تكن لديّ قلعة
جميلة على شاطئ البحر ، لكن شخصية وفلسفة هاملت كانا قريبين الى قلبي .
«يعاني نبل العقل من قذائف وسهام الحظ المكدود . .» وما اكثر المرات التي
سألت نفسي فيها سؤال هاملت المألوف !

اصبحت الامور محتملة الان . وبدا كان سوء الحظ قد ابتعد عن طريقي .
كان هناك دائما بالطبع ما فيه الكفاية من المتاعب ، مع الوكيل البقال وسيارتنا
التي تحطمت نهائيا ، لكن كان هناك ثمة تحسن كذلك ، وامل في التطور . ووعدنا
المجلس البلدي بالارض . وربما يصبح في امكاننا انشاء مزرعة دولة خاصة بنا ،
مستعمرة للمرضى تقوم على الاكتفاء الذاتي . وكان هناك حديث عن قلعة اخرى
مجاورة تضم لمؤسستنا ، وتزود بسبعين سريرا آخرين . ومنذ حصل الطبيب
العجوز على درجة علمية في الطب العقلي في سن الثانية والسبعين ، اتسعت
سلطته في الجرانج . واعيد حفظ النظام ، وغدت روح الجرانج اكثر قوة . وكان
يتم بناء مصحة جديدة جميلة في ايجر ، بشمال المجر ، لتنمي من روح الجرانج
على نحو اكبر ، على حين تم انشاء اول مستعمرة على نطاق واسع للعلاج المهني
في بوميز .

بدا كل شيء على وشك ان يتطور . وانتصر اسلوب الحرية والعمل الهادئ
وبدا ينشر .

لكن الاحداث اخذت مجرى غير متوقع ، تدخل التاريخ ، ولم يتحمل القفص
المموه اضطرابات عام ١٩٥٦ .

فهرست

٥	تصدير بقلم الدكتور أحمد عكاشة
٨	مقدمة المؤلف
١١	مقدمة الطبعة الانجليزية

الجزء الاول

١٤	الفصل الاول : انتصار
٣١	الفصل الثاني : اجتماع
٤٣	الفصل الثالث : المتعات الاولى
٥٥	الفصل الرابع : الربيع الاول
٦٣	الفصل الخامس : مزيد من المتاعب مع مزارع الدولة
٧٩	الفصل السادس : طلاء القفص بالذهب
٩٣	الفصل السابع : طلاء بلا جدوى
١١٧	الفصل الثامن : الاستمتاع بالحياة
١٤٦	الفصل التاسع : كشف الحساب

الجزء الثاني

١٧٤	الفصل الاول : تاريخ العلاج بالعمل
١٩٦	الفصل الثاني : الفصام

٢٤٢	الفصل الثالث : الصرع
٢٦٠	الفصل الرابع : الهستيريا والنيوراستينيا والعصاب
٣٠٨	الفصل الخامس : مدمنو الكحول والمشاكسون والمحتالون
٣٣٠	الفصل السادس : وجهة نظر الجرانج في الجنون
٣٤٢	الفصل السابع : ختام